رسائل جامعية (٣٩)

الثَّباتُ عَلَى دِينِ اللَّهِ

وَأثَرُهُ فِي حَيَاةِ المُسْلِمِ

فِي ضَوْءِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

تأليف

الدكتور الأمين الصادق الأمين

المجلد الثاني

دار ابن الجوزي



قال الله تعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]

عَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانِ الكِلابِي رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إلّا بَيْنَ أصْبَعَينِ مِنْ أصَابِعِ الرَّحْمٰنِ إنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإنْ شَاءَ أزَاغَهُ». وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

الثَّبَاتُ عَلَى دِينِ اللَّهِ

وَأَثَرُهُ فِي حَيَاةِ الْمُسْلِمِ

فِي ضَوْءِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

أصل هذا الكتاب رسالة جامعية تقدّم بها الباحث لنيل درجة الدكتوراة من جامعة أم القرى بمكة المكرمة بإشراف الاستاذ الدكتور محمد رياض بن سيد أحمد قناوي وقد حازت على تقدير امتياز وشهادة تفوق.

الطَّبعَة الأولى

١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام. شارع ابن خلدون. ت: ٨٤٢٨١٤٦ . ٨٤٦٧٥٨٩ . ٨٤٦٧٥٩٣،
ص ب: ٢٩٨٢ . الرمز البريدي: ٣١٤٦١ فاكس: ٨٤١٢١٠٠ . الرياض. ت: ٤٢٦٦٣٣٩ . الإحساء . الهفوف
. شارع الجامعة. ت: ٥٨٨٣١٢٢ . جدة. ت: ٦٥١٦٥٤٩ . ٦٨١٣٧٠٦ . بيروت. هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
. فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ . القاهرة. ج.م.ع. محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ . تلفاكس: ٠٢٢٥٦١٤٧٣
البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.jwzi.com

الفصل الثّالث

حقيقة الجهاد والحكمة من تشريعه

إنّ الجهاد في الإسلام له حكم عدّة، وأهداف سامية تبرز من خلالها أهميّة هذه الفريضة العظيمة، إذ الجهاد في الإسلام ليس قتالاً أهوج همّه أن تسفك فيه الدّماء وتغتصب فيه الحقوق، وإنّما هو قتال شرع ليحقّق غايات عظيمة، وأهدافاً رفيعة. ولمّا غابت تلك الأهداف عن أذهان كثير ممّن ينتسب إلى الإسلام بسبب البعد عن فهم حقيقة الجهاد والغاية منه، حلّت مكانها أهداف حابطة، وغايات رخيصة أشعلت لأجلها نيران الحروب. ففئة تقاتل من أجل وطنها، لا أرض الإسلام، وأخرى لأجل القوميّة[1]، لا وحدة المسلمين، وثالثة لأجل المصالح الاقتصاديّة، أو لحفظ التّوازن العالمي، أو التّنافس من أجل السّيطرة والهيمنة، ونحو ذلك.

ومن يقاتل باسم الجهاد شوّهت في قتاله صورة الجهاد الحقّة، فظنّ أنّ الجهاد سفك للدّماء، وإحداث للفوضى في الأرض، يحمل أحدهم أداة تفجير فيفجّرها في نفسه ومن حوله زاعماً أنّ ذلك جهاد في سبيل الله، وتتجمّع فئة من الأحداث في بقعة ما، يدفعهم التّسرّع، وتستحثّهم العجلة، وليس لهم هدف إلّا إزالة سلطان جائر، أو القضاء عليه. كلّ ذلك باسم الجهاد، ممّا جعل الجهاد في نفوس الكثيرين ـ حتّى من المسلمين ـ مسخاً مشوّهاً تصك الآذان

(١) القوميّة: يراد بها: الاجتماع والتّكاتف لتطهير البلاد من المستعمر، وتحصيل المصالح المشتركة، واستعادة المجد السّليب. وعناصرها: الوطن والنّسب واللّغة، ولا يدخل في ذلك الدّين. وهدفها: فصل الدّين عن الدّولة، وإقصاء أحكام الإسلام عن المجتمع، وإطلاق الحريات للنّزعات الجنسية، والمذاهب الهدّامة. وانظر: نقد القوميّة العربية على ضوء الإسلام والواقع، للشّيخ عبد العزيز بن باز، ص:٨ ـ ١٠، طبعة المكتب الإسلامي.

عند السّماع به، وترتجف القلوب عند ذكره. ووجد أعداء الله في ذلك سانحة لهم، يكيلون من خلالها الشّتائم للإسلام وأهله، ويبالغون في تشويه صورة الجهاد بإثارة العبارات المغرضة الّتي لا تميز بين المحقّ والمخطئ، فيوصف الجميع بالتّطرّف والتّزمّت، والأصوليّة المنفّرة، ومصاصي الدّماء.

وتبرز في مقابل ذلك عبارات رنّانة، همّها القضاء على الجهاد في نفوس أبناء الإسلام، مثل: الدّعوة إلى السّلام العالمي، والتّعايش السّلمي، والمجتمع الدّولي الموحّد، واحترام حقوق الإنسان، والأمن الشّامل، وغير ذلك.

ونحن لا نظنّ في يوم ما أن يرضى أعداء الله عن جهادنا، ولكن يجب أن نسلك المسلك الحقّ بعيدين عن التّهوّر والعجلة، مع إدراك حقيقة الجهاد وأهدافه.

فالجهاد شُرع لأجل أن يحقّق أهدافاً متعدّدة، يجني ثمارها أهل الإيمان خاصّة دون سواهم.

من تلك الأهداف:

١ ـ الهدف الأسمى والغاية العظمى أن يعبد الله وحده في الأرض، ويزول الشّرك ويندثر، ويغيب الكفر وينطمس، تتهاوى أركانه وينهدّ بنيانه، فلا يبقى إلّا التّوحيد الخالص والعبوديّة لله. وهي الغاية الّتي خلق الخلق من أجلها كما قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولذا أمر سبحانه أن يقوم سوق الجهاد حتّى تتحقّق تلك الغاية، فقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]، وقال: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩].

يقول ابن جرير رحمه الله:

«يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ: وقاتلوا المشركين الّذين يقاتلونكم، حتّى لا تكون فتنة، يعني: حتّى لا يكون شرك بالله، وحتّى لا يعبد دونه أحد، تضمحل عبادة الأوثان والآلهة والأنداد، وتكون العبادة والطّاعة لله وحده، دون

غيره من الأصنام والأوثان»[1].

وفي الحديث قال ﷺ: «أمرت أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا لا إله إلّا الله...» الحديث[2]. وقال ﷺ: «بعثت بين يدي السّاعة بالسّيف حتّى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي، وجعل الذّل والصّغار على من خالف أمري»[3].

ولمّا سأل رستم ربعي بن عامر رضي الله عنه عن سبب مجيئهم لقتال الفرس، قال ربعي: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام...» إلخ ما ذكر[4].

وبتحقيق هذه الغاية يظهر دين الله على سائر الأديان، ويسود جميع الأرض، فلا يبقى بيت وبر ولا مدر[5] إلّا دخله بعزّ عزيز أو ذلّ ذليل[6]، كما

---

(١) جامع البيان: ٢/ ١٩٤. وانظر: ٩/ ٢٤٨. وانظر، معنى الآية في: أحكام القرآن لابن العربي: ١/ ١٠٩. التّفسير الكبير: ٥/ ١٣٣، ١٥/ ١٦٣ ـ ١٦٤. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٤١. فتح البيان: ١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٨٢.

(٢) الحديث: سبق تخريجه. انظر: ص: ٥٧١.

(٣) سبق تخريجه انظر: ص٥٧٠.

(٤) البداية والنّهاية: ٧/ ٣٩ ـ ٤٠. وكان ذلك في حرب القادسيّة عندما ابتعثه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى رستم قائد الفرس، وقد سبق ذكره. انظر: ص: ٤٢٣، ٦٢٢.

(٥) بيت وبر: أي ما صنع من وبر الإبل، وهي بيوت أهل البوادي. انظر: النهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٤٤. المدر: جمع مدرة، وهو الطين، والمراد ببيت المدر ما صنع منه وهي بيوت أهل القرى والأمصار.
وانظر: النهاية في غريب الحديث: ٤/ ٣٠٩.

(٦) عن تميم الدّاري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ اللّيل والنّهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلّا أدخله الله هذا الدّين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، عزّاً يعزّ الله به الإسلام وذلاً يذلّ الله به الكفر». وكان تميم الدّاري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشّرف والعزّ، ولقد أصاب من كان منهم كافراً الذّل والصّغار والجزية». مسند أحمد: ٤/ ١٠٣. وانظر: ٤/ ٦. سنن البيهقي: ٩/ ١٨١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان: ١٥/ ٩١، ٩٣. مستدرك الحاكم: ٤/ ٤٧٦، ٤٧٧. معجم الطّبراني الكبير: ٢/ ٥٨، ٢٠/ ٢٥٤، وهو=

قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ۝٣٣﴾ [التوبة: ٣٣][1].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فيظهره ظهورين: ظهوراً بالحجّة والبيان والدّلالة، وظهوراً بالنّصر والظّفر والغلبة والتّأييد. حتّى يظهره على مخالفيه، ويكون منصوراً»[2].

والجهاد لا يكون حقيقة، والمجاهد لا يكون مجاهداً إلّا إذا قصد بجهاده إعلاء كلمة الله دون التفات إلى حظّ دنيوي أو غاية عاجلة. ولذا لمّا سئل رسول الله ﷺ في حديث أبي موسى رضي الله عنه عن الرّجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميّة[3]، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[4].

= حديث صحيح. انظر: السّلسلة الصّحيحة: ١/ ٧، برقم: (٣). وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٤٦.

(١) وانظر: سورة الفتح: الآية: ٢٨، وسورة الصّف: الآية: ٩.

(٢) مدارج السّالكين: ٣/ ٤٧٠. الضّوء المنير: ٥/ ٤٠٦. وانظر: الجواب الصّحيح: ١/ ٧٥. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٩٥ ـ ٢٩٦. ذكر فيه كلاماً قيّماً عن ظهور الإسلام. في ظلال القرآن: ٣/ ١٦٤٤.

(٣) الحَمِيَّة: هي الأنَفة والغَيْرة. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٤٧.

(٤) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١﴾ [الصّافات: ١٧١]: (٢٨)، برقم: (٧٤٥٨)، ص: ١٥٦٧، ونحوه في: كتاب العلم: (٣)، باب من سأل وهو قائم عالماً جالساً: (٤٥)، برقم: (١٢٣)، ص: ٤٥، وفي كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا: (١٥)، برقم: (٢٨١٠)، ص: ٥٩٤، وفي كتاب فرض الخمس: (٥٧/ ٣٣)، باب من قاتل للمغنم هل ينقص من أجره: (١٠)، برقم: (٣١٢٦)، ص: ٦٥٨.
صحيح مسلم، بلفظه وبنحوه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله: (٤٢)، برقم: (١٩٠٤)، ٣/ ١٥١٢ ـ ١٥١٣.
وانظر معنى الحديث في: شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٤٩. فتح الباري: ٦/ ١٠٨ ـ ١١٠. نيل الأوطار: ٨/ ٣٣.
وانظر: مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٥٤. السّياسة الشّرعيّة، ص: ١٤٤. الرّوضة النّديّة: ٢/ ٤٨١. فقه السّنّة: ٣/ ٢١ ـ ٢٢. =

٢ ـ قتل الكفّار وإذلالهم وتعذيبهم، وإعزاز المؤمنين ونصرهم.

قال سبحانه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥﴾ [التوبة: ١٤ ـ ١٥].

أي قاتلوا أيّها المؤمنون الكفّار لتتحقّق لكم بقتالهم فوائد جمّة، وأهداف عظمى، فيعذّبهم الله بأيديكم، تارة بالقتل وأخرى بالأسر، وثالثة بأخذ أموالهم، ويذلّهم بالأسر والقهر، ويعطيكم الظّفر عليهم والغلبة، ويبرئ داء صدوركم، ويذهب وجد قلوبكم[1].

وهو بذلك سبحانه يعزّ دينه وينصر أولياؤه، ويبطل الكفر ويمحق أهله، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال: ٧ ـ ٨][2].

وقال ﷻ: ﴿لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ١٢٧ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ١٢٨﴾ [آل عمران: ١٢٧ ـ ١٢٨].

= يقول سيّد قطب رحمه الله:
إنّه القتال لله، لا لأيّ هدف آخر من الأهداف الّتي عرفتها البشريّة في حروبها الطّويلة، القتال في سبيل الله، لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغانم والمكاسب، ولا في سبيل الأسواق والخامات، ولا في تسويد طبقة على طبقة، أو جنس على جنس، إنّما هو القتال لتلك الأهداف المحدّدة الّتي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام، القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإقرار منهجه في الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضّلال والفساد، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام». في ظلال القرآن: ١/ ١٨٧.

(١) انظر: جامع البيان: ١٠/ ٩٠ ـ ٩١. الكشّاف: ٢/ ١٢٨، طبعة: الاستقامة. التّفسير الكبير: ١٥/ ٢ ـ ٤. فتح البيان: ٥/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٠٨٣ ـ ٣٠٨٤. تفسير المراغي: ١٠/ ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) انظر معناهما في: الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٧٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٥٦.

أي ليهلك طائفة منهم، أو يخزيهم بالهزيمة فيرجعوا منقطعي الأمل من النّصر[1].

كلّ ذلك لأنّ الكافر سرطان مدمّر، وجرثومة فتّاكة، وعضو فاسد في المجتمع، وشرّ مستطير، ومنبع للإفساد والإهلاك، لأنّه عزل نفسه عن الإيمان الّذي تكمن فيه الحياة الحقّة، والسّعادة الدّائمة، والخيريّة المطلقة، فيجب أن يستأصل أو يقهر ويذلّ إن لم يخضع للإسلام.

وأعداء الله ﷻ لا تنطفي نار عداوتهم ولا يخمد لهيبها في محاربة الإسلام وأهله بكلّ وسيلة تمكّنهم لذلك، إذ العداء لدين الله أصيل في نفوسهم، مستحكم في قلوبهم، كشف الله عنه في أكثر من آية[2]. فيجب على أهل الإيمان أن يبذلوا غاية جهدهم في قتال هؤلاء وإذلالهم، لأنّ بقتالهم ينكفّ شرّهم، وتضعف قوّتهم، وينهدّ عزمهم، كما قال سبحانه: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء: ٨٤][3].

٣ ـ الجهاد سبب عظيم في دفع شرّ الأشرار وفساد الفجار، فبه يزول شرّهم، ويندحر فسادهم، ولو تركوا لبغوا في الأرض، وتغلّبوا على أهلها، وأحدثوا الشّرور الّتي تهلك الحرث والنّسل.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٩٨. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٠٢. تفسير المراغي: ٤/ ٦٠.

(٢) انظر: سورة البقرة: الآيات: ١٠٥، ١٠٩، ١٢٠. وانظر: سورة آل عمران: الآيات: ١١٨ ـ ١٢٠. سورة التّوبة: الآيات: ٨ ـ ١٣، لسيّد قطب ﷺ عند تفسير هذه الآيات من سورة التّوبة كلمة كاشفة لعداوة الكفّار للمؤمنين والطّعن في دينهم. انظر: في ظلال القرآن: ٣/ ١٦٠٦.

(٣) وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ٥/ ١٨٥. التّفسير الكبير: ١٠/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٢٩٤. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٠٥. فتح البيان: ٣/ ١٩٠. محاسن التّأويل: ٥/ ١٤١٧. تفسير المراغي: ٥/ ١٠٧. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٥٤.

وفـــي ذلـــك يـــقـــول ﷻ: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥][1].

وقـال سـبـحـانـه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

يقول الإمام القرطبي رحمه الله:

«أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشّرك، وعطّلوا ما بنته أرباب الدّيانات من مواضع العبادات، ولكنّه دفع بأن أوجب القتال ليتفرّغ أهل الدّين للعبادة، فالجهاد أمر متقدّم في الأمم، وبه صلحت الشّرائع واجتمعت المتعبّدات... أي لولا هذا الدّفع لهدم في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصّوامع والبيع، وفي زمن محمّد ﷺ المساجد»[2].

---

(١) انظر: فتح البيان: ٢/ ٨٢. محاسن التّأويل: ٣/ ٦٤٩. تفسير المراغي: ٢/ ٢٢٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٩٠. وفي الآيات أقوال أخرى فيما يدفع الله به الشّرور استقصاها الرّازي رحمه الله ووجّه كلّ قول، ثمّ حملها على العموم. انظر: التّفسير الكبير: ٦/ ١٩٠ - ١٩٢. ورجّح القرطبي رحمه الله أنّ المراد بالدّفع ما شرعه الله على ألسنة الرّسل من الشّرائع. انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٦١ ولا يخفى أنّ الآية وردت في سياق الجهاد. ـ انظر: الآيات قبلها ـ وإن فهم العموم فإنّ الجهاد أوّل داخل في ذلك.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٧٠. وفي الآية أقوال كسابقتها، وإن أفادت العموم في كلّ ما يندفع به الفساد والشّر فالجهاد يدخل دخولاً أوّليّاً.
والأشهر في هذه المواضع: أنّ الصّوامع معابد الرّهبان، والبيع معابد النّصارى، والصّلوات معابد اليهود، ويطلق عليها لفظ الكنائس أيضاً، كما أنّ المساجد للمسلمين.
ولأهل العلم بالتّفسير خلاف مستفيض في ذلك، والأشهر ما ذكرته، وانظر في بيان ذلك ومعنى الآية: جامع البيان: ١٧/ ١٧٤ ـ ١٧٨. الكشّاف: ٣/ ١٢٦، طبعة: الاستقامة. التّفسير الكبير: ٢٣/ ٢٩ ـ ٤١. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٧١. وفيه تفصيل قيّم عن تلك المواضع. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣. فتح البيان: ٩/ ٥٦ ـ ٥٧. محاسن التّأويل: ١٢/ ٤٣٤٦. تفسير المراغي: ١٧/ ١١٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٨٩.

٤ ـ الابتلاء حكمة تتأتّى من كلّ التّكاليف الشّرعيّة، وهي في الجهاد تبرز بوضوح وجلاء، ولذا أشار الله جل جلاله إليها مقرونة بالجهاد في أكثر من موضع.

فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ [محمد: ٤].

أي إنّ الله قادر على إهلاك الكافرين والانتقام منهم دون قتال، ولكنّه شرع الجهاد ليختبر عباده ويمتحن طاعتهم(١).

ويترتّب على هذا الاختبار حكم عدّة وفوائد جمّة:

فهو يظهر علم الله ويبرز معلومه في عباده بتحقّق طاعة الطّائعين الّذين جاهدوا في الله لإعلاء كلمته، كما يبيّن معصية العاصين الّذين نكلوا عن الجهاد، أو قاتلوا لغاية ما أو هدف ما.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيعلمهم علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتّب عليه ثواب ولا عقاب، وإنّما يترتّب الثّواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهداً واقعاً في الحس»(٢).

ونحو الآية السّابقة قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: ١٦].

---

(١) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ٢٦/ ٤٣. الكشّاف: ٣/ ٤٥٤، الطّبعة: التّجاريّة. التّفسير الكبير: ٢٨/ ٤٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٦٦. فتح البيان: ١٣/ ٥٣. محاسن التّأويل: ١٥/ ٥٣٧٧ ـ ٥٣٧٨. تفسير المراغي: ٢٦/ ٥٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٢٩ ـ ٧٣٠.

(٢) زاد المعاد: ٣/ ٢٢٣. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٥٤. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٧٧. محاسن التّأويل: ١٥/ ٥٣٩٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٣٤.

وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وفي الآية حكمة أخرى وهي تميّز المؤمنين المخلصين الصّادقين من المنافقين الكاذبين. أي ظننتم أيّها المؤمنون أن تتركوا بغير اختبار بجهاد يعرف به الصّادق منكم، المخلص في دينه، المجاهد لإعلاء كلمة الله، من المنافق الكاذب المقاتل لأجل الدّنيا، والمصالح الفانية(١).

وجاء ذلك صراحة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران: ١٦٦ ـ ١٦٧].

فالمنافقون في الرّخاء والسّعة والأمن يندسّون بين الصّف المؤمن طامعين في نيل مكاسب دنيويّة، حريصين على إخفاء نفاقهم، وقد يخفى أمرهم على أهل الإيمان، وهم عدوّ ماكر خبيث العداوة، فيكشفهم الله بالجهاد، فيبان عوارهم، ويفتضح أمرهم، إذ الجهاد موطن لإزهاق النّفوس والمنافق أحرص ما يكون على نفسه الّتي بين جنبيه.

وحكم أخرى بيّنها سبحانه في قوله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤١].

أي إنّ الله سبحانه من حكمته في الابتلاء بالجهاد أنّه يبرز معلومه إلى الوجود بصدق المؤمنين وإخلاصهم، ويكرم بعض عباده بالشّهادة في سبيله، وهي منزلة عالية يختصّ الله بها من يشاء من عباده، ولا سبيل إلى نيلها إلّا بواسطة الأسباب المؤديّة إليها كالجهاد في سبيله، ويمحّص عباده المؤمنين من

---

(١) انظر: جامع البيان: ١٠/ ٩٢. الكشّاف: ٢/ ١٩٨، طبعة: الاستقامة. التّفسير الكبير: ٦/ ١٥. فتح البيان: ٥/ ٢٥٠. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٠٨٤. تفسير المراغي: ١٠/ ٧٠.

وإن تنكّبت الطّريق، وتجنّبت الحقّ فسوف تظلّ في هذا الذّل والهوان إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

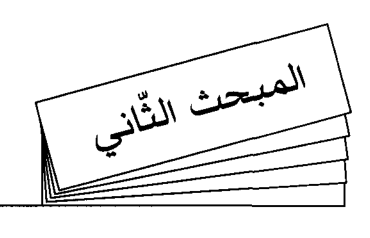
وترك الجهاد محرّم إلّا عند العجز[1]، بل لو امتنعت طائفة عن التزام جهاد الكفّار فوجب على أهل الإسلام قتالها، وإن كانت مقرّة به، حتّى ترجع إلى الصّواب، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء[2].

فالمؤمن الّذي يطّلع على هذه الآثار والعواقب النّاجمة من ترك الجهاد يدفعه ذلك إلى الثّبات والصّدق عند لقاء أعداء الله.



(١) انظر: الإكليل، ص:١٩٥.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٨/٥٠٣.



فضل الجهاد والتّرغيب فيه

لقد جاءت بعض الأحاديث عن المصطفى ﷺ تبيّن أنّ الجهاد في سبيل الله من أفضل الأعمال.

فعن أبي قتادة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه قام فيهم فذكر لهم: «أنّ الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال»، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفّر عنّي خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر...» الحديث(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دلّني على عمل يعدل الجهاد، قال: لا أجده، قال: هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجد فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟ قال: ومن يستطيع ذلك؟ قال أبو هريرة: إنّ فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ(٢) في طِوَلِهِ(٣) فيكتب له حسنات(٤).

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة: (٣٣)، باب من قتل في سبيل الله كفّرت خطاياه إلّا الدَّين: (٣٢)، برقم: (١٨٨٥)، ٣/ ١٥٠١.

(٢) لَيَسْتَنّ في طوله فيُكتب له حسنات: أي يَخْطُر ويمرح في حَبْله فيكتب له ذلك الاستنان حسنات.

انظر: الفائق: ٢/ ٢٠٣. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٢٩٢. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤١١.

(٣) طوله: الطِّوَل والطِّيَل بالكسر: الحبْل الطّويل يُشَدُّ أحَدُ طَرَفَيه في وتِد أو غَيره، والطّرَف الآخر في يَد الفَرس ليَدُورَ فيه ويَرْعَى ولا يَذْهَب لوجهِه. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ١٤٥. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٢٩٢.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب فضل=

فهذان دليلان يبيّنان أنّ الجهاد من أفضل الأعمال. وقد نصّ على ذلك جماعة من أهل العلم:

قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لا أعلم شيئاً من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد»[١].

قال صاحب المغني في بيان قول الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لأنّ الجهاد بذل المهجة والمال، ونفعه يعمّ المسلمين كلّهم صغيرهم وكبيرهم، قويّهم وضعيفهم، ذكرهم وأنثاهم، وغيره لا يساويه في نفعه وخطره، فلا يساويه في فضله وأجره»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والأمر بالجهاد، وذكر فضائله في الكتاب والسّنّة أكثر من أن يحصر، ولهذا كان أفضل ما تطوّع به الإنسان، وكان باتّفاق العلماء أفضل من الحجّ والعمرة، ومن الصّلاة التّطوّع، والصّوم التّطوّع كما دلّ عليه الكتاب والسّنّة»[٣].

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ **فيما نقله الحافظ ابن حجر** رَحِمَهُ اللَّهُ **عنه**:

«القياس يقتضي أن يكون الجهاد أفضل الأعمال الّتي هي وسائل لأنّ الجهاد وسيلة إلى إعلان الدّين ونشره، وإخماد الكفر ودحضه، ففضيلته بحسب فضيلة ذلك والله أعلم»[٤].

وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة جداً[٥].

فهذا عن فضل الجهاد، وأمّا عن فضل المجاهد فقد ورد في شأنه

= الجهاد والسّير: (١)، برقم: (٢٧٨٥)، ص:٥٨٨.

(١) المغني: ٨/ ٩٤٨.

(٢) المرجع السّابق: ٨/ ٣٤٩.

(٣) السّياسة الشّرعيّة، ص:١٤٢. مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٥٢.

(٤) فتح الباري: ٦/ ٨٠. وقول ابن دقيق العيد في كتابه: إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام: ١/ ١٣٢ ـ ١٣٣، طبعة: دار الكتب العلمية، مع زيادات في النّص.

(٥) انظر: المفهم: ٣/ ٧١٢ ـ ٧١٣. نيل الأوطار: ٨/ ٤١. محاسن التّأويل: ٥/ ١٤٨٥. فقه السّنّة: ٣/ ١٦. أهميّة الجهاد، ص:١٢١.

قوله ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أي النّاس أفضل؟ فقال رسول الله ﷺ: «مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله»، قالوا: ثمَّ من؟ قال: «مؤمن في شعب من الشّعاب يتّقي الله ويدع النّاس من شرّه»[1]. فالمجاهد أفضل النّاس.

ومن هنا يتبيّن أنّ الجهاد في سبيل الله أفضل أعمال التّطوّع على الإطلاق، وأنّ أهله القائمين به بحقّ هم أفضل النّاس، ولم يتبوّأ الجهاد هذه المنزلة من الفضيلة إلّا لما ورد فيه من أدلّة من القرآن والسّنّة في بيان عظيم ثوابه، وجزيل أجره، وعظم فضله، تفوق حدّ الحصر.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه، وهو ظاهر عند الاعتبار، فإنّ نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدّين والدّنيا، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظّاهرة، فإنّه مشتمل من محبّة الله تعالى، والإخلاص له، والتّوكّل عليه، وتسليم النّفس والمال له، والصّبر والزّهد، وذكر الله، وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر، والقائم به من الشّخص والأمّة بين إحدى الحسنيين دائماً، إمّا النّصر والظّفر، وإمّا الشّهادة والجنّة»[2].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب أفضل النّاس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله: (٢)، برقم: (٢٧٨٦)، ص:٥٨٩، ونحوه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب العزلة راحة من خلاط السّوء: (٣٤)، برقم: (٦٤٩٤)، ص:١٣٨١.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الجهاد والرّباط: (٣٤)، برقم: (١٨٨٨)، ٣/ ١٥٠٣.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في بيان معنى الحديث:

وكأنّ المراد بالمؤمن من قام بما تعيّن عليه القيام به ثمّ حصّل هذه الفضيلة، وليس المراد من اقتصر على الجهاد وأهمل الواجبات العينيّة، وحينئذ فيظهر فضل المجاهد لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى، ولما فيه من النّفع المتعدّي، وإنّما كان المؤمن المعتزل يتلوه في الفضيلة لأنّ الّذي يخالط النّاس لا يسلم من ارتكاب الآثام، فقد لا يفي هذا بهذا، وهو مقيّد بوقوع الفتن». فتح الباري: ٦/ ٨١.

(٢) السّياسة الشّرعيّة، ص:١٤٣ ـ ١٤٤. مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٣٥٣.

وهذه مجموعة من النّصوص الدّالة على ما في الجهاد من عظيم الأجر، وجزيل المثوبة:

أوّلاً: القرآن الكريم:

أ ـ قال سبحانه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٥ ـ ٩٦][1].

---

(١) أول الضّرر هم أصحاب الأعذار المبيحة للتّخلّف عن الجهاد، فهؤلاء يعطون مثل أجور المجاهدين إذا كانت نيّاتهم جازمة عازمة على عدم التّخلّف، وقيل: يعطون مثل أجر المجاهدين من غير تضعيف، فيفضلهم المجاهدون بالتّضعيف لأجل المباشرة، والأوّل أرجح لقوله ﷺ في حديث جابر: «إنّ بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلّا كانوا معكم، حبسهم المرض»، وفي رواية: «إلّا شركوكم في الأجر». صحيح مسلم، كتاب الإمارة: (٣٣)، باب ثواب من حبسه عن الغزو مرض أو عذر آخر: (٤٨)، برقم: (١٩١١)، ٣/١٥١٨. وانظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب من حبسه العذر عن الغزو: (٣٥)، برقم: (٢٨٣٩)، ص:٦٠٠، وكتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب: (٨١/ ٨٢)، برقم: (٤٤٢٣)، ص:٩٢١.

والحسنى: هي الجنّة، وقيل: الجزاء الجزيل، والمعنى واحد.

والدّرجات: منازل رفيعة في الجنة، وسوف يرد ذكرها في الحديث.

وانظر في معنى الآيتين: جامع البيان: ٥/٢٢٧ ـ ٢٣٢. التّفسير الكبير: ١١/٦ ـ ١٠. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٢٤٢. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٢٠ ـ ٨٢١. فتح البيان: ٣/ ٢١٠ ـ ٢١٣. محاسن التّأويل: ٥/ ١٤٨١ ـ ١٤٨٦. تفسير المراغي: ٥/ ١٢٨ ـ ١٣٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٥٨ ـ ١٥٩. أضواء البيان: ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦. وانظر: الضوء المنير: ٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨. الإكليل، ص:٨٠.

عن البراء ﷺ قال: لمّا نزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً فجاء بكتف فكتبها وشكا ابن أم مكتوم ضرارته فنزلت: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ....﴾ الآية [النّساء: ٩٥، ٩٦]: (٣١)، برقم: (٢٨٣١)، ص:٥٩٨. وانظر: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩) باب ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ...﴾ الآية [النّساء: ٩٥]: (١٨/ ١٩)، برقم: (٤٥٩٢، ٤٥٩٣، ٤٥٩٤)، =

ب ـ وقال تعالى: ﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة: ١٩ ـ ٢٢][1].

ج ـ وقال ﷻ: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢)﴾ [التوبة: ١١١ ـ ١١٢][2].

= ص: ٩٦١ ـ ٩٦٢، وكتاب فضائل القرآن: (٦٦/ ٤٠)، باب كاتب النّبي ﷺ: (٤)، برقم: (٤٩٩٠)، ص: ١١٠١ ـ ١١٠٢.

صحيح مسلم، كتاب الإمارة: (٣٣)، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين: (٤٠)، برقم: (١٨٩٨)، ٣/ ١٥٠٩. وانظر: لباب النّقول، ص: ٩٧.

(١) عن النّعمان بن بشير ﷺ قال: «كنت عند منبر رسول الله ﷺ، فقال رجل: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلّا أن أُسقي الحاجّ، وقال آخر: ما أبالي أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلّا أن أعْمُرَ المسجد الحرام، وقال آخر: الجهاد في سبيل الله أفضل ممّا قلتم، فزجرهم عمر، وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ. وهو يوم الجمعة، ولكن إذا صلّيت الجمعة دخلت فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله ﷻ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التّوبة: ١٩] الآية إلى آخرها.

صحيح مسلم، كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الشّهادة في سبيل الله تعالى: (٢٩)، برقم: (١٨٧٩)، ٣/ ١٤٩٩. وانظر: لباب النّقول، ص: ١٤٩.

وانظر في معنى الآيات: جامع البيان: ١٠/ ٩٦ ـ ٩٧. التّفسير الكبير: ١٦/ ١١ ـ ١٧. فتح البيان: ٥/ ٢٥٦ ـ ٢٥٧. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٠٨٩ ـ ٣٠٩٠. تفسير المراغي: ١٠/ ٧٧ ـ ٧٩. وانظر: طريق الهجرتين، ص: ٥٢٧ ـ ٥٢٨.

(٢) هاتان الآيتان رغّبتا في الجهاد بأبلغ وجه وأحسن صورة.

قال ابن كثير ﷺ: =

د ـ وقال جلّ في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ

= «يخبر تعالى أنّه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيله بالجنّة، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه، فإنّه قبل العوض عمّا يملكه بما تفضّل به على عبيده المطيعين له، ولهذا قال الحسن البصري وقتادة: بايعهم والله فأغلى ثمنهم».
تفسير القرآن العظيم: ٢/٦٠٨.
وقال ابن القيّم ﷺ:
«أقام سوق الجهاد في هذه الدّار في مدّة العمر الّتي هي بالإضافة إلى الآخرة كنفس واحد من أنفاسها، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة... وأخبر أنّ ذلك وعد مؤكّد عليه في أشرف كتبه وهي: التّوراة والإنجيل والقرآن، ثمّ أخبر أنّه لا أوفى بعهده منه سبحانه، ثمّ أمرهم أن يستبشروا بهذه الصّفقة الّتي من أراد أن يعرف قدرتها فلينظر إلى المشتري من هو، وإلى الثّمن المبذول في هذه السّلعة، وإلى من جرى على يديه هذا العقد، فأي فوز أعظم من هذا، وأي تجارة أربح منه؟». الجواب الكافي، ص: ٦٥. الضّوء المنير: ٦/ ٦٠ ـ ٦١. وانظر: زاد المعاد: ٣/ ٧٢ ـ ٧٥.
وقد تناول ﷺ هاتين الآيتين كاشفاً من خلالهما عن مكانة الجهاد وعظيم فضله، في أسلوب بديع مرغّب للنّفوس، مشجّع لها على الجهاد في كتابه حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ص: ٥٨ ـ ٥٩.
يقول جعفر الصّادق ﷺ:

أُثامن بالنّفس النّفيسة ربّها ... وليس لها في الخلق كلِّهمُ ثمن
بها تُشترى الجنّاتُ إن أنا بعتها ... بشيء سواها إنّ ذلكم غَبَن
لئن ذهبت نفسي بدنيا أصبتها ... لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثّمن

الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٦٨.
ثمّ ذكر سبحانه صفات المجاهدين الّذين استحقّوا الجنّة بتلك المبايعة، وهي على جهة الشّرط.
انظر: فتح البيان: ٥/ ٤٠٧.
والسّائحون هم الصّائمون، وإليه ذهب جمهور المفسّرين، وقيل: هو السّفر إلى القربات، وهو أعمّ.
وانظر في معنى الآيتين: جامع البيان: ١١/ ٣٥ ـ ٤٠. أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ١٠٠٦ ـ ١٠٠٨. التّفسير الكبير: ١٦/ ١٩٨ ـ ٢٠٧. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٦٧ ـ ٢٧١. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٠٨ ـ ٦٠٩. فتح البيان: ٥/ ٤٠٣ ـ ٤٠٩. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٢٧٢ ـ ٣٢٧٥. تفسير المراغي: ١١/ ٣٠ ـ ٣٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣١٠ ـ ٣١١. في ظلال القرآن: ٣/ ١٧١٩ ـ ١٧٢٠.

تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣][1].

هـ ـ وقال تبارك اسمه في ثواب الشّهداء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١][2].

---

(١) والآيات مرغّبات في الجهاد كسابقتها.
فقد ذكر سبحانه أنّ الإيمان بالله، والجهاد بالمال والنّفس في سبيله تجارة رابحة، فإنّ المجاهد ينال الفوز العاجل، والثّواب الآجل، فيظفر بالنّصرة في الدّنيا، والغلبة على العدوّ وأخذ الغنائم وكرائم الأموال، ويحظى في الآخرة بغفران الذّنوب، ورضوان الرّب، والكرامة في جنّات الخلود والإقامة، ولا فوز أعظم من هذا.
تفسير المراغي ٢٨/ ٨٩.
وانظر في معنى الآيات: جامع البيان: ٢٨/ ٨٩ ـ ٩٠. التّفسير الكبير: ٢٩/ ٣١٦ ـ ٣١٨. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥. فتح البيان: ١٤/ ١٢٢ ـ ١٢٤. محاسن التّأويل: ١٦/ ٥٧٩٣ ـ ٥٧٩٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٩٧ ـ ٧٩٨، وقد أفاد وأجاد رحمه الله في بيان هذه الآيات. أضواء البيان: ٨/ ١٨٣ ـ ١٨٦، وقد بيّن رحمه الله العلّة في تقديم المال على النّفس في آية الصّف، وتأخيره في آية التّوبة، فذكر أنّ المقام في آية الصّف مقام تفسير وبيان لمعنى التّجارة الرّابحة، والحاجة إلى المال هنا أعظم لأنّه عصب الحرب.
وأمّا آية التّوبة فهي في معرض الاستبدال والعرض والطّلب، وهو ما يسمّى بالمساومة، والنّفس أعزّ ما يملك الحي وأغلى ما يساوم بها في مقابلة الجنّة لأنّها أعزّ ما يوهب.

(٢) عن مسروق قال: سألنا عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك. فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطِّلَاعَةً، فقال: «هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيّ شيء نشتهي؟ ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات، فلمّا رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا ربّ نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتل في سبيلك مرّة أخرى، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تركوا».
صحيح مسلم، كتاب الإمارة: (٣٣)، باب بيان أنّ أرواح الشّهداء في الجنّة، وأنّهم أحياء عند ربّهم يرزقون: (٣٣)، برقم: (١٨٨٧)، ٣/ ١٥٠٢ ـ ١٥٠٣. =

ثانياً: الأحاديث النّبوية:

أ ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَضَمَّن الله[1] لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلّا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنّة، أو أرجعه إلى مسكنه الّذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة. والّذي نفس محمّد بيده ما من كَلْم[2] يُكْلَمُ في سبيل الله إلّا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم، لونه لون دم وريحه ريح مسك، والّذي نفس محمّد بيده لولا أن يشقّ على المسلمين ما قعدت خلاف سَرِيَّة[3] تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعة فأحملهم، ولا يجدون سعة، ويشقّ عليهم أن يتخلّفوا عنّي، والّذي نفس محمّد بيده لوددّت إنّي أغزو في سبيل الله فأقتل، ثمّ أغزو فأقتل، ثمّ أغزو فأقتل»[4].

= هذه الآيات من أعظم ما ورد في كتاب الله في بيان فضل من يقتلون في سبيل الله، فهم أحياء عند الله، خصّهم بالقرب منه، وعلو المكان، والكرامة لديه، وأعطاهم أفضل أنواع الرّزق، فقرّت بذلك عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وجمعوا بين نعيم البدن بالرّزق، ونعيم الرّوح بالفرح.

وانظر في معنى الآيات: جامع البيان: ٤/ ١٧٠ ـ ١٧٥. التّفسير الكبير: ٩/ ٨٨ ـ ٩٦. فتح البيان: ٢/ ٣٧٤ ـ ٣٧٨. محاسن التّأويل: ٤/ ١٠٣٢ ـ ١٠٣٥. تفسير المراغي: ٤/ ١٣٠ ـ ١٣٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٢٤.

(١) قال النّووي رحمه الله:
«وفي الرّواية الأخرى «تكفّل الله» ومعناهما: أوجب الله تعالى له الجنّة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى. وهذا الضّمان والكفالة موافق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ الآية». شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٢٠.

(٢) كلم: هو الجُرح. انظر: النهاية في غريب الحديث: ٤/ ١٩٩.
والمراد: جرح يجرح. انظر: شرح النووي على مسلم: ١٣/ ٢١.

(٣) السّريّة: هي طائفةٌ من الجَيش يبلغُ أقصاها أربعَمائة تُبْعث إلى العَدوّ، وجمعُها السّرَايا سُمُّوا بذلك لأنّهم يكونُون خُلاصةَ العسْكر وخيارَهم من الشّيء السّرِيِّ النّفِيس، وقيل: سُمّوا بذلك لأنّهم ينْفذُون سرّاً وخُفْية وليس بالوجه. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٣٦٣. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٢٢٧.

(٤) صحيح البخاري، بنحو منه في كتاب الإيمان: (٢)، باب الجهاد من الإيمان: (٢٦/ ٢٧)، برقم: (٣٦)، ص: ٢٢، وفي كتاب فرض الخمس: (٥٧/ ٣٣)، باب قول=

ب ـ وعنه ﷺ قال: قال النّبي ﷺ: «إنّ في الجنّة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدّرجتين كما بين السّماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس[1]، فإنّه أوسط الجنّة، وأعلى الجنّة ـ أُراه ـ: فوقه عرش الرّحمٰن، ومنه تفجّر أنهار الجنّة»[2].

ج ـ وعن أبي أيوب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «غدوة في سبيل الله أو روحة خير ممّا طلعت عليه الشّمس وغربت»[3].

= النّبي ﷺ: «أحلّت لكم الغنائم»: (٨)، برقم: (٣١٢٣)، ص: ٦٥٧، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصّافات: ١٧١]: (٢٨)، برقم: (٧٤٥٧)، ص: ١٥٦٦، وفي باب: (٣٠)، برقم: (٧٤٦٣)، ص: ١٥٦٧.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله: (٢٨)، برقم: (١٨٧٦)، ٣/ ١٤٩٥، ونحوه في: ١٤٩٦.
قال النّووي ﷺ: «معنى الحديث أنّ الله تعالى ضمن أنّ الخارج للجهاد ينال خيراً بكلّ حال، فإمّا أن يستشهد فيدخل الجنّة، وإمّا أن يرجع بأجر، وإمّا أن يرجع بأجر وغنيمة. شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٢١. وقال الحافظ ابن حجر ﷺ: في تمنّي النّبي ﷺ القتل في الجهاد: «وكأنّه ﷺ أراد المبالغة في بيان فضل الجهاد وتحريض المسلمين عليه». فتح الباري: ٦/ ٩٥. وانظر معنى الحديث في المفهم: ٣/ ٧٠٥ ـ ٧٠٧.

(١) الفِرْدَوْس: هو البُسْتان الّذي فيه الكَرْم والأشجار، والجمع: فَرادِيس، ومنه جَنَّة الفِردوس.
النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٤٢٧.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب درجات المجاهدين في سبيل الله: (٤)، برقم: (٢٧٩٠)، ص: ٥٩٠، وبلفظ مقارب في: كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]: (٢٢)، برقم: (٧٤٢٣)، ص: ١٥٥٨.
وفي الحديث فضيلة ظاهرة، وأجر عظيم للمجاهدين. والمراد بالأوسط في الحديث: الأعدل والأفضل. والأنهار إنّما تفجّر من الفردوس وليس من العرش كما يوهم السّياق، لما ورد بيانه في رواية أخرى للحديث.
وانظر: فتح الباري: ٦/ ٨٩ ـ ٩٠. عمدة القاري: ١٤/ ٨٩ ـ ٩١.

(٣) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب الغدوة والرّوحة في سبيل الله: (٥)، برقم: (٢٧٩٣)، عن أبي هريرة ﷺ، ص: ٥٩٠.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الغدوة والرّوحة في سبيل الله: (٣٠)، برقم: (١٨٨٣)، ٣/ ١٥٠٠.

وفي حديث أنس وسهل بن سعد رضي الله عنهما: «خير من الدّنيا وما فيها»[1].

د ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنّبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: «لا تستطيعونه». قال: فأعادوا عليه مرّتين أو ثلاثاً، كلّ ذلك يقول: «لا تستطيعونه». وقال في الثّالثة: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصّائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتّى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى»[2].

---

(1) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب الغدوة والرّوحة في سبيل الله: (٥)، برقم: (٢٧٩٢)، عن أنس رضي الله عنه، ص:٥٩٠، ومع زيادة في أوّلها في كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب مثل الدّنيا في الآخرة: (٢)، برقم: (٦٤١٥)، عن سهل رضي الله عنه، ص:١٣٦٧، وبزيادة في باب صفة الجنّة والنّار: (٥١)، برقم: (٦٥٦٨)، عن أنس رضي الله عنه ـ إلّا إنّه قال: «غدوة» ـ، ص:١٣٩٣، وبلفظ مقارب في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب الغدوة والرّوحة في سبيل الله: (٥)، برقم: (٢٧٩٤)، عن سهل بن سعد رضي الله عنه، ص:٥٩٠، وفي باب الحور العين: (٦)، برقم: (٢٧٩٦)، عن أنس رضي الله عنه، ص:٥٩٠ ـ ٥٩١، ونحوه في كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب فضل رباط يوم في سبيل الله: (٧٣/ ٧٢)، برقم: (٢٨٩٢)، عن سهل رضي الله عنه، ص:٦٠٩ ـ ٦١٠.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الغدوة والرّوحة في سبيل الله: (٣٠)، برقم: (١٨٨٠)، عن أنس رضي الله عنه، وبلفظ مقارب عن سهل رضي الله عنه، برقم: (١٨٨١)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، برقم: (١٨٨٢)، ٣/ ١٤٩٩ ـ ١٥٠٠.
الغدوة: بفتح الغين هي المرّة الواحدة من الغدوّ، وهي السّير من أوّل النّهار إلى انتصافه أو إلى الزّوال. والرّوحة هي المرّة الواحدة من الرّواح، وهي السّير من الزّوال إلى آخر النّهار.
وقوله: «خير ممّا طلعت عليه الشّمس وغربت»، هو المراد بقوله: «خير من الدّنيا وما فيها».
فالمعنى: إنّ ثواب الغدوة أو الرّوحة في سبيل الله خير للمرء من الدّنيا كلّها لو جمعها بحذافيرها، وقيل: إنّ ثواب الواحدة منهما خير له من الثّواب الّذي يحصل لمن ملك الدّنيا كلّها فأنفقها في طاعة الله.
وانظر: المفهم: ٣/ ٧٠٩ ـ ٧١٠. شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٢٦ ـ ٢٧. فتح الباري: ٦/ ٩٠ ـ ٩١. عمدة القاري: ١٤/ ٩١ ـ ٩٢.

(2) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب أفضل النّاس مؤمن بنفسه وماله في سبيل الله: (٢)، برقم: (٢٧٨٧)، ص:٥٨٩. =

هـ ـ وفي بيان فضل الشهادة: عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «ما أحد يدخل الجنّة يحبّ أن يرجع إلى الدّنيا وله ما على الأرض من شيء إلّا الشّهيد يتمنّى أن يرجع إلى الدّنيا فيقتل عشر مرّات لما يرى من الكرامة»[(١)].

و ـ وعن المِقْدام بن مَعْد يَكْرِب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «للشّهيد عند الله ستّ خصال: يغفر له في أوّل دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنّة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويُحَلّى حُلّة الإيمان، ويزوّج من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه»[(٢)].

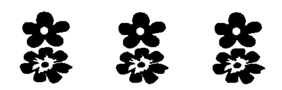
= صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الشّهادة في سبيل الله تعالى: (٢٩)، برقم: (١٨٧٨)، ٣/ ١٤٩٨.
قال النّووي رحمه الله:
«معنى القانت هنا: المطيع. وفي هذا الحديث عظيم فضل الجهاد، لأنّ الصّلاة والصّيام والقيام بآيات الله أفضل الأعمال، وقد جعل المجاهد مثل من لم يفتر عن ذلك في لحظة من اللّحظات، ومعلوم أنّ هذا لا يتأتّى لأحد، ولهذا قال ﷺ: «لا تستطيعونه». شرح النّووي: ١٣/ ٢٥.
وقال أبو العبّاس القرطبي رحمه الله:
«ووجهه: أنّ كلّ ما يصدر من المجاهد في حالتي نومه ويقظته، وسكونه وحركته، هو عمل صالح يكتب له ثوابه دائماً، بدوام أفعاله، إذ لا يتأتّى لغيره فيه، لأنّه على كلّ حال في جهاد». المفهم: ٣/ ٧٠٨. وانظر: فتح الباري: ٦/ ٨٢. عمدة القاري: ١٤/ ٨٤.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب تمنّي المجاهد أن يرجع إلى الدّنيا: (٢١)، برقم: (٢٨١٧)، ص:٥٩٥، ونحوه في: باب الحور العين: (٦)، برقم: (٢٧٩٥)، ص: ٥٩٠.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب وبنحوه في كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الشّهادة في سبيل الله تعالى: (٢٩)، برقم: (١٨٧٧)، ٣/ ١٤٩٨.
ذكر الحافظ ابن حجر عن ابن بطّال أنّه قال: «هذا الحديث أجلّ ما جاء في فضل الشّهادة. . . وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النّفس غير الجهاد فلذلك عظم فيه الثّواب». فتح الباري: ٦/ ١١٥. وانظر: عمدة القاري: ١٤/ ١١٤.
وقال النّووي رحمه الله: «هذا من صرائح الأدلّة في عظيم فضل الشّهادة». شرح النّووي: ١٣/ ٢٤.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب فضائل الجهاد: (١٩)، باب في ثواب=

والمؤمن إذا وقف على هذه الأدلّة ـ وغيرها كثير ـ الدّالة على ما في الجهاد من فضل وأجر استشعر عظم هذه الفريضة، وسموّ مكانتها، وعلوّ منزلتها بين شعائر الإسلام فدفعه ذلك إلى القيام بها على أكمل الوجوه، وأحسن السّبل، لا يهاب عراك الأبطال، ولا نزال الشّجعان، ولا يخاف صليل السّيوف ولا بريق الرّماح، لأنّ تذكّر ما في تلك النّصوص من فضل وثواب يقذف الطّمأنينة في نفسه، والثّبات في قلبه، والقوّة في عزمه، إن قتل نال أجر الشّهداء، وإن نصر آب بالغنيمة وحسن الجزاء.

فاستصحاب فضل الجهاد معين على ثبات القلوب فيه، وجلد النّفوس، وقوّة العزائم.



= الشّهيد: (٢٥)، برقم: (١٦٦٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «صحيح»، ص:٢٨٨.

سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الجهاد: (٢٤)، باب فضل الشّهادة في سبيل الله: (١٦)، برقم: (٢٧٩٩). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «صحيح»، ص:٣٠٦.

مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٤/ ١٣١، ونحوه في: ٤/ ٢٠٠. وانظر: أحكام الجنائز وبدعها، لمحمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م، ص:٣٥ ـ ٣٦. مشكاة المصابيح: ٢/ ١١٢٧، برقم: (٣٨٣٤).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

«ولأحمد والطّبراني من حديث عبادة بن الصّامت مرفوعاً: (إنّ للشّهيد عند الله سبع خصال).. إسناده حسن». الفتح: ٦/ ٩٣، ولم أقف عليه عند أحمد بلفظ: «سبع خصال»، والّذي عند الطّبراني: «تسع خصال أو قال: عشر خصال»، عن المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. معجم الطّبراني الكبير: ٢٠/ ٢٦٦.



إعداد القوّة

قال ﷻ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: ٦٠].

فقد أمر الله ﷻ عباده المؤمنين بإعداد العدّة، وأخذ الأهبة بكلّ ما يقدرون عليه من قوّة عقليّة وبدنيّة، وأنواع الأسلحة ونحو ذلك ممّا يعين على قتال أعداء الله.

وقد بيّن النّبي ﷺ المراد بالقوّة في الآية كما روى ذلك عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ألا إنّ القوّة الرّمي، ألا إنّ القوّة الرّمي، ألا إنّ القوّة الرّمي»(١).

وتخصيصه ﷺ للرّمي من أنواع القوّة دون غيره لا ينفي اعتبار غيره، وإنّما ذكر لبيان فضله، وجلالة قدره في ذلك الوقت.

ولذا قال أبو العبّاس القرطبي رحمه الله في بيان الحديث:

«القوّة: التّقوّي بما يحتاج إليه من الدّروع، والمجان(٢) والسّيوف،

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الرّمي والحثّ عليه: (٥٢)، برقم: (١٩١٧)، ٣/١٥٢٢).

(٢) المَجانُّ: بالفتح، جمع المِجَنّ وهو التّرْسُ لأنّه يُوارِي حاملَه، أي يَسْتُره، والميم زائدة، وأصله من الجُنّة، بالضّم: وهي ما واراكَ من السّلاح واسْتترْتَ به منه. انظر: لسان العرب: ١٣/٩٤. وانظر: القاموس المحيط: ١٥٣٢.

والرّماح، والرّمي، وسائر آلات الحرب. إلّا إنّه لمّا كان الرّمي أنكاها في العدوّ وأنفعها، فسّرها وخصّصها بالذّكر، وأكّدها ثلاثاً، ولم يرد أنّها كلّ العدّة، بل أنفعها»(١).

وبالتّالي يدخل في هذه القوّة كلّ أنواع الأسلحة والآلات الحربيّة، من مدافع، ورشّاشات، وقنابل، وطائرات، وصواريخ، ودبّابات، وسفن حربيّة، وغوّاصات، وسيّارات، وخنادق، وغير ذلك.

كما يدخل في الإعداد تعلّم الفنون والصّناعات الّتي يصنع بها كل هذه الأشياء، كما يدخل فيه تجنيد الجيوش وتنظيمها وتعبئتها، وإحكام التّدابير والحيل، ووضع الخطط الحربيّة، وحراسة الثّغور(٢).

ومن ذلك أخذ الحذر، ومعرفة خطط الأعداء، وكشف قوّتهم، وأسلحتهم وعددهم.

---

(١) المفهم: ٣/ ٧٥٩.

(٢) وانظر: تفسير المراغي: ١٠/ ٢٤ ـ ٢٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٨٥ ـ ٢٧٦.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ:

«والقوّة في كلّ ولاية بحسبها، فالقوّة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب، وإلى الخبرة بالحروب، والمخادعة فيها، فإنّ الحرب خدعة، وإلى القدرة على أنواع القتال: من رمي وطعن وضرب، وركوب، وكرّ، وفرّ، ونحو ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٢٥٣.

وانظر في إعداد القوّة:

جامع البيان: ١٠/ ٢٩ ـ ٣٢. أحكام القرآن لابن العربي: ٢/ ٨٦١ ـ ٨٦٤. التّفسير الكبير: ١٥/ ١٨٥ ـ ١٨٦. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٥ ـ ٣٧. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٠٣. فتح البيان: ٥/ ٢٠١ ـ ٢٠٣. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٠٢٤ ـ ٣٠٢٦، وفيه تنبيه طيّب إلى ما وصل إليه المسلمون من ضعف وخور وعجز، لأنّهم لم يسلكوا السّبل الموصلة إلى إعداد القوّة، بينما أعداؤهم في قوّة ومنعة واستكبار وعلو بسبب ما يملكون من العدد والعتاد. تفسير المراغي: ١٠/ ٢٤ ـ ٢٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٨٥ ـ ٢٨٦. في ظلال القرآن: ٣/ ١٥٣٨، ١٥٤٣. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٦٤. فقه السّنّة: ٣/ ٣٥ ـ ٣٦. الجهاد في الإسلام، ص: ٧٨ ـ ٧٩.

وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ۝٧١﴾ [النساء: ٧١].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوّهم، وهذا يستلزم التّأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد، وتكثير العدد بالنّفير في سبيل الله. (ثبات) أي جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة، وسريّة بعد سريّة»[١].

وكلّ هذا من أجل إرهاب أعداء الله، وتخويفهم، ونكاية بهم حتّى ينكفّ شرّهم، بل ويدخلوا في دين الإسلام فيتحقّق أمر الله في الأرض.

وهذه القوّة من الأسباب الّتي أمر الشّارع باتّخاذها لأنّها تفضي إلى مسبّباتها، ولا يجوز الاتّكال عليها وحدها، بل هنالك قوّة أعظم منها وهي القوّة المعنويّة الّتي ينبغي على المؤمن اصطحابها في جهاده في كلّ أحيانه، وهي التّوكّل على الله والالتجاء إليه.

وهذه إن تخلّفت فلا مناص من الفشل، وأمّا الأولى فقد تتخلّف لبعض الأسباب، ويأتي النّصر كما حدث في بدر[٢].

ولذا أوجب الله على المؤمنين جميعاً أن يتوكّلوا عليه ويلجؤوا إليه ولو أعدّوا من القوّة الماديّة ما أعدّوا، فقال في سياق غزوة أحد[٣]: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٩٤.

(٢) يأتي الحديث عن غزوة بدر.

(٣) غزوة أحد: هي معركة دارت بين النّبي ﷺ وأصحابه وبين قريش في شوال من العام الثّالث الهجري.

وذلك بعد أن رجعت قريش من غزوة بدر تجرّ أذيال الخيبة والهزيمة بدأت تعدّ العدّة لمعركة فاصلة بينها وبين المسلمين، فجمعت أحابيشها، ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة، فبلغ تعداد جيشها ثلاثة آلاف مدرّع، ثمّ سار تجاه المدينة النّبويّة.

وخرج النّبي ﷺ في ألف من أصحابه، فرجع المنافقون بثلث الجيش. ثمّ التقى الجيشان في سهل بالقرب من جبل أحد حيث دارت المعركة. وقد اختار النّبي ﷺ خمسين من الرّماة ليحموا ظهر الجيش فجعلهم على جبل الرّماة. وكان النصر=

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥](١).

والمقصود هنا أنّ إعداد القوّة سبب وعامل مهمّ، يقذف الطّمأنينة في نفوس المجاهدين، فتقوى عزائمهم، وتثبت قلوبهم، فيصبرون حينئذ على مجالدة الأعداء، ومقارعة الألداء.

يقول السّعدي:

«وإنّما الأسباب وتوفّرها فيها طمأنينة للقلوب، وثبات كلّ على الخير»(٢).

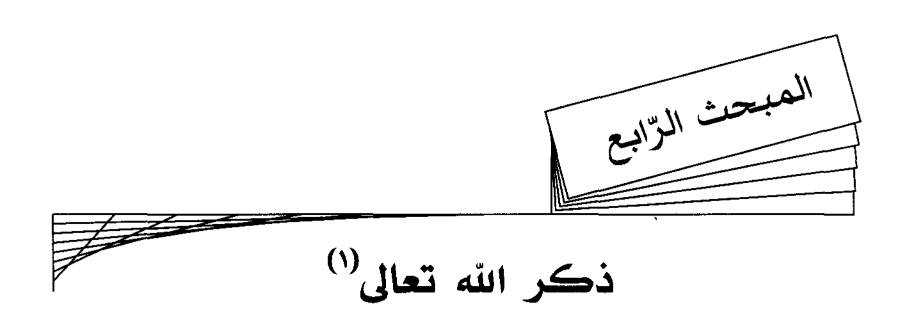


= في بادئ الأمر للمسلمين، ثمّ تخلّى الرّماة عن أماكنهم فانقلب الحال، وانكشف المسلمون وأصاب منهم العدوّ، وكان يوم بلاء وتمحيص واستشهاد، فقتل منهم سبعون رجلاً

وانظر: سيرة ابن إسحاق المسمّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي، لمحمّد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمّد حميد الله، طبعة: معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب: ٣/ ٣٠١ ـ ٣١٥. السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٣/ ٤٤ ـ ١٢٤. الرّوض الأنف في تفسير السّيرة النّبويّة لابن هشام، لعبد الرّحمٰن بن عبد الله الخثعمي السّهيلي، تحقيق: مجدي منصور الشّوري، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م: ٣/ ٢٤٠ ـ ٢٨٩. زاد المعاد: ٣/ ١٩٢ ـ ٢١١. السّيرة الحلبيّة في سيرة الأمين والمأمون، لعلي بن برهان الدّين الحلبي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ: ٢/ ٤٨٧ ـ ٥٥٠.

(١) وسوف يأتي مزيد بيان لهذا.

(٢) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١١٤.



ذكر الله تعالى[1]

الذِّكْرُ والذِّكْرى، والذِّكْرةُ في اللّغة: الحِفْظُ للشّيء، وهو ضدّ النّسيان. ويطلق أيضاً على الشّيء يجري على اللّسان. كما يطلق على الصّيت يكون في الخير والشّرّ وعلى الشّرف، والكتاب الّذي فيه تفصيل الدّين ووَضْعُ المِلَلِ، وكُلُّ كتاب من كتب الأنبياء عليهم السلام ذِكْرٌ. والصّلاة والدّعاءُ والثّناء وقراءة القرآن والتّسبيح والشّكر والطّاعة[2].

وفي الاصطلاح: التّخلّص من الغفلة والنّسيان[3].

وفي الشّرع: يُراد به تمجيدُ الله تعالى وتقديسُه وتسبيحُه وتهليلُه والثّنَاءُ عليه بجميع محامِدِه[4].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«والمراد بالذّكر هنا الإتيان بالألفاظ الّتي ورد التّرغيب في قولها والإكثار

---

(١) الذكر عامل من عوامل الثّبات العامّة، ولكن آثرت الحديث عنه هنا لأنّ الله نصّ عليه من القرآن مقروناً بالجهاد.

(٢) وانظر: مختار الصّحاح، ص:٢٢٢ ـ ٢٢٣. لسان العرب: ٤/٣٠٨ ـ ٣١٠.

(٣) مدارج السّالكين: ٢/ ٤٣٤.

قال الرّاغب رحمه الله: «الذّكر تارة يقال ويراد به هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة وهو كالحفظ، إلّا أنّ الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه، والذّكر يقال اعتباراً باستحضاره، وتارة يقال لحضور الشّيء القلب أو القول، ولذلك قيل: الذّكر ذكران: ذكر بالقلب وذكر باللّسان، وكلّ واحد منهما ضربان: ذكر عن نسيان، وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ». المفردات، ص:١٧٩.

(٤) النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٦٣.

منها مثل الباقيات الصّالحات، وهي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، وما يلتحق بها من الحوقلة والبسملة والحسبلة[١] والاستغفار ونحو ذلك، والدّعاء بخير الدّنيا والآخرة. ويطلق ذكر الله أيضاً ويراد به المواظبة على العمل بما أوجبه أو ندب إليه كتلاوة القرآن، وقراءة الحديث ومدارسة العلم، والتّنفّل بالصّلاة. ثمّ الذّكر يقع تارة اللّسان ويؤجر عليه النّاطق ولا يشترط استحضاره لمعناه، ولكن يشترط أن لا يقصد به غير معناه، وإن انضاف إلى النّطق الذّكر بالقلب فهو أكمل. فإن انضاف إلى ذلك استحضار معنى الذّكر وما اشتمل عليه من تعظيم الله تعالى ونفي النّقائص عنه ازداد كمالاً، فإن وقع ذلك في عمل صالح مهما فرض من صلاة أو جهاد أو غيرهما ازداد كمالاً، فإن صحّح التّوجه، وأخلص لله تعالى في ذلك فهو أبلغ الكمال»[٢].

فالذّكر إذا أطلق يدخل فيه الصّلاة، وتلاوة القرآن وتعلّمه وتعليمه، والعلم النّافع، كما يدخل فيه التّسبيح والتّكبير والتّهليل[٣].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وليس المراد بالذّكر مجرد ذكر اللّسان، بل الذّكر القلبي واللّساني، وذكره يتضمّن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيه، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثّناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتمّ إلّا بتوحيده. فذكره الحقيقي يستلزم ذلك كلّه، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه»[٤].

وأفضل الذّكر وأنفعه ما واطأ فيه القلب اللّسان، وكان من الأذكار النّبويّة، وشهد الذّاكر معانيه ومقاصده[٥].

---

(١) الحوقلة: لفظة من لا حول ولا قوّة إلّا بالله. والبسملة من بسم الله، والحسبلة من حسبي الله. وانظر: لسان العرب: ١٠/ ٦٧.

(٢) فتح الباري: ١١/ ٢٠٩. طبعة دار المعرفة.

(٣) انظر: جامع العلوم والحكم ص: ٤٥٠.

(٤) الفوائد: ص: ١٢٨. وقارن بما ذكره الحافظ ابن حجر أعلاه.

(٥) المرجع السّابق: ص١٩٢ . وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن: ص: ٢٧٦. =

وهو في القرآن على عشرة أوجه:
الأوّل: الأمر به مطلقاً ومقيّداً.
الثّاني: النّهي عن ضدّه من الغفلة والنّسيان.
الثّالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته.
الرّابع: الثّناء على أهله، والإخبار بما أعدّ الله لهم من الجنّة والمغفرة.
الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره.
السّادس: أنّه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له.
السّابع: الإخبار أنّه أكبر من كلّ شيء.
الثّامن: أنّه جعله خاتمة الأعمال الصّالحة كما كان مفتاحها.
التّاسع: الإخبار عن أهله بأنّهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنّهم أولو الألباب دون غيرهم.

العاشر: أنّه جعله قرين جميع الأعمال الصّالحة وروحها، فمتى عدمته كانت كالجسد بلا روح[1]. وذلك لعظيم منزلته، وعلو شأنه، ورفعة مكانه، وجلالة قدره، وسموّ شرفه.

قال ابن القيّم رحمه الله تحت عنوان: منزلة الذّكر:

«وهي منزلة القوم الكبرى الّتي منها يتزوّدون، وفيها يتّجرون، وإليها دائماً يتردّدون.

والذّكر منشور الولاية الّذي من أعطيه اتّصل ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم الّذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم الّتي إذا تعطّلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الّذي يقاتلون به قطّاع الطّريق، وماؤهم الّذي يطفئون به التهاب الطّريق[2]، ودواء أسقامهم الّذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسّبب الواصل والعلاقة الّتي كانت بينهم وبين علّام الغيوب:

= وفي الوابل الصّيّب تفصيل قيّم لأنواع الذّكر، يطول ذكرها هنا، ص:١١٨ ـ ١٢٠.
(١) مدارج السّالكين: ٢/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥. وانظر: تفاصيل ذلك في نفس المرجع: ٢/ ٤٢٥ ـ ٤٢٧.
(٢) التهاب الطّريق: هكذا في المرجع، ولعله التهاب الحريق، فهو أنسب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذّكر أحياناً فننتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلّهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النّوازل فإليه مفزعهم، فهو رياض جنّتهم الّتي فيها يتقلّبون، ورؤوس أموال سادتهم الّتي بها يتّجرون، يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً، ويوصل الذّاكر إلى المذكور بل يدع الذّاكر مذكوراً.

وفي كلّ جارحة من الجوارح عبوديّة مؤقّتة، والذّكر عبوديّة القلب واللّسان وهي غير مؤقّتة، بل هم يأمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كلّ حال: قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فكما أنّ الجنّة قيعان وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصقالها[1] ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلّما ازداد الذّاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبّة إلى لقائه واشتياقاً، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كلّ شيء، وحفظ الله عليه كلّ شيء، وكان له عوضاً من كلّ شيء.

به يزول الوقر[2] عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظّلمة عن الأبصار، زيّن الله به ألسنة الذّاكرين كما زيّن بالنّور أبصار النّاظرين، فاللّسان الغافل كالعين العمياء والأذن الصّماء واليد الشّلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته.

---

(١) الصّقْلُ: الجِلاء. صَقَل الشّيءَ يَصْقُلُه صَقْلاً وصِقَالاً، فهو مَصْقُولٌ وصَقِيلٌ: جَلاهُ، والاسم الصّقَالُ، وهو صاقِلٌ والجمع صَقَلَةٌ. لسان العرب: ١١/ ٣٨٠. وانظر: القاموس المحيط، ص: ١٣٢١.

(٢) الوَقْرُ: بالفتح الثّقل في الأذن، وبالكسر الحِمل. وقد أَوْقَرَ بعيره، وأكثر ما يُستعمل الوِقْرُ في حِمل البغل والحمار، والوسْق: في حِمل البعير. وأَوْقَرتِ النّخلة: كثُر حِملها. مختار الصّحاح، ص: ٧٣٢. وانظر: لسان العرب: ٥/ ٢٨٩. القاموس المحيط، ص: ٦٣٥.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«تفقّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصّلاة، وفي الذّكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم وإلّا فاعلموا أنّ الباب مغلق».

وبالذّكر يصرع العبد الشّيطان كما يصرع الشّيطان أهل الغفلة والنّسيان.

قال بعض السّلف:

«إذا تمكّن الذّكر من القلب فإن دنا منه الشّيطان صرعه كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشّيطان، فيجتمع عليه الشّياطين فيقولون: ما لهذا فيقال: قد مسّه الإنسي».

وهو روح الأعمال الصّالحة، فإذا خلا العمل عن الذّكر كان كالجسد الّذي لا روح فيه، والله أعلم»[١].

بل هو أفضل الطّاعات، وأعظم القربات، كما جاء في حديث أبي الدّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النّبي ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذّهب والوَرِق، وخير لكم من أن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم»؟ قالوا: بلى، قال: «ذكر الله تعالى»[٢].

---

(١) مدارج السّالكين: ٢/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (٦)، برقم: (٣٣٧٧). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص: ٥٣٤ ـ ٥٣٥.
سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب الأدب: (٣٣)، باب فضل الذّكر: (٥٣)، برقم: (٣٧٩٠). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص: ٤٠٥.
موطّأ مالك، كتاب القرآن: (١٥)، باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى: (٧)، برقم: (٢٤)، موقوفاً على أبي الدّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ١/ ٢١١.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٥/ ١٩٥، ٦/ ٤٤٧، عن أبي الدّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وعن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في: ٥/ ٢٣٩.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٦٧٣، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
وقد استشكل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الحديث مع ما ورد في فضل الجهاد، وأنّ المجاهد كالصّائم الّذي لا يفطر، وكالقائم الّذي لا يفتر، وغير ذلك ممّا يدلّ على أفضليّته على غيره من الأعمال الصّالحة. =

قال المناوي رحمه الله:

«والذّكر هو المقصود الأسنى، ورأس الذّكر قول لا إله إلّا الله، وهي الكلمة العليا، وهي القطب الّذي يدور عليه رحى الإسلام، والقاعدة الّتي بني عليها أركان الدّين، والشّعبة الّتي هي أعلى شعب الإيمان، بل هي الكلّ وليس غيره ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، أي الوحي مقصور على استئثار الله بالوحدانيّة، لأنّ القصد الأعظم من الوحي التّوحيد ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة: ٥]»[١].

وذلك لما فيه من كثير الأجر، وبالغ الجزاء، وجزيل الثّواب، وعظيم الفضل. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «من قال لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، في يوم مائة مرّة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيّئة، وكانت له حرزاً من الشّيطان يومه ذلك حتّى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل ممّا جاء إلّا رجل عمل أكثر منه»[٢].

= فقال: «وطريق الجمع والله أعلم: إنّ المراد بذكر الله في حديث أبي الدّرداء الذّكر الكامل، وهو ما يجتمع فيه ذكر اللّسان والقلب بالتّفكّر في المعنى واستحضار عظمة الله تعالى، وأنّ الّذي يحصل له ذلك يكون أفضل ممّن يقاتل الكفّار مثلاً من غير استحضار لذلك، وأنّ أفضليّة الجهاد إنّما هي بالنّسبة إلى ذكر اللّسان المجرد. فمن اتّفق له أنّه جمع ذلك، كمن يذكر الله بلسانه وقلبه واستحضاره كلّ ذلك حال صلاته، أو في صيامه، أو تصّدقه، أو قتاله الكفّار مثلاً فهو الّذي بلغ الغاية القصوى، والعلم عند الله تعالى». فتح الباري: ١١/ ٢١٠، طبعة: دار المعرفة. وانظر: شرح الحديث في: فيض القدير: ٣/ ١١٥.

(١) المرجع السّابق: ٣/ ١١٦.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا أنّه قال: «إلّا أحد عمل أكثر من ذلك» ـ في كتاب بدء الخلق: (٥٩/ ٣٥)، باب صفة إبليس وجنوده: (١١)، برقم: (٣٢٩٣)، ص: ٦٩٣، وبلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب فضل التّهليل: (٦٤)، برقم: (٦٤٠٣)، ص: ١٣٦٤.

صحيح مسلم، بلفظ رواية البخاري الأولى ـ إلّا أنّه قال: «أفضل» ـ مع زيادة فيه، في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب فضل التّهليل والتّسبيح والدّعاء: (١٠)، برقم: (٢٦٩١)، ٤/ ٢٠٧١.

وفي روايته الأخرى قال ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرّة حطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر»(١).

وفي حديث له آخر ﷺ قال رسول الله ﷺ: «لأنّ أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر، أحبّ إلي ممّا طلعت عليه الشّمس»(٢).

بل يكفيه شرفاً وفضلاً أنّ رسول الله ﷺ مثّل الذّاكر لله بالحي، والّذي لا يذكره بالميّت. فقال في حديث أبي موسى ﷺ: «مثل الّذي يذكر ربّه والّذي لا يذكر مثل الحي والميّت»(٣).

قال أبو بكر ﷺ:

«ذهب الذّاكرون الله بكل خير»(٤).

وقال معاذ بن جبل ﷺ:

«ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله»(٥).

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب فضل التّسبيح: (٦٥)، برقم: (٦٤٠٥)، ص: ١٣٦٥.
صحيح مسلم، جزء من حديث، بلفظه ـ إلّا أنّه قال: «ولو كانت» ـ في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب فضل التّهليل والتّسبيح والدّعاء: (١٠)، برقم: (٢٦٩١)، ٤/ ٢٠٧١.

(٢) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب فضل التّهليل والتّسبيح والدّعاء: (١٠)، برقم: (٢٦٩٥)، ٤/ ٢٠٧٢.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب فضل ذكر الله ﷻ: (٦٦)، برقم: (٦٤٠٧)، ص: ١٣٦٥.
صحيح مسلم، نحوه في: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: (٦)، باب استحباب صلاة النّافلة في بيته وجوازها في المسجد: (٢٩)، برقم: (٧٧٩)، ١/ ٥٣٩.

(٤) مسند أحمد، بلفظه دون ذكر اسم الجلالة، وهو جزء من أثر، في: ٣/ ٤٣٨.
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ٢٠/ ١٨٦.
شعب الإيمان نحوه في: ١/ ٤٠٨.

(٥) سنن التّرمذي، نحوه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب (٦)، برقم: (٣٣٧٧)، ص: ٥٣٥، عقب حديث أبي الدّرداء الّذي سبق ذكره، ص: ٧١٦.
موطّأ مالك، بلفظه ـ معلّقاً ـ في: كتاب القرآن: (١٥)، باب ما جاء في ذكر الله تبارك وتعالى: (٧)، برقم: (٢٤)، ١/ ٢١١. =

والآيات في فضله متكاثرة، والأحاديث متوافرة، والآثار متعاضدة متآزرة، وكلّ منها يفوق حدّ الحصر، ويعجز من أراد استيفاءها في هذا المقام عن الذّكر، وهي مشتملة على فوائد الذّكر ومنافعه، وفضائله ومآثره[1].

ولمّا كان الذّكر يتبوّأ مصدر الصّدارة بين الطّاعات، ويحتل منزلة الرّئاسة بين القربات أمر الله أهل الإيمان بالإكثار منه. فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ ـ ٤٢].

وقال: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠].

ووصف المؤمنين الصّادقين بذلك فقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال القرطبي رحمه الله في بيان معنى الآية الأولى:

«أمر الله تعالى عباده بأن يذكروه ويشكروه، ويكثروا من ذلك على ما أنعم به عليهم. وجعل تعالى ذلك دون حدّ لسهولته على العبد. ولعظم الأجر فيه»[2].

وقال ابن كثير رحمه الله:

«يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربّهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النّعم وصنوف المنن، لما لهم في ذلك من جزيل الثّواب، وجميل المآب»[3].

= مسند أحمد، بلفظ مقارب، مرفوع إلى النّبي ﷺ، في: ٥/ ٢٣٩.
مستدرك الحاكم، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «آدمي» ـ في: ١/ ٦٧٣.
شعب الإيمان بلفظ مقارب في: ٣/ ٣٩٤.

(١) ذكر ابن القيّم رحمه الله أنّ فوائد الذّكر تبلغ مائة فائدة. ثمّ أفاض بقلم سيّال، وعقل مدرك، وفهم موعب في تعدادها، وحشد الأدلّة لإيضاحها، فأورد منها ما يربو على السّبعين فائدة. وذلك في كتابه الوابل الصّيّب.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١٩٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٨٧.

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ففيه الأمر بالذّكر بالكثرة والشّدّة لشدّة حاجة العبد إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأيّ لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم ممّا ربح في غفلته عن الله»[1].

ويؤيّد ذلك حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكّة فمرّ على جبل يقال له جُمْدَانُ، فقال: «سيروا هذا جمدان، سبق المُفَرِّدُون»، قالوا: وما المفرِّدون يا رسول الله؟ قال: «الذّاكرون الله كثيراً والذّاكرات»[2].

وقال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى:

«﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: «أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»[3].

كما حثّهم سبحانه على المداومة عليه وعدم التّفريط فيه، أو الغفلة عنه. فقال لرسوله ﷺ والأمّة تبع له: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥ ـ ٢٠٦].

أي داوم على الذّكر ولا تنشغل عنه آناء الليل وأطراف النّهار لما في تلك الأوقات من ميزة وفضل، وأن يكون ذلك بتضرّع وخشية وتذلّل، وبأدب ووقار ورغبة ورهبة، لا جهرة وصياحاً، بل في خفض وسكون[4]، وحضور قلب

---

(١) الوابل الصّيّب، ص:٥٩. وانظر: جامع البيان: ٢٢/٩، طبعة: دار الفكر. فتح القدير: ٤/٢٨٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦١٤.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب الحثّ على ذكر الله تعالى: (١)، برقم: (٢٦٧٦)، ٤/٢٠٦٢.

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة: ٧/١٠٦. تفسير القرآن العظيم: ١/٥٧٩، وقال عن إسناده: «وهذا إسناد صحيح موقوف».

(٤) قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله جهّال العوام والمبتدعة الطّغام ـ أي أرذال النّاس وأوغادهم ـ من الزّعيق والزّئير، ومن النّهاق الّذي=

وعدم غفلة، وأتَسي بحال الملائكة المستديمين على الذّكر، الملازمين له، المسبّحين باللّيل والنّهار، وهم لا يفترون ولا يغفلون(1).

وأثنى ﷻ على أولي الألباب، أصحاب العقول النّيرة، والأفهام الثّاقبة لمداومتهم على ذكره في كلّ أحوالهم. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١].

وهذه هيئات وأحوال لا يخلو ابن آدم في غالب أمره عنها. فهم مداومون على الذّكر في جميع أحوالهم، لا ينفكون منه، ولا يغيبون عنه(2).

= يشبه نهاق الحمير. فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أنّ ذلك وجد وخشوع: لم تبلغ أن تساوي حال الرّسول ولا حال أصحابه في المعرفة بالله، والخوف منه، والتّعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله، والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره، وتلاوة كتابه فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [المائدة: ٨٣]. فهذا وصف حالهم، وحكاية مقالهم. ومن لم يكن كذلك فليس على هديهم ولا على طريقتهم، فمن كان مستنّاً فليستنّ، ومن تعاطى أحوال المجانين والجنون فهو من أخسّهم حالاً، والجنون فنون». الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٦٦.

(١) وانظر: معنى الآيتين في: جامع البيان: ٩/ ١٦٦ ـ ١٦٨، طبعة: دار الفكر. معالم التّنزيل: ٢/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦. فتح القدير: ٢/ ٢٨٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٢) ذهب بعض أهل العلم بأنّ المراد بالذّكر في الآية الصّلاة خاصّة. وذلك بأن يصلّي الإنسان قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب. وذلك لما ورد في حديث عمران بن حصين ﷺ قال: كانت بي بواسير، فسألت النّبي ﷺ فقال: «صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب». صحيح البخاري، كتاب تقصير الصّلاة (الصلاة): (١٨/ ٥)، باب إذا لم يطق قاعداً صلّى على جنب: (١٩/ ٤٧٦)، برقم: (١١١٧)، ص: ٢٣٧.

وسائر المفسّرين على أنّ المراد بذلك المداومة على الذّكر في كلّ الأحوال، لأنّ الإنسان قلّ ما يخلو من إحدى هذه الحالات الثّلاث المذكورة في الآية. وانظر: معالم التّنزيل: ١/ ٣٨٥.

فالأولى حمل الآية على العموم، ولذا قال ابن جريج ﷺ: «قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا﴾ الآية، قال: هو ذكر الله في الصّلاة وفي غير الصّلاة، وقراءة القرآن». =

ولذا كان ﷺ يذكر الله على كلّ أحيانه كما ذكرت ذلك عائشة رضي الله عنها عنه[1].

ولمّا طلب منه الصّحابي أن يرشده إلى أمر يتشبّث به أرشده إلى ذكر الله.

فعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أنّ رجلاً قال: يا رسول الله إنّ شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبّث به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[2].

= وقال قتادة رحمه الله: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾. وهذه حالاتك كلّها يا ابن آدم، فاذكره وأنت على جنبك، يسراً من الله وتخفيفاً». جامع البيان: ٤/ ٢١٠، طبعة: دار الفكر.

وقال ابن القيّم رحمه الله: «فعمّ بذكره أحوال العباد كلّها لأنّ العبد إمّا أن يكون قائماً، أو قاعداً، أو مضطجعاً، فأراد منه ذكره في هذه الأحوال كلّها». الصّواعق المرسلة: ٤/ ١٤٨٠.

وقال السّعدي رحمه الله: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذّكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصّلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب». تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٢٨، وهو قول حسن جامع. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٥٧. فتح القدير: ١/ ٤١٢.

(١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النّبي ﷺ يذكر الله على كلّ أحيانه». صحيح مسلم، كتاب الحيض: (٣)، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها: (٣٠)، برقم: (٣٧٣)، ١/ ٢٨٢.

قال المناوي رحمه الله: «كان المصطفى ﷺ أكمل النّاس ذكراً، بل كان كلامه كلّه في ذكر الله وما والاه، أمره ونهيه وتشريعه وإخباره عن أسماء الرّب وصفاته، وأحكامه وأفعاله ووعده ووعيده وتمجيده وتسبيحه وتحميده ورغبته ورهبته ذكراً منه بلسانه، وصمته ذكر منه بقلبه في كلّ أحيانه». فيض القدير: ٣/ ٥٦٤.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب ما جاء في فضل الذّكر: (٤)، برقم: (٣٣٧٥)، وقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٥٣٤.

سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب الأدب: (٣٣)، باب فضل الذّكر: (٥٣)، برقم: (٣٧٩٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٠٥.

سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب طوبى لمن طال عمره وحسن عمله: ٣/ ٣٧١، وقال عن الصّحابي: عبد الله بن بشر. =

وهذا دليل على المداومة والاستمرار عليه من غير كلل ولا ملل.

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]:

«إنّ الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلّا جعل لها حدّاً معلوماً، ثمّ عذر أهلها في حال العذر غير الذّكر، فإنّ الله تعالى لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلّا مغلوباً على تركه، فقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النّساء: ١٠٣] بالليل والنّهار، في البر والبحر، وفي السّفر والحضر، والغنى والفقر، والسّقم والصّحة، والسّر والعلانية، وعلى كلّ حال»[1].

ولمّا أمرهم سبحانه بالإكثار منه والمداومة عليه ورغّبهم بالأجر والثّواب على ذلك حذّرهم في مقابله عن الالتهاء والتّشاغل عنه، والانصراف عن ملازمته، والبعد عن ممارسته، والغفلة عن مداومته، إذ في الانشغال عنه، والالتهاء بغيره مجلبة للخسران العظيم، ومضيعة للثّواب الجسيم، ومفارقة للخير الجزيل، والأجر الوفير. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾ [المنافقون: ٩].

قال ابن كثير رحمه الله:

«يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك، ومخبراً لهم بأنّه من التهى بمتاع الحياة الدّنيا

= الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر الاستحباب للمرء دوام ذكر الله جلّ وعلا في الأوقات والأسباب. قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده قوي»، برقم: (٨١٤)، ٣/ ٩٦.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٦٧٢، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٨٨. وأورده ابن جرير رحمه الله في جامع البيان، فساقه بسنده إلى ابن عبّاس رضي الله عنهما: ٢٢/ ١٧، طبعة: دار الفكر.

وزينتها عمّا خلق له من طاعة ربّه وذكره، فإنّه من الخاسرين الّذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة»[1].

وقال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإنّ في ذلك الرّبح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإنّ محبّة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النّفوس، فتقدّمها على محبّة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي يلهه ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ للسّعادة الأبديّة، والنّعيم المقيم، لأنّهم آثروا ما يفنى على ما يبقى»[2].

ووصف سبحانه فئة من عباده سمت هممهم، وصدقت نيّاتهم، وعلت عزائمهم فعمروا بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته بذكره سبحانه، في أشرف الأوقات، وأفضل الأزمنة. لم تشغلهم عن ذلك دنيا مؤثرة، ولا حياة فانية، ولا مكاسب رخيصة، ولا عرض زائل، بل آثروا الباقية على الفانية، والدّائمة على الذّاهبة. غايتهم طاعة الله، ومرادهم عبادته، ومقصدهم رضاه، فما حال بينهم وبينه رفضوه وتركوه. راغبين إلى الله فيما عنده، راهبين من عقابه، خائفين من يوم شديد هوله، عظيم وقعه، تنزعج له القلوب، وترتجف له الأبدان، وتضطّرب فيه الأبصار. فركبوا سفينة الذّكر لترسو بهم في بر الأمان كي ينالوا عظيم الأجر. وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٨٢.

(٢) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٨٠١. وانظر: جامع البيان: ٢٨/ ١١٧ ـ ١١٨، طبعة: دار الفكر. أنوار التّنزيل: ٥/ ٣٤٣.

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ المراد بالذّكر هنا: الصّلوات الخمس، وقيل: الحجّ والزّكاة، وقيل: قراءة القرآن، وقيل: جميع الفرائض، وقيل: استدامة الذّكر. انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ١٢٩. فتح القدير: ٥/ ٢٣٣، والأولى حمل الذّكر على عمومه فيدخل فيه كلّ ما ذكر.

بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النّور: ٣٦ ـ ٣٨][١].

وفي مقابل هؤلاء وصف سبحانه فئة أخرى نسيت ذكره، وأعرضت عنه، فلم يشتغلوا به، ولم يلازموه، بل أقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها وملاذها فانشغلوا بها. فأنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها، وعظيم فوائدها، فخسرت تجارتهم، وكسدت بضاعتهم، وغبنت نفوسهم، وضاعت حظوظهم، ولازمهم الفسوق. فصاروا خارجين عن طاعة الله، هالكين مبعدين، فشقوا في الدّنيا، ونُكِّل بهم في الآخرة. وفي ذلك تحذير لأهل الإيمان من نسيان الله تعالى، والإعراض عن ذكره.

قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩][٢].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ:

«إنّ دوام ذكر الرّب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الّذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإنّ نسيان الرب ﷻ يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩]، وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها، واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك، وممّا صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره، وضيّع مصالحه فإنّه يفسد ولا بد، هذا مع إمكان قيام غيره مقامه

---

(١) وانظر في معنى الآيات: جامع البيان: ١٤٣ ـ ١٤٧، طبعة: دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٢٦٥ ـ ٢٨١. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٦٧ ـ ٤٧٣. فتح القدير: ٤/ ٣٤ ـ ٣٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٥١٨.

(٢) وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ٢٨/ ٥٢ ـ ٥٣، طبعة: دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٤٣. أنوار التّنزيل: ٥/ ٣٢٣. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٣٣. فتح القدير: ٥/ ٢٠٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٩١ ـ ٧٩٢.

فيه، فكيف الظّنّ بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها، واشتغل عن مصالحها، وعطّل مراعاتها، وترك القيام عليها بما يصلحها، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان، وهذا هو الذّي صار أمره كلّه فرطاً، فانفرط عليه أمره، وضاعت مصالحه، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك.

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلّا بدوام ذكر الله تعالى، واللّهج به، وأن لا يزال اللّسان رطباً به، وأن يتولّى منزلة حياته الّتي لا غنى له عنها، ومنزلة غذائه الّذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدّة العطش، وبمنزلة اللّباس في الحرّ والبرد، وبمنزلة الكِنّ[1] في شدّة الشّتاء والسّموم. فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم»[2].

وترك الذّكر والإعراض عنه ونسيان الله صفة ذميمة عرف بها أهل النّفاق، وسجّلها الله عليهم في قرآنه ذامّاً لهم بها، وعائباً عليهم اتّسامهم بها، لما حلّ في قلوبهم من نفاق، وساد أعمالهم من رياء، وفارقها الإخلاص، فتباطؤوا عن أشرف الأعمال وأكبر الطّاعات، فلا يؤدّونها إلّا وهم كسالى، إذ لا نيّة صحيحة لهم فيها، ولا خشية عندهم تدفعهم إلى أدائها، ولا يعقلونها ولا يرجون ثوابها. أحجمت ألسنتهم عن ذكر الله إلّا ما قلّ وندر، وما قلّ وندر رياء لا إخلاص فيه، وشك لا يقين معه. وذلك أمر يترفّع عنه أهل الإيمان المخلصون الذين امتلأت قلوبهم بتعظيم الله ومحبّة ذكره، وامتثال أمره.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

---

(١) الكِنُّ والكِنَّةُ والكِنَانُ: وِقاء كلّ شيءٍ وسِتْرُه. والكِنُّ: البيت أيضاً، والجمع أكْنانٌ وأكِنَّةٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾ [النّحل: ٨١] والكِنُّ: ما يَرُدُّ الحَرَّ والبرْدَ من الأبنية والمساكن، وقد كَنَنْتُه أكُنُّه كَنّاً. والفعل من ذلك: كَنَنْتُ الشّيء: أي جعلته في كِن. وكَنَّ الشّيءَ يَكُنُّه كَنّاً وكُنوناً وأكَنَّه وكَنَّنَه: ستره. انظر: لسان العرب: ١٣/ ٣٦٠. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٥٨٠. القاموس المحيط، ص: ١٥٨٤.

(٢) الوابل الصّيّب، ص: ٦٧. وانظر: الصّواعق المرسلة: ٤/ ١٤٨١.

وقال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾:

«فلعلّ قائلاً أن يقول: وهل من ذكر الله شيء قليل؟ قيل له: إنّ معنى ذلك بخلاف ما إليه ذهبت: إنّما معناه ولا يذكرون الله إلّا ذكراً رياءً، ليدفعوا به عن أنفسهم القتل والسّباء[1] وسلب الأموال، لا ذكر موقن مصدّق بتوحيد الله، مخلص له الرّبوبيّة. فلذلك سمّاه الله ﴿قَلِيلًا﴾، لأنّه غير مقصود به الله، ولا مبتغى به التّقرّب إلى الله، ولا مراد به ثواب الله وما عنده. فهو وإن كثر من وجه نصب عامله وذاكره، في معنى السّراب الّذي له ظاهر بغير حقيقة ماء»[2].

ويعضّد الآية السّابقة قوله ﷺ في حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشّمس حتّى إذا كانت بين قرني الشّيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلّا قليلاً»[3].

قال كعب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من أكثر ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ برئ من النّفاق»[4].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من علامة النّفاق قلّة ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ. وكثرة ذكره أمان من النّفاق.

---

(١) السّبْيُ والسّبَاءُ: الأسر، وقد سَبَيْتُ العدو: أسرته، وبابه رمى. مختار الصّحاح، ص:٢٨٥. وانظر: لسان العرب: ١٤/ ٣٦٧. القاموس المحيط، ص:١٦٦٨.

(٢) جامع البيان: ٥/ ٣٣٥، طبعة: دار الفكر. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٤٢٢. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٦٤، ٢/ ٥٧٣. فتح القدير: ١/ ٥٢٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٧٤، ٣٠٣.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب استحباب التّبكير بالعصر: (٣٤)، برقم: (٦٢٢)، ١/ ٤٣٤، وقوله: «فنقرها»: المراد بالنّقر سرعة الحركات كنقر الطّائر. شرح النووي على مسلم: ٥/ ١٢٤.

(٤) الوابل الصّيّب، ص:١١٠. جامع العلوم والحكم، ص:٤٤٥.

والله ﷻ أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنّفاق، وإنّما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ﷻ»[1].

فلمّا أعرض المنافقون عن ذكر الله وغفلوا عنه غلب عليهم الشّيطان فاستعلى على قلوبهم، واستولى على أفئدتهم فحواها وأحاط بها، فزاد نسيانهم نسياناً، وإعراضهم إعراضاً، حتّى أصبحوا جنداً له وأتباعاً، فخسروا الخسران العظيم الّذي يفوق خسران كلّ خاسر.

وفي ذلك يقول الرّب سبحانه: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة: ١٩][2].

فالشّيطان عليه لعائن الله لا يستحوذ على قلب إلّا إذا وجده خالياً عن ذكر الله، عازفاً عنه، فارغاً منه. لأنّ ذكر الله حرز من الشّيطان، عاصم منه، طارد له. كما جاء في حديث يحيى بن زكريا عليهما السلام: «وآمركم أن تذكروا الله فإنّ مثل ذلك كمثل رجل خرج العدوّ في أثره سراعاً حتّى إذا أتى على حصنٍ حصينٍ فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلّا بذكر الله..» الحديث[3].

---

(١) الوابل الصّيّب، ص:١١٠.

(٢) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ٢٨/ ٢٥، طبعة: دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦. أنوار التّنزيل: ٥/ ٣١٤. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥١٢. فتح القدير: ٥/ ١٩٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٧٨٦.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الأدب: (٤٠)، باب ما جاء في مثل الصّلاة والصّيام والصّدقة: (٧٨)، برقم: (٢٨٦٣)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب. قال محمّد بن إسماعيل: الحارث الأشعري له صحبة، وله هذا الحديث». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٥٨.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٤/ ١٣٠، ٢٠٢.
مستدرك الحاكم، ذكر جزءاً من الحديث، ولم يورد ما يتعلّق بالذّكر منه: ١/ ٣٦٢، وقال: «والحديث على شرط الأئمة صحيح محفوظ».
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٣/ ١٤٠، برقم: (١٥٧١). قال محقّقه: «إسناده صحيح».
مسند أبي داود الطّيالسي، بلفظ مقارب في: ص:١٥٩، برقم: (١١٦١).

قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومهما غلب على القلب ذكر الدّنيا بمقتضيات الهوى وجد الشّيطان مجالاً فوسوس، ومهما انصرف القلب إلى ذكر الله تعالى ارتحل الشّيطان وضاق مجاله، وأقبل الملك.. والتّطارد بين جندي الملائكة والشّياطين في معركة القلب دائم إلى أن ينفتح القلب لأحدهما، فيستوطن ويستمكن، ويكون اجتياز الثّاني اختلاساً. وأكثر القلوب قد فتحتها جنود الشّياطين وتملّكتها فامتلأت بالوساوس الداعيّة إلى إيثار العاجلة واطّراح الآخرة، ومبدأ استيلائها اتّباع الشّهوات والهوى، ولا يمكن فتحها بعد ذلك إلّا بتخلية القلب عن قوت الشّيطان وهو الهوى والشّهوات، وعمارته بذكر الله تعالى»[1].

فإنّ الذّاكر في حصن الذّكر، فمتى غفل فتح باب الحصن فولجه العدّو فيعسر عليه، أو يصعب إخراجه[2].

وفوق ذلك كلّه فإنّ الذّكر عامل مؤثّر في كشف الملمّات، وتفريج الكربات، لأنّ فيه لجوءاً إلى الله تعالى، مزيل كلّ شدّة، ومهوّن كلّ صعب. ولذا أرشد قدوة الأنام إليه في قوله له: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أي وإنّا لنعلم يا محمّد أنّك يحصل لك من أذاهم لك ضيق صدر وانقباض، فلا يَهِيدنّك[3] ذلك، ولا يثنينّك عن إبلاغك رسالة الله، وتوكّل عليه فإنّه كافيك وناصرك عليهم، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصّلاة، ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾»[4].

---

(١) إحياء علوم الدّين: ٣/٢٨، طبعة: دار المعرفة.

(٢) الفوائد، ص: ١٩١.

(٣) هادَه الشّيءُ هَيْداً وهاداً: أفزَعَه وكَرَبَه، وما يَهِيدُه ذلك: أي ما يَكْتَرِثُ له ولا يُزْعِجُه. لسان العرب: ٣/ ٤٤٠. وانظر: القاموس المحيط، ص: ٤٢٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٢/٨٦٨.

وقال السّعدي رَحِمَهُ اللهُ:

«أي: أكثر من ذكر الله، وتسبيحه، وتحميده، والصّلاة، فإنّ ذلك يوسّع الصّدر، ويشرحه، ويعينك على أمورك»[1].

ومن هنا كان الذّكر من أعظم العوامل المعينة على الثّبات، بل قرنه الله بالثّبات في كتابه، فقال سبحانه عن القرآن الّذي هو أعظم الذّكر على الإطلاق: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

فقد أنزل الذّكر العظيم على الرسول الكريم ﷺ منجّماً أي مفرّقاً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبّت فؤاد النّبي ﷺ، ويقوّي يقينه، ويطمئن قلبه[2].

وليس ذلك خاصّاً بالرّسول ﷺ بل هو عام لكلّ مؤمن، فإنّ الذّكر يثبّت قلبه، ويقوّي إيمانه، ويزداد طمأنينة وهدى. وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢][3].

وهذا على عمومه، وأمّا عند جهاد أعداء الله الّذي هو موطن الحديث فإنّ الذّكر له تأثير عظيم وبالغ في إعانة المجاهد وتأييده، وصبره وثباته، وفوزه ونصرته. بل هو أعظم عامل للثّبات في ذاك المقام، ولذا قرنه الله بالجهاد،

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص٣٨٨.

(٢) وانظر في معنى الآية: معالم التّنزيل: ٣/٣٦٨. الجامع لأحكام القرآن: ١٣/٢٨ ـ ٢٩. أنوار التّنزيل: ٤/٢١٦ ـ ٢١٧. تفسير القرآن العظيم: ٣/٥٠٨. فتح القدير: ٤/ ٧٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٣٠ ـ ٥٣١.

(٣) وانظر في معنى الآية: معالم التّنزيل: ٣/ ٨٤ ـ ٨٥ الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٧٧. أنوار التّنزيل: ٣/ ٤٢٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩٠٩. فتح القدير: ٣/ ١٩٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٠١.
والآيتان تتحدّثان عن القرآن، والقرآن ذكر كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

فقال آمراً للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أي: جماعة ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ أمر بالثّبات عند قتال الكفّار، كما في الآية قبلها[1] النّهي عن الفرار عنهم، فالتقى الأمر والنّهي على سواء. وهذا تأكيد على الوقوف للعدّو والتّجلّد له. قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ للعلماء في هذا الذّكر ثلاثة أقوال:

الأوّل: اذكروا الله عند جزع قلوبكم، فإنّ ذكره يعين على الثّبات في الشّدائد.

الثّاني: اثبتوا بقلوبكم، واذكروه بألسنتكم، فإنّ القلب لا يسكن عند اللّقاء ويضطرب اللّسان، فأمر بالذّكر حتّى يثبت القلب على اليقين، ويثبت اللّسان على الذّكر، ويقول ما قاله أصحاب طالوت: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠]. **وهذه الحالة لا تكون إلّا عن قوّة المعرفة، واتّقاد البصيرة، وهي الشّجاعة المحمودة في النّاس.**

الثّالث: اذكروا ما عندكم من وعد الله لكم في ابتياعه أنفسكم، ومثامنته لكم. قلت: والأظهر أنّه ذكر اللّسان الموافق للجنان»[2].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فأمر تعالى بالثّبات عند قتال الأعداء والصبّر على مبارزتهم، فلا يفرّوا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكّلوا عليه، ويسألوه النّصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا»[3].

---

(١) الآية هي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: ١٥].

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٣ ـ ٢٤.

ونحو الآية السّابقة قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء: ١٠٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ذهب الجمهور إلى أنّ هذا الذّكر المأمور به إنّما هو إثر صلاة الخوف، أي إذا فرغتم من الصّلاة فاذكروا الله بالقلب واللّسان، على أي حال كنتم ﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ وأديموا ذكره بالتّكبير والتّهليل والدّعاء بالنّصر لا سيما في حال القتال. ونظيره: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾»[1].

وفي حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن رسول الله ﷺ قال: «لا تتمنّوا لقاء العدوّ واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله، فإن أجلبوا[2] وضجّوا فعليكم بالصّمت»[3].

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٩٦. وانظر: فتح القدير: ٢/ ٣١٤ ـ ٣١٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤. وانظر: جامع البيان: ٥/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠. طبعة: دار الفكر، فتح القدير: ١/ ٥١٠.

(٣) يقال: أجلَبوا عليه: إذا تَجمَّعوا وتألَّبُوا، وأجلَبَه: أعانه، وأجْلب عليه: إذا صاح به واستَحثَّه. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٨٢.

(٤) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب الصّبر عند القتال: (٣٢)، برقم: (٢٨٣٣)، ص:٥٩٩، وفي باب كان النّبي ﷺ إذا لم يقاتل أوّل النّهار أخّر القتال حتّى تزول الشّمس: (١١٢/ ١١١)، برقم: (٢٩٦٦)، ص:٦٢٤، وفي باب لا تتمنّوا لقاء العدوّ: (١٥٦/ ١٥٥)، برقم: (٣٠٢٥)، ص:٦٣٦ ـ ٦٣٧، وفي كتاب التّمنّي: (٩٤/ ٦٩)، باب كراهيّة تمنّي لقاء العدوّ: (٨)، برقم: (٧٢٣٧)، ص:١٥٢٤، عن عبد الله بن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
صحيح مسلم، نحوه في: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب كارهة تمنّي لقاء العدوّ، والأمر بالصّبر عند اللّقاء: (٦)، برقم: (١٧٤١)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبرقم: (١٧٤٢)، ٣/ ١٣٦٢ ـ ١٣٦٣، عن ابن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واللّفظ أعلاه أورده الدّارمي في سننه، في باب لا تتمنّوا لقاء العدوّ: ٢/ ٢٨٥، وعند البيهقي في سننه لفظ مقارب له، في باب الصّمت عند اللّقاء: ٩/ ١٥٣. =

«افترض الله ذكره عند أشغل ما تكونون، عند الضّراب بالسّيوف»[1].

وسرّ حصول الثّبات بالذّكر عند الجهاد لما للذّكر من أثر عظيم على القلوب الّتي هي موطن الثّبات، ومقرّه الأوّل، ويتمثّل ذلك في عدّة أمور:

أ ـ توجل القلوب من ربّها فيزداد إيمانها ويقينها، فتنقاد لأوامره، وتتجنّب معاصيه. ومن ذلك ما أمرت به من الثّبات لقتال الأعداء، وعدم الفرار.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢][2].

قال أبو الدّرداء رضي الله عنه:

«الوجل في القلب كإحراق السّعفة، أما تجد له قشعريرة؟ قال: بلى! قال: إذا وجدت ذلك في القلب فادع الله، فإنّ الدّعاء يذهب بذلك»[3].

قال الشّوكاني رحمه الله:

«الوجل: الخوف والفزع، والمراد أنّ حصول الخوف من الله والفزع منه عند ذكره هو شأن المؤمنين الكاملي الإيمان المخلصين لله، فالحصر باعتبار

= قال ابن القيّم رحمه الله:
«التّفضيل بين الذّاكر والمجاهد: فإنّ الذّاكر المجاهد أفضل من الذّاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل، والذّاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى، فأفضل الذّاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذّاكرون». الوابل الصّيّب، ص:٥٨.
وانظر: الصّواعق المرسلة: ٤/ ١٤٨٠ ـ ١٤٨١.

(١) جامع البيان: ١٠/ ١٤، طبعة: دار الفكر. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٢٤. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٩٦.

(٢) ومثلها: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣٥﴾ [الحج: ٣٥].
وفي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون»، والموعظة ذكر. وانظر تخريجه، ص:٨١٠.

(٣) جامع البيان: ٩/ ١٧٩، طبعة: دار الفكر.

كمال الإيمان لا باعتبار أصل الإيمان»[1].

فأهل الإيمان الحقّ هم الّذين إذا ذكروا الله فرقت قلوبهم وفزعت وخافت، ففعلوا الأوامر وتركوا الزواجر، ولازموا الطّاعات وجانبوا المعاصي، تعظيماً لله وإجلالاً لقدره.

وهذا أعظم ما يحتاج له المجاهد في سبيل الله حيث يزداد يقينه، ويقوى إيمانه، فيكل أمره إلى مولاه، وشأنه إلى خالقه، فلا يعبأ بذهاب الروح، ولا تلف الجسد.

قال ابن رجب رحمه الله:

«ويدخل في مسمّى الإيمان وجل القلوب من ذكر الله، وخشوعها عند سماع ذكره وكتابه، وزيادة الإيمان بذلك، وتحقيق التّوكّل على الله عز وجل، وخوف الله سرّاً وعلانية، والرّضا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، واختيار تلف النّفوس بأعظم أنواع الآلام على الكفر، واستشعار قرب الله من العبد، ودوام استحضاره، وإيثار محبّة الله ورسوله على محبّة ما سواهما»[2].

ب ـ يقذف فيها الطّمأنينة ويبثّ فيها السّكينة، فتستأنس بربّها، وتركن إلى جناب مولاها، فيزول قلقها ويذهب اضطّرابها، وتزداد غبطتها ويكثر سرورها، وتذهب أحزانها وتغيب أتراحها، فتشتاق إلى لقاء ربّها وتسعد بالقدوم إلى خالقها، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨][3].

---

(١) فتح القدير: ٢/ ٢٨٥.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص: ٣٢.

(٣) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ١٣/ ١٤٥، طبعة: دار الفكر. معالم التّنزيل: ٣/ ١٧ ـ ١٨. والجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣١٥. أنوار التّنزيل: ٣/ ٣٢٨. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٩٢. فتح القدير: ٣/ ٨١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٧٢.
قال البغوي رحمه الله: «فإن قيل: أليس قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، فكيف تكون الطّمأنينة والوجل في حالة واحدة؟ =

وفي حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أنّهما شهدا على النّبي ﷺ أنّه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلّا حفّتهم الملائكة، وغشيتهم الرّحمة، ونزلت عليهم السّكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

ج - تتشرح به وتنفسح، وتلين وتخشع وترقّ، فتزول قسوتها، وتذوب صلابتها.

وفي ذلك يقول المولى عز وجل: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٢ - ٢٣].

ويقول: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦][2].

عن مالك رحمه الله أنّه بلغه: أنّ عيسى ابن مريم عليه السلام كان يقول: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم، فإنّ القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. . .» الحديث[3].

= قيل: الوجل عند ذكر الوعيد والعقاب، والطّمأنينة عند ذكر الوعد والثّواب، فالقلوب توجل إذا ذكرت عدل الله وشدّة حسابه، وتطمئن إذا ذكرت فضل الله وكرمه». معالم التّنزيل: ٣/ ١٧ - ١٨. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٦٥ - ٣٦٦.

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذّكر: (١١)، برقم: (٢٧٠٠)، ٤/ ٢٠٧٤.

(٢) وانظر في معاني الآيات: جامع البيان: (٢٣/ ٢١٠ - ٢١١، ٢٧/ ٢٢٨ - ٢٢٩، طبعة: دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٤٦ - ٢٥٠، ١٧/ ٢٤٨ - ٢٤٩. أنوار التّنزيل: ٥/ ٦٣ - ٦٤، ٣٠٠ - ٣٠١. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٧ - ٧٨، ٤٨٣ - ٤٨٥. فتح القدير: ٤/ ٤٥٨ - ٤٥٩، ٥/ ١٧٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٦٨، ٧٨٠.

(٣) موطّأ مالك، كتاب الكلام: (٥٦)، باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله: (٣)، برقم: (٨)، ٢/ ٩٨٦. وأورد التّرمذي في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال=

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إنّ في القلب قسوة لا يذيبها إلّا ذكر الله تعالى، فينبغي للعبد أن يداوي قسوة قلبه بذكر الله تعالى... إنّ رجلاً قال للحسن: يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أذبه بالذّكر. وهذا لأنّ القلب كلّما اشتدّت به الغفلة اشتدّت به القسوة، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرّصاص في النّار، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله ﷻ»[1].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«رقّة القلوب فتنشأ عن الذّكر، فإنّ ذكر الله يوجب خشوع القلب، وصلاحه، ورقّته، ويذهب بالغفلة عنه»[2].

د ـ تحيا به كما تحيا الأرض الميتة بالقطر.

إنّ الذّكر ينبّه القلب من نومه، ويوقظه من سَنَته، والقلب إذا كان نائماً فاتته الأرباح والمتاجر، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته شدّ المئزر وأحيا بقية عمره، واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلّا بالذّكر، فإنّ الغفلة نوم ثقيل[3].

هـ ـ تستنير به، وتذهب ظلمة الذّنوب ووحشتها عنها، وينقشع الرّان[4] الّذي عليها، ويذهب صدؤها ويذوب درنها، فتصفو وتجلو، ويطيب ريحها، وينصع طيبها.

= رسول الله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإنّ كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإنّ أبعد النّاس من الله القلب القاسي»، في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب: (٦٢)، برقم: (٢٤١١)، وقال: «هذا حدث حسن غريب». وقال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضعيف»، ص: ٣٩٤.

(١) الوابل الصّيّب، ص: ٩٩.

(٢) لطائف المعارف، ص: ١٣.

(٣) الوابل الصّيّب، ص: ٩٢. وانظر: مدارج السّالكين: ٢/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥. لطائف المعارف، ص: ١٤.

(٤) الرّان والرّين: هو ما يغشى القلب فيغلب عليه ويغطّيه كالصّدأ. انظر: لسان العرب: ١٣/ ١٩٢.

وقال أبو الدّرداء رضي الله عنه:

«لكلّ شيء جلاء، وإنّ جلاء القلوب ذكر الله عزّ وجلّ»[1].

وقال المناوي رحمه الله:

«ذكر الله أفضل الأعمال، ورأس كلّ عبادة، ورأس كلّ سعادة، بل هو كالحياة للأبدان، والرّوح للإنسان، وهل للإنسان غنى عن الحياة؟ وهل له من الرّوح معدل؟ وإن شئت قلت به لقاء الدّنيا، وقيام السّموات والأرض»[2].

وقال: «إذ به يستنير القلب، ويتّسع الصّدر، ويمتلئ فرحاً وسروراً، وشرف الذّكر تابع لشرف المذكور، وشرف العلم تابع لشرف المعلوم، وشرف الشّيء بسبب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح بشيء أعظم من ذكر بارئها، والابتهاج به»[3].

ولا ريب أنّ القلب يصدأ كما يصدأ النّحاس والفضّة وغيرهما، وجلاؤه بالذّكر، فإنّه يجلوه حتّى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك صدئ. وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذّنب. وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذّكر. فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصّدأ متراكباً على قلبه، وصدؤه بحسب غفلته، وإذا

---

(١) شعب الإيمان: ١/ ٣٩٦.
عن سعيد بن سنان حدثني أبو الزّهراويّة عن أبي شجرة واسمه كثير بن مرّة عن عبد الله بن عمر عن النّبي ﷺ أنّه كان يقول: «إنّ لكلّ شيء سقالة، وأنّ سقالة القلوب ذكر الله، وما من شيء أنجى من عذاب الله من ذكر الله»، قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولو أن تضرب بسيفك حتّى ينقطع»، أورده البيهقي في: شعب الإيمان: ١/ ٣٩٦، والمنذري في: التّرغيب والتّرهيب: ٢/ ٢٥٤، وقال: «رواه ابن أبي الدّنيا والبيهقي من رواية سعيد بن سنان واللّفظ له»، وسعيد بن سنان هو أبو مهدي الحمصي، متروك، ورماه الدّراقطني بالوضع. وذكر أبو حاتم أنّه يروي عن أبي الزّهراويّة عن كثير بن مرّة عن ابن عمر عن النّبي ﷺ بنحو من ثلاثين حديثاً أحاديث منكرة. وانظر في ترجمته: التّاريخ الكبير: ٣/ ٤٧٧. ضعفاء العقيلي: ٢/ ١٠٧. الجرح والتّعديل: ٤/ ٢٨. المجروحين: ١/ ٣٢٢. الكامل في ضعفاء الرّجال: ٣/ ٣٥٩. تهذيب الكمال: ١٠/ ٤٩٥. الكاشف: ١/ ٤٣٨. تهذيب التّهذيب: ١٢/ ١٣٣. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٣٧.

(٢) فيض القدير: ٢/ ٤٣.

(٣) المرجع السّابق: ٢/ ٨٤.

صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحقّ والحقّ في صورة الباطل، لأنّه لمّا تراكم عليه الصّدأ أظلم، فلم تظهر فيه صورة الحقّائق كما هي عليه، فإذا تراكم عليه الصّدأ واسودّ وركبه الرّان فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقّاً، ولا ينكر باطلاً، وهذا أعظم عقوبات القلب. وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى، فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره. قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨][1].

و ـ يزداد به أمنها، وتذهب به مخاوفها، فتقوى وتشتدّ، ويزداد ثباتها، ويزيد صبرها.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ يذهب عن القلب مخاوفه كلّها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الّذي قد اشتدّ خوفه أنفع من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، إذ بحسب ذكره يجد الأمن، ويزول خوفه حتّى كأنّ المخاوف الّتي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه، حتّى كأنّ ما هو فيه من الأمن كلّه مخاوف»[2].

وقال السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ الخوف يوجب قلق القلب وخوفه، وهو مظنّة لضعفه. وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدوّ. والذّكر لله والإكثار منه من أعظم مقوّيات القلب»[3].

ز ـ تشفى به من سقمها، وتصحّ به من دائها الّذي تجلبه الغفلة والذّنوب لها، فتسلم وتعافى، فيستقيم أمرها، ويكثر خيرها.

---

(١) الوابل الصّيّب، ص: ٦٠، بتصرّف يسير.
(٢) المرجع السّابق، ص: ١٠٥ ـ ١٠٦.
(٣) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٦٢.

قال مكحول رَحِمَهُ اللَّهُ:

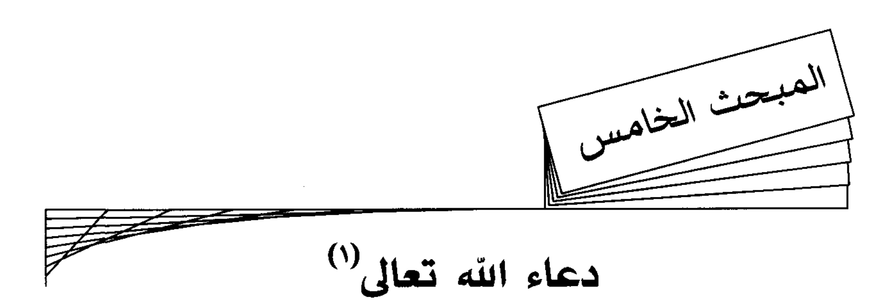
«ذكر الله تعالى شفاء، وذكر النّاس داء»(١).

فالقلوب المؤمنة إذا خافت من ربّها، وازداد يقينها وإيمانها، واستقرّت الطّمأنينة في سويدائها، وحفّت بها السّكينة، وغشيتها الرّحمة، وزال قلقها واضطّرابها، وانشرحت وانفسحت، ولانت وخشعت ورقّت، وذهبت يبوستها وغارت قسوتها، واستنارت فذهبت ظلمتها، وانقشع صدؤها وكملت حياتها، وازداد أمنها وذهب خوفها، وقوي عودها وشفيت من سقمها، وتلاشى كدرها وتبدّدت غفلتها سهل عليها الثّبات في مواطن الشّدّة، وأماكن الضيق الّتي منها الجهاد في سبيل الله تعالى. فتقوى حينئذٍ عزائم أصحابها، وترسخ أقدامهم، فيصولون ويجولون غير هائبين ولا خائفين، لا يفرّون ولا يهربون، إنّما يثبتون ويصبرون حتّى يأتي النّصر من عند الله تعالى. فيعزّ به أهل الإيمان، ويذلّ به أهل الكفر والطّغيان.



---

(١) الوابل الصّيّب، ص:٩٩. وانظر: فيض القدير: ٣/ ٥٦٤. وفي شعب الإيمان للبيهقي: قال ابن عون رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر النّاس داء، وذكر الله دواء»: ١/ ٤٥٩.



دعاء الله تعالى[1]

يقال: دعوت الله إذا سألته وإذا استغثته[2].

وفي الاصطلاح: طلب الأدنى بالقول من الأعلى شيئاً على جهة الاستكانة[3].

وهو في الشّرع نوعان:

١ ـ دعاء مسألة: وهو طلب ما ينفع الدّاعي، وطلب كشف ما يضرّه أو دفعه، وكل من يملك الضّر والنّفع فإنّه هو المعبود حقّاً، والمعبود لا بد أن يكون مالكاً للنّفع والضرّر[4].

---

(١) الدعاء من عوامل الثّبات العامّة، ولكن أوردته هنا تبعاً للقرآن لإيراده له كعامل للثّبات في موطن الجهاد.

(٢) انظر: المفردات، ص:١٧٠. لسان العرب: ١٤/ ٢٥٧، وقد سبق إطلاقات كلمة الدّعاء في باب الدّعوة. انظر: ص:٣٩٦ ـ ٣٩٨.
قال الرّاغب رحمه الله: «الدّعاء كالنّداء، إلّا أنّ النّداء قد يقال بيا أو أيا، ونحو ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدّعاء لا يكاد يقال إلّا إذا كان معه الاسم نحو يا فلان، وقد يستعمل كلّ واحد منهما موضع الآخر»، المفردات، ص:١٦٩ ـ ١٧٠.

(٣) تحفة الأحوذي: ٩/ ٢١٨.

(٤) بدائع الفوائد: ٣/ ٥١٣. وانظر: مجموع الفتاوى: ١٠/ ٢٣٧، ١٧/ ١٠.
وهو على ثلاثة أقسام: أحدها: أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وهذا أحد التّأويلين في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].
والثّاني: أن تسأله بحاجتك وفقرك فتقول: أنا العبد الفقير المسكين البائس الذّليل المستجير ونحو ذلك.
والثّالث: أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين. فالأوّل أكمل من الثّاني، =

٢ ـ دعاء عبادة: وهو الّذي يتضمّن الثّناء على الله بما هو أهله، ويكون مصحوباً بالخوف والرّجاء[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ دعاء الله قد يكون دعاء عبادة لله فيثاب العبد عليه في الآخرة مع ما يحصل له في الدّنيا، وقد يكون دعاء مسألة تقضى به حاجته، ثمّ قد يثاب عليه إذا كان ممّا يحبّه الله، وقد لا يحصل له إلّا تلك الحاجة، وقد يكون سبباً لضرر دينه فيعاقب على ما ضيّعه من حقوق الله سبحانه، وعلى ما تعدّاه من حدوده»[2].

= والثّاني أكمل من الثّالث، فإذا جمع الدّعاء الأمور الثّلاثة كان أكمل، وهذه عامّة أدعية النّبي ﷺ.

وفي الدّعاء الّذي علّمه صدّيق الأمّة رضي الله عنه ذكر الأقسام الثّلاثة، فإنّه قال في أوّله: «ظلمت نفسي ظلماً كثيراً» وهذا حال السّائل. ثمّ قال: «وإنّه لا يغفر الذّنوب إلّا أنت». وهذا حال المسؤول. ثمّ قال: «فاغفر لي» فذكر حاجته، وختم الدّعاء باسمين من الأسماء الحسنى تناسب المطلوب وتقتضيه. جلاء الأفهام، ص:١٥٣، بتصرّف يسير جداً.

وحديث الصّدّيق رضي الله عنه المشار إليه أورده البخاري في صحيحه في: كتاب الأذان (الصلاة): (١٠/ ٥)، باب الدّعاء قبل السّلام: (١٤٩/ ٣٠٠)، برقم: (٨٣٤)، ص:١٨٣، وفي كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب الدّعاء في الصّلاة: (١٧)، برقم: (٦٣٢٦)، ص:١٣٥٠، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النّساء: ١٣٤]: (٩)، برقم: (٧٣٨٧، ٧٣٨٨)، ص:١٥٥٢.

ومسلم في صحيحه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب استحباب خفض الصّوت في الذّكر: (١٣)، برقم: (٢٧٠٥)، ٤/ ٢٠٧٨.

(١) نضرة النّعيم: ٥/ ١٩٠٢. وانظر: بدائع الفوائد: ٣/ ٥١٣.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «كلّ دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكلّ دعاء مسألة متضمّن لدعاء العبادة، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدّعاء، وبكلّ منهما فسّرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني. والقولان متلازمان. وليس هذا من استعمال اللّفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللّفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمّنة للأمرين جميعاً». بدائع الفوائد: ٣/ ٥١٤.

(٢) اقتضاء الصّراط المستقيم، ص:٤١٤.

والمراد بالدّعاء أن يرغب العبد إلى الله، ويطلب منه العناية والتّوفيق، ويستمدّ منه المعونة في جميع ما يحتاج إليه من أموره.

وحقيقته أن يظهر لربّه سبحانه غاية التّذلّل والافتقار إليه، واستكانة له، وأن يتبرّأ من الحول والقوّة، وذلك سمة العبوديّة، وأن يستشعر الذّلّ للمولى جلّ وعلا[1].

ودعاء الله من أفضل العبادات وأشرف الطّاعات، ولذلك سمّاه الله تعالى: عبادة، فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وهو بذلك يدعو عباده أن يدعوه ويتقربوا إليه به، ووعدهم عليه بالإجابة، وحذّرهم من الانصراف والإعراض عنه، وأوعدهم العذاب بالتّعالي عليه[2].

---

(١) وانظر: فتح الباري: ١١/٩٥، طبعة: دار المعرفة. فيض القدير: ١/٢٢٨.
وقد ورد في القرآن على أوجه منها: القول، العبادة، النّداء، الاستعانة، الاستغاثة، العذاب والعقوبة، الغرض والسّؤال، التّسمية. انظر: فتح الباري: ١١/٩٤، طبعة: دار المعرفة. وانظر: نضرة النّعيم: ٥/١٩٠٤، ففيه تفاصيل ذلك.

(٢) وانظر: جامع البيان: ٢٤/٧٨ ـ ٧٩، طبعة: دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٣٢٦ ـ ٣٢٨. أنوار التّنزيل: ٥/٩٩. تفسير القرآن العظيم، ص:٤/١٢٩. فتح القدير: ٤/٤٩٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٨٧. وقد اختلف أهل العلم في المراد بالدّعاء في الآية. هل هو مطلق العبادة أم المراد به السّؤال؟ وذلك لأنّ الله توعّد بالعذاب من استكبر عن عبادته. وهذا لا يتأتّى إلّا في العبادة المعلومة، إذ عدم سؤاله سبحانه لا يبلغ بالإنسان إلى أن يتوعّد بذلك الوعيد. ثمّ ذكرُ العبادة في الآية قرينة تبيّن المراد. ومن فسّر الدّعاء بالسّؤال صرف الوعيد لمن استكبر عن سؤاله. وحديث النّعمان يرجح الوجه الثّاني، ولذا قال الحافظ ابن كثير ﵀: «هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنّه ندب عباده إلى دعائه، وتكفّل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثّوري يقول: «يا من أحبّ عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله، وليس أحد كذلك غيرك يا ربّ»، رواه ابن أبي حاتم وفي هذا المعنى يقول الشّاعر:

اللّه يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب

... وقال الإمام أحمد: ... عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدعُ الله ﷻ غضب عليه»، تفرّد به أحمد وهذا إسناد لا بأس به... وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ أي عن دعائي وتوحيدي، ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ =

وفي حديث النّعمان بن بشير رضي الله عنه قال: سمعت النّبي ﷺ يقول: «الدّعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾»[(١)].

= أي صاغرين حقيرين». تفسير القرآن العظيم: ٤/١٢٨ ـ ١٢٩.
والحديث الّذي أشار إلى تفرّد الإمام أحمد به شاركه غيره في روايته، فقد رواه التّرمذي في سننه بلفظ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»، في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (٣)، برقم: (٣٣٧٣). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٥٣٤، وابن ماجه في سننه بلفظ: «من لم يدع الله سبحانه غضب عليه»، في: كتاب الدّعاء: (٣٤)، باب فضل الدّعاء: (١)، برقم: (٣٨٢٧). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٤١٠، وأحمد في المسند كرواية ابن ماجه ـ إلّا إنّه لم يذكر: «سبحانه» ـ في: ٢/٤٤٣، ونحوه في: ٢/٤٤٢، والحاكم في مستدركه، بلفظ مقارب لرواية ابن ماجه، في: ١/٦٦٧، ومع زيادة فيه في: ١/٦٦٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد»، وأبو يعلى في مسنده: نحوه، برقم: (٦٦٥٥). قال حسين أسد: «إسناده صحيح»: ١٢/١٠، والبخاري في الأدب المفرد، مراجعة: محمّد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، ١٩٨٩م ـ ١٤٠٩هـ، نحوه في: ص:٢٢٩.
وقال تقي الدّين السّبكي: «الأولى حمل الدّعاء في الآية على ظاهره، وأمّا قوله بعد ذلك: ﴿عَنْ عِبَادَتِي﴾ فوجه الرّبط أنّ الدّعاء أخصّ من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدّعاء، وعلى هذا فالوعيد إنّما هو في حقّ من ترك الدّعاء استكباراً، ومن فعل ذلك كفر. وأمّا من تركه لمقصد من المقاصد فلا يتوجّه إليه الوعيد المذكور، وإنّ كنّا نرى أنّ ملازمة الدّعاء والاستكثار منه أرجح من التّرك لكثرة الأدلّة الواردة في الحثّ عليه»، نقلاً عن فتح الباري: ١١/٩٥، طبعة: دار المعرفة. تحفة الأحوذي: ٩/٢٢٠. وانظر: شرح الزّرقاني على الموطّأ: ٢/٤٤.

(١) سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب الوتر: (٨)، باب الدّعاء: (٢٣)، برقم: (١٤٧٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:١٧٧.
سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة المؤمن: (٤٠)، برقم: (٣٢٤٧)، ص:٥١٥، وفي كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (٢)، برقم: (٣٣٧٢)، ص:٥٣٤، وبلفظ مقارب في: باب ومن سورة البقرة: (٢)، برقم: (٢٩٦٩)، ص:٤٧٥، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح».
سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب الدّعاء: (٣٤). باب فضل الدّعاء: (١)، برقم: (٣٨٢٨). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤١٠.
سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب سورة غافر: ٦/٤٥٠.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر البيان بأنّ دعاء=

فقوله: «هو العبادة»، أي: معظمها. كقوله ﷺ: «الحجّ عرفة»[1].

أي معظم أركانها[2].

= المرء ربّه في الأحوال من العبادة الّتي يتقرّب بها إلى الله جلّ وعلا، برقم: (٨٩٠).
قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ٣/ ١٧٢.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٦٦٧، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، ونحوه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في: ١/ ٦٦٧.
معجم الطّبراني الصّغير، بلفظ مقارب، زاد: «يعني دعائي»، في: ٢/ ٢٠٨.
مسند الشّهاب، بلفظ مقارب في: ١/ ٥٢، برقم: (٣٠).
الأدب المفرد، نحوه في: ص:٢٤٩، برقم: (٧١٤).
وقوله: ﴿دَاخِرِينَ﴾: أي ذليلين. انظر: المفردات، ص:١٦٦.

(١) هذا جزء من حديث عبد الرّحمٰن بن يعمر الدّيلي رضي الله عنه، وهو في:
سنن أبي داود، بلفظ: «الحجّ الحجّ يوم عرفة»، كتاب المناسك: (١١)، باب من لم يدرك عرفة: (٦٨)، برقم: (١٩٤٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٢٢٤.
سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الحجّ: (٦)، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحجّ: (٥٧)، برقم: (٨٨٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:١٦٣.
سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب مناسك الحجّ: (٢٤)، باب فرض الوقوف بعرفة: (٢٠٣)، برقم: (٣٠١٦)، ص:٣٢٠، وفي باب فيمن لم يدرك صلاة الصّبح مع الإمام بالمزدلفة: (٢١١)، برقم: (٣٠٤٤). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٢٢.
سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب المناسك: (٢٥)، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع: (٥٧)، برقم: (٣٠١٥). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٢٧.
سنن البيهقي، بلفظه في: باب إدراك الحجّ بإدراك عرفة قبل طلوع الفجر من يوم النحر: ٥/ ١٧٣.
مسند أحمد، بلفظه في: ٤/ ٣٠٩، وبلفظ: «الحجّ حجّ عرفة»، في: ٤/ ٣٣٥.
صحيح ابن خزيمة، لأبي بكر محمّد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: محمّد مصطفى الأعظمي، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، بلفظه في: ٤/ ٢٥٧، برقم: (٢٨٢٢)
سنن الدّارقطني، لأبي الحسن علي بن عمر الدّارقطني، تحقيق: السّيد عبد الله هاشم يماني المدني، طبعة: دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، بلفظه في: باب المواقيت: ٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١.
مستدرك الحاكم، بلفظه في: ١/ ٦٣٥، ٢/ ٣٠٥، وقال: «هذا حديث صحيح ولم يخرجاه».

(٢) انظر: تحفة الأحوذي: ٩/ ٢٢٠.

أو هو العبادة، أي هو العبادة الحقيقية الّتي تستأهل أن تسمّى عبادة، لدلالته على الإقبال على الله، والإعراض عمّا سواه بحيث لا يرجو ولا يخاف إلّا إيّاه، قائماً بوجوب العبوديّة، معترفاً بحقّ الرّبوبيّة، عالماً بنعمة الإيجاد، طالباً لمدد الإمداد على وفق المراد، وتوفيق الإسعاد[١].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدّعاء»[٢].

---

(١) عون المعبود: ٤/ ٢٤٧.

قال الطّيبي رحمه الله: «معنى حديث النّعمان أن تحمل العبادة على المعنى اللّغوي، إذ الدّعاء هو إظهار غاية التّذلّل والافتقار إلى الله والاستكانة له، وما شرعت العبادات إلّا للخضوع للباري وإظهار الافتقار إليه، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ حيث عبّر عن عدم التّذلّل والخضوع بالاستكبار، ووضع عبادتي موضع دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار الصّغار والهوان»، نقلاً عن تحفة الأحوذي: ٩/ ٢٢٠. وانظر: عون المعبود: ٤/ ٢٤٧.

وقال ابن رجب رحمه الله: «واعلم أنّ سؤال الله ﷻ دون خلقه هو المتعيّن، لأنّ السّؤال فيه إظهار الذّلّ من السّائل، والمسكنة والحاجة والافتقار، وفيه الاعتراف بقدرة المسؤول على رفع هذا الضّر ونيل المطلوب، وجلب المنافع ودرء المضار، ولا يصلح الذّلّ والافتقار إلّا لله وحده لأنّه حقيقة العبادة، وكان الإمام أحمد يدعو ويقول: «اللّهمّ كما صنت وجهي عن السّجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضّر وجلب النّفع سواك». كما قال: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [فاطر: ٢]. والله سبحانه يحبّ أن يسأل، ويرغب إليه في الحوائج، ويلحّ في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادر على إعطاء خلقه كلّهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء، والمخلوق بخلاف ذلك يكره أن يسأل، ويحبّ أنّ لا يسأل لعجزه وفقره وحاجته، ولهذا قال وهب بن منبّه لرجل كان يأتي الملوك: «ويحك تأتي من يغلق عنك بابه، ويظهر لك فقره، ويواري عنك غناه، وتدع من يفتح لك بابه نصف اللّيل ونصف النّهار، ويظهر لك غناه، ويقول ادعني أستجب لك».

وقال طاووس لعطاء: «إيّاك أن تطلب حوائجك إلى من أغلق بابه دونك ويجعل دونها حجابه، وعليك بمن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، أمرك أن تسأله ووعدك أن يجيبك». جامع العلوم والحكم، ص:١٩٢.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب ما جاء في فضل الدّعاء: =

وذلك لأنّ فيه إظهار الفقر، والعجز والتّذلّل، والاعتراف بقوّة الله وقدرته[1].

ولذلك أمر ﷺ بالإكثار منه وذلك لعظم فضله.

فقال في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد فأكثروا الدّعاء»[2].

وقال في حديثه الآخر: «من سرّه أن يستجيب الله له عند الشّدائد والكرب فليكثر الدّعاء في الرخّاء»[3].

بل حثّ الله عباده عليه متودّداً إليهم، متقرّباً منهم كي يدعوه ويسألوه.

= (١)، برقم: (٣٣٧٠)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٥٣٤.

سنن ابن ماجه، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «الله سبحانه» ـ في: كتاب الدّعاء: (٣٤)، باب فضل الدّعاء: (١)، برقم: (٣٨٢٩). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٤١٠.

مسند أحمد، بلفظه ـ ولم يذكر: «تعالى» ـ في: ٢/ ٣٦٢.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، كرواية أحمد، في باب ذكر البيان بأنّ دعاء المرء لله جلّ وعلا من أكرم الأشياء عليه، برقم: (٨٧٠). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ٣/ ١٥١.

مستدرك الحاكم، كرواية أحمد، في: ١/ ٦٦٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

مسند أبي داود الطّيالسي، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «الله عز وجل» ـ، ص: ٣٣٧.

مسند الشّهاب، كرواية أحمد، برقم: (١٢١٣، ١٢١٤)، ٢/ ٢١٤.

الأدب المفرد، كرواية أحمد، ص: ٢٤٩.

(١) تحفة الأحوذي: ٩/ ٢١٨.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٤)، باب ما يقال في الرّكوع والسّجود: (٤٢)، برقم: (٤٨٢)، ١/ ٣٥٠.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب ما جاء أنّ دعوة المسلم مستجابة: (٩)، برقم: (٣٣٨٢)، وقال: «هذا حديث غريب». وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٥٣٥.

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٧٢٩، وقال: «حديث صحيح الإسناد».

مسند أبي يعلى، بلفظه: برقم: (٦٣٩٦، ٦٣٩٧). قال محقّقه: «إسناده حسن»: ١١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدّنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[(1)].

---

(1) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب التهجّد (الصّلاة): (19/5)، باب الدّعاء والصّلاة من آخر اللّيل: (14/491)، برقم: (1145)، ص:242، وبلفظه إلّا أحرف يسيرة في كتاب الدّعوات: (80/54)، باب الدّعاء نصف اللّيل: (14)، برقم: (6321)، ص:1349، وفي كتاب التّوحيد: (97/72)، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: 15]: (35)، برقم: (7494)، ص:1573.
صحيح مسلم، بلفظه إلّا أحرف يسيرة، وبلفظ مقارب في: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: (6)، باب التّرغيب في الدّعاء والذّكر في آخر اللّيل والإجابة فيه: (24)، برقم: (758)، 1/521 ـ 523.
وفي الحديث إثبات صفة النّزول لله تعالى. فهو ينزل سبحانه كما ذكر نزولاً يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف، ولا تعطيل ولا تحريف. ولا نقول: ينزل أمره أو تنزل رحمته كقول أهل التّأويل.
وقد كره بعض الصّوفيّة الدّعاء. وقالوا: الأولى السّكوت والرّضا، والجمود تحت جريان الحكم والقضاء. فيض القدير: 1/228.
وفصّل بعضهم مع زعمه بأنّ تركه أفضل. فقال: إن دعا للمسلمين فحسن، وإن خصّ نفسه فلا. وقيل: إن وجد باعثاً للدّعاء استجيب وإلّا فلا. شرح الزّرقاني على الموطّأ: 2/44. تحفة الأحوذي: 9/218.
وقد نقل الحافظ ابن حجر ؒ الخلاف في ذلك وأجاب عنه. فقال: «حكى القشيري في الرّسالة الخلاف في المسألة فقال: «اختلف أيّ الأمرين أولى: الدّعاء أو السّكوت والرّضا؟ فقيل: الدّعاء، وهو الّذي ينبغي ترجيحه لكثرة الأدلّة لما فيه من إظهار الخضوع والافتقار. وقيل: السّكوت والرّضا أولى، لما في التّسليم من الفضل».
قلت: وشبهتهم أنّ الدّاعي لا يعرف ما قدّر له، فدعاؤه إن كان على وفق المقدور فهو تحصيل الحاصل، وإن كان على خلافه فهو معاندة. والجواب عن الأوّل إنّ الدّعاء من جملة العبادة لما فيه من الخضوع والافتقار. وعن الثّاني إنّه إذا اعتقد أنّه لا يقع إلّا ما قدّر الله تعالى كان إذعاناً لا معاندة. وفائدة الدّعاء تحصيل الثّواب بامتثال الأمر، ولاحتمال أن يكون المدعو به موقوفاً على الدّعاء، لأنّ الله خالق الأسباب ومسبباتها. قال: «وقالت طائفة ينبغي أن يكون داعياً بلسانه، راضياً بقلبه». قال: «والأولى أن يقال: إذا وجد في قلبه إشارة الدّعاء فالدّعاء أفضل وبالعكس». قلت: القول الأوّل أعلى المقامات، أن يدعو بلسانه ويرضى بقلبه. والثّاني لا يتأتّى من كلّ أحد بل ينبغي أن يختص به الكمل». فتح الباري: 11/95، طبعة: دار المعرفة. =

ومع ذلك قد يدعو الإنسان فلا يستجاب له، وذلك لحصول مانع، أو تخلّف شرط من شروط القبول، أو الإخلال بأدب من آداب الدّعاء.

ومن هنا أرشد الله سبحانه ورسوله ﷺ إلى العوامل الجالبة لقبول الدّعاء، وإلى العوامل المانعة من قبوله.

فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

= وكراهيّة الدّعاء وأفضليّة تركه قول سقيم تردّه النّصوص المتوافرة في الأمر بالدّعاء، والتّحذير من تركه، وبيان فضله، ولذا أجمع أهل العلم على استحبابه. تحفة الأحوذي: ٩/٢١٨.

وذلك لأنّ الدّعاء سبب بل من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب. الجواب الكافي، ص:٣. وهو مسلك خيرة الخلق وأفضل البشر ﷺ. مجموع الفتاوى: ٨/٥٣٨.

وكونه سبباً لا ينافي ما قدّر الله تعالى، إذ من تقدير الأمور تقدير أسبابها.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إنّ الله تعالى إذا قدّر أمراً فإنّه يقدّر أسبابه، والدّعاء من جملة أسبابه، كما أنه لمّا قدّر النّصر يوم بدر وأخبر النّبي ﷺ قبل وقوعه أصحابه بالنّصر، وبمصارع القوم كان من أسباب ذلك استغاثة النّبي ﷺ ودعاؤه». مجموع الفتاوى: ١٤/١٤٧.

وقال ابن القيّم رحمه الله:

«وهو ﷺ أعلم بربّه، وأتبع لأمره من أن يعطّل الأسباب الّتي جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النّصر والظّفر، وإظهار دينه وغلبته لعدوّه، وهذا كما أنّه سبحانه ضمن له حياته حتّى يبلّغ رسالاته، ويظهر دينه، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب والملبس والمسكن. وهذا موضع يغلط فيه كثير من النّاس، حتّى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدّعاء وزعم أنّه لا فائدة فيه، لأنّ المسؤول إن كان قد قدّر ناله ولا بد، وإن لم يقدّر لم ينله، فأي فائدة في الاشتغال بالدّعاء؟ ثمّ تكايس في الجواب بأن قال: الدّعاء عبادة. فيقال لهذا الغالط: بقي عليك قسم آخر وهو الحقّ: أنّه قد قدّر له مطلوبه بسبب إن تعاطاه حصل له المطلوب، وإن عطّل السّبب فاته المطلوب، والدّعاء من أعظم الأسباب في حصول المطلوب. وما مثل هذا الغالط إلّا مثل من يقول: إن كان الله قد قدّر لي الشّبع فأنا أشبع أكلت أو لم آكل، وإن لم يقدّر لي الشّبع لم أشبع أكلت أو لم آكل، فما فائدة الأكل. وأمثال هذه التّرّهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه. وبالله التّوفيق». زاد المعاد: ٣/ ٤٨١.

أي: إنّ الله يستجيب دعاء من كان مؤمناً، مستجيباً لله ورسوله، منقاداً للأوامر، مجافياً للنّواهي، ملتزماً بالطّاعات، مترفّعاً عن المعاصي[1].

---

(١) انظر: جامع البيان: ٢/ ١٥٨ ـ ١٦٠، طبعة: دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣١١. أنوار التّنزيل: ١/ ٤٦٧. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦. فتح القدير: ١/ ١٨٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٩.

وفي الآية التفات إلى قرب الله من عباده، قرب علم وإحاطة لا قرب ذات. فهو فوق سماواته مستوٍ على عرشه استواء يليق بمقامه ـ ولا نقول كما قالت الجهميّة: إنّه في كلّ مكان بذاته. تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً ـ ويلزم من قربه إجابة دعاء من دعاه. ولذا أرشد النّبي ﷺ أصحابه بأن لا يرفعوا أصواتهم بالدّعاء والصّياح، كفعل كثير من أهل البدع. ففي حديث أبي موسى ﷺ قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في غزاة، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط في وادٍ إلّا رفعنا أصواتنا بالتّكبير، قال: فدنا منّا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيّها النّاس أربعوا ـ أي أرفقوا ـ على أنفسكم، فإنّكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنّما تدعون سميعاً بصيراً».

صحيح البخاري، كتاب القدر: (٨٢/ ٥٦)، باب لا حول ولا قوّة إلّا بالله: (٧)، برقم: (٦٦١٠)، ص: ١٤٠١. وانظر: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب ما يكره من رفع الصّوت في التّكبير: (١٣١/ ١٣٠)، برقم: (٢٩٩٢)، ص: ٣٠، وكتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب غزوة خيبر: (٣٨/ ٣٩)، برقم: (٤٢٠٥)، ص: ٨٧٩ ـ ٨٨٠، وكتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب الدّعاء إذا علا عقبة: (٥٠)، برقم: (٦٣٨٤)، ص: ١٣٦٠، وفي باب قول لا حول ولا قوّة إلّا بالله: (٦٧)، برقم: (٦٤٠٩)، ص: ١٣٦٥ ـ ١٣٣٦، وكتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النّساء: ١٣٤]: (٩)، برقم: (٧٣٨٦)، ص: ١٥٥١.

وزاد الإمام أحمد في المسند: «إنّ الّذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»: ٤/ ٤٠٢.

وهذا يدلّ على إرشادهم للمناجاة في الدّعاء لا للنّداء الّذي هو رفع الصّوت، فإنّهم عن هذا سألوا، فأجيبوا بأنّ ربّهم تبارك وتعالى قريب، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النّداء، وإنّما يسأل مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي، وهذا القرب من الدّاعي هو قرب خاص، ليس قرباً عامّاً من كلّ أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابده.

وأقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد، وهو أخصّ من قرب الإنابة وقرب الإجابة الّذي لم يثبت أكثر المتكلّمين سواه، بل هو قرب خاص من الدّاعي والعابد. بدائع الفوائد: ٣/ ٥١٩.

وأن يكون متضرّعاً خاشعاً متذلّلاً مستكيناً، راغباً فيما عند الله، طامعاً في نواله ، راهباً من عذابه، خائفاً من عقابه، وجلاً من سخطه، ليس بمتجاوز ولا متعدّ.

وفي ذلك يقول تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾[1] [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦].

---

(١) انظر: جامع البيان: ٨/ ٢٠٦ ـ ٢٠٨، طبعة: دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥. فتح القدير: ٢/ ٢١٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٥٤.
وفي الآية طلب بإخفاء الدّعاء، وهو أمر مرغّب فيه، مدعو إليه. كما قال الحسن البصري رحمه الله: «إن كان الرّجل لقد جمع القرآن وما يشعر به النّاس، وإن كان الرّجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به النّاس، وإن كان الرّجل ليصلّي الصّلاة الطّويلة في بيته وعنده الزّوار وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السّر فيكون علانية أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدّعاء وما يسمع لهم صوت إن كان إلّا همساً بينهم وبين ربّهم، وذلك أنّ الله تعالى يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذلك أنّ الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣].
وقال ابن جريج رحمه الله: «إنّ من الدّعاء اعتداء، يكره رفع الصّوت والنّداء والصّياح بالدّعاء، ويؤمر بالتّضرّع والاستكانة». جامع البيان: ٨/ ٢٠٧، طبعة: دار الفكر. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٥٤.
وفي إخفاء الدّعاء فوائد جمّة منها:
ـ إنّه أعظم إيماناً، لأن صاحبه يعلم أنّ الله تعالى يسمع دعاءه الخفي، وليس كالّذي قال: إنّ الله يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا.
ـ إنّه أعظم في الأدب والتّعظيم.
ـ إنّه أبلغ في التّضرع والخشوع الّذي هو روح الدّعاء ولبّه ومقصوده.
ـ إنّه أبلغ في الإخلاص.
ـ إنّه أبلغ في جمعه القلب على الله تعالى في الدّعاء، فإنّ رفع الصّوت يفرّقه ويشتّته، فكلّما خفض صوته كان أبلغ في جمعه، وتجريد همّته، وقصده للمدعو جل جلاله.
ـ إنّه دال على قرب صاحبه من الله، وأنّه لاقترابه منه وشدّة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة للقريب لا مسألة نداء البعيد للبعيد.
ـ إنّه أدعى إلى دوام الطّلب والسّؤال، فإنّ اللّسان لا يملّ والجوارح لا تتعب، بخلاف=

= ما إذا رفع صوته فإنّه قد يكلّ لسانه، وتضعف بعض قواه.
- إنّ إخفاء الدّعاء أبعد له من القواطع والمشوّشات والمضعّفات.
- إنّ أعظم النّعم الإقبال على الله، والتّعبّد له، والانقطاع إليه، والتّبتّل إليه، ولكلّ نعمة حاسد على قدرها، دقّت أو جلّت، ولا نعمة أعظم من هذه النّعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلّقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له.
- إن الدّعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمّن للطّلب منه والثّناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، والأصل في الذّكر أن يُخفى. انظر: بدائع الفوائد: ٣/ ٥١٨ - ٥٢١.

كما أنّ في الآية تحذيراً من الاعتداء في الدّعاء، وهو أمر مكروه مستهجن، حذّر منه رسول الله ﷺ. كما ورد في حديث عبد الله بن مغفّل رضي الله عنه عندما سمع ابنه يقول: «اللّهم إنّي أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنّة إذا دخلتها. فقال: أي بني سل الله الجنّة، وتعوّذ به من النّار، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّه سيكون في هذه الأمّة قوم يعتدون في الطّهور والدّعاء». سنن أبي داود، كتاب الطّهارة: (١)، باب الإسراف في الماء: (٤٥)، برقم: (٩٦). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٥. وانظر: سنن ابن ماجه، كتاب الدّعاء: (٣٤)، باب كراهيّة الاعتداء في الدّعاء: (١٢)، برقم: (٣٨٦٤). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤١٤.
سنن البيهقي، باب النّهي عن الإسراف في الوضوء: ١/ ١٩٦.
مسند أحمد: ٤/ ٨٦، ٨٧، ٥/ ٥٥.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، برقم: (٦٧٦٣، ٦٧٦٤). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ١٥/ ١٦٦. مستدرك الحاكم: ١/ ٢٦٧، ٧٢٤.
قال القرطبي رحمه الله:
«الاعتداء في الدّعاء على وجوه: منها الجهر الكثير والصّياح... ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال، ونحو هذا من الشّطط. ومنها أن يدعو طالباً معصية وغير ذلك. ومنها أن يدعو بما ليس في الكتاب والسّنّة، فيتخيّر ألفاظاً مفقّرة، وكلمات مسجّعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها، فيجعلها شعاره، ويترك ما دعا به رسول عليه السلام، وكلّ هذا يمنع من استجابة الدّعاء».
الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٢٦.
وأفاض في بيان ذلك ابن القيّم رحمه الله فقال:
«الاعتداء بالدّعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرّمات، =

وأن يتّسم بالإخلاص، ويجانب الرياء، لقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [غافر: ١٤].

وأن يكون طيّب المطعم والملبس، متجنّباً لأكل الحرام، متباعداً عنه،

= وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشريّة من الحاجة إلى الطّعام والشّراب، أو يسأله أن يطلعه على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك ممّا سؤاله اعتداء. فكلّ سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمّن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمّن خلاف ما أخبر به فهو اعتداء لا يحبّه الله، ولا يحبّ سائله. وفسّر الاعتداء برفع الصّوت أيضاً في الدّعاء.

قال ابن جريج: «من الاعتداء رفع الصّوت في الدّعاء والنّداء في الدّعاء والصّياح». وبعد فالآية أعمّ من ذلك كلّه. وإن كان الاعتداء في الدّعاء مراداً بها فهو من جملة المراد. والله لا يحبّ المعتدين في كلّ شيء دعاء كان أو غيره. كما قال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠، المائدة: ٨٧]، وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته وأخبر أنّه لا يحبّ أهل العدوان، وهم الّذين يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدواناً. فإنّ أعظم العدوان الشّرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلاً في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]، ومن العدوان أن يدعوه غير متضرّع، بل دعاء مدلّ كالمستغني بما عنده، المدلّ ـ المنان المفتخر بعمله ـ على ربّه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضّارع الذّليل الفقير المسكين من كلّ جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرّع خائف فهو معتدٍ.

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه، ولا أذن فيه. فإنّ هذا اعتداء في دعاء الثّناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطّلب. وعلى هذا فتكون الآية دالّة على شيئين: أحدهما: محبوب للرّبّ تبارك وتعالى مُرْضٍ له وهو الدّعاء تضرّعاً وخفية.

الثّاني: مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء. فأمر بما يحبّه الله وندب إليه، وحذّر ممّا يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزّجر والتّحذير، وهو أنّه لا يحبّ فاعله، ومن لم يحبّه الله فأي خير يناله.

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل على أنّ من لم يدعه تضرّعاً وخفية فهو من المعتدين الّذين لا يحبّهم. فقسّمت الآية النّاس إلى قسمين: داعٍ لله تضرّعاً وخفية، ومعتدٍ بترك ذلك». بدائع الفوائد: ٣/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥.

لحديث أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال: ـ فذكر الحديث وفيه ـ: «ثمّ ذكر الرّجل[1] يطيل السّفر أشعث[2] أغبر يمدّ يديه إلى السّماء: يا ربّ يا ربّ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام فأنّى يستجاب لذلك»[3].

قال النّووي رحمه الله:

«وفيه الحثّ على الإنفاق من الحلال، والنّهي عن الإنفاق من غيره. وفيه أنّ المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه. وأنّ من أراد الدّعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره»[4].

---

(١) هذه الجملة من كلام الرّاوي.

(٢) الأشعث: الملبّد الشّعر المغبّر، غير مدهون ولا مرجّل. شرح النّووي على مسلم: ١٦/ ١٧٤. وانظر: الفائق: ٢/ ٢٥٠. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٧٨.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب قبول الصّدقة من الكسب الطّيّب وتربيتها: (١٩)، برقم: (١٠١٥)، ٢/ ٧٠٣.
وفي حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما قال ﷺ لسعد رضي الله عنه: «أطب مطعمك تكن مستجاب الدّعوة». ذكره الهيثمي في مجمع الزّوائد وقال: «رواه الطّبراني في الصّغير، وفيه من لم أعرفهم»: ١٠/ ٢٩١. وأورده أيضاً في: ١٠/ ٢٩٥، كما ذكره المنذري في التّرغيب والتّرهيب ونسبه للطّبراني في الصّغير. وسكت عنه: ٢/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦. وابن رجب في جامع العلوم والحكم. وذكر أنّه خرجه الطّبراني بإسناد فيه نظر، ص: ١٠٠.
والحديث إنّما أورده الطّبراني في المعجم الأوسط، ولفظه عنده: عن ابن عبّاس قال: تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مستجاب الدّعاء. فقال له النّبي ﷺ: «يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدّعوة، والّذي نفس محمّد بيده إنّ العبد ليقذف اللّقمة الحرام في جوفه ما يتقبّل منه عمل أربعين يوماً، وأيّما عبد نبت لحمه من السّحت والرّبا فالنّار أولى به». لا يروى هذا الحديث عن ابن جريج إلّا بهذا الإسناد. تفرّد به الاحتياطي: ٦/ ٣١١، ولم أقف عليه في المعجم الصّغير.

(٤) شرح النّووي على مسلم: ٧/ ١٠٠.
وفي الحديث أربعة أسباب تدعو إلى إجابة الدّعاء: أحدها: إطالة السّفر. والسّفر بمجرده يقتضي إجابة الدّعاء كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث دعوات مستجبات لا شك فيهنّ: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد=

....

= على ولده». سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب الوتر: (٨)، باب الدّعاء بظهر الغيب: (٢٩)، برقم: (١٥٣٦). قال الألباني ﷺ: «حسن»، ص:١٨٢. سنن الترمذي، بلفظه في: كتاب البر والصّلة: (٢٤)، باب ما جاء في دعوة الوالدين: (٧)، برقم: (١٩٠٥). قال الألباني ﷺ: «حسن»، ص:٣٢٢، وبلفظ مقارب في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (٤٧)، برقم: (٣٤٤٨)، وقال: «هذا حديث حسن»، ص:٥٤٥. سنن ابن ماجه، بلفظه إلّا أحرف يسيرة، في كتاب الدّعاء: (٣٤)، باب دعوة الوالد ودعوة المظلوم: (١١)، برقم: (٣٨٦٢). قال الألباني ﷺ: «حسن»، ص:٤١٤. مسند أحمد، بلفظه في: ٢/٢٥٨، ٥٢٣، وبلفظ مقارب في: ٢/٣٤٨، ٤٧٨، ٤٣٤، ٥١٧. معجم الطّبراني الأوسط، بلفظ مقارب في: ١/ ٤٤. مسند أبي داود الطّيالسي، بلفظ مقارب في: ص٣٢٩، وبرقم: (٢٥١٧). مسند الشّهاب، بلفظه في: ١/٢٠٨ ـ ٢٠٩، وبرقم: (٣١٦). الأدب المفرد، بلفظ مقارب في: ص:٢٥، ١٦٩، وبرقم: (٣٢، ٤٨١).

ومتى طال السّفر كان أقرب إلى إجابة الدّعاء، لأنّه مظنّة حصول انكسار النّفس بطول الغربة عن الأوطان، وتحمّل المشاقّ، والانكسار من أعظم أسباب إجابة الدّعاء.

الثّاني: حصول التبذّل في اللّباس والهيئة بالشّعث والإغبار، وهو أيضاً من المقتضيات لإجابة الدّعاء. كما في الحديث المشهور عن أبي هريرة ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «ربّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه». صحيح مسلم، كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب فضل الضّعفاء والخاملين: (٤٠)، برقم: (٢٦٢٢)، ٤/ ٢٠٢٤، وفي: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب النّار يدخلها الجبّارون، والجنّة يدخلها الضّعفاء: (١٣)، برقم: (٢٨٥٤)، ٤/ ٢١٩١.

قال النّووي ﷺ: «مدفوع بالأبواب أنّه لا يؤذن له بل يحجب ويطرد لحقارته عند النّاس. قوله ﷺ: «لو أقسم على الله لأبرّه»: معناه لو حلف يميناً طمعاً في كرم الله تعالى بإبراره لأبرّه. وقيل: لو دعاه لأجابه يقال: أبررت قسمه وبررته. والأوّل هو المشهور». شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ١٨٧.

الثّالث: مدّ يديه إلى السّماء، وهو من آداب الدّعاء الّتي يرجى بسببها إجابته. وفي حديث سلمان الفارسي ﷺ عن النّبي ﷺ قال: «إنّ الله حيي كريم يستحي إذا رفع الرّجل إليه يديه أن يردّهما صفراً خائبتين».

سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب الوتر: (٨)، باب الدّعاء: (٢٣)، برقم: (١٤٨٨). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص:١٧٨. سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (١٠٤)، برقم: (٣٥٥٦)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص:٥٥٩. سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: =

فأكل الحرام، والتّغذية به ولبسه، سبب عظيم موجب لعدم إجابة الدّعاء.

وأن يجتنب المعاصي والآثام، وخاصّة قطيعة الرّحم فإنّها عامل مؤثّر في عدم قبول الدّعاء.

عن أبي سعيد رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن تعجّل له دعوته، وإمّا أن يدّخرها له في الآخرة، وإمّا أن يصرف عنه من السّوء مثلها»، قالوا: إذاً نكثر، قال: «الله أكثر»[1].

= كتاب الدّعاء: (٣٤)، باب رفع اليدين في الدّعاء: (١٣)، برقم: (٣٨٦٥). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤١٤. سنن البيهقي، بلفظه في: باب رفع اليدين في القنوت: ٢/ ٢١١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر الإخبار عمّا يستحبّ للمرء عند إرادة الدّعاء رفع اليدين، برقم: (٨٧٦). قال شعيب الأرناؤوط: «حديث قوي»: ٣/ ١٦٠. مستدرك الحاكم، نحوه في: ١/ ٦٧٥، وقال: «وله شاهد بإسناد صحيح من حديث أنس بن مالك». ثمّ أورد حديث أنس رضي الله عنه في: ١/ ٦٧٥. مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٣/ ٣٩١، وبرقم: (١٨٦٧)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، إلّا أنّ محقّقه قال: «إسناده ضعيف». ونحوه في: ٧/ ١٤٥. وبرقم: (٤١٠٨)، عن أنس رضي الله عنه، إلّا أنّ المحقّق ضعّف إسناده أيضاً. معجم الطّبراني الكبير، بلفظ مقارب في: ٦/ ٢٥٢، ونحوه في: ٦/ ٢٥٦، وفي: ١٢/ ٤٢٣، عن ابن عمر رضي الله عنهما، مع زيادة فيه. مسند الشّهاب، بلفظ مقارب في: ٢/ ١٦٥، وبرقم: (١١١٠، ١١١١).

الرّابع: الإلحاح على الله عز وجل بتكرير ذكر ربوبيّته، وهو من أعظم ما يطلب به إجابة الدّعاء. انظر: جامع العلوم والحكم، ص:١٠٥ ـ ١٠٦. وانظر: فتح الباري: ١١/ ٩٦. تحفة الأحوذي: ٩/ ٢٢٩.

قال ابن رجب رحمه الله:

«وقوله ﷺ: «فأنّى يستجاب لذلك»: معناه كيف يستجاب له، فهو استفهام وقع على وجه التّعجّب والاستبعاد، وليس صريحاً في استحالة الاستجابة ومنعها بالكليّة، فيؤخذ من هذا أنّ التّوسع في الحرام والتّغذّي به من جملة موانع الإجابة، وقد يوجد ما يمنع هذا المانع من منعه، وقد يكون ارتكاب المحرّمات الفعليّة مانعاً من الإجابة أيضاً، وكذلك ترك الواجبات». جامع العلوم والحكم، ص:١٠٧.

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٣/ ١٨، ونحوه في: ٢/ ٤٤٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٦٧٠، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد إلّا =

وأن يعزم في سؤاله، ويحسن الظّنّ بربّه في إجابة دعائه، ولا يعلّق ذلك بمشيئة الله، فإنّ الله لا مكره له. كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة، ولا يقولنّ اللّهمّ إن شئت فأعطني، فإنّه لا مستكره له»[1].

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «ليعزم في الدّعاء»[2].

= أنّ الشّيخين لم يخرجاه»، ونحوه في: ١/ ٦٧٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
الأدب المفرد، بلفظ مقارب في: ص:٢٤٨، وبرقم: (٧١٠).
وانظر: فتح الباري: ١١/ ٩٦. تحفة الأحوذي: ٩/ ٢٢٨. وإسناد الحديث صحيح كما قال الحاكم.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب ليعزم المسألة فإنّه لا مكره له: (٢١)، برقم: (٦٣٣٨)، ص:١٣٥٢، وبلفظ مقارب في: كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: (٣١)، برقم: (٧٤٦٤)، ص:١٥٦٨.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب العزم بالدّعاء، ولا يقل: إن شئت: (٣)، برقم: (٢٦٧٨)، ٤/ ٢٠٦٣.

(٢) المرجع السّابق، بلفظه جزء من حديث في: الكتاب والباب السّابقين، برقم: (٢٦٧٩)، ٤/ ٢٠٦٣.
وانظر: صحيح البخاري، كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب ليعزم المسألة فإنّه لا مكره له: (٢١)، برقم: (٦٣٣٩)، ص:١٣٥٢، وكتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]: (٣١)، برقم: (٧٤٧٧)، ص:١٥٧٠.
قال ابن بطّال رحمه الله في الحديث: «إنّه ينبغي للدّاعي أن يجتهد في الدّعاء، ويكون على رجاء الإجابة، ولا يقنط من الرّحمة فإنّه يدعو كريماً».
وقال ابن عيينة رحمه الله: «لا يمنعنّ أحداً الدّعاء ما يعلم في نفسه، يعني من التّقصير. فإنّ الله قد أجاب دعاء شرّ خلقه وهو إبليس حين قال: ﴿أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]».
وقال الدّاودي رحمه الله: «معنى قوله: «ليعزم المسألة»: أن يجتهد ويلحّ، ولا يقل: إن شئت كالمستثنى ولكن دعاء البائس الفقير».
وقال ابن عبد البر رحمه الله: «لا يجوز لأحد أن يقول: اللّهمّ أعطني إن شئت وغير ذلك من أمور الدّين والدّنيا، لأنّه كلام مستحيل لا وجه له، لأنّه لا يفعل إلّا ما شاءه». =

وأن يديم دعاءه ولا ييأس، ويلحّ في طلبه ولا يعجز، ويطمع في إجابته ولا يقطع رجاءه من ربّه، ولا يستعجل فيستبطئ الإجابة فيترك الدّعاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي»[١].

وفي روايته الأخرى عن النّبي ﷺ قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل»، قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال: يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر[٢] عند ذلك ويدع الدّعاء»[٣].

قال ابن بطّال رحمه الله:

«المعنى: أنّه يسأم فيترك الدّعاء فيكون كالمانّ بدعائه، أو أنّه أتى من

= نقل ذلك عنهم الحافظ في فتح الباري: ١١/ ١٤٠، طبعة: دار المعرفة، ثمّ قال: «معنى الأمر بالعزم الجدّ فيه، وأن يجزم بوقوع مطلوبه، ولا يعلّق ذلك بمشيئة الله تعالى، وإن كان مأموراً في جميع ما يريد فعله أن يعلّقه بمشيئة الله تعالى. وقيل: معنى العزم: أن يحسن الظّنّ بالله في الإجابة... إنّ الّذي يحتاج إلى التّعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتّى إكراهه على الشّيء، فيخفّف الأمر عليه، ويعلم بأنّه لا يطلب منه ذلك الشّيء إلّا برضاه. وأمّا الله سبحانه فهو منزّه عن ذلك، فليس للتّعليق فائدة. وقيل: المعنى: إنّ فيه صورة الاستغناء عن المطلوب، والمطلوب منه والأوّلى أولى». فتح الباري: ١١/ ١٤٠، طبعة: دار المعرفة. وانظر: شرح الزّرقاني على الموطّأ: ٢/ ٤٧. عون المعبود: ٤/ ٢٤٩.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب يستجاب للعبد ما لم يعجل: (٢٢)، برقم: (٦٣٤٠)، ص: ١٣٥٢ ـ ١٣٥٣.
صحيح مسلم، بلفظه ـ إلا إنه قال: «فيقول» ـ في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب بيان يستجاب للدّاعي ما لم يعجل: (٢٥)، برقم: (٢٧٣٥)، ٤/ ٢٠٩٥.

(٢) قال النّووي رحمه الله: «فيستحسر عند ذلك ويدع الدّعاء: قال أهل اللّغة: يقال: حسر واستحسر: إذا أعيا وانقطع عن الشّيء. والمراد هنا أنّه ينقطع عن الدّعاء، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]: أي لا ينقطعون عنها. ففيه أنّه ينبغي إدامة الدّعاء، ولا يستبطئ الإجابة». شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٥٢.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب بيان يستجاب للدّاعي ما لم يعجل: (٢٥)، برقم: (٢٧٣٥)، ٤/ ٢٠٩٦.

الدّعاء ما يستحقّ به الإجابة فيصير كالمبخّل للرّبّ الكريم الّذي لا تعجزه الإجابة، ولا ينقصه العطاء»[(١)].

وأن يدعو دعاء مضطّر منكسر بين يدي الله، مستيقن للإجابة منه سبحانه، مقبل بقلبه نحوه، معظّم لرجائه فيه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أنّ الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ»[(٢)].

---

(١) فيما نقله الحافظ ابن حجر في الفتح عنه: ١١/ ١٤٠ ـ ١٤١، طبعة: دار المعرفة.
فقوله: «فلم يستجب لي»: وهو إمّا استبطاء، أو إظهار يأس، وكلاهما مذموم. أمّا الأوّل: فلأنّ الإجابة لها وقت معين. وأمّا القنوط: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] مع أنّ الإجابة على أنواع: منها تحصيل عين المطلوب في الوقت المطلوب، ومنها ادّخاره ليوم يكون أحوج إلى ثوابه، ومنها وجوده في وقت آخر لحكمة اقتضت تأخيره، ومنها دفع شرّ بدله. عون المعبود: ٤/ ٢٥٠، بتصرّف.
فمن له ملالة من الدّعاء لا يقبل دعاؤه، لأنّ الدّعاء عبادة حصلت الإجابة أو لم تحصل، فلا ينبغي لمؤمن أن يملّ من العبادة، وتأخير الإجابة إمّا: لأنّه لم يأت وقتها، وإمّا: لأنّه لم يقدّر في الأزل قبول دعائه في الدّنيا ليعطى عوضه في الآخرة. وإمّا: أن يؤخّر القبول ليلحّ ويبالغ في ذلك، فإنّ الله يحبّ الملحّين في الدّعاء، مع ما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار. ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له، ومن يكثر الدّعاء يوشك أن يستجاب له. شرح الزّرقاني على الموطّأ: ٢/ ٤٨. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٥٢. فتح الباري: ١١/ ١٤، طبعة: دار المعرفة. جامع العلوم والحكم، ص: ٣٩٢. تحفة الأحوذي: ٩/ ٢٣٣.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (٦٥)، برقم: (٣٤٧٩)، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه». وقال الألباني ﷺ: «حسن»، ص: ٥٤٩.
مستدرك الحاكم، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «لا يقبل دعاء» ـ في: ١/ ٦٧٠ ـ ٦٧١، وقال: «هذا حديث مستقيم الإسناد، تفرّد به صالح المرّي، وهو أحد زهّاد أهل البصرة، ولم يخرجاه».
ويشهد له حديث عبد الله بن عمرو ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله ﷻ أيّها النّاس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة. فإنّ الله لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل». أخرجه أحمد في المسند: ٢/ ١٧٧. وحسّن المنذري إسناده. انظر: التّرغيب والتّرهيب: ٢/ ٣٢٢.
قوله: «وأنتم موقنون بالإجابة»: أي والحال أنّكم موقنون به، أي كونوا عند الدّعاء=

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ:

«وإذا اجتمع مع الدّعاء حضور القلب وجمعيته بكلّيته على المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة السّتة وهي: الثّلث الأخير من اللّيل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصّلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتّى تقضى الصّلاة، وآخر ساعة بعد العصر من ذلك اليوم. وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الرّبّ، وذلًا له وتضرّعاً ورقّة، واستقبل الدّاعي القبلة وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله تعالى، وبدأ بحمد الله والثّناء عليه، ثمّ ثنّى بالصّلاة على محمّد عبده ﷺ، ثمّ قدّم بين يدي حاجته التّوبة والاستغفار، ثمّ دخل على الله ألحّ عليه في المسألة، وتملّقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقة، فإنّ هذا الدّعاء لا يكاد يردّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية الّتي أخبر النّبي ﷺ أنّها مظنّة الإجابة، أو أنّها متضمّنة للاسم الأعظم... والأدعية والتّعوّذات بمنزلة السّلاح، والسّلاح بضاربه لا بحدّه فقط، فمتى كان السّلاح سلاحاً تامّاً لا آفة به، والسّاعد ساعد قوي، والمانع مفقود حصلت به النّكاية في العدوّ. ومتى تخلّف واحد من هذه الثّلاثة تخلّف التأثير، فإن كان الدّعاء في نفسه غير صالح، أو الدّاعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدّعاء، أو كان ثمّ مانع من الإجابة لم يحصل الأثر»[1].

= على حالة تستحقّون بها الإجابة من إتيان المعروف، واجتناب المنكر، ورعاية شروط الدّعاء، كحضور القلب، وترصّد الأزمنة الشّريفة، والأمكنة المنيفة، واغتنام الأحوال اللّطيفة كالسّجود إلى غير ذلك. حتّى تكون الإجابة على قلوبكم أغلب من الرّد، أو أراد وأنتم معتقدون أنّ الله لا يخيّبكم لسعة كرمه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه، لتحقّق صدق الرّجاء، وخلوص الدّعاء، لأنّ الدّاعي ما لم يكن رجاؤه واثناً ـ أي دائماً مقيماً عليه ـ لم يكن دعاؤه صادقاً.

«من قلب غافل»: بالإضافة وتركها، أي معرض عن الله أو عمّا سأله. «لاه»: من اللّهو، أي لاعب بما سأله، أو مشتغل بغير الله تعالى. وهذا عمدة آداب الدّعاء. تحفة الأحوذي: ٣١٦/٩. وانظر: جامع العلوم والحكم، ص:٣٩٢. شرح الزّرقاني على الموطّأ: ٤٨/٢. فيض القدير: ٢٢٨/١ ـ ٢٢٩.

(١) الجواب الكافي، ص:٥ ـ ٨. =

والعبد محتاج إلى دعاء الله تعالى في كلّ وقت وحين، لأنّه مفتقر إليه، لا يستغني عنه طرفة عين. ولذا كان ﷺ يقول في دعائه: «اللّهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كلّه، لا إله إلّا أنت»[1].

= وقال القرطبي رحمه الله:
«إنّ إجابة الدّعاء لا بد لها من شروط في الدّاعي، وفي الدّعاء، وفي الشّيء المدعو به. فمن شرط الدّاعي: أن يكون عالماً بأنّ لا قادر على حاجته إلّا الله، وأنّ الوسائط في قبضته ومسخّرة بتسخيره، وأن يدعو بنيّة صادقة وحضور قلب، فإنّ الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاهٍ، وأن يكون مجتنباً لأكل الحرام، وألّا يملّ من الدّعاء. ومن شرط المدعو فيه: أن يكون من الأمور الجائزة الطّلب والفعل شرعاً، كما قال: «ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» فيدخل في الإثم كلّ ما يأثم به من الذّنوب، ويدخل في الرّحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم. وقال سهل بن عبد الله التّستري: شروط الدّعاء سبعة: «أوّلها التّضرّع والخوف والرّجاء والمداومة والخشوع والعموم وأكل الحلال». وقال ابن عطاء: «إنّ للدّعاء أركاناً وأجنحة وأسباباً وأوقاتاً، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار في السّماء، وإن وافق مواقيته فاز، وإن وافق أسبابه أنجح. فأركانه حضور القلب والرّأفة والاستكانة والخشوع، وأجنحته الصّدق، ومواقيته الأسحار، وأسبابه الصّلاة على محمّد ﷺ. وقيل: شرائطه أربع: أوّلها حفظ القلب عند الوحدة، وحفظ اللّسان مع الخلق، وحفظ العين عن النّظر إلى ما لا يحلّ، وحفظ البطن من الحرام. وقد قيل: إنّ من شرط الدّعاء أن يكون سليماً من اللّحن، كما أنشد بعضهم:

ينادي ربّه باللّحن ليث كذاك إذا دعاه لا يجيب

وقيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ قال: «لأنّكم عرفتم الله فلم تطيعوه، وعرفتم الرّسول فلم تتّبعوا سنّته، وعرفتم القرآن فلم تعملوا به، وأكلتم نعم الله فلم تؤدّوا شكرها، وعرفتم الجنّة فلم تطلبوها، وعرفتم النّار فلم تهربوا منها، وعرفتم الشّيطان فلم تحاربوه ووافقتموه، وعرفتم الموت فلم تستعدّوا له، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا، وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب النّاس». الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ٣١١ ـ ٣١٢. وانظر: فتح الباري: ١١/ ١٤١، طبعة: دار المعرفة.

(١) سنن أبي داود، بلفظه ـ وأوّله: «دعوات المكروب» ـ في: كتاب الأدب: (٤٠)، باب ما يقول إذا أصبح: (١٠٠/ ١٠١)، برقم: (٥٠٩٠)، عن عبد الرّحمٰن بن أبي بكرة عن أبيه. قال الألباني رحمه الله: «حسن الإسناد»، ص:٥٤٩.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا حرفاً ـ في: ٥/ ٤٢.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر وصف دعوات المكروب، برقم: (٩٧٠). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده محتمل للتّحسين»: ٣/ ٢٥٠. =

ولم لا يكون العبد كذلك وجميع أموره بيد مولاه، مالك لها متصرّف فيها؟. بل قلبه الّذي بين جنبيه، وهو أعظم ما يملك، بيد مالكه سبحانه يقلّبه كيف يشاء، ويصرفه كيف يشاء.

قال ﷻ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال: ﴿وَاعْلَمُوٓا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنّ قلوب بني آدم كلّها بين إصبعين من أصابع الرّحمٰن كقلب واحد، يصرّفه حيث يشاء» ثمّ قال رسول الله ﷺ: «اللّهم مصرّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك»[1].

= مستدرك الحاكم، نحوه في: ١/ ٧٣٠، عن أنس رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه».
انظر: مبحثاً قيّماً في بيان افتقار العبد إلى الله تعالى في طريق الهجرتين، ص: ٢٥ ـ ٢٦، ٥٣ ـ ٥٥.
وانظر: درء تعارض العقل والنّقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمّد رشاد سالم، طبعة: دار الكنوز الأدبيّة، الرّياض، ١٣٩١هـ: ٩/ ٣٤ ـ ٣٥.

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب القدر: (٤٦)، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء: (٣)، برقم: (٢٦٥٤)، ٤/ ٢٠٤٥.
ولذا كانت القلوب أشدّ تقلّباً وأعظم تحوّلاً كما ثبت عنه ﷺ في حديث المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لقلب ابن آدم أشدّ انقلاباً من القدر إذا اجتمعت غلياناً». مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «غلياً» ـ في: ٦/ ٤. مستدرك الحاكم، بلفظه ـ إلا إنّه قال: «اجتمع» ـ في: ٢/ ٣١٧، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه». معجم الطّبراني الكبير، بلفظ مقارب في: ٢٠/ ٢٥٥. مسند الشّهاب، بلفظ مقارب في: ٢/ ٢٦٦، برقم: (١٣٣١)، وهو حديث صحيح كما ذكر الشّيخ الألباني رحمه الله في صحيح الجامع، برقم: (٥١٤٧)، ٢/ ٩١٥.
وفي الحديث الآخر: عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما سمّي القلب من تقلّبه، إنّما مثل القلب كمثل ريشة معلّقة في أصل شجرة يقلّبها الرّيح ظهراً لبطن». مسند أحمد، بلفظه في: ٤/ ٤٠٨. قال الألباني رحمه الله: «صحيح». صحيح الجامع، برقم: (٢٣٦٥)، ١/ ٤٦٦.

وهو سبحانه يزيغ منها من أراد إزاغته، ويقيم منها من أراد إقامته.

عن النَّواس بن سَمْعان الكلابي قال: سمعت ﷺ يقول: «ما من قلب إلّا بين إصبعين من أصابع الرّحمٰن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»، وكان رسول الله ﷺ يقول: «يا مثبّت القلوب ثبّت قلوبنا على دينك». قال: «والميزان بيد الرّحمٰن يرفع أقواماً ويخفض آخرين إلى يوم القيامة»[1].. وله في ذلك الحكمة البالغة.

ولذا كان أعظم ما يدعو به الإنسان ربّه أن يثبّت قلبه على الحقّ فلا يزيغ ولا ينتكس.

ولذا لجأ الرّاسخون في العلم، العالمون بالله، الرّاغبون في مرضاته، المتذلّلون في طاعته إلى خالقهم جلّ وعلا أن يعصم قلوبهم من الزّيغ، ويحفظها من الانحراف والميل، فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٨].

قال ابن كثير رحمه الله:

«﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾: أي لا تملها عن الهدي بعد إذ أقمتها عليه، ولا تجعلنا كالّذين في قلوبهم زيغ، الّذين يتّبعون ما تشابه من القرآن، ولكن ثبّتنا على صراطك المستقيم، ودينك القويم، ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تثبّت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً، ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾»[2].

---

(١) سنن ابن ماجه، بلفظه في: المقدّمة، باب فيما أنكرت الجهميّة: (١٣)، برقم: (١٩٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٧.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٤/ ١٨٢.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من التّملّق إلى الباري في ثبات قلبه له على ما يحبّ من طاعته، برقم: (٩٤٣). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ٣/ ٢٢٢.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٧٠٦، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله شاهد بإسناد صحيح عن أنس بن مالك»، وفي: ٤/ ٣٥٧، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم». وسكت عنه الذّهبي.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٢١. وانظر: جامع البيان: ٣/ ١٨٦ ـ ١٨٧، طبعة: =

وكان إمام الرّاسخين، وسيّد المتّقين، وأعظم الثّابتين يكثر في دعاء ربّه أن يثبّت قلبه فلا يزيغ ولا ينصرف عن هدي الله وطاعته.

عن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»، فقلت: يا رسول الله آمنّا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إنّ القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلّبها كيف يشاء»[1].

وعن عائشة ﷺ قالت: دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر يدعو بها: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»، قالت: فقلت: يا رسول الله إنّك تكثر تدعو بهذا الدّعاء؟ فقال: «إنّ قلب الآدمي بين إصبعين من أصابع الله ﷻ فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه»[2].

ولمّا سئلت أمّ سلمة ﷺ عن أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندها قالت: كان أكثر دعائه: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك»، قالت: فقلت له: يا رسول الله ما أكثر دعاءك يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك؟ قال:

= دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٩ ـ ٢٠. أنوار التّنزيل: ٢/ ١٠. فتح القدير: ١/ ٣١٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٠٢.

(١) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب القدر: (٢٩، باب ما جاء أنّ القلوب بين أصبعي الرّحمٰن: (٧)، برقم: (٢١٤٠)، وقال: «وهذا حديث حسن». وقال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٣٥٦.
سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب الدّعاء: (٣٤)، باب دعاء الرّسول ﷺ: (٢)، برقم: (٣٨٣٤). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٤١٠.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١٣/ ١١٢، ٢٥٧.
مستدرك الحاكم، الشّطر الأوّل منه بلفظه في: ١/ ٧٠٧، ونحوه عن جابر بن عبد الله ﷺ، في: ٢/ ٣١٧.
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب، برقم: (٣٦٨٧،٣٦٨٨). قال محقّقه: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ٦/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، ونحوه عن جابر ﷺ، برقم: (٢٣١٨). قال المحقّق: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ٤/ ٢٠٧.
معجم الطّبراني الكبير، الشّطر الأوّل منه بلفظ مقارب في: ١/ ٢٦١.
الأدب المفرد، الشّطر الأوّل منه بلفظ مقارب في: ص: ٢٣٧، وبرقم: (٦٨٣).

(٢) مسند أحمد، بلفظه في: ٦/ ٩١، ونحوه في: ٦/ ٢٥٠.
مسند أبي يعلى، نحوه، برقم: (٤٦٦٩)، في: ٨/ ١٢٨.

«يا أمّ سلمة ما من آدمي إلّا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله ﷻ ما شاء أقام وما شاء أزاغ»[1].

فهذا هو المعصوم ﷺ يدعو مولاه، ويكثر من دعائه أن يثبّت قلبه على دينه، لعلمه أنّه المتصرّف في قلوب عباده، لا فرق بين رسول وغيره، وأنّ التّوفيق والخذلان بيده سبحانه، يوفّق من شاء إلى الثّبات والهدى بفضله ورحمته، ويخذل من شاء له الخذلان بعدله وحكمته، وهو في ذلك لم يمنع من خذله شيئاً هو له، وإنّما منعه ما هو مجرّد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله. فلمّا علم ﷺ أنّ ذلك كلّه بيد مولاه وتحت أمره، علم شدّة ضرورته وحاجته في كلّ نَفَس ولحظة وطرفة عين وأقلّ من ذلك إلى توفيق ربّه وتثبيته. فطرح نفسه بين يديه، وأسلم قياده إليه، خاضعاً ذليلاً مستكيناً، يلهج لسانه بدعائه أن يثبّت قلبه على الحقّ[2].

وهذا شأن كلّ عبد مخلص لله، يسأل ربّه الثّبات في كلّ حين ووقت، ولا يركن إلى نفسه، ففي ذلك هلاكه ودماره.

قال ابن القيّم رحمه الله:

«يستغيث العبد بربّه ووليّه ومالك أمره كلّه، يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك، يا مصرّف القلوب صرّف قلبي على طاعتك.

وأيضاً فإنّه يزيل من قلبه آفة الرّكون إلى نفسه أو عمله أو حاله، كما قيل: إن ركنت إلى العلم أنسيناكه، وإن ركنت إلى الحال سلبناك إياه، وإن ركنت إلى المعرفة حجبناها عنك، وإن ركنت إلى قلبك أفسدناه عليك. فلا يكن

---

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٦/ ٣١٥، وبلفظ مقارب في: ٦/ ٣٠١، وفيه أن السّائل هو شهر بن حوشب.
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب، برقم: (٦٩٨٦)، ونحوه برقم: (٦٩١٩)، في: ١٢/ ٤١٩، ٣٥٠. قال المحقّق: «إسناده حسن»، في الموضعين.
معجم الطّبراني الكبير، بنحو منه في: ٢٣/ ٣٣٤، ونحوه في: ٢٣/ ٣٣٨، ٣٦٦.
مسند أبي داود الطّيالسي، نحوه في: ص: ٢٢٤، برقم: (١٦٠٨).
(٢) وانظر: مدارج السّالكين: ١/ ٤١٤.

العبد إلى شيء سوى الله البتّة. ومتى وجد من قلبه ركوناً إلى غيره فليعلم أنّه قد أحيل على مفلس بل معدم، وأنّه قد فتح له الباب مكراً، فليحذر ولوجه والله المستعان»[1].

والمرء محتاج إلى الدّعاء بالثّبات في كلّ موطن من المواطن. ومن تلك المواطن موطن الجهاد في سبيل الله، لأنّه موطن شاقّ على النّفوس، مجهد للقلوب، مهول مخوف، لما فيه من إزهاق للأرواح، وبتر للأعضاء، وسفك للدّماء، وضياع للأموال والأبناء.

فالدّعاء بالثّبات في هذا الموطن مطلب ملحّ، وغاية عاجلة، ورغبة أكيدة، يجب أن لا يفارقه المجاهد في سبيل الله طرفة عين، إذ هو في أمسّ الحاجة إليه.

ولذا كان الدّعاء بالثّبات في الجهاد ديدن الأنبياء وأتباعهم كما حكى ذلك عنهم ربّ العزّة في قرآنه حين قال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ «. . .» ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾، يعني: ما كان لهم قول سوى هذا القول، إذ قتل نبيّهم، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، يقول: لم يعتصموا، إذ قتل نبيّهم، إلّا بالصّبر على ما أصابهم، ومجاهدة عدوّهم، وبمسألة ربّهم المغفرة والنّصر على عدوّهم. . . ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾، فإنّه يقول: اجعلنا ممّن يثبت لحرب عدوّك وقتالهم، ولا تجعلنا ممّن ينهزم فيفرّ منهم ولا يثبت قدمه في مكان واحد لحربهم، ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى

(١) المرجع السّابق: ٣/ ١٨٩.

﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، يقول: وانصرنا على الّذين جحدوا وحدانيتك ونبوّة نبيّك»[1].

وقال البيضاوي رحمه الله:

«أي وما كان قولهم مع ثباتهم، وقوّتهم في الدّين، وكونهم ربّانيين إلّا هذا القول، وهو إضافة الذّنوب والإسراف إلى أنفسهم هضماً لها، وإضافة لما أصابهم إلى سوء أعمالهم والاستغفار عنها، ثمّ طلب التّثبيت في مواطن الحرب والنّصر على العدوّ ليكون عن خضوع وطهارة، فيكون أقرب إلى الإجابة، وإنّما جعل قولهم خيراً لأنّ ﴿أَن قَالُوٓاْ﴾ أعرف لدلالته على جهة النّسبة وزمان الحدث»[2].

وكذلك فعل أصحاب طالوت ومعهم نبيّ الله داود عليه السلام لـمّا واجهوا جالوت وجنوده، حيث لجؤوا إلى الله ملحّين عليه بالدّعاء كي يثبّتهم فلا ينهزموا، ويقوّيهم فلا يضعفوا، وينصرهم فلا يخذلوا.

قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥١].

قال ابن جرير رحمه الله:

«إنّ طالوت وأصحابه قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا﴾، يعني: أنزل علينا صبراً. وقوله: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾، يعني: وقوّ قلوبنا على جهادهم، لتثبت أقدامنا فلا ننهزم عنهم، ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، الّذين كفروا

---

(١) جامع البيان: ٤/ ١٢٠ ـ ١٢١، طبعة: دار الفكر.

(٢) أنوار التّنزيل: ٢/١٠١.

لقد سبق الحديث في معنى هذه الآيات وإنّما أوردت هنا ما يناسب المقام، ويصلح للاستشهاد. انظر: ص:٢٢٨.

بك فجحدوك إلهاً، وعبدوا غيرك، واتّخذوا الأوثان أرباباً»[1].

وقال البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«التجؤوا إلى الله ﷻ بالدّعاء، وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أوّلاً إفراغ الصّبر في قلوبهم الّذي هو ملاك الأمر، ثمّ ثبات القدم في مداحض الحرب المسبّب عنه، ثمّ النّصر على العدوّ المترتّب عليهما غالباً»[2].

وقد أجاب الله دعاءهم كما أجاب دعاء أنبياء الله وأتباعهم من قبل، فقوّى قلوبهم، وثبّت أقدامهم فنصروا على أعداء الله، وهزموهم.

ولذا أرشد النّبي ﷺ أمّته إلى الدّعاء في هذا المقام، وبيّن لهم أنّه لا يُردّ فقال في حديث سهل بن سعد رضي الله عنه: «ثنتان لا تردّان أو قلّما تردّان: الدّعاء عند النّداء، وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً»[3].

وقد فعل ﷺ ذلك بنفسه. ففي بدر قام يدعو: «اللّهم منزل الكتاب، ومجري السّحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»[4]، حتّى سقط

---

(١) جامع البيان: ٢/ ٦٢٥، طبعة: دار الفكر.

(٢) أنوار التّنزيل: ١/٥٤٨. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٥٣.

(٣) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الجهاد: (١٥)، باب الدّعاء عند اللّقاء: (٤٩)، برقم: (٢٥٤٠). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٢٨٨.
سنن الدّارمي، بلفظه في: باب الدّعاء عند الأذان، في: ١/ ٢٩٣.
سنن البيهقي، بلفظه في: باب الدّعاء بين الأذان والإقامة: ١/ ٤١٠، وفي: باب طلب الإجابة عند نزول الغيث: ٣/ ٣٦٠.
صحيح ابن خزيمة، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «يلتحم» ـ في: باب استحباب الدّعاء عند الأذان، ورجاء إجابة الدّعوة عنده: ١/ ٢١٩.
مستدرك الحاكم، بلفظه في: ١/ ٣١٣، وبلفظ مقارب في: ٢/ ١٢٤، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
معجم الطّبراني الكبير، بلفظ رواية ابن خزيمة، في: ٦/ ١٣٥.

(٤) هذا جزء من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه الّذي سبق تخريجه. انظر: ص:٦٦٤. وهذا اللّفظ في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب كان النّبي ﷺ إذا لم يقاتل أوّل النّهار أخّر القتال حتّى تزول الشّمس: (١١٢/ ١١١)، برقم: (٢٩٦٦)، ص:٦٢٤، وفي باب لا تمنّوا لقاء العدوّ: (١٥٦/ ١٥٥)، برقم: (٣٠٢٥)، ص:٦٣٧. =

رداؤه يستنجز الله ما وعده، ويلحّ في السّؤال إلى أن قال له أبو بكر رضي الله عنه: «كذلك مناشدتك ربّك، فإنّه سينجز لك ما وعدك»(1).

بل كان ذلك ديدنه في كلّ غزواته ﷺ(2).

فالدّعاء عامل مهمّ، عظيم النّفع، بالغ الأثر في تثبيت المجاهد في موطن الجهاد، بل تثبيت العبد في كلّ موطن. وهو سلاح مضاء لا يفلّ حدّه، ولا يضعف عزمه، ولا يهزم صاحبه متى ما استخدمه استخداماً صحيحاً.

والمؤمن الحريص على الثّبات عليه أن لا يغفل عنه أبداً، بل يلازمه ويداوم عليه في كلّ حين ووقت، فلن يجد أنفع له منه.

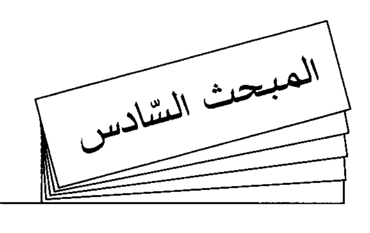


= صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب كراهة تمنّي لقاء العدوّ، والأمر بالصّبر عند اللّقاء: (٦)، برقم: (١٧٤٢)، ٣/١٣٦٣.

(1) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم: (١٨)، برقم: (١٧٦٣)، ٣/ ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤.

قال النّووي رحمه الله: «قوله «كذاك مناشدتك ربّك»: المناشدة السّؤال، مأخوذة من النّشيد وهو رفع الصّوت. هكذا وقع لجماهير رواة مسلم كذاك بالذّال ولبعضهم كفاك بالفاء... وضبطوا مناشدتك بالرّفع والنّصب وهو الأشهر. قال القاضي: من رفعه جعله فاعلاً بكفاك، ومن نصبه فعلى المفعول بما في حسبك وكفاك، وكذاك من معنى الفعل من الكفّ. قال العلماء: هذه المناشدة إنّما فعلها النّبي ﷺ ليراه أصحابه بتلك الحال فتقوى قلوبهم بدعائه وتضرّعه مع أنّ الدّعاء عبادة، وقد كان وعده الله تعالى إحدى الطّائفتين: إمّا العير وإمّا الجيش، وكانت العير قد ذهبت وفاتت، فكان على ثقة من حصول الأخرى، ولكن سأل تعجيل ذلك، وتنجيزه من غير أذى يلحق المسلمين». شرح النّووي على مسلم: ١٢/ ٨٥.

(2) وانظر: المرجع السّابق: ١٢/٤٧، ٨٤، ٨٥، ١١٨، وقد نقل رحمه الله اتّفاق أهل العلم على استحباب الدّعاء في ذلك المقام: ١٢/ ٤٧.



الآجال محدودة والأعمار معدودة

قال المولى ﷻ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣ ـ ٢٤٤].

لقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين بالقتال والجهاد في سبيله، وقدّم لهذا الأمر بحادثة يشجّعهم بها على الجهاد والثّبات في حومة الوغى، وعند مبارزة الأقران.

وتلك الحادثة تحكي عن قوم خرجوا من بلادهم لمّا حلّ بها وباء قاتل ففرّوا منه طلباً للنّجاة، وحبّاً للحياة، ولكنّ الله عاملهم بنقيض قصدهم فماتوا جميعاً، ثمّ أحياهم. وفي ذلك عبرة ودلالة على أنّ الحذر لا ينجي من القدر، وأنّ الفرار من الموت لا يغني منه، وأنّ الفزع والجزع لا يغيّر المصير ولا يردّ القضاء، لأنّ الموت له أجل محدود، وعمر معدود لا يتخطاه المرء مهما فعل. فعلى المجاهد في سبيل الله الصّبر والثّبات، لأنّ قتاله لا يدني أجله، وفراره لا يزيد في عمره(١).

ولمّا زعم المنافقون أنّ الأمر لو كان بأيديهم ما قتل من قتل منهم في

---

(١) وانظر: جامع البيان: ٢/ ٥٩٠ ـ ٥٩٢. التّفسير الكبير: ٦/ ١٦٣ ـ ١٦٦. الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٢٣٦. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧. فتح البيان: ٢/ ٦٣ ـ ٦٥. محاسن التّأويل: ٣/ ٦٣٧ ـ ٦٣٩. أضواء البيان: ١/ ١٩٢ ـ ١٩٣. في ظلال القرآن: ١/ ٢٦٤.

معركة أحد ردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أي: يا أيّها القائلون هذه المقالة القادحة في قدر الله، المنكرة لمشيئته، لو بقيتم في مساكنكم الّتي هي أبعد شيء من مظانّ القتل لخرج الّذين كتب عليهم القتل منكم بسبب من الأسباب الدّاعية إلى الخروج إلى الموضع الّذي قدّر الله فيه قتلهم فقتلوا فيه، فالتّدبير لا يقاوم التّقدير، والحذر لا يدفع القدر، وليس كلّ من يقاتل يقتل، وإنّما يقتل من كتب عليه القتل، وحان أجله كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

ولم يقتصر سبحانه على تحقّق نفس القتل، بل عيّن مكانه أيضاً مبالغة في ردّ مقالتهم(١).

ولذلك حذّر الله المؤمنين الصّادقين في جهادهم أن يكونوا مثل هؤلاء المنافقين الّذين جبنوا عن القتال، فجاءت أقوالهم ملتوية، بعيدة عن الحقّ والصّواب، وأفعالهم منافية لأمر الله العزيز الوهاب، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [آل عمران: ١٥٦ ـ ١٥٨].

أي: يا أيّها المؤمنون المجاهدون احذروا أن تكونوا كالمنافقين الّذين يقولون لمن قتل في سبيل الله إنّهم لو كانوا معنا قاعدين عن القتال، معتصمين عن الجهاد، نكالين عنه، ما وصل القتل إليهم أبداً، لأنّهم في مأمن منه. وهذا قول يجلب الحسرة والنّدامة لهم في دنياهم وأخراهم، لما يترتّب عليه من عقاب وعذاب.

---

(١) وانظر: جامع البيان: ٤/١٤٣ ـ ١٤٤. التّفسير الكبير: ٩/٩٤. فتح البيان: ٢/٣٥٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٢٠ ـ ١٢١.

واعلموا أيّها المؤمنون أنّ الّذي بيده الإحياء والإماتة هو الله وحده، بيده الخلق، وإليه يرجع الأمر. والموت كائن لا محالة، فأولى أن يكون في سبيل الله الّذي يوجب النّعيم الدّائم والمغفرة والرّحمة، وذلك أعظم من حطام الدّنيا الزّائل، ورغيد عيشها الفاني الّذي يتأخّر المنافقون عن الجهاد من أجله.

ومن مات أو قتل فمردّه ومرجعه إلى الله الّذي يتولّى حسابه، فليؤثر رضاه، وما يؤدّي إلى نيل جزائه، ومن ذلك الجهاد في سبيله[1].

وعلى هؤلاء المنافقين المثبّطين بذلك القول عن الجهاد أن يدفعوا عن أنفسهم الموت، فإنّه قادم إليهم لا محالة، وواقع بهم بلا مرية، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وما أنجاهم من الموت قعودهم عن الجهاد، ولكنّه لم يقدّره الله عليهم حينها[2].

فالجهاد في سبيل الله لا يدني من الأجل، والبعد عنه لا يزيد في العمر، ومن علم أن الأجل محدود، والعمر معدود، نفى الفزع عن قلبه، والجبن عن نفسه، وثبت في ميادين القتال ثبات الجبال الشّم الّتي لا تزلزلها أعاصير الرّياح.

قال خالد بن الوليد رضي الله عنه حين حضرته الوفاة:

«لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها[3]، وما في بدني موضع شبر إلّا وفيه ضربة، أو طعنة، أو رمية، وها أنا أموت على فراشي كما يموت العِيْر، فلا

---

(١) وانظر: جامع البيان: ٤/١٤٩ ـ ١٥٠. التّفسير الكبير: ٩/٥٦ ـ ٥٩. الجامع لأحكام القرآن: ٤/٢٤٧. تفسير القرآن العظيم: ١/٦٢٨. فتح البيان: ٢/٣٦٢. تفسير المراغي: ٤/١١٠ ـ ١١١. أضوء البيان: ١/٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) وانظر: جامع البيان: ٤/١٦٩ ـ ١٧٠. فتح البيان: ٢/٣٧٤. محاسن التّأويل: ٤/١٠٣٢. تفسير المراغي: ٤/١٣٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٢٣ ـ ١٢٤.

(٣) أي قدرها. مختار الصّحاح، ص:٢٧٧. القاموس المحيط، ص:١٦٦٨.

نامت أعين الجبناء، وما من عمل أرجى من لا إله إلّا الله، وأنا متترّس بها»[1].

وقال أبو الطّيّب المتنبي:

وإذا لم يكن من الموت بدّ ... فمن العجز أن تكون جبانا[2]

وقال الآخر:

في الجبن عار وفي الإقدام مكرمة ... والمرء في الجبن لا ينجو من القدر[3]



---

(١) أسد الغابة: ٢/ ١٠٠. وانظر: سير أعلام النّبلاء: ١/ ٣٨٢.

(٢) ديوان المتنبي بهامشه العرف الطّيّب: ٢/ ٣٤٧.

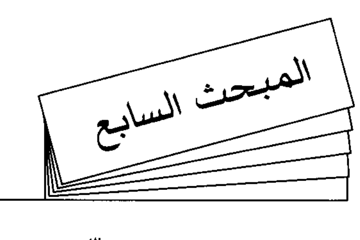
(٣) أضواء البيان: ولم ينسبه لقائل معين: ١/ ١٩٣. وانظر: تاريخ دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل واجتاز بنواحيها من ورديها وأهلها، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: أبي سعيد محبّ الدّين عمر بن غرامة العمروي، طبعة: دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م: ١٤/ ٣٣٧.

وقال قطري بن الفجاءة:

أقول لها وقد طارت شعاعاً ... من الأبطال ويحك لن تراعي
فإنّك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الّذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً ... فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عزّ ... فيطوى عن أخي الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كلّ حي ... وداعيه لأهل الأرض داعي
ومن لم يعتبط يهرم ويسأم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عدّ من سقط المتاع

سير أعلام النّبلاء: ٤/ ١٥١ ـ ١٥٢.

وانظر: ديوان الحماسة: ١/ ٢٤ ـ ٢٥. أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد، للشّريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: عيسى الباب الحلبي وشركاه، الطّبعة الأولى، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م: ١/ ٦٣٦ ـ ٦٣٧. وفيات الأعيان: ٤/ ٩٤.



النّصر من عند الله

لقد جعل الله تعالى نصر عباده المؤمنين وغلبتهم للكافرين حقّاً أوجبه على نفسه الكريمة، تكرّماً منه وتفضّلاً.

فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧](١).

وكتب سبحانه في كتابه الأوّل، وحكم بحكم لا يغيّر ولا يبدّل، بأنّه ناصر لأهل الإيمان، وأنّ العاقبة لهم، وغالب لأهل الكفر، وأنّ الدّائرة عليهم.

فقال عزّ في علاه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١](٢).

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقد جرت سنّة الله سبحانه أنّ الغلبة لرسله بالحجّة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوّه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوّه»(٣).

وقال عَزَّ وَجَلَّ معضداً لما سبق: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣](٤).

---

(١) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٩٤. فتح البيان: ١٠/ ٢٦١.

(٢) وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٣٠٦. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥١٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٨٦.

(٣) أحكام أهل الذّمة لابن قيّم الجوزيّة، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري، طبعة: رمادي للنّشر، دار ابن حزم، الدّمام، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م: ٣/ ١٣٩٣.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٣٠٦. أضواء البيان: ٧/ ٨٢٣.

(٤) وانظر في معناها: جامع البيان: ٢٣/ ١١٤. التّفسير الكبير: ٢٦/ ١٧٢.=

ونصر الله لرسله وأوليائه ليس محصوراً في هذه الدّنيا، بل هو في الدّنيا والآخرة، حيث يكون النّصر أعظم وأكبر وأجل، فقال تقدّست أسماؤه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

فالله ينصر رسله بالغلبة على أعدائهم وقهرهم لهم، أو بإعلائهم على من كذّبهم، أو بالانتقام ممّن حادّهم وشاقّهم في حياتهم، أو بتسليط من ينتقم منهم بعد مماتهم، كما ينصرهم في الآخرة بتقوية حجّتهم والشّهادة لهم بالتّبليغ، وإذلال أعدائهم وتعذيبهم[1].

ونصره سبحانه لعباده قد يحصل بأسباب مألوفة معتادة، كتقتيل المؤمنين للكافرين، وقد يحصل بأسباب غير مألوفة ولا معتادة كإلقاء الرّعب في قلوب الأعداء[2].

وبيّن سبحانه للمؤمنين أنّه إن نصرهم وأعانهم على عدوّهم فلن يغلبهم أحد من النّاس، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها من الخلق، وإن خذلهم وترك عونهم ووكلهم إلى أنفسهم، فلا أحد من الخلق يستطيع نصرهم، فما عليهم

= تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٧ ـ ٣٨.
فتح البيان: ١١/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥. أضواء البيان: ٦/ ٦٩٧.

(١) وانظر: تفسير المراغي: ٢٤/ ٨١ ـ ٨٢.
وقد أفاض الإمام ابن جرير وتبعه الإمام ابن كثير رحمهما الله في كيفية نصر الله لرسله.
انظر: جامع البيان: ٢٤/ ٧٤ ـ ٧٥. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧. كما ذكر الإمام الرّازي ﷺ سبعة أوجه في نصر الله لرسله. انظر: التّفسير الكبير: ٢٧/ ٧٦.
والمراد هنا نصر الله لرسله وعباده المؤمنين على الكافرين في موطن الجهاد بهزيمتهم والغلبة عليهم، وهو أعظم أنواع النّصر.

(٢) وانظر: التّفسير الكبير: ١٥/ ١٩٢. الجهاد في الإسلام، ص: ٨٣.
وقد ذكر مجموعة من الأسباب الّتي يسلّطها الله على الأعداء فيكون بها نصر المؤمنين، كالخوف والهلع والتّفرّق، وتسخير بعض مخلوقاته كالحرّ والبرد والرّياح والعواصف والظّلام والبرق وغير ذلك.

إلّا أن يعتمدوا ويتوكّلوا عليه، فقال تبارك اسمه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠](١).

ولكن نصره سبحانه لعباده المؤمنين مشروط بنصرهم له، فمتى ما جاهدوا في سبيله لإعلاء كلمته، وإعزاز دينه، تكفّل الله بنصرهم على عدوّهم، وأظفرهم عليهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠](٢).

وقال عقبها: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤١].

وهذه صفات من وعدهم الله بالنّصر(٣).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧].

يقول الشّيخ السّعدي رحمه الله:

«هذا أمر منه تعالى للمؤمنين، أن ينصروا الله، بالقيام بدينه، والدّعوة إليه، وجهاد أعدائه، وأن يقصدوا بذلك وجه الله، فإنّهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم وثبّت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصّبر، والطّمأنينة، والثّبات، ويصبّر أجسادهم على ذلك، ويعينهم على أعدائهم. فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أنّ الّذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه، وييسّر له أسباب

---

(١) وانظر: جامع البيان: ٤/ ١٥٤. التّفسير الكبير: ٩/ ٦٨. الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٢٥٤. فتح البيان: ٢/ ٢٦٦. تفسير المراغي: ٤/ ١١٧ ـ ١١٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١١٢.

(٢) وانظر: جامع البيان: ١٧/ ١٧٨. الكشّاف: ٣/ ١٢٦، طبعة: الاستقامة. التّفسير الكبير: ٢٣/ ٤١. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٧٢. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٦٣. فتح البيان: ٩/ ٥٧ ـ ٥٨. محاسن التّأويل: ١٢/ ٤٣٤٦. تفسير المراغي: ١٧/ ١١٩ ـ ١٢٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٨٩.

(٣) انظر: أضواء البيان: ٧/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣.

النّصر، من الثّبات وغيره»(١).

والمتتبّع لسير النّاس وملوكهم يرى أنّ كلّ من كان أنصر لدين الله، وأعظم جهاداً لأعدائه، وأقوم بطاعة الله ورسوله أعظم نصرة وطاعة(٢).

يقول الإمام ابن القيّم رحمه الله:

«ونختم هذا الكتاب(٣) بآية من كتاب الله تعالى جمع فيها تدبير الحروب بأحسن تدبير وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال: ٤٥ ـ ٤٦].

فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت في فئة قطّ إلّا نصرت، وإن قلّت وكثر عدوّها:

أحدها: الثّبات.

الثّاني: كثرة ذكره ﷻ.

الثّالث: طاعته وطاعة رسوله.

الرّابع: اتّفاق الكلمة وعدم التّنازع الّذي يوجب الفشل والوهن، وهو جند يقوّي به المتنازعون عدوّهم عليهم، فإنّهم في اجتماعهم كالحزمة من السّهام لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرّقها وصار كلّ منهم وحده كسرها كلّها.

الخامس: ملاك ذلك كلّه وقوامه وأساسه وهو الصّبر.

فهذه خمسة أشياء تبنى عليها قبة النّصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النّصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوّى بعضها بعضاً، وصار لها أثر عظيم في النّصر.

ولمّا اجتمعت في الصّحابة لم تقم لها أمّة من الأمم، وفتحوا الدّنيا، ودانت لهم البلاد.

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٣٠. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٣٢.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ٦٤٠ بتصرّف يسير.

(٣) يعني كتاب الفروسيّة.

ولمّا تفرّقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم»[1].

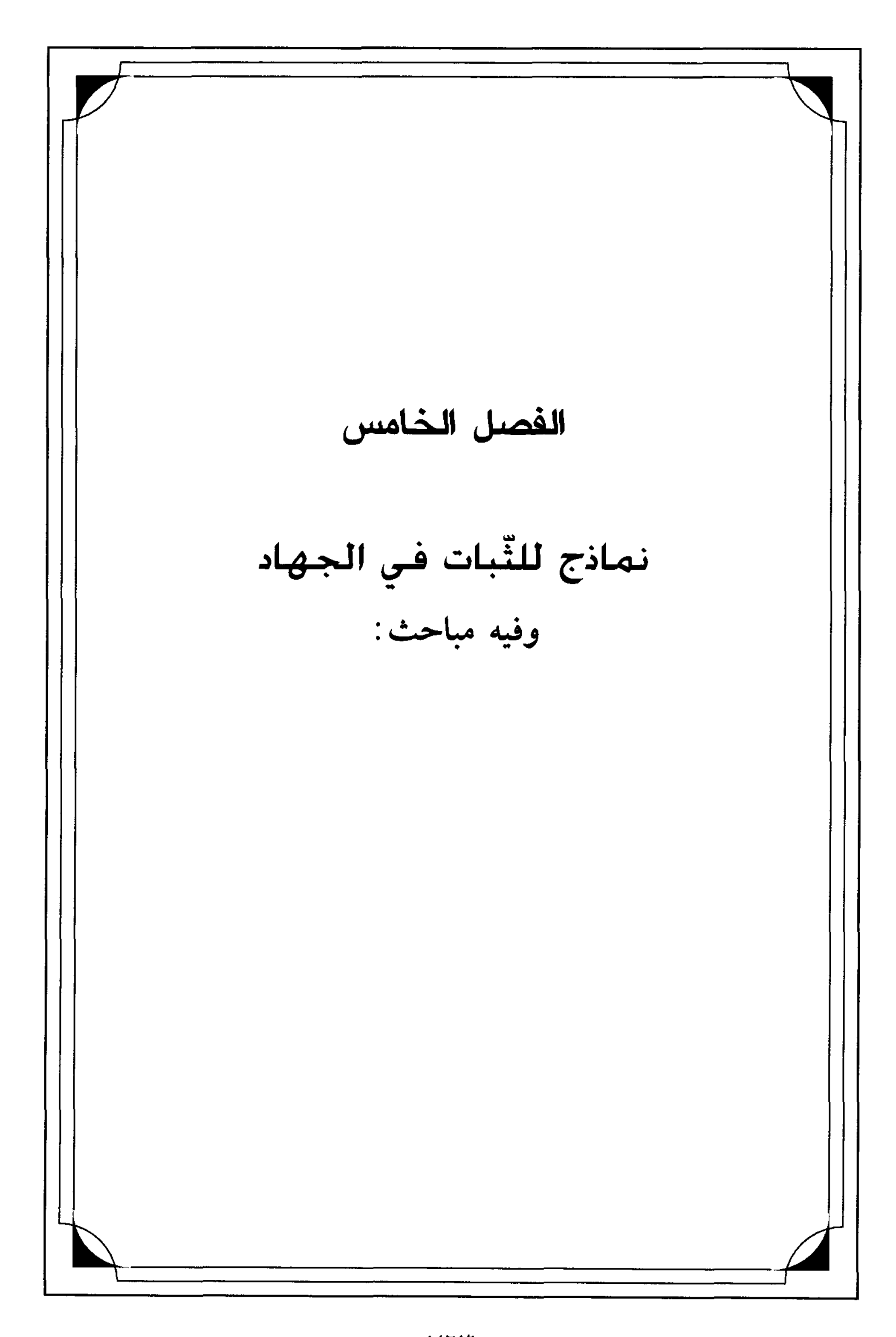
وهو كلام رصين، وبلسم شافي، وطريق بيّن لمن أراد أن يسلكه من أهل الجهاد في سبيل الله ليصل إلى قمّة النّصر.

فإذا أيقن المجاهد أنّ النّصر بيد الله، ينصر به من حقّق أسبابه، وقام بما يجب عليه نحوه، نزلت في قلبه السّكينة، وحلّت في نفسه الطّمأنينة، وسرى في جوانحه الثّبات، فأقدم على قتال عدوّه بعزم صادق، وشجاعة قاهرة، وقوّة نافذة حتّى يكتب له النّصر، ويسعد بالغلبة والظّفر، حيث يدفعه يقينه بأن النّصر من الله إلى الثّبات، ويقوده ثباته إلى النّصر.



(١) الفروسيّة، ص: ٥٠٥ ـ ٥٠٦.





الفصل الخامس

نماذج للثّبات في الجهاد

وفيه مباحث:



أنبياء الله تعالى عليهم السلام

إنّ أنبياء الله قمم عالية، وشموس ساطعة في الثّبات على دين الله أقوالاً وأعمالاً.

ومن أمروا بالجهاد منهم ضربوا أروع الأمثلة في الثّبات عنده، فلم تتزلزل أقدامهم، ولم ترتجف قلوبهم، بل كانوا كالجبال الشّم الّتي لا تؤثر فيها العواصف الهوجاء، ولا الرّياح العاتية، وكيف لا يكونون كذلك وهم قدوة الأنام، وأسوة البشر؟.

وقد أخبرنا ربّنا عن ثباتهم في الجهاد ممّا يذهل العقول، ويحيّر الألباب، فقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

هذا خطاب لأوّل هذه الأمّة، يجر بأذياله إلى من بعدهم، يدعوهم فيه ربُّهم إلى التأسّي بأنبياء الله وأتباعهم الصّادقين في الجهاد، وأن يكونوا مثلهم فيثبتوا كما ثبتوا، ويصبروا كما صبروا، ويفعلوا كما فعلوا، ويقولوا كما قالوا:

وبيان ذلك:

كم من نبيّ من أنبياء الله قاتل في سبيل الله، وقاتل معه جماعة كثيرة من أتباعه، فأصابهم في قتالهم من عظائم الأهوال، وشدائد الخطوب، وفظائع الأمور، وكثرة الجروح ما لا يعلم قدره إلّا الله، فما وهنت قلوبهم، وما

ضعفت أجسادهم، وما عجزت نفوسهم، وما تزلزلت أقدامهم، وما جبنوا عند ملاقاة عدوّهم، وما ذلّوا له ولا خضعوا، بل اعتصموا بالصبّر عند الشّدائد، ووطّنوا أنفسهم على الموت عند المصائب، وركنوا إلى الثّبات عند الأهوال، فلم يظهروا جزعاً ولا عجزاً، ولا خوفاً ولا هلعاً، ولا جبناً ولا خوراً. ومع ذلك أظهروا ذلّهم وعجزهم وفاقتهم إلى ربّهم، فلجؤوا إليه بالدّعاء، ورفعوا إليه أكفّ الضّراعة، هاضمين لأنفسهم، مستصغرين لها، مسندين ما أصابهم إلى أعمالهم، لم يتحدّثوا بما بذلوا من جهد وصبر، طالبين من ربّهم أن يغفر ذنوبهم، ويتجاوز عن تفريطهم، ويثبّت أقدامهم، ويعجّل نصرهم.

فلم يكتفوا بما فعلوا ـ مع جلالة قدر ما فعلوا ـ بل طلبوا الإمداد والإعانة والتّثبيت من الله، وقدّموا بين يدي ذلك التّوبة والاستغفار رجاء أن يحقّق لهم ما طلبوا[1]. فجمعوا بين مفاخر الأفعال ومحاسن الأقوال، فجازاهم ربّهم بأحسن الجزاء، وأعظم الثّواب، فنالوا ثواب الدّنيا من نصر وظفر، وفتح وتمكين، وعزّ وثناء حسن. كما نالوا ثواب الآخرة من جنّة عالية، ونعيم مقيم، ولذّات دائمة، وسرور وحبور.

وهكذا يفعل الكريم الجواد مع عباده المخلصين الثّابتين الصّادقين النّاصرين لدينه، الصّابرين عند لقاء عدوّه، الموقنين بوعده، المحسنين في أفعالهم وأقوالهم[2].

ولعل أعظم أنموذج لثبات الأنبياء في الجهاد يذكر في هذا المقام هو

---

(١) قال ابن القيّم رحمه الله: «علموا أنّ ربّهم تبارك وتعالى إن لم يثبّت أقدامهم، وينصرهم لم يقدروا هم على تثبيت أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنّه بيده دونهم، وأنّه إن لم يثبّت أقدامهم وينصرهم لم يثبتوا ولم ينتصروا، فوفّوا المقامين حقّهما: مقام المقتضي،وهو التّوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقام إزالة المانع من النّصرة، وهو الذّنوب والإسراف». زاد المعاد: ٣/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٢) وانظر في معنى الآيات: جامع البيان: ٤/١١٦ ـ ١٢٢. التّفسير الكبير: ٩/ ٢٥ ـ ٢٩. الجامع لأحكام القرآن: ٤/٢٢٧ ـ ٢٣١. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦١٤ ـ ٦١٥. فتح البيان ٢/٣٤٨ ـ ٣٥١. محاسن التّأويل: ٤/ ٩٩٠ ـ ٩٩٢. تفسير المراغي: ٤/ ٩٢ ـ ٩٤. تيسير الكريم الرّحمن، ص:١١٨ ـ ١١٩. في ظلال القرآن: ١/ ٤٨٨.

إمام المجاهدين، وقائد الغرّ المحجّلين، وخليل ربّ العالمين، الّذي رفع لواء الجهاد، وقمع الله به أهل الكفر والشّقاق والعناد، حتّى ظهر الحقّ وساد، وبطل الباطل وباد.

وهذا طرف من ثباته ﷺ في الجهاد يبرز من خلال ثبات الأنبياء جميعاً وصبرهم عند قتال الأعداء، ومجاهدة الألداء:

لقد كان رسول الله ﷺ في الذّروة العليا من الجهاد، حقّق كلّ أنواعه، وأكمل كلّ مراتبه، فجاهد في الله حقّ جهاده بقلبه وجنانه، ولسانه وبيانه، وسيفه وسنانه، فساعاته كلّها كانت وقفاً على الجهاد[1].

وأطاع أمر ربّه في جهاد الكافرين حين كلّفه بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]. فأبلى فيه غاية الإبلاء، وأبلغ فيه غاية الإبلاغ، حتّى بلغت غزواته تسع عشرة غزوة، قاتل في ثمان منها[2].

لم ينهزم ﷺ في غزوة من غزواته، وكيف ينهزم وهو أعظم العالمين توكّلاً على الله، وأكثرهم اعتماداً عليه، وأصبرهم عند الشّدائد والملمّات، وأشجعهم طرّة؟

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان النّبي ﷺ أحسن النّاس، وأشجع النّاس، وأجود النّاس، ولقد فزع أهل المدينة، فكان النّبي ﷺ سبقهم على فرس، وقال: وجدناه بحراً[3]»[4].

---

(١) انظر: زاد المعاد: ٣/ ٥. وانظر: ٣/ ١٢ من نفس الكتاب.

(٢) انظر: صحيح مسلم: ٣/ ١٤٤٨.

(٣) البحر: الفرس الواسع الجري الّذي لا يفنى جريه كما لا يفنى ماء البحر. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٥٠٥. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٩٩. وانظر: الفائق: ٣/ ١٧٧.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب الشّجاعة في الحرب والجبن: (٢٤)، برقم: (٢٨٢٠)، ص:٥٩٦، ونحوه في: باب الحمائل وتعليق السّيف على العنق: (٨٢/ ٨١)،برقم: (٢٩٠٨)، ص:٦١٣، وفي باب إذا فزعوا باللّيل: (١٦٥/ ١٦٤)، برقم: (٣٠٤٠)، ص:٦٣٩، وفي كتاب الأدب: =

وقد استدلّ بعض أهل العلم على كمال شجاعته بقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤﴾ [النساء: ٨٤].

فلو لم يكن ﷺ أشجع النّاس، وأعلمهم بالقتال وأثبتهم فيه ما كلّفه الله به ولو كان وحده.

قال الشّيخ المراغي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وفي الآية إيماء إلى أنّه ﷺ كُلِّف قتال الكافرين الّذين قاوموا دعوته بقوّتهم وبأسهم وإن كان وحده، كما أنّها تدلّ على أنّه ﷺ أعطي من الشّجاعة ما لم يعط أحد من العالمين، وفي سيرته الشّريفة أصدق الأدلّة على ذلك، فقد تصدّى لمقاومة النّاس جميعاً بدعوتهم إلى ترك ما هم عليه من الضّلال، وحين قاتلوه قاتلهم، وقد انهزم عنه أصحابه في أحد فبقي ثابتاً كالجبل لا يتزلزل»(١).

ومواقفه ﷺ في الثّبات في القتال كثيرة لا تحصى، ولكن أورد موقفاً واحداً منها تتجلّى فيه قمّة الثّبات، وكمال الشّجاعة، وتمام الصّبر، وقوّة القلب، وصدق العزيمة.

إنّه يوم حنين، ذلك عندما اجتمعت قبائل(٢) من العرب، فساروا لحرب المسلمين حتّى نزلوا وادي حنين بليل فكمنوا فيه.

وخرج النّبي ﷺ من مكّة بعد فتحها في اثني عشر ألفاً، منهم ألفان من أهل مكّة، وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام.

= (٧٨/ ٥٢)، باب حسن الخلق والسّخاء، وما يكره من البخل: (٣٩)، برقم: (٦٠٣٣)، ص: ١٢٩٤.

صحيح مسلم، نحوه في: كتاب الفضائل: (٤٣)، باب في شجاعة النّبي ﷺ، وتقدّمه للحرب: (١١)، ٤/ ١٨٠٢ ـ ١٨٠٣.

(١) تفسير المراغي: ٥/ ١٠٧.
وانظر: التّفسير الكبير: ١٠/ ٢٠٤. فتح البيان: ٣/ ١٨٩. محاسن التّأويل: ٥/ ١٤١٥ـ١٤١٦.

(٢) هي: هوازن وثقيف ونصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال، جمعها مالك بن عوف النّضري.
انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٤/ ٣٣١.

وفي عَمَاية الصّبح[1] انحدر المسلمون إلى وادي حنين وهم لا يعلمون بأنّ العدوّ قد كمن فيه. فبينما هم ينحطّون في الوادي فإذا وابل كثيف من السّهام يمطر عليهم من كتائب العدوّ، فانشمر المسلمون راجعين لا يلوي أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، وثبت النّبي ﷺ في عدد قليل من المهاجرين وأهل بيته[2]، وهو ينادي: هلمّوا إليّ أيّها المسلمون أنا رسول الله، وهو يركض بغلته تجاه العدوّ، وأبو سفيان بن الحارث والعبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنهما يكفّانها حتّى لا تسرع. فأمر ﷺ العبّاس رضي الله عنه أن ينادي أصحاب السّمرة[3] ففعل، فما أن سمع الصّحابة النّداء حتّى انعطفوا راجعين إلى رسول الله ﷺ، فاجتلد القوم، ما كانت إلّا هُنَيَّة حتّى انكسر العدوّ وحلّت به الهزيمة السّاحقة[4].

جاء رجل إلى البراء رضي الله عنه فقال: أكنتم ولّيتم يوم حنين؟ يا أبا عمارة! فقال: أشهد على نبي الله ﷺ ما ولّى، ولكنّه انطلق أخفَّاء[5] من النّاس، وَحُسَّرٌ[6] إلى هذا الحي من هَوَازِن وهم قوم رماة، فرموهم بِرِشْقٍ من نبل،

---

(١) أي في بقيّة ظلمة اللّيل. لسان العرب: ١٥/ ٩٨.

(٢) ممّن ثبت معه: أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب، والعبّاس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه، والفضل بن العبّاس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد، وأيمن بن عبيد، قتل يومئذ، رضوان الله على الجميع. انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٤/ ٣٣٥.

(٣) السّمرة: هي الشّجرة الّتي بايعه تحتها أصحابه بيعة الرّضوان بالحديبية، وكانوا بايعوه على ألّا يفرّوا، فلمّا سمعوا النّداء تذكّروا العهد فرجعوا. انظر: المفهم: ٣/ ٦١٥. شرح النّووي: ١٢/ ١١٥.

(٤) انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٧. الرّحيق المختوم، ص: ٣٨٠ ـ ٣٨٣. وانظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب في غزوة حنين: (٢٨)، برقم: (١٧٧٥)، ٣/ ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩.

(٥) أخِفَّاءُ من النّاس: جَمْع خَفِيف. وفي رواية: انْطَلق جُفَاءٌ من النّاس إلى هذا الحَيّ من هَوازن: أراد سَرَعَانَ النّاس وأوائلَهم، شَبَّهَهُم بجُفَاء السّيل، يقال: جَفأ الوادِي جَفَاء: إذا رَمَى بالزّبد والقَذَى. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٧٧. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٤٠١ ـ ٤٠٢. الفائق: ١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٦) حُسَّر: جمع حاسر، وهو الّذي لا جنّة عليه، أي لا شيء يحميه من سهام العدوّ. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٤٠٢. الفائق: ١/ ٢٢٣.

كأنّها رِجلٌ من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ، وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فنزل ودعا واستنصر، وهو يقول:

«أنا النّبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب

اللهم نزِّل نصرك».

قال البراء: كنّا والله إذا احمرّ البأس[1] نتّقي به، وإنّ الشّجاع منّا للّذي يحاذي به، يعني النّبي ﷺ»[2].

فركوبه البغلة ﷺ، بل ودفعها تجاه العدوّ، ونزوله إلى الأرض على عادة الشّجعان، والتجاؤه إلى ربّه، ودعوته إيّاه بالنّصر وهو في موقف تتصدع فيه القلوب، وتتطاير فيه النّفوس هلعاً وخوفاً، كلّ ذلك يدلّ على المبالغة في ثباته، وشدّة صبره، وقوّة عزمه، بل يدلّ على أنّه أشجع النّاس وأثبتهم في الحرب، ولذا قال البراء: «وإنّ الشّجاع منّا للّذي يحاذي به»[3].

وقد أنزل الله تعالى في هذه الواقعة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ

---

(١) احمرّ البأس: احمرار البأس كناية عن شدّة الحرب، واستعير ذلك لحمرة الدّماء الحاصلة فيها في العادة، أو لاستعارٍ الحرب واشتعالها كاحمرار الجمر. شرح النّووي على مسلم: ١٢/ ١٢١.

(٢) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب من قاد دابّة غيره في الحرب: (٥٢)، برقم: (٢٨٦٤)، ص: ٦٠٤ ـ ٦٠٥، وفي باب بغلة النّبي ﷺ البيضاء: (٦١/ ٦٠)، برقم: (٢٨٧٤)، ص: ٦٠٦، وفي باب من صفّ أصحابه عند الهزيمة: (٩٧/ ٩٦)، برقم: (٢٩٣٠)، ص٦١٧، وفي باب من قال خذها وأنا ابن فلان: (١٦٧/ ١٦٦)، برقم: (٣٠٤٢)، ص: ٦٤٠، كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ [التّوبة: ٢٥]: (٥٤/ ٥٥)، برقم: (٤٣١٥، ٤٣١٧)، ص: ٨٩٦ ـ ٨٩٧.

صحيح مسلم، بلفظه وبنحوه في كتاب: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب في غزوة حنين: (٢٨)، برقم: (١٧٧٦)، ٣/ ١٤٠٠ ـ ١٤٠١.

(٣) وانظر: المفهم: ٣/ ٦١٥.

رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة: ٢٥ ـ ٢٧].

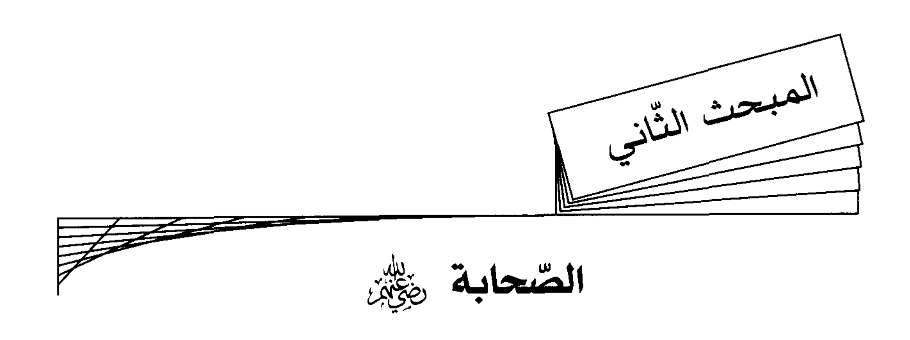
أي اذكروا أيّها المؤمنون فضل الله عليكم ونعمه الّتي لا تحصى ولا تعدّ في نصره إيّاكم في غزواتكم مع رسوله، ومن ذلك يوم حنين حين أعجبتكم كثرتكمْ فقال قائل منكم: لن نهزم اليوم من قلّة، فلم يجدي ذلك عنكم شيئاً، لأنّ النّصر من عند الله وحده وليس بكثرة العَدَد والعُدَد، وإن كانت تلك أسباب معينة عليه، وإنّما النّصر والظّفر من الله.

فلمّا قلتم ذلك ضاق عليكم فسيح الأرض، فلم تجدوا ملجأً تلجؤون إليه، فاعتصمتم بالهرب والفرار مولّين ظهوركم لأعدائكم، لا تلوون على شيء، تاركين رسول الله ﷺ وقلّة من أصحابه في واجهة العدوّ، حيث قذف الله الأمنة والطّمأنينة في قلبه ﷺ وقلوب من معه، فثبتوا ثبات الجبال، وصبروا صبر الرّجال، حتّى عدتم بعد انهزامكم، ورجعتم بعد فراركم، وأنزل الله لكم ملائكة من السّماء تقوّي قلوبكم، وتقذف الرّعب في قلوب أعدائكم، فملكتم أكتافهم، وعذّبهم الله على أيديكم بالقتل والأسر والسّبي وأخذ الأموال. وكلّ ذلك نعم من الله يسوقها إليكم، وفضل منه يتفضّل به عليكم(١).

فثبات الرّسول ﷺ في تلك المعركة ومن معه كان له أثره العظيم في قلب موازين المعركة من هزيمة إلى نصر، ومن فرار إلى صبر، ومن غلبة إلى منعة، فنالوا به ما يتمنّون، ووصلوا به إلى ما يرجون.



(١) انظر في معنى الآيات: جامع البيان: ١٠/ ٩٩ ـ ١٠٤. التّفسير الكبير: ١٦/ ٢٠ ـ ٢٣. الجامع لأحكام القرآن: ٨/ ١٠١. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٣٧ ـ ٥٣٩. فتح البيان: ٥/ ٢٦٢ ـ ٢٦٥. محاسن التّأويل: ٨/ ٣٠٩٢ ـ ٣٠٩٣. تفسير المراغي: ١٠/ ٨٥ ـ ٨٧.



المبحث الثّاني

الصّحابة رضي الله عنهم

إنّ التّاريخ الإسلامي عجز أن يوجد بعد النّبي ﷺ فئة من الأمّة تجيد تطبيق هذا الدّين في جميع مناحيه كتطبيق الفئة الّتي صحبت محمّداً ﷺ، فإنّهم قاموا به خير قيام، والتزموا به أعظم التزام قولاً وفعلاً، وحملوه في وقت تكالبت عليه أمم الكفر ليخمدوا أنفاسه، ويطفئوا نوره، وأبى الله إلّا أن ينصر دينه، ويعلي كلمته بهذه الفئة الّتي اختارها لصحبة نبيّه ﷺ، وإعزاز دينه.

ولقد علموا رضي الله عنهم أنّ الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام[1] فكان لهم فيه القدح المعلّى والحظّ الأوفر، فبذلوا فيه نفوسهم وأموالهم حتّى فتحوا شرقها وغربها، ودانت لهم جزيرة العرب بأسرها، بل استطاعوا أن يغزوا أعظم إمبراطوريتين في وقتهم، إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الرّوم، فدكّوا الأولى وأزالوا عرشها، وتقلّصت أمامهم الثّانية وانحسرت.

---

(١) عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ قال: «ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله».
مسند أحمد: ٥/ ٢٣٥. معجم الطّبراني الكبير: ٨/ ٢٢٣. عن أبي أمامة رضي الله عنه، وزاد: «لا يناله إلّا أفضلهم».

ذِرْوة كُلِّ شيء أعلاه، وجمعها ذُرى. انظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٤١٢ النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٥٩.

قال المناوي رحمه الله:

«ذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله بقصد إعلاء كلمة الله. والذّروة من كلّ شيء أعلاه، وسنام الشّيء أعلاه فالجمع بينهما هنا للمبالغة، لا يناله إلّا أفضلهم: يعني أفضل المسلمين المدلول عليه بلفظ الإسلام، فإن جاد بنفسه لله فهو أفضلهم بلا نزاع». فيض القدير: ٣/ ٥٦١.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والفروسيّة أربعة أنواع:

أحدها: ركوب الخيل والكرّ والفرّ بها.

الثّاني: الرّمي بالقوس.

الثّالث: المطاعنة بالرّماح.

الرّابع: المداورة بالسّيف.

فمن استكملها استكمل الفروسيّة، ولم تجتمع هذه الأربعة على الكمال إلّا لغزاة الإسلام وفوارس الدّين وهم الصّحابة رضي الله عنهم، وانضاف إلى فروسيّتهم الخيليّة فروسيّة الإيمان واليقين، والتّنافس في الشّهادة، وبذل نفوسهم في محبّة الله ومرضاته، فلم يقم لهم أمّة من الأمم ألبتّة، ولا حاربوا أمّة إلّا وقهروها وأذلّوها، وأخذوا بنواصيها، فلمّا ضعفت هذه الأسباب فيمن بعدهم لتفرّقها فيهم وعدم اجتماعها دخل عليهم من الوهن والضّعف بحسب ما عدموه من هذه الأسباب، والله المستعان»[1].

لقد صدقوا في جهادهم، وأخلصوا في قتالهم، وجدّوا في نصرة دين الله حتّى نصروه، ودافعوا عنه حتّى نشروه، وقد كان الثّبات في القتال صفة ملازمة لهم لا تنفك عنهم، عرفوا به خلال حروبهم الّتي فاقت حدّ الحصر، جابهوا فيها أعتى الجيوش وأصلب الجحافل[2]، عَدداً وعُدداً، ولم يكونوا إلّا في قلّة من العَدد، وضعف من العُدد، فلم تضعف عزائمهم، ولا تزلزلت أقدامهم، ولا وهنت قلوبهم، ولا خارت قواهم، كيف لا؟ ورسول الله ﷺ قدوتهم وأسوتهم الّذي يتأسّون به في جميع أمور الدّين، ومن ذلك الثّبات في الجهاد. فقد رأوا ثباته فيه فأرادوا أن يماثلوه، ورأوا صبره فأرادوا أن يشابهوه، وإن كان أمر النّبوّة عظيماً، جليل القدر إلّا إنّهم أحسنوا الاقتداء وأجادوا التّأسّي،

---

(١) الفروسيّة، ص: ١٠٧ ـ ١٠٨.

(٢) الجَحَافِل: جمع الجَحْفَل: وهو الجيش الكثير، ولا يكون كذلك حتّى يكون فيه خَيْل. انظر: لسان العرب: ١٠٢/١١. وانظر: القاموس المحيط، ص: ١٢٦٠.

وقد سطّر التّاريخ صفحات مضيئة، وأبرز آثاراً مشرقة لثبات أولئك الأماجد يعجز المقام أن يأتي عليها كلّها، ولكن في النّماذج والأمثلة ما يغني عن كثرة السّرد والإطالة.

ولعلّ أبلغ أنموذج يكشف عن ثبات أولئك الأبطال غزوة بدر الكبرى، ففيها ما يغني ويكفي، وهذا خبرها:

سمع النّبي ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشّام بعير لقريش فيها أموال عظيمة، فندب النّاس للخروج إليها ولم يعزم عليهم، فخفّ بعضهم وثقل بعضهم، ولم يظنّوا أنّهم يلقون حرباً ولذا خرجوا في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، معهم فارسان، وسبعون بعيراً يعتقبونها.

فلمّا علم أبو سفيان بخبرهم أرسل إلى قريش كي ينفروا إلى عيرهم فيمنعوها من محمّد ﷺ وأصحابه، فنهضوا مسرعين، وأوعبوا في الخروج، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، لم يتخلّف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب[1]، فإنّه عوّض عنه رجلاً، فكان قوام جيشهم ما بين التّسعمائة والألف في كامل العتاد والعُدد والظّهر.

وقد انفلتت العير فنجت من الوقوع في قبضة جيش الإسلام، والتقى الجيشان على غير ميعاد كما قال سبحانه: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال: ٤٢].

جيش المسلمين الّذي خرج غير متأهب لقتال لأنّه لم يخرج من أجله،

---

(١) أبو لهب: هو عبد العزّى بن عبد المطلب بن هاشم القرشي، عمّ رسول الله ﷺ. أحد الأشراف والشّجعان في الجاهليّة، كبر عليه أن يتّبع ديناً جاء به ابن أخيه فآذى المسلمين، وكان شديد العداوة لهم، محرّضاً عليهم، وهو الّذي نزل في شأنه قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد: ١ ـ ٣]، مات بعد وقعة بدر بأيّام ولم يشهدها. انظر: الأعلام: ٤/ ١٢.

وقد كان في قلّة من العدد، وضعف في القوّة والسّلاح، ونقص في الظّهر، وفي غير منعة من النّاس.

وجيش المشركين في غاية الشّدّة والقوّة، مع كثرة عددهم وكامل عتادهم، وقد كان يعجّ بالفرسان والخيل، وقد خرجوا على حميّة وغضب، وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه، يريدون أن يجتثّوا الإسلام ونبيّ الإسلام، يصاحبهم الرّياء، ويقارنهم البطر كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧].

والنّتيجة الّتي تتمخّض من ذلك أنّه لا تكافؤ بين الجيشين ألبتّة.

ولمّا أحسّ المصطفى ﷺ بالخطر الدّاهم، وأنّه لا بد من حرب ضروس، ولقاء دامٍ ينبني عليه بقاء الإسلام أو زواله، كما قال في دعائه من بعد: «اللّهم إن تهلكْ هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»[1].

وقتال هذا شأنه فإنّه يحتاج إلى ثبات وشجاعة وبسالة وجرأة منقطعة النّظير وإلّا كانت الدّائرة. فأراد ﷺ أن يستشفّ هذه المعاني في أصحابه، وهل يمكنه أن يخوض بهم معركة غير متكافئة الجانبين، فاستشارهم في القتال.

وهنا ظهر الإيمان على حقيقته، واليقين في قمّته، والثّبات في أوجه، والشّجاعة في كمالها، والصّبر في غايته.

فقام أبو بكر الصّديق رضي الله عنه فقال وأحسن، ثمّ قام عمر الفاروق رضي الله عنه فقال وأحسن، وكانا دائماً سبّاقين للخير[2].

ثمّ قام المقداد بن عمرو رضي الله عنه، فارس الإسلام، فقال: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولكن

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر: (١٨)، برقم: (١٧٦٣)، ٣/ ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤.

(٢) انظر: صحيح مسلم: ٣/ ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤. السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٢/ ٤٠٧.

اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالّذي بعثك بالحقّ لو سرت بنا إلى برك الغماد[1] لجالدنا معك من دونه حتّى تبلغه»[2].

ثمّ قال رسول الله ﷺ: «أشيروا عليّ أيّها النّاس» وكان يريد الأنصار، لأنّهم عدد النّاس، ولمّا بايعوه أوّلاً لم يشترطوا نصرته خارج مدينتهم. والّذين سبقوا بالكلام كانوا جميعاً من المهاجرين.

فلمّا قال ﷺ ذلك قال له سعد بن معاذ ﷺ: «والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله؟ قال: «أجل»، قال: فقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أنّ ما جئت به هو الحقّ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السّمع والطّاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالّذي بعثك بالحقّ لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً، إنّا لصُبْر في الحرب، صُدْق في اللّقاء، لعلّ الله يريك منّا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله»[3].

إنّها كلمات تشعّ صدقاً وثباتاً، فهي لم تخرج من قلوب جوفاء خالية،

---

(١) برك الغماد: بفتح الباء عند الأكثر، وقيل: بكسرها. والغماد: بكسر الغين المعجمة، وقيل: بالضّمّ، والكسر أشهر، وهو موضع وراء مكّة بخمس ليال ممّا يلي البحر، وقيل: بلد باليمن في أقصاها. انظر: معجم البلدان: ١/ ٣٩٩. وانظر: معجم ما استعجم: ١/ ٣٠٣.

(٢) السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٢/ ٤٠٧. البداية والنّهاية: ٣/ ٢٦٢. وفي صحيح البخاري قال ابن مسعود ﷺ: «شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحبّ إليّ ممّا عدل به. أتى النّبي ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: لا نقول كما قال موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النّبي ﷺ أشرق وجهه وسرّه، يعني قوله»، كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ ...﴾ الآيات [الأنفال: ٩ ـ ١٣]: (٤)، برقم: (٣٩٥٢)، ص٨٢٩. وانظر: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]: (٤/ ٣)، برقم: (٤٦٠٩)، ص:٩٦٦.

(٣) السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٢/ ٤٠٨. البداية والنّهاية: ٣/ ٢٦٢. انظر: زاد المعاد: ٣/ ١٧٤.

وإنّما خرجت من قلوب فعّمت بالإيمان واليقين، وسلامة المعتقد، وصحة التّوجه.

إنّه الثّبات بكلّ معانيه، ثبات أعجز الأمّة أن تخرج من بنيها من كان ذلك شأنه وحاله بعد أولئك الأبرار.

فسرّ رسول الله ﷺ بما قيل سروراً عظيماً، ونشّطه ذلك وشجّعه. فقال: «سيروا وأبشروا فإنّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطّائفتين، والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم»[1].

والتحم الجيشان بعد صولات وجولات، وثبت أهل الإيمان فانهدت أمامهم صفوف المشركين، وانكسرت جموعهم، وركب أسود الإسلام ظهورهم يأسرون ويقتلون. وانجلت المعركة بهزيمة ساحقة لملّة الكفر، حيث قتل صناديدهم[2] ورؤساؤهم وقادتهم في الشّر. فقتل سبعون وأسر سبعون، وفرّ الباقون وهم يجرّون أذيال الخيبة والذّل والهوان، وانهدّ بذلك ركن ركين من أركان الشّرك[3].

---

(١) السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٢/ ٤٠٨. البداية والنّهاية: ٣/ ٢٦٢.

وقوله ﷺ: «سيروا وأبشروا... إلخ». أصله في صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/ ٣٢)، باب ما قيل في درع النّبي ﷺ والقميص في الحرب: (٨٩/ ٨٨)، برقم: (٢٩١٥)، ص: ٦١٤ ـ ٦١٥. وانظر: حديث رقم: (٣٩٥٣)، ص: ٨٢٩، وحديث رقم: (٤٨٧٥، ٤٨٧٧)، ص: ١٠٦٠.

صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، وإباحة الغنائم: (١٨)، برقم: (١٧٦٣)، ٣/ ١٣٨٤.

وقد أورد البيهقي نحوه في السّنن، في باب الصّلاة عند الالتقاء: ٥/ ١٨٧، وفي باب الاستنصار عند اللّقاء: ٦/ ١٥٥، والطّبراني في المعجم الكبير: ١٠/ ١٤٧.

(٢) صناديد قريش هم أشرافُهم وعُظماؤُهم، الواحد صِنْدِيد، وكلّ عظيم غالب صِنْدِيد. لسان العرب: ٣/ ٢٦٠.

(٣) انظر: في سياق وقعة بدر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٢/ ٤٠١ ـ ٤٢٧. زاد المعاد: ٣/ ١٧١ ـ ١٨٨. البداية والنّهاية: ٣/ ٢٥٦ ـ ٢٩٧. الرّحيق المختوم، ص: ١٨٤ ـ ٢١٠.

ونزل القرآن الكريم يتحدّث عن هذه المعركة، يكشف الحقّائق، ويبيّن الخفايا، ويثني على ثبات المؤمنين وصبرهم، ويمنّ بنصر الله لهم، ويذكّرهم بنعمه عليهم.

فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣]. فقد نصرهم الله مع قلّة عددهم، وضعف عُددهم، ولو لم ينصرهم ما نصروا، إذ النّصر منه سبحانه(١)، ولو لم يثبّتهم ما ثبتوا.

وأعانهم سبحانه بعوامل الثّبات لمّا علم صدقهم وإخلاصهم، وأنّهم يريدون وجهه والدّار الآخرة، وإقامة دينه وإعلاء كلمته.

فأنزل ملائكة من السّماء، يردف بعضهم بعضاً، ويأتي بعضهم إثر بعض، مدداً للمؤمنين، يبشّرونهم بالنّصر، ويطمئنون قلوبهم ويسكّنونها فلا تفزع ولا تخاف، بل ويقاتلون معهم(٢). ويبثّون الرّعب في قلوب الكافرين، والهلع في نفوسهم، قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩ ـ ١٠](٣).

---

(١) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ٤/ ٧٤. التّفسير الكبير: ٢٠٨/٨. فتح البيان: ٢/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥. تفسير المراغي: ٤/ ٥٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١١٤.

(٢) روى ابن جرير ﵀ بسنده عن ابن عبّاس ﵄ قال: «لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيّام سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيّام عدداً ومدداً لا يضربون». جامع البيان: ٧٧/٤. ونصّ الرّازي على أنّ ذلك قول كثير من المفسّرين. انظر: التّفسير الكبير: ٨/ ٢١٤.

عن ابن عبّاس ﵄ قال: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتدّ في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسّوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ. فنظر إلى المشرك أمامه فخرّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشُقّ وجهه كضربة السّوط، فاخضرّ ذلك أجمع. فجاء الأنصاري فحدّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدقت ذلك من مدد السّماء الثّالثة»، وهذا دليل على قتال الملائكة في بدر.

صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر: (١٨)، برقم: (١٧٦٣)، ٣/ ١٣٨٤ ـ ١٣٨٥.

(٣) وانظر في معنى الآيتين: الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٧٠ ـ ٣٧١. تفسير القرآن العظيم: =

وقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

فهو يأمر الملائكة سبحانه بتثبيت المؤمنين، وبثّ الطّمأنينة في قلوبهم، ويخبرهم أنّه معهم بنصره وتأييده وإعانته، وهذا أعظم عامل على الثّبات، وأنّه سوف يقذف الخوف والرّعب في قلوب المشركين فلا يكون لهم ثبات، فاضربوا هاماتهم، وفلّقوا رؤوسهم، واحتزّوا رقابهم، وقطّعوا أياديهم ذات البنان ليعجزوا عن التّصرف في الحرب[1].

وغشيهم سبحانه بالنّعاس أمنة لهم، وتطميناً لقلوبهم، وإزالة للخوف والرّعب عنها، لأنّ وصوله دلالة على ذهاب الخوف، إذا الخائف لا يتطرّق إليه نوم ولا نعاس لانشغال قلبه، وبه يزول الإعياء والتّعب، ويعود لهم النّشاط والقوّة. وأنزل الله ﷻ في تلك اللّيلة مطراً واحداً، فكان على المشركين وابلاً شديداً منعهم من التّقدّم، وكان على المسلمين طلاً طهّرهم به، وأذهب عنهم

= ٢/ ٤٥٨ ـ ٤٦٠. فتح البيان: ٥/ ١٣٧ ـ ١٣٩. محاسن التّأويل: ٨/ ٢٩٥٧ ـ ٢٩٥٩. تفسير المراغي: ٩/ ١٧٢ ـ ١٧٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص٢٧٨.
عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: «لمّا كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثمّ مدّ يديه فجعل يهتف بربّه: «اللّهم أنجز لي ما وعدتّني، اللّهم آت ما وعدتّني، اللّهم إن تُهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض». فما زال يهتف بربّه، مادّاً يديه، مستقبل القبلة، حتّى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثمّ التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كذاك مناشدتك ربّك، فإنّه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩]، فأمدّه الله بالملائكة». صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر: (١٨)، برقم: (١٧٦٣)، ٣/ ١٣٨٣ ـ ١٣٨٤.

(١) وانظر: التّفسير الكبير: ١٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣. فتح البيان: ٥/ ١٤٢ ـ ١٤٣. محاسن التّأويل: ٨/ ٢٩٦١. تفسير المراغي: ٩/ ١٧٦ ـ ١٧٧. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٧٨. وقال ﷺ: «فإنّ الله إذا ثبّت المؤمنين، وألقى الرّعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثّبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم». المرجع السّابق، ص٢٧٨.

رجس الشّيطان، ووطّأ به الأرض، وصلّب به الرّمل، وثبّت الأقدام، ومهّد به المنزل، وربط به قلوبهم[(١)].

وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ١١][(٢)].

بهذه العوامل الدّاعية إلى الثّبات نصر الله المؤمنين على أهل الشّرك والكفر الّذين شاقّوا الله ورسوله[(٣)]، وأرادوا طمس معالم الإسلام بعد أن آذوا أهله وأخرجوهم من ديارهم، ثمّ اتّبعوا آثارهم يريدون أن يستأصلوا شأفتهم، فنصرهم الله عليهم في معركة كانت فاتحة الظّفر فيما بعدها، والفاصلة لما يليها، وبها علا ذكر أهل الإيمان في البلاد، وهابهم قاصيها ودانيها، وتضعضع بنيان الشّرك وتزلزلت أركانه، إذ فقد زعماءه وقادته الذّابّين عنه، المانعين لحماه، وعلت راية التّوحيد وارتفع بنيانه.

ولمزيد بيان لثبات الصّحابة ﷺ أورد أنموذجين لبطلين باسلين، وفارسين

---

(١) زاد المعاد: ٣/ ١٧٥.

(٢) وانظر: التّفسير الكبير: ١٥/ ١٣٤ ـ ١٣٥. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣. فتح البيان: ٥/ ١٤٢ ـ ١٤٣. محاسن التّأويل: ٨/ ٢٩٦١. تفسير المراغي: ٩/ ١٧٤ ـ ١٧٧. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٧٨.
يقول الشّيخ المراغي رحمه الله: «وقد فهم من الآية أنّه كان لهذا المطر أربع فوائد:
١ ـ تطهيرهم حسّيّاً بالنّظافة الّتي تنشّط الأعضاء، وتدخل السّرور على النّفس، وشرعيّاً بالغسل من الجنابة والوضوء من الحدث الأصغر.
٢ ـ إذهاب رجس الشّيطان ووسوسته.
٣ ـ الرّبط على القلوب: أي توطين النّفس على الصّبر وتثبيتها كما قال: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]. وهذا لما للمطر من المنافع الّتي تكون أثناء القتال.
٤ ـ تثبيت الأقدام به، ذاك أنّ هذا المطر لبّد الرّمل وصيّره بحيث لا تغوص فيه أرجلهم، فقدروا على المشي كيف أرادوا». تفسير المراغي: ٩/ ١٧٥ ـ ١٧٦.

(٣) كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الأنفال: ١٣ ـ ١٤].

عظيمين من فرسان الصّحابة ﷺ يتأكّد بخبريهما ثبات أولئك الأجلّة، ويتّضح بالحديث عنهما صبر أولئك الكرام. وهما في المطلبين الآتيين:

المطلب الأوّل

عُمَير بن الحُمَام رضي الله عنه

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتّى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «لا يُقَدِّمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتّى أكون أنا دونه»[1]، فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض». قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنّة عرضها السّماوات والأرض؟ قال: «نعم»، قال: بَخْ بَخْ[2]، فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بَخْ بَخْ؟»، قال: لا والله يا رسول الله إلّا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «فإنّك من أهلها». فأخرج تمرات من قرنه[3] فجعل يأكل منهنّ، ثمّ قال: لئن أنا حَيِيتُ حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التّمر ثمّ قاتلهم حتى قتل»[4].

---

(١) أي قدامه متقدّماً في ذلك الشّيء لئلا يفوت شيء من المصالح الّتي لا تعلمونها. شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٤٥.

(٢) بخ بخ: بخ بفتح الموحّدة وسكون المعجمة، وقد تنوّن مع التّثقيل والتّخفيف بالكسر والرّفع، ولو كررت: فالاختيار أن تنوّن الأولى وتسكّن الثّانية وقد يسكّنان جميعاً، ومعناها تفخيم الأمر والإعجاب به. فتح الباري: ٥/ ٣٩٧، طبعة: دار المعرفة، بتصرّف. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ٧/ ٨٥ ـ ٨٦. فيض القدير: ٣/ ١٩٧. عون المعبود: ١/ ١٩٩. تحفة الأحوذي: ٧/ ٢٨.

(٣) قرنه: القَرَن بالتّحريك جعْبَة من جُلود تُشقُّ ويُجْعل فيها النّشّاب، فأخْرَج تَمْراً من قَرَنه أي جعْبَته، ويُجْمَع على أقْرُن وأقْران كجَبَل وأجْبُل وأجبال. النّهاية في غريب الحديث: ٤/ ٥٥، بتصرّف.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب ثبوت الجنّة للشّهيد: (٤١)، برقم: (١٩٠١)، ٣/ ١٥٠٩ ـ ١٥١١.

وقال ابن إسحاق رحمه الله:

«خرج رسول الله ﷺ[1] فحرّضهم وقال: «والّذي نفس محمّد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلّا أدخله الله الجنّة».

فقال عمير بن الحمام، أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهنّ: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلّا أن يقتلني هؤلاء، ثمّ قذف التّمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتّى قتل»[2].

إنّ عميراً رضي الله عنه وقف موقفاً في الثّبات يعجز عنه صناديد الرّجال، وشجعان الأبطال، فما إن سمع بذكر الجنّة حتّى عجّل إليها غير هائب من الموت، ولا خائف من القتل، وما تساوي الحياة كلّها عنده مع جنّة عرضها السّماوات والأرض؟ وهل يُقارن ظلٌّ فانٍ مع نعيم لا يزول؟.

فثبت رضي الله عنه لمّا علم أنّ الثّبات طريق إلى ذلك النّعيم، وصبر لمّا علم أنّ الصّبر يوصل إلى الجزاء العظيم، وقد طرق أذنه قوله ﷺ: «لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلّا أدخله الله الجنّة». فكان دافعاً له على الثّبات.

إنّ أكل تمرات تُحمل في الكفّ حياة طويلة، لأنّها تحبس عن الجنّة، إذن فليعجّل إليها، وليقدّم نفسه ثمناً لها، وليكن ذلك بالقتل، فما أهونه، وما أيسره حينئذ، لأنّ السّلعة غالية، فيهون كلّ شيء يدفع من أجلها ولو كان النّفس، وذلك لا يتأتّى إلّا لمن له إيمان خالص، ويقين صادق، يحفّه الصّبر، ويتوّجه الثّبات، وقد كان عمير رضي الله عنه كذلك.

---

(١) أي من العريش: وهو بناء كالخيمة يستظلّ به.
انظر: القاموس المحيط، ص: ٧٧٠، وقد صنع للنّبي ﷺ ليكون فيه أثناء معركة بدر.
انظر: السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٢/ ٤١٢.

(٢) المرجع السّابق: ٢/ ٤١٧.
وقد ذكر ابن الأثير رحمه الله أنّه قاتل وهو يقول:

ركضاً إلى اللّه بغير زاد	إلّا التّقى وعمل المعاد
والصّبْر في اللّه على الجهاد	إنّ التّقى من أعظم السّدادِ
وخيرُ ما قاد إلى الرّشاد	وكلّ حيّ فإلى نفاد

ثمّ حمل، فلم يزل يقاتل حتّى قتل، قتله خالد بن الأعلم. أسد الغابة: ٣/ ٤١٤.

المطلب الثّاني

أنس بن النّضر رضي الله عنه

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «غاب عمّي أنس بن النّضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبت عن أوّل قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين لَيَرَيَنَّ الله ما أصنع[1].

فلمّا كان يوم أحد وانكشف المسلمون قال: اللّهم إنّي أعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك ممّا صنع هؤلاء يعني المشركين[2]. ثمّ تقدّم فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنّة وربّ النّضر، إنّي أجد ريحها من دون أحد[3]، قال: سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسّيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قتل وقد مثّل به[4] المشركون، فما عرفه أحد إلّا أخته ببنانه.

قال أنس: كنّا نرى ـ أو نظنّ ـ أنّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣][5] إلى آخر الآية.

---

(١) زاد مسلم في روايته: «وهاب أن يقول غيرها». قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «أي خشي أن يلتزم شيئاً فيعجز عنه فأبهم، وعرف من السّياق أن مراده أنّه يبالغ في القتال وعدم الفرار». فتح الباري: ١٠١/٦.
وانظر: المفهم: ٧٣٨/٣. شرح النّووي على مسلم: ٤٨/١٣.

(٢) أي اعتذر إليك من فرار المسلمين، ومن فعل المشركين. انظر: فتح الباري: ١٠٢/٦.

(٣) قال النّووي رحمه الله: «محمول على ظاهره وإنّ الله تعالى أوجده ريحها من موضع المعركة، وقد ثبتت الأحاديث أنّ ريحها توجد من مسيرة خمسمائة عام». شرح النّووي على مسلم: ٤٨/١٣. وانظر: المفهم: ٧٣٩/٣. فتح الباري: ١٠٢/٦.

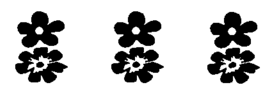
(٤) مثّل به: يقال: مُثِّل بالقتيل: إذا جدع أنفه أو أذنه أو مذاكيره، أو شيء من أجزائه، والاسم المُثْلَة. انظر: شرح النّووي على مسلم: ٢٥/١٦. فتح الباري: ١٦٣/٣، طبعة: دار المعرفة. تحفة الأحوذي: ٨٢/٤.

(٥) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجهاد والسّير: (٥٦/٣٢)، باب قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣]: (١٢)، برقم: (٢٨٠٥)، ص: ٥٩٢ ـ ٥٩٣، ونحوه=

لقد غاب أنس ﷺ عن واقعة بدر فحزّ في نفسه ألّا يكون شهدها مع رسول الله ﷺ، فعزم في نفسه أن شهد واقعة بعدها ليبلونّ فيها بلاءً حسناً، وليبالغنَّ في القتال والثّبات حتّى يرى الله ذلك منه.

ولمّا جاءت أحد وفرّ المسلمون ثبت أنس ﷺ فلم يفر مع من فرّ، بل نفّذ ما ألزم نفسه به، واستنكر فرار المؤمنين، وأقدم إلى القتال ثابت الجأش، قوي العزيمة، صابراً محتسباً، يقوده إيمانه الصّادق، ويدفعه يقينه[1]. لم يصل الخوف إلى قلبه، ولا الوجل إلى فؤاده.

واندفع يخوض تلك الأهوال غير آبه بجرح السّيوف، وطعن الرّماح، ورمي السّهام، كيف وهو يشتمّ رائحة الجنّة؟ ولذا لم يوقف إقدامه إلّا القتل. وقد عجز غيره أن يصنع صنيعه، ويثبت ثباته، إنّه من الّذين عاهدوا الله فصدّقوا العهد، ولم يغيّروا أو يبدّلوا حتّى لقوا الله وهم على ذلك.



= في: كتاب المغازي: (٦٤/٣٨)، باب غزوة أحد: (١٧)، برقم: (٤٠٤٨)، ص: ٨٤٧.

صحيح مسلم: نحوه في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب ثبوت الجنّة للشّهيد: (٤١)، برقم: (١٩٠٣)، ٣/ ١٥١٢.

(١) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وفيه ـ أي الحديث ـ فضيلة ظاهرة لأنس بن النّضر وما كان عليه من صحّة الإيمان، وكثرة التّوقي والتّورع، وقوّة اليقين». فتح الباري: ٦/ ١٠٣.

الباب الخامس

الثبات على المنهج الحق

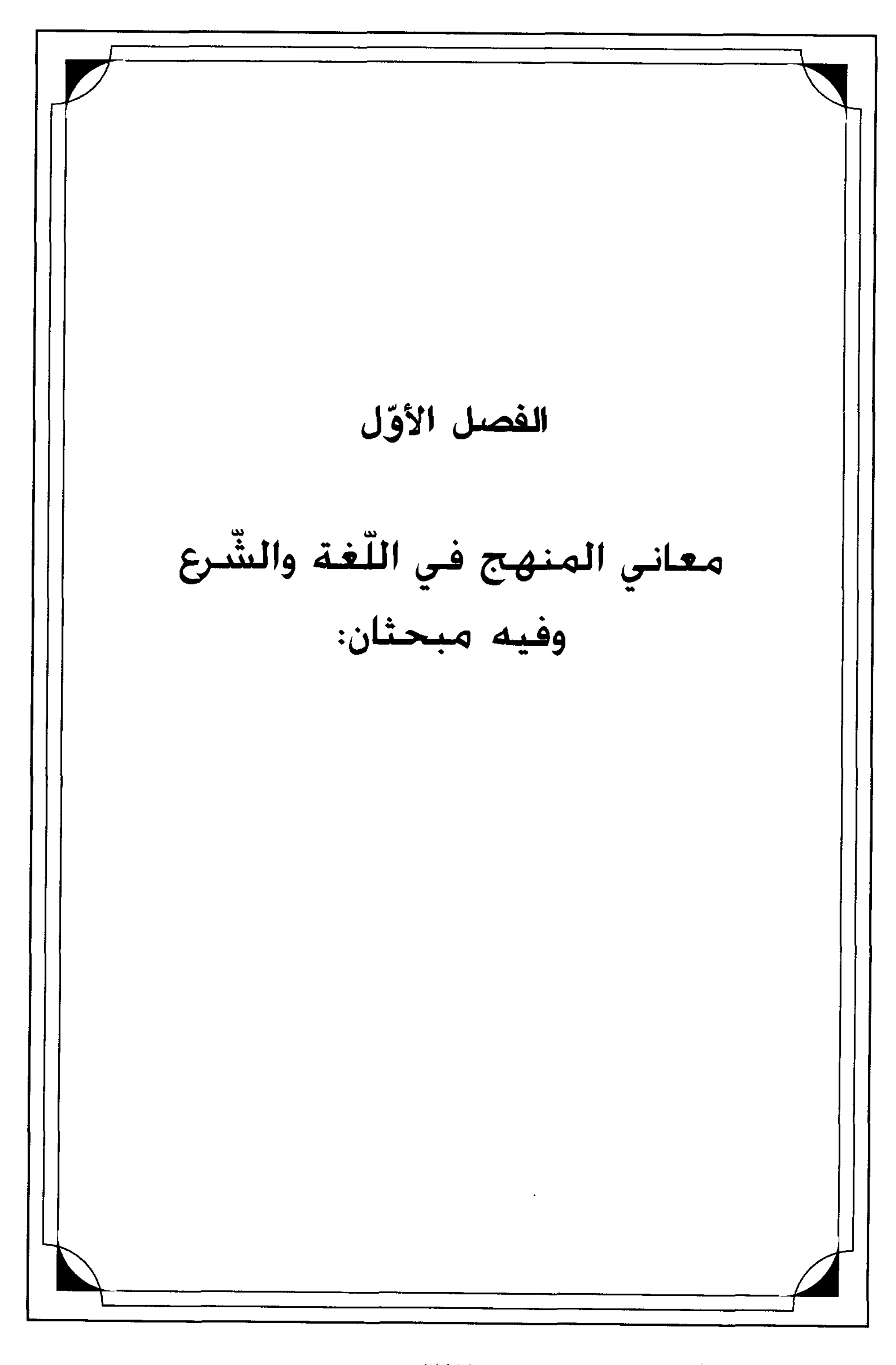
وفيه فصول:

الفصل الأول: معاني المنهج في اللّغة والشرع.

الفصل الثاني: سمات المنهج الحق.

الفصل الثّالث: عوامل الثبات على المنهج الحق.

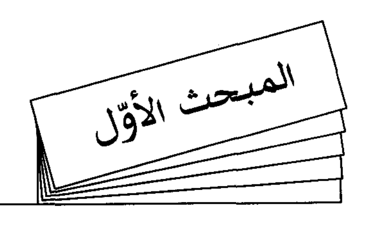
الفصل الرّابع: نماذج للثبات على المنهج الحق.



الفصل الأوّل

معاني المنهج في اللّغة والشّرع

وفيه مبحثان:



معاني المنهج في اللّغة

نَهج الطّريق نَهْجاً وأنهجه: أي سلكه وأبانه وأوضحه[١].

واستنهج الطّريق: صار نهْجاً واضحاً[٢]. فالنّهْجُ: هو الطّريق الواضح البيّن المستقيم كالمنهج والمنهاج، والجمع نَهْجات ونُهُوج ونُهُج[٣].

قال الشّاعر[٤]:

ولقد أضاء لك الطّريق، وأنهجت   سبل المكارم والهُدَى تُعْدِي[٥]

وطريق ناهجة: أي واضحة[٦].

ونَهَجَ الثّوبُ نَهْجاً: أخذ فيه البلى.

وأنهجه: أخلقه[٧].

---

(١) انظر الصّحاح للجوهري: ١/٣٤٦. مختار الصّحاح، ص:٦٨١. القاموس المحيط، ص:٢٦٦. لسان العرب: ٢/٣٨٣. تاج العروس: ٣/٥٠٤. معجم متن اللّغة: ٥/٥٥٧.

(٢) انظر: تهذيب اللّغة: ٦/٦٢. القاموس المحيط، ص:٢٦٦. لسان العرب: ٢/٣٨٣. تاج العروس: ٣/٥٠٥. معجم من اللّغة: ٥/٥٥٧.

(٣) انظر: لسان العرب: ٢/٣٨٣. تاجر العروس: ٣/٥٠٤. معجم متن اللّغة: ٥/٥٥٧.

(٤) هو يزيد بن الخذّاق العبدي. انظر: لسان العرب: ٢/٣٨٣.

(٥) انظر: الصّحاح للجوهري: ١/٣٤٦. أساس البلاغة، ص:٤٧٤. لسان العرب: ٢/ ٣٨٣. تاج العروس: ٣/٥٠٤. وتعدي: أي تُعين وتقوّي: لسان العرب: ٢/٣٨٣.

(٦) انظر: تاج العروس: ٣/٥٠٥. معجم متن اللّغة: ٥/٥٥٧. وانظر: لسان العرب: ٢/٣٨٣.

(٧) انظر: الصّحاح للجوهري: ١/٣٤٦. تهذيب اللّغة: ٦/٦٢. أساس البلاغة، ص:٤٧٤. المفردات، ص:٥٠٦. القاموس المحيط، ص:٢٦٦. لسان العرب: ٢/٣٨٣. تاج العروس: ٣/٥٠٥. معجم متن اللّغة: ٥/٥٥٧.

قال ابن الأعرابي[1]:

كـالـثّـوب أنـهـج فـيـه الـبـلـى   أعيا على ذي الحيلة الصّانع[2]

ونفى صاحب اللّسان: أن يقال: نَهَج الثّوب بالفتح[3].

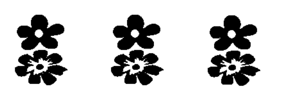
ونَهِجَ الرّجلُ نَهَجاً ونهيجاً: رَبَا وانبهر نفسه: أي تتابع فهو ناهج، وأنهج: مثلها[4].

ويقال: أنهج الرّجلُ الدّابة: سار عليها حتّى انبهرت وأعيت[5].

فالنّهَجُ والنّهيج والنّهْجَة: الرّبو الّذي يعلو الإنسان والدّابة، وهو تواتر النّفس من شدّة الحركة[6].

ويقال: أنهج فلان: إذا بكى، وقيل: إذا انبسط[7].

فالمنهج ورد في اللّغة بعدة معانٍ وهي: الطّريق والمسلك، والبلى، والرّبو، والبكاء، والانبساط. والمراد هنا المعنى الأوّل، وهو المتعلّق بالبحث.



---

(١) واسمه محمّد بن زياد، وهو اللّغوي النّسّابة المعروف. وانظر: سير أعلام النّبلاء: ١٠/ ٦٨٧. الأعلام: ٦/ ١٣١.

(٢) لسان العرب: ٢/ ٣٨٣. تاج العروس: ٣/ ٥٠٥.

(٣) لسان العرب: ٢/ ٣٨٣.

(٤) انظر: الصّحاح للجوهري: ١/ ٣٤٦. لسان العرب: ٢/ ٣٨٣. تاج العروس: ٣/ ٥٠٤. معجم متن اللّغة: ٥/ ٥٥٧.

(٥) انظر: الصّحاح للجوهري: ١/ ٣٤٦، تهذيب اللغة: ٦/ ٦٢، القاموس المحيط: ص: ٢٦٦. لسان العرب: ٢/ ٣٨٣. تاج العروس: ٣/ ٥٠٤. معجم متن اللّغة: ٥/ ٥٥٧.

(٦) انظر: تهذيب اللّغة: ٦/ ٦٢. لسان العرب: ٢/ ٣٨٣. تاج العروس: ٣/ ٥٠٤. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٣٤.

(٧) انظر: لسان العرب: ٢/ ٣٨٣. تاج العروس: ٣/ ٥٠٥. معجم متن اللّغة: ٥/ ٥٥٧.



معاني المنهج في الشّرع

لقد وضح لنا من معاني المنهج في اللّغة أنّه الطّريق المستقيم الواضح البيّن. ويمكن أن نستصحب هذا المعنى لبيان المراد بالمنهج في الشّرع.

فهو الطّريق الواضح المستقيم الّذي يسلكه المسلم في عقيدته وعبادته ومعاملته وأخلاقه، وفي جميع شؤونه فيما يتعلّق بأمر الشّرع.

والمنهج الّذي يجب على المسلم أن يسير عليه هو ذاك المنهج الّذي سار عليه رسول الهدى ﷺ وصحابته الأفاضل من بعده، والتّابعون لهم بإحسان ومن تبعهم من الأئمّة الّذين علا قدرهم، وعظم شأنهم.

وهو المنهج القويم الّذي ارتضاه الله لهذه الأمّة لتسير عليه، فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ [النساء: ١١٥].

أي من يباين الرّسول ﷺ فيفارق طريقه، وهو طريق الحقّ والصّراط المستقيم بعد ما وضح وبان له، وهو طريق المؤمنين الصّادقين، ومنهاجهم الواضح المبين الّذي يوصلهم إلى مرضاة ربّ العالمين نولّه ما تولّاه، ونتركه إلى ما اختاره، وهو الضّلال والخذلان الّذي ينال به العذاب العظيم، والمآل الوخيم في يوم القيامة[1].

وقد بيّن ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «افترقت اليهود إلى إحدى وسبعين فرقة

---

(١) وانظر: جامع البيان: ٥/ ٢٧٧. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٨٥. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٤٢ ـ ٨٤٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٦٥ ـ ١٦٦.

والنّصارى إلى اثنتين وسبعين فرقة، وسوف تفترق هذه الأمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة كلّها في النّار إلّا واحدة».

فذكر في رواية أنّه: ما كان عليه هو وأصحابه، وفي أخرى: أنّهم الجماعة(١).

فأشار النّبي ﷺ لصحابته ﵃ لأنّهم هم الصّفوة المختارة من هذه الأمّة الّتي أثنى عليها الله في كتابه حيث قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

ولأنّهم خير القرون وأفضل الأمّة بعد نبيّها كما قال ﷺ: «خير القرون القرن الّذي بعثت فيه، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم» الحديث(٢).

وهم أعرف النّاس بدين الله ومراد الله ورسوله ﷺ، وأكثر النّاس اقتداء بهديه وتمسّكاً بسنّته، والتزاماً بأمره.

وهم أهل الفصاحة والبيان، وأهل الفطرة والإيمان، جاء القرآن بلسانهم، وعاصروا نزوله على نبيّهم، وصفت أذهانهم لفهمه، والرّسول ﷺ بينهم يبيّن لهم ما أشكل عليهم، ويوضّح لهم ما خفي عنهم، ومات وهو راضٍ عنهم، ولم تظهر فيهم البدع ولا الأهواء ولا المحدثات.

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص:١١٣.

(٢) سبق تخريجه انظر: ص:٢٥٣.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﵀: «ومن المعلوم بالضّرورة لمن تدبّر الكتاب والسّنّة، وما اتّفق عليه أهل السّنّة والجماعة من جميع الطّوائف أنّ خير قرون هذه الأمّة في الأعمال والأقوال والاعتقاد، وغيرها من كلّ فضيلة. أنّ خيرها القرن الأوّل، ثمّ الّذين يلونهم، ثمّ الّذين يلونهم. كما ثبت ذلك عن النّبي ﷺ من غير وجه. وأنّهم أفضل من الخلف في كلّ فضيلة، من علم وعمل وإيمان وعقل ودين وبيان وعبادة، وأنّهم أولى بالبيان لكلّ مشكل. هذا لا يدفعه إلّا من كابر المعلوم بالضّرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم... وما أحسن ما قال الشّافعي ﵀ في رسالته: «هم فوقنا في كلّ علم وعقل ودين وفضل، وكلّ سبب ينال به علم، أو يدرك به هدى، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا». مجموع الفتاوى: ٤/١٥٧ ـ ١٥٨. ولم أجد قول الشّافعي في الرّسالة.

فمسلكهم هو المسلك السّليم، ومنهجهم هو المنهج المستقيم، وطريقهم هو الطّريق القويم، وما دونه ضلال عظيم، وانحراف وخيم.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

«اتّقوا الله معشر القرّاء، وخذوا طريق من كان قبلكم، فوالله؟ لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن تركتموه شمالاً ويميناً ضللتم ضلالاً بعيداً، أو قال مبيناً»[1].

وحذيفة رضي الله عنه خاطب بهذه المقولة العلماء بالقرآن والسّنّة، والعُبّاد ممّن أدركهم مبيّناً لهم أن من تمسّك بالكتاب والسّنّة وسار على نهج الصّحابة الكرام سبق إلى كلّ خير وفضل كما سبق إليه الصّحابة رضي الله عنهم الّذين مضوا على الاستقامة، أو ظلّوا على طريق النّبي ﷺ[2].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«من كان منكم مستناً فليستن بمن قَدْ مَاتَ، فإنّ الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب رسول الله ﷺ أبرّ هذه الأمّة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلّفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقّهم، وتمسّكوا بهديهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم»[3].

فالطّرق مغلقة إلّا طريقاً ساروا عليه، والمناهج منحرفة إلّا منهجاً التزموه، والمسالك وعرة إلّا مسلكاً سلكوه، والأبواب مؤصدة إلّا باباً فتحوه، فالهدي هديهم، والحقّ معهم، والضّلال في منأى عنهم.

---

(١) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: (٢/٣)، برقم: (٧٢٨٢)، ص: ١٥٣١.
وبهذا اللّفظ أورده أبو عبد الله محمّد بن نصر المروزي في كتابه السّنّة، تحقيق: سالم أحمد السّلفي، طبعة: مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ص: ٣٠.
وانظر: مصنف ابن أبي شيبة: ٧/ ١٣٩. مسند البزار: ٣٥٨/٧. الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ٣٣٦. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة من الكتاب والسّنّة وإجماع الصّحابة، لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللّالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان. طبعة: دار طيبة. الرّياض، ١٤٠٢هـ: ١/ ٩٠. حلية الأولياء: ٩/ ٢١٨. الاعتصام: ٢/ ٣٣٧. مجموع الفتاوى: ٣/ ١٢٧.

(٢) انظر: فتح الباري: ١٥/ ١٨٤.

(٣) سبق تخريجه انظر: ص: ٢٥٤.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ولمّا كان التّلقي عنه ﷺ على نوعين: نوع بواسطة، ونوع بغير واسطة. وكان التّلقي بلا واسطة حظّ أصحابه الّذين حاذوا قصب السّباق، واستولوا على الأمد، فلا طمع لأحد من الأمّة بعدهم في اللّحاق، ولكن المبرّز من اتّبع صراطهم المستقيم، واقتفى منهاجهم القويم، والمتخلّف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشّمال، فذلك المنقطع التّائه في بيداء المهالك والضّلال. فأيّ خصلة خير لم يسبقوا إليها؟ وأيّ خطّة رشد لم يستولوا عليها؟ تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذباً صافياً زلالاً، وأيّدوا قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان، والقرى بالجهاد بالسّيف، والسّنان، وألقوا إلى التّابعين ما تلقوه من مشكاة النّبوّة خالصاً صافياً، وكان سندهم فيه عن نبيّهم ﷺ عن جبريل عن ربّ العالمين سنداً صحيحاً عالياً، وقالوا: هذا عهد نبيّنا إلينا وقد عهدنا إليكم، وهذه وصيّة ربّنا وفرضه علينا وهي وصيّته وفرضه عليكم، فجرى التّابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم، واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم، ثمّ سلك تابعو التّابعين هذا المسلك الرّشيد، وهدوا إلى الطّيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد»[1].

وهو منهج الطّائفة النّاجية المنصورة الّتي مدحها رسول الله ﷺ بقوله: «لا يزال طائفة من أمّتي ظاهرين حتّى يأتيهم أمر الله[2] وهم ظاهرون»[3].

---

(١) إعلام الموقّعين: ١/ ٥ ـ ٦. وانظر: كتاب الفوائد له، ص:١٠٨ ـ ١٠٩، ففيه كلام قيّم عن منهج الصّحابة رضي الله عنهم، وسلوكهم السّبيل المستقيم.

(٢) أمر الله: هو الرّيح الّتي ورد ذكرها في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يبعث ريحاً من اليمن، ألين من الحرير، فلا تدع أحداً في قلبه مثقال حبّة، أو قال: مثقال ذرّة من إيمان إلّا قبضته».

صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب في الرّيح الّتي تكون قرب القيامة: (٥٠)، برقم: (١١٧)، ١/ ١٠٩. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١٣٢، ١٣/ ٦٦. فتح الباري: ١٣/ ٨٥، طبعة: دار المعرفة.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب قول=

قال علي بن المديني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هم أصحاب الحديث»[1].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن لم تكن هذه الطّائفة المنصورة أصحاب الحديث فلا أدري من هم»[2].

= النّبي ﷺ: «لا تزال طائفة...»: (١٠/ ١١)،برقم: (٧٣١١)، ص:١٥٣٧، وبلفظ مقارب في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب: (٢٨)، برقم: (٣٦٤٠)، ص:٧٦٥، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ [النّحل: ٤٠]: (٢٩)، برقم: (٧٤٥٩)، ص:١٥٦٧، عن المغيرة رضي الله عنه، ونحوه في: كتاب العلم: (٣)، باب من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدّين: (١٣)، برقم: (٧١)، ص:٣٢، وفي كتاب فرض الخمس: (٥٧/ ٣٣)، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [الأنفال: ٤١]: (٧)، برقم: (٣١١٦)، ص:٦٥٧، وفي كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب: (٢٨)، برقم: (٣٦٤١)، ص:٧٦٥ ـ ٧٦٦، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب قول النّبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين...»: (١٠/ ١١)، برقم: (٧٣١٢)، ص:١٥٣٧، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾ [النّحل: ٤٠]: (٢٩)،برقم: (٧٤٦٠)، عن معاوية رضي الله عنه.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب قول النّبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي...»: (٥٣)، برقم: (١٩٢٠)، عن ثوبان رضي الله عنه، وبرقم: (١٩٢١)، عن المغيرة رضي الله عنه، ونحوه برقم: (١٠٣٧)، عن معاوية رضي الله عنه، وبرقم: (١٩٢٣)، عن جابر رضي الله عنه، وبرقم: (١٩٢٥)، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: ٣/ ١٥٢٣ ـ ١٥٢٥، ونحوه في: كتاب الإيمان: (١)، باب نزول عيسى بن مريم: (٧١)، برقم: (١٥٦)، عن جابر رضي الله عنه: ١/ ١٣٧.

(١) سنن التّرمذي، كتاب الفتن: (٣٠)، باب ما جاء في الشّام: (٢٧)، برقم: (٢١٩٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٦٤. وانظر: فتح الباري: ١٥/ ٢٢٧.

(٢) كتاب معرفة علوم الحديث، للإمام الحاكم أبي عبد الله النّيسابوري، طبعة: دائرة المعارف بحيدر آباد، نشر المكتبة العلميّة بالمدينة، ص٢. قال الإمام الحاكم رحمه الله بعد نقله لقول الإمام أحمد رحمه الله السّابق: «فلقد أحسن أحمد بن حنبل في تفسير هذا الخبر: أنّ الطّائفة المنصورة الّتي يرفع الخذلان عنهم إلى قيام السّاعة هم أصحاب الحديث، ومن أحقّ بهذا التّأويل من قوم سلكوا محجّة الصّالحين، واتّبعوا آثار السّلف من الماضين، ودمغوا أهل البدع والمخالفين بسنن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله=

لأنّ أصحاب الحديث نقلة الشّريعة وحفّاظ السّنّة، وحملة العلم النّبوي ومبلّغو الوحي إلى الأمّة، وهم المنتسبون إلى الرّسول ﷺ لا إلى غيره، وهم أعلم النّاس برسول الله ﷺ وأخصّهم به، وأعرفهم بهديه، وأخبرهم بأقواله وأعماله، واتبعهم لنهجه، وأعظمهم اقتداء به، وتمسّكاً بشرعه.

أخذوا الإسلام صافياً محضاً بعيداً عن كلّ شوب وغبش، واجتمعوا على الأخذ به دون أهل الفرقة والهوى والزّيغ.

قال الإمام اللّالكائي رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان: فضل أصحاب الحديث على الأمّة:

«فهؤلاء الّذين تمهدّت بنقلهم الشّريعة، وانحفظت بهم أصول السّنّة، فوجبت لهم بذلك المنّة على جميع الأمّة، والدّعوة لهم من الله بالمغفرة، فهم حملة علمه، ونقلة دينه، وسفرته بينه وبين أمّته، وأمناؤه في تبليغ الوحي عنه، فحري أن يكونوا أولى النّاس به في حياته ووفاته... ثمّ كلّ من اعتقد مذهباً فإلى صاحب مقالته الّتي أحدثها ينتسب، وإلى رأيه يستند، إلّا أصحاب الحديث، فإنّ صاحب مقالتهم رسول الله ﷺ فهم إليه ينتسبون، وإلى علمه يستندون، وبه يستدلّون، وإليه يفزعون، وبرأيه يقتدون، وبذلك يفتخرون، وعلى أعداء سنّته بقربهم منه يصولون، فمن يوازيهم في شرف الذّكر؟ ويباهيهم في ساحة الفخر، وعلو الاسم إلى أن يقول:

والحمد لله الّذي كمّل لهذه الطّائفة سهام الإسلام، وشرّفهم بجوامع هذه الأقسام، وميّزهم من جميع الأنام، حيث أعزّهم الله بدينه، ورفعهم بكتابه، وأعلى ذكرهم بسنّته، وهداهم إلى طريقته وطريقة رسوله. فهي الطّائفة

= أجمعين، من قوم آثروا قطع المفاوز والقفار على التّنعّم في الدّمن ـ الآثار ـ والأوطار ـ الحاجات ـ، وتنعّموا بالبؤس في الأسفار مع مساكنة العلم والأخبار، وقنعوا عند جمع الأحاديث والآثار بوجود الكسر والأطمار ـ الأثواب البالية ـ، قد رفضوا الإلحاد الّذي تتوق إليه النّفوس الشّهوانيّة وتوابع ذلك من البدع والأهواء والمقاييس والآراء والزّيغ، جعلوا المساجد بيوتهم، وأساطينها ـ سواريها ـ تكاهم، وبواريها ـ حُصُرها ـ فرشهم». المرجع السّابق، ص: ٢ ـ ٣.

المنصورة، والفرقة النّاجية، والعصبة الهادية، والجماعة العادلة المتمسّكة بالسّنّة، الّتي لا تريد برسول الله ﷺ بديلاً ولا عن قوله تبديلاً، ولا عن سنّته تحويلاً، ولا يثنيهم عنها تقلّب الأعصار والزّمان، ولا يلويهم عن سَمْتها[1] تغيّر الحَدَثان[2]، ولا يصرفهم عن سمتها ابتداع من كاد للإسلام ليصدّ عن سبيل الله ويبغيها عوجاً»[3].

فهم الدّاعون من ضلّ إلى الهدى، الصّابرون على الأذى، المحيون بكتاب الله الموتى، المبصّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على النّاس، وأقبح أثر النّاس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين[4].

فأصحاب الحديث وإن تعدّدت ألقابهم الشّرعيّة المميّزة لهم لنفي الفرق والأهواء عنهم كالجماعة، وجماعة المسلمين، والفرقة النّاجية، والطّائفة المنصورة، والسّلف، وأهل الحديث، وأهل الأثر، وأهل السّنّة والجماعة[5] فهم الّذين حملوا المنهج الحقّ عبر تاريخ الأمّة الإسلاميّة، وهم الّذين ينسب

---

(١) السّمْت: حُسْنُ النّحْو في مَذْهَبِ الدّينِ، والفعلُ سَمَتَ يَسْمُتُ سَمْتاً، وإنّه لحَسَنُ السّمْت: أي حَسَنُ القَصْدِ والمَذْهَب في دينه ودنْياه، والسّمْتُ: اتّباعُ الحَقِّ والهَدْيِ وحُسْنُ الجِوارِ وقِلّةُ الأذِيّةِ، والسّمْتُ: الطّريقُ، يقال: الزمْ هذا السّمْتَ، يعني الزم هذا الطّريق، وهو المراد هنا. لسان العرب: ٢/ ٤٦، بتصرّف. وانظر: مختار الصّحاح، ص٣١٢. القاموس المحيط، ص: ١٩٧.

(٢) يقال: حَدَثانُ الدّهر وحَوادِثُه: نُوَبُه، وما يَحْدُث منه، واحدُها حادِثٌ؛ وكذلك أحْداثُه، واحِدُها حَدَثٌ. لسان العرب: ٢/ ١٣٢. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ١٢٥. القاموس المحيط، ص: ٢١٤.

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة: ١/ ٢٤ ـ ٢٦.

(٤) الرّد على الزّنادقة والجهميّة، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: محمّد حسن راشد، طبعة: المطبعة السّلفيّة، القاهرة، ١٣٩٣هـ، ص: ٦، بتصرّف.

(٥) انظر: حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلاميّة، لبكر بن عبد الله أبي زيد، طبعة: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السّعوديّة، الطّبعة الثّانية، ١٤١٠هـ، ص: ٤٠ ـ ٤٢.

إليهم عند تعدّد المناهج لأنّهم أهل الحقّ الصّريح، ودونهم لا يخلو من بدعة وضلال.

ولذا قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأهل السّنّة الّذين نذكرهم أهل الحقّ، ومن عداهم فأهل البدعة، فإنّهم الصّحابة رضي الله عنهم، وكلّ من سلك نهجهم من خيار التّابعين رحمة الله عليهم، ثمّ أصحاب الحديث ومن اتّبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم»[1].

ولمّا نهج أصحاب الحديث وأهل السّنّة منهج رسول الله ﷺ وصحابته من بعده، وتمسّكوا به، وناصروه وأبرزوه، وردّوا عنه زيغ الزّائغين، وبدع المبتدعين، وضلال المضلّين، وحفظوه من أن تشوبه شائبة، أن تكدّر صفوه كدرة، ودعوا النّاس إليه، وألّفوا الكتب في الدّفاع عنه، والذّود عن حماه، نسب ذلك المنهج إليهم، وصار يعرف بهم، ويذكر بذكرهم.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هذا مذهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السّنّة المتمسّكين بعروتها، المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب النّبي ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت عليها من علماء الحجاز والشّام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها، أو عاب قائلها فهو مخالف

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٢/ ١١٣. وانظر في فضل أصحاب الحديث، واستقامة منهجهم، وسلامة طريقهم، وأنّهم أهل الصّراط السّوي، والحقّ الجلي: شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة: ١/ ٢٠ ـ ٢٧. الاعتصام: ٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢. شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٦٧. مجموع الفتاوى: ٣/ ١٥٧ ـ ١٥٩، ٣٤٥ ـ ٣٤٧، ٤/ ١٠ ـ ١١، ٢٦، ٢٩، ٤٩، ٨٥، ٩١، ٩٥، ٩٧، ١٤٠، ١٤٢ ـ ١٤٣. شرح العقيدة الطّحاويّة، ص:٦٨، طبعة: المكتب الإسلامي، أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى، جمع وإعداد محمّد عبد الهادي المصري، طبعة: دار طيبة، الرّياض، ص:٤٥، ٧٥، دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السّلف منها لناصر بن عبد الكريم العقل، دار إشبيليا للنّشر، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، ص:٨٩، ١٤٣.

مبتدع، وخارج عن الجماعة، زائل عن منهج السّنّة وسبيل الحقّ»[1].

وقال الإمام السّفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«المراد بمذهب السّلف ما كان عليه الصّحابة الكرام رضوان الله عليهم، وأعيان التّابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمّة الدّين ممّن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه في الدّين، وتلقّى النّاس كلامهم خلفاً عن سلف، دون من رمى ببدعة، أو شهر بلقب غير مرضي، مثل الخوارج، والرّوافض، والقدريّة، والمرجئة، والجبريّة، والجهميّة، والمعتزلة، والكرّاميّة[2]، ونحو هؤلاء»[3].

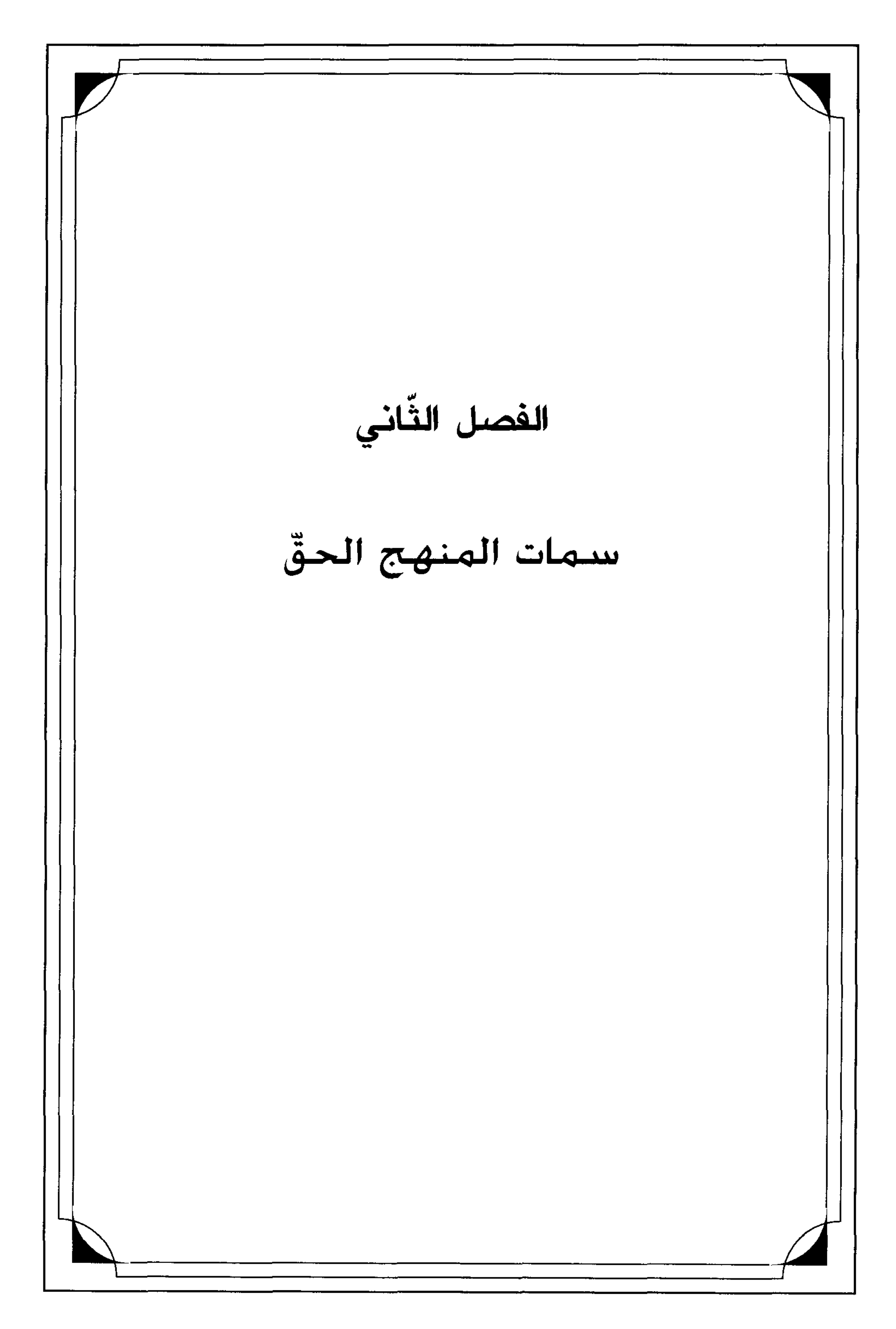
فهذا هو المنهج الحقّ، الّذي يجب على المسلم أن يسير عليه، والمسلك القويم الّذي يجب عليه أن ينتسب إليه، والصّراط المستقيم الّذي يلزمه أن يثبت عليه، لأنّ النّجاة تكمن في التّمسّك به، والسّعادة نائلة إن شاء الله من تشبّث به وعضّ عليه بنواجذه.

---

(١) السّنّة ضمن مجموعة مع كتاب الرّدّ على الجهميّة، ص:٣٣ ـ ٣٤. شرح قصيدة ابن القيّم: ١/٩٦ ـ ٩٧.

(٢) الكرّاميّة: هم أتباع محمّد بن كرّام السّجستاني المبتدع. من مثبتة صفات الله تعالى، ولكنّهم ينتهون بها إلى التّجسيم والتّشبيه، ويزعمون أنّ الإيمان نطق اللّسان بالتّوحيد مجرّد عن القلب وعمل الجوارح. والكفر عندهم الجحود والإنكار لله باللّسان. والمنافقون على عهد النّبي ﷺ مؤمنون على الحقيقة. كما يذهبون إلى أنّ العقل يحسّن ويقبّح قبل الشّرع، وأنّ معرفة الله تجب بالعقل. وأنّ الإمامة تثبت بالإجماع دون النّصّ والتّعيين. وهم طوائف عدّة، ولهم مقالات متعدّدة، وآراء متباينة.
وانظر: مقالات الإسلاميين، ص:١٤١. الفرق بين الفرق، ص:٢٠٢ فما بعدها. الملل والنّحل: ١/١٠٨ ـ ١١٣. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص:٦٧. سير أعلام النّبلاء: ١١/٥٢٣ ـ ٥٢٤.

(٣) لوامع الأنوار: ١/٢٠. وانظر: الشّريعة لأبي بكر محمّد بن الحسين الآجرّي، تحقيق: محمّد حامد الفقي، مطبعة: السّنّة المحمّديّة، الطّبعة الأولى، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠، ص:٧١ ـ ٧٢. مجموع الفتاوى: ٤/١٥١ ـ ١٥٢. وسطية أهل السّنّة بين الفرق، د. محمّد باكريم محمّد عبد الله، طبعة: دار الرّاية، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ص:١٠٨. أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى، ص: ٥٢.



الفصل الثّاني

سمات المنهج الحقّ

إنّ منهج أهل السّنّة والجماعة، وهو المنهج الحقّ، يتّسم بسمات تميّزه عن غيره من المناهج، وتفرده عنها، وتبرزه دونها، وهي كثيرة يصعب حصرها ولكن من أهمها:

١ ـ إنّ مصدر تلقّيه كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، لأنّهما المصدران اللّذان تَركَنا عليهما رسولُ الله ﷺ وذلك في قوله: «إنّي قد تركتُ فيكم شيئين لن تضلّوا بعدهما: كتاب الله وسنّتي، ولن يتفرقا حتّى يردا عليّ الحوض»[1].

وهما الوحيان اللّذان أمرنا الله بالتّمسّك بهما، والسّير على هديهما، واتّباع أمرهما، واجتناب نهيهما، فقال في شأن القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩﴾ [الإسراء: ٩].

وقال فيه: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١].

وقال في السّنّة: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى

---

(١) موطّأ مالك، بلفظ مقارب ـ بلاغاً ـ في كتاب القدر: (٤٦)، باب النّهي عن القول بالقدر: (١)،برقم: (٣)، ٢/ ٨٩٩، عن أبي هريرة ﷺ، وصله ابن عبد البر في جامع بيان العلم: ١/ ٣٠، طبعة: دار العاصمة. مستدرك الحاكم، بلفظه في: ١/ ١٧٢، وهو حديث صحيح. انظر: سلسلة الأحاديث الصّحيحة: ٤/ ٣٦١، الطّبعة الثّانية. مشكاة المصابيح: ١/ ٦٦،برقم: (١٨٦). صحيح الجامع: ٣/ ٣٩، الطّبعة الثّانية. وفي صحيح مسلم: قال ﷺ: «تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عنّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت ونصحت»، كتاب الحجّ: (١٥)، باب حجّة النّبي ﷺ: (١٩)، برقم: (١٢١٨)، ٢/ ٨٩٠.

ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر: ٧].

وقال عنها: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فالقرآن والسّنّة هما الأصل الّذي يجب أن يحاكم المنهج إليه، فلا يعتمد منه في شيء إلّا ما دلّا عليه، ولا يؤخذ منه إلّا ما أيّداه، بل يسلّم قياده إليهما. فلا يعارض حكمهما بتأويلات العقول، وترّهات الأهواء، واستبداد الآراء، ولا تضرب أدلّتهما بعضها ببعض، بل يردّ المتشابه منها إلى المحكم(١)، والمجمل(٢) إلى المبيّن(٣)، ويعتمد في ذلك على تفسير الصّحابة وفهمهم للنّصوص.

ولا يفرّق بين ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، فيؤخذ ما كان متواتراً(٤) ....

---

(١) يأتي بيان المراد بالمتشابه والمحكم.

(٢) المجمل في اللّغة: المبهم، من أجمل الأمر إذا أبهم. وقيل هو: المجموع، من أجمل الحساب إذا جمع وجعل جملة واحدة. وقيل هو: المتحصّل، من أجمل الشّيء إذا حصّله.

وفي الاصطلاح: هو ما دلّ دلالة لا يتعيّن المراد بها إلّا بمعيّن. سواء كان عدم التّعيّن بوضع اللّغة، أو بعرف الشّرع، أو بالاستعمال. إرشاد الفحول، ص:٢٨٣.

وقال ابن قدامة رحمه الله: «المجمل هو: ما لا يفهم منه عند الإطلاق معنى. وقيل: ما احتمل أمرين لا مزيّة لأحدهما على الآخر». روضة النّاظر: ١٨٠. وانظر: المستصفى: ١/ ١٨٧. المحصول: ٣/ ٢٣١. الإحكام للآمدي: ٣/ ١٣.

(٣) المبيّن في اللّغة: المظهر من بان إذا ظهر. انظر: إرشاد الفحول، ص:٢٨٣.

وفي الاصطلاح: هو اللّفظ الّذي يتعيّن معناه بحيث لا يحتمل غيره. المستصفى: ١/ ١٨٧. وانظر: المحصول: ٣/ ٢٢٥ ـ ٢٢٩. روضة النّاظر: ١٨٤. إرشاد الفحول، ص: ٢٨٤.

(٤) الحديث المتواتر في اللّغة هو: المتتابع، من تواتر المطر: إذا تتابع، وفي الاصطلاح هو: الخبر الّذي رواه عدد كثير تحيل العادة تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى=

ويردّ ما كان أحاداً[1]، بل يؤخذ الجميع مأخذ التّسليم والافتقار مع التعظيم والإجلال، من غير معارضة لذلك بقول كائن مَنْ كان، مع مجافاة التّهاون أو الرّدّ بما يوافق الهوى ويلائم القصد.

ولا تنصب مقالة تمتّ إلى المنهج ما لم تكن ثابتة بالدّليل الشّرعي، إذ التّعبير بالألفاظ الشّرعيّة هو سبيل الحقّ، مع تجنّب المراء والخصومات والجدال إلّا بالّتي هي أحسن، ومباينة البدع ومحدثات الأمور، لقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»[2].

قال شارح الطّحاوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحقّ الّذي يجب اتّباعه، فيصدّق بأنّه حقّ وصدق، وما سواه من كلام سائر النّاس يعرضه

= منتهاه، وأن يكون مستند خبرهم الحسّ، وإفادة العلم لسامعه. انظر: نزهة النظر شرح نخبة الكفر، لابن حجر العسقلاني، تعليق وشرح: صلاح محمّد محمّد عويضة، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ص: ٢٤ ـ ٢٥. وانظر: تيسير مصطلح الحديث، للدّكتور محمود الطّحّان، طبعة: مكتبة المعارف، الرّياض، الطّبعة الثّامنة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، ص:١٩ ـ ٢٠. علوم الحديث ومصطلحه عرض ودراسة،للدّكتور صبحي الصّالح، طبعة: دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الخامس عشرة، ١٩٨٤م، ص:١٤٦. وانظر: كتاب الكفاية في علم الرّواية، لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، مراجعة: عبد الحليم محمّد عبد الحليم، عبد الرّحمٰن حسن محمود، طبعة: دار التّراث العربي، نشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنّى، بغداد، الطّبعة الثّانية، ص:٥٠.

(١) حديث الآحاد في اللّغة هو: ما يرويه شخص واحد، وفي الاصطلاح: ما لم يجمع شروط المتواتر. انظر: نزهة النّظر شرح نخبة الفكر، ص:٣٢. تيسير مصطلح الحديث، ص:٢٢.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلا إنه قال: «ما ليس فيه» ـ في: كتاب الصّلح: (٥٣/ ٢٩)، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصّلح مردود: (٥)، برقم: (٢٦٩٧)، ص:٥٦٣، عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الأقضية: (٣٠)، باب نقض الأحكام الباطلة، وردّ محدثات الأمور: (٨)، برقم: (١٧١٨)، وبلفظ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»: ٣/ ١٣٤٣ ـ ١٣٤٤.

عليه، فإن وافقه فهو حقّ، وإن خالفه فهو باطل، وإن لم يعلم هل خالفه أو وافقه يكون ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه، أو قد عرف مراده لكن لم يعرف هل جاء الرّسول بتصديقه أو بتكذيبه، فإنّه يمسك عنه ولا يتكلّم إلّا بعلم، والعلم ما قام عليه الدّليل، والنّافع منه ما جاء به الرّسول. وقد يكون علم من غير الرّسول، لكن في الأمور الدّنيويّة، مثل الطّبّ والحساب والفلاحة، وأمّا الأمور الإلهيّة والمعارف الدّينيّة فهذه العلم فيها ما أخذ عن الرّسول لا غير»[1].

٢ ـ إنّ طريق هذا المنهج طريق واحد لا يتعدّد، ومستقيم ليس بمعوج ولا منحرف، وهو الّذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتابه، وأمر الخلق كلّهم بالسّير فيه. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣][2].

---

(١) شرح العقيدة الطّحاوية، ص: ٢١٨ ـ ٢١٩، طبعة: المكتب الإسلامي.
ولمزيد بيان عن مصدر تلقّي منهج أهل السّنّة والجماعة من الكتاب والسّنّة انظر الآتي: شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة: ١/ ٧ ـ ٨. وانظر: ص: ١٠، ١٧ ـ ١٨، ٧٤، من مقدّمة المحقّق، الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ١١ ـ ١٢. من مقدّمة المحقّق، مجموع الفتاوى: ٣/ ١٥٧، ٣٤٦ ـ ٣٤٧.
دراسات في الأهواء والفرق والبدع، ص: ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٩٥. أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى، ص: ٦٥، ٦٩.

(٢) سنن ابن ماجه، نحوه في: المقدّمة، باب اتّباع سنّة رسول الله ﷺ: (١)، برقم: (١١). عن جابر رضي الله عنه، قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ١٩.
سنن الدّارمي، بلفظه في: باب في كراهية أخذ الرّأي: ١/ ٧٨.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١/ ٤٣٥، ٤٦٥، ونحوه في: ٣/ ٣٩٧. عن جابر رضي الله عنه، قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح»، مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٦/ ٨٩ ـ ٩٠، ١٩٩، برقم: (٤١٤٢، ٤٤٣٧).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: ذكر ما يجب على المرء من ترك تتبّع السّبل دون لزوم الطّريق الّذي هو الصّراط المستقيم، برقم: (٧). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ١/ ١٨١.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٢/ ٢٦١. وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خطّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطّاً، ثمّ قال: «هذا سبيل الله»، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله، ثمّ قال: «هذه سبل، على كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي رواية: إنّ ابن مسعود رضي الله عنه سئل عن الصّراط المستقيم فقال: «تركنا محمّد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنّة، وعن يمينه جواد[(١)]، وعن يساره جواد، وثمّ رجال يدعون من مرّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النّار، ومن أخذ على الصّراط انتهى به إلى الجنّة، ثمّ قرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا . . .﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية[(٢)].

قال ابن جرير رحمه الله:

«﴿مُسْتَقِيمًاۖ﴾ يعني: قويماً لا اعوجاج به عن الحقّ. ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ يقول: فاعملوا به، واجعلوه لأنفسكم منهاجاً تسلكونه، ﴿فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ يقول: ولا تسلكوا طريقاً سواه، ولا تركبوا منهجاً غيره»[(٣)].

وقال القرطبي رحمه الله:

«﴿مُسْتَقِيمًاۖ﴾ نصب على الحال، ومعناه مستوياً قويماً لا اعوجاج فيه. فأمر باتّباع طريقه الّذي طرقه على لسان نبيّه محمّد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنّة، وتشعّبت منه طرق فمن سلك الجادّة نجا، ومن خرج إلى تلك الطّرق أفضت به إلى النّار. . . وهذه السّبل تعمّ اليهوديّة والنّصرانيّة والمجوسيّة وسائر أهل الملل، وأهل البدع والضّلالات من أهل الأهواء والشّذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التّعمّق في الجدل والخوض في الكلام[(٤)]. هذه كلّها عرضة

---

(١) الجَوادُّ: الطّرُق، واحدها جادّة، وهي سَواء الطّريق ووسَطه، وقيل: هي الطّريق الأعظم الّتي تجمع الطّرُق، ولا بُدّ من المرور عليها. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٤٥.

(٢) جامع البيان: ٨/ ٨٨ ـ ٨٩. (٣) المرجع السّابق: ٨/ ٨٧ ـ ٨٨.

(٤) الكلام: علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام. التّعريفات، ص:٢٣٧. التّوقيف على مهمّات التّعاريف: ٢/ ٦٠٧، وهو أمر محدث شاب به واضعوه صفاء المعتقد، ووعّروا به الطّريق إلى معرفة الله تعالى، ممّا أدّى بهم إلى الانحراف عن المنهج الحقّ.

للزلل ومظنّة لسوء المعتقد. قاله ابن عطيّة. قلت: وهو الصّحيح»[1].

وقد وحّد الله في الآية طريق الحقّ الموصل إلى المقصود لأنّ مردّه إلى الله الملك الحقّ الواحد، وجمع السّبل المخالفة لأنّها كثيرة متشعّبة متعدّدة، لا توصل إلى الغاية المقصودة لأنّها طرق الباطل وهي ظلمات. وهذا سرّ إفراد الله تعالى للنّور وجمعه للظّلمات في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧][2].

وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾﴾ [النّحل: ٩].

أي على الله أن يبيّن لعباده طريق الحقّ القاصد المستقيم الموصل إلى الله تعالى، والطّرق الجائرة أي الحائدة المائلة الزّائغة عن الحقّ الّتي لا توصل من سلكها إلى مرضاة الله تعالى لانحرافها وضلالها[3].

قال ابن القيّم رحمه الله في بيان قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧] **قال:**

«فسؤال الهداية متضمّن لحصول كلّ خير، والسّلامة من كلّ شرّ... ولا تكون الطّريق صراطاً حتّى تتضمّن خمسة أمور: الاستقامة، والإيصال إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٣٧ ـ ١٣٨. وقول ابن عطية في المحرر الوجيز: ٥/ ٤٠٠، مع اختلاف يسير. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٠٤ ـ ٣٠٦. زبدة التّفسير من فتح القدير، للدّكتور محمّد سليمان الأشقر. وفتح القدير للشوكاني، دار الفتح ودار النّفائس، عمّان، الطّبعة الخامسة، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ص:١٨٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٢٤٣.

(٢) وانظر: طريق الهجرتين، ص:١٧٧ ـ ١٧٨. بدائع الفوائد: ١/ ١٢٧. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٠٦.

(٣) انظر: جامع البيان: ١٤/ ٨٣ ـ ٨٤. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٧٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٣٩٠. حادي الأرواح، ص:٥٢.

المقصود، والقرب، وسعته للمارّين عليه، وتعيّنه طريقاً للمقصود، ولا يخفى تضمّن الصّراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة.

فوصفه بالاستقامة يتضمّن قربه، لأنّ الخطّ المستقيم هو أقرب خطّ فاصل بين نقطتين، وكلّما تعوّج طال وبعد، واستقامته تتضمّن إيصاله إلى المقصود، ونصبه لجميع من يمرّ عليه يستلزم سعته، وإضافته إلى المنعم عليهم، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضّلال يستلزم تَعَيُّنه طريقاً»[1].

فهذا الصّراط هو الطّريق القويم الّذي كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام الّذي من سلكه كان على المنهج الحقّ الّذي لا يعوج ولا ينحرف به، ولا يتناقض عليه، ولا يضطّرب لأنّه من عند الله، ولذلك سلم من هفوات البشر وأخطائهم واختلافاتهم كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وهذا الّذي عصم الفرقة النّاجية من الاختلاف والتّناقض لأنّهم ينتسبون إلى منهج واحد، ويردون مشرباً واحداً ويصدرون عنه، ولذا وافق الخلف منهم السّلف. وهذا مغزى قوله ﷺ: «إلّا واحدة»[2].

فلمّا توحّد المنهج توحّد السّائرون عليه وانتظم أمرهم. ولا يعني هذا أنّهم لا يختلفون فيما بينهم، بل قد يقع بينهم الخلاف ولكنّهم يضبطون ذلك بأدب الألفة والاحترام محافظة على أخوّة الإسلام، وجماعة المسلمين، وجمع الشّمل ونبذ الفرقة، وهم منقادون في ذلك لأمر الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النّساء: ٥٩][3].

---

(١) مدارج السّالكين: ١/ ١٠ ـ ١١. وانظر: بدائع الفوائد: ٢/ ٢٥١ فما بعدها. وقد أطال رحمه الله في بيان ذلك.

(٢) الحديث سبق ذكره. انظر: ص:١١٣. وانظر الاعتصام: ٢/ ٢٤٩. الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ٣٨٦.

(٣) وانظر: أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى، ص:٧٦.

ولمّا تعدّدت المناهج الخاطئة تعدّدت الجماعات الّتي غصّت بهم ساحة الإسلام، متنابذة فيما بينها متطاحنة، واختطّت كلّ منها طريقاً لنفسها غير الطّريق الّذي اختطّته الأخرى، وهذا نتيجة لمخالفة منهج الرّسول ﷺ. فمنهجه واحد لا يقبل التّعدّد، قال عنه الخالق سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨][1].

وهؤلاء وإن تدثّروا بثوب الإسلام، ورفعوا شعارات تهتف باسمه إلّا إنّهم لم يكونوا على الطّريق الحقّ، ولا ينخدع بهم وبشعاراتهم إلّا من جهل المنهج الحقّ، وتنكّب الصّراط المستقيم.

قال حذيفة لابن مسعود رضي الله عنهما:

«فاعلم أنّ الضّلالة حق الضّلالة أن تعرف ما كنت تنكر، وأن تنكر ما كنت تعرف، وإياك والتّلوّن فإنّ دين الله واحد»[2].

فهو منهج مستقل متفرّد متميّز، لا يختلط بغيره من مناهج أهل الأرض، ولا تمازجه معتقداتها ولا تصوّراتها، ولا أنظمتها ولا أوضاعها، ولا نظرياتها، بل هو منهج رسول الله ﷺ فحسب، ورسول الله ﷺ ليس في شيء من مناهج أنتجتها عقول البشر، وصاغتها آراؤهم وأهواؤهم، وقد قال الله له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩][3].

٣ ـ إنّه منهج كامل تام، لا زيادة عليه، ولا نقص يعتريه.

---

(١) وانظر: منهج الأنبياء في الدّعوة إلى الله، ص:٨. حكم الانتماء، ص:١٨١ ـ ١٨٢.

(٢) سنن البيهقي، بلفظه في: باب ما جاء في الحلف بصفات الله: ١٠/ ٤٢.
مسند ابن الجعد، لأبي الحسن علي بن الجعد الجوهري البغدادي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «دين الله تعالى» ـ برقم: (٣٠٨٣)، ١/ ٤٥٢.
مسند الحارث، بلفظ مقارب في: ١/ ٥٢٧.
وأورد الطّبراني في الكبير جزءاً منه مرفوعاً إلى النّبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ولفظه: «اعمل بما تعرف ودع ما تنكر، وإيّاك والتّلوّن في دين الله»: ٦/ ١٩٦. وانظر: الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ١٩٠.

(٣) وانظر: في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٣٩.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

عن طارق بن شهاب رضي الله عنه قال: قال رجل من اليهود لعمر: يا أمير المؤمنين لو أنّ علينا نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾، لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً. فقال عمر: «إنّي لأعلم أيّ يوم نزلت هذه الآية، نزلت يوم عرفة في يوم جمعة»[١].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«أخبر الله نبيّه ﷺ والمؤمنين أنّه قد أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمّه الله عزّ ذكره فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً»[٢].

إنّ من أكبر نعم الله على هذه الأمّة المحمّديّة أن أكمل لها دينها فلا تحتاج إلى دين غيره، ولا إلى نبيّ سوى نبيّها، ولذا جعله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجنّ. فالحلال ما أحلّه، والحرام ما حرّمه، والدّين ما شرعه، وكلّ ما أخبربه فهو صدق وحقّ، وكلّ ما حكم به فهو عدل وقسط. وقد رضي الله لها ذلك وأحبّه فلترضى بما رضيه لها[٣].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب: (٠/ ١)، برقم: (٧٢٦٨)، ص:١٥٢٩، ونحوه في: كتاب الإيمان: (٢)، باب زيادة الإيمان ونقصانه: (٣٣/ ٣٤)، برقم: (٤٥)، ص:٢٤، وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب حجّة الوداع: (٧٧/ ٧٨)، برقم: (٤٤٠٧)، ص:٩١٦، وفي كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]: (٢/ ١)، برقم: (٤٦٠٦)، ص:٩٦٥.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب وبنحوه في: كتاب التّفسير: (٥٤)، برقم: (٣٠١٧)، ٤/ ٢٣١٢ - ٢٣١٣.

(٢) جامع البيان: ٦/ ٧٩، طبعة: دار الفكر. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٠.

(٣) انظر في معنى الآية: جامع البيان: ٦/ ٧٩ - :٨٢، طبعة: دار الفكر. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٨٣. في ظلال القرآن: ٢/ ٨٣٣.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كلام بديع حول هذه الآية:

«تأمّل كيف وصف الدّين الّذي اختاره لهم بالكمال، والنّعمة الّتي أسبغها عليهم بالتّمام، إيذاناً في الدّين بأنّه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارج عن الحكمة بوجه، بل هو الكامل في حسنه وجلالته. ووصف النّعمة بالتّمام إيذاناً بدوامها واتّصالها، وإنّه لا يسلبهم إيّاها بعد إذ أعطاهموها، بل يتمّها لهم بالدّوام في هذه الدّار، وفي دار القرار. وتأمّل حسن اقتران التّمام بالنّعمة، وحسن اقتران الكمال بالدّين، وإضافة الدّين إليهم إذ هم القائمون به، المقيمون له، وإضافة النّعمة إليه إذ هو وليّها ومسديها والمنعم بها عليهم، فهي نعمته حقّاً وهم قابلوها، وأتى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص، وأنّه شيء خصّوا به دون الأمم، وفي إتمام النّعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة، فجاء أتممت في مقابلة أكملت، وعليكم في مقابلة لكم، ونعمتي في مقابلة دينكم، وأكّد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنّعمة بقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ٣٨].

أي ما أغفلنا عنه ولا ضيّعنا فيه من شيء. والمراد بالكتاب: اللّوح المحفوظ، فإنّ الله أثبت فيه جميع الحوادث، وقيل: إنّ المراد به القرآن، أي ما تركنا في القرآن من شيء من أمر الدّين إمّا تفصيلاً أو إجمالاً[2].

والمعنى الثّاني هو الّذي يؤيّد ما نحن فيه، ويعضّده قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«قد بيّن لنا في هذا القرآن كلّ علم وكلّ شيء».

وقال مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ:

«كلّ حلال وكلّ حرام».

---

(١) مفتاح دار السّعادة: ١/ ٣٠٢.

(٢) فتح القدير: ٢/ ١١٤. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٤٢٠. أنوار التّنزيل: ٢/ ٤٠٦.

وقول ابن مسعود ﷺ أعمّ وأشمل. فإنّ القرآن اشتمل على كلّ علم نافع من خبر ما سبق وعلم ما سيأتي، وكلّ حلال وحرام، وما النّاس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم[1].

وعن جابر ﷺ عن النّبي ﷺ قال: «مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمّها وأكملها إلّا موضع لبنة، فجعل النّاس يدخلونها ويتعجّبون منها ويقولون: لولا موضع اللّبنة»، قال رسول الله ﷺ: «فأنا موضع اللّبنة، جئت فختمت الأنبياء»[2].

قال أبو العبّاس القرطبي رحمه الله:

«ومقصود هذا المثل: أن يبيّن به ﷺ أنّ الله تعالى ختم به النّبيين والمرسلين، وتمّم به ما سبق في علمه إظهاره من مكارم الأخلاق، وشرائع الرّسل، فبه كَمُل النّظام، وهو ختم الأنبياء، والرّسل الكرام، صلى الله عليه وعلى آله أفضل صلاة وسلّم عليهم أبلغ سلام»[3].

من هنا يتبيّن لنا أنّ المنهج الّذي سار عليه رسول الله ﷺ وصحبه من بعده كامل كافٍ لا نقص فيه بحال من الأحوال ولا تقصير، وإنّما يقع التّقصير من المنتسبين إليه، إمّا لجهلهم بما جاء به الرّسول ﷺ، أو نسبتهم إليه ما لم يأت به، أو ضلالهم وتفريطهم وانحرافهم، فيقدّمون ويؤخّرون، ويزيدون وينقّصون، وتلك البدع الّتي حذّر منها رسول الله ﷺ بقوله: «وإيّاكم ومحدثات الأمور فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٩٠٣. وانظر: فتح القدير: ٣/ ١٨٧.

(٢) سبق تخريجه انظر: ص: ٤١١. (٣) المفهم: ٦/ ٨٨.

(٤) هذا جزء من حديث العرباض بن سارية ﷺ، وهو في: سنن أبي داود: بلفظه في: كتاب السّنّة: (٣٩)، باب في لزوم السّنّة: (٥)، برقم: (٤٦٠٧). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٥٠٤.

سنن التّرمذي، نحوه في: كتاب العلم: (٣٨)، باب ما جاء في الأخذ بالسّنّة واجتناب البدع: (١٦)، برقم: (٢٦٧٦)، وقال: «حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٣٣.

سنن ابن ماجه، نحوه في: المقدّمة، باب اتّباع سنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين: (٦)، =

وقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»[1].

قال الشّاطبي رحمه الله:

«فعلى النّاظر في الشّريعة... أن ينظر إليها بعين الكمال لا بعين النّقصان، ويعتبرها اعتباراً كلّياً في العبادات والعادات، ولا يخرج عنها ألبتّة، لأنّ الخروج عنها تيه وضلال ورمي في عماية، كيف وقد ثبت كمالها وتمامها؟ فالزّائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق، والمنحرف عن الجادّة إلى بنيّات الطّرق»[2].

فعلى المسلم الصّادق أن يأخذ هذا المنهج كاملاً فلا يجزّؤه ولا يشطّره، فيأخذ ما وافق هواه ويدع ما لا يوافقه. وقد أمر الله المؤمنين أن يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام[3] وشرائعه، فيعملوا بجميع أوامره ويتركوا جميع زواجره، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾ [البقرة: ٢٠٨][4].

وعاب على بني إسرائيل سلوك هذا المسلك المشين، وأوعدهم عليه بالنّكال الأليم فقال: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن

= برقم: (٤٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٢٢.

سنن الدّارمي، بلفظ مقارب في: باب اتّباع السّنّة: ١/ ٥٧.

سنن البيهقي، نحوه في: باب ما يقضي به القاضي ويفتي به المفتي: ١٠/ ١١٤.

مسند أحمد، بلفظه ـ في موضعين، إلّا إنّه قال في أحدهما: «وإنّ كلّ بدعة» ـ. في: ٤/ ١٢٦ ـ ١٢٧.

مستدرك الحاكم، نحوه في: ١/ ١٧٤، ١٧٧، وقال: «هذا حديث صحيح ليس له علّة». ووافقه الذّهبي رحمه الله.

(١) سبق تخريجه انظر: ص: ٨٠٢.

(٢) الاعتصام: ٢/ ٣١٠. وانظر: إعلام الموقّعين: ١/ ٣٣٢. شرح العقيدة الطّحاوية، ص: ٧١، طبعة: المكتب الإسلامي.

(٣) عُرى الإسلام: أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه. لسان العرب: ١٠/ ١١٣.

(٤) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٣٧١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٧.

دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥].

يقول سيّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]:

«الّذي يشاقّ الرّسول ﷺ هو الّذي يأخذ له شقّاً وجانباً وصفّاً غير الصّفّ والجانب والشّقّ الّذي يأخذه النّبي ﷺ. ومعنى هذا: أن يتخذ له منهجاً للحياة كلّها غير منهجه، وأن يختار له طريقاً غير طريقه. فالرّسول ﷺ جاء يحمل من عند الله منهجاً كاملاً للحياة، يشتمل على العقيدة والشّعائر التّعبديّة، كما يشتمل على الشّريعة والنّظام الواقعي لجوانب الحياة البشريّة كلّها، وهذه وتلك كلتاهما جسم هذا المنهج، بحيث تزهق روح هذا المنهج إذا شطر جسمه فأخذه منه شقّ وطرح شقّ! والّذي يشاقّ الرّسول ﷺ هو كلّ من ينكر منهجه جملة، أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض، فيأخذ بشقّ ويطرح شقّاً»[1].

وهذا ينافي كمال المنهج وتمامه.

٤ ـ إنّه منهج ظاهر واضح جلي لا لبس فيه ولا غموض، باقٍ إلى قيام السّاعة، تولّى رسولُ الله ﷺ إيضاحه وبيانه إلى الخلق كافّة لأنّ ربّه أمره بذلك، فقال له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النّحل: ٤٤].

فلعلمه بما أنزل عليه، وحرصه على بيانه، واتّباعه له، فَصَّل للأمّة ما أُجمل، وبيَّن لها ما أشْكل، وأوضح لها ما غمض، لأنّه أنصح النّاس للنّاس، وأفصحهم لساناً، وأصدقهم لهجة، وأقواهم حجّة، وأبلغهم بياناً، حتّى تهتدي الأمّة فتفوز بالنّجاة في الدّارين[2].

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ٧٥٩.

(٢) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٨٥. الشّريعة، ص: ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

ولم يكن رسولُ الله ﷺ بدعاً من الرّسل، بل كان شأنه شأنهم في وضوح الأمر وجلائه.

قال ابن كثير رحمه الله في بيان قول الله تعالى في خطاب موسى عليه السّلام لفرعون: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ۝﴾ [طه: ٥٩] **قال:**

«﴿ضُحًى﴾: أي ضحوة من النّهار، ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء كلّ أمرهم بيّن واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج، ولهذا لم يقل ليلاً، ولكن نهاراً ضحى»[١].

وهذا سرّ قول كلّ رسول لقومه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [هود: ٢٨، ٦٣، ٨٨].

وهكذا شأن رسولنا ﷺ، وشأن منهجه فإنّه اتّسم بالوضوح التّام، والحجّة الباهرة، والدّلالة الظّاهرة.

قال القرطبي رحمه الله في بيان قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]:

«أي على منهج واضح من أمر الدّين يشرع بك إلى الحقّ»[٢].

فقد أوضح الله المنهج ليتبيّن سبيل الحقّ وطريق النّجاة، ويتميّز عن المناهج الباطلة وطرق الضّلال المنحرفة. ولذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل: ٩]، أي على الله بيان سبيل الحق وإيضاحه[٣]. وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٥٥].

قال ابن القيم رحمه الله:

«والله تعالى قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصّلة، وسبيل المجرمين مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصّلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٥٠.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ١٦٣. وانظر: زبدة التّفسير من فتح القدير، ص: ٦٦٢.
(٣) سبق بيان الآية. انظر: ص: ٨٠٥.

والأسباب الّتي وفّق بها هؤلاء والأسباب الّتي خذل بها هؤلاء، وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبيّنهما غاية البيان حتّى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضيّاء والظّلام»[1].

وما مات رسول الله ﷺ إلّا وقد ترك الأمّة على بيّنة من أمر دينها، لا خفاء فيه، ولا غموض كالشّمس في رابعة النّهار، وهكذا قال لنا في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «قد تركتكم على البيضاء[2] ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلّا هالك»[3].

وقد أمره ربّه ﷻ أنّ يبلّغ دينه كلّه، ولا يخف منه شيئاً.

فقال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧﴾ [المائدة: ٦٧].

ففي الآية خطاب من الله تعالى باسم الرّسالة لعبده ورسوله محمّدٍ ﷺ، وأمر له بإبلاغ جميع ما أرسله به. وقد امتثل عليه أفضل الصّلاة والسّلام ذلك، وقام به أتمّ قيام، وأحسنه وأكمله.

قال الزّهري رحمه الله:

«من الله الرّسالة وعلى رسول الله ﷺ البلاغ، وعلينا التّسليم»[4].

وشهدت له أمّته بإبلاغ الرّسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، في خطبته يوم عرفة في حجّة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه

---

(١) الفوائد، ص: ١٠٨.

(٢) البَيْضاء: الشّمسُ لبياضها. لسان العرب: ٧/ ١٢٣.

(٣) هذا جزء من حديث العرباض رضي الله عنه السّابق، ولكن هذه اللّفظة في: سنن ابن ماجه، المقدّمة، باب اتّباع سنّة الخلفاء الرّاشدين المهديين: (٦)، برقم: (٤٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٢٢.
مسند أحمد: ٤/ ١٢٦.
مستدرك الحاكم: ١/ ١٧٥.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه ـ تعليقاً ـ في كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

نحو من أربعين ألفاً، كما ثبت عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: أنّ رسول الله ﷺ قال في خطبته يومئذ: «وأنتم تسألون عنّي فما أنتم قائلون»؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت وأدّيت، ونصحت. فقال بإصبعه السّبابة يرفعها إلى السّماء وينكتها إلى النّاس: «اللّهم اشهد، اللّهم اشهد». ثلاث مرّات؟[1].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، أي إن لم تؤدّ إلى النّاس ما أرسلتك به فما بلّغت رسالته، وقد علم ما يترتّب على ذلك لو وقع.

ولذا قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ يعني إن كتمت آية ممّا أنزل إليك من ربّك لم تبلّغ رسالته»[2].

قال الطّبري رحمه الله:

«وأمّا قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنّه يعني: إنّ الله لا يوفّق للرّشد من حاد عن سبيل الحقّ، وجار عن قصد السّبيل، وجحد ما جئته به من عند الله، ولم ينته إلى أمر الله وطاعته فيما فرض عليه وأوجبه»[3].

وقالت عائشة رضي الله عنها:

«ومن زعم أنّ رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، وزادت في رواية: «ولو كان محمّد ﷺ كاتماً شيئاً ممّا أنزل عليه لكتم هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧][4].

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الحجّ: (١٥)، باب حجّة النّبي ﷺ: (١٩)، برقم: (١٢١٨)، ٢/ ٨٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٢٤، بتصرّف.
وانظر: جامع البيان: ٦/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩، طبعة: دار الفكر. الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٤٢. فتح القدير: ٢/ ٥٩ ـ ٦٠.

(٣) جامع البيان: ٦/ ٣٠٩، طبعة: دار الفكر.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في كتاب الإيمان: (١)، باب معنى=

وقال أبو ذر رضي الله عنه:

«لقد تركنا محمّد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السّماء إلّا أذكرنا منه علماً»[1].

فهذا كلّه يبيّن أنّ الرّسول ﷺ بيّن المنهج الحقّ، وأظهره للأمّة كاملاً موفوراً، وبلّغه البلاغ المبين، ولم يكتم منه شيئاً أبداً.

وسلك الصّحابة مسلكه في البيان والإيضاح، وبذلوا جهوداً عظيمة في إبلاغ ذلك المنهج إلى كلّ أحد يمكنهم الوصول إليه، في أيّ بقعة من أرض الله، وفي أيّ مكان يوجد فيه عباد لله.

وهكذا فعل من حمل الرّاية من بعدهم ممّن وفّقهم الله لمعرفة المنهج القويم.

وقد شرف بذلك الفرقة النّاجية، أصحاب الحديث الّذين لم يزالوا بالسّنّة ظاهرين، وبالأتباع قاهرين، يَداجّون[2] بكلّ بلد ولا يُداجّون، ويستتر منهم بالنّحل ولا يستترون، ويصدعون بحقّهم النّاس ولا يستغشون، ولا يرتفع بالعلم

= قول الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النّجم: ١٣]: (٧٧)، برقم: (١٧٧)، ١/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ١٥٣، وبلفظ مقارب في: ٥/ ١٦٢.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب الزّجر عن كتبة المرء السّنن مخافة أن يتّكل عليها دون الحفظ لها، برقم: (٦٥). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح». وقال ابن حبّان رحمه الله: «ومعنى عندنا منه»: يعني بأوامره ونواهيه وأخباره وأفعاله وإباحته ﷺ»: ١/ ٢٦٧.
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب، برقم: (٥١٠٩). عن أبي الدّرداء رضي الله عنه، قال المحقّق: «إسناده صحيح»: ٩/ ٤٦.
مسند أبي داود الطّيالسي، بلفظ مقارب في: ص:٦٥، برقم: (٤٧٩).
معجم الطّبراني الكبير، بلفظ مقارب في: ٢/ ١٥٥.

(٢) دَجَّ القَوْم يَدِجُّونَ دَجًّا ودَجِيجاً ودَجَجاناً: مَشَوْا مَشياً رُوَيْداً في تَقارُبِ خَطْوٍ. وقل: هو أن يقبلوا ويدبروا. وقيل: هو الدّبيب بعينه. ودَجَّ يَدِجّ: إذا أسرع. وَدَجَّ يَدِجُّ ودَبَّ يَدِبُّ، بمعنى: لسان العرب: ٢/ ٢٦٣. وانظر: القاموس المحيط، ص: ٢٣٩.

إلّا من رفعوا، ولا يتّضع فيه إلّا من رضوا، ولا تسير الرّكبان إلّا بذكر من ذكروا[1].

وقد جعل الله في كلّ زمان منهم من يقوم بنصرة هذا المنهج وإظهاره للنّاس، وإبلاغه لهم غير آبه بما يناله منهم من شدّة وضنك، وفي ذلك يقول ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي قائمة بأمر الله، لا يضرّهم من خذلهم أو خالفهم حتّى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على النّاس»[2].

قال النّووي رحمه الله:

«في هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإنّ هذا الوصف ما زال بحمد الله تعالى من زمن النّبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتّى يأتي أمر الله المذكور في الحديث»[3].

وببقائهم يبقى هذا المنهج ظاهراً واضحاً لا يتغيّر ولا يتبدّل، لأنّهم أحرص النّاس على إظهاره وبيانه، ولأنّه ليس فيه ما يجب استتاره عن الخلق وقد طالب الله رسوله بإبلاغه، وعدم إخفاء شيء منه أو كتمانه.

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

«إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامّة فاعلم أنّهم على تأسيس ضلالة»[4].

---

(١) الاختلاف في اللّفظ والرّد على الجهميّة والمشبّهة للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الرّسالة الثّالثة من عقائد السّلف، تحقيق: علي سامي النّشار، عمّار جمعي الطّالبي، طبع: شركة الإسكندريّة للطّباعة والنّشر، نشر: منشأة المعارف بالإسكندريّة، ١٩٧١م، ص: ٢٢٤.

(٢) الحديث سبق تخريجه انظر: ص:٧٩٣.

(٣) شرح النّووي على مسلم: ١٣/ ٦٧. وانظر في إظهار الفرقة النّاجية لهذا المنهج: شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة: ١/ ٢٧. الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ١٩٧. أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى، ص:٨.

(٤) سنن الدّارمي، بلفظ مقارب في: ١٠٣.
الزّهد لابن أبي عاصم، بلفظ مقارب في: ص: ٢٨٩، ونحوه في: ص:٢٩١.
شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة، بلفظه في: ١/ ١٣٥.

والسّريّة المتّبعة عند كثير من أصحاب المناهج المنحرفة تحدث كثيراً من الأخطاء والخلل عند الأفراد، وينجم عنها كثير من التّنازلات عن أسس المنهج وقواعده تحت جنح الظّلام والأمن من نظر النّاس، بحجّة المصلحة المزعومة، وقد تكون تلك السّريّة سبباً في الصّد عن دين الله والالتزام به لما تحدثه من ريب وشك في نفوس الكثيرين. والدّين جاء ليعلن وتصل أحكامه إلى كلّ البشر لا ليخفى عنهم.

وما حصل من إخفاء للمسلمين لإسلامهم في بعض الأحيان فذلك يحمل على حالات الاستضعاف أو أسباب أخرى دعت إليها الضّرورة. ومع هذا فإنّ المنهج الحقّ باقٍ ظاهر، معلوم منقول مسطور، تعهّد الله بحفظه وبقائه، إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]. وسخّر له من يقوم به ويرفع رايته، ويُعلي أمره في كلّ عصر وجيل، وهم أهل السّنّة الّذين لم يدعوا راية السّنّة تسقط أبداً، بل ظلّوا يحملونها عالية خفّاقة يسلمها السّلف للخلف، حتّى غدت ظاهرة واضحة جلية لا يجهل شأنها إلّا من لم يوفّقه الله للالتزام بذاك المنهج والانتساب إليه، وأعمى عينيه عن رؤية الحقّ قصداً أو جهلاً.

٥ ـ إنّه منهج عام لكلّ زمان ومكان، ولكلّ أمّة وجيل، بل للخلق كافّة من الجنّ والإنس في كلّ عصر ومصر ووقت، وأنّه منهج سهل ميسّر.

قال سبحانه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨][1].

وهذا خطاب للأحمر والأسود والعربي والعجمي بأنّه رسول الله إليهم جميعاً، وهذا يقتضي عموم رسالته إلى النّاس كافّة لا كغيره من الرّسل الّذين كانوا يبعثون إلى قومهم خاصة.

وقال ﷻ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

---

(١) وانظر في معنى الآية: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥. فتح القدير: ٢/ ٢٥٤.

أي أوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكّة وسائر من بلغه من أسود وأحمر، أو من جنّ وإنس، أو لأنذر به الموجودين ومن سيوجدون إلى قيام السّاعة. وفي هذا دليل على شمول أحكام القرآن وعمومها للموجودين وقت نزوله ومن سيوجدون من بعدهم[(١)].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨].

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١].

وفي حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنّ أحد من الأنبياء قبلي، نصرت بالرّعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصّلاة فليصلّ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي، وأعطيت الشّفاعة، وكان النّبي يبعث إلى قومه وبعثت إلى النّاس عامّة»[(٢)].

وهذه النّصوص كلّها تفيد عموم رسالته ﷺ وأنّه لم يخاطب بها نوعاً خاصاً من البشر، بل خاطب بها النّاس جميعاً، ولم يخاطب بها جيلاً محدوداً، بل خاطب بها كلّ الأجيال، ولم يخاطب عصراً مضى، بل خاطب كلّ العصور، ولم يخاطب لوناً محدّداً بل خاطب بها الأحمر والأسود، ولم يخاطب نفسيّة معيّنة ومزاجاً معيّناً بل خاطب كلّ النّفوس وكلّ الأمزجة وجميع القلوب[(٣)].

وقد حذّر ﷺ من سمع به ولم يؤمن به فقال في حديث أبي هريرة ﷺ: «والّذي نفس محمّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة يهودي ولا نصراني،

---

(١) انظر: معالم التّنزيل: ٢/ ٨٩. أنوار التّنزيل: ٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩. فتح القدير: ٢/ ١٠٥.

(٢) سبق تخريجه انظر: ص:٤١٣.

(٣) انظر: دور المنهاج الرّباني في الدّعوة الإسلاميّة، عدنان علي رضا النّحوي، مطابع: الفرزدق التّجاريّة، الرّياض، الطّبعة الرّابعة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص:٢٦.

ثمّ يموت ولم يؤمن بالّذي أرسلت به إلّا كان من أصحاب النّار»(١).

أي لا يسمع بي أحد من هذه الأمّة ممّن هو موجود في زمني أو بعدي إلى يوم القيامة ـ وإنّما ذكر اليهودي والنّصراني لأنّ لهم كتباً. فإذا كان هذا شأنه مع من له كتاب فغيره ممّن لا كتاب له أولى ـ ثمّ لا يؤمن بي إلّا عذّب(٢).

فلمّا كانت رسالته عامّة دلّ ذلك على أنّ منهجه عامّ لا ينحصر في فئة دون غيرها، ولا جماعة دون سواها، ولا عصر دون بقيّة العصور، وأنّ من سلكه لا يحتاج إلى سواه، لأنّ الحقّ لا يخرج إلّا منه، والهداية لا تكون إلّا فيه، وهو يسع كلّ النّاس في كلّ زمان ومكان لأنّه صالح لكلّ زمان ومكان.

ومع عمومه فهو سهل ميسّر بعيد عن التّعقيدات، يتّسم بالبساطة واليسر لأنّه يتّفق مع الفطرة السّليمة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ في بيان قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾ [الأعلى: ٨]:

«أي نسهّل عليك أفعال الخير وأقواله، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر»(٣).

وقال الشّوكاني رَحِمَهُ اللهُ:

«نوفّقك للطّريقة اليسرى في الدّين والدّنيا في كلّ أمر من أمورهما الّتي تتوجّه إليك»(٤).

ومع ذلك كلّه قلّ أهله والسّائرون عليه، وانحرفت الأكثريّة عن سلوكه

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب وجوب الإيمان برسالة محمّد ﷺ إلى جميع النّاس، ونسخ الملل بملّته: (٧٠)، برقم: (١٥٣)، ١/ ١٣٤.

(٢) انظر: شرح النّووي على مسلم: ٢/ ١٨٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٨٩.

(٤) فتح القدير: ٥/ ٤٢٤. وانظر: معالم التّنزيل: ٤/ ٤٧٦. الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٩. أنوار التّنزيل: ٥/ ٤٨٠.

فهي في عماية عن الحقّ، وظلمة عن الهدى[1].

٦ ـ إنّه منهج وسط معتدل متّزن، بعيد عن الإفراط والغلو والتّعمّق والتّنطّع والتّشدّد، كما هو بعيد عن التّفريط والتّقصير والجفاء.

وقد أمر الله سبحانه بالتوسط والاعتدال في أكثر من آية فقال سبحانه: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

كما نهى سبحانه عن الغلو وتعدّي الحدود والإفراط فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال ﷺ في حديث بريدة الأسلمي رضي الله عنه: «عليكم هدياً قاصداً، فإنّه من يشادّ هذا الدّين يغلبه»[2].

---

(١) ولهذه الجزئيّة مزيد بيان عند الحديث عن عوامل الثّبات على المنهج.

(٢) صحيح ابن خزيمة، بلفظه ـ مع التكرار ـ في: باب الأمر بالاقتصاد في التّطوّع وكراهية الحمل على النّفس ما لا تطيقه من التّطوّع: ٢/ ١٩٩.
سنن البيهقي، بنحو منه، في باب القصد في العبادة والجهد في المداومة: ٣/ ١٨.
مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٣٦١، وبلفظ مقارب في: ٤/ ٤٢٢.
مسند أبي يعلى: عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه، في: ٥/ ٣٥٠.
مستدرك الحاكم، بلفظه ـ مع التكرار ـ في: ١/ ٤٥٧، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». =

وقال في حديث ابن عبّاس ﵄: «وإيّاكم والغلو في الدّين، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدّين»[١].

وقال: «هلك المتنطّعون»[٢]. قالها ثلاثاً[٣].

= مسند أبي داود الطّيالسي، بلفظه في: ص:١٠٩، برقم: (٨٠٩).
مسند الشّهاب نحوه في: ١/ ٢٤٧،برقم: (٣٩٨).
كتاب السّنّة لابن أبي عاصم، بلفظ مقارب: برقم: (٩٥). قال الألباني ﵀: «إسناده صحيح، رجاله كلّهم ثقات»، ص:٤٦.
وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﵁ عن النّبي ﷺ قال: «إنّ الدّين يسر، ولن يشادّ الدّين أحد إلّا غلبه، فسدّدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والرّوحة وشيء من الدّلجة»، كتاب الإيمان: (٢)، باب الدّين يسر: (٢٩/ ٣٠)، برقم: (٣٩)، ص:٢٣.

(١) سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب مناسك الحجّ: (٢٤)، باب التقاط الحصى: (٢١٧)، برقم: (٣٠٥٧). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص:٣٢٣.
سنن ابن ماجه: بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «فإنّه أهلك» ـ في كتاب المناسك: (٢٥)، باب قدر حصى الرّمي: (٦٣)، برقم: (٣٠٢٩). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص:٣٢٨.
سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب أخذ الحصى لرمي جمرة العقبة، وكيفية ذلك: ٥/ ١٢٧.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ١/ ٢١٥، ٣٤٧. قال أحمد شاكر ﵀: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣/ ٢٥٧، ٥/ ٨٥، برقم: (١٨٥١، ٣٢٤٨).
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٦٣٧، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه».
مسند أبي يعلى، بلفظه في: ٤/ ٣١٦، برقم: (٢٤٢٧). قال المحقّق: «إسناده صحيح».
وانظر: السّنّة لابن أبي عاصم، ص:٤٦، برقم: (٩٨). السّلسلة الصّحيحة: ٣/ ٢٧٨، برقم: (١٢٨٣).

(٢) المُتَنَطّعون: هم المُتَعَمِّقون المُغَالُون في الكَلام المُتَكَلِّمُون بِأقصى حُلوقِهِم، مأخوذ من النّطع وهو الغَار الأعْلَى من الفمِ ثمّ استُعْمِل في كلِّ تَعَمُّق قولاً وفعلاً. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٧٤.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب العلم: (٤٧)، باب هلك المتنطّعون: (٤)، برقم: (٢٦٧٠)، ٤/ ٢٠٥٥. عن عبد الله بن مسعود ﵁.

قال عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ رضي الله عنه:

«والّذي لا إله إلّا هو ما رأيت أحداً كان أشدّ على المتنطّعين من رسول الله ﷺ، وما رأيت أحداً كان أشدّ عليهم من أبي بكر، وأنّي لأرى عمر كان أشدّ خوفاً عليهم أو لهم»[1].

وفي النّهي عن الغلو أمر بالاعتدال والوسطيّة، ولذا كان الصّحابة رضي الله عنهم أكثر النّاس اعتدالاً وتوسّطاً، منحرفين عن الإفراط، ومجافين للتّفريط، نابذين للتّنطّع، متباعدين عن التّقصير.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«أيّها النّاس قد سُنَّتْ لكم السّنن، وفرضت لكم الفرائض، وتُركتم على الواضحة، إلّا أن تضلّوا بالنّاس يميناً وشمالاً»[2].

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى رجل:

«أمّا بعد: أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتّباع سنّة نبيّه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنّته، وكُفُوا مؤنته، فعليك بلزوم السّنّة فإنّها لك ـ بإذن الله ـ عصمة، ثمّ اعلم أنّه لم يبتدع النّاس بدعة، إلّا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها، فإنّ السّنّة إنّما سنّها من قد علم في خلافها... من الخطأ، والزّلل، والحمق، والتّعمّق. فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنّهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كَفُّوا، وَهُمْ على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه.

---

(١) سنن الدّارمي، بلفظه في: المقدّمة، باب من هاب الفتيا وكره التّنطّع والتّبدّع: ١/ ٦٥.
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٨/ ٤٣٧، برقم: (٥٠٢٢). قال المحقّق: «إسناده صحيح».
معجم الطّبراني الكبير، جزء منه في: ١٠/ ١٧٤.

(٢) موطّأ مالك، بلفظه في: كتاب الحدود: (٤١)، باب ما جاء في الرّجم: (١)، برقم: (١٠)، ٢/ ٨٢٤.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٣/ ٩٨. وانظر: إغاثة اللّهفان: ١/ ١٥٩.

ولئن قلتم: إنّما حدث بعدهم، ما أحدثه إلّا من اتّبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنّهم هم السّابقون، فقد تكلّموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مَقْصر وما فوقهم من مَحْسَرٍ[1]، وقد قصَّر قوم دونهم فجفوا، وطمح عنهم أقوام فَغَلوا، وإنّهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»[2].

فالصّحابة ﷺ كانوا أهل الاعتدال والوسط، فلم يغلوا ولم يجفوا، وإنّما ساروا على منهج قويم وصراط مستقيم، سبقهم في السّير عليه رسول الله ﷺ، فلم ينحرفوا عنه بإفراط أو تفريط لعلمهم أنّ الحقّ بين ذلك.

قال ابن القيّم رحمه الله:

«إنّ التّعمّق والتّنطّع والتّشديد الّذي نهى عنه رسول الله ﷺ هو المخالف لهديه وهدي أصحابه وما كانوا عليه، وإنّ موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة، وإن أباها وجهلها من جهلها، فالتّعمّق والتّنطّع مخالفة ما جاء به، وتجاوزه والغلو فيه، ومقابله إضاعته والتّفريط فيه، والتّقصير عنه، وهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصّراط المستقيم، والمنهج القويم، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه»[3].

ولمّا كان دين الله كذلك اختار له هذه الأمّة الّتي جعلها وسطاً بين الأمم قاطبة فقال في شأنها: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) يقال: حَسرَ بصره: كَلّ وانقطع نظره من طول مدى وما أشبه ذلك، فهو حَسِيرٌ ومَحْسور أيضاً، وبابه جلس. والحَسْرةُ أشدّ التّلهّف على الشّيء الفائت. مختار الصّحاح، ص:١٣٥. وانظر: لسان العرب: ٤/ ١٨٩. القاموس المحيط، ص:٤٧٩.

(٢) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب السّنّة: (٣٩)، باب لزوم السّنّة: (٦)، برقم: (٤٦١٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح مقطوع»، ص:٥٠٤ ـ ٥٠٥.

(٣) كتاب الصّلاة وحكم تاركها للإمام ابن القيّم، تحقيق تيسير زعيتر، الطّبعة الأولى، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ص:١٩٢. وانظر: إغاثة اللّهفان: ١/ ١٣١. الفوائد، ص:١٤١.

فهي أشرف الأمم، وخيرها، وأكملها، وأعدلها قولاً وعملاً. ولهذا هيّأها الله تعالى لتكون شهيدة على الأمم يوم القيامة بتبليغ كلّ رسول دين الله لأمّته، وفي ذلك شهادة لها من الأمم، واعتراف بفضلها وخيريتها واعتدالها على جميع الأمم[1]. ولذلك قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

فهي خير النّاس للنّاس، وأعظم النّاس هدياً، وأكملهم شريعة، وأقومهم منهجاً، وأوسطهم مذهباً.

فهي وسط بين الأمم، معتدلة متّزنة، بعيدة عن الإفراط والتّفريط والغلو والتّقصير.

فهي وسط في توحيد الله تعالى وصفاته، بين اليهود الّذين وصفوا الرّب بصفات النّقص وشبّهوه بالمخلوق، بل وصفوه بالبخل والفقر والتّعب، وبين النّصارى الّذين وصفوا المخلوق بصفات الخالق، فزعموا أنّه المسيح، وأنّه ثالث ثلاثة إلى غير ذلك من أباطيلهم.

وسعدت هذه الأمّة بتوحيد الله، ووصفه بصفات الكمال، وتنزيهه عن صفات النّقص ومشابهة المخلوقات.

وهي وسط في أنبياء الله ورسله، بين اليهود الّذي قتلوا الأنبياء، ورموهم بارتكاب الكبائر والموبقات، وكذّبوهم وجفوا عن اتّباعهم، وبين النّصارى الّذين غلوا في الأنبياء بل والأحبار والرّهبان فجعلوهم أرباباً من دون الله.

وفازت هذه الأمّة بإنزال الرّسل والأنبياء منازلهم الّتي وضعهم الله فيها، فهم عباد الله مبشّرون ومنذرون، يطاعون ويوقّرون، ويصدّقون ولا يعبدون من دون الله، ولا يتّخذون أرباباً.

---

(١) انظر معنى الآية في: جامع البيان: ٢/ ٦ ـ ١١. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤. زبدة التّفسير من فتح القدير، ص: ٢٧. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٣. وانظر: إعلام الموقّعين: ٤/ ١٣٣.

وهي وسط في باب الشّرائع والأحكام بين اليهود المحرّمين لكثير من الطّيّبات الّتي أباحها الله لهم، وبين النّصارى الّذين أسرفوا في الإباحة فاستحلّوا الخبائث والمحرّمات كالميتة والدّم ولحم الخنزير وغير ذلك.

والمسلمون أحلّوا ما أحلّ الله ورسوله من الطّيبات، وحرّموا ما حُرِّم عليهم من الخبائث.

وهي وسط في باب العبادة، بين اليهود المعرضين عن عبادة الله، المنغمسين في الشّهوات والملاذ الدّنيويّة وتقديس المادة، وبين النّصارى الّذين غلوا في الرّهبانيّة والبدع، وانقطعوا في الأديرة والخلوات، والتزموا بما لم يُلزموا به من المشاقّ.

وأهل الإسلام عبدوا الله بما شرع، فلم يجفوا عن عبادة الله، ولم يتعبّدوه بالبدع، فكانوا وسطاً بين أولئك وهؤلاء[(١)].

ولمّا كان أهل السّنّة هم أفضل فرق هذه الأمّة وخيرها وأعظمها، بل كلّ فضل ثبت للأمّة فلأهل السّنّة الحظّ الأوفر والنّصيب الأعظم منه، وكلّ وسطيّة واعتدال ثبت للأمّة فهو لأهل السّنّة بطريق الأولى، ولأنّهم الطّائفة الّتي تتحقّق فيها الوسطيّة المطلقة لهذه الأمّة.

كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«هم الوسط في فرق الأمّة، كما أنّ الأمّة هي الوسط في الأمم»[(٢)].

فلمّا حملوا المنهج الوسط كانوا وسطاً بين الطّوائف المنتسبة إلى الإسلام، حيث عصموا به في الغلو والجفاء، والإفراط والتّفريط، والتّعنّت والتّقصير.

فهم وسط في باب أسماء الله وصفاته، بين أهل التّعطيل النّافين لأسماء الله وصفاته وبين أهل التّمثيل والتّشبيه المشبّهين لله بعباده.

وَسَلِمَ أهل السّنّة والجماعة من دنس التّعطيل، فأثبتوا أسماء الله وصفاته

---

(١) انظر: وسطيّة أهل السّنّة، ص: ٢٣٧ ـ ٢٤١.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٤١. وانظر: ٣/ ٣٧٠.

على الوجه اللّائق بجلال الله، كما سلموا من وحل التّشبيه فنفوا عن الله مشابهة المخلوقين، فكانوا على الهدي القاصد والصّراط المستقيم[١].

وهم وسط في باب الإيمان بين الخوارج والمعتزلة الّذين يرون أنّ الإيمان شيء واحد لا يتجزّأ ولا يتبعّض، وهو فعل الطّاعات وترك المعاصي، وإذا ذهب بعضه ذهب كلّه، وبين المرجئة الّتي تزعم أنّ الإيمان هو المعرفة، والأعمال ليست منه.

وذهب أهل السّنّة إلى أنّ الإيمان قول باللّسان، وعمل بالأركان، وتصديق بالجَنان، يزيد بطاعة الرّحمٰن، وينقص بطاعة الشّيطان.

وانبنى على وسطيتهم في الإيمان وسطيتهم في صاحب الكبيرة. فالخوارج يزعمون أنّ صاحب الكبيرة خارج من الإيمان داخل في الكفر، تجري عليه أحكام الكفّار في الدّنيا، فيكون حلال الدّم والمال، وهو في الآخرة مخلّد في النّار، والمعتزلة وافقوا الخوارج في سلب اسم الإيمان عنه، وتخليده في النّار، وإن كان عذابه دون عذاب الكفّار، وخالفوهم في اسمه في الدّنيا فهو في منزلة بين المنزلتين: منزلة الإيمان ومنزلة الكفر، فيسمّى فاسقاً. وأجروا عليه أحكام المسلمين في الدّنيا، وبين المرجئة الّذين أخرجوا الأعمال عن مسمّى الإيمان، فحكموا على صاحب الكبيرة بأنّه مؤمن كامل الإيمان، وهو في الآخرة من أهل الجنّة.

وأهل السّنّة كانوا وسطاً بين الفئتين، لم يخرجوا صاحب الكبيرة من الإيمان، بل قالوا هو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطى اسم الإيمان المطلق، ولا يجرّد من مطلق الإيمان، وفي الآخرة إذا مات ولم يتب يكون تحت مشيئة الله إن شاء غفر له، وإن شاء عذّبه، ولا يخلّد في النّار كالكافر[٢].

---

(١) انظر: المرجع السّابق: ٣/ ١٤١، ٣٧٣. وسطيّة أهل السّنّة، ص: ٣٠٧. وانظر: الشّريعة للآجري، ص: ٢٨٣. منهاج السّنّة: ٢/ ١١١. مجموع الفتاوى: ٣/ ٣ ـ ٤.

(٢) انظر: المرجع السّابق: ٣/ ١٥١، ٣٥٥، ٣٧٤ ـ ٣٧٥. وسطيّة أهل السّنّة، ص: ٣٣٤ ـ ٣٤٦.

وهم وسط في باب القدر بين القدريّة الّذين سلبوا الله قدرته على أفعال العباد، وزعموا أنّهم خالقون لها، وأخرجوا المعاصي عن إرادته ومشيئته لأنّه لا يحبّها ولا يرضاها، وبين الجبريّة[1] الّذين سلبوا الإنسان قدرته وإرادته، وأنّه لا اختيار له، وإنّما هو مجبور على فعله، والفاعل الحقيقي هو الله، وكلّ ما ينسب للعبد من فعل هو فاعله، وأنّه محبوب له.

وذهب أهل السّنّة إلى أنّ أفعال العباد أفعال لهم، ومخلوقة لله على الحقيقة، وللعباد قدرة على فعلها وإرادة، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم. ففرّقوا بين الخلق والمخلوق، والفعل والمفعول، والله يريد الكفر والمعاصي كوناً ولكنّه لا يحبّها ولا يرضاها شرعاً[2].

وهم وسط في أصحاب رسول الله ﷺ بين الخوارج المكفّرين لبعضهم والمعتزلة المفسّقين لجماعة منهم، وبين الشّيعة الغالبين في بعضهم والجافين في بعض منهم.

وأهل السّنّة تولّوهم جميعاً فلم يكفّروا ولم يفسّقوا ولا تبرّؤوا من أحد منهم، بل يترضّون ويترحّمون ويستغفرون لهم، ولا يسبّون ولا يشتمون أحداً منهم، ويعتقدون أنّهم خير الأمّة بعد نبيّها، ولا يدّعون عصمة أحد منهم، بل هم بشر يقع منهم الخطأ والذّنب، ولكن يلتمس لهم المخارج والمعاذير، ولا يشنّع عليهم، وهم مع ذلك يطهّرون ألسنتهم عن الخوض فيما شجر بينهم[3].

وبهذا العرض الموجز لهذه النّماذج الّتي أبانت لنا وسطيّة أهل السّنّة بين

---

(١) الجبريّة أو المجبرة: مشتقّة من الجبر وهو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرّب تعالى، وهم أصناف: فالجبريّة الخالصة: هي الّتي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً. والمتوسّطة: هي الّتي تثبت للعبد قدرة غير مؤثّرة. والثّالثة: هي من لم تثبت للقدرة الحادثة أثراً في الإبداع والإحداث، وإنّما أثبتت أثراً ما سمّته الكسب. انظر: الملل والنّحل: ١/ ٨٥. وانظر: التّعريفات، ص: ٤٠.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٧٣ ـ ٣٧٤. وسطيّة أهل السّنّة: ٣٦١ ـ ٣٨٧. وانظر: منهاج السّنّة: ٢/ ٢٩٨.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٧٥. وسطيّة أهل السّنّة، ص: ٣٩٩ ـ ٤٢٥.

الفرق المنحرفة عن المنهج القويم والصّراط المستقيم يتّضح لنا وسطيّة المنهج الّذي حملوه، والطّريق الّذي ساروا عليه.

وهذه السّمة من أبرز سمات هذا المنهج وأبلغها، وهي أكثرها إيضاحاً لمعالمه وتميّزاً لحدوده.

وبعد ذكر هذه السّمات الّتي تتلخّص في: أنّ مصدر تلقي المنهج الحق القرآن والسّنّة، وأنّ طريقه واحد لا يتعدّد، ومستقيم ليس بمعوج، وهو منهج كامل تامّ، واضح جلي، باقٍ إلى قيام السّاعة، عامّ، صالح لكلّ زمان ومكان، وسط معتدل، بعيد عن الغلو والجفاء، يتضح لنا أنّ الواجب على كلّ مسلم الوقوف على هذه السّمات والتّعرّف عليها، والتّمسّك بها ليثبت على منهج الله تعالى، فلا يعوج عنه، ولا يلتفت إلى سواه، ليسلم له دينه، ويبقى له إيمانه.





الفصل الثّالث

عوامل الثّبات على المنهج الحق

أهميّة الثّبات على المنهج

إنّ الثّبات على المنهج هو الاستقامة على صراط الله المستقيم، وشرعه القويم، وطريقه الموصل إلى جنّات النّعيم، الّذي من سلكه واستقام عليه نجا، ومن انحرف عنه ضلّ وغوى، وتشعّبت به طرق الضّلال، وأقفلت أمامه طرق النّجاة. فالثّابتون عليه هم الفائزون، والزّائغون عنه هم الهالكون.

ولا مقارنة بين من فقد الثّبات فعجز عن السّير على منهج الله، وبين من ثبت فوفّقه الله للسير عليه. فالأوّل كمن يسير منحنياً لا مستوياً، لا يتبيّن الطّريق ولا تتّضح له معالمه، ولا يدري أين يسلك، وكيف يذهب؟ فهو تائه ضال. والثّاني يسير معتدلاً مستقيماً ناظراً إلى ما بين يديه، وهو مع ذلك على طريق واضح بيّن مستقيم، وهكذا قال سبحانه في شأن هذين السّائرين: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢][(١)]. والجواب: لا شك أنّ من يمشي سوياً على صراط مستقيم أهدى وأقوم.

والثّابت على المنهج، المستقيم عليه، كمثل رجل أحياه الله بنور العلم والإيمان والطّاعة، فصار يمشي مستقيماً بين النّاس، متبصّراً في أموره، مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير، مُؤْثراً له، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفاً بالشّرّ، مُبْغضاً له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره، فلا يستوي هو ومن ظلّ في ظلمات الجهل والغي والكفر والمعاصي، والتبست عليه الطّرق، وأظلمت عليه المسالك، وزُيّن له سوء عمله فرآه حسناً، وفارقه الثّبات، وزلّت

---

(١) وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ٢٩/ ٩ ـ ١٠. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٢٣. الزّبدة من فتح القدير، ص: ٧٥٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٨١٢ ـ ٨١٣.

به القدم. وفي هذين يقول الباري جلّ وعلا: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢][1].

فالثّبات على المنهج حياة ونور، والزّيغ عنه موت وظلمة، بل هو حيرة وضلالة وجهل، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١].

قال ابن جرير رحمه الله:

«هذا مثل ضربه الله تعالى لمن كفر بالله بعد إيمانه، فاتّبع الشّياطين من أهل الشّرك بالله، وأصحابه الّذين كانوا أصحابه في حال إسلامه، المقيمون على الدّين الحقّ، يدعونه إلى الهدى الّذي هم عليه مقيمون، والصّواب الّذي هم به متمسّكون، وهو له مفارق، وعنه زائل، يقولون له: ائتنا فكن معنا على استقامة وهدى، وهو يأبى ذلك، ويتّبع دواعي الشّيطان، ويعبد الآلهة والأوثان»[2].

وإن كان هذا مثلاً ضربه الله لمن حاد عن المنهج وانحرف عنه، ولمن بقي وثبت عليه، فإنّ رسول الله ﷺ ضرب لنا مثلاً محسوساً أوضح فيه كيف يسير الإنسان على المنهج القويم ويثبت عليه، متجنّباً أسباب الانزلاق والانحراف عنه.

فقال في حديث النّواس بن سمعان رضي الله عنه: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، على كتفي الصّراط سوران فيهما أبواب مفتّحة، وعلى الأبواب ستور

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٣٤. وانظر: جامع البيان: ٨/ ٢١ ـ ٢٢. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٧٦.

(٢) جامع البيان: ٧/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٢٣.

مرخاة، وعلى الصّراط داعٍ يدعو يقول: يا أيّها النّاس اسلكوا الصّراط جميعاً ولا تعوجوا[1]، وداعٍ يدعو على الصّراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويلك لا تفتحه فإنّك إن تفتحه تلجه. فالصّراط الإسلام، والسّتور حدود الله، والأبواب المفتّحة محارم الله، والدّاعي الّذي على رأس الصّراط كتاب الله، والدّاعي من فوق واعظ الله يذكر في قلب كلّ مسلم»[2].

فهذا تصوير بليغ من رسول الله ﷺ لمنهج الله تعالى، وللسّائر عليه الّذي وُفِّق للثّبات، وجُنِّب الزّلل.

وقد بَيَّن لنا السّلف رحمهم الله كيف يتمّ ثبات المسلم على المنهج، وتتحقّق له الاستقامة عليه.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«عليكم بالطّريق فلئن لزمتموه لقد سبقتم سبقاً بعيداً، ولئن خالفتموه يميناً وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيداً»[3].

وكان قتادة رحمه الله **إذا تلا:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت٣٠، الأحقاف: ١٣] **قال:**

«إنّكم قد قلتم ربّنا الله فاستقيموا على أمر الله وطاعته وسنّة نبيّكم، وامضوا حيث تؤمرون، فالاستقامة أن تلبث على الإسلام، والطّريقة الصّالحة، ثمّ لا تمرق منها، ولا تخالفها، ولا تشذ عن السّنّة، ولا تخرج عنها، فإنّ أهل

---

(١) أي لا تلتفتوا وتميلوا عنه. انظر: غريب الحديث للخطّابي: ٢/ ٢٧٣. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٢) سنن التّرمذي، نحوه في: كتاب الأدب: (٤٠)، باب ما جاء في مثل الله لعباده: (٧٦)، برقم: (٢٨٥٩)، وقال: «حديث حسن غريب». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٥٧.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٤/ ١٨٢، ونحوه في: ٤/ ١٨٣.
مستدرك الحاكم، بلفظ في: ١/ ١٤٤ ـ ١٤٥، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له علّة، ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط مسلم، ولا علّة له». وانظر: الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ٢٩٦.

(٣) المرجع السّابق: ١/ ٣٣٢. وانظر: الزّهد لابن أبي عاصم، ص: ٣٥٨.

المروق من الإسلام منقطع بهم يوم القيامة، ثمّ إيّاكم وتصرّف الأخلاق، واجعلوا الوجه واحداً، والدّعوة واحدة، فإنّه بلغنا أنه من كان ذا وجهين وذا لسانين كان له يوم القيامة لسانان من نار»[1].

وقال أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ[2]:

«تعلّموا الإسلام، فإذا تعلّمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصّراط المستقيم، فإنّ الصّراط المستقيم الإسلام، ولا تنحرفوا عن الصّراط المستقيم يميناً ولا شمالاً، وعليكم بسنّة نبيّكم ـ والّذي كان عليه أصحابه ـ[3] وإيّاكم وهذه الأهواء الّتي تلقي بين أهلها العدواة والبغضاء». فردّدها مراراً[4].

والمؤمنون الصّادقون هم السّائرون على هذا المنهج، الثّابتون عليه كما قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥].

فلمّا آمنوا بالله وصدّقوا به، وأقرّوا بوحدانيته، وما بعث به رسول الهدى ﷺ، وتمسّكوا بذلك، وعدهم الله بعظيم نعمه، وجزيل ثوابه، ووفّقهم إلى سلوك الصّراط المستقيم والمنهاج القويم، وأعانهم بالثّبات عليه حتّى يلقوه فينالوا رحمته ورضوانه.

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ٣١٨.

(٢) هو رُفَيع بن مِهْران أبو العالية الرّياحي مولاهم البصري، الفقيه، المقرئ، أدرك الجاهليّة وأسلم بعد موت النّبي ﷺ بسنتين، إمام كثير الحديث، وكثير الإرسال، توفي سنة ٩٠هـ. وقيل: بعدها.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ١١٢. طبقات خليفة، ص:٢٠٢. التّاريخ الكبير: ٣/ ٣٢٦. معرفة الثّقات: ٢/ ٤١٢. الجرح والتّعديل: ٣/ ٥١٠. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٢٣٩. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٩٥. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٥٧٨. تهذيب الكمال: ٩/ ٢١٤. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٦١. الكاشف: ١/ ٣٩٧. جامع التّحصيل، ص:١٧٥. الإصابة: ٢/ ٥١٤، ٧/ ٢٩٦. تهذيب التّهذيب: ٣/ ٢٤٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٢١٠. لسان الميزان: ٧/ ٢١٧، ٤٧١.

(٣) زيادة من شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ٦٣.

(٤) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ٣٣٨.

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: **في قوله تعالى**: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾:

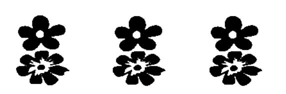
«يوفّقهم لإصابة فضله الّذي تفضّل به على أوليائه، ويسدّدهم لسلوك منهج من أنعم عليه من أهل طاعته، ولاقتفاء آثارهم، واتّباع دينهم، وذلك هو الصّراط المستقيم، وهو دين الله الّذي ارتضاه لعباده، وهو الإسلام»[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: أي طريقاً واضحاً قصداً قواماً، لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدّنيا والآخرة، فهم في الدّنيا على منهاج الاستقامة، وطريق السّلامة في جميع الاعتقادات والعمليّات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنّات»[2].

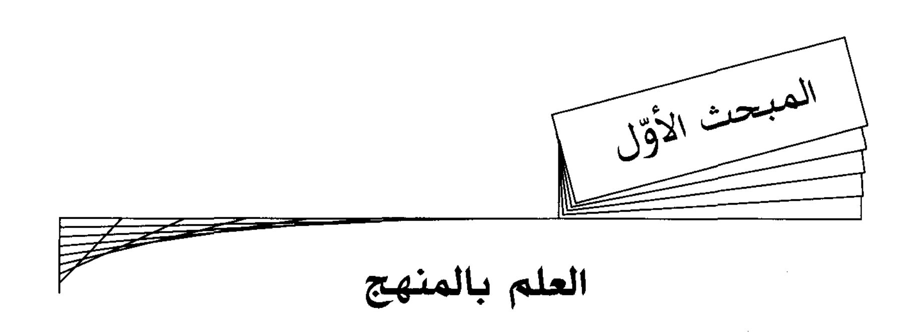
وفي هذه الآية تنبيه من الله لعباده المؤمنين أن يقوموا بما أُمروا به ليثبتوا على صراط الله، فيفوزوا بجنّة الله.

وهنالك عوامل عدّة، ووسائل متعدّدة تعين المؤمن على الثّبات على المنهج، أذكر منها في المباحث التّالية ما يناسب المقام ويتحقّق به القصد.



(١) جامع البيان: ٦/٤٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/٩٠٢.



العلم بالمنهج

إنّ هذا المنهج الّذي جعله الله تعالى طريقاً للوصول إلى مرضاته يحتاج من السّالك فيه لعلم تتّضح به رؤيته، وتتميّز به أعلامه، وتنكشف له المزالق والعقبات الّتي يمكنها أن تعترض طريقه، حتّى يتأهل للسّير فيه، ويتمكّن من الثّبات عليه.

وقد أرشدنا الله تعالى إلى هذه الوسيلة الّتي هي من أهم وسائل الثّبات على المنهج، فقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

أي قل يا محمّد لأمّتك هذا طريقي ومنهاجي الموصل إلى الله وإلى دار كرامته، أسلكه وأسير عليه، وأدعو النّاس إلى السّير عليه، وأنا على علم ويقين ومعرفة تامّة به، وكلّ من اتّبعني وسار عليه ودعا النّاس إليه كذلك[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«السّائر إلى الله والدّار الآخرة، بل كلّ سائر إلى مقصد، لا يتمّ سيره ولا يصل إلى مقصوده، إلّا بقوّتين: قوّة علميّة، وقوّة عمليّة. فالبقوّة العلميّة يبصر منازل الطّريق، ومواضع السّلوك فيقصدها سائراً فيها، ويجتنب أسباب الهلاك، ومواضع العطب، وطرق المهالك المنحرفة عن الطّريق الموصل.

---

(١) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ١٣/ ٧٩ ـ ٨٠. التّفسير الكبير: ١٨/ ٢٢٥. الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢٧٤. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٦٦ ـ ٧٦٧. روح المعاني: ١٣/ ٦٧. فتح البيان: ٦/ ٤١٥ ـ ٤١٦. محاسن التّأويل: ٩/ ٣٦١٠ ـ ٣٦١١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٦١.

فقوّته العلميّة كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظّلمة، فهو يبصر بذلك النّور ما يقع الماشي في الظّلمة في مثله من الوهاد[1] والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشّوك وغيره، ويبصر بذلك النّور أيضاً أعلام الطّريق وأدلّتها المنصوبة عليها فلا يضلّ عنها، فيكشف له النّور عن الأمرين: أعلام الطّريق ومعاطبها.

وبالقوّة العمليّة يسير حقيقة، بل السّير هو حقيقة القوّة العمليّة، فإنّ السّير هو عمل المسافر، وكذلك السّائر إلى ربّه إذا أبصر الطّريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطّرق النّاكبة عنها فقد حصل له شطر السّعادة والفلاح، وبقي عليه الشّطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه، ويشمّر مسافراً في الطّريق قاطعاً منازلها منزلة بعد منزلة»[2].

فمن أراد السّير على منهج رسول الله ﷺ والثّبات عليه فعليه أن يمتطي صهوة العلم الشّرعي المستمدّ من كتاب الله وسنّة رسوله، فهو الّذي يكشف له حقيقة هذا المنهج.

ولمّا جهلت الفرق الزّائغة عن منهج أهل السّنّة والجماعة حقيقة ذلك وقعت في التّناقض والاضطّراب، والقول بالظّنّ والحكم بالهوى. لقد جهلت نصوص الشّرع الّتي يستمدّ المنهج منها بقاءه ووجوده ودوامه، وعجزت عن فهم ما وصل إليها منها، فلجأت إلى العقول القاصرة، والآراء الفجّة، والظّنون الواهمة، فتوهّمت الحقّ باطلاً، والباطل حقّاً، والضّلال هدى، والهدى ضلالاً، فعصفت بها رياح البدع، وجرفتها أمواج التّفرّق والاختلاف عن المنبع الصّافي، والمنهج القويم.

---

(١) الوَهْدُ والوَهْدَةُ: المطمئنُّ من الأرض، والمكان المنخفض كأنّه حفرة، والوَهْدُ يكون اسماً للحفرة، والجمع أوهُدٌ ووَهْدٌ ووِهادٌ، والوَهْدةُ: الهُوَّةُ في الأرض. لسان العرب: ٣/ ٤٧٠ ـ ٤٧١. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٧٣٨. القاموس المحيط، ص:٤١٨.

(٢) طريق الهجرتين، ص:٢٨٤ ـ ٢٨٥.

قال الإمام الشّاطبي رَحِمَهُ اللهُ:

«إنّ أصل حدوث الفرق إنّما هو الجهل بمواقع السّنّة، وهو الّذي نبّه عليه الحديث بقوله: اتّخذ النّاس رؤساء جهالاً»[١].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ:

«إنّ الاختلاف سببه اشتباه الحقّ وخفاؤه، وهذا لعدم العلم، الّذي يميّز بين الحقّ والباطل»[٢].

ولذا كان العلم بمنهج السّلف وفهمه فهماً سليماً أداة فعّالة للثّبات عليه.

ويضاف إلى ذلك أيضاً العلم بالسّبل المنحرفة عن جادّة الصّواب والوقوف على مناهجها حتّى لا يقع الإنسان في اللّبس، ويختلط عليه الحقّ بالباطل، وقد قال الرّب سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥].

فمعرفة الإنسان بالمناهج المضادّة للمنهج الحقّ أمر مطلوب شرعاً، حتّى يتميّز له المنهج الحقّ عن غيره، ويظهر له حسنه وسلامته وصحّته فيعينه ذلك على البقاء عليه، ويدفعه لمواصلة السّير ومداومته[٣].

وقد قام أهل العلم من أتباع هذا المنهج ببيانه للنّاس بعد بيان الله ورسوله، وأوضحوه أتمّ الإيضاح، وألّفوا في ذلك الكتب ودوّنوا الدّواوين، ونصروه وأقاموا الحجج في نصرته، وأزالوا الشّبه عنه، وبيّنوا المناهج المنحرفة وحذّروا من سلوكها، وكشفوا عن ما بها من زيغ وضلال. وهذه كتبهم الّتي ملئت بها المكتبات الخاصّة والعامّة، وهي أعظم شاهد على ما قام به علماء أهل السّنّة من خدمات جليلة في إبراز منهج السّلف والذّب عنه.

ولا يخلو عصر من عصور الإسلام منذ أن بزغ فجره وإلى يومنا هذا من قائم لله بالحجّة، مدافع عن هذا المنهج بلسانه وبنانه حتّى وضح أمره، وانجلى شأنه، وَوُجِدَ مَنْ يحمله ويدافع عنه في كلّ عصر وقطر من أقطار هذا العالم.

---

(١) الاعتصام: ٢/ ٢٣٥. والحديث سبق تخريجه. انظر: ص:١٥٣.

(٢) إعلام الموقّعين: ١/ ٢٥٨.

(٣) وانظر تفصيلاً قيّماً للإمام ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ في معرفة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين: من كتابه الفوائد، ص:١٠٨ ـ ١١١.



الأمر بلزوم المنهج

لقد أمر المولى ﷻ في آيات كثر بلزوم صراطه المستقيم، وأوجب اتّباعه على الخلق أجمعين، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وقال: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣].

وبيّن ﷻ أنّ المتمسّك بوحيه، والمنصاع لأمره هو الّذي يمكنه السّير على الطّريق والهداية إليه، ومن لا فلا، وأنّ أهل العلم والحقّ عرفوا ذلك وتيقّنوا به فلزموه، فقال: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦].

وقال ﷺ في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين من بعدي، تمسّكوا بها وعضّوا عليها بالنّواجذ»[1]. وسنّته طريقه ومنهجه.

وقال في حديث النّواس بن سمعان رضي الله عنه: «يا أيّها النّاس ادخلوا إليه ـ أي الصّراط ـ ولا تعوجوا»[2].

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص: ٨١٠.

(٢) سبق تخريجه انظر: ص: ٨٣٣.

وكلّ هذه الأدلّة وغيرها الكثير آمرة بلزوم الصّراط المستقيم وهو المنهج القويم الّذي تركنا عليه رسول الله ﷺ. وشأنه أنّه يختلف عن مناهج أهل الأرض جميعاً لأنّه قائم على الاعتصام بحبل الله، والتّسليم لرسول الله ﷺ، والانقياد له ظاهراً وباطناً لأنّه الهادي إليه، والدّليل القائد للسّير عليه، والمبلّغ له عن ربّه، ولذا قال له ربّه: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فمن لزم أمر رسول الله ﷺ وحكّمه في قوله وفعله واتّبع سنّته، والتزم بشرعه فهو الّذي يبقى على هذا الصّراط ويثبت عليه.

قال الطّحاوي رحمه الله:

«ولا تثبت قدم الإسلام إلّا على ظهر التّسليم والاستسلام»[١].

وبيّن ذلك الشّارح بقوله:

«هذا من باب الاستعارة، إذا القدم الحسّي لا تثبت إلّا على ظهر شيء، أي لا يثبت إسلام من لم يسلّم لنصوص الوحيين، وينقاد إليها، ولا يعترض عليها، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه»[٢].

ولذا جاءت أقوال السّلف رحمهم الله، داعية للتّمسّك بهذا المنهج، والسّير عليه، والتزامه، وعدم الانحراف عنه، لأنّه المنهج الّذي اختاره الله للعباد، فلا يجوز لهم العدول عنه.

قال محمّد بن سيرين رحمه الله:

«الرّجل ما كان مع الأثر فهو على الطّريق»[٣].

وقال شاذ بن يحيى رحمه الله[٤]:

(١) متن العقيدة الطّحاوية للإمام أبي جعفر الطّحاوي الحنفي، طبعة: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص:١٠.

(٢) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢١٩، طبعة: المكتب الإسلامي.

(٣) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/٣٥٦.

(٤) شاذ بن يحيى الواسطي، شيخ صدوق، مقبول الحديث. ذكره الإمام أحمد بخير. =

«ليس طريق أقصر إلى الجنّة من طريق من سلك الآثار»[1].

وقال الإمام ابن بطّة رحمه الله:

«فالزموا رحمكم الله الطّريق الأقصد، والسّبيل الأرشد، والمنهاج الأعظم من معالم دينكم، وشرائع توحيدكم، الّتي اجتمع عليها المختلفون، واعتدل عليها المعترفون: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وترك الدّخول في الضيّق الّذي لم نخلق له»[2].

وقال الإمام محمّد بن الحسين الآجرّي رحمه الله:

«فيما ذكرت في هذا الجزء من التّمسّك بشريعة الحقّ والاستقامة على ما ندب الله عز وجل إليه أمّة محمّد ﷺ، وندبهم إليه الرّسول ﷺ: ما إذا تدبّره العاقل علم أنّه لزمه التّمسّك بكتاب الله عز وجل، وسنّة رسوله ﷺ، وسنّة الخلفاء الرّاشدين، وجميع الصّحابة رضي الله عنهم، وجميع من تبعهم بإحسان، رحمهم الله، وأئمّة المسلمين، وترك المراء والجدل والخصومات في الدّين، ومجانبة أهل البدع، والاتّباع وترك الابتداع، وقد كفانا علم من مضى من أئمّة المسلمين الّذين لا يستوحش من ذكرهم من مذاهب أهل البدع والضّلالات»[3].

فمن التزم بنصوص الوحي، ولم يفرّق بين متواترها وآحادها قبولاً وردّاً في عقيدة أو غيرها، ولم يعارضها برأي أو عقل أو ذوق أو هوى، أو يحكّم فيها آراء الرّجال وتُرُّهات أفكارهم، واستجاب لها وانقاد لحكمها، فهو الّذي أمن سلامة السّير على المنهج، وتجنّب الزّلل والسّقوط عنه، ووُفِق في الثّبات عليه.

= وانظر: الجرح والتّعديل: ٤/٣٩٢. تهذيب الكمال: ١٢ج٣٤١. سير أعلام النّبلاء: ١٠/٤٣٤. تهذيب التّهذيب: ٤/٢٦٣. تقريب التّهذيب: ١/٢٦٣.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/٩٨.

(٢) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/٤٢١.

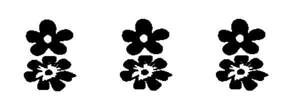
(٣) الشّريعة، ص: ٦٣.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

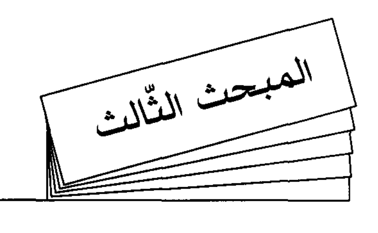
«ومدار السّعادة الدّنيويّة والأخرويّة على الاعتصام بالله والاعتصام بحبله، ولا نجاة إلّا لمن تمسّك بهاتين العصمتين. فأمّا الاعتصام بحبله: فإنّه يعصم من الضّلالة. والاعتصام به: يعصم من الهلكة.

فإنّ السّائر إلى الله كالسّائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج إلى هداية الطّريق، والسّلامة فيها، فلا يصل إلى مقصده إلّا بعد حصول هذين الأمرين له. فالدّليل كفيل بعصمته من الضّلالة، وأن يهديه إلى الطّريق، والعُدّة والقوّة والسّلاح الّتي بها تحصل له السّلامة من قطّاع الطّريق وآفاتها.

فالاعتصام بحبل الله: يوجب له الهداية. واتّباع الدّليل والاعتصام بالله يوجب له القوّة والعدّة والسّلاح والمادّة الّتي يستلهم بها في طريقه»[1].



(١) مدارج السّالكين: ١/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.



الحذر من العدول عن المنهج

لقد حذّر الله أيّما تحذير، وهدّد أيّما تهديد، وتوعّد وأنذر من خالف طريق رسول الله ﷺ وسلك طريقاً غيره، واتّبع منهجاً سواه من مناهج أهل الأرض الزّائغة عن الصّراط المستقيم. فقال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

والّذي يشاقّ الرّسول ﷺ هو الّذي يأخذ له شقّاً وجانباً وصفّاً غير الصّفّ والجانب والشّقّ الّذي يأخذه النّبي ﷺ، والتّالي يتّخذ له منهجاً غير المنهج الّذي سار عليه رسول الله ﷺ، ويختار له طريقاً غير طريقه. فحينئذ يولّيه الله ما تولّى، ويورده جهنّم وساءت مصيراً[(١)].

وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

فقد أخبر الله سبحانه عن ندم هذا الظّالم الّذي فارق طريق الرّسول ﷺ وما جاء به من عند الله تعالى، وسلك طريقاً أخرى غير سبيله ﷺ، فإنّه يندم يوم القيامة حيث لا ينفعه النّدم، ويعضّ على يديه حسرة وأسفاً، وهو يقول: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨]. لأنّ فلاناً صرفه عن الهدى، وعدل به عن الصّراط

(١) وانظر معنى الآية: في تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٤٢ ـ ٨٤٣. وقد سبق كلام سيّد قطب رحمه الله عن الآية قريباً. انظر: ص:٨١٢.

المستقيم إلى طريق الضّلال، وأبعده عن مصدر الهدى وهو القرآن الكريم والذّكر الحكيم[(١)].

وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

وهذا شأن أهل الضّلال والبدع الّذين ابتعدوا عن المنهج القويم والصّراط المستقيم، وصدّوا غيرهم عن سبيل الله، ويتقدّمهم السّادة والكبراء منهم الّذين استعبدوا النّاس لأهوائهم ومصالحهم وغاياتهم الحابطة، وأهدافهم الرّخيصة، والّذين سعوا جادّين لتشيين سبيل الله وتهجينها، لتصير معوجّة منحرفة غير مستقيمة، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأعراف: ٤٥]. وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود: ١٩]. فينحرف النّاس عنها، وينقادون لهؤلاء الضّالين الزّائغين عن الهدى، المنحرفين عن الحقّ.

فهم زاهدون فيها مزهّدون لغيرهم، مبتعدون عنها صادّون لسواهم، همّهم أهدافهم وشهواتهم وإن كان ذلك على حساب منهج الله وسبيل رسول الله ﷺ.

وقد ضجّ العالم الإسلامي اليوم كما ضجّ من قبل بهذه النّوعيّة من البشر الّذين قعدوا على طريق الحقّ ليصرفوا النّاس عنه، كما قعد متبوعهم اللّعين من قبل عليه، وتحدّى ربّ العزّة في إبعاد عباده عن صراطه المستقيم، وذلك عندما قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

فكان جواب الرّبّ ﷻ: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨].

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/٥٠٦ ـ ٥٠٧. وانظر: زبدة التّفسير من فتح القدير، ص: ٤٧٣. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٣٠.

وهذا شأن من صدّ عن سبيل الله، وأراد انحرافه واعوجاجه، وصرف النّاس عنه.

وقد ذكر الإمام البربهاري رَحِمَهُ اللهُ أنّ المنحرفين عن صراط الله على نوعين فقال:

«واعلم أنّ الخروج عن الطّريق على وجهين: أمّا أحدهما: فرجل قد زلّ عن الطّريق وهو لا يريد إلّا الخير، فهو لا يقتدى بزَلَلِه، فإنّه هالك. ورجل عاند الحقّ، وخالف من كان قبله من المتّقين، فهو ضالّ مضلّ، شيطان في هذه الأمّة، حقيق على من عرفه أن يحذّر النّاس منه، ويبيّن لهم قصّته، لئلا يقع في بدعته أحد فيهلك»[1].

والنّوع الثّاني هم الّذين صرفوا هذه الأمّة ـ إلّا من رحم الله ـ عن منهج الله بما زيّنوه من مناهج بشريّة تحادّ وتضادّ المنهج الحقّ، فزادوا الأمّة ضياعاً وتفلّتاً وانحرافاً، فتفرّقت شيعاً وأحزاباً، وذهب ريحها، ودبّ إليها الفشل والهوان والذّل، وتلك عاقبة الخروج عن منهج الله تعالى.

بل سلكت الأمّة بذلك مسلك اليهود والنّصارى ـ إلّا من هدى الله ـ الّذين حذّرنا رسول الله ﷺ من مسلكهم حيث قال: «لتتّبعنّ سَنَن[2] من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتّى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنّصارى: قال: «فمن»؟[3].

---

(١) طبقات الحنابلة: ٢/١٩، وهو في كتاب شرح السّنة لأبي محمّد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، تحقيق محمّد بن سعيد القحطاني، طبعة: دار ابن القيّم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، الدّمام، ص:٢٣. وبالنّص زيادة طفيفة.

(٢) السّنن: الطّريقة والسّيرة. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/٤٠٩.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/٣٦)، باب ما ذكره عن بني إسرائيل: (٥٠/٥١)، برقم: (٣٤٥٦)، ص:٧٣٣، وبلفظ مقارب في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/٧١)، باب قول النّبي ﷺ: «لتتّبعنّ سنن من كان قبلكم»: (١٤/١٥)، برقم: (٧٣٢٠)، ص:١٥٣٩، عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٤٧)، باب اتّباع سنن اليهود والنّصارى: (٣)، برقم: (٢٦٦٩)، ٤/٢٠٥٤.

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«كان السّلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصّراط المستقيم: ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العبّاد ففيه شبه من النّصارى، كما يرى في أحوال منحرفة أهل العلم، من تحريف الكلم عن مواضعه، وقسوة القلوب، والبخل بالعلم، والكبر، وأمر النّاس بالبر ونسيان أنفسهم، وغير ذلك، وكما يرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلوّ في الأنبياء والصّالحين، والابتداع في العبادات من الرّهبانيّة والصور الأصوات»[١].

وقد طغت هذه المناهج الباطلة وكثر أربابها وأتباعها والدّعاة إليها، وقام عليها منظّرون، ورؤوس جهال بشرع الله، واقتطع كلّ منهم فئة من الأمّة يبثّ فيها آراءه وأفكاره وتُرُّهاته وبدعه، وكلّ فئة تناهض الأخرى، وتشاقّها، حتّى التبس الحقّ بالباطل أمام كثير من طلّاب الحقّ، وأوعر الطّريق إلى معرفة المنهج الصّحيح، إلّا من وفّق الله وهدى إلى منهج السّلف الصّالح، وقليل أولئك.

وهنالك أمور تعارض الأمر بلزوم المنهج، وتؤدّي إلى العدول عنه، وتصرف السّائر عن الثّبات عليه. أورد أهمّها في المطالب الآتية:

المطلب الأوّل

اتّباع الهوى

الهوى هو ميل النّفس إلى الشّيء، أو ميل الطّبع إلى ما يلائمه. ولمّا كان الضّرر منه غالباً لم يذكره الله في كتابه إلّا ذمّة[٢].

فقال سبحانه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

وقال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٣ ـ ٤٤].

---

(١) مجموع الفتاوى: ١/ ٦٥.

(٢) انظر: روضة المحبّين، ص: ٤٦٩.

وقــــال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

وبيّن سبحانه أنّ الهوى يناقض الاستجابة لأمر الله ورسوله والتّسليم لهما. فـقـال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

بل اتّباع الهوى من أسباب الضّلال والانحراف عن الحقّ، ولذا نزّه الله رسوله ﷺ عنه فقال: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ١ ـ ٤].

فنزّهه عن الضّلال والغواية اللّذين هما الجهل والظّلم، فالضّال هو الّذي لا يعلم الحقّ، والغاوي الّذي يتّبع هواه، وأخبر أنّه ما ينطق عن هوى النّفس، بل هو وحي أوحاه الله إليه(١).

وبيّن سبحانه أنّ الهوى يضلّ عن الصّراط المستقيم، ويصرف صاحبه عن المنهج القويم، فقال جلّ وعلا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص: ٢٦](٢).

وقال لرسوله ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨ ـ ١٩].

يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يقول تعالى ذكره لنبيّه محمّد ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ﴾ يا محمّد من بعد الّذي آتينا بني إسرائيل الّذين وصفت لك صفتهم ﴿عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ يقول: على طريقة وسنّة ومنهاج من أمرنا الّذي أمرنا به من قبلك من رسلنا ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾،

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٣٨٤.

(٢) وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ٢٣/ ١٥١ ـ ١٥٢، طبعة: دار الفكر. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٥٨.

يقول: فاتّبع تلك الشّريعة الّتي جعلناها لك ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول: ولا تتّبع ما دعاك إليه الجاهلون بالله الّذين لا يعرفون الحقّ من الباطل، فتعمل به، فتهلك إن عملت به»[١].

فاتّباع الهوى هو أصل الزّيغ عن الصّراط المستقيم[٢]، لأنّ صاحب الهوى لا ينظر إلى الدّليل نظر المستبصر به، المفتقر إليه كي يسير على نوره، ويهتدي بهداه، وينقاد إليه، وإنّما يحكّم هواه أولاً ثمّ يلجأ إلى الأدلّة ليؤيّد بها ما حكم به هواه، وهذا أصل ضلال الفرق الّتي خالفت منهج أهل السّنّة والجماعة، وشطّت عنه.

قال الشّاطبي رحمه الله:

«سُمّي أهل البدع أهل الأهواء لأنّهم اتّبعوا أهواءهم فلم يأخذوا الأدلّة الشّرعيّة مأخذ الافتقار إليها، والتّعويل عليها، حتّى يصدروا عنها، بل قدّموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثمّ جعلوا الأدلّة الشّرعيّة منظوراً فيها من وراء ذلك»[٣].

وهؤلاء هم الّذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله: «وإنّه سيخرج في أمّتي أقوام تَجارَى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلّا دخله»[٤].

فقد تمكّنت الأهواء في قلوبهم كما يتمكّن داء الكلب من صاحبه، فلا ينفع فيه الدّواء حتّى صرفتهم عن منهج السّلف الصّالح، وألقت بهم في مصافّ البدع والضّلالات فتفرّقوا شذر مذر.

ومن هنا حذّر السّلف رحمهم الله من اتّباع الأهواء ومجاراتها.

---

(١) جامع البيان: ٢٥/١٤٦.
(٢) الاعتصام: ٢/١٧٩.
(٣) المرجع السّابق: ٢/١٧٦.
(٤) سبق تخريجه انظر: ص: ١١٤.
وانظر معناه في: الاعتصام: ٢/٢٦٧ ـ ٢٦٨.

قال ابن عمر رضي الله عنهما:

«ما فرحت بشيء من الإسلام أشدّ فرحاً بأنّ قلبي لم يدخله شيء من هذه الأهواء»[1].

قال رجل لابن عبّاس رضي الله عنهما:

«الحمد لله الّذي جعل هوانا على هواكم، فقال: كلّ هوى ضلالة»[2].

قال أبو معشر رحمه الله[3]:

«سألت إبراهيم[4] عن شيء من هذه الأهواء، فقال: «ما جعل الله في شيء منها مثقال ذرة من خير، ما هي إلّا نزغة من الشّيطان، عليك بالأمر الأوّل»[5].

---

(١) سنن الدّارمي، نحوه عن مجاهد موقوفاً عليه: ١/١٠٣. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة: ١/١٣٠.

(٢) الجامع لمعمر بن راشد الأزدي، تحقيق: حبيب الرّحمٰن الأعظمي، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٣هـ، بلفظ مقارب في: ١١/١٢٦. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/١٣٠.

(٣) زياد بن كليب أبو معشر الكوفي، التّميمي الحنظلي، فقيه، ثقة من الحفّاظ المتقنين، توفي سنة ١١٩هـ، وقيل: غير ذلك.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/٣٣٠. طبقات خليفة، ص:١٦١. التّاريخ الكبير: ٣/٣٦٧. معرفة الثّقات: ١/٣٧٤. الجرح والتّعديل: ٣/٥٤٢. ثقات ابن حبّان: ٦/٣٢٧. مشاهير علماء الأمصار: ١/١٦٥. تهذيب الكمال: ٩/٥٠٤. الكاشف: ١/٤١٢. تهذيب التهذيب: ٣/٣٢٩. تقريب التّهذيب: ١/٢٢٠. لسان الميزان: ٧/٢٢٢.

(٤) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران النّخعي الكوفي، مفتي الكوفة، وفقيه العراق المشهور. رأى بعض الصّحابة ولم يروِ عنهم. كان رأساً في العلم والإخلاص والورع، متوقّي قليل التّكلّف، يرسل كثيراً ويدلّس، توفي سنة ٩٥هـ، وقيل: ٩٦هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/٢٧٠. معرفة الثّقات: ١/٢٠٩. الجرح والتّعديل: ٢/١٤٤. ثقات ابن حبّان: ٤/٨. مشاهير علماء الأمصار: ١/١٠١. تذكرة الحفّاظ: ١/٧٣. الكاشف: ١/٢٢٧. جامع التّحصيل، ص:١٤١. التّبيين لأسماء المدلّسين، ص:٤١. تهذيب التّهذيب: ١/١٥٥. تقريب التّهذيب: ١/٩٥. طبقات المدلّسين، ص:٢٨.

(٥) الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي القاسم عبد الرّحمٰن بن إسماعيل المقدسي، =

وقال الشّعبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّما سمّيت الأهواء لأنّها تهوي بصاحبها في النّار»[1].

وقال الشّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لأن يلقى الله العبد بكلّ ذنب ما خلا الشّرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء»[2].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّ الهوى ما خالط شيئاً إلّا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضّلالة وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزّهد أخرج صاحبه إلى الرّياء ومخالفة السّنّة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظّلم وصدّه عن الحقّ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولّي بهواه ويعزل بهواه، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة. فما قارن شيئاً إلّا أفسده»[3].

بل الهوى قد يجنح بصاحبه إلى القدح في النّصوص الثّابتة عن رسول الله ﷺ، وردّها بأوهى الحجج وأضعفها، بل بغير حجّة.

كما قال البربهاري رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وإذا سمعت الرّجل يطعن على الآثار، أو يردّ الآثار، أو يريد غير الآثار، فاتّهمه على الإسلام، ولا تشك أنّه صاحب هوى مبتدع»[4].

= المعروف بأبي شامة، تحقيق: بشير محمّد عيون، طبعة: مكتبة المؤيّد، الطّائف، مكتبة دار البيان، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م، ص:١٧.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ١٣٠.

(٢) سنن البيهقي، باب ما تردّ به شهادة أهل الأهواء: ١٠/ ٢٠٦.

(٣) روضة المحبّين، ص:٤٧٤، طبعة: دار الكتب العلمية، وقد أفاض رَحِمَهُ اللَّهُ في ذكر أوجه مضار الهوى والتّخلّص منها حتّى أوصلها إلى خمسين وجهاً، وذلك من ص:٤٧١ إلى ٤٨٦ من الكتاب نفسه.

(٤) طبقات الحنابلة: ٢/ ٣٦، وهو في كتاب شرح السنة، ص:٥١.

بل قد يلجأ إلى الأحاديث الضّعيفة والواهية والمكذوبة ليؤيّد بها هواه[1].

وامرؤ هذا شأنه أنّى له الثّبات على منهج رسول الله ﷺ؟ بل هو مفارق له، مخالف محادّ، لا يمكن لقدمه أن تستقر على طريق ارتضاه الله للبشريّة حيث يتحقّق للسائر فيه النّجاة والسّعادة والفوز السّلامة.

المطلب الثّاني

تحكيم العقل والرّأي في نصوص الوحي

العقل صفة قائمة بنفس الإنسان الّتي تعقل، وأمّا من البدن فهو متعلّق بالقلب لقول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦][2].

وهو شرط في معرفة العلوم، وصلاح الأعمال، وبه يكمل الدّين والعمل، وإن كان لا يستقل بذلك، لأنّه غريزة في النّفس وقوّة فيها كقوّة البصر، إذا اتّصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتّصل به نور الشّمس والنّار، وإذا انفرد لم يبصر الأمور الّتي يعجز وحده عن إدراكها، وإن أبعد بالكليّة كانت الأقوال والأفعال أموراً حيوانيّة[3].

---

(١) انظر: الاعتصام: ١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٩/ ٣٠٣.

(٣) انظر: المرجع السّابق: ٣/ ٣٣٨ ـ ٣٣٩.

قال سيّد قطب رحمه الله: «لو كان الله سبحانه ـ وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلّها ـ يعلم أنّ العقل البشري، الّذي وهبه للإنسان، هو حسب هذا الإنسان في بلوغ الهدى لنفسه والمصلحة لحياته في دنياه وآخرته، لوكله إلى هذا العقل وحده، يبحث عن دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق، ويرسم لنفسه كذلك المنهج الّذي تقوم عليه حياته، فتستقيم على الحقّ والصّواب، ولما أرسل إليه الرّسل على مدى التّاريخ، ولما جعل حجّته على عباده هي رسالة الرّسل إليهم، وتبليغهم عن ربّهم، ولما جعل حجّة النّاس عنده سبحانه هي عدم مجيء الرّسل إليهم: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النّساء: ١٦٥]. ولكن لمّا علم الله سبحانه أنّ العقل الّذي آتاه للإنسان=

والإسلام اهتمّ بالعقل وجعله مناط[1] التّكليف، فإذا فقد ارتفع التّكليف وعدّ فاقده كالبهيمة[2].

بل جعله أحد الضّروريات الخمس الّتي أمر الشّارع بحفظها ورعايتها لأنّ مصالح الدّنيا والآخرة مبنيّة على المحافظة عليها[3].

بل كلّ ما في الشّريعة فهو موافق للعقل، والمعقول الصّحيح دائر مع أخبار الشّريعة وجوداً وعدماً، فلم يخبر الله ورسوله بما يناقض صريح العقل[4].

والعقل المذموم هنا الّذي ينصبّ عليه الحديث والّذي يكون الاعتماد عليه مزلقاً عن الصّراط المستقيم، ويؤدّي إلى عدم ثبات صاحبه على المنهج السّوي، هو ذاك العقل الّذي أطلق له صاحبه العنان وتفلّت عن قيود الشّرع، وجعل له سلطاناً على نصوص الوحي يجول فيها، فيقبل ما شاء ويردّ ما شاء، ويدّعي معارضته لما شاء منها، ويقدّم ما حكم به على حكمها، ما فعل أهل

= أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى بغير توجيه من الرّسالة وعون وضبط، وقاصرة كذلك عن رسم منهج للحياة الإنسانيّة يحقّق المصلحة الصّحيحة لهذه الحياة، وينجي صاحبه من سوء المآل في الدّنيا والآخرة، لمّا علم الله سبحانه هذا شاءت حكمته وشاءت رحمته أن يبعث للنّاس بالرّسل، وألّا يؤاخذ النّاس إلّا بعد الرّسالة والتّبليغ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]». في ظلال القرآن: ٢/ ٨٠٦.

(١) ناطَ الشّيءَ يَنُوطُه نَوْطاً: عَلَّقه. لسان العرب: ٧/ ٤١٨.
والمراد بالمناط عند الأصوليين: هو علّة الحكم أو سببه المتعلّق به. وهو على ثلاثة أضرب: تحقيق المناط، وتنقيحه، وتخريجه. انظر: روضة النّاظر: ١/ ٢٧٦. وانظر: الإحكام للآمدي: ٣/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦.
قال ابن دقيق العيد رحمه الله ـ فيما نقله الشّوكاني رحمه الله عنه ـ: «وتعبيرهم عن العلّة بالمناط من باب المجاز اللّغوي لأنّ الحكم لمّا علّق بها كان كالشّيء المحسوس الّذي تعلّق بغيره، فهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، وصار ذلك في اصطلاح الفقهاء بحيث لا يفهم عند الإطلاق غيره». إرشاد الفحول، ص: ٣٧٥.

(٢) انظر: الموافقات: ٣/ ١٣.

(٣) انظر: المرجع السّابق: ٢/ ٨. والضّروريات الخمس هي: الدّين والنّفس والعقل والنّسل والمال.

(٤) انظر: إعلام الموقّعين: ٢/ ٧١.

الكلام والفلسفة والمعارضون للشّرع بعقولهم من طوائف المبتدعة.

فهؤلاء عظّموا عقولهم أيّما تعظيم، وكرّموها أعظم تكريم، ورفعوا قدرها فوق نصوص الوحي، بل لا يقبلون منها إلّا ما وافق عقولهم، وما خالفها ردّوه وقدحوا فيه[1]. وكان ذلك من أعظم الأسباب الّتي حرفتهم عن الصّراط المستقيم وعن منهج أهل السّنّة والجماعة، وفارقت بهم الثّبات عليه.

لأنّ طريق أهل السّنّة أن لا يعدلوا عن النّص الصحيح، ولا يعارضوه بمعقول ولا قول فلان[2].

والحق إنّما يدور مع نصوص الوحي حيث دارت، فلا يحقّ لعقول البشر القاصرة المتفاوتة المتباينة أن تُحَكَّم عليها، ولا أن تدّعي معارضتها.

قال الشّاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«لا يجعل العقل حاكماً بإطلاق، وقد ثبت عليه حاكم بإطلاق وهو الشّرع، بل الواجب عليه أن يقدّم ما حقّه التّقديم وهو الشّرع، ويؤخّر ما حقّه التّأخير، وهو نظر العقل، لأنّه لا يصح تقديم النّاقص حاكماً على الكامل، لأنّه خلاف المعقول والمنقول، بل ضدّ القضية هو الموافق للأدلّة، فلا معدل عنه، ولذلك قال: اجعل الشّرع في يمينك، والعقل في يسارك، تنبيهاً على تقدّم الشّرع على العقل»[3].

ولا يمكن أبداً أن يتعارض نص صحيح وعقل سليم، بل متى ما وجد ذلك فإمّا أن يكون النّص غير صحيح أو أن يكون العقل غير سليم.

---

(١) انظر: الاعتصام: ١/ ٢٣١ـ ٢٣٢.
ولإثبات هذه الحقائق انظر: أساس التّقديس في علم الكلام لفخر الدّين أبي عبد الله محمّد بن عمر بن الحسين الرّازي، طبعة: مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، ١٤٥٤هـ، ص: ١٧٢ ـ ١٧٣، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبار، طبعة: الدّار التّونسيّة للنّشر، ص: ١٣٩. المحيط بالتّكليف للقاضي عبد الجبار، جمع الحسن بن أحمد بن متويه، تحقيق: عمر السّيد عزمي، مراجعة: الدّكتور أحمد فؤاد الأهواني، طبعة: الدّار المصرية للتأليف والتّرجمة، ص: ٣١ ـ ٣٢، ٢١٣.

(٢) شرح العقيدة الطّحاوية، ص: ٣٩٩، طبعة: المكتب الإسلامي.

(٣) الاعتصام: ٢/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ما علم بصريح العقل لا يتصوّر أن يعارضه الشّرع ألبتّة، بل المنقول الصّحيح لا يعارضه معقول صريح قط... وقد تأمّلت ذلك في عامّة ما تنازع النّاس فيه، فوجدت ما خالف النّصوص الصّحيحة الصّريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموافق للشّرع... ووجدت ما يعلم بصريح العقل لم يخالفه سمع قطّ، بل السّمع الّذي يقال إنّه يخالفه: إمّا حديث موضوع، أو دلالة ضعيفة، فلا يصلح أن يكون دليلاً لو تجرّد عن معارضة العقل الصّريح، فكيف إذا خالفه صريح المعقول: ونحن نعلم أن الرّسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته»[1].

بل إذا انقدح في ذهن المرء أن عقله يخالف نصّاً ثابتاً فعليه أن يتشبّث بالنّص ولا يلتفت إلى ما عارضه، لأنّ ذلك من تزيين الشّيطان وأباطيله.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فإذا تعارض النّقل وهذه العقول أخذ بالنّقل الصّريح ورمي بهذه العقول تحت الأقدام، وحطّت حيث حطّها الله وحطّ أصحابها»[2].

لأنّ الواجب كمال التّسليم للرّسول ﷺ والانقياد لأمره، وتلقّي خبره بالقبول والتّصديق، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً، أو نحمّله شبهة أو شكّاً، أو نقدّم عليه آراء الرّجال وزبالة أذهانهم. فنوحّده بالتّحكيم والتّسليم والانقياد والإذعان، كما نوحّد المُرْسِل بالعبادة والخضوع والذّل والإنابة، والتّوكل[3].

وهكذا كان شأن صحابة رسول الله ﷺ، فإنّهم تلقّوا الوحي من رسول الله ﷺ، ولم يعارضوه بعقولهم وآرائهم، بل استسلموا لأحكامه وصدّقوا بأخباره، لعلمهم أنّ العقل لا يجب أن يتقدّم بين يدي الشّرع، فإنّه من التّقدّم بين يدي الله ورسوله، بل يكون ملبّياً من وراء وراء.

---

(١) درء تعارض العقل والنّقل: ١/١٤٧. (٢) الصّواعق المرسلة: ٢/ ٧٩١.

(٣) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢١٧، طبعة: المكتب الإسلامي.

هذا مذهبهم الّذي دأبوا عليه، وطريقهم الّذي سلكوه فوصلوا به إلى الجنّة، ومنهجهم الّذي ثبتوا عليه فنالوا به سعادة الدّنيا والآخرة. ولم ينقل عن أحد منهم أنّه عارض نصّاً بعقله أو ردّ حديثاً برأيه، بل النّصوص عندهم معظّمة، وهي أجلّ في نفوسهم من أن تردّ بمجازفات العقول[1]. ومن سار على نهجهم وسلك مسلكهم ثبت كما ثبتوا، ونجا كما نجوا، وأفلح كما أفلحوا.

* هذا عن العقل، وأمّا الرّأي فله إطلاقات عدّة. والمراد منها هنا ما يراه القلب بعد فكر وتأمّل وطلب لمعرفة وجه الصّواب ممّا تتعارض فيه الأمارات.

وهو ثلاثة أقسام: رأي باطل، ورأي صحيح، ورأي هو موضع اشتباه. وقد استعمل السّلف رحمهم الله الرّأي الصّحيح وعملوا به، وسوّغوا القول به، وذمّوا الباطل، ومنعوا من الفتيا والقضاء به، وأطلقوا ألسنتهم بذمّه وذمّ أهله. وأمّا القسم الثّالث: فقد سوّغوا العمل والفتيا والقضاء به عند الاضطرار إليه حيث لا يوجد منه بدّ، ولم يلزموا أحداً العمل به، ولم يحرّموا مخالفته، بل خيّروا بين قبوله وردّه، فهو بمنزلة ما بيح للمضطّر من الطّعام والشّراب الّذي حرم عند عدم الضّرورة.

والرّأي الباطل على أنواع:

أحدها: الرّأي المخالف للنّصّ.

الثّاني: الكلام في الدّين بالخرص والظّنّ مع التّفريط والتّقصير في معرفة النّصوص وفهمها واستنباط الأحكام منها.

الثّالث: الرّأي المتضمّن تعطيل أسماء الرّب وصفاته وأفعاله بالمقاييس الباطلة الّتي وصفها أهل البدع والضّلال.

---

(١) انظر: الاعتصام: ٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٦. وانظر: مختصر الصّواعق المرسلة في الرّد على الجهمية والمعطّلة. اختصره محمّد بن موسى الموصلي، طبعة: دار النّدوة الجديدة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، ص:١٤٣.

الرّابع: الرّأي الّذي أحدثت به البدع، وغيّرت به السّنن، وعمّ به البلاء،
وهذه الأنواع الأربعة من الرّأي الّذي اتّفق سلف الأمّة وأئمّتها على ذمّه وإخراجه من الدّين[1].

قال البخاري رَحِمَهُ اللهُ:

«باب ما يذكر من ذمّ الرّأي وتكلّف القياس[2]. ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ لا تقل ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. ثمّ أورد حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما حيث قال: «سمعتُ النّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ الله لا ينزع العلمَ بعد أنْ أعطاهموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم فيبقى ناسٌ جُهَّالٌ يُسْتَفْتُون فَيُفْتُون برأيهم فَيُضِلُّون ويَضِلُّون»[3].

ثمّ روى بسنده إلى سهل بن حُنَيْف رضي الله عنه أنّه قال: «يا أيّها النّاس اتّهموا رأيكم على دينكم، لقد رأيتني يوم أبي جندل[4] ولو أستطيع أن أردّ أمر

---

(١) انظر: إعلام الموقّعين: ١/٦٦ ـ ٦٩.

(٢) القياس في اللّغة: هو ردّ الشيء إلى نظيره، وهو نوعان: عقلي وشرعي.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «القياس عند أصحابنا والجمهور ينقسم إلى: عقلي وهو ما يكتفى فيه بالعقل. وإلى شرعي وهو ما لا بدّ فيه من أصل معلوم بالشّرع». مجموع الفتاوى: ٩/٢٥٩.
فالقياس العقلي هو الّذي يسمّونه بالمنطقي وهو: قول مؤلّف من أقوال إذا وضعت لزم عنها بذاتها قول آخر غيرها اضطّراراً. انظر: التّعريفات، ص:٩٦. المعجم الفلسفي للدّكتور جميل صليبا، طبعة: دار الكتاب اللّبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٢م، ٢/٢٠٧ ـ ٢١١.
وفي الشّرع: حمل معلوم على معلوم في إثبات حكم لهما أو نفيه عنهما بأمر جامع بينهما من إثبات حكم أو صفة، أو نفيهما عنهما. المحصول: ٥/٩. وانظر: المنخول: ١/٣٢٤. الإحكام للآمدي: ٣/٢٠٥.
وقال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما». روضة النّاظر: ٢٧٥.
وقال الشّوكاني رَحِمَهُ اللهُ: «وأحسن ما يقال في حدّه: استخراج مثل حكم المذكور لما لم يذكر بجامع بينهما». إرشاد الفحول، ص:٣٣٨. وهذه التّعريفات كلّها قريبة من بعضها.

(٣) سبق تخريجه انظر: ص:١٥٣.

(٤) يوم أبي جندل ـ اسمه العاص بن سهيل بن عمرو ـ أراد به يوم الحديبية، وإنّما نسبه=

رسول الله ﷺ لرددّته....» الأثر[1].

نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن ابن بطّال رحمه الله أنّه قال:

«إنّ نصّ الآية ذمّ القول بغير علم، فخصّ به من تكلّم برأي مجرّد عن استناد إلى أصل، ومعنى الحديث: ذمّ من أفتى مع الجهل. ولذلك وصفهم بالضّلال والإضلال وإلّا فقد مدح من استنبط من الأصل لقوله: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فالرّأي إذا كان مستنداً إلى أصل من الكتاب أو السّنّة أو الإجماع فهو المحمود، وإذا كان لا يستند إلى شيء منها فهو المذموم... وحديث سهل بن حنيف... وإن كان يدلّ على ذمّ الرّأي لكنّه مخصوص بما إذا كان معارضاً للنّصّ، فكأنّه قال: اتّهموا الرّأي إذا خالف السّنّة»[2].

والرّأي المذموم هو الّذي يمنع من الثّبات على المنهج لأنه يعارض

= لأبي جندل لأنّه لم يكن فيه على المسلمين أشدّ من قصّته. فتح الباري: ٦/ ٢٨١. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ١٢/ ١٤٢. وانظر: قصّته في السّيرة النّبويّة لابن هشام: ٣/ ٢٣٧.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب ما يذكر من ذمّ الرّأي وتكلّف القياس: (٧/ ٨)، برقم: (٧٣٠٨)، ص:١٥٣٦، وبلفظ مقارب في: كتاب الجزية والموادعة: (٥٨/ ٣٤)، باب: (١٨)، برقم: (٣١٨٢)، ص:٦٧٢ ـ ٦٧٣، وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب غزوة الحديبية: (٣٥/ ٣٦)، برقم: (٤١٨٩)، ص:٨٧٦، وبمعناه في: كتاب الجزية والموادعة: (٥٨/ ٣٤)، باب: (١٨)، برقم: (٣١٨١)، ص:٦٧٢، وفي كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]: (٥)، برقم: (٤٨٤٤)، ص:١٠٥٢.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب وبمعناه في: كتاب الجهاد والسّير: (٣٢)، باب صلح الحديبية: (٣٤)، برقم: (١٧٨٥)، ٣/ ١٤١١ ـ ١٤١٣.

قال ابن القيّم رحمه الله: «واتّهام الصّحابة لآرائهم كثير مشهور، وهم أبرّ الأمّة قلوباً، وأعمقها علماً، وأبعدها من الشّيطان، فكانوا أتبع الأمّة للسّنّة، وأشدّهم اتّهاماً لآرائهم، وهؤلاء ضدّ ذلك». إغاثة اللّهفان: ١/ ١٢٤. ويعني بهؤلاء، طوائف المبتدعة وفرق الضّلال ممّن حاد عن منهج الصّحابة رضي الله عنهم.

(٢) فتح الباري: ١٥/ ٢٢٠.

نصوص الوحي الّتي هي غذاء السّير على المنهج والثّبات عليه، ولذا كثر تحذير السّلف منه، وصاحوا على من قال به من كلّ جانب، وبدّعوه وضلّلوه.

قال عمر بن الخطاب ﷺ:

«إيّاكم وأصحاب الرّأي فإنّهم أعداء السّنن، أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها، فقالوا بالرّأي فضلّوا وأضلّوا»[1].

وقال علي بن أبي طالب ﷺ:

«لو كان الدّين بالرّأي لكان أسفل الخفّ أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفّيه»[2].

وقال ابن مسعود ﷺ:

«إيّاكم وأرأيت وأرأيت، فإنّما هلك من كان قبلكم بأرأيت وأرأيت، ولا تقيسوا شيئاً بشيء فتزلّ قدم بعد ثبوتها، وإذا سئل أحدكم عمّا لا يعلم فليقل: لا أعلم فإنّه ثلث العلم»[3].

وقال الحسن البصري رحمه الله:

«إنّما هلك من كان قبلكم حين تشعّبت بهم السّبل، وحادوا عن الطّريق،

---

(١) سنن الدّارقطني: كتاب النّوادر: ٤/١٤٦. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/١٢٣. إعلام الموقّعين: ١/٥٥ وذكر عدّة روايات عنه ﷺ في ذلك ثمّ قال: «وأسانيد هذه الآثار عن عمر في غاية الصّحة».

(٢) سنن أبي داود: كتاب الطّهارة: (١)، باب كيف المسح: (٦٣)، برقم: (١٦٢، ١٦٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٢.

وانظر: سنن الدّارمي، باب المسح على النّعلين: ١/١٩٥. سنن البيهقي، باب الاقتصار بالمسح على ظاهر الخفّين: ١/٢٩٢. سنن الدّارقطني، باب الرّخصة في المسح على الخفّين: ١/١٩٩. مسند أحمد: ١/٩٥، ١١٤، ١٢٤، ١٤٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٢/١٠٤، ١٧٩، ٢١٩ ـ ٢٢٠، ٣١١، برقم: (٧٣٧، ٩١٧، ١٠١٣، ١٢٦٣): ١/١٩٩، ٢٠٤. مسند أبي يعلى: ١/٢٨٧، ٤٥٥. قال: المحقّق: «إسناده صحيح».

(٣) معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ٩/١٠٥. وانظر: إعلام الموقّعين: ١/٥٧.

فتركوا الآثار وقالوا في الدّين برأيهم فضلّوا وأضلّوا»[1].

وقال الأوزاعي رحمه الله[2]:

«عليك بآثار من سلف وإن رفضك النّاس، وإيّاك وآراء الرّجال وإن زَخْرَفُوا لك القول[3]»[4].

وذكر اللّالكائي رحمه الله أنّ فتى من أصحاب الحديث أنشد في مجلس أبي زرعة الرّازي[5] رحمه الله هذه الأبيات فاستحسنها وكتبت عنه:

دين النّبي محمّد أخباره ... نِعم المطيّة للفتى آثاره
لا تعدلنّ عن الحديث وأهله ... فالرّأي ليل والحديث نهاره
ولربّما غلط الفتى أثر الهدى ... والشّمس بازغة لها أنواره[6]

---

(١) الاعتصام: ٢/ ٣٣٤. وقد نسبه ابن عبد البرّ إلى الحسن بن واصل. ونقله ابن القيّم عنه. إعلام الموقّعين: ١/ ٧٨.

(٢) هو عبد الرّحمٰن بن عمرو بن محمّد أبو عمرو الأوزاعي الدّمشقي، المشهور. شيخ الإسلام وإمام عصره، ومن خيار النّاس. كان أحد أئمّة الدّنيا فقهاً وعلماً وورعاً وحفظاً وفضلاً وعبادة وضبطاً مع زهادة، حجّة كثير الحديث، توفي سنة ١٥٧هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٤٨٨. طبقات خليفة، ص: ٣١٥. التّاريخ الكبير: ٥/ ٣٢٦. معرفة الثّقات: ٢/ ٨٣. الجرح والتّعديل: ٥/ ٢٦٦. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٦٢. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٨٠. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٨٧٣. تهذيب الكمال: ١٧/ ٣٠٧. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٧٨. الكاشف: ١/ ٦٣٨. جامع التّحصيل، ص: ٢٢٥. تهذيب التّهذيب: ٦/ ٢١٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٤٧. لسان الميزان: ٧/ ٢٨٣.

(٣) القول المزخرف: هو القول المُزَيَّن المُمَوَّه. انظر: الفائق: ٢/ ١٠٥. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٩٩.

(٤) الشّريعة للآجرّي، ص: ٦٧.

(٥) هو عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فرّوخ، أبو زرعة الرّازي القرشي مولاهم، الإمام الحافظ المشهور. أحد أفراد الدّهر حفظاً وذكاء وديناً وإخلاصاً وعلماً وعملاً وزهداً وورعاً. قال عنه إسحاق بن راهويه: «كلّ حديث لا يعرفه أبو زرعة فليس له أصل»، توفّي سنة ٢٦٤هـ.
وانظر: الجرح والتّعديل: ٥/ ٣٢٤. ثقات ابن حبّان: ٨/ ٤٠٧. تهذيب الكمال: ١٩/ ٨٩. تذكرة الحفّاظ: ٢/ ٥٥٧. الكاشف: ١/ ٦٨٣. تهذيب التّهذيب: ٧/ ٢٨. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٧٣.

(٦) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ١٤٩.

والآثار في ذلك والأقوال كثيرة جدّاً، وكلّها تذمّ من يعارض النّصوص بالآراء الواهية، والأقوال المخالفة الّتي تبعد صاحبها عن الطّريق المستقيم والهدي القويم.

إذ كان تقديم الرّأي على النّصّ من أعظم الأسباب الّتي أدّت إلى تفرّق الأمّة وتشتّتها، وخروج الفرق الضّالة عن منهج أهل السّنّة والجماعة.

وفي ذلك يقول ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قال بعض العلماء: ما أخرج آدم من الجنّة إلّا بتقديم الرّأي على النّصّ، وما لعن إبليس وغضب عليه إلّا بتقديم الرّأي على النّصّ، ولا هلكت أمّة من الأمم إلّا بتقديم آرائها على الوحي، ولا تفرّقت الأمّة فرقاً وكانوا شيعاً إلّا بتقديم آرائهم على النّصوص»[١].

فلا يسلم للمؤمن دينه، ولا يبقى على الجادّة، ولا يثبت على الحقّ، ولا يستقيم أمره إلّا إذا حكّم نصوص الوحي على عقله ورأيه، وأعرض عن زبالة الأذهان، ونحاتة الأفكار، والآراء المتهافتة، والخيالات المتناقضة الّتي تقذف بها العقول القاصرة والأذهان الكليلة الّتي تزخرف الباطل لتضاهي به الحقّ، وتبرز الضّلال لتعدل به الهدى، وكلّ ذلك زبد يذهب جفاء وتبقى نصوص الوحي ما بقي اللّيل والنّهار تضيء طريق من احتمى بها، وتنير قلب من تمسّك بها، وتقوّي عزمه، وتطمئن قلبه، وتشدّ عضده، وتثبّت قدمه حتّى يحطّ رحاله في جنان الله.

المطلب الثّالث

مقارفة البدع

البدع جمع بدعة وهي كلّ شيء ليس له مثال تقدّم. فيشمل لغة ما يحمد ويذمّ، ويختصّ في عرف أهل الشّرع بما يذمّ، وإن وردت في المحمود فعلى معناها اللّغوي[٢].

---

(١) مختصر الصّواعق المرسلة، ص: ٥٢٣.

(٢) فتح الباري: ١٥/ ٢٠٨.

وعرّفها الشّاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله:

«البدعة طريقة في الدّين مخترعة تضاهي الشّرعيّة، يقصد بالسّلوك عليها ما يقصد بالطّريقة الشّرعيّة»[1].

فالبدعة أمر محدث في دين الله تعالى لم يكن له مثال سابق، يقصد به صاحبه التّقرب إلى الله سبحانه، وليس له ما يسنده من نصوص الكتاب والسّنّة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فإنّ البدعة الشّرعيّة الّتي هي ضلالة هي ما فعل بغير دليل شرعي كاستحباب ما لم يحبّه الله، وإيجاب ما لم يوجبه الله، وتحريم ما لم يحرّمه الله، فلا بد مع الفعل من اعتقاد يخالف الشّريعة»[2].

وقد جاءت أدلّة الكتاب والسّنّة تحرّم البدع، وتحذّر من مقارفتها والوقوع فيها.

فقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١].

فالله سبحانه يخبر أنّ المشركين اتّخذوا من شياطين الإنس الّذين شرعوا لهم من الدّين ما لم يأذن به الله من الشّرك والبدع وتحريم ما أحلّ الله، وتحليل ما حرّم ونحو ذلك، ممّا اقتضته أهواؤهم، مع أنّ الدّين لا يكون إلّا ما شرعه الله تعالى ليدين به العباد، ويتقرّبوا به إلى الله[3].

---

(١) الاعتصام: ١/ ٢٨.

(٢) منهاج السّنّة النّبوية: ٨/ ٣٠٨

والبدعة نوعان:

نوع في الأقوال والاعتقادات، ونوع في الأفعال والعبادات. فالأوّل يقع من المنتسبين إلى العلم والنّظر، والثّاني من المنتسبين إلى العبادة والإرادة. انظر: مجموع الفتاوى: ٢٢/ ٣٠٦.

- فالأوّل: يكون باعتقاد خلاف الحقّ الّذي بعث به رسول الله ﷺ، والثّاني يكون بالتّعبّد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرّسوم المحدثة في الدّين. والنّوعان في الغالب متلازمان. انظر: مدارج السّالكين: ١/ ٢٢٢.

(٣) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٠٣، بتصرّف.

فمن ندب إلى شيء يتقرّب به إلى الله، أو أوجبه بقوله أو فعله من غير أن يشرعه الله فقد شرع من الدّين ما لم يأذن به الله، ومن اتّبعه في ذلك فقد اتّخذه شريكاً لله[1].

وقد قال سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١].

قال عدي بن حاتم رضي الله عنه للنّبي ﷺ عندما سمع هذه الآية: «إنّهم لم يعبدوهم»، فقال: «بلى إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتّبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم»[2].

ومن الأحاديث المحذّرة عن البدع:

حديث جابر رضي الله عنه وفيه: «فإنّ خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمّد، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة»[3].

وفي رواية: «وكلّ ضلالة في النّار»[4].

وحديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وفيه: «إنّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنّة الخلفاء الرّاشدين من بعدي تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنّواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور فإنّ كلّ بدعة ضلالة»[5].

وحديث عائشة رضي الله عنها: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ»،

---

(١) اقتضاء الصّراط المستقيم، ص:٢٦٨.

(٢) سبق تخريجه، انظر: ص:١٦١. وانظر معنى الآية في تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٥٤ ـ ٥٤٥.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في كتاب الجمعة: (٧)، باب تخفيف الصّلاة والخطبة: (١٣)، برقم: (٨٦٧)، ٢/ ٥٩٢.

(٤) سنن النّسائي، بلفظها في: كتاب صلاة العيدين: (١٩)، باب كيف الخطبة: (٢٢)، برقم: (١٥٧٨). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:١٨٦.
صحيح ابن خزيمة: بلفظها، برقم: (١٧٨٥)، ٣/ ١٤٣.

(٥) سبق تخريجه انظر: ص:٨١٠.

وفي رواية: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[1].

وكلّ هذه النّصوص وغيرها الكثير تدلّ على تحريم البدع في دين الله، وتحذّر منها تحذيراً بالغاً لما فيها من أضرار عظيمة، وعواقب وخيمة.

فهي تزهّد الإنسان في الأعمال المشروعة، وتوجب له فساداً في القلب ينشأ من نقص منفعة الشّريعة عنده، لأنّ القلب لا يتّسع للعوض والمعوّض عنه[2].

وهي تناقض الاعتقاد الواجب، وتنازع الرّسول فيما جاء به، وتحدث في الطّبع انحلالاً من ربقة الاتّباع، وفوات سلوك الصّراط المستقيم[3].

وهي من أعظم أسباب التّفرّق والخلاف الّذي وقع في الأمّة ولا زال، بل هي أصل وقوع الفتن في الأمّة وتفرّق وحدتها، وتشتّت شملها[4].

والمبتدع يُزَيَّنُ له عمله فيراه حسناً فيستمرئ البقاء عليه ولا ينزع عنه، وهذا سرّ قول سفيان الثّوري[5] رحمه الله:

«البدعة أحبّ إلى إبليس من المعصية، لأنّ البدعة لا يتاب منها، والمعصية يتاب منها»[6].

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص:٨٠٢.

(٢) انظر: اقتضاء الصّراط المستقيم، ص:٢١٧ ـ ٢١٨.

(٣) انظر: المرجع السّابق، ص:٢٨٩ ـ ٢٩٢.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ٢٨/١٤٣. وانظر: الاعتصام: ٢/١٩٤. بيان تلبيس الجهميّة: ٢/٣١٠.

(٥) سفيان بن سعيد بن مسروق أبو عبد الله الثّوري الكوفي، الإمام المشهور، شيخ الإسلام وسيّد الحفّاظ وأمير المؤمنين في الحديث، فقيه عابد ورع زاهد، قدوة، توفّي سنة ١٦١هـ. وانظر: طبقات خليفة، ص:١٦٨. التّاريخ الكبير: ٤/٩٢. الجرح والتّعديل: ٤/٢٢٢. ثقات ابن حبّان ٦/٤٠١. مشاهير علماء الأمصار: ١/١٦٩. تاريخ بغداد: ٩/١٥١. تهذيب الكمال: ١١/١٥٤. تذكرة الحفّاظ: ١/٢٠٣. الكاشف: ١/٤٤٩. جامع التّحصيل، ص:١٨٦. تهذيب التّهذيب: ٤/٩٩. تقريب التّهذيب: ١/٢٤٤. لسان الميزان: ٧/٢٣٣. طبقات المدلّسين، ص:٣٢.

(٦) انظر: مجموع الفتاوى: ١٠/٩. وقول سفيان رحمه الله في: مسند ابن الجعد: ١/٢٧٢. شعب الإيمان: ٧/٥٩. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/١٣٢.

لأنّ أوّل التّوبة العلم بأنّ فعله سيء ليتوب منه، أو بأنّه ترك حسناً مأموراً به أمر إيجاب، أو استحباب ليتوب ويفعله، فما دام يرى فعله حسناً وهو سيء في نفس الأمر فإنّه لا يتوب[1].

يقول ابن القيّم رحمه الله في معرض حديثه عن العقبات الّتي يظفر فيها الشّيطان بالإنسان فيورده المهالك قال:

«والظّفر به في عقبة البدعة أحبّ إليه لمناقضتها الدّين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمّنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السّنّة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السّنّة، وتولية من عزله الله ورسوله، وعزل من ولّاه الله ورسوله، واعتبار ما ردّه الله ورسوله، وردّ ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصّادق وتصديق الكاذب، ومعارضة الحقّ بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحقّ على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدّين جملة»[2].

بل قد كادت البدع أن تطمس معالم الإسلام في كثير من بقاع العالم الإسلامي، وقد وجدت هوى في نفوس الضّعفاء والرّعاع من النّاس، وذلك في غياب الوعي الدّيني الصّحيح، وتساهل ولاة الأمور في شأنها، وغضّ كثير من الدّعاة الطّرف عنها، وتهاونوا في أمرها، حتّى استفحلت، وكثر شرّها، وعظم ضررها.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«ما أتي على النّاس عام إلّا أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا فيه سنّة حتّى تحيا البدع، وتموت السّنن»[3].

وقد صدق فيما قال، فقد أميتت السّنن في كثير من بلاد الإسلام،

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٠/ ٩.   (٢) مدارج السّالكين: ١/ ٢٢٣.

(٣) معجم الطّبراني الكبير: ١٠/ ٢٦٢. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ٩٢.

وأبدلت بالبدع والضّلالات فنشأ عليها الصّغير، وهرم عليها الكبير، وتعصّب لها الجهّال، وانبرى يدافع عنها علماء الضّلال، ويؤيّدونها بالحجج الّتي هي داحضة حتّى لبّس على كثيرين، وخفي أمرها على جمّ غفير من المنتسبين إلى الإسلام.

ومن أعظم أضرارها أنّها تصرف عن سلوك الصّراط المستقيم، ومنع مَنْ قارفها عن مواصلة السّير على منهج الله، والثّبات عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وكلّما ازداد العبد في البدع اجتهاداً ازداد من الله بعداً لأنّها تخرجه عن سبيل الله، سبيل الّذين أنعم الله عليهم من النّبيين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين إلى بعض سبيل المغضوب عليهم والضّالين»[(١)].

ونقل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي علي الجوزاني[(٢)] عندما سئل: كيف الطّريق إلى الله؟ قال: أصحّ الطّرق وأعمرها وأبعدها من الشّبه اتّباع الكتاب والسّنّة قولاً وفعلاً وعقداً ونية لأنّ الله يقول: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]. فسئل: كيف طرق اتّباع السّنّة؟ قال: «بمجانبة البدع، واتّباع ما اجتمع عليه الصّدر الأوّل من علماء الإسلام وأهله، والتّباعد عن مجالس الكلام وأهله، ولزوم طريقة الاقتداء والاتّباع، بذلك أمر النّبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]»[(٣)].

ولهذا اشتدّ نكير السّلف والأئمّة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذّروا من فتنتهم أشدّ التّحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظّلم والعدوان، إذ مضرّة البدع وهدمها للدّين ومنافاتها له أشدّ[(٤)].

وأمروا بالاستقامة على الدّين، واتّباع سيّد المرسلين ﷺ.

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٩/٤٨ ـ ٤٩.
(٢) أبو علي الجوزاني: لم أقف له على ترجمته.
(٣) الاستقامة: ١/١١٠.
(٤) مدارج السّالكين: ١/٣٧٢، بتصرّف يسير.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«اتّبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وكلّ بدعة ضلالة»[1].

وقال: «إنّا نقتدي ولا نبتدي، ونتّبع ولا نبتدع، ولن نضلّ ما تمسّكنا بالأثر»[2].

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«عليك بتقوى الله والاستقامة، اتّبع ولا تبتدع»[3].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما:

«كلّ بدعة ضلالة وإن رآها النّاس حسنة»[4].

وقال أبو عمرو الأوزاعي رحمه الله:

«اصبر نفسك على السّنّة، وقف حيث وقف القوم، واسلك سبيل سلفك الصّالح، فإنّه يسعك ما وسعهم، وقل بما قالوا، وكفّ عمّا كفّوا، ولو كان هذا خيراً ما خصصتم به دون أسلافكم، فإنّهم لم يدّخر عنهم خير خبّئ لكم دونهم لفضل عندكم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ الّذين اختارهم له وبعثه فيهم، ووصفهم فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: ٢٩]»[5].

وقال البربهاري رحمه الله:

«واحذر صغار المحدثات، فإنّ صغار البدع تعود حتّى تصير كباراً،

---

(١) سنن الدّارمي، في باب كراهية أخذ الرّأي، ولم يذكر قوله: «كلّ بدعة ضلالة»: ١/ ٨٠. معجم الطّبراني الكبير: ٩/ ١٥٤. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ٨٦. الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ٣٢٨.

(٢) سنن الدّارمي، نحوه عن شريح رحمه الله، باب تغيّر الزّمان وما يحدث فيه: ١/ ٧٧. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ٨٦. إعلام الموقّعين: ٤/ ١٥٠.

(٣) سنن الدّارمي، باب من هاب الفتيا، وكره التّنطّع والتّبدّع: ١/ ٦٥. وانظر: الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ٣١٩.

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ٩٢.

(٥) إعلام الموقّعين: ٤/ ١٥٢.

وكذلك كلّ بدعة أحدثت في هذه الأمّة كان أوّلها صغيراً يشبه الحقّ، فاغتر بذلك من دخل فيها ثمّ لم يستطع المخرج منها، فعظمت، وصارت ديناً يدان به، فخالف الصّراط المستقيم فخرج من الإسلام»[1].

وقال الآجرّي رَحِمَهُ اللهُ:

«رحم الله عبداً حذر هذه الفرق، وجانب البدع، واتّبع ولم يبتدع، ولزم الأثر، وطلب الطّريق المستقيم، واستعان بمولاه الكريم»[2].

وأقوالهم كثيرة لا تحصى، وكلّها تذمّ البدع، وتكشف عن خطرها وضررها، وتأمر بسلوك الصّراط المستقيم، ومنهج السّلف الصّالح رحمهم الله، والثّبات عليه. لأنّ منهج السّلف يكمن في الاتّباع وليس الابتداع، إذ هو قائم على تجريد الاتّباع لرسول الله ﷺ، وتحكيمه في جميع أمور الدّين، والسّير على طريق أصحابه رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين. ولذا كان أهل هذا المنهج أبعد النّاس عن البدع وأكثرهم نفوراً منها.

قال أبو بكر الإسماعيلي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه اعتقاد أئمّة الحديث، تحت عنوان: وجوب لزوم مذهب أهل الحديث الفرقة النّاجية. قال:

«هذا أصل الدّين والمذهب اعتقاد أئمّة أهل الحديث الّذين لم تشنهم بدعة، ولم تلبسهم فتنة، ولم يخفّوا إلى مكروه في دين، فتمسّكوا معتصمين بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا عنه، واعلموا أنّ الله تعالى أوجب محبّته ومغفرته لمتّبعي رسوله ﷺ في كتابه، وجعلهم الفرقة النّاجية والجماعة المتّبعة»[3].

فمن رغب في الثّبات على منهجهم فعليه أن يسلك ما سلكوا، ويسير كما ساروا فيجتنب البدع، ويحذر من المحدثات، ويفارق الضّلالات، ويجانب المنكرات ليثبت كما ثبتوا، ويسلم كما سلموا فيفوز بما فازوا، ويسعد بما سعدوا.

---

(١) طبقات الحنابلة: ٢/١٨، وهو في كتاب شرح السنة، ص:٢٣، وبه زيادة طفيفة.
(٢) الشّريعة، ص:٢٥. (٣) ص:٤٠.

المطلب الرّابع

التّقليد بغير دليل

هو عبارة عن اتّباع الإنسان غيره فيما يقول أو يفعل، معتقداً للحقيقة فيه، من غير نظر وتأمّل في الدّليل، كأنّ هذا المتّبع جعل قول الغير أو فعله قلادة في عنقه، وعبارة عن قبول قول الغير بلا حجّة ولا دليل(١).

وهذا أمر مذموم، لأنّ الله سبحانه لم يشرع لأحد من الخلق أن يلتزم بقول كائن من كان، يُوجب ما يوجبه، ويُحرّم ما يحرّمه، ويبيح ما يبيحه غير رسول الله ﷺ. فهو الّذي أمر الله باتّباعه، والتزام قوله واجتناب نهيه، وتصديق خبره. وأمّا سواه فيؤخذ من قوله ويترك، ولا يجعل قوله حجّة على دين الله، إذ الحجّة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

ولذا ذمّ الله في كتابه أناساً قلّدوا آباءهم وزعماءهم وسادتهم دون حجّة ودليل، ولو كان ذلك في مخالفة الحقّ.

فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٠٤﴾ [المائدة: ١٠٤].

وبيّن سبحانه أنّ تلك عادة لم تشذ عنها أمّة من الأمم. فقال سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢ ـ ٢٣].

وقال في اتّباع، الرّؤساء والكبراء وتقليدهم: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

---

(١) التّعريفات، ص: ٩٠. وانظر: التّوقيف على مهمّات التّعاريف: ٢/ ١٩٩.

والآيات وإن كانت في شأن الكفّار إلّا أنّها دالّة على ذمّ التّقليد. ولذا احتجّ بها أهل العلم.

قال ابن القيّم رحمه الله بعد إيراده لكثير من الآيات الدّالة على ما ذكرت:

«ومثل هذا في القرآن كثير من ذمّ تقليد الآباء والرّؤساء، وقد احتجّ العلماء بهذه الآيات في إبطال التّقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأنّ التّشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنّما وقع التّشبيه بين المقلّدين بغير حجّة للمقلّد، كما لو قلّد رجلاً فكفر، وقلّد آخر فأذنب، وقلّد آخر في مسألة فأخطأ وجهها، كان كلّ واحد ملوماً على التّقليد بغير حجّة، لأنّ كلّ ذلك تقليد يشبه بعضه بعضاً وإن اختلفت الآثام فيه»[1].

وقال الشّوكاني رحمه الله:

«فهذه الآيات وغيرها ممّا ورد في معناه ناعية على المقلّدين ما هم فيه، وهي وإن كان تنزيلها في الكفّار لكنّه قد صحّ تأويلها في المقلّدين لاتّحاد العلّة، وقد تقرّر في الأصول أنّ الاعتبار بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب، وأنّ الحكم يدور مع العلّة وجوداً وعدماً»[2].

فأقوال الآباء والرّؤساء والعلماء لا تؤخذ على سبيل الإطلاق وإنّما تقيّد بالشّرع، إذ المعصوم الّذي تؤخذ أقواله على إطلاقها هو رسول الله ﷺ، ولذلك قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

فقد أمر سبحانه بطاعته وطاعة رسوله على إطلاقها، وقيّد طاعة ولاة الأمر وهم العلماء والأمراء بطاعة الله ورسوله، وهذا سرّ عدم تكرار الفعل: «أطيعوا» مع ولاة الأمر[3].

---

(١) إعلام الموقّعين: ٢/ ١٧٢.

(٢) القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتّقليد، لمحمّد بن علي الشّوكاني تحقيق: عبد الرّحمٰن عبد الخالق، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، دار القلم، الكويت، ص:٧٢.

(٣) انظر معنى الآية في: تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٨٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٤٨.

وقد جاءت أقوال أهل العلم ذامّة لكلّ من نصّب شخصاً سوى رسول الله ﷺ، يأخذ بكلّ ما قال مأخذ التّسليم من غير دليل يؤيّد ما ذهب إليه.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«ألا لا يقلّدنّ رجل رجلاً دينه، فإن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإن كان مقلّداً لا محالة فليقلّد الميّت ويترك الحي، فإنّ الحي لا تؤمن عليه الفتنة»[(1)]، وقال معاوية رضي الله عنه لابن عبّاس رضي الله عنهما: أنت على ملّة علي؟ قال: لا، ولا على ملّة عثمان، ولكن على ملّة النّبي ﷺ»[(2)].

وأقوال أهل العلم من غير الصّحابة رضي الله عنهم كثيرة لا تحصى. من ذلك:

ما قاله ابن حزم رحمه الله:

«إنّ التّقليد لا يحلّ البتّة، وإنّما التّقليد أخذ المرء قول من دون رسول الله ﷺ ممّن لم يأمرنا الله عز وجل باتّباعه قطّ، ولا يأخذ قوله، بل حرّم علينا ذلك ونهانا عنه... إنّ امرءاً لو اتّبع أحداً دون رسول الله ﷺ في قول قاله لأنّ فلاناً قاله فقط، واعتقد أنّه لو لم يقل ذلك الفلان ذلك القول لم يقل به هو أيضاً فإنّ فاعل هذا القول مقلّد مخطئ، عاصي لله تعالى ولرسوله، ظالم آثم سواء كان قد وافق قوله ذلك الحقّ الّذي قاله الله ورسوله أو خالفه، وإنّما فسق لأنّه اتّبع من لم يؤمر باتّباعه، وفعل غير ما أمره الله عز وجل أن يفعله»[(3)].

وما قاله الشّاطبي رحمه الله:

«يرى الإنسان رجلاً يحسن اعتقاده فيه فيفعل فعلاً محتملاً أن يكون مشروعاً أو غير مشروع فيقتدي به على الإطلاق، ويعتمد عليه في التّعبّد،

---

(1) سنن البيهقي، باب ما يقضي به القاضي، ويفتي به المفتي، فإنّه غير جائز له أن يقلّد أحداً من أهل دهره: ١٠/١٦٦. وانظر: ٢/١٠. معجم الطّبراني الكبير: ٩/١٥٢. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/٩٣. القول المفيد، ص:٧٣.

(2) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/٩٤.

(3) الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٤/٣٦ ـ ٣٧.

ويجعله حجّة في دين الله، فهذا هو الضّلال بعينه ما لم يثبّت بالسّؤال والبحث عن حكم الفعل ممّن هو أهل الفتوى»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

«إنّ من نصّب إماماً فأوجب طاعته مطلقاً اعتقاداً أو حالاً فقد ضلّ في ذلك، كأئمّة الضّلال الرّافضة الإماميّة[2] حيث جعلوا في كلّ وقت إماماً معصوماً تجب طاعته. فإنّه لا معصوم بعد الرّسول، ولا تجب طاعة أحد بعده في كلّ شيء»[3]. وقال:

«ولا يجب على أحد المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كلّ ما يقول: ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معيّن غير الرّسول ﷺ في كلّ ما يوجبه ويخبر به، بل كلّ أحد من النّاس يؤخذ من قوله ويترك إلّا رسول الله ﷺ»[4].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ:

«قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً[5]﴾ [التّوبة: ١٦]، ولا وليجة

---

(١) الاعتصام: ٢/ ١٨١.

(٢) الإماميّة: طائفة من الرّافضة قالوا بإمامة علي رضي الله عنه بعد النّبي ﷺ بالنّصّ الظّاهر. وكفّروا معظم الصّحابة رضي الله عنهم. وقالوا باثني عشر إماماً، دخل آخرهم السّرداب بسامرّاء، وأنّهم معصومون، وتجري على أيديهم المعجزات وخوارق العادات. وهم طوائف شتّى، ولهم كثير من العقائد والأفكار الباطلة.

وانظر: الفرق بين الفرق، ص:٣٨ ـ ٥٤. الملل والنّحل: ١/ ١٦٢ ـ ١٧٣. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص: ٥٣ ـ ٥٦. التّعريفات، ص: ٥٣. التّوقيف على مهمّات التّعاريف: ٢/ ٩١. الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص: ٢٩٩ ـ ٣٠٤.

(٣) مجموع الفتاوى: ١٩/ ٦٩. (٤) المرجع السّابق: ٢٠/ ٢٠٩.

(٥) قال الرّاغب رَحِمَهُ اللهُ: «الوليجة: كلّ ما يتّخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله، من قولهم فلان وليجة في القوم: إذا لحق بهم وليس منهم، إنساناً كان أو غيره». المفردات، ص: ٥٣٢.

فوليجة الرّجل: بِطانَتُه وخاصّته ودِخْلَتُه، وهي مأخوذة من وَلَجَ يَلِجُ وُلُوجاً ووِلجَةً إذا دخل، أي: لم يتّخذوا بينهم وبين الكافرين دَخِيلَةَ مَوَدَّةٍ. انظر: لسان العرب: ٢/ ٤٠٠.

أعظم ممّن جعل رجلاً بعينه مختاراً على كلام الله، وكلام رسوله، وكلام سائر الأمّة، يقدّمه على ذلك كلّه، ويَعْرِض كتاب الله وسنّة رسوله وإجماع الأمّة على قوله، فما وافقه منها قبله لموافقته لقوله، وما خالفه منها تلطّف في ردّه، وتطلّب له وجوه الحيل، فإن لم تكن هذه وليجة فلا ندري ما الوليجة»[1].

وما جاء تحذير هؤلاء العلماء الأجلّاء ـ وغيرهم كثير ـ عن التّقليد إلّا لما فيه من أضرار بالغة تعصف بالمسلم الّذي أقحم نفسه فيه فتبعده عن طريق الهدى، وتلقي به في مهاوي الرّدى إن لم يتداركه مولاه برحمة تأخذ بيده، وتقوده إلى الطّريق المستقيم.

فالتّقليد بدعة محدثة أوجدت بعد القرون المفضّلة، واستطاع الشّيطان ـ عليه لعائن الله ـ أن يستدرج به فئة عظيمة من الأمّة فيجرفهم عن اتّباع رسول الله ﷺ إلى اتّباع غيره من البشر، وإنزال أقوالهم منزلة الشّرع الحنيف، حيث تعظّم أقوالهم وتقدّس، ويدافع عنها، ويُبغَض لأجلها ويُحَبّ.

قال عبد الرّحمٰن عبد الخالق:

«دعوة التّقليد دعوة غير إسلاميّة، لأنّه لا نصّ عليها من كتاب أو سنّة أو قول صاحب للنّبي أو قول إمام أو قول عالم يعتدّ بعلمه، أو حتّى عقل صحيح يميّز بين الحقّ و الباطل، والنّور والظّلام»[2].

وما حدث التّقليد إلّا حين ضعف العلم، وتمسّك به الجهّال والعوام، وعمّت به البلوى على ممرّ الدّهور في الأنام[3].

والّذي تولّى أمر التّقليد هم الجهّال، وأمّا أهل العلم فلا يقلّدون، إذ التّقليد ليس علماً.

---

(١) إعلام الموقّعين: ٢/ ١٧٠.

(٢) السّلفيون والأئمّة الأربعة، لعبد الرّحمٰن عبد الخالق، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، النّاشر: الدّار السّلفيّة، الكويت مطابع دار القبس الكويت، ص:٤٩. وكون التّقليد بدعة محدثة. انظر: القول المفيد، ص:٣٩، ٤٣، ٤٥.

(٣) أبجد العلوم لصدّيق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار. طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٨م: ٣/ ١٥٩.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قال أهل العلم والنّظر: حدّ العلم التّبيين وإدراك المعلوم على ما هو به، فمن بان له الشّيء فقد علمه، قالوا: والمقلّد لا علم له، ولم يختلفوا في ذلك»[1].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلّقاً على قول ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإنّ النّاس لا يختلفون أنّ العلم هو المعرفة الحاصلة عن الدّليل، وأمّا بدون الدّليل فإنّما هو تقليد... فإنّ العلماء هم ورثة الأنبياء، فإنّ الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، وإنّما ورثّوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظّ وافر[2]، وكيف يكون من ورثة الرّسول ﷺ من يجهد ويكدح في ردّ ما جاء به إلى قول مُقَلَّده ومتبوعه، ويضيّع ساعات عمره في التّعصّب والهوى ولا يشعر بتضييعه؟ تالله إنّها فتنة عَمَّتْ فأعمت، ورمت القلوب فأصَمَّتْ، ربا عليها الصّغير، وهَرِم فيها الكبير، واتّخذ لأجلها القرآن مهجوراً، وكان ذلك بقضاء الله وقدره في الكتاب مسطوراً. ولمّا عمّت بها البليّة، وعظمت بسببها الرّزية، بحيث لا يعرف أكثر النّاس سواها، ولا يعدّون العلم إلّا إيّاها، فطالب الحقّ من مظانّه لديهم مفتون، ومُؤْثِره على ما سواه عندهم مغبون، نصبوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائل، وبغوا له الغوائل، ورموه عن قوس الجهل والبغي والعناد، وقالوا لإخوانهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]»[3].

ولمّا كان المقلّدة ليسوا من أهل العلم أغلق أمامهم باب الوحدة، واجتماع الكلمة، وتفرّقت بهم الآراء، وشتّت جمعهم المذاهب، وحلّت بهم الفرقة، وتباينت أقوالهم، واختلفت مشاربهم، واتّسع الخلاف بينهم، إذ كلّ منهم تعلّق بقول مُقَلَّده لا ينفك عنه بحال من الأحوال، وقد يكون ذلك المقلَّد

(١) جامع بيان العلم، ص:٤٤٩. وانظر: تيسير العزيز الحميد، ص:٤٨٥.
(٢) اقتباس من حديث أبي الدّرداء رضي الله عنه الّذي مرّ ذكره، ص:٤٧١.
(٣) إعلام الموقّعين: ١/ ٧ ـ ٨.

بنى قوله على حديث ضعيف لا تثبت به حجّة، أو اجتهد رأياً لا يؤيّده دليل، أو ظنّ ظنّاً لا مستند له، وقد يكون في ذلك معذوراً. ولكن ما عذر من تشبّث بقوله، وأقامه مقام المعصوم الّذي لا يخطئ، ودفع كلّ قول يخالفه ولو كان من عند المعصوم ﷺ، وهل هذا إلّا فتح لباب الشّقاق والشّتات والتّفرّق بين الأمّة الواحدة.

ورحم الله ابن القيّم حين قال:

«إنّما كثر الاختلاف وتفاقم أمره بسبب التّقليد وأهله، وهم الّذين فرّقوا الدّين وصيّروا أهله شيعاً، كلّ فرقة تنصر متبوعها، وتدعو إليه، وتذمّ من خالفها، ولا يرون العمل بقولهم حتّى كأنّهم ملّة أخرى سواهم، يَدْأَبُون ويكدحون في الرّدّ عليهم، ويقولون: كتبهم وكتبنا، وأئمّتهم وأئمّتنا، ومذهبهم ومذهبنا. هذا والنّبي واحد، والقرآن واحد، والدّين واحد، والرّب واحد. فالواجب على الجميع أن ينقادوا إلى كلمة سواء بينهم كلّهم، وأن لا يطيعوا إلّا الرّسول، ولا يجعلوا معه من يكون أقواله كنصوصه، ولا يتّخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. فلو اتّفقت كلمتهم على ذلك، وانقاد كلّ واحد منهم لمن دعاه إلى الله ورسوله، وتحاكموا كلّهم إلى السّنّة وآثار الصّحابة لقلّ الاختلاف وإن لم يعدم من الأرض. ولهذا تجد أقلّ النّاس اختلافاً أهل السّنّة والحديث، فليس على وجه الأرض طائفة أكثر اتّفاقاً وأقلّ اختلافاً منهم لمّا بنوا على هذا الأصل، وكلّما كانت الفرقة عن الحديث أبعد كان اختلافهم في أنفسهم أشدّ وأكثر، فإنّ من ردّ الحقّ مرج[1] عليه أمره، واختلط عليه والتبس عليه وجه الصّواب، فلم يدر أين يذهب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ [ق: ٥][2].

ومن هنا كان التّقليد مزلقاً من المزالق الّتي تحرف عن الصّراط

---

(١) مرج: أي اختلط، وبابه طرب. انظر: مختار الصحاح، ص: ٦٢٠. لسان العرب: ٢/ ٣٦٥.

(٢) إعلام الموقّعين: ٢/ ٢٢٦. ولمزيد بيان عن التّقليد وأنّه من أسباب الاختلاف والتّفرّق، انظر: القول المفيد، ص: ٤٥ ـ ٤٦. بين متّبع ومقلّد أعمى في فروع الفقه لعامر سعيد الزّيباري، الطّبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م، دار ابن حزم، بيروت، ص: ٧٦، ٨٧.

المستقيم، والمنهج الحقّ، لأنّه اتّباع لآراء الرّجال، وتحكيم لأقوالهم في نصوص الشّرع العاصمة من الزّلل، المبعدة من الخلاف، المؤديّة إلى الثّبات على المنهج[1].

قال الشّاطبي رحمه الله:

«ولقد زلّ بسبب الإعراض عن الدّليل والاعتماد على الرّجال أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادّة الصّحابة والتّابعين، واتّبعوا أهواءهم بغير علم فضلّوا عن سواء السّبيل»[2].

---

(١) لا يفهم من هذا الطّعن في أئمّة الإسلام وعلمائه الأجلّاء واحتقارهم وازدراء أقوالهم، وخاصّة الأئمّة الأربعة رحمهم الله.

فأهل العلم والأئمّة يُجلّون ويقدّرون ويُعرف لهم فضلهم ومكانتهم وأمانتهم، فقد كانوا ناصحين لله ورسوله والمسلمين، وإنّهم أرادوا الحق، وحرصوا على إبلاغه للنّاس.

فأقوالهم موضع الاحترام والتّقدير، يستعان بفهمهم، ويستضاء بنور علمهم لبيان معنى النّصوص. فيؤخذ منها ما وافق الدّليل ويردّ ما خالفه، فلا تهدر كلّ أقوالهم، ولا يسلّم لها كلّها. فهم بشر يخطئون ويصيبون، وهم معذورون فيما ذهبوا إليه بل مأجورون، لقوله ﷺ: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثمّ أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر». ـ البخاري، ص: ١٥٤٣، برقم (٧٣٥٢). مسلم: ٣/ ١٣٤٢، برقم: (١٧١٦) ـ فهم أرادوا الحقّ، وسعوا إليه، واجتهدوا في الوصول إليه، ولكن لا يعني هذا قبول كلّ ما قالوه، فقد يقع منهم الخطأ والهفوة. ولذا نهوا عن تقليدهم وحذّروا منه.

قال الشّافعي رحمه الله: «أجمع النّاس على أنّ من استبانت له سنّة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس» ـ إعلام الموقّعين: ٢/ ٢٨٢ـ فأقوالهم تعرض على النّصوص وتوزن بميزانها، وفي هذا اقتداء بهم، لأنّهم أوصوا بالتّمسّك بالنّص، وعرض أقوالهم عليه، فما أيّده أخذ، وما عارضه ردّ. قال مالك رحمه الله: «ليس أحد إلّا يؤخذ من قوله ويدع غير النّبي ﷺ» ـ معجم الطّبراني الكبير: ١١/ ٣٣٩ـ وهم ما بلغوا منزلة الإمامة في الدّين إلّا لاتّباعهم كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ. والمسلم يأخذ بكلّ قول وافق الدّليل ولا يعيّن أحداً بعينه، وينصّب أقواله بأنّها الحقّ لا سواه، بل ضالّته الحقّ أينما وجده أخذه.

ولمزيد بيان في هذا الجانب: انظر: مجموع الفتاوى: ٢٢/٢٤٩. إعلام الموقّعين: ٢/٢٠٩، ٣/٢٩٥. الرّوح، ص:٢٦٤. القول المفيد: ٤٢، ٥٤ ـ ٦١.

(٢) الاعتصام: ٢/٣٤٧.

فالأخذ بالدّليل الشّرعي من الكتاب والسّنّة دون الالتفات إلى قول من خالفه من أهل العلم مهما كانت منزلته هو الحقّ العاصم من الزّيغ، إذ نحن متعبَّدون بكلام الله ورسوله لا بأقوال البشر.

وأقوال أهل العلم لا تجعل أصلاً تحمل عليه الأدلّة بل هي تابعة لا متبوعة. ومن الخلل في المنهج أن تعظّم تلك الأقوال ويتعدّى بها مقامها، وتسخّر النّصوص لخدمتها، بل تلوى أعناقها لتصبّ في مصبّها، دعك من التّبريرات والتّأويلات الباردة. وتعظم المصيبة إن كان المُبَرَّر لقوله من المنظّرين الّذين خلا وفاضهم من علم الكتاب والسّنّة، من المتربّعين على قمم الجماعات المنتسبة للإسلام، أو الأحزاب الّتي ضجّ منها أهل الإسلام، والّتي شوّهت جماله وذهبت ببهائه. والّتي دفعت فئة عظيمة من أمّة الإسلام إلى الانحراف عن المنهج القويم، وتنكّب سلوك الصراط المستقيم.

المطلب الخامس

التّأويل بغير حجّة

قال الرّاغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«التّأويل من الأوْلِ أي الرّجوع إلى الأصل، ومنه المَوْئِلُ للموضع الّذي يُرْجَع إليه، وذلك هو ردّ الشّيء إلى الغاية المرادة منه، علماً كان أو فعلاً، ففي العلم نحو: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، وفي الفعل كقول الشّاعر: وللنّوى قبل يوم البَيْن تأويل»[1].

وقد صار لفظ التّأويل بتعدّد الاصطلاحات مستعملاً في ثلاثة معانٍ:

الأوّل: التّأويل في كتاب الله وسنّة رسوله، وهو الحقيقة الّتي يؤول إليها الكلام. فإنّ الكلام نوعان: خبر وطلب، فتأويل الخبر: هو عين المخبر به كقول يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

وتأويل الأمر: هو نفس الفعل المأمور به، كقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان

---

(١) المفردات، ص: ٣١.

رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللّهم ربّنا وبحمدك اللّهم اغفر لي»، يتأوّل القرآن»[١].

الثّاني: التّأويل عند السّلف من أهل التّفسير والفقه والحديث مراد به تفسير الكلام وبيانه، سواء وافق ظاهره أو خالفه، وهو يحمد حقّه ويردّ باطله، كقول ابن جرير رحمه الله: «القول في تأويل قوله تعالى كذا»: يريد تفسيره. وكقول الإمام أحمد رحمه الله في الرّد على الجهميّة: «فيما تأوّلته من القرآن على غير تأويله»، أي على غير تفسيره.

الثّالث: التّأويل في اصطلاح كثير من المتأخرين من المتكلّمين في الفقه وأصوله وغيرهم: وهو صرف اللّفظ عن ظاهره ومعناه الرّاجح إلى معنى محتمل مرجوح لدليل يقترن به[٢].

فالتّأويل الّذي يوافق ما دلّت عليه النّصوص وجاءت به السّنّة ويطابقها هو التّأويل الصّحيح، والتّأويل الّذي يخالف ما دلّت عليه النّصوص وجاءت به السّنّة هو التّأويل الفاسد[٣].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلا إنّها قالت: «كان النّبي» ـ في: كتاب الأذان (الصّلاة): (١٠/ ٥)، باب التّسبيح والدّعاء في السّجود: (١٣٩/ ٢٩٠)، برقم: (٨١٧)، ص:١٧٩، وبلفظ مقارب في: باب الدّعاء في الرّكوع: (١٢٣/ ٢٧٤)، برقم: (٧٩٤)، ص:١٧٥، وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب: (٥١/ ٥٢)، برقم: (٤٢٩٣)، ص:٨٩٣، ونحوه في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب سورة إذا جاء نصر الله: (١)، برقم: (٤٩٦٧، ٤٩٦٨)، ص:١٠٩٦.
صحيح مسلم، بلفظه وبلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٤)، باب ما يقال في الرّكوع والسّجود: (٤٢)، برقم: (٤٨٤)، ١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ٥٥ ـ ٥٧. الصّواعق المرسلة: ١/ ١٧٦ ـ ١٧٨. شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٣٢ ـ ٢٣٤، طبعة: المكتب الإسلامي.
والاصطلاح الثّالث هو الّذي دأب عليه المتأخرون في تعريف التّأويل. انظر: التّعريفات، ص:٧٢. التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص:١٥٦ ـ ١٥٧. ولذا ضربت صفحاً عن ذكر تعريفاتهم عند مبدأ تعريفي للتّأويل، واكتفيت بتعريف الرّاغب الأصفهاني رحمه الله.

(٣) الصّواعق المرسلة: ١/ ١٨٧.

والحديث يرتكز هنا على النّوع الثّالث من أنواع التّأويل وهو ما عرف في اصطلاح المتأخرين، وهو أمر محدث لا عهد للسّلف به، ومنه المذموم المخالف لأدلّة الكتاب والسّنّة، والّذي سلّطه أهل البدع والضّلال على نصوص الوحي فحرّفوها، ومالوا بها عن حقائقها ومراد الله ورسوله منها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وأمّا التّأويل المذموم والباطل فهو تأويل أهل التّحريف والبدع الّذين يتأوّلونه على غير تأويله، ويدّعون صرف اللّفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله بغير دليل يوجب ذلك، ويدّعون أنّ في ظاهره من المحذور ما هو نظير المحذور اللّازم فيما أثبتوه بالعقل، ويصرفونه إلى معانٍ هي نظير المعاني الّتي نفوها عنه، فيكون ما نفوه من جنس ما أثبتوه، فإن كان الثّابت حقّاً ممكناً كان المنفي مثله، وإن كان المنفي باطلاً ممتنعاً كان الثّابت مثله»[1].

وأصل إرث هذا التّأويل من اليهود عليهم لعائن الله الّذين وسمهم الله بالتّحريف في آيات كثر منها قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

والتّحريف نوعان: تحريف لفظ وتحريف معنى، والثّاني منها هو التّأويل، وهو كثير، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمّة[2].

وقد فتحوا به الباب على مصراعيه ليلج منه كلّ مشرك ومبتدع وضال فيُعمل عقله في نصوص الوحي، ويواجهها بالتّأويلات الباطلة، ويصرفها إلى المعاني المنحرفة ليصل إلى بغيته وهواه.

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/ ٦٧.

(٢) انظر: اقتصاد الصّراط المستقيم، ص:٨. الصّواعق المرسلة: ١/ ٢١٥ ـ ٢١٧. وللوقوف على تلك الطّوائف الّتي وقعت في التّأويل فحرّفت به معاني النّصوص عن مراد الشّارع لها، انظر: مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٨٧.

والشّرع إذا أحيل للتّأويل انحلت عراه، ووهى أمره، ولا يشاء أحد من أهل الضّلال أن يأوّل نصّاً فيحرفه إلى ما يريد إلّا وجد إلى ذلك سبيلاً، إذ لا قاعدة تضبط ما يسوّغ تأويله ممّا لا يسوّغ.

قال ابن أبي العز رحمه الله مخاطباً من كان سبباً في نشأة هذه البدعة الضّالة:

«فقد فتحتم عليكم باباً لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سدّه، فإنّكم إذا سوّغتم صرف القرآن عن دلالته المفهومة بغير دليل شرعي، فما الضّابط فيما يسوّغ تأويله وما لا يسوّغ؟ فإن قلتم ما دلّ القاطع العقلي على استحالته تأوّلناه وإلّا أقررناه. قيل لكم: وبأيّ عقل نزن القاطع العقلي؟ فإنّ القرمطي الباطني يزعم قيام القواطع على بطلان ظواهر الشّرع، ويزعم الفيلسوف قيام القواطع على بطلان حشر الأجساد، ويزعم المعتزلي قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى، وعلى امتناع قيام علم أو كلام أو رحمة به تعالى، وباب التّأويلات الّتي يدّعي أصحابها وجوبها بالمعقولات أعظم من أن تحصر في هذا المقام، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان:

أحدهما: أن لا نقرّ بشيء من معاني الكتاب والسّنّة حتّى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة في إمكان ذلك بالعقل، وكلّ طائفة من المختلفين في الكتاب يدّعون أنّ العقل يدلّ على ما ذهبوا إليه، فيؤول الأمر إلى الحيرة المحذورة.

الثّاني: أنّ القلوب تتخلّى عن الجزم بشيء تعتقده ممّا أخبر به الرّسول، إذ لا يوثق بأنّ الظّاهر هو المراد، والتّأويلات مضطّربة، فيلزم عزل الكتاب والسّنّة عن الدّلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد، وخاصّةُ النّبي هي الإنباء، والقرآن هو النّبأ العظيم، ولهذا نجد أهل التّأويل إنّما يذكرون نصوص الكتاب والسّنّة للاعتضاد لا للاعتماد، إن وافقت ما دعوا أن العقل دلّ عليه قبلوه، وإن خالفته أوّلوه، وهذا فتح باب الزّندقة. نسأل الله العافية»[١].

بل تصبح النّصوص عند هؤلاء لا وزن لها ولا قيمة، يُتلاعب بها،

(١) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٣٦ ـ ٢٣٧، طبعة: المكتب الإسلامي.

وتُنتهك حرمتها، وتسلّط عليها أمواج التّأويلات، وتتقاذفها رياح الآراء، وتحتوشها رماح الأهواء، وتتخطّفها أيدي الاحتمالات، وتصادم بأنواع الإشكالات، وتجرّد عن اليقين، وتصبح عرضة لمطاعن الطّاعنين، وهل يفسد الدّين إلّا بهذا المسلك المهين؟[1].

يقول شارح الطّحاوية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وهذا الّذي أفسد الدّنيا والدّين، وهكذا فعلت اليهود والنّصارى في نصوص التّوراة والإنجيل، وحذّرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المبطلون إلّا سلوك سبيلهم، وكم جنى التّأويل الفاسد على الدّين وأهله من جناية، فهل قتل عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلّا بالتّأويل الفاسد، وكذا ما جرى في يوم الجمل وصفّين، ومقتل الحسين، والحرّة، وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الرّوافض، وافترقت الأمّة على ثلاث وسبعين فرقة إلّا بالتّأويل الفاسد؟»[2].

---

(١) وانظر: الصّواعق المرسلة: ١/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢) شرح العقيدة الطّحاوية، ص: ٢٠٤، طبعة: المكتب الإسلامي.
وقد عقد الإمام ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصلاً في كتابه القيّم: الصّواعق المرسلة بعنوان: جناية التّأويل على أديان الرّسل، وأنّ خراب العالم وفساد الدّنيا والدّين بسبب فتح باب التّأويل. وأفاض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ذلك وإيضاحه بأسلوب بليغ رصين، كشف من خلاله خطر التّأويل وجنايته على الدّين، وما أحدثه من مفاسد عظيمة يتصدع لها قلب المسلم. وقد ختم ذلك بقوله: «فقاتل الله التّأويل الباطل وأهله، وأخذ حقّ دينه وكتابه ورسوله وأنصاره منهم، فماذا هدموا من معاقل الإسلام، وهدّوا من أركانه، وقلعوا من قواعده؟ ولقد تركوه أرقّ من الثّوب الخلق البالي الّذي تطاولت عليه السّنون، وتوالت عليه الأهوية والرّياح. ولو بسطنا هذا الفصل وحده، وما جناه التّأويل على الأديان والشّرائع وخراب العالم لقام منه عدّة أسفار، وإنّما نبّهنا تنبيهاً يعلم به العاقل ما وراءه وبالله التّوفيق». انظر: ١/ ٣٤٨ ـ ٣٨١.
وانظر في ذلك أيضاً كتابه: إعلام الموقّعين: ٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥٤. فقد عقد فيه فصلاً مشابهاً، بيّن من خلاله جناية التّأويل على الأمم. بل نظم ذلك في قصيدته النّونيّة بما يزيد على أربعين بيتاً، ذكر فيها ما وقع في الأمّة من فتن وبلايا بسبب التّأويل. ثمّ قال:

وجميع ما في الكون من بدع ... وأحداث تخالف موجب القرآن
فأساسها التّأويل ذو البطلان ... لا تأويل، أهل العلم والإيمان =

فمن أعظم جنايته على الأمّة الإسلاميّة أن كان من أسباب التّفرّق والاختلاف الّذي عانت منه الأمّة الأمرّين. فقد سلّطت كلّ فئة من المأولّة تأويلاتها على آيات القرآن وأخبار الرّسول ﷺ الّتي تعلّق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم، وذهب كل منهم فيها مذهبه الّذي يهواه، فأوجب ذلك من التّباين والتّفرّق ما الله أعلم به، حيث تصدّع الشّمل، وانقطع حبل الود، وفسدت ذات البين، ووقعت الخصومة، وبلغت مدى استحلّت فيه الأنفس والحُرَم والأموال، وما هو أشنع وأعظم[1].

وقد فارق هؤلاء منهج السّلف رحمهم الله الّذين اعتصموا بنصوص الوحي فلم يسوموها تأويلاً، ولم يعصفوا بها تحريفاً وتبديلاً، بل سلّموا لها القياد، لعلمهم أنّه «لا تثبت قدم الإسلام إلّا على ظهر التّسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتّسليم فهمه، حجبة مُرامُه عن خالص التّوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتّصديق والتّكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكّاً، لا مؤمناً مصدّقاً، ولا جاحداً مكذّباً»[2].

ولا يسلم من ذلك إلّا بترك التّأويل، ولزوم التّسليم، وعليه دين المسلمين[3].

وقد سَلِمَ رحمهم الله من هذا التّأويل الّذي هو تحريف، فعافاهم الله من الانحراف والزّيغ، وأخذ بأيديهم إلى طريق السّلامة، وأغناهم بنصوص الوحيين عن تأويلات الآراء، وتوهّمات الأهواء، لأنّهم علموا أنّ فتح هذا الباب يجرف عن المنهج الحقّ، ويبعد عن الطّريق المستقيم، ويزعزع القلوب عن ثباتها.

= إذ ذاك تفسير المراد وكشفه ... وبيان معناه إلى الأذهان

انظر: متن القصيدتين النّونيّة والميميّة لابن القيّم، النّاشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م، ص: ٧٩ ـ ٨٠.

(١) انظر: الصّواعق المرسلة: ١/٣٤٨.

(٢) متن العقيدة الطّحاوية، ص: ١٠.

(٣) المرجع السّابق، ص: ١٠، بتصرّف.

قال ابن أبي العز رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض حديثه عن مضار التّأويل:

«إنّ القلوب تتخلّى عن الجزم بشيء تعتقده ممّا أخبر به الرّسول، إذ لا يوثق بأنّ الظّاهر هو المراد، والتّأويلات مضطّربة، فيلزم عزل الكتاب والسّنّة عن الدّلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد»[1].

ولذا كفّوا رحمهم الله عن الخوض فيه، وتجنّبوه، وحذّروا منه، وألّفوا في ذلك الكتب الذّامة له[2]. وحمدوا الله على السّلامة منه.

وفي ذلك يقول ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فاحمد إلهك أيّها السُّنِّيُّ إذ ... عافاك من تحريف ذي بُهتان
والله ما يرضى بهذا خائف ... من ربّه أمسى على الإيمان
هذا هو الإلحاد حقّاً بل هو ... التّحريفُ محضاً أبرد الهَذَيان
والله ما بُليَ المجسِّمُ قطُّ ذي ال ... بلوى ولا أمسى بذي الخُذْلان
أمثالُ ذا التّأويل أفسد هذه ... الأديان حين سرى إلى الأديان
والله لولا الله حافظ دينه ... لتهدَّمت منه قُوَى البنيان»[3]

فالتّأويل المنحرف مزلق عظيم لمن سلكه، يحرف عن المنهج الحق، ويؤدّي إلى الزّيغ عن الصّراط المستقيم، لأنّه يناهض مراد الله تعالى ورسوله ﷺ من نصوص الوحي، ويعرّضها لتوهّمات العقول، وسقطات الآراء.

المطلب السّادس

اتّباع المتشابه

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ

---

(١) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٣٦، طبعة: المكتب الإسلامي.

(٢) مثل كتاب: ذمّ التّأويل لابن قدامة.

(٣) متن القصيدتين النّونيّة والميميّة، ص:١٩ ـ ٢٠.

﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

لقد تباينت أقوال أهل العلم في المراد من الآيات المحكمة والمتشابهة في هذه الآية:

القول الأوّل: المحكمة هي المعمول بها: وهي النّاسخة أو المثبتة للأحكام، والمتشابهة هي المتروك العمل بها أو المنسوخة.

الثّاني: المحكمة هي ما أحكم الله فيه بيان حلاله وحرامه، والمتشابهة هي ما أشبه بعضه بعضاً في المعاني وإن اختلفت ألفاظه.

الثالث: المحكمة هي الّتي لم تحتمل من التّأويل غير وجه واحد، والمتشابهة ما احتمل أوجه من التّأويل.

الرّابع: المحكمة هي ما أحكمه الله في القرآن من قصص الأمم ورسلهم، ففصّله ببيان ذلك لمحمّد ﷺ وأمّته، والمتشابهة ما اشتبهت فيها ألفاظ قصصهم عند التّكرار في السّور، حيث وردت بعضها باتّفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبعضها باختلاف الألفاظ واتّفاق المعاني.

الخامس: المحكمة هي الّتي عرف العلماء تأويلها، وفهموا معناها وتفسيرها، والمتشابهة هي التي استأثر الله بعلم تأويلها دون خلقه[1].

السّادس: المحكمة هي البيّنة المعنى، الواضحة الدّلالة، والمتشابهة هي الّتي لم يتّضح معناها أو تشتبه دلالتها عند كثير من النّاس أو بعضهم.

وهذا القول الأخير هو الّذي يترجّح، لأنّه شامل لما تقدّم من أقوال، جامع لها، إذ كان كلّ قول يعرّف المحكم ببعض صفاته، ثمّ يعرّف المتشابه بما يقابلها فجاءت تعريفات المحكم والمتشابه فيها ببعض جوانبه[2].

---

(١) انظر: جامع البيان: ٣/ ١٧٢ ـ ١٧٤، طبعة: دار الفكر. وانظر: معالم التّنزيل: ١/ ٢٨٧ ـ ٢٧٩.

(٢) وانظر: فتح القدير: ١/ ٣١٤ ـ ٣١٥. وقد أفاض ﷺ في الرّد على تلك الأقوال. =

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«يخبر تعالى أنّ في القرآن آيات محكمات، هنّ أمّ الكتاب، أي بيّنات واضحات الدّلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدّلالة على كثير من النّاس أو بعضهم، فمن ردّ ما اشتبه إلى الواضح منه وحكّم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي أصله الّذي يرجع إليه عند الاشتباه، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللّفظ والتّركيب لا من حيث المراد»(١).

فإذا تبيّن لنا معنى المتشابه ممّا سبق نجد أنّ الله ﷻ ذمّ في الآية السّابقة فئة من النّاس مرضت قلوبهم، وساء قصدهم، يتّبعون المتشابه ليستدلّوا به على مذاهبهم الباطلة، وأهوائهم الزّائفة، ومناهجهم المنحرفة، إذكاء للفتن، وتحريفاً لكلام الله، فضلّوا وأضلّوا وانحرفوا عن الصّراط المستقيم، والمنهج القويم. وهم الّذين عناهم رسول الله ﷺ بقوله في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد أن تلا الآية

= لقد وصف الله ﷻ القرآن كلّه بأنّه محكم فقال: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١]، أي أتقنت وأحسنت، صادقة في أخبارها، عادلة في أوامرها ونواهيها، فصيحة في ألفاظها، بهيّة في معانيها.
تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٣٣٢، بتصرّف. وانظر: جامع البيان: ١/ ١٧٩ ـ ١٨٠، طبعة: دار الفكر. معالم التّنزيل: ٢/ ٣٧٢. الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢ ـ ٣. أنوار التّنزيل: ٢/ ٢١٩. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٧٥. فتح القدير: ٢/ ٤٨٠. كما وصفه سبحانه بأنّه متشابه فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزّمر: ٢٣]، أي يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإحكام والإتقان، ويصدّق بعضه بعضاً في الائتلاف والاتّفاق، إذ لا تناقض بين آياته ولا اختلاف. انظر: جامع البيان: ٢٣/ ٢١٠، طبعة: دار الفكر. معالم التّنزيل: ٤/ ٧٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٤٩. أنوار التّنزيل: ٥/ ٦٤. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٧ ـ ٧٨. فتح القدير: ٤/ ٤٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٦٨.
والتّشابه الموجود هنا في آية الزّمر لا يخالف الإحكام الموجود في آية هود بل هو موافق ومصدّق له، وليس هو الإحكام والتّشابه الموجود في آية آل عمران فذلك نوع آخر، وهو الّذي أودّ الحديث عنه.

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥١٧. وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٠١.

السّابقة، قال: «إذا رأيتم الّذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الّذين سمّى الله فاحذروهم»[1].

وجاء تحذير الصّحابة رضي الله عنهم والتّابعين رحمهم الله وأهل العلم منهم، ومن ضلال مسلكهم، وانحراف وجهتهم.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبّسون، فلبّس الله عليهم»[2].

وقال محمّد بن جعفر بن الزّبير رحمه الله[3]:

«﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، أي ما تحرّف منه وتصرّف، ليصدّقوا به ما ابتدعوا وأحدثوا، ليكون لهم حجّة على ما قالوا وشبهة»[4].

وقال ابن جرير رحمه الله:

«فأمّا الّذين في قلوبهم ميل عن الحقّ، وانحراف عنه... ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ ما تشابهت ألفاظه وتصرّفت معانيه بوجوه التّأويلات، ليحقّقوا بادعائهم الأباطيل من التّأويلات في ذلك ما هم عليه من الضّلالة والزّيغ عن محجّة الحقّ، تلبيساً منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه»[5].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «فإذا رأيت» ـ في كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧]: (١)، برقم: (٤٥٤٧)، ص:٩٤٨.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب العلم: (٤٧)، باب النّهي عن اتّباع متشابه القرآن: (١)، برقم: (٢٦٦٥)، ٤/ ٢٠٥٣.

(٢) محمّد بن جعفر بن الزّبير بن العوام القرشي الأسدي، المدني. ثقة، من فقهاء أهل المدينة وقرّائهم. مات بضعة عشر ومائة.
وانظر: طبقات خليفة، ص:٢٦٠. التّاريخ الكبير: ١/ ٥٤. الجرح والتّعديل: ٧/ ٢٢١. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٣٩٤. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٦٢٢. تهذيب الكمال: ٢٤/ ٥٧٩. الكاشف: ٢/ ١٦١. تهذيب التّهذيب: ٩/ ٨١. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٧١.

(٣) هذان الأثران أوردهما الإمام ابن جرير رحمه الله في جامع البيان: ٣/ ١٧٧، طبعة دار الفكر.

(٤) المرجع السّابق: ٣/ ١٧٦، نفس الطّبعة.

(٥) فتح القدير: ١/ ٣١٥. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ١٣. أنوار التّنزيل: ٢/ ٧.=

وقال الشّوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وهذه الآية تعمّ كلّ طائفة من الطّوائف الخارجة عن الحقّ... يتعلّقون بالمتشابه من الكتاب فيشكّكون به على المؤمنين، ويجعلونه دليلاً على ما هم فيه من البدعة المائلة عن الحقّ، كما تجده في كلّ طائفة من طوائف البدعة، فإنّهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعباً شديداً، ويوردون منه لتلفيق جهلهم ما ليس من الدّلالة في شيء... طلباً لتأويله على الوجه الّذي يريدونه ليوافق مذاهبهم الفاسدة»[1].

وهؤلاء المبتدعة بهذا المسلك انحرفوا عن جادّة الصّواب، وطريق الحقّ، وفارقوا أهل السّنّة والجماعة.

= تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥١٧ ـ ٥١٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ١٠١. وانظر: الاعتصام: ١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١، ٢٣٣.

ومن ذلك ادعاؤهم أنّ الآيات والأحاديث الّتي تثبت صفات الله تعالى كما يليق به أنّها من المتشابه الّذي يجب تأويله، ثمّ سلّطوا عليها معاول التّأويل الّذي هو تحريف وتغيير، فصرفوها عن مراد الله منها. فوجه الله ذاته، ويد الله قدرته، ونزوله نزول أمره، واستواؤه استيلاؤه، هكذا ـ زعموا ـ وغير ذلك كثير، وقد أضلّوا بذلك عدداً عظيماً من المسلمين لا يستهان به. والأصل في هذا الباب أن يثبت لله ما أثبته لنفسه من أسمائه الحسنى وصفاته العلى، وما أثبته له رسوله ﷺ من غير تعطيل ولا تكييف ولا تأويل ولا تمثيل، وهذا مذهب السّلف الّذي ثبتوا وظلّوا عليه.

وزعمهم بأنّها من المتشابه يُستفصلون في ذلك لمعرفة مرادهم، فإن أرادوا حقائقها وكيفياتها، فذلك قول صحيح لأنّه لا أحد يعلم كنه صفات الله وكيفياتها وحقائقها إلّا هو. وإن أرادوا بذلك معانيها فإنّ السّلف رحمهم الله يعرفون معانيها، ويفرّقون بين صفة وأخرى، فالسّمع ليس هو البصر، والعلم ليس هو القدرة، فإنّهم لا يفوّضون في معاني الصّفات وإنّما يفوّضون في كيفياتها.

ولذا قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ لمّا سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] فقال: «الاستواء معلوم ـ أي معناه في اللّغة ـ والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسّؤال عنه بدعة». وانظر: مجموع الفتاوى: ٣/ ٥٨ ـ ٥٩، ٦٥ ـ ٦٦. الصّواعق المرسلة: ١/ ٢١٠. وقول مالك رَحِمَهُ اللَّهُ منسوب أيضاً إلى ربيعة بن عبد الرّحمٰن رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ٣/ ٣٩٨.

(١) الاعتصام: ٢/ ٢٣٤.

قال الشّاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فتأمّلوا وجه اتّباع المتشابهات، وكيف أدّى إلى الضّلال والخروج عن الجماعة»[1].

وهم بذلك جانبوا الثّبات على منهج رسول الله ﷺ وفارقوه.

وثبت عليه قوم آخرون هم أهل العلم الرّاسخون فيه، أي الثّابتون فيه، الّذين استقرّ اليقين في قلوبهم، وملأ الإيمان أفئدتهم فعلموا أنّ القرآن كلّه حق من عند الله تعالى، ما كان منه محكماً أو متشابهاً، فقد علموا معنى المحكم منه ووضحت لهم دلالته، وردّوا المتشابه إليه فعاد الجميع محكماً في حقّهم، وما عجزوا عنه من معرفة تأويل المتشابه وكلوا علمه إلى الله، فلم يقحموا فيه عقولهم، ولم يصرفوه بأهوائهم كفعل أهل الابتداع، وذلك لكمال عقولهم وصفاء أذهانهم، فهم أولوا الألباب والنّهى. ومع ذلك دعوا الله تعالى أن يثبّتهم على الحقّ، وأن يظلّوا على الطّريق المستقيم، وألّا يُميل قلوبهم ويصرفها عن الحقّ إلى الباطل فينحرفوا عن صراط الله، كما مالت قلوب الّذين اتّبعوا المتشابه فزاغوا عن المنهج القويم.

وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران: ٧ ـ ٨][2].

---

(١) وانظر: جامع البيان: ٣/١٧٦ ـ ١٨٦، طبعة: دار الفكر. معالم التّنزيل: ١/٢٧٩. الجامع لأحكام القرآن: ٤/١٩ ـ ٢٠. تفسير القرآن العظيم: ١/٥٢١. فتح القدير: ١/٣١٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٠٢. وانظر: الاعتصام: ١/٢٢٠.

(٢) وانظر: جامع البيان: ٣/١٨٢ ـ ١٨٦، طبعة: دار الفكر. معالم التّنزيل: ١/٢٨٠. الجامع لأحكام القرآن: ٤/١٦ ـ ١٨. أنوار التّنزيل: ٢/٨ ـ ٩. تفسير القرآن العظيم: ١/٥٢٠ ـ ٥٢١. فتح القدير: ١/٣١٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٠٢. وانظر: ذمّ التّأويل لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، طبعة: الدّار السّلفيّة، الكويت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ. وقد أفاض رَحِمَهُ اللَّهُ في سياق الحجج على أنّ الوقوف عند اسم الجلالة، وأنّ الرّاسخين لا يعلمون تأويل المتشابه، ص:٣٧ ـ ٤٠. مجموع الفتاوى: ٣/٦٦ ـ ٦٨. إعلام الموقّعين: ١/٣٣٢.=

وفي الآية قراءتان: قراءة من يقف على اسم الجلالة، وهم أكثر أهل العلم، ويكون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ كلاماً مستأنفاً مقطوعاً عمّا قبله، ويكون المراد بالمتشابه هنا ممّا استأثر الله بعلمه ممّا لم يُطلع الله عليه أحداً من خلقه، كعلم السّاعة، وخروج الدّجال، ونزول عيسى عليه السلام. ويكون معنى التّأويل هنا هو الحقيقة الّتي يؤول إليها الأمر الّذي لا يعلمه إلّا الله.

والقراءة الثّانية قراءة من عطف قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ على اسم الجلالة، فيكون الرّاسخون ممّن يعلم تأويل المتشابه، ويكون المراد بالمتشابه هنا أمراً نسبياً إضافياً يشتبه على بعض النّاس دون البعض الآخر، ويراد بالتّأويل هنا التّفسير والبيان. فخصّ الله الرّاسخين في العلم بتأويل المتشابه دون سواهم[1].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«أنا من الرّاسخين الّذين يعلمون تأويله»[2]، وهو الّذي دعا له رسول الله ﷺ بقوله: «اللّهم فقّهه في الدّين وعلّمه التّأويل»[3].

= شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٣٣ ـ ٢٣٥، طبعة: المكتب الإسلامي. تيسير العزيز الحميد، ص:٥١٦.

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٢٠.

(٢) مسند أحمد، بلفظه في: ١/٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٤/١٢٧، ٣١٦، ٥/١٥، ٤١، برقم: (٢٣٩٧، ٢٨٨١، ٣٠٣٣، ٣١٠٢)، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر وصف الفقه والحكمة اللّذين دعا المصطفى ﷺ لابن عبّاس بهما. برقم: (٧٠٥٥). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم». ١٥/ ٥١.

(٣) مستدرك الحاكم، بلفظه في: ٣/ ٦١٥، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».
وأصل هذا الحديث في الصّحيحين:
صحيح البخاري، كتاب الوضوء: (٤)، باب وضع الماء عند الخلاء: (١٠)، برقم: (١٤٣)، ولفظه: «اللّهم فقّهه في الدّين»، ص: ٥٠. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب فضائل عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما: (٣٠)، برقم: (٢٤٧٧)، ولفظه: «اللّهم فقّهه». ٤/١٩٢٧.

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ اتّباع المتشابه، وعدم إرجاعه إلى المحكم في دين الله مزلق خطير، يؤدّي إلى عدم الثّبات على المنهج الحق، والانحراف عنه، ولا يثبت إلّا من حكّم المحكم في المتشابه، وآمن بأن الجميع من عند الله تعالى.

المطلب السّابع

الجدال المذموم

الجدال والجدل هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة. وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله، فكأنّ المتجادلين يفتل كلّ واحد الآخر عن رأيه، وقيل: الأصل في الجدال الصّراع، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة وهي الأرض الصّلبة[1].

وفي الاصطلاح: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجّة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحقيقة[2].

وقيل: هو التّخاصم بما يشغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصّواب، ثمّ استعمل على لسان حملة الشّرع في مقابلة الأدلّة لظهور أرجحها، وهو محمود إن كان للوقوف على الحقّ وإلّا فمذموم[3].

---

(١) المفردات، ص: ٨٩ ـ ٩٠، بتصرّف.

(٢) التّعريفات، ص: ١٠٢. وانظر: الحدود الأنيقة والتّعريفات الدّقيقة، لأبي يحيى زكريا بن محمّد الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، طبعة: دار الفكر المعاصر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ، ص: ٧٣.

(٣) التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: ٢٣٤.
وقد نشأ علم يسمّى بعلم الجدل. قالوا في تعريفه: هو علم باحث عن الطّرق الّتي يقتدر بها على إبرام أيّ وضع أريد، ونقض أيّ وضع كان. وهو من فروع علم النّظر ومبنى لعلم الخلاف. مأخوذ من الجدل الّذي هو أحد أجزاء مباحث المنطق، لكنّه خصّ بالعلوم الدّينيّة. ومبادئه بعضها أمور مبيّنة في علم النّظر، وبعضها خطابيّة، وبعضها أمور عاديّة. وله استمداد من علم المناظرة المشهورة بآداب البحث، وموضوعه تلك الطّرق. والغرض منه: تحصيل ملكة النّقض والإبرام والهدم والإحكام. أبجد العلوم: ٢/ ٢٠٨.

فهو قد يكون محموداً إذا تعلّق بإظهار الحقّ وإيضاحه، وبذلك أُمر النّبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النّحل: ١٢٥]. وقد يكون مذموماً إذا شغل عن ظهور الحقّ ووضوح الصّواب.

قال الذّهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإن كان الجدال للوقوف على الحقّ وتقريره كان محموداً، وإن كان في مدافعة الحقّ، أو كان جدالاً بغير علم كان مذموماً، وعلى هذا التّفصيل تنزّل النّصوص الواردة في إباحته وذمّه»[1].

والحديث هنا ينصبّ على النّوع المذموم منه، إذ هو من الأسباب الّتي تؤدّي إلى الانزلاق عن المنهج وعدم الثّبات عليه.

وقد ذمّ الله سبحانه أقساماً من الجدال في كتابه:

فذمّ الجدال بغير علم، فقال تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [آل عمران: ٦٦].

وذمّ الجدال بالباطل، فقال عن الأمم المكذّبة لرسله: ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

وذمّ الجدال في آياته، فقال سبحانه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾﴾ [غافر: ٤]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥]، وقال: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ [الشّورى: ٣٥].

كما ذمّ سبحانه الجدال في الله فقال: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرّعد: ١٣][2]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [الحج: ٣]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج: ٨].

---

(١) كتاب الكبائر للإمام الذّهبي، طبعة: دار النّدوة الجديدة، بيروت، ص: ٢٢٢. وانظر: نضرة النّعيم: ٩/٤٣٣٩.

(٢) انظر: درء التّعاريض: ١/٤٧ ـ ٤٨.

ومن الأحاديث المحذّرة عن الجدال المذموم قوله ﷺ في حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه: «ما ضلّ قوم بعد هدى كانوا عليه إلّا أُوتوا الجدل، ثمّ تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزّخرف: ٥٨][1].

وحديث عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

فقال: «يا عائشة: إذا رأيتم الّذين يجادلون فيه فهم الّذين عناهم الله فاحذروهم»[2].

وأمّا الآثار الّتي وردت عن السّلف رحمهم الله في ذمّ الجدال الباطل وذمّ أهله فهي كثيرة تفوق حدّ الحصر، من ذلك:

قال عمر رضي الله عنه:

«إنّه سيأتي ناس يجادلونكم بشبهات القرآن فخذوهم بالسّنن، فإنّ

---

(١) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة الزّخرف: (٤٣)، برقم: (٢٢٥٣) وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٥١٦.
سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: المقدّمة، باب اجتناب البدع والجدل: (٧)، برقم: (٤٨). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص:٢٣.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا إنّه لم يذكر رسول الله ﷺ ـ في: ٥/ ٢٥٢، وبلفظ مقارب في: ٥/ ٢٥٦.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٢/ ٤٨٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».
معجم الطّبراني الكبير، بلفظ مقارب في: ٨/ ٢٧٧. وقال محقّق جامع الأصول: «إسناده صحيح»: ٢/ ٧٤٩.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه من الصّحيحين. انظر: ص:٨٨٦. ولكنّه بهذا اللّفظ في: سنن ابن ماجه: المقدّمة، باب اجتناب البدع والجدل: (٧)، برقم: (٤٧). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٢٣.

أصحاب السّنن أعلم بكتاب الله»[1].

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم بما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات»[2].

وقال أبو قلابة رضي الله عنه:

«لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم، فإنّي لا آمن أن يغمسوكم في الضّلالة، أو يُلبِّسوا عليكم ما كنتم تعرفون»[3].

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

«من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التّنقّل»[4].

وقال الأوزاعي رحمه الله:

«إذا أراد الله بقوم شرّاً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل»[5].

وقال مالك الإمام رحمه الله:

«كلّما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمّد ﷺ لجدله»[6].

وأصل الجدال المذموم هو طريق ومسلك سلكه الفلاسفة الّذين لا يثبتون

---

(١) سنن الدّارمي، باب التّورّع عن الجواب فيما ليس فيه كتاب ولا سنّة: ١/٦٢. انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/١٢٣.

(٢) المرجع السّابق: ١/١٢٧. وانظر: الشّريعة، ص:١٣. الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/٢٧٦.

(٣) سنن الدّارمي: ١/١٢٠. وانظر: السّنّة لعبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق: د. محمّد سعيد سالم القحطاني، طبعة: دار ابن القيّم، الدّمام، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ: ١/ ١٣٧. الشّريعة، ص:٧٠. شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ١٣٤. الاعتقاد للبيهقي، ص:٢٣٨.

(٤) سنن الدّارمي: ١/ ١٠٢. السّنّة لعبد الله بن أحمد: ١/١٣٨. تأويل مختلف الحديث، ص:٦٣. الشّريعة، ص:٧٠. وانظر: الزّهد لابن أبي عاصم، ص:٣٠٢.

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ١٤٥.

(٦) المرجع السّابق: ١/ ١٤٤. وانظر: شعب الإيمان: ٦/ ٣٥٤.

النّبوّات، ولا يرون لها حقيقة ليصلوا به إلى المعارف الّتي دفعتهم إليها عقولهم[1].

ثمّ ورث ذلك أهل الكلام الباطل، وجلبوه إلى دين الإسلام زعماً منهم أنّهم يردّون به شبهات المبطلين وضلال المنحرفين، فضلّوا الطّريق وانحرفوا عن الحقّ[2].

وقد ذمّه السّلف رحمهم الله وأكثروا من ذمّه لأنّه طريقة مبتدعة محدثة في دين الله، لم يسلكها رسول الله ﷺ، ولم يعهدها الصّحابة رضوان الله عليهم من بعده ـ ولو فعلوا ذلك لنقل إلينا ـ ولم يعرفها السّلف، ولم يسلكوها في الوصول إلى الحقّ مع كمال عقولهم، وصفاء أذهانهم[3].

قال الخطّابي رحمه الله: فيما نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«واعلم أنّ الأئمّة الماضين والسّلف المتقدّمين لم يتركوا هذا النّمط من الكلام، وهذا النّوع من النّظر عجزاً عنه، ولا انقطاعاً دونه، وقد كانوا ذووا عقول وافرة وأفهام ثاقبة، وكان في زمانهم هذه الشّبه والآراء، وهذه النّحل والأهواء، وإنّما تركوا هذه الطّريقة وأضربوا عنها لما تخوّفوه من فتنتها، وحذروه من سوء مغبّتها، وقد كانوا على بيّنة من أمرهم، وعلى بصيرة من دينهم لما هداهم الله به من توفيقهم، وشرح به صدورهم من نور معرفته، ورأوا أنّ فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته، وتوقيف السّنّة وبيانها غنى ومندوحة عمّا سواهما، وأنّ الحجّة قد وقعت بهما، والعلّة أزيحت بمكانهما»[4].

وهي مع ذلك شرّ وفساد لا فائدة فيها، ولا حاجة تدعو إليها، مع اشتمالها على القضايا الكاذبة، والمقدّمات الفاسدة الّتي تحمل بين طيّاتها

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهميّة: ١/ ٢٥٤.

(٢) انظر: المرجع السّابق: ١/٢٥٣. شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٢٤، طبعة: المكتب الإسلامي. وانظر: إتحاف السّادة المتّقين: ١/ ٤٤٩.

(٣) انظر: درء التّعارض: ٧/ ٢٩٧. وانظر: ١/ ١٦٥ من نفس الكتاب.

(٤) بيان تلبيس الجهميّة: ١/٢٥٣ ـ ٢٥٤، وهو في رسالة الغنية عن الكلام وأهله، للخطابي، ص:٢٨ ـ ٢٩ مع اختلاف طفيف في النّص.

الافتراء على الله وكتابه ورسوله ودينه[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وهذه الطّرق فيها فساد كثير من جهة الوسائل والمقاصد، أمّا المقاصد: فإنّ حاصلها بعد التّعب الكثير والسّلامة خير قليل، فهي لحم جمل غثّ، على رأس جبل وعر، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل، ثمّ إنّه يفوت بها من المقاصد الواجبة والمحمودة ما لا ينضبط هنا. وأمّا الوسائل: فإنّ هذه الطّرق كثيرة المقدّمات، ينقطع السّالكون فيها كثيراً قبل الوصول، ومقدّماتها في الغالب إمّا مشتبهة يقع النّزاع فيها، وإمّا خفيّة لا يدركها إلّا الأذكياء. ولهذا لا يتّفق منهم اثنان رئيسان على جميع مقدّمات دليل إلّا نادراً، فكلّ رئيس من رؤساء الفلاسفة والمتكلّمين له طريقة في الاستدلال تخالف طريقة الرّئيس الآخر، بحيث يقدح كلّ من أتباع أحدهما في طريقة الآخر، ويعتقد كلّ منهما أنّ الله لا يُعرف إلّا بطريقته، وإن كان جمهور أهل الملّة بل عامّة السّلف يخالفونه فيها»[2].

فهي مع تناقضها واختلافها، وتهافتها، وعدم جدواها وَعَّرُوا بها الطّريق لمريد الحقّ، وأطالوا الكلام في غير فائدة، فليس عندهم إلّا التّكلّف والتّعقيد كما قيل:

لولا التّنافس في الدّنيا لما وضعت   كتب التّناظر لا المغني ولا العمد
يحلّلون بزعم منهم عقداً   وبالّذي وضعوه زادت العقد

فقد زادوا الشّبه شبهاً، والشّكوك شكوكاً، والباطل باطلاً[3].

ومتى يا ترى كان كلام اليونان وآراؤهم الفجّة، وأفكارهم الدّخيلة، وتناقضاتهم واختلافهم سبباً للدّفاع عن دين الله وحماية جنابه، بل ذلك من أعظم أسباب الإعراض عن دين الله والبعد عنه، فإنّهم جعلوه كالأحاجي

(١) انظر: درء التّعارض: ٧/١٧٧ ـ ١٧٨. وانظر: مجموع الفتاوى: ٦/٥٨.
(٢) مجموع الفتاوى: ٢/٢٢.
(٣) انظر: شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٢٤، طبعة: المكتب الإسلامي.

والألغاز الّتي يعجز الذّكي عن فك غوامضها وحلّ عقدها. وما عليك إلّا أن تتصفّح كتاباً من كتب الكلام الّتي نسبت إلى العقيدة زوراً وبهتاناً إلّا وتجد نفسك في متاهات من الألفاظ المعقّدة، والأحكام المضطّربة، والنّتائج الفجّة، وكتاب الله وسنّة رسوله فيهما الشّفاء والكفاية والهداية والسّلامة لمن أنار الله بصره ووفّقه للحقّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إنّ الإيمان والعلم لا يتوقّف على النّظر الّذي أحدثه أهل الكلام فضلاً عن الكلام المخالف للنّصوص. . . لأنّ الكتاب والسّنّة قد بيّن الحقّ وبيّن الطّرق الّتي بها يعرف الحقّ، وذكر من الأدلّة العقليّة، والأمثال المضروبة الّتي هي مقاييس برهانيّة ما هو أكمل في تحصيل العلم واليقين ممّا أحدثه أهل البدع من أهل الكلام والفلسفة»[1].

وهم مع هذا لم يصلوا إلى بغيتهم، ولم يدركوا غايتهم، فقد خالفوا سبيل المؤمنين، ولم يقطعوا أعداء الدّين، بل أوقعهم الجدال وكثرة الكلام في شبهات كقطع اللّيل المظلم، وأضعف العقيدة في قلوبهم فحلّت بها الشّكوك، وغزتها جيوش الظّنون، والأوهام، وآل بهم الأمر إلى الحيرة والضّلال والشّك والارتياب، وتزعزع الثّبات في قلوبهم بل فارقها.

قال ابن رُشْد الحفيد[2] وهو من أعلم النّاس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم:

«ومن الّذي قال في الإلهيّات شيئاً يعتدّ به».

---

(١) درء التّعارض: ٧/ ٢٨٩.

(٢) محمّد بن أحمد بن محمّد بن رشد أبو الوليد، القرطبي الأندلسي، الفيلسوف. برع في الفقه والطّبّ، ثمّ أقبل على علوم الأوائل وبلاياهم حتّى صار يضرب به المثل في ذلك. رفعت عنه أقوال رديئة فهجر لأجلها بأمر الخليفة حتّى مات محبوساً بداره بمراكش عام ٥٩٥هـ. من آثاره: بداية المجتهد في الفقه. والكلّيات في الطّبّ. ومختصر المستصفى في الأصول. وتهافت التّهافت في الفلسفة، وغيرها.
وانظر: سير أعلام النّبلاء: ٢١/ ٣٠٧. العبر: ٣/ ١١١. النّجوم الزّاهرة: ٦/ ١٥٤. شذرات الذّهب: ٦/ ٥٢٢. الأعلام: ٥/ ٣١٨.

والآمدي[1] أفضل أهل زمانه وقف في المسائل الكبار حائراً.

والغزالي[2] انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلاميّة، ثمّ أعرض عن تلك الطّرق وأقبل على أحاديث الرّسول ﷺ فمات والبخاري على صدره[3].

وقال أبو عبد الله الرّازي[4]:

---

(١) علي بن محمّد بن سالم أبو الحسن التّغلبي، سيف الدّين الآمدي، الحنبلي ثمّ الشّافعي، المصنف المتكلّم، كان ذكيّاً ولكنه اشتغل بالمنطق وعلم الكلام فأظلم أمره حتّى اتّهم بالانحلال عن الدّين وسوء الاعتقاد. صنّف في أصول الفقه والدّين والمنطق والخلاف، توفي سنة ٦٣١هـ، من آثاره: أبكار الأفكار في الكلام. منتهى السّول، والإحكام في أصول الأحكام في الأصول، وغيرها.
وانظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٢٩٣. سير أعلام النّبلاء: ٢٢/ ٣٦٤. العبر: ٣/ ٢١٠. ميزان الاعتدال: ٣/ ٣٥٨. طبقات الشّافعيّة الكبرى، لأبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السّبكي، تحقيق: د. عبد الفتاح محمّد الحلو، محمود محمّد الطّناحي، طبعة: هجر للطّباعة والنّشر، الجيزة، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٢م: ٨/ ٣٠٦. البداية والنّهاية: ١٣/ ١٤٠. لسان الميزان: ٣/ ١٣٤. النّجوم الزّاهرة: ٦/ ٢٨٥. شذرات الذّهب: ٧/ ٢٥٣. الأعلام: ٤/ ٣٣٢.

(٢) هو محمّد بن محمّد بن محمّد بن أحمد الطّوسي، زين الدّين أبو حامد الغزالي، الشّافعي، الفيلسوف المتصوّف. له ذكاء مفرط واستبحار في العلم. برع في الفقه ومهر في الكلام والجدل. قال عنه الذّهبي: «أدخله سيلان ذهنه في مضايق الكلام، ومزالّ الأقدام». أقبل في آخر أمره على تلاوة القرآن وحفظ صحاح الأحاديث، توفي سنة ٥٠٥هـ. وقد اختلفت أقوال أهل العلم في شأنه وذلك لاختلاف أحواله، واضطّراب أمره، له كثير من المصنّفات منها: إحياء علوم الدّين. المستصفى في الأصول. تهافت الفلاسفة. إلجام العوام عن علم الكلام.
وانظر: المنتظم: ٩/ ١٦٨. وفيات الأعيان: ٤/ ٢١٦. سير أعلام النّبلاء: ١٩/ ٣٢٢. العبر: ٢/ ٣٨٧. طبقات الشّافعيّة الكبرى: ٦/ ١٩١. البداية والنّهاية: ١٢/ ١٧٣. النّجوم الزّاهرة: ٥/ ٢٠٣. شذرات الذّهب: ٦/ ١٨. الأعلام: ٧/ ٢٢.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٢٧، طبعة: المكتب الإسلامي.

(٤) محمّد بن عمر بن الحسين أبو عبد الله، فخر الدّين الرّازي القرشي البكري التّيمي الطّبرستاني، عرف بابن خطيب الرّي. الفقيه الشّافعي، المفسّر المتكلّم الأصولي. له ذكاء متوقّد، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات. قال عنه الذّهبي رحمه الله.
«الفخر بن الخطيب صاحب التّصانيف، رأس في الذّكاء والعقليّات لكنّه عري من=

«نهاية إقدام العقول عقال — وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا — وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا — سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة — فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها — رجال فزالوا والجبال جبال

لقد تأمّلت الطّرق الكلاميّة، والمناهج الفلسفيّة فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطّرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ⑤﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وأقرأ في النّفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي»[(١)].

والشّهْرَسْتَاني[(٢)] كشف عن حيرته وحيرة أولئك وما وصل إليه أمرهم فقال:

= الآثار، وله تشكيكات على مسائل من دعائم الدّين تورث حيرة، نسأل الله أن يثبّت الإيمان في قلوبنا، وله كتاب السّر المكتوم في مخاطبة النّجوم سحر صريح، فلعله تاب من تأليفه إن شاء الله تعالى»، ذُكر أنّه توفي على طريقة حميدة، مات سنة ٦٠٦هـ، له مؤلّفات متعدّدة في التّفسير وعلم الكلام والمنطق والأصول، منها: التّفسير الكبير. المحصّل. المحصول. الأربعين في أصول الدّين.
وانظر: وفيات الأعيان: ٤/ ٢٤٨. سير أعلام النّبلاء: ٢١/ ٥٠٠. العبر: ٣/ ١٤٢. ميزان الاعتدال: ٥/ ٤١١. طبقات الشّافعيّة الكبرى: ٨/ ٨١. البداية والنّهاية: ١٣/ ٥٥. لسان الميزان: ٤/ ٤٢٦. النّجوم الزّاهرة: ٦/ ١٩٧. شذرات الذّهب: ٧/ ٤٠. الأعلام: ٦/ ٣١٣.

(١) شرح العقيدة الطّحاوية، ص: ٢٢٧ ـ ٢٢٨، طبعة: المكتب الإسلامي. وانظر: سير أعلام النّبلاء: ٢١/ ٥٠١.

(٢) محمّد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح الشّهرستاني، الملقّب بالأفضل، المتكلّم المصنّف الأصولي، برع في الفقه وعلم الكلام والفلسفة فتخبّط في الاعتقاد، وكان يغلو في التّشيّع، ويبالغ في نصرة مذاهب الفلاسفة حتّى اتّهم بمذهب الباطنيّة، توفي سنة ٥٤٨هـ، من مصنّفاته: نهاية الإقدام. الملل والنّحل.
وانظر: وفيات الأعيان: ٤/ ٢٧٣. سير أعلام النّبلاء: ٢٠/ ٢٨٦. العبر: ٣/ ٧. طبقات الشّافعيّة الكبرى: ٦/ ١٢٨. لسان الميزان: ٥/ ٢٦٣. النّجوم الزّاهرة: ٥/ ٣٠٥. شذرات الذّهب: ٦/ ٢٤٦. الأعلام: ٦/ ٢١٥.

«فقد أشار إليّ من إشارته غنم، وطاعته حتم، أن أجمع له مشكلات الأصول، وأحلّ له ما انعقد من غوامضها على أرباب العقول، لحسن ظنّه بي أنّي وقفت على نهاية النّظر، وفزت بغايات مطارح الفكر، ولعله استسمن ذا ورم، ونفخ في غير ضرم[1]، لعمري:

لقد طفت في تلك المعاهد كلّها　　وسيّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلّا واضعاً كفّ حائر　　على ذقن أو قارعاً سنّ نادم»[2]

وقال أبو المعالي الجُوَيْني[3]:

«يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به».

وقال عند موته:

«لقد خضت البحر الخضم، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الّذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربّي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمّي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور[4]»[5].

---

(١) الضَّرَمُ: مَصْدَرُ ضَرِمَ ضَرَماً. وضَرِمَت النّارُ وتَضَرَّمَت، واضْطَرَمَت: اشْتَعَلَتْ والتهَبَتْ. لسان العرب: ١٢/ ٣٥٤. وانظر: القاموس المحيط، ص:١٤٦٠.

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام، لعبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد الشّهرستاني. حرّره وصحّحه ألفرد جيوم، ص:٣.

(٣) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف أبو المعالي الجويني، النّيسابوري، إمام الحرمين وشيخ الشّافعيّة في زمانه، متكلّم أصولي فقيه، من أذكياء العالم، وأحد أوعية العلم، رجع عن الكلام في آخر عهده، توفي سنة ٤٧٨هـ، له مصنّفات عدّة منها: الإرشاد في أصول الفقه. الرّسالة النّظاميّة. البرهان في أصول الفقه. الورقات.
وانظر: المنتظم: ٩/ ١٨. وفيات الأعيان: ٣/ ١٦٧. سير أعلام النّبلاء: ١٨/ ٤٦٨. العبر: ٢/ ٣٣٩. طبقات الشّافعيّة الكبرى: ٥/ ١٦٥. البداية والنّهاية: ١٢/ ١٢٨. النّجوم الزّاهرة: ٥/ ١٢١. شذرات الذّهب: ٥/ ٣٣٨. الأعلام: ٤/ ١٦٠.

(٤) نَيسابور: مدينة قديمة بإقليم خراسان، فتحها المسلمون في عهد عثمان ﷺ، وقيل: في عهد عمر ﷺ. وهي مدينة عظيمة، ذات فضائل جسيمة، معدن الفضلاء ومنبع العلماء. وانظر: معجم البلدان: ٥/ ٣٣١.

(٥) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٢٨، طبعة: المكتب الإسلامي. وانظر: المنتظم: ٩/ ١٩. سير أعلام النّبلاء: ١٨/ ٤٧١. طبقات الشّافعيّة: ٥/ ٥٨٥.

وغير هؤلاء كثيرون[1] ممّن حار بهم الأمر، وانقطعت بهم السّبل، وهجرهم الثّبات، وانتابتهم الشّكوك، وقد يصل الحال ببعضهم إلى ما قاله **الطّحاوي** رحمه الله:

«فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتّصديق والتّكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكّاً، لا مؤمناً مصدّقاً، ولا جاحداً مكذّباً»[2].

وامرؤ بلغ هذا المبلغ فَأَنَّى له الثّبات على منهج الله؟ بل مثله يتخوّف على إسلامه وإيمانه، وهذا الّذي دفع أئمّة السّلف على تشديد النّكير، وبالغوا في تحذير من يشتغل بالكلام والجدال الباطل.

قال البربهاري رحمه الله:

«وإذا أردت الاستقامة على الحقّ وطريق أهل السّنّة قبلك فاحذر الكلام وأصحاب الكلام، والجدال والمراء والقياس والمناظرة في الدّين، فإنّ استماعك منهم، وإن لم تقبل منهم يقدح الشّكّ في القلب، وكفى به قبولاً فتهلك، وما كانت قطّ زندقة، ولا بدعة، ولا هوى، ولا ضلالة، إلّا من الكلام والجدال والمراء والقياس، وهي أبواب البدع والشّكوك والزّندقة»[3].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٢٨ ـ ٢٢٩، طبعة: المكتب الإسلامي.
وقد أشار الشّيخ محمّد الأمين الشّنقيطي رحمه الله إلى رجوع جماعة من علماء الكلام إلى منهج أهل السّنّة والجماعة، وتركوا الخوض في الجدال والكلام المذموم والتّأويل المنحرف، فذكر منهم: أبا الحسن الأشعري، والقاضي أبا بكر الباقلّاني، وإمام الحرمين أبا المعالي الجويني، وأبا حامد الغزالي، والفخر الرّازي، والشّهرستاني.
انظر: أضواء البيان: ٧/ ٤٥٤ ـ ٤٧٦، وهؤلاء من أئمة علم الكلام وأساطينه.

(٢) متن العقيدة الطّحاوية، ص:١٠.

(٣) طبقات الحنابلة: ٢/٣٨، وهو في كتاب شرح السّنة، ص:٥٥. وانظر قوله الآخر في: ٢/ ٢٧.
وللجدال والكلام المذموم إضافة إلى ما ذكر مضارّ متعدّدة منها:
١ ـ يحرم صاحبه من الوصول إلى الحقّ ومعرفة الرّشد.
٢ ـ يورث البغضاء والكراهية.
٣ ـ يحذر من صاحبه النّاس ويتحاشونه.
٤ ـ سبب للمعاقبة بالحرمان من السّعادة الّتي يحظى بها الباحث عن الحقّ. =

ولهذا ذهب إلى تحريمه الإمام مالك والشّافعي وأحمد وسفيان وجميع أهل الحديث من السّلف رحمهم الله[1].

وكلام الإمام الشّافعي رَحِمَهُ اللهُ فيه أشدّ وأنكى فقد قال:

«قد اطّلعت من أهل الكلام على شيء ما كنت ظنّنته قطّ، ولأن يبتلى العبد بكلّ ما نهى الله عنه ما عدا الشّرك خير له من أن ينظر في الكلام»[2].

وقال: «حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد، ويطاف بهم في العشائر[3] والقبائل، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسّنّة وأقبل على الكلام»[4].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ:

«لا يفلح صاحب الكلام أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلّا وفي قلبه دغل[5]»[6].

= ٥ ـ طول ممارسته يغري بالتّمادي في الباطل.
٦ ـ يؤدّي إلى سوء العاقبة بالحرمان من المنزلة العالية في الجنّة.
نضرة النّعيم: ٩/ ٤٣٤٩، بتصرّف يسير.
وقد أفاض أبو حامد الغزالي في بيان آفات الجدال وما يتولّد منها من مهلكات الأخلاق في كتابه الإحياء. انظر: إحياء علوم الدّين على هامشه إتحاف السّادة المتّقين: ١/ ٤٧٠ فما بعدها.

(١) انظر: درء التّعارض: ٧/ ١٤٦.

(٢) المرجع السّابق: ٧/ ١٤٦. وانظر: آداب الشّافعي ومناقبه، لعبد الرّحمٰن بن أبي حاتم الرّازي، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ص:١٨٧. مناقب الشّافعي، لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: السّيد أحمد صقر، طبعة: مكتبة دار التّراث، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م: ١/ ٤٥٣. سير أعلام النّبلاء: ١٠/ ١٦. إعلام الموقّعين: ٤/ ٢٤٨.

(٣) العشائر: هم القبائل، جمع عشيرة. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٤٣٤. لسان العرب: ٤/ ٥٧٤. القاموس المحيط، ص:٥٦٦.

(٤) درء التّعارض: ٧/ ١٤٧. وانظر: مناقب الشّافعي: ١/ ٤٦٢. سير أعلام النّبلاء: ١٠/ ٢٩.

(٥) الدّغَل، بالتّحريك: الفساد مثل الدّخَل، ويطلق على الحقد أيضاً. انظر: لسان العرب: ١١/ ٢٤٤ ـ ٢٤٥.
وانظر: مختار الصّحاح، ص:٢٠٦. القاموس المحيط، ص:١٢٩١.

(٦) درء التّعارض: ٧/ ١٤٧.

فالمؤمن الصّادق يتجنّب الخوض في الكلام والجدال الباطل حتّى لا ينزلق عن منهج رسول الله ﷺ كما انزلق غيره ممّن جعل الكلام له حرفة، والجدال له طبعاً، فيفارق الثّبات ويهوي إلى الضّلال فيسقط في الدّركات.

المطلب الثّامن

التّحزّب المقرض

التّحزّب هو التّجمّع، من الحزب وهم الجماعة، والجمع أحزاب: وهم كلّ قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم، أو كلّ طائفة هواهم واحد. وحزب الرّجل: أصحابه وجنده الّذين على رأيه[(١)].

قال المناوي رحمه الله:

«الحزب جماعة فيها غلظ، والأحزاب عبارة عن المجتمعين لمحاربة المصطفى في غزوة الخندق[(٢)]، وحزب الله أنصاره»[(٣)].

والتّحزّب مدحه الله في موضعين من كتابه كما ذمّه في مواضع أخرى.

أمّا الممدوح فقد ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٥ ـ ٥٦].

---

(١) انظر: لسان العرب: ١/ ٣٠٨. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ١٣٣. القاموس المحيط، ص: ٩٤.

(٢) غزوة الخندق: كانت في سنة خمس من الهجرة. ألب فيها اليهود المشركين على غزو المسلمين ووعدوهم بالنّصر. فاجتمع عشرة آلاف من قبائل قريش وغطفان وبني فزارة وغيرهم. فحفر النّبي ﷺ والمسلمون خندقاً بمشورة سلمان الفارسي رضي الله عنه يحول بين المدينة والعدو. ونقض اليهود عهدهم، واشتدّ على المسلمين فيها البلاء، ونجم النّفاق. وحوصر المسلمون شهراً، ولم يكن بينهم قتال إلّا يسيراً، ثمّ أرسل الله على المشركين جنداً من الرّيح فقيضت خيامهم وأطفأت نيرانهم، وجنداً من الملائكة تقذف الرّعب في قلوبهم فانصرفوا آيبين لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال.
انظر: السيرة النبوية لابن هشام: البداية والنهاية: ٤/ ٩٢، فما بعدها. زاد المعاد: ٣/ ٣٧٠ ـ ٣٧٤.

(٣) التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: ٢٧٧.

فقد بيّن سبحانه أنّ المؤمنين الصّادقين في إيمانهم ظاهراً وباطناً، المخلصين في عبادتهم لله، المناصرين له ولرسوله ولعباده المؤمنين، القائمين بما يجب عليهم نحو ربّهم بإقام الصّلاة، ونحو خلقه ببذل الزكاة لمستحقّيها منهم، هم الحزب المضافون إلى الله الّذين يستحقّون الغلبة والنّصرة على أعدائهم[1].

وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي لا يكون المؤمنون مؤمنين بالله واليوم الآخر حقّاً إلّا إذا والوا وأحبّوا من أحبّ الله ورسوله، وأبغضوا وعادوا من أبغض الله ورسوله، ولو كانوا أقرب النّاس إليهم، فإن فعلوا ذلك فهم الّذين غرس الله الإيمان في قلوبهم، وثبّته فيها حيث لا تؤثّر فيها الشّبه ولا الشّكوك، وقوّاهم بمدده وإحسانه، ووهبهم الحياة الطّيّبة في الدّنيا، ومتّعهم بجنّات النّعيم في الآخرة، وعوّضهم بسخطهم على القرائب والعشائر المحادّين لله ورسوله برضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، وأضافهم إلى نفسه فجعلهم حزبه المفلحين تنويهاً بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدّنيا والآخرة[2].

قال الشّوكاني رحمه الله:

«﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ أي جنده الّذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه،

---

(١) انظر معنى الآيتين في: معالم التّنزيل: ٢/ ٤٧. الجامع لأحكام القرآن: ٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٣. أنوار التّنزيل: ٢/ ٣٣٨ ـ ٣٤٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١١٣ ـ ١١٤. فتح القدير: ٢/ ٥٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٩٨ ـ ١٩٩.

(٢) انظر معنى الآية في: معالم التّنزيل: ٤/ ٣١٢ ـ ٣١٣. الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩. أنوار التّنزيل: ٥/ ٣١٥. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥١٣ ـ ٥١٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٧٨٦ ـ ٧٨٧.

وينصرون أولياءه، وفي إضافتهم إلى الله سبحانه تشريف لهم عظيم، وتكريم فخيم، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي الفائزون بسعادة الدّنيا والآخرة، الكاملون في الفلاح الّذين صار فلاحهم هو الفرد الكامل، حتّى كأنّ فلاح غيرهم بالنّسبة إلى فلاحهم كلا فلاح»[1].

فحزب الله هم أولياؤه الّذين أحبّوا فيه وأبغضوا لأجله، وناصروا أولياءه وعادوا أعداءه، فكان اجتماعهم وتحزّبهم لله وفي الله، حيث ربط الله المؤمنين بأخوة الإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: ١٠]، وشرع بينهم الموالاة والنّصرة، والتّراحم والتّعاطف كما قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى»[2]. ودعاهم إلى الائتلاف والتّعاون والاجتماع، ونهاهم عن التّفرّق والتّشتّت والاختلاف فقال: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقال ﷺ: «عليكم بالجماعة وإيّاكم والفرقة، فإنّ الشّيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بُحْبُوحة[3] الجنّة فليلزم الجماعة»[4].

---

(١) فتح القدير: ٥/ ١٩٣ ـ ١٩٤.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الأدب: (٧٨/ ٥٢)، باب رحمة النّاس والبهائم: (٢٧)، برقم: (٦٠١١)، ص: ١٢٩١، عن النّعمان بن بشير ﷺ.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب تراحم المؤمنين: (١٧)، برقم: (٢٥٨٦)، ٤/ ١٩٩٩ ـ ٢٠٠٠.

(٣) بحبوحة الجنّة: أي وسطها وخيارها، ويقال: تبحبحت في الدّار: إذا توسّطها وتمكّنت منها. انظر: غريب الحديث للهروي: ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦. الفائق: ١/ ٨١. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٩٨.

(٤) سنن التّرمذي، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب الفتن: (٣٠)، باب ما جاء في لزوم الجماعة: (٧)، برقم: (٢١٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٦٠، عن عمر رضي الله عنه.
مسند أحمد، نحوه في: ١/ ١٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١/ ٢٠٥، برقم: (١١٤).
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، نحوه في: باب ذكر الإخبار عمّا يجب على المرء من لزوم ما عليه جماعة المسلمين، برقم: (٤٥٧٦). قال شعيب الأرناؤوط: «ثقات من رجال الصّحيح»: ١٠/ ٤٣٦، وفي باب ذكر الإخبار عمّا يظهر في النّاس=

فالجماعة هم الّذين تحزّبوا واجتمعوا على نصرة دين الله وإعلاء كلمته، مترسّمين خطى النّبي ﷺ، سالكين منهجه، متّبعين هديه، يربط بينهم إخاء الإسلام، وتشدّ أواصرهم رابطة الإيمان، متحابّين متآلفين، يوثق بينهم الولاء لله، والحبّ في الله، والبغض لأعداء الله، مع نفرة عن الشّقاق والفرقة.

قال أبو شامة رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وحيث جاء الأمر بلزوم الجماعة فالمراد به لزوم الحقّ واتّباعه، وإن كان المتمسّك بالحقّ قليلاً والمخالف كثيراً، لأنّ الحقّ الّذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النّبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ولا نظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم»[1].

ولمّا كان أهل السّنّة والجماعة يتّسمون بما ذكرت من سمات، ويتّصفون بما أوردت من صفات، إذ هم لا غيرهم الّذين درجوا على منهاج النّبوّة، ولم ينفصلوا عنه لحظة من الزّمن لا باسم ولا برسم، وليس لهم شخص ينتمون إليه ويقتفون أثره سوى رسول الله ﷺ، وهم الّذين يمثّلون بحقّ الامتداد الطّبعي للإسلام في صفائه ونقائه، وللمسلمين في اجتماعهم وائتلافهم، وولائهم لله ورسوله وأهل الإيمان، ونصرتم للحقّ حيث كان، فلمّا كانوا كذلك كانوا هم حزب الله وأنصاره[2].

= من المسابقة في الشّهادات والأيمان الكاذبة، برقم: (٦٧٢٨). قال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح»: ١٥/ ١٢٢، وفي باب ذكر الإخبار عن وصية المصطفى ﷺ الخير بالصّحابة والتّابعين بعده، برقم: (٧٢٥٤). قال شعيب الأرناؤوط «إسناده صحيح على شرط الشّيخين»: ١٦/ ٢٣٩.

مستدرك الحاكم، نحوه في: ١/ ١٩٧، ١٩٩، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين».

مسند أبي يعلى، نحوه في: ١/ ١٣٣، برقم: (١٤٣). قال المحقّق: «رجاله ثقات».

وانظر: السّنّة لابن أبي عاصم، ص:٤٢، برقم: (٨٨).

(١) الباعث على إنكار البدع، ص:٢٦.

(٢) وانظر: حكم الانتماء، ص:٣٧ ـ ٣٨.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الفرقة النّاجية حزب الرّسول وأنصاره، وبُنْك[1] الإسلام وعصابة الإيمان، الّذين لم يتحيّزوا إلى فئة غير رسول الله ﷺ، ولم يذهبوا إلى مقالة غير ما دلّت عليه سنّته، ولم ينتسبوا إلى غيره بوجه من الوجوه»[2].

فمن كان تحزّبه كذلك فهو الّذي حقّ له أن يثبت على منهج رسول الله ﷺ وصحابته من بعده، ويسعد في دنياه وآخرته.

وأمّا التّحزّب المذموم فقد جاء ذكره في آيات كثر، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٣].

لقد أمر الله رسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أن يأكلوا من الطّيّبات وهي الرّزق الحلال، وأن يعملوا صالحاً، وأخبرهم أنّ دينهم دين واحد، وملّتهم ملّة واحدة، وهي الدّعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وألّا يتفرّقوا في الدّين. فمضى رسل الله على ذلك، ممتثلين لأمر الله، يصدّق بعضهم بعضاً، لا يختلفون ولا يتفرّقون مع تنوّع شرائعهم، كما قال سبحانه: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشّورى: ١٣].

وقال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلّات ديننا واحد»[3]. ولكنّ أممهم لم تمتثل ما امتثل به رسل الله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فتقطّعوا أمرهم وصاروا زبراً متفرّقين.

قرئ [زبراً] بضم الباء جمع زبور وهو الكتاب. أي دان كلّ فريق منهم

---

(١) البُنْكُ: أصل الشّيء، وقيل: خالصه. انظر: لسان العرب: ١٠/٤٠٣. القاموس المحيط، ص: ١٢٠٦.

(٢) الصّواعق المرسلة: ٤/١٥٤٩.

(٣) سبق تخريجه انظر: ص: ٤١١.

بكتاب غير الكتاب الّذي دان به الآخر، فاتّبعت فرقة الصّحف، وفرقة التّوراة، وأخرى الزّبور، ورابعة الإنجيل، ثمّ حرّفوا كلّ ذلك وبدّلوه.

وقيل: أخذ كلّ فريق منهم كتاباً آمن به وكفر بما سواه[1]. وقيل: جعلوا كتبهم قطعاً مختلفة: آمنوا بالبعض، وكفروا بالبعض، وحرّفوا البعض[2].

وقرئ [زبراً] بفتح الباء أي قطعاً كقطع الحديد. والمراد أنّهم جعلوا دينهم أدياناً متفرّقة بعد ما أمروا بالاجتماع وعدم التّفرّق، وهم مع ذلك معجبون مسرورون بما هم فيه من الضّلال، يحسبون أنّهم على الحقّ، وأنّهم مهتدون[3].

والتّحزّب سنّة جرت في الأمم السّابقة لم تشذ عنها أمّة. فقد سمّى الله المكذّبين لرسله، المعادين لهم، المناهضين لدعوتهم أحزاباً، لاجتماعهم على الكفر والباطل والضّلال، فقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ [ص: ١٢ ـ ١٤][4].

وقريش ومن شايعها من قبائل العرب لـمّا سلكوا مسلك أولئك في التّكذيب والجحود جعلهم الله أحزاباً مثل أولئك الأحزاب. فقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقال: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص: ١١][5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ١٣٠. (٢) معالم التّنزيل: ٣/ ٣١١.

(٣) وانظر معنى الآيات من سورة المؤمنون في: معالم التّنزيل: ٣/ ٣١٠ ـ ٣١١. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ١٣٠. أنوار التّنزيل: ٤/ ١٥٨. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٩٦. فتح القدير: ٣/ ٤٨٦. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٠٢ ـ ٥٠٣.

(٤) وانظر: سورة غافر: الآية (٥). وانظر: معالم التّنزيل: ١/ ٥٠، ٩١. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ١٥٤، ٢٩٣. أنوار التّنزيل: ٥/ ٣٩، ٨٣. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٥، ١٠٨. فتح القدير: ٤/ ٤٢٣، ٤٨١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٥٦، ٦٧٨.

(٥) وانظر معناها في: معالم التّنزيل: ٤/ ٤٩. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ١٥٣. أنوار التّنزيل: ٥/ ٣٨. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٤٤. فتح التقدير: ٤/ ٤٢٢.

وبيّن أنّ الأحزاب هم الّذين كذّبوا بكتاب الله وهو القرآن الّذي أنزل على محمّد ﷺ وكفروا به. فقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم، على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممّن بلغه القرآن فالنّار موعده، وهو من أهلها لا محالة(١).

فسمّى جميع طوائف الكفّار أحزاباً وهذا أعظم ذمّ للتّحزّب. فأهل الكفر تحزّبوا لنصرة الباطل، وتكذيب الرّسل، ومعاندة الحقّ، فكان تحزّبهم تحزّباً مذموماً يلقي بأصحابه في الوبال والهلكة، ولذا حذّر الله أهل الإيمان أن يتفرّقوا ويتشتّتوا ويتحزّبوا أحزاباً، كلّ حزب يتعصّب لما معه ـ ولو كان باطلاً ـ فيكونون حينئذ مشابهين لأهل الكفر والشّرك في تحزّبهم، فقال سبحانه: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الرّوم: ٣١ ـ ٣٢].

وقد وقع ما حذّر الله سبحانه منه، فتفرّقت الأمّة إلى شيع وأحزاب يناوئ بعضها بعضاً، ويضلّل بعضها بعضاً، وكلّ منها يزعم أنّه على الحقّ ودونه على الباطل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض كلامه عن الآية السّابقة:

«فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة، وكلّ فرقة منهم تزعم أنّهم على شيء، وهذه الأمّة أيضاً، اختلفوا فيما بينهم على نحل كلّها ضلالة إلّا واحدة، وهم أهل السّنّة والجماعة، المتمسّكون بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصّدر الأوّل من الصّحابة والتّابعين وأئمّة المسلمين في قديم الدّهر وحديثه»(٢).

وقد ذكر بعض أهل العلم أنّ المراد بـ﴿ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ هم

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٨٢ بتصرّف يسير. وانظر: معالم التّنزيل: ٢/ ٣٧٧. الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ١٧. أنوار التّنزيل: ٣/ ٢٢٧. فتح القدير: ٢/ ٤٨٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٩٠.

أهل البدع والأهواء من هذه الأمة[1]، فتكون الآية بياناً للحال الّذي تؤول إليه أمّة الإسلام.

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرّعد: ٣٦ ـ ٣٧].

فالله أمر باتّباع الكتاب وهو القرآن المنزّل على خير الرّسل ﷺ، وحذّر من سلوك منهج الأحزاب الّذين يؤمنون ببعض ما في الكتاب وينكرون البعض، وهذا الّذي أوقعهم في التّحزّب والتّفرّق، وهو أن يتمسّك الإنسان ببعض الحقّ وينكر البعض الآخر، وتلك سمة بارزة لأهل الكتاب عابها الله عليهم حيث قال: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: ٨٥]. وفي ذلك أيضاً تحذير للمؤمنين أن يقعوا فيما وقع فيه أولئك.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي آراءهم ﴿بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾، أي من الله سبحانه، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتّبعوا سبل أهل الضّلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السّنّة النّبويّة، والمحجّة المحمّديّة على من جاء بها أفضل الصّلاة والسّلام»[2].

---

(١) انظر: معالم التّنزيل: ٣/ ٤٨٣. فتح القدير: ٤/ ٢٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٠٢. وانظر معنى الآيتين في: معالم التّنزيل: ٣/ ٢١ ـ ٢٢. الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٣٢٥ ـ ٣٢٧. أنوار التنزيل: ٣/ ٣٣٣. فتح القدير: ٣/ ٨٧ ـ ٨٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٧٣ ـ ٣٧٤.

وهذا حال كثير من الجماعات والأحزاب اليوم الّذين امتلأت بهم ساحة الإسلام، فلا يقبل أحدهم الحقّ إلّا إذا جاء من طريق حزبه وجماعته، ويردّ الحقّ الّذي مع من سواه ولو كان واضحاً كالشّمس، بل لا يحبّ ولا يوالي إلّا من كان من طائفته، ويبغض من سواهم ولو كانوا من اتقى عباد الله.

فهل هناك أداة للتّفرّق والشّتات تعصف بوحدة هذه الأمّة، وتشتّت شملها، وتحرفها عن المنهج الحقّ أعظم من هذه الأداة؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله بعد ذكره لبعض الآيات النّاهية عن التّفرّق:

«فكيف يجوز مع هذا لأمّة محمّد ﷺ أن تفترق وتختلف حتّى يوالي الرّجل طائفة ويعادي طائفة أخرى بالظّنّ والهوى بلا برهان من الله تعالى، وقد برّأ الله نبيّه ﷺ ممّن كان هكذا، فهذا فعل أهل البدع كالخوارج الّذين فارقوا جماعة المسلمين واستحلّوا دماء من خالفهم. وأمّا أهل السّنّة والجماعة فهم معتصمون بحبل الله، وأقلّ ما في ذلك أن يفضّل الرّجل من يوافقه على هواه وإن كان غيره أتقى لله منه.

وإنّما الواجب أن يقدّم من قدّمه الله ورسوله، ويؤخّر من أخّره الله ورسوله، ويحبّ ما أحبّه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، وينهى عمّا نهى الله عنه ورسوله، وأن يرضى بما رضي الله به ورسوله، وأن يكون المسلمون يداً واحدة. فكيف إذا بلغ الأمر ببعض النّاس إلى أن يضلّل غيره ويكفّره، وقد يكون الصّواب معه وهو الموافق للكتاب والسّنّة؟»[(١)].

وقد نصّب كثير من تلك الأحزاب أشخاصاً، قادة لهم، وأنزلوا أقوالهم منزلة أقوال رسول الله ﷺ يوالون عليها، ويعادون فيها، ويطيعونهم في كلّ ما أمروا به أو نهوا، وإن خالفوا الحقّ جهرة أوجدوا لهم من الأعذار والتّبريرات الباردة ما يؤيّدون به مزاعمهم وأخطاءهم، فيدبّ هنالك العداء والفرقة بين صفوف أمّة واحدة تنتمي إلى دين واحد وهو الإسلام، ويحدث الزّيغ

---

(١) مجموع الفتاوى: ٣/٤١٩ ـ ٤٢٠. وانظر: ١١/٩٢ من الكتاب نفسه.

والانحراف عن المنهج الواحد الّذي جعله الله طريقاً للوصول إليه وأغلق ما سواه من الطّرق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من نصّب شخصاً كائناً من كان فوالى وعادى على موافقته في القول والفعل فهو: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ [الرّوم: ٣٢]»(١).

وقال: «وليس لأحد أن ينصّب للأمّة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها غير النّبي ﷺ، ولا ينصّب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمّة؟ بل هذا من فعل أهل البدع الّذين ينصّبون لهم شخصاً أو كلاماً يفرّقون به بين الأمّة، يوالون به على ذلك الكلام، أو تلك النّسبة ويعادون»(٢).

وقال: «وليس لأحد أن ينتسب إلى شيخ يوالي على متابعته، ويعادي على ذلك، بل عليه أن يوالي كلّ من أهل الإيمان، ومن عرف منه التّقوى من جميع الشّيوخ وغيرهم، ولا يخصّ أحداً بمزيد موالاة إلّا إذا ظهر له مزيد إيمانه وتقواه، فيقدّم من قدّم الله تعالى ورسوله عليه، ويفضّل من فضّله الله ورسوله»(٣).

وكثير من أولئك الزّعماء والقادة أرباب مصالح، ورغبات حابطة، وغايات رخيصة، أقلّها الزّعامة والتّصدّر، فيمتطون صهوة التّحزّب لينالوا غاياتهم ورغباتهم ومصالحهم، لا همّ لهم في دين يعلو، ولا شرع يقام، ولا إسلام يسود، حيث ضاقت نظرتهم فلا تتعدّى حدود الحزب الّذي ينتمون إليه، وانقطع ودّ الإخاء إلّا في محيط حزبهم، وأبيد الولاء إلّا في دائرة جماعتهم، فكأنّ حزبهم هو الإسلام وحده ولا إسلام سواه، بل يمكن أن أقول إنّ رابطة الإسلام بين هؤلاء أبدلت برابطة الحزب الضّيّقة حيث ينمو التّعصب للأشخاص لا للشّرع.

---

(١) المرجع السّابق: ٢٠/٨.
(٢) المرجع السّابق: ٢٠/ ١٦٤.
(٣) المرجع نفسه: ١١/ ٥١٢.

قال الشّيخ بكر أبو زيد:

«إنّ الحزبيّة ذات المسارات والقوالب المستحدثة الّتي لم يعهدها السّلف من أعظم العوائق عن العلم، والتّفريق عن الجماعة، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي[1]»[2].

ولك أن تتصوّر ما ينغمر فيه المتحزّبون من قضايا انصرافيّة تميت الالتزام بالشّرع في نفوس الأتباع، حيث يصبح الالتفاف حول الحزب وجلب الأفراد إليه بشتّى السّبل والوسائل ـ الشّرعيّة منها وغير الشّرعيّة ـ هو البند الأوّل والهدف الأسمى بين أجندة التّكتّل الحزبي، متدثّرين بثوب من السّريّة، متصيّدين أولئك من خلال الدّعوة الموسميّة، مع خوض في غمار السّياسة فحسب، منغمسين في فقه الجرائد والمجلّات، ملمّعين لأهل الابتداع، معظّمين لأنفسهم، متكلّمين فيمن خالفهم بالاتّهامات المنكرة والألقاب السّاقطة، مع انحدار إلى هوّة التّكفير، وكلّ ذلك سبيل ممهّد لجلب أعداء الله المدبّرين لمحو الإسلام[3].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

«وكيف يجوز التّفريق بين الأمّة بأسماء مبتدعة لا أصل لها في كتاب الله ولا سنّة رسوله ﷺ، وهذا التّفريق الّذي حصل من الأمّة علمائها ومشايخها وأمرائها وكبرائها هو الّذي أوجب تسلّط الأعداء عليها، وذلك بتركهم العمل بطاعة الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة: ١٤]، فمتى ترك النّاس بعض ما أمرهم الله به وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرّق القوم فسدوا وهلكوا، وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا، فإنّ الجماعة رحمة والفرقة عذاب»[4].

ولم يقف الأمر عند تسلّط الأعداء، بل أصبح الطّريق وعراً شائكاً مظلماً على من يريد الحقّ، حيث يرى شعارات برّاقة ترفع في كلّ بقعة من بلاد

---

(١) الغواشي: جمع غاشية وهي العقوبة العامّة المهلكة. وانظر: لسان العرب: ١٥/ ١٢٧.

(٢) حكم الانتماء، ص: ١٠٩.

(٣) وانظر: المناهج الدّعوية، ص: ٩٢.

(٤) مجموع الفتاوى: ٣/ ٤٢١.

الإسلام يهتف أهلها: إلينا إلينا لا إلى غيرنا، فيقف حائراً لا يدري أين تكون الوجهة ولأيّها يكون الانتماء، وخاصّة إذا كان خالي الوفاض من علم الشّرع. فأنّى لهذا سلوك طريق النّجاة، وكيف له بمسلك السّلامة؟.

فالتّحزّب عائق عظيم عن سلوك منهج الله ورسوله، وعامل لئيم يؤدّي إلى الانحراف عن سبيل الله، ومؤثّر ذميم يبذر الشّك والارتياب في قلب من يريد السّير على طريق الله.

والحقّ واحد لا يتعدّد، والجماعة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهي: جماعة واحدة لا جماعات، وصراط واحد لا عشرات[(١)]. الأصل فيها قائم على قاعدة التّعاون الشّرعي المنبني على علم الكتاب والسّنّة، بعيدة عن التّحزّب المنحرف، والتّعصّب المقرض الّذي يفرّق ولا يجمع، ويبعد ولا يقرّب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وليس للمعلّمين أن يحزّبوا النّاس، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، بل يكونون مثل الإخوة المتعاونين على البر والتّقوى كما قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]»[(٢)].

فأهل الإيمان يكونون يداً واحدة يكلؤهم الحبّ في الله لا التّباغض، وتحيط بهم الرّحمة لا العداوة، ويرفرف بين جوانبهم الودّ لا الضّغائن، متماسكين، متناصحين، متعاونين، لا متعادين ولا متحزّبين ولا متفرّقين، منهجهم واحد عليه يثبتون، وطريقهم واحد له يسلكون. لأنّ ربّهم واحد إيّاه يعبدون، وكتابهم واحد به يلتزمون، ورسولهم واحد له يتّبعون، وهم أمّة واحدة ليسوا متفرّقين ولا متناحرين.

---

(١) عنوان كتاب لفضيلة شيخنا ربيع بن هادي المدخلي، وهو كتاب قيّم جدّاً، يرجع إليه من يريد المزيد من موضوع التّحزّب، كما يمكنه الرّجوع إلى حديث افتراق الأمّة للأمير الصّنعاني، والأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة، ولمحة عن الفرق الضّالة كلاهما للشّيخ صالح بن فوزان الفوزان، والأحزاب السّياسيّة في الإسلام لصفي الرّحمٰن المباركفوري، وحكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات للشّيخ بكر أبي زيد، رؤية واقعيّة في المناهج الدّعويّة، والدّعوة بين التّجمّع الحزبي والتّعاون الشّرعي كلاهما للشّيخ علي حسن عبد الحميد، حفظ الله الجميع ورحم الله من قضى نحبه منهم.

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٨/ ١٥ ـ ١٦.



الأخذ بالوسطيّة والاعتدال

لقد سبق أن بيّنت أنّ من سمات المنهج الحقّ الوسطيّة، وقد ذكرت من أدلّة الكتاب والسّنّة وأقوال أهل العلم ما يدلّ على ذلك[1].

وأحبّ أن أبيّن هنا أنّ من أعظم ما يعين على الثّبات على المنهج أن يتّسم السّائر عليه الوسطيّة، وهو مطلب عزيز طالما زلّت فيه أقدام، واضطّربت فيه أفهام، وقلّ أهله بين النّاس، أولئك الّذين يتّسمون بالعدل والإنصاف مع أنفسهم ومع غيرهم.

وهذا الّذي دفع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في جعله جماع الشّر يكمن في عدم الاعتدال، حيث قال:

«وإنّما جماع الشّر تفريط في حقّ أو تعدٍّ إلى باطل، وهو تقصير في السّنّة أو دخول في البدعة، كترك بعض المأمور وفعل بعض المحظور، أو تكذيب بحقّ وتصديق بباطل. ولهذا عامّة ما يؤتى النّاس من هذين الوجهين»[2].

فالشّيطان عليه لعائن الله استطاع بهذين الدّاعين ـ الإفراط والتّفريط ـ أن يبعد كثيراً من النّاس عن طريق الله القويم، ويلقي بهم في أودية المهالك.

قال ابن عائشة رحمه الله[3]:

---

(١) انظر: ص: ٨٢١ ـ ٨٢٩. من هذا البحث. .

(٢) الصّفديّة لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمّد رشاد سالم، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٦هـ: ١/ ٢٩٣.

(٣) هو عبيد الله بن محمّد بن حفص أبو عبد الرّحمٰن القرشي التّيمي العيشي البصري، المعروف بابن عائشة لأنّه من ولد عائشة بنت طلحة. محدّث ثقة، عالم إخباري، =

«ما أمر الله سبحانه بأمر إلّا وللشّيطان فيه نزغتان: إمّا إلى تفريط وتقصير، وإمّا إلى مجاوزة وغلوّ، ولا يبالي بأيهما ظفر».

وقد اقتطع أكثر النّاس إلّا أقلّ القليل في هذين الواديين، وادي التّقصير، ووادي المجاوزة والتّعدّي، والقليل منهم جداً الثّابت على الصّراط الّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه[1].

والسّلف رحمهم الله يذكرون هذين الأصلين كثيراً وهما: الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسّنّة. فإنّ الشّيطان يشمّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضاً عن كمال الانقياد للسنّة: أخرجه عن الاعتصام بها. وإن رأى فيه حرصاً على السّنّة، وشدّة طلب لها، لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد، والجور على النّفس، ومجاوزة حدّ الاقتصاد فيها، قائلاً له: إنّ هذا خير وطاعة، والزّيادة والاجتهاد فيها أكمل، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النّوم، فلا يزال يحثّه ويحرّضه حتّى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدّها. كما أنّ الأوّل خارج عن هذا الحدّ، فكذا هذا الآخر خارج عن الحدّ الآخر. وهذا حال الخوارج الّذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم. وكلا الأمرين خروج عن السّنّة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التّفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف[2].

والعمدة العاصم من ذلك هو ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه

= جوّاد، له رقائق وفصاحة وحسن خلق وشجاعة، توفي سنة ٢٢٨هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٣٠١. طبقات خليفة، ص:٢٢٩. التّاريخ الكبير: ٥/ ٤٠٠. الجرح والتّعديل: ٥/ ٣٣٥. ثقات ابن حبّان: ٨/ ٤٠٥. تاريخ بغداد: ١٠/ ٣١٤. تهذيب الكمال: ١٩/ ١٤٧. الكاشف: ١/ ٦٨٦. تهذيب التّهذيب: ٧/ ٤١. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٧٤.

(١) إغاثة اللّهفان: ١/ ١١٦.

(٢) مدارج السّالكين: ٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨.

الأبرار، فإنّ هديهم هو الهدي وطريقهم هو الطّريق، فمن انحرف عنه يَمنة بإفراط أو يَسرة بتفريط فهو المنزلق المتزحلق الّذي فارقه الثّبات على منهجهم، وخالفته الاستقامة على طريقهم.

قال ابن القيّم رحمه الله:

«إنّ التّعمّق والتّنطّع والتّشديد الّذي نهى عنه رسول الله ﷺ هو المخالف لهديه وهدي أصحابه وما كانوا عليه، وإنّ موافقته فيما فعله هو وخلفاؤه من بعده هو محض المتابعة، وإن أباها وجهلها من جهلها، فالتّعمّق والتّنطّع مخالفة ما جاء به وتجاوزه والغلو فيه، ومقابله إضاعته والتّفريط فيه والتّقصير عنه، وهما خطأ وضلالة وانحراف عن الصّراط المستقيم، والمنهج القويم، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه»(١).

وقد ضلّ الطّريق وفارق الثّبات على المنهج أناس نظروا إلى مجتمع الإسلام بمنظار قاتم فأرادوا أن يصلحوا عوجه، فاتّخذوا العنف طريقاً إلى الإصلاح فأحدثوا فوضى أريقت معها الدّماء، وشوّهوا من جرّائها صفاء الإسلام، فتنفّس الصّعداء أعداء الله، ووجدوا بغيتهم وما يأملون فأطلقوا من الألفاظ والألقاب ما يصرفون به النّاس عن الإسلام، ويقبّحون وجهه في كلّ محفل، ليظهر في جثمان شبح مخيف ينفر النّاس عنه، حيث تظهر عبارات الأصوليّة المتزمّتة، والإرهاب، ومصاصي الدّماء وغير ذلك، وهم لا يفرّقون أو لا يريدون أن يفرّقوا بين المحقّ والمبطل، وبين المصيب والمخطئ، إذ قصدهم أن يُدمّر الإسلام بأي وجه ولو عن طريق الظّلم والجهل.

وهنالك نابغة أخرى أعجزتهم التّكاليف أن يلتزموا بها، وصعب عليه الالتزام أن يواكبوه، ومالت أنفسهم إلى تحلّلات المجتمع فأرادوا أن يسايروه، فلجؤوا إلى النّصوص فلووا أعناقها وميّعوها، بحجّة معايشة المجتمع تارة، وعدم إخلاء السّاحة لأهل الضّلالة أخرى، ولأجل مصلحة الدّعوة ومواكبة الحياة والمشاركة في متطلّباتها تارة أخرى، وواجهوا الملتزمين السّائرين على

---

(١) كتاب الصّلاة وحكم تاركها، ص:١٩٢.

منهج السّلف بعبارات منفّرة، فقالوا عنهم: إنّهم جافّون على النّصوص لا فهم لهم ولا فقه، متشدّقون لا وعي لهم ولا إدراك، متخلّفون عن الرّكب، متحجّرون تقليديون، همّهم أن تحشى أذهانهم بنصوص لا يدرون موقعها من المجتمع. هكذا يزعمون، وبئس ما يزعمون.

فهؤلاء وأولئك على طرفي نقيض وكلاهما زائغ عن المنهج الحقّ، ومنحرف عن الصّراط المستقيم، وفاز أهل الاعتدال والوسطيّة بالثّبات على منهج السّلف الصّالحين والأئمّة المهديين.





عدم الوحشة بقلّة السّالكين

لقد بيّن سبحانه أنّ أكثر النّاس ضالّون عن الطّريق، منحرفون عن الصّراط، ناكبون عن السّبيل، مجافون للحقّ، زائغون عن الاستقامة. فقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ:

«﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي أكثر النّاس، يريد الكفّار، أو الجهّال، أو أتباع الهوى، وقيل: الأرض أرض مكّة. يضلّوك عن سبيل، عن الطّريق الموصل إليه، فإنّ الضّال في غالب الأمر لا يأمر إلّا بما هو ضلال»(١).

ويؤيد ما سبق قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقوله: ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٢](٢).

كما بيّن سبحانه أنّ أهل الحقّ، السّالكين صراطه المستقيم، السّائرين على نهجه القويم، التّابعين لرسله الأكرمين قلّة بين النّاس، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ

---

(١) أنوار التّنزيل: ٢/٤٤٦. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٧١. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٦٩. فتح القدير: ٢/ ١٥٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٣٣.

(٢) وانظر الآيات: (المائدة: ٤٩، ١٠٣) (الأنعام: ١١١) (التّوبة: ٨) (هود: ١٧) (يوسف: ٢١، ٣٨، ١٠٦) (الإسراء: ٦٢).

عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ﴾ [ص: ٢٤].

فنوح عليه السلام مع طول بقائه في قومه، وقيامه بالدّعوة فيهم على قدم وساق، ومع ذلك: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

قال ابن كثير رحمه الله:

«﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أي نزر يسير مع طول المدّة والمقام بين أظهرهم، ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]. فعن ابن عبّاس: كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم، وعن كعب الأحبار[١]: كانوا اثنتين وسبعين نفساً، وقيل: كانوا عشرة»[٢].

وقال سبحانه في نجاة من نجا مع لوط عليه السلام من العذاب: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذّاريات: ٣٥ ـ ٣٦]. وقد نصّ أهل العلم على أنّهم لوط عليه السلام وأهل بيته إلّا امرأته[٣].

وقد أشار النّبي ﷺ إلى قلّة أتباع الأنبياء، فقال في حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما: «عرضت علي الأمم، فرأيت النّبي ومعه الرُّهَيطُ[٤]، والنّبي ومعه

---

(١) كعب بن ماتِع أبو إسحاق الحميري، المعروف بكعب الأحبار، كان من أهل اليمن فسكن الشّام، من كبار علماء أهل الكتاب، أدرك النّبي ﷺ وأسلم في خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل: في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ثقة مخضرم، من أوعية العلم، توفي سنة ٣٤هـ، وقيل: ٣٢هـ بحمص.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٤٤٥. التّاريخ الكبير: ٧/ ٢٢٣. الجرح والتّعديل: ٧/ ١٦١. ثقات ابن حبّان: ٥/ ٣٣٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٨٨. تهذيب الكمال: ٢٤/ ١٨٩. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٥٢. الكاشف: ٢/ ١٤٨. جامع التّحصيل، ص: ٢٦٠. الإصابة: ٥/ ٦٤٧. تهذيب التّهذيب: ٨/ ٣٩٣. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٦١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٩٠ وذكر أقوالاً أخرى.

(٣) انظر: المرجع السّابق: ٤/ ٣٦٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٥٢.

(٤) الرّهيط: تصغير رهط. قال ابن الأثير رحمه الله:
«الرّهط من الرّجال ما دُون العَشَرة، وقيل: إلى الأرْبعين، ولا تكونُ فيهم امرأةٌ، ولا واحدَ له من لَفظِه، ويُجمع على أرهُط وأرْهاط. وأرَاهِطُ جمعُ الجمْع». النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٨٣. وانظر: الفائق: ٢/ ٩٦.

الرّجل والرّجلان، والنّبي ليس معه أحد...» الحديث[1].

كما بيّن ﷺ أنّ الّذين يسلكون منهجه، ويتّبعون صراطه، ويثبتون على طريقه فلا يعوجون عدد قليل، ونزر يسير، من هذه الأمّة، فقال: «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء»[2].

فسئل ﷺ عن الغرباء؟ فقال في رواية: «النّزّاع من القبائل»[3].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظ مقارب ـ جزء من حديث ـ في: كتاب الطّبّ: (٧٦/ ٥٠)، باب من لم يرق: (٤٢)، برقم: (٥٧٥٢)، ص:١٢٤٧، ونحوه في: باب من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو: (١٧)، برقم: (٥٧٠٥)، ص:١٢٣٩، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب يدخل الجنّة سبعون ألفاً بغير حساب: (٥٠)، برقم: (٦٥٤١)، ص:١٣٨٩.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب الدّليل على دخول طوائف من المسلمين الجنّة بغير حساب ولا عذاب (٩٤)، برقم: (٢٢٠)، ١/ ١٩٩.

إنّ كثيراً ممّن يحملون مناهج دعويّة يهتمون بجمع النّاس على علّاتهم بهدف المكاثرة بهم، فهم يسعون أبداً للتّجميع والتّنظيم والتّحزيب من غير تمحيص ولا تهذيب، إذ همّهم الكثرة فحسب مع تباين أفكارها، واختلاف مشاربها، ويجعلون هذا غاية يسعون للوصول إليها، مسخّرين كلّ ما يمكنهم لبلوغها.

وهذا في نفسه وسيلة وليس غاية، إذ الغاية هي أن تحقّق عبوديّة الله في الأرض.

وتجميع النّاس على الحماس الزّائد، والعاطفة غير الرّاشدة، والأهداف الرّخيصة، والاهتمام البالغ بذلك، وإهمال الهدف المنشود والغاية السّاميّة، وهي عبادة الله وحده دون سواه مذهب خاطئ، ومنهج تالف أثبت فشله في غير موقع، وعدم جدواه في غير وقت، بل جرَّ من المفاسد لأهل الإسلام ما يدركه كلّ صاحب بصيرة وعقل.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب بيان أنّ الإسلام بدأ غريباً: (٦٥)، برقم: (١٤٥). عن أبي هريرة رضي الله عنه، وبلفظ مقارب مع زيادة: «وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحيّة في جحرها»، برقم: (١٤٦)، عن ابن عمر رضي الله عنهما: ١/ ١٣٠ ـ ١٣١.

(٣) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن: (٣٦)، باب من ترجو له السّلامة من الفتن: (١٦)، برقم: (٣٩٨٨)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٢٩.

سنن الدّارمي، باب إنّ الإسلام بدأ غريباً: ٢/ ٤٠٢.

مسند أحمد: ١/ ٣٩٨. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٥/ ٢٩٦، برقم: (٣٧٨٤).

مسند أبي يعلى، ٨/ ٣٨٨، برقم: (٤٩٧٥). قال المحقّق: «إسناده صحيح».

وفي رواية أخرى: «أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممّن يطيعهم»[١]. وفي رواية: «الّذين يصلحون إذا أفسد النّاس»[٢].

وفي رواية: «الّذين يصلحون ما أفسد النّاس من بعدي من سنّتي»[٣].

وفي رواية: «الّذين يحيون سنّتي ويعلمونها عباد الله»[٤].

---

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٢/ ١٧٧. وبلفظه إلّا أحرف يسيرة في: ٢/ ٢٢٢. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦، ١٢/ ٢٩، برقم: (٦٦٥٠، ٧٠٧٢). عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
معجم الطّبراني الأوسط، بلفظ مقارب في: ٩/ ١٤.
الزّهد لأبي عبد الرّحمٰن عبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق: حبيب الرّحمٰن الأعظمي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، بلفظ مقارب في: ص:٢٦٧.
كتاب الزّهد الكبير لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، طبعة: مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٩٩٦م، نحوه في: ٢/ ١١٦.
الفردوس بمأثور الخطاب، بلفظ مقارب في: ٢/ ٤٤٩.
وانظر: مجمع الزّوائد: ٧/ ٢٧٨. التّرغيب والتّرهيب: ٤/ ٦٤، وقال: «وأحد إسنادي الطّبراني رواته رواة الصّحيح».

(٢) مسند أحمد، بلفظه في: ٤/ ٧٣. عن عبد الرّحمٰن بن سنة رضي الله عنه.
مسند أبي يعلى، نحوه في: ٢/ ٩٩، برقم: (٧٥٦). قال المحقّق: «إسناده صحيح». عن سعد بن مالك رضي الله عنه. معجم الطّبراني الكبير، بلفظ مقارب في: ٦/ ١٦٤. وفي المعجم الصّغير: ١/ ١٨٣. عن سهل بن سعد السّاعدي رضي الله عنه.
مسند الشّهاب، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «فسد» ـ في: ٢/ ١٣٩. عن سهل رضي الله عنه.
الجهاد، لعبد الله بن المبارك، تحقيق: نزيه حمّاد، طبعة: الدّار التّونسيّة، تونس، ١٩٧٢م، ولفظه: «الّذين هم صالحون عند فساد النّاس». عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما موقوفاً عليه، ص: ١٦٤.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظه في كتاب الإيمان: (٣٧)، باب ما جاء أنّ الإسلام بدأ غريباً: (١٣)، برقم: (٢٦٣٠)، عن كثير بن عبد بن عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة عن أبيه عن جده. قال أبو عيسى رحمه الله: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «ضعيف جداً»، ص:٤٢٦.
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «النّاس بعدي» ـ، في: ١٧/ ١٦.

(٤) مسند الشّهاب، بلفظه ـ في موضعين ـ في: ٢/ ١٣٨. عن كثير بن عبد الله المزني عن أبيه عن جده.

قال أبو العبّاس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الإسلام نشأ في أوّل أمره في آحاد من النّاس وقلّة، ثمّ انتشر وظهر، فأخبر ﷺ أنّه سيلحقه من الضّعف والاختلال حتّى لا يبقى إلّا في آحاد وقلّة كابتدائه»[1].

وهنالك عدّة احتمالات في معنى غربة الإسلام، من ذلك:

- أنّه بدأ غريباً لا يعرف ثمّ ظهر وعرف، ثمّ يقلّ بعد ذلك من يعرفه حتّى يكون كحاله الأولى.

- أنّه في آخر الدّنيا لا يبقى مسلم إلّا قليل، وهذا إنّما يكون بعد الدّجال ويأجوج ومأجوج عند قرب السّاعة.

- أنّه يكون غريباً في بعض شرائعه وقد يكون ذلك في بعض الأمكنة، حيث تخفى بعض شرائعه فلا يعرفها إلّا الواحد بعد الواحد[2].

والغرباء قد بيّن ﷺ صفاتهم فيما سبق من روايات، وإنّما سمّوا غرباء لقلّتهم في النّاس جداً، وأنّ أكثر النّاس على غير هذه الصّفات.

فأهل الإسلام في النّاس غرباء، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء، وأهل السّنّة الّذين يميزونها من أهل الأهواء والبدع غرباء، والدّاعون إليها الصّابرون على أذى المخالفين أشدّ هؤلاء غربة، وهي غربة أهل الله وأهل سنّة رسوله ﷺ بين الخلق، وهي الّتي مدحها رسول الله ﷺ ومدح أهلها، وهي قد تكون في مكان دون مكان، ووقت دون وقت، وبين قوم دون قوم.

---

(١) المفهم: ١/ ٣٦٢. وذكر نحوه النّووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونسبه إلى القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وانظر: شرح النّووي على صحيح مسلم: ٢/ ١٧٧.

(٢) مجموع الفتاوى: ١٨/ ٢٩٥ ـ ٢٩٨ بتصرّف. وهي رسالة في شرح الحديث أعلاه، ضمّنها ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ مجموع الفتاوى. قال شيخ الإسلام: «وهذا الحديث يفيد المسلم أنّه لا يغتم بقلّة من يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شكّ من دين الإسلام كما كان الأمر حين بدا».
المرجع السّابق: ١٨/ ٢٩٧.

ومن صفات أهلها إنّهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسول الله ﷺ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به، وهم الّذين فارقوا النّاس أحوج ما كانوا إليهم، فإذا انطلق النّاس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم، فيقال لهم: ألا تنطلقوا حيث انطلق النّاس؟ فيقولون: «فارقنا النّاس ونحن أحوج إليهم منّا اليوم، وإنّا ننتظر ربّنا الّذي كنا نعبده»[1].

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها بل هو آنس ما يكون إذا استوحش النّاس؛ لأنّ وليّه الله ورسوله والّذين آمنوا، وإن عاداه أكثر النّاس وجفوه.

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنّ أناساً في زمن النّبي ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال النّبي ﷺ: «نعم هل تضارّون في رؤية الشّمس بالظّهيرة ضوء ليس فيها سحاب؟»، قالوا: لا، قال: «وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحاب؟»، قالوا: لا، قال النّبي ﷺ: «ما تضارّون في رؤية الله ﷻ يوم القيامة إلّا كما تضارّون في رؤية أحدهما. إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذّن تتبع كلّ أمّة ما كانت تعبد، فلا يبقى من كان يعبد غير الله من الأصنام والأنصاب إلّا يتساقطون في النّار، حتّى إذا لم يبق إلّا من كان يعبد الله برّ أو فاجر وغُبَّرات ـ بقيّة ـ أهل الكتاب، فيدعى اليهود فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنّا نعبد عزيراً ابن الله. فيقال لهم: كذبتم ما اتّخذ الله من صاحبة ولا ولد، فماذا تبغون؟ فقالوا: عطشنا ربّنا، فاسقنا فيشار ألا تردون، فيحشرون إلى النّار كأنّها سراب يَحْطِم بعضها بعضاً فيتساقطون في النّار. ثمّ يدعى النّصارى فيقال لهم: من كنتم تعبدون؟ قالوا: كنّا نعبد المسيح ابن الله. فيقال لهم: كذبتم، ما اتّخذ الله من صاحبة ولا ولد. فيقال لهم: ماذا تبغون؟ فكذلك مثل الأوّل حتّى إذا لم يبق إلّا من كان يعبد الله من برّ أو فاجر أتاهم ربّ العالمين في أدنى صورة من الّتي رأوه فيها. فيقال: ماذا تنتظرون تتبع كلّ أمّة ما كانت تعبد؟ قالوا: فارقنا النّاس في الدّنيا على أفقر ما كنّا إليهم ولم نصاحبهم، ونحن ننتظر ربّنا الّذي كنّا نعبد. فيقول: أنا ربّكم. فيقولون: لا نشرك بالله شيئاً مرّتين أو ثلاثاً».

صحيح البخاري، كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النّساء: ٤٠]: (٨)، برقم: (٤٥٨١)، ص:٩٥٨. وانظر: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب الصّراط جسر جهنّم: (٥٢)، برقم: (٦٥٧٣)، ص:١٣٩٤، كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]: (٢٤)، برقم: (٧٤٣٩)، ص:١٥٦٢.

صحيح مسلم، كتاب الإيمان: (١)، باب معرفة طريق الرّؤية: (٨١)، برقم: (١٨٢، ١٨٣)، ١/ ١٦٣ ـ ١٦٨.

ومن صفاتهم التّمسّك بالسّنّة إذا رغب عنها النّاس، وترك ما أحدثوه وإن كان هو المعروف عندهم، وتجريد التّوحيد وإن أنكر ذلك أكثر النّاس، وترك الانتساب إلى أحد غير الله ورسوله لا شيخ ولا طريقة ولا مذهب ولا طائفة، بل هم منتسبون إلى الله بالعبوديّة وإلى الرّسول بالاتّباع، وهم القابضون على الجمر حقّاً، وأكثر النّاس لائم لهم لغربتهم بينهم يعدّونهم أهل شذوذ وبدعة ومارقة للسّواد الأعظم، وهم النّزاع من القبائل الّذين وفدوا وتغرّبوا عن قبائلهم وعشائرهم فدخلوا الإسلام آحاداً.

وكيف لا تكون فرقة واحدة قليلة جداً، غريبة بين اثنتين وسبعين فرقة ذات أتباع ورئاسات ومناصب وولايات، ولا يقوم لها سوق إلّا بمخالفة ما جاء به الرّسول ﷺ، فإنّ ما جاء به يضادّ أهواءهم ولذّاتهم وشبهاتهم وبدعهم الّتي هي منتهى فضيلتهم وعملهم، وشهواتهم الّتي هي غاية مقاصدهم وإرادتهم؟.

فكيف لا يكون المؤمن السّائر إلى الله على طريق المتابعة غريباً بين هؤلاء الّذين اتّبعوا أهواءهم وأعجب كلّ منهم برأيه، وقد روي عنه ﷺ: «مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر حتّى إذا رأيتم شُحّاً[1] مطاعاً، وهوى متّبعاً، ودنيا مؤثَرة وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يد لك به فعليك بخاصّة نفسك وإياك وعوامهم، فإنّ وراءكم أيّام صبر الصّابر فيهنّ كالقابض على الجمر»[2].

---

(١) الشّحُّ: أشدُّ البُخْل، وقيل: هو البخلُ مع الحِرْص. وقيل: البُخل في أفْرَاد الأمور وآحادها، والشّحُّ عامٌّ. وقيل: البخل بالمالِ والشّحُّ بالمالِ والمعروف. يقال: شَحَّ يَشُحّ شَحّاً فهو شَحِيح. والاسمُ: الشّحُّ. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٤٨.

(٢) عن أبي أميّة الشّعباني قال: سألت أبا ثعلبة الخشني فقلت: يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتّى إذا رأيت شحّاً مطاعاً، وهوى متّبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كلّ ذي رأي برأيه فعليك ـ يعني بنفسك ـ ودع عنك العوام، فإنّ من ورائكم أيّام الصّبر، الصّبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله» ـ وزادني غيره ـ قال=

فإذا أراد المؤمن الّذي قد رزقه الله بصيرة في دينه، وفقهاً في سنّة رسوله، وفهماً في كتابه، وأراه ما النّاس فيه من الأهواء والبدع والضّلالات، وتنكّبهم عن الصّراط المستقيم الّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فإذا أراد أن يسلك هذا الصّراط فليوطّن نفسه على قدح الجهّال، وأهل البدع فيه، وطعنهم عليه، وإزرائهم به، وتنفير النّاس عنه، وتحذيرهم منه، كما كان سلفهم من الكفّار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ، فأمّا إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه فهنالك تقوم قيامتهم ويبغون له الغوائل[1]، وينصبون له الحبائل، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورَجِله.

فهو غريب في دينه لفساد أديانهم، غريب في تمسّكه بالسنّة لتمسّكهم بالبدع، غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، غريب في صلاته لسوء صلاتهم، غريب في طريقه لضلال وفساد طرقهم، غريب في نسبته لمخالفة نسبهم، غريب في معاشرته لهم لأنّه يعاشرهم على ما لا تهوى أنفسهم. وبالجملة فهو غريب في أمور دنياه وآخرته، لا يجد من العامّة مساعداً ولا معيناً، فهو عالم بين جهّال، صاحب سنّة بين أهل بدع، داع إلى الله ورسوله بين دعاة الأهواء

= يا رسول الله: أجر خمسين منهم؟ قال: «أجر خمسين منكم».

سنن أبي داود، كتاب الملاحم: (٣٦)، باب الأمر والنّهي: (١٧)، برقم: (٤٣٤١). قال الألباني رحمه الله: «ضعيف لكن فقرة أيام الصّبر ثابتة»، ص: ٤٧٤.

وانظر: سنن التّرمذي، كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة المائدة: (٥)، برقم: (٣٠٥٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وقال الألباني رحمه الله: «ضعيف لكن بعضه صحيح»، ص: ٤٨٧. سنن ابن ماجه، كتاب الفتن: (٣٦)، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ [المائدة: ١٠٥]: (٢١)، برقم: (٤٠١٤)، ص: ٤٣١.

سنن البيهقي: ١٠/ ٩١.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، برقم: (٣٨٥)، ٢/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

مستدرك الحاكم، ٤/ ٣٥٨، وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».

(١) الغوائل: هي الدّواهي، وهي الأمور المهلكة. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٤٨٧. لسان العرب: ١١/ ٥٠٧.

والبدع، آمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف[1].

ونفس الإنسان بسجيتها وطبيعتها تأنس بالنّظائر والأشباه، وتنفر من الغربة والوحدة وتستوحش بها، وهكذا السّالك لطريق الحقّ يستوحش بندرة الرّفيق وقلّة الصّاحب والمعين، فلا يدفعه ذلك إلى عدم الثّبات، وليوطّن نفسه على الصّبر مع مرّ الاغتراب.

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ:

«سنّتكم والّذي لا إله إلّا هو بينهما: بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها رحمكم الله، فإنّ أهل السّنّة كانوا أقلّ النّاس فيما مضى، وهم أقلّ النّاس فيما بقي، الّذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنّتهم حتّى لقوا ربّهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا»[2].

---

(١) مدارج السّالكين: ٣/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ بتصرّف.
قال ﷺ لابن عمر رضي الله عنهما: «كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل..» الحديث، صحيح البخاري، كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب قول النّبي ﷺ: «كن في الدّنيا كأنك غريب»: (٣)، برقم: (٦٤١٦)، ص:١٣٦٧، فالمؤمن غريب في هذه الدّار أين ما حلّ فيها فهو في دار غربة وعناء وتعب لا راحة له فيها، بل وصفها النّبي ﷺ بأنّها سجن المؤمن. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر». صحيح مسلم، كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣)، برقم: (٢٩٥٦)، ٢٢٧٢. وغربته فيها لا تنفك ولا تنقضي حتّى يهاجر إلى وطنه الأوّل ودار كرامته، وأنسه بربّه في جنّته الّتي لا زال حنينه إليها، وقلبه يتفطّر عليها:

نقّل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لأوّل منزل

فحنينه أبداً لداره الّتي سبي منها وفرّق بينه وبين من يحبّ، وجمع بينه وبين عدوّه الماكر في هذه الدّنيا:

وحيّ على جنّات عدن فإنّها ... منازلك الأولى وفيها المخيَّمُ
ولكنّنا سَبْيُ العدوّ فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسَلَّمُ

وانظر: مفتاح دار السّعادة: ١/ ١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) سنن الدّارمي، في المقدّمة، باب في كراهية أخذ الرّأي: ١/ ٨٣.
ولنعم ما قيل: =

والّذي يعينه على الصّبر والثّبات مع الغربة وقلّة السّالكين هو علمه بأنّ الحقّ في أصله صحيح، فلا يعتمد في ثبوت صحته على أكثريّة أهل، لأنّه لا يُعرف بالكثرة والعدد وإنّما يُعرف بالتّمسّك له، والسّير على منواله ولو قلّ أهله.

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«الجماعة ما وافق الحقّ وإن كنت وحدك»[1].

قال ابن بطّة رحمه الله:

«أنشدني شيخ من أهل العلم بالبصرة في جامعها:

الطّرق شتّى وطرق الحق مفردة … والسّالكون طريق الحقّ آحاد
لا يطلبون ولا تبقى مآثرهم … فهم على مهل يمشون قصّاد
والنّاس في غفلة عمّا يراد بهم … فكلّهم عن طريق الحقّ حوّاد»[2]

= إنّ القلوب يد الباري تقلّبها … فسأل اللّه توفيقاً وتثبيتاً
من يضلل اللّه لا تهديه موعظة … وإن هديت فبالأخبار أنبيتا
فهذه غربة الإسلام أنت بها … فكن صبوراً ولو في اللّه أوذيتا
قطف الثّمر في بيان عقيدة أهل الأثر. لمحمّد صديق حسن خان القنوجي، تحقيق: عاصم عبد الله القريوتي، طبعة: شركة الشّرق الأوسط للطّباعة، الأردن، الطّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ص: ١٧٠.

(١) الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص: ٢٧. إغاثة اللّهفان: ١/ ٧٠، وهو في شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة، بلفظ: «إنّ جمهور الجماعة هي الّتي تفارق الجماعة، إنّما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك»: ١/ ١٠٩. وقد سبق قول أبي شامة رحمه الله قريباً. انظر: ص: ٩٠٥.

(٢) الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ٢/ ٥٧٥.
وقوله: حوّاد صيغة مبالغة من حاد عن الطّريق، والشيء يَحِيدُ إذا عدل ومال عنه. وانظر: لسان العرب: ٣/ ١٥٩. القاموس المحيط، ص: ٣٥٦.
ولا يعني هذا غياب الحقّ، وفساد الدّين جملة، بل الحقّ ظاهر، والدّين باقٍ، وحجّة الله قائمة بحفظ الله لكتابه وسنّة رسوله ﷺ كما قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، ولقول النّبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ لا يضرهم من خذلهم، حتّى يأتي أمر الله وهم كذلك». سبق تخريجه، ص: ٧٩٣. =

كما يعينه على الثّبات وعدم الوحشة أن يعلم أنّ طريقه طريق سلكه الصّالحون من قبله، فليستشعر قلبه مرافقتهم حتّى يستأنس من وحشته، ويظلّ في سيره لا ينحرف عنه.

قال ابن القيّم رحمه الله:

«ولمّا كان طالب الصّراط المستقيم طالب أمر أكثر النّاس ناكبون عنه، مريداً لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلّة والعزّة، والنّفوس مجبولة على وحشة التّفرّد، وعلى الأنس بالرّفيق، نبّه الله سبحانه على الرّفيق في هذه الطّريق، وأنّهم هم الّذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النّساء: ٦٩]، فأضاف الصّراط إلى الرّفيق السّالكين له، وهم الّذين أنعم الله عليهم، ليزول عن الطّالب للهداية وسلوك الصّراط وحشة تفرّده عن أهل زمانه وبني جنسه. وليعلم أنّ رفيقه في هذا الصّراط: هم الّذين أنعم الله عليهم، فلا يكترث بمخالفة النّاكبين عنه له، فإنّهم هم الأقلّون قدراً، وإن كانوا الأكثرين عدداً. كما قال بعض السّلف[1]: «عليك بطريق الحقّ، ولا تستوحش لقلّة السّالكين، وإيّاك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين». وكلّما استوحشت في تفرّدك فانظر إلى الرّفيق السّابق، واحرص على اللّحاق بهم، وغضّ الطّرف عمّن سواهم، فإنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك، فلا تلتفت إليهم، فإنّك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك»[2].

وليتذكّر السّائر على منهج السّلف أنّ تلك الوحشة من عوارض الطّريق،

= قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فقد أخبر الصّادق المصدوق أنّه لا تزال طائفة ممتنعة من أمّته على الحقّ أعزّاء لا يضرهم المخالف ولا خلاف الخاذل. فأمّا بقاء الإسلام غريباً ذليلاً في الأرض كلّها قبل السّاعة فلا يكون هذا». مجموع الفتاوى: ١٨/٢٩٦.

(١) ذكر ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري» قولاً قريباً منه ونسبه إلى الفضيل بن عياض رحمه الله، ص:٣٣١.

(٢) مدارج السّالكين: ١/٢١ ـ ٢٢. وانظر: إغاثة اللّهفان: ١/٦٩. شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٣٠٧ ـ ٣٠٨، طبعة: المكتب الإسلامي.

فهي وحشة لا تدوم، بل سرعان ما تنقطع وتزول حين يصل إلى برّ الأمان ويُهنّأ بسلامة الوصول، ويسعد بكرامة الرّب الغفور، وهو يتلو قوله سبحانه: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦ ـ ٢٧][1].

وليحمد الله الّذي وفّقه على الثّبات على الصّراط المستقيم ولم يكن من الأكثريّة الهالكة الزّائغة عن الحقّ، وتلك نعمة عظيمة لا تقدّر بثمن، أن يسلم المؤمن ويعافى وينجو من المهالك والبلايا والصّوارف الّتي صرفت الأكثريّة السّاحقة عن منهج الله وألقت بهم في درك الضّلال وبؤر الرّدى، وأفلت ذاك المؤمن مع من أفلت، وقليل ما هم، فثبت على الحقّ، وسار على الدّرب حتّى حطّ رحاله في جنّة الرّب.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إنّ القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلّا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطّريق معمورة بالسّالكين، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها، ولكنّ الله يفعل ما يريد، والوقت كما قيل: سيف فإن قطعته وإلّا قطعك، فإذا كان السّير ضعيفاً، والهمّة ضعيفة، والعلم بالطّريق ضعيفاً، والقواطع الخارجة والدّاخلة كثيرة شديدة فإنّه جهد البلاء، ودرك الشّقاء، وشماتة الأعداء، إلّا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلّصه من أيدي القواطع»[2].

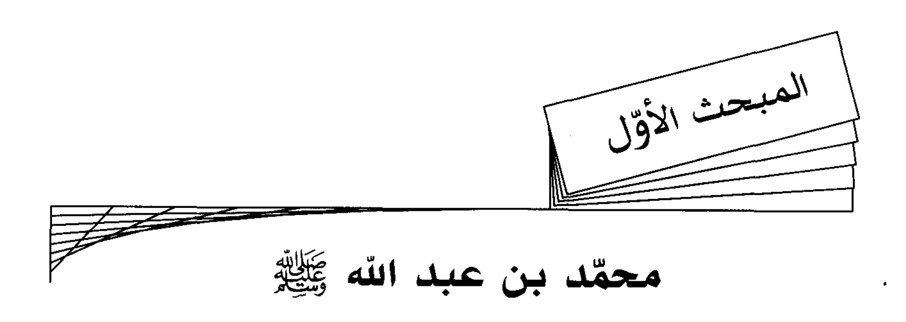


(١) وانظر: طريق الهجرتين، ص:٢٨٦.

(٢) المرجع السّابق، ص:٢٨٨.

الفصل الرّابع

نماذج للثّبات على المنهج الحق



محمّد بن عبد الله ﷺ

لقد هدى الله رسوله ﷺ وأرشده إلى منهج قويم، وصراط مستقيم لا اعوجاج فيه ولا انثناء، وأمره أن يبلّغ الخلق ذلك،ويخبرهم بما هو فيه من نعمة عظيمة ندر مثالها، وقلّ شبيهها، فقدها كثير من النّاس ممّن ضلّوا طريق الحقّ، وولجوا طرق الضّلال، وانحرفت مناهجهم، وتشعّبت طرقهم، ووفّق ﷺ بهداية الله له فكان على منهج الحقّ، ومسلك الصّدق.

وفي ذلك يقول ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١][1].

وقد شهد له الرّب سبحانه بالثّبات على ذلك المنهج، ومدحه بذلك، وأمره أن يزداد تمسّكاً بكتاب الله العظيم وصفاً وفعلاً وقولاً، حتّى يظلّ ثابتاً على المنهج، باقياً عليه، لا يزول ولا يحول، فقال جلّ في علاه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزّخرف: ٤٣].

قال ابن جرير رحمه الله:

«يقول تعالى ذِكْرُهُ لنبيّه محمّد ﷺ: فتمسّك يا محمّد بما يأمرك به هذا القرآن الّذي أوحاه إليك ربّك، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومنهاج سديد، وذلك هو دين الله الّذي أمر به، وهو الإسلام»[2].

---

(١) وانظر معناها في: جامع البيان: ٨/ ١١١. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٥٢. أنوار التّنزيل: ٢/ ٤٧١. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣١٧. فتح القدير: ٢/ ١٨٤. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٤٥.

(٢) جامع البيان: ٢٥/ ٧٦. وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٩٥. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧١٢.

بل أقسم سبحانه بقسم شريف على مُقْسَم عليه جليل، فقد أقسم بالقرآن الحكيم الّذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه على أنّ محمّداً ﷺ رسوله حقّاً، وأنّه ثابت على منهج حقّ مستقيم لم يفارقه طرفة عين، أو ومضة برق، لأنّه تنزيل من الخالق الرّحيم سبحانه، الّذي من رحمته شرع لعباده منهجاً واضحاً قويماً، ليسيروا ويثبتوا عليه كما سار وثبت عليه إمامهم وقدوتهم ﷺ، وعليه أن يدعوهم لذلك، ويحذّرهم عاقبة الانحراف والزّيغ عن منهج الله تعالى فقال ﷻ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ١ ـ ٦][(١)].

وقد ذكر سبحانه أنّ منهجه ﷺ منهج واضح مستقيم، اختاره له ربّه لأنّه كلّه حقّ وهدى، يبلّغ المقصود ويوصل إلى المطلوب، وأنّ أعداء الله لن يكفّوا عن مجادلته ومنازعته ليحرفوه عن ذلك المنهج، ويصرفوه عنه، فعليه ألّا يعبأ بمنازعتهم، ولا يلتفت إلى جدالهم، إذ هو نزاع وجدال بالباطل، وليثبت على منهج الله كما أراد الله، وقد فعل.

قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ۝٦٧ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٦٨﴾ [الحج: ٦٧ ـ ٦٨][(٢)].

قال سيّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«جعل الله لكلّ أمّة منسكاً هم ناسكوه، ومنهجاً هم سالكوه، فلا داعي إذن لأن يشغل الرّسول ﷺ نفسه بمجادلة المشركين، وهم يصدّون أنفسهم عن

---

(١) وانظر معنى الآيات في: جامع البيان: ٢٢/١٤٨ ـ ١٥٠. معالم التّنزيل: ٤/٥. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٣ ـ ٦. أنوار التّنزيل: ٤/٤٢٥ ـ ٤٢٦. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٩٧. فتح القدير: ٤/٣٦٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٣٨ ـ ٦٣٩.

(٢) النّسُك: العبادة، والنّاسك العابد، واختصّ بأعمال الحجّ، والمناسك مواقف النّسك وأعمالها، مفردها مَنْسَك. والنَّسِيكة: مختصّة بالذّبيحة. المفردات، ص:٤٩٠، بتصرّف.

منسك الهدى، ويمعنون في منسك الضّلال، والله يأمره ألّا يدع لهم فرصة لينازعوه أمره، ويجادلوه في منهجه، كما يأمره أن يمضي على منهجه لا يلتفت ولا ينشغل بجدل المجادلين، فهو منهج مستقيم: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فليطمئن إذن على استقامة منهجه، واستقامته هو على الهدى في الطّريق، فإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد»[(١)].

بل أمره الله تعالى أن يواجه أولئك الكفّار المجادلين والمنازعين في الحقّ بخطاب شديد اللّهجة، مُلِئ بالتّهديد، وشُحن بالوعيد، وصُبغ بالتّحدّي: أن يثبتوا على ما هم عليه من منهج باطل وطريق ضال، فهو ﷺ ثابت على ما هو عليه من منهج حقّ وطريق هدى، لن ينصرف أو ينحرف عنه، وذلك معنى قوله سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام: ١٣٥][(٢)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«هذا تهديد شديد ووعيد أكيد، أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنّون أنّكم على هدى، فأنا مستمرّ على طريقتي ومنهجي»[(٣)].

وقال الشّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«المكانة: الطّريقة، أي اثبتوا على ما أنتم عليه، فإنّي غير مبالٍ بكم ولا مكترث بكفركم، إنّي ثابت على ما أنا عليه، ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ من هو على الحقّ ومن هو على الباطل، وهذا وعيد شديد فلا يَرِد ما يقال: كيف يأمرهم بالثّبات على الكفر؟»[(٤)].

ويقول سيّد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إنّه تهديد الواثق من الحقّ الّذي معه، والحقّ الّذي وراءه، ومن القوّة

---

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٤٤٢.
(٢) وانظر: الآيتين (١٢١، ١٢٢) من سورة هود. والآيتين (٣٩، ٤٠) من سورة الزّمر.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٨٧.
(٤) فتح القدير: ٢/ ١٦٤. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٨٩.

الّتي في الحقّ، والقوّة الّتي وراء الحقّ، التّهديد من الرّسول ﷺ بأنّه نافض يديه من أمرهم، واثق ممّا هو عليه من الحقّ، واثق من منهجه، وطريقه، واثق كذلك ممّا هم عليه من الضّلال، وواثق من مصيرهم الّذي هم إليه منتهون»[1].

وكيف لا يثبت ﷺ على هذا المنهج وهو الّذي يدعو النّاس للانتماء إليه، ويهديهم للسّير عليه، ويأمرهم بالثّبات عليه، ويحذّرهم من الزّيغ عنه؟.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

قال السّعدي رحمه الله:

«﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: تبيّنه لهم وتوضّحه، وترغّبهم فيه، وتنهاهم عن ضدّه، وترهّبهم منه، ثم فسّر الصّراط المستقيم، فقال: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: الصّراط الّذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنّه موصل إليه، وإلى دار كرامته»[2].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«إنّ السّنّة والشّريعة والمنهاج هو الصّراط المستقيم الّذي يوصل العباد إلى الله، والرّسول هو الدّليل الهادي الخِرِّيت[3] في هذا الصّراط». ثمّ ذكر الآية السّابقة وأورد معها غيرها[4].

وقد ثبت ﷺ على منهج ربّه حتّى لقي مولاه وهو على ذلك، لأنّ مولاه قد قال له: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]. وقد فعل بأبي هو وأمّي صلوات الله وسلامه عليه.

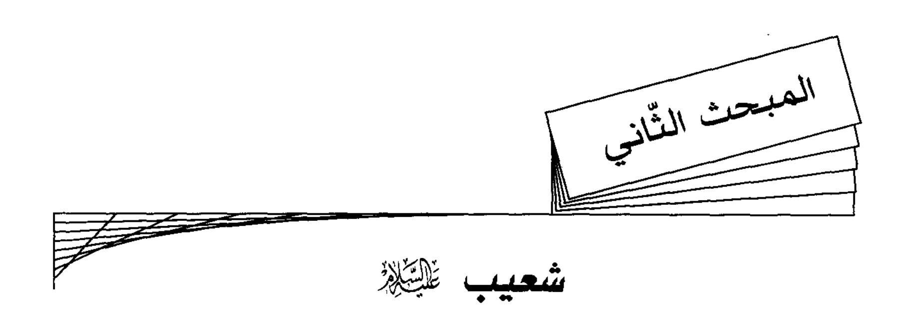
---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢١١.

(٢) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٧٠٨.

(٣) الخِرِّيتُ: الماهر الّذي يَهْتَدِي لأَخْراتِ المَفاوِزِ، وهي طُرُقها الخفيّة ومَضايِقُها؛ وقيل: هو الّذي يَهْتَدِي في مثل ثَقْبِ الإبرة من الطّريق. لسان العرب: ٢/ ٣٠، بتصرّف.

(٤) مجموع الفتاوى: ٤/ ٥٧.



شعيب عليه السلام

إنّ الله تعالى بعث شعيباً عليه السلام إلى أهل مَدْيَن[1]، وكانوا كفّاراً يعبدون غير الله، ويقطعون السّبيل، ويخيفون المارّة، وكانوا من أسوأ النّاس معاملة، يبخسون[2] المكيال والميزان ويطغون فيها، ويأكلون أموال النّاس بالباطل، مع أنّ الله تعالى وسّع عليهم في الرّزق، وبسط لهم في العيش ليستدرجهم مع كفرهم به.

وكان شعيب عليه السلام فصيحاً بليغ العبارة، حسن المراجعة لقومه حتّى عرف بخطيب الأنبياء[3].

فدعاهم عليه السلام في أوّل ما دعاهم إليه أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وذلك هو التّوحيد مفتتح دعوة الرّسل جميعاً، والأصل الّذي يقوم عليه منهجهم، والأساس الّذي يبدأ به طريقهم، ثمّ أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظّلم المتمثّل في أكل أموال النّاس بغير وجه حقّ، ونهاهم عن الفساد في الأرض،

---

(1) قال ابن كثير رحمه الله: «كان أهلُ مَدْيَنَ قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مَدْيَنَ الّتي هي قريةٌ من أرض مُعَان من أطراف الشّام ممّا يلي ناحية الحجاز قريباً من بُحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمُدَّة قريبة. وَمَدْيَنُ قبيلةٌ عُرفَتْ بهم القبيلة، وهم من بني مَدْيَنَ بن مديانَ بن إبراهيمَ الخليل، وشعيب نبيّهم هو ابن ميكيل بن يَشْجَنَ». البداية والنّهاية: ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥. وقد ذكر رحمه الله اختلافاً في نسب شعيب عليه السلام، ولم يرجّح شيئاً.

(2) البَخْسُ: النّقْصُ، بَخَسَه حَقَّه يَبْخَسُه بَخْساً إذا نقصه، ولا تَبْخَسُوا النّاس: لا تظلموهم، والبَخْسُ من الظّلم أَنْ تَبْخَسَ أخاك حقَّه فتنقصه كما يَبْخَسُ الكَيّالُ مكياله فينقصه. لسان العرب: ٦/ ٢٤، بتصرف. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٤٢. القاموس المحيط، ص: ٦٨٤ ـ ٦٨٥.

(3) وانظر: تاريخ الطّبري: ١/ ١٩٧ ـ ١٩٨. البداية والنّهاية: ١/ ١٨٥.

ودعاهم إلى سلوك صراط الله المستقيم، ومنهجه الحقّ القويم، وألّا يزيغوا عنه، ويمنعوا النّاس من سلوكه، ويظهرونه بمظهر المنحرف المعوج الّذي لا يمكن السّير عليه. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦]:

قال الشّيخ السّعدي رحمه الله في بيان قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

«أي تبغون سبيل الله تكون معوجّة، وتميلونها اتّباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتّعظيم للسّبيل الّتي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته، ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدّون لنصرتها، والدّعوة إليها، والذّب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطّاع طريقها، الصّادين النّاس عنها، فإنّ هذا كفر لنعمة الله، ومحادة لله، وجعل أقوم الطّرق وأعدلها مائلة، وتشنّعون على من سلكها»[1].

ولكنّهم لم يستجيبوا لأمره، ولم ينصاعوا لقوله: بل واجهوه بالتّهكّم والسّخرية والاستهزاء: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧]. وهذا قيل على سبيل الاستبعاد لإجابتهم له، ومعنى ذلك أنّه لا موجب لانصياعنا لأمرك، واجتنابنا لنهيك، والتزامنا بسلوك منهجك إلّا أنّك تصلّي وتعبد الله، وهل هذا يوجب لنا أن نترك ما كان عليه آباؤنا أصحاب العقول وأولي الألباب، أم نمتنع أن نتصرّف في أموالنا كما يحلو لنا ونشاء، وما هذا منك إلّا حلم ورشد؟ يريدون السّفة والغواية، على سبيل التّهكّم والاستهزاء.

فأجابهم عليه السلام مرغّباً لهم فيما يدعوهم إليه، محذّراً لهم عن مخالفته وشقاقه:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٥٩.

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود: ٨٨ ـ ٩٠].

أي يا قوم أخبروني إن كنت على بصيرة من أمري، وحجّة قائمة، ومنهج بيّن، ويقين وطمأنينة في صحّة ما جئت به، وأعطاني الله النّبوّة والعلم والرّزق الحلال؟. ومع ذلك فلست أنهاكم عن أمر وأفعله، وآمركم بأمر وأجتنبه، إنّما أريد إصلاح أمركم، واستقامتكم بحسب طاقتي واجتهادي، وما يحصل لي من التّوفيق والهداية في ذلك فهو من الله لا من أحد سواه، وهو الّذي عليه أتوكّل، وإليه مرجعي ومصيري في جميع أموري.

ثمّ انتقل معهم إلى مقام التّرهيب فحذّرهم من مخالفته ومشاقته وعداوته فإنّها تجلب لهم من العذاب والهلاك ما أصاب الأمم السّابقة. فأجابوه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١]، أي لا نفهم ما دعوتنا إليه، ولا نعقله لأنّنا لا نحبّه ولا نريده، وليس لنا رغبة فيه، بل نحن معرضون عنه، وأنت ضعيف مضطّهد مهجور لا معزّة لك ولا قوّة، ولست من الكبراء ولا الرّؤساء، ولولا أنّ قبيلتك وعشيرتك على ما نحن عليه لرجمناك بالحجارة، وقيل: لسببناك. فقال لهم مترفّقاً بهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾ [هود: ٩٢][1].

يقول: أتتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظاماً لجناب الرّبّ تبارك وتعالى أن تنالوا نبيّه بمساءة، وقد اتّخذتم أمره خلف ظهوركم لا تبالون به، ولا تطيعونه ولا تعظمونه، وهو يعلم جميع أعمالكم، وسيجزيكم بها[2].

ثمّ أردف قائلاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن

---

(١) وانظر في معنى الآيات من سورة هود: معالم التّنزيل: ٢/٣٩٨ ـ ٣٩٩. الجامع لأحكام القرآن: ٩/٨٦ ـ ٩٢. أنوار التّنزيل: ٣/٢٥٣ ـ ٢٥٧. تفسير القرآن العظيم: /٧٠٦ ـ ٧٠٨. فتح القدير: ٢/٥١٨ ـ ٥٢١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/٧٠٨ بتصرّف يسير.

يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾ [هود: ٩٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وهذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد بأن يستمرّوا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدّار، ومن يحل عليه الهلاك والبوار[1]»[2].

أي سيروا على منهجكم الضّال المنحرف واثبتوا عليه، فإنّي سائر على منهجي الحقّ المستقيم وثابت عليه لا أتنازل عنه، ولا أنزاح منه، وهذا على سبيل التّهديد الوعيد، وأكّد ذلك بقوله: سوف تعلمون علم اليقين من يخزى في هذه الدّنيا، ويحلّ عليه عظيم العذاب في الآخرة، وهو كاذب فيما يدّعي ويزعم، وارتقبوا إنّي معكم رقيب، وهذا كقوله في الأعراف: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف: ٨٧].

قال الشّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«هذا من باب التّهديد والوعيد الشّديد لهم، وليس هو من باب الأمر بالصّبر على الكفر، وحكم الله بين الفريقين هو نصر المحقّين على المبطلين»[3].

ولمّا علم قومه ثباته ومن معه على الحقّ، ولزومهم صراط الله المستقيم، انبرى أشرافهم وطغاتهم المستكبرون الّذين لم يكتفوا بترك الإيمان، والتّمرّد عن إجابة رسولهم إلى ما دعاهم إليه، بل تجاوزوا كلّ ذلك بغياً وبطراً وأشراً إلى توعّده ومن آمن معه بالإخراج من قريتهم وموطنهم، أو ينخرطون في الكفر والضّلال الّذي هم عليه، ويفارقون المنهج السّوي الّذي سلكوه، والحقّ الجلي الّذي التزموه. قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨].

فأجابهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بثبات يفوق كلّ ما يتصوّرون، وعزيمة تبدّد كلّ ما يشتهون،

---

(١) البَوارُ: الهلاك، بارَ بُوْراً وبَواراً وأَبارهم: أهلكهم. ورجل بُورٌ: هالك. انظر: لسان العرب: ٤/٨٦. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٦٨. القاموس المحيط، ص:٤٥٢.

(٢) البداية والنّهاية: ١/١٨٨.

(٣) فتح القدير: ٢/٢٢٤.

وصلابة تيئسهم ممّا يريدون فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ۝٨٩﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«طلبوا بزعمهم أن يردّوا من آمن منهم إلى ملّتهم، فانتصب شعيب للمحاجّة عن قومه فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾، أي هؤلاء لا يعودون إليكم اختياراً، وإنّما يعودون إليكم إن عادوا اضطّراراً مكرهين، وذلك لأنّ الإيمان إذ خالطته بشاشة القلوب لا يسخطه أحد، ولا يرتدّ عنه أحد، ولا محيد لأحد منه»(١).

أي لا يمكن لنا ولا يتأتّى أبداً أن نترك ما نحن عليه من دين حقّ، ومنهج صدق، ومسلك رشد، وسبيل مأمون، ونفارق الثّبات الّذي نحن فيه، وننغمس في ملّتكم الباطلة، ودينكم الزّائغ، ونهجكم الضّال، وسبيلكم المعوج، بعدما نجّانا الله منه، وأنقذنا من شرّه، فإن فعلنا ذلك فنحن كاذبون مفترون على الله، وهل مثلنا يعود إلى هذا الباطل؟ إنّه محال، إلّا أن يشاء الله، وحينها لا يمكننا أن نخرج عن مشيئته التّابعة لعلمه سبحانه وعظيم حكمته، وهو الّذي وسع علمه كلّ شيء، وهو العالم بما يصلح عباده، وهو مستندنا وعليه اتّكالنا.

وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ﴾.

قال الشّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي عليه اعتمدنا في أن يثبّتنا على الإيمان، ويحول بيننا وبين الكفر وأهله، ويتمّ علينا نعمته، ويعصمنا من نقمته»(٢).

وقال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي اعتمدنا أنّه سيثبّتنا على الصّراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع

---

(١) البداية والنّهاية: ١/ ١٨٩.

(٢) فتح القدير: ٢/ ٢٢٥.

طرق الجحيم، فإنّ من توكّل على الله كفاه، ويسرّ له أمر دينه ودنياه»[١].

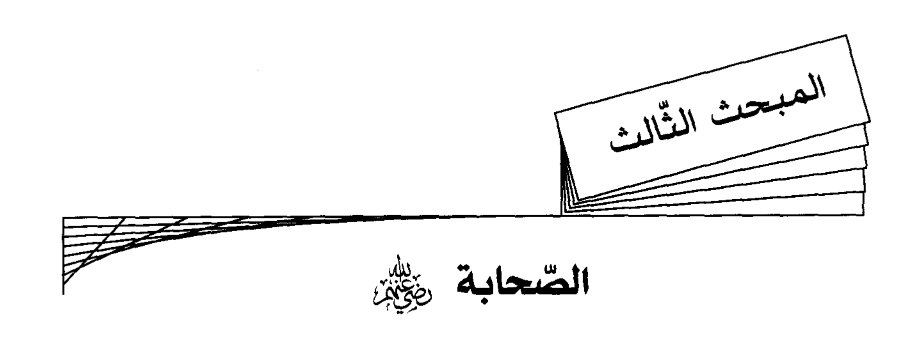
ولمّا تمادى قومه في الكفر والضّلال والغي ويئس من صلاحهم استفتح عليهم، واستنصر ربّه في تعجيل ما يستحقّونه من العذاب، وفي ذلك نصرة للمظلوم ونجاة له، وأخذ للظّالم وهلاك له، وقد أجاب الله دعاءه فعجّل بهلاكهم وزوالهم.

رجفت بهم أرضهم وزلزلت زلزالاً شديداً أزهقت أرواحهم من أجسادها، وصيّرت حيوانات أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية لا أرواح فيها ولا حركات بها ولا حواس لها، وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وصنوفاً من المثلات، وأشكالاً من البليّات، وذلك لما اتّصفوا به من قبيح الصّفات، سلّط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلّة أرسل الله عليهم منها شرر النّار من سائر أرجائها والجهات[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٢٥٩. وانظر في معنى الآيات من سورة الأعراف: معالم التّنزيل: ١/ ١٨١ ـ ١٨٢. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٥٠ ـ ٢٥١. أنوار التّنزيل: ٣/ ٤٠ ـ ٤١. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٧٠ ـ ٣٧١. فتح القدير: ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥. تسير الكريم الرّحمٰن، ص:٢٥٩.

(٢) البداية والنّهاية: ١/ ١٨٩. وقد ذكر الله تعالى أنواع العقاب الّذي أصابهم به فقال في الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٩١]، وقال في هود: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]، وقال في الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشّعراء: ١٨٩].
قال ابن كثير رحمه الله: «ذكر في كلّ سياق ما يناسبه، ففي الأعراف لمّا قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ [الأعراف: ٨٨] ناسب أن يذكر هناك الرّجفة، فرجفت بهم الأرض الّتي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيّهم منها، وههنا لمّا أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيّهم ذكر الصّيحة الّتي استلبثتهم وأخمدتهم، وفي الشّعراء لمّا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشّعراء: ١٨٧]، قال: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشّعراء: ١٨٩]، وهذا من الأسرار الدّقيقة ولله الحمد والمنّة كثيراً دائماً». تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٠٩. وانظر: ٢/ ٣٧١ ـ ٣٧٢. البداية والنّهاية: ١/ ١٨٩.



الصّحابة رضي الله عنهم

سبق أن بينت أنّ منهج الصّحابة رضي الله عنهم هو المنهج الحقّ الّذي ارتضاه الله لعباده، وأشار إلى لزوم اتّباعه في كتابه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النّساء: ١١٥](١).

وكيف لا يكون منهجهم هو الحقّ وقد اختارهم الله واصطفاهم لصحبة نبيّه عليه السلام وإقامة دينه؟ وانتقاهم من هذه الأمّة وجعلهم أفضلها وخيرها لصدق إيمانهم، وقوّة يقينهم، وسلامة قلوبهم، وسبقهم في سبل الخير، وعلوّ هممهم، ونقاء بواطنهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«إنّ الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمّد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثمّ نظر في قلوب العباد بعد قلب محمّد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيّه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيّئاً فهو عند الله سيّئ»(٢).

---

(١) وقد سبق الحديث عن الآية، انظر: ص٧٩٠ فما بعدها من هذا البحث. وانظر: مجموع الفتاوى: ٤/١ ـ ٢.

(٢) مسند أحمد، بلفظه في: ١/٣٧٩. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٥/٢١١، برقم: (٣٦٠٠).
معجم الطّبراني الكبير، نحوه في: ٩/١١٢.
مسند أبي داود الطّيالسي، نحوه في: ص٣٣، برقم: (٢٤٦).
فضائل الصّحابة للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د. وصي الله محمّد عبّاس، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، نحوه في: ١/٣٦٧.

ولذا مدحهم سبحانه وزكّاهم في أكثر من آية[1]، والرّسول ﷺ ربّاهم، ومات وهو عنهم راضٍ، ولم تظهر فيهم البدع ولا الأهواء ولا المحدثات، بل الحقّ يدور معهم حيث داروا، والضّلال ينفر عنهم حيث ساروا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

«الواجب على كلّ مسلم يشهد أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله أن يكون أصل قصده توحيد الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعة رسوله، يدور على ذلك، ويتبعه أين وجده، ويعلم أنّ أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصّحابة، فلا ينتصر لشخص انتصاراً مطلقاً عامّاً إلّا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفة انتصاراً مطلقاً عامّة إلّا للصّحابة رضي الله عنهم أجمعين، فإنّ الهدى يدور مع الرّسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا، فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأ قطّ، بخلاف أصحاب عالم من العلماء فإنّهم قد يجمعون على خطأ»[2].

وقد كانت عقولهم راجحة، وأذهانهم متوقّدة، وأفهامهم مدركة، وهم أهل الفطرة والإيمان، وأرباب الفصاحة والبيان، نزل القرآن بلسانهم، والرّسول بينهم يوضّح لهم ما أشكل عليهم، ويبيّن لهم ما خفي عنهم، ويوجههم إلى الطّريق السّليم، والمسلك القويم، ولذا حازوا قصب السّبق في كلّ الفضائل، ونالوا إمامة الدّين في هذه الأمّة بعده نبيّها، وتبوّؤا في ذلك أعلى المنازل وأرفع الدّرجات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

«إنّهم أفضل من الخلف في كلّ فضيلة، من علم، وعمل، وإيمان، وعقل، ودين، وبيان، وعبادة، وإنّهم أولى بالبيان لكلّ مشكل، هذا لا يدفعه إلّا من كابر المعلوم بالضّرورة من دين الإسلامي، وأضلّه الله على علم»[3].

---

(١) انظر: التّوبة الآية: (١٠٠). الفتح الآية: (١٨، ٢٩). الحشر: (٨ ـ ٩).
(٢) منهاج السّنّة: ٥/٢٦١ ـ ٢٦٢. وانظر: دراسات في الأهواء والفرق، ص:١٠٧.
(٣) مجموع الفتاوى: ٤/١٥٨.

وقد ساروا على نهج نبيّهم حذو القُذَّة بالقُذَّة[1] لم ينحرفوا عنه، ولم ينزلقوا منه، بل ثبتوا عليه ثبات الجبال الرّواسي، فما زلزلتهم عنه الفتن، وما حرفتهم عنه البدع، وما أثّرت فيهم الأهواء، وما انتابتهم الشّكوك والظّنون، بل ظلّوا عنه مدافعين، ولحوزته حامين، وبنصرته قائمين، وقد شهد لهم بذلك ربّ العالمين في قرآنه المبين، حيث قال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ[2] وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣ ـ ٢٤].

قال ابن كثير رحمه الله:

«لمّا ذكر عز وجل عن المنافقين أنّهم نقضوا العهد الّذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولّون الأدبار، وصف المؤمنين بأنّهم استمرّوا على العهد والميثاق و﴿صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ قال: بعضهم: أجله، وقال البخاري: عهده وهو يرجع إلى الأوّل: ... ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي وما غيّروا عهدهم وبدّلوا الوفاء بالغدر، بل استمرّوا على ما عاهدوا الله عليه، وما نقضوه كفعل المنافقين... ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه، وقيامهم به، ومحافظتهم عليه»[3].

وقال الشّوكاني رحمه الله **في قوله: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾**:

«معطوفة على ﴿صَدَقُوا۟﴾، أي ما غيّروا عهدهم الّذي عاهدوا الله عليه كما غيّر المنافقون عهدهم، بل ثبتوا عليه ثبوتاً مستمرّاً، أمّا الّذين قضوا نحبهم

---

(١) القُذَّةُ: ريشُ السّهم، وجمعها قُذَذٌ وقِذَاذ. ومعنى: حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة: يعني كما تقدّر كل واحدة منهنّ على قَدْرِ صاحبتها وتقطع. يضرب مثلاً للشّيئين يستويان ولا يتفاوتان. لسان العرب: ٣/٥٠٣، بتصرّف.

(٢) قال الرّاغب رحمه الله: «النّحب: النّذر المحكوم بوجوبه، يقال: قضى فلان نحبه: أي وفّى بنذره، قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. ويعبّر بذلك عمّن مات كقولهم: قضى أجله، واستوفى أكله، وقضى من الدّنيا حاجته. والنّحيب: البكاء الّذي معه صوت. والنّحاب: السّعال». المفردات، ص: ٤٨٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٧٥٧ ـ ٧٥٩.

فظاهر، وأمّا الّذين ينتظرون قضاء نحبهم فقد استمرّوا على ذلك حتّى فارقوا الدّنيا ولم يغيّروا ولا بدّلوا»[1].

وقال ابن جرير رحمه الله **في قوله:** ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾:

«ليثبّت الله أهل الصّدق بصدقهم الله بما عاهدوه عليه، ووفاءهم له به»[2].

فقد شهد الله لهم سبحانه بالثّبات ومدحهم عليه، ولو لم يكونوا كذلك ما أمر الله بسلوك سبيلهم، والسّير على منوالهم، وتتبّع خطاهم، واتّباع نهجهم في آية النّساء الآنفة الذّكر[3].

ولما وجّه رسول الله ﷺ الأمّة عند افتراق الفرق بلزوم ما كان عليه هو وأصحابه[4].

بل جاءت أقوال سلف هذه الأمّة الصّالح تدعوا إلى السّير على نهجهم وسلوك طريقهم، من ذلك:

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه:

«كلّ عبادة لم يتعبّدها أصحاب رسول الله فلا تعبّدوها، فإنّ الأوّل لم يدع للآخر مقالاً، فاتّقوا الله يا معشر القرّاء، وخذوا طريق من كان قبلكم»[5].

وقال إبراهيم النّخَعِي رحمه الله:

«لو أنّ أصحاب محمّد مسحوا على ظفر لما غسلته، التماس الفضل في اتّباعهم»[6].

وقال الأَوْزَاعِيّ رحمه الله:

«اصبر نفسك على السّنّة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكفّ

---

(١) فتح القدير: ٤/ ٢٧٢.

(٢) جامع البيان: ٢١/ ١٤٨.

(٣) هي الآية: ١١٥.

(٤) سبق الحديث. انظر: ص:١١٣، من هذا الحديث.

(٥) الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص:١٥ ـ ١٦. وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ٩٠. الإبانة عن شريعة الفرق النّاجية: ١/ ٣٣٦. الاعتصام: ٢/ ٣٣٧.

(٦) المرجع السّابق: ١/ ٣٦١.

عمّا كفّوا، واسلك سبيل سلفك الصّالح، فإنّه يسعك ما وسعهم»[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وإنّما دين الله ما بعث به رسله، وأنزل به كتبه، وهو الصّراط المستقيم، وهو طريقة أصحاب رسول الله ﷺ، خير القرون وأفضل الأمّة، وأكرم الخلق على الله تعالى بعد النّبيّين»[2].

وقال ابن أبي العز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ومضى على ما كان عليه الرّسول ﷺ خير القرون، وهم الصّحابة والتّابعون لهم بإحسان يوصي به الأوّل الآخر، ويقتدي فيه اللّاحق بالسّابق، وهم في ذلك كلّه بنبيّهم محمّد ﷺ مقتدون، على منهاجه سالكون، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ [يوسف: ١٠٨]»[3].

وأقوالهم في ذلك كثيرة جدّاً، وكلّها تدعوا إلى لزوم منهج الصّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؛ لأنّه منهج الله ورسوله الّذي ارتضاه الله لهذه الأمّة، وقد تمسّك به الصّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وثبتوا عليه فنسب إليهم وعرف بهم.

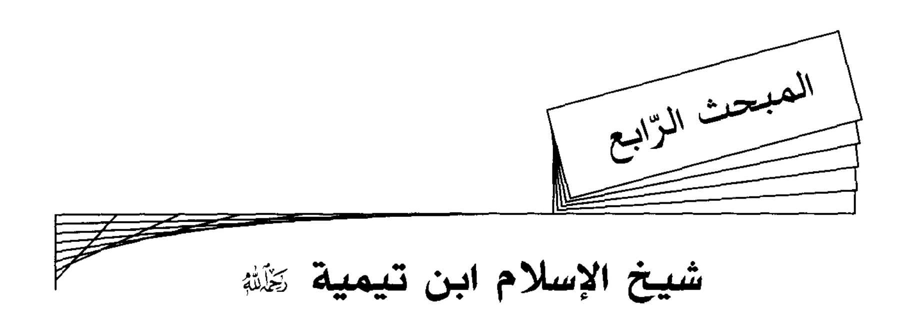


---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة: ١/ ١٥٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٢٦.

(٣) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٦٨، طبعة: المكتب الإسلامي.



شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

عرّفه الإمام الذّهبي رحمه الله فقال عنه:

«ابن تيمية الشّيخ الإمام العلامة الحافظ النّاقد الفقيه المجتهد المفسّر البارع، شيخ الإسلام، عَلَم الزّهاد، نادرة العصر، تقي الدّين أبو العبّاس أحمد ابن المفتي شهاب الدّين عبد الحليم ابن الإمام المجتهد شيخ الإسلام مجد الدّين عبد السّلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحَرَّاني، أحد الأعلام... عني بالحديث، ونسخ الأجزاء، ودار على الشّيوخ، وخرّج وانتقى، وبرع في الرّجال، وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام، وعلم الكلام وغير ذلك. وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزّهاد الأفراد، والشّجعان الكبار، والكرماء الأجواد، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الرّكبان»[1].

وقد بلغ من العلم منزلة عظيمة شهد له بها معاصروه حتّى قال عنه إمام الجرح والتّعديل **أبو الحجّاج المزّي** رحمه الله:

«ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنّة رسوله ولا أتبع لهما منه»[2].

ويؤيّد ذلك: ما نشر الله له من علومه في الآفاق، وبهر بفنونه البصائر

---

(١) تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٤٩٦.

(٢) شذرات الذّهب: ٣/ ٨٤. وانظر تفاصيل ما تلقّى وحفظ من العلوم في كتاب: الأعلام العليّة في مناقب ابن تيمية، لأبي حفص عمر بن علي بن موسى البزّار، تحقيق: زهير الشّاويش، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٠هـ، ص: ١٧ ـ ١٨.

والأحداق، وملأ بمحاسن مؤلّفاته الصّحف والأوراق[1].

بل اتّفق أهل العقول السّليمة أنّه من المجدّدين الّذين يجدّدون لهذه الأمّة أمر دينها[2]، فقد أحيا الله به ما درس من شرائع الدّين، وأقام به الحجّة، وأوضح به المحجّة، ونصر به الحقّ، وأذلّ به الباطل[3].

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ معظّماً لرسول الله ﷺ جدّاً، حريصاً كلّ الحرص على اتّباعه، ونصرة ما جاء به، والذّبّ عنه، بل متى ما بلغه حديث عنه ﷺ عمل وأفتى به ولم يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان، وهو القائل: «كلّ قائل إنّما يحتجّ لقوله لا به إلّا الله ورسوله»[4].

قال أبو حفص البزّار رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وإذا نظر المنصف إليه بعين العدل يراه واقفاً مع الكتاب والسّنّة لا يميله عنهما قول أحد كائناً من كان، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحداً، ولا يخاف في ذلك أميراً ولا سلطاناً ولا سوطاً ولا سيفاً، ولا يرجع عنها لقول أحد، وهو متمسّك بالعروة الوثقى، واليد الطّولى، وعامل بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النّساء: ٥٩]، وبقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشّورى: ١٠]. وما سمعنا أنّه اشتهر عن أحد منذ دهر طويل ما اشتهر عنه من كثرة متابعته للكتاب والسّنّة، والإمعان في تتبّع معانيهما والعمل بمقتضاهما، ولهذا لا يرى في مسألة أقوالاً للعلماء إلّا وقد أفتى بأبلغها موافقة للكتاب والسّنّة، وتحرّى الأخذ بأقومها من جهة المنقول والمعقول»[5].

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ له باع طويل في معرفة مذاهب الصّحابة والتّابعين، وأئمّة

---

(١) المرجع السّابق، ص:٧٧.

(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله يبعث لهذه الأمّة على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها». سنن أبي داود، كتاب الملاحم: (٣٦)، باب ما يذكر في قرن المائة: (١)، برقم: (٤٢٩١). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٦٩.

(٣) وانظر: الأعلام العليّة، ص:١٨ ـ ١٩.

(٤) المرجع نفسه، ص:٢٩، بتصرف.

(٥) المرجع نفسه، ص:٧٨ ـ ٧٩.

المذاهب، وهو يحتجّ لما صح منها بالكتاب والسّنّة، ولا يفتي بمذهب معيّن منها، بل يفتي بما أيّده الدّليل[1].

وقد نصر مذهب السّلف وأيّده بالحجج الباهرة والبراهين النّيّرة بما لم يسبق إليه، ودافع عنه دفاعاً عظيماً، وذكر أنّه الحقّ الّذي لا يعارض ولا يقاوم أبداً، قال:

«وإذا تأمّل اللّبيب الفاضل هذه الأمور تبيّن له أنّ مذهب السّلف والأئمّة في غاية الاستقامة والسّداد والصّحة والاطّراد، وأنّه مقتضى المعقول الصّريح والمنقول الصّحيح، وأنّ من خالفه كان مع تناقض قوله المختلف الّذي يؤفك عنه من أفك خارجاً عن موجب العقل والسّمع، مخالفاً للفطرة والسّمع، والله يتمّ نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين، ويجمع لنا ولهم خير الدّنيا والآخرة»[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر أنّ الإيمان يزيد وينقص كما ثبت عن سلف هذه الأمّة، قال:

«وهذه الأمور كلّها إذا تدبّرها المؤمن بعقله تبيّن له أنّ مذهب السّلف هو المذهب الحقّ الّذي لا عدول عنه، وأنّ من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح المعقول وصحيح المنقول كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السّلف والأئمّة، والله أعلم»[3].

وعندما سئل رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مذهب السّلف مقارنة بغيره من المذاهب، وهل هو منتحل له؟ فأجاب بما دلّل به على صحّة مذهب السّلف، وأنّه الحقّ الّذي يجب على أهل الإسلام أن يلتزموه، ولا ينحرفوا عنه، وعلى بطلان قول من خالفهم، وحشد على ذلك الأدلّة من الكتاب والسّنّة، وأقوال أهل العلم،

---

(١) وانظر: الرّد الوافر، لمحمّد بن أبي بكر بن ناصر الدّين الدّمشقي، تحقيق: زهير الشّاويش، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٣٩٣هـ، ص: ٧٠.

(٢) مجموع الفتاوى: ٥/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٣) المرجع السّابق: ٧/ ٥٨٥، وأقواله في تأييد ذلك كثيرة جدّاً. انظر على سبيل المثال لا الحصر، المرجع نفسه: ٤/ ٢٦، ٣٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣. درء تعارض العقل والنّقل: ١/ ٢٠٣.

وسأل ربّه أن يجعله ممّن يسلكونه[1]، وأمر بإظهاره وبيانه للنّاس فقال:

«لا عيب على من أظهر مذهب السّلف وانتسب إليه، واعتزى إليه، بل يجب قبول ذلك منه بالاتّفاق، فإنّ مذهب السّلف لا يكون إلّا حقّاً، فإن كان موافقاً له باطناً وظاهراً فهو بمنزلة المؤمن الّذي هو على الحقّ باطناً وظاهراً، وإن كان موافقاً له في الظّاهر فقط دون الباطن فهو بمنزلة المنافق، فتقبل منه علانيته وتوكل سريرته إلى الله، فإنّا لم نؤمر أن ننقّب عن قلوب النّاس، ولا نشقّ بطونهم»[2].

وقد نصّ رحمه الله في أكثر من موطن أنّه موافق لمذهب السّلف في جميع ما ذهب إليه، وأنّه يمكنه أن يناظر من شاء على ذلك[3]. ولذا كان يسوق الأدلّة والحجج الّتي يعضدّه بها، وينصره على سواه من المذاهب[4].

بل بيّن أنّه كان يبالغ في البحث والتّحرّي عنه[5]، مع ما أعطي رحمه الله من معرفة عظيمة به، ونفي ما نسب إليه عن طريق الخطأ[6].

وقد واجه رحمه الله المبتدعة وأهل الأهواء على اختلاف نحلهم، وتنوّع بدعهم مواجهات سافرة، وحمل عليهم حملات صادقة، كشف بها عوارهم، وقشع ضلالهم بلسانه وبنانه، لا تلين له معهم عريكة، ولا يحجبه دونهم حاجب، كأسد كاسر وبطل جاسر، عرف بدعهم ففندها، وضلالهم فأزهقه، وهو القائل: «أنا أعلم كلّ بدعة حدثت في الإسلام، وأوّل من ابتدعها، وما كان سبب ابتداعها»[7]، وقد صدق رحمه الله.

وهذه كتبه مليئة بالرّد على طوائف المبتدعة، ودحض شبههم، حتّى قال عنه **ابن قدامة المقدسي** رحمه الله:

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ١ ـ ٣. (٢) المرجع السّابق: ٤/ ١٤٩.

(٣) انظر: المرجع السّابق: ٣/ ١٦٧، ٢٠٧، ١٦/ ٣٨٩، ٤٥٥. بيان تلبس الجهميّة: ١/ ٥٣، ٢/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ١/ ٢١٦، ٢/ ٢٤، ٩٧، ٦/ ١١٥، ٢٩٠ ـ ٣٣٥، ٣٥٥، ١٣/ ١٦٠، ١٤/ ٣٠٩. درء التّعارض: ٦/ ١٠٧، ٩/ ٢٤٠. الرّد على المنطقيين، ص: ٢٢٩.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى: ٣٣/ ١٧٧. (٦) انظر المرجع السّابق: ١٧/ ٨٨.

(٧) المرجع نفسه: ٣/ ١٨٤.

«وكان رحمه الله سيفاً مسلولاً على المخالفين، وشجى في حلوق أهل الأهواء المبتدعين، وإماماً قائماً ببيان الحقّ ونصرة الدّين، وكان بحراً لا تكدّره الدّلاء، وحَبْراً يقتدي به الأخيار الألبّاء، طنّت بذكره الأمصار، وضنّت بمثله الأعصار»[1].

وقال أبو حفص البزّار رحمه الله:

«وأمّا ما خصّه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعتهم، وأهل الأهواء في أهوائهم، وما ألّفه في ذلك من دحض أقوالهم وتزييف أمثالهم وأشكالهم، وإظهار عوارهم وانتحالهم، وتبديد شملهم وقطع أوصالهم، وأجوبته عن شبههم الشّيطانيّة، ومعارضتهم النّفسانيّة للشّريعة الحنفيّة المحمّديّة، بما منحه الله تعالى به من البصائر الرّحمانيّة، والدّلائل النّقليّة، والتّوضيحات العقليّة، حتّى انكشف قناع الحقّ، وبان بما جمعه في ذلك وألّفه الكذب من الصّدق، حتّى لو أنّ أصحابها أحياء، ووفّقوا لغير الشّقاء لأذعنوا له بالتّصديق، ودخلوا في الدّين العتيق»[2].

فارتاع لذلك أهل البدع والأهواء، وكشّروا عن أنياب الحقد والبغضاء، وصبّوا عليه جام الغضب والعداء، وأمطروه بوابل من الفتن والمحن والابتلاء، واتّهموه بما هو منه براء، واستعانوا على ذلك بسيّئ العلماء، وفاسد الأمراء، وألّبوا عليه العامّة والدّهماء، والرّعاع والغوغاء، وسلكوا في عدائه كلّ سبيل معوج لينالوا منه بغيتهم، ويصلوا منه إلى غايتهم، ولكنّهم لم يبلغوا منه ما يؤمّلون، ولم ينالوا منه ما يتمنّون.

وقد بيّن الحافظ أبو الفتح اليعمري رحمه الله في ترجمته له ما وقع له من أعدائه من محن جمّة، وفتن مدلهمّة، وما لقي منهم من أنواع من الكيد

---

(١) العقود الدّريّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، لأبي عبد الله محمّد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي، تحقيق: محمّد حامد الفقي، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، ص:٢٣. وانظر قوله الآخر عنه: ص١١١.

(٢) الأعلام العليّة، ص:٣١ ـ ٣٢.

مظلمة، وأحوال من الأذى مؤلمة، فقال رَحِمَهُ اللهُ فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ:

«برز في كلّ فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه، كان يتكلّم في التّفسير فيحضر مجلسه الجمّ الغفير، ويردون من بحره العذب النّمير، يرتعون من ريع فضله في روضة وغدير، إلى أن دبّ إليه من أهل بلده داء الحسد، وألّب أهل النّظر منهم على ما ينتقد عليه من أمور المعتقد، فحفظوا عنه في ذلك كلاماً، أوسعوه بسببه ملاماً، وفوّقوا لتبديعه سهاماً، وزعموا أنّه خالف طريقهم، وفرّق فريقهم، فنازعهم ونازعوه، وقاطع بعضهم وقاطعوه، ثمّ نازع طائفة أخرى ينتسبون من الفقر إلى طريقة، ويزعمون أنّهم على أدقّ باطن منها وأجلى حقيقة، فكشف تلك الطّرائق، وذكر على ما زعم بوائق، فآضت[1] إلى الطّائفة الأولى من منازعيه، واستغاثت بذوي الضّغن عليه من مقاطعيه، فوصلوا بالأمراء أمره، وأعمل كلّ منهم في كفره فكره، فرتّبوا محاضر، وألّبوا الرّويبضة للسّعي بها بين الأكابر، وسعوا في نقله إلى حضرة المملكة بالدّيار المصريّة، فنقل وأودع السّجن ساعة حضوره واعتقل، وعقدوا لإراقة دمه مجالس، وحشدوا لذلك قوماً من عمّار الزّوايا وسكّان المدارس، ما بين مجامل في المنازعة، ومخاتل[2] بالمخادعة، ومجاهر بالتّكفير مبادٍ بالمقاطعة، يسومونه ريب المنون، وربّك يعلم ما تكنّ صدورهم وما يعلنون، وليس المجاهر بكفره بأسوأ حالاً من المجامل، وقد دبّت إليه عقارب مكره، فردّ الله كيد كلّ في نحره، ونجّاه على يد من اصطفاه، والله غالب على أمره، ثمّ لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة، ولم ينتقل طول عمره من محنة إلّا إلى محنة، إلى أن فوّض أمره إلى بعض القضاة، فتقلّد ما تقلّد

(١) آضَت: أي صارت وَرَجَعَتْ من آضَ يَئِيضُ أيضاً. انظر: لسان العرب: ٧/ ١١٦.

(٢) الختْل: تخادُعٌ عن غَفْلَةٍ. خَتَله يَخْتُله ويَخْتِله خَتْلاً وخَتَلاناً وخاتَله: خَدَعه عن غَفْلة. والمُخاتَلة: مَشْيُ الصّيّاد قليلاً قليلاً في خُفْية لئلا يسمع الصّيدُ حِسَّه، ثمّ جُعل مثلاً لكلّ شيء وُرِّي بغيره وسُتِر على صاحبه. لسان العرب: ١١/ ١٩٩، بتصرّف. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ١٦٩. القاموس المحيط، ص: ١٢٨١.

من اعتقاله، ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله وانتقاله، وإلى الله ترجع الأمور، وهو مطّلع على خائنة الأعين وما تخفي الصّدور»[١].

وقال الذّهبي رحمه الله:

«وقد امتحن وأوذي مرّات، وحبس بقلعة مصر والقاهرة[٢] والإسكندرية[٣] وقلعة دمشق مرّتين، وبها توفي»[٤].

وهم في كلّ ذلك له ظالمون، وفيما ادّعوه عليه كاذبون، ولم يكن رحمه الله كما يزعمون ويفترون، بل كان صافي المعتقد، سليم المنهج، معافى من البدع، سالكاً للسّبيل الأرشد والطّريق الأحمد، ناصراً للدّين معضّداً للحقّ، قائلاً بالصّدق، لا يميل عن ذلك ولا ينثني.

قال أبو حفص البزّار رحمه الله:

«ولم يزل المبتدعون، أهل الأهواء وآكلوا الدّنيا بالدّين متعاضدين متناصرين في عدوانه، باذلين وسعهم بالسّعي في الفتك به، متخرّصين عليه بالكذب الصّراح، مختلفين عليه وناسبين إليه ما لم يقله ولم ينقله، ولم يوجد له به خطّ، ولا وجد له في تصنيف ولا فتوى، ولا سمع منه في مجلس»[٥].

بل عقدوا له مناظرة بأمر من السّلطان في أمر الاعتقاد لمّا سعى إليه قوم من الجهميّة والاتحاديّة[٦] والرّافضيّة وغيرهم من ذوي الأحقاد، واستعانوا بمن

---

(١) الدّرر الكامنة في أعيان المئة الثّامنة، لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: د. محمّد عبد المعيد خان، مطبعة: مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد، الهند، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٢م: ١/ ١٨٣ - ١٨٤.

(٢) القاهرة: هي مدينة مصر العظمى، أول من أحدثها جوهر غلام المعز، وهي عاصمة مصر اليوم وأكبر مدنها. انظر: معجم البلدان: ٤/ ٣٠١.

(٣) الإسكندرية: مدينة عظيمة مشهورة بشمال مصر على البحر الأبيض، اختلفوا في أوّل من أنشأها على أقوال كثيرة أشهرها إنّه الإسكندر، ولذا سمّيت على اسمه، وقيل: هي إرم ذات العماد الّتي ورد ذكرها في القرآن الكريم، فتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة عشرين من الهجرة النّبوية. وانظر: معجم البلدان: ١/ ١٨٣ - ١٨٩.

(٤) تذكرة الحفّاظ: ٤/ ١٤٩٧.

(٥) الأعلام العليّة، ص: ٧٣.

(٦) الاتّحاديّة: هم القائلون بوحدة الوجود، أي ليس في الكون إلّا الله، وأنّ وجود=

شاؤوا من علمائهم، وجمعوا كيدهم وشبههم للنّيل منه، والطّعن فيه، فأبان لهم الاعتقاد المأخوذ من الكتاب والسّنّة وإجماع سلف الأمّة، في أبواب الصّفات والقدر ومسائل الإيمان والوعيد والإمامة والتّفضيل[1]، وناظرهم وناظروه، ودحض شبههم، وقطع حججهم، وقال لهم مرّات وكرّات: «قد أمهلت كلّ من خالفني في شيء منها ثلاث سنين، فإن جاء بحرف واحد عن أحد من القرون الثّلاثة الّتي أثنى عليها النّبي ﷺ حيث قال: «خير القرون القرن الّذي بعثت فيه ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم»[2]، يخالف ما ذكرته فأنا أرجع عن ذلك، وعليّ أن آتي بنقول جميع الطّوائف عن القرون الثّلاثة توافق ما ذكرته من الحنفيّة، والمالكيّة، والشّافعيّة، والحنبليّة، والأشعريّة[3]، وأهل الحديث،

= المخلوقات عين وجود الخالق، فلا فرق بين الخالق والمخلوق. فمن عبد كلّ شيء عبد الله، فحقيقة الرّبّ هو الوجود بعينه، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً.
وانظر: بيان تلبيس الجهميّة: ١/٤٥٢، ٢/٩٦، ١٨٩، ٣٨٠، ٥٢٥. الصّواعق المرسلة: ٣/٨٦٣، ١٠٨٥، ٤/١٢١٣، ١٣١٢.

(١) المراد بالتّفضيل: ترتيب الخلفاء الرّاشدين الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة.
انظر: شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٤٩٥، طبعة وزارة الشّؤون الإسلاميّة بالمملكة العربيّة السّعودية.

(٢) الحديث سبق تخريجه، ص:٢٥٣.

(٣) الأشعريّة: ينتسبون إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري الّذي كان معتزليّاً، ثمّ أنشأ المذهب الأشعري لمّا التقى بعبد الله بن كُلَّاب، ثمّ رجع منه إلى مذهب السّلف مع بقاء بعض المخالفات عنده، ولكن أتباعه ظلّوا على مذهبه.
وهم يثبتون لله سبعة صفات يسمّونها صفات المعاني وهي: العلم والقدرة والحياة والإرادة والكلام النّفسي والسّمع والبصر، ويؤوّلون سائر الصّفات. والإيمان هو التّصديق بالجنان، وأمّا القول باللّسان والعمل بالأركان ففروعه. وقالوا: إنّ فعل العبد خلق من الله إبداعاً وإحداثاً وكسباً من العبد، وزعموا أنّ القرآن حكاية أو عبارة عن كلام الله لا أنّه كلام الله. والأشعريّة اليوم كثر في العالم الإسلامي، بل كثير من بلاد الإسلام تقرّر المذهب الأشعري في مناهجها التّعليميّة ظنّاً منها أنّه الحقّ، والحقّ ما كان عليه سلف الأمّة بلا مرية.
وانظر: الملل والنّحل: ١/٩٤ ـ ١٠٣. بيان تلبيس الجهميّة: ٢/٣٩٩. شفاء العليل، ص:٢١٩.

والصّوفيّة[1]، وغيرهم»[2].

وهذا يدلّ على ثقته بنفسه وما هو عليه من الحقّ، كما يدلّ على ثباته وصلابته في دين الله تعالى، فقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ كما قال ابن عبد الهادي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو في ذلك ثابت الجأش، قويّ القلب، واثق بالنّصر الإلهي، لا يلتفت إلى نصر مخلوق ولا يعوّل عليه»[3].

بل كان من أعظم أهل عصرة قوّة ومقاماً وثبوتاً على الحقّ، وتقريراً لتحقيق توحيد الحقّ، لا يصدّه عن ذلك لوم لائم ولا قول قائل، ولا يرجع عنه لحجّة محتج، بل كان إذا وضح له الحقّ يعضّ عليه بالنّواجذ، ولا يلتفت إلى مباين معاند[4].

قال الحافظ الذّهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: فيما نقله عنه ابن ناصر الدّين رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ولقد نصر السّنّة المحصنة، والطّريقة السّلفية، واحتج لها ببراهين

---

(١) الصّوفيّة: أخذت من التّصوّف الّذي هو حركة دينيّة بدأت كردَّة فعل مضادّ للانغماس في التّرف، ممّا حمل بعضهم على الزّهد الّذي تطوّر حتّى خرج ببعضهم عن حدّ الشّرع، وتلمّسوا من خلاله الوصول إلى معرفة الله عن طريق الكشف والمشاهدة دون استدلال، ممّا جنح ببعضهم في المسار إلى أن تداخلت طريقتهم مع فلسفات هنديّة وفارسيّة ويونانيّة وغير ذلك، وأشربوا عقائد باطلة كالحلول والاتّحاد والفناء، وأنّ الدّين له حقيقة وشريعة. وزعم بعضهم برفع التّكاليف عنه، ولكثير منهم غلوّ في الأشخاص والقبور والأضرحة، ممّا أوقعهم في الشّرك بالله تعالى. كما يغالون في شأن الكرامات الّتي بها يعرف عندهم أهل الصّلاح، وهم مدارس مختلفة وفرق متنوّعة منتشرة في بقاع العالم الإسلامي، وقد عان الإسلام منهم كثيراً.
وانظر: مقالات الإسلاميين، ص:١٣ ـ ١٤، ٢٨٨ ـ ٢٨٩، ٤٣٨ ـ ٤٣٩. التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، لأبي بكر محمّد الكلاباذي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٠هـ، ص:٢١ فما بعدها. اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص:٧٢ ـ ٧٤. مدارج السّالكين: ١/ ١٥٤، ٢/ ٣٦٦، ٣٦٧، ٤٦٨. الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، ص:٣٤١ ـ ٣٥٣.

(٢) مجموع الفتاوى: ٣/ ١٦٩، عرفت هذه المناظرة بالمناظرة الواسطيّة وهي ضمن الجزء الثّالث من مجموع الفتاوى.

(٣) العقود الدّريّة، ص:٢١٨.

(٤) الأعلام العليّة، ص:٧٥، بتصرف يسير.

ومقدّمات وأمور لم يسبق إليها، وأطلق هو عبارات أحجم عنها الأوّلون والآخرون وهابوا، وجسر هو عليها حتّى قام عليه من علماء مصر والشّام قياماً لا مزيد عليه، وبدّعوه، وناظروه وكاتبوه، وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحقّ المرّ الّذي أدّاه إليه اجتهاده، وحدّة ذهنه، وسعة دائرته في السّنن والأقوال مع ما اشتهر منه من الورع وكمال الفكر، وسعة الإدراك، والخوف من الله العظيم، والتّعظيم لحرمات الله، فجرى بينه وبينهم حملات حربيّة، ووقعات شاميّة ومصريّة، وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجّيه الله تعالى، فإنّه دائم الابتهال، كثير الاستعانة، قويّ التّوكّل، ثابت الجأش»(١).

وظلّ على ذلك رَحِمَهُ اللهُ إلى أن توفّاه ربّه سبحانه وهو ثابت صابر محتسب راضٍ شاكر(٢).

وأذيّل هذه السّيرة العطرة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ بمدح وثناء بعض العلماء المخالفين له، والّذين أقرّوا بفضله مع عداوتهم له، ليقف على ذلك من جهل مقامه، وعابه واتّهمه بما هو بريء منه.

قال كمال الدّين ابن الزّمَلْكَاني(٣):

«سيّدنا وشيخنا وقدوتنا الشّيخ الإمام العالم العلامة الأوحد البارع الحافظ الزّاهد الورع القدوة الكامل العارف، تقي الدّين، شيخ الإسلام، سيّد العلماء، قدوة الأئمّة الفضلاء، ناصر السّنّة، قامع البدعة، حجّة الله على العباد، رادّ أهل الزّيغ والعناد، أوحد العلماء العاملين، آخر المجتهدين. . .

---

(١) الرّد الوافر، ص: ٧٠ ـ ٧١. (٢) انظر: الأعلام العليّة، ص: ٧٥.

(٣) محمّد بن علي بن عبد الواحد، كمال الدّين أبو المعالي الأنصاري الدّمشقي، الشّافعي، ابن خطيب زَمَلْكا، المعروف بابن الزّملكاني، له عناية بالحديث والفقه والأصول والنّحو، تولّى قضاء حلب، وعمل بالتّدريس والإفتاء، وانتهت إليه رئاسة المذهب، وله بعض المصنّفات، توفي سنة ٧٢٧هـ.
وانظر: العبر: ٤/ ٨٢. طبقات الشّافعيّة الكبرى: ٩/ ١٩٠. البداية والنّهاية: ١٤/ ١٣١. الدّرر الكامنة: ٥/ ٣٢٨. النّجوم الزّاهرة: ٩/ ٢٧٠. شذرات الذّهب: ٨/ ١٤٠. الأعلام: ٦/ ٢٨٤.

حفظ الله على المسلمين طول حياته، وأعاد عليهم من بركاته، إنّه على كلّ شيء قدير»[1].

وكتب تقي الدّين السّبكي[2] إلى الحافظ الذّهبي في أمر الشّيخ ما يلي:

«فالمملوك يتحقّق قدره، وزخارة بحره، وتوسعته في العلوم الشّرعيّة والعقليّة، وفرط ذكائه واجتهاده، وأنّه بلغ من ذلك كلّ المبلغ الّذي يتجاوزه الوصف، والمملوك يقول ذلك دائماً، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجل، مع ما جمعه الله له من الزّهادة والورع والدّيانة ونصرة الحقّ والقيام فيه لا لغرض سواه... إلخ»[3].

وأنشد أثير الدّين أبو حيان النّحوي[4] في مدحه لمّا دخل شيخ الإسلام مصر واجتمع به:

---

(١) الرّد الوافر، ص: ١٠٤.

(٢) هو علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام، تقي الدّين أبو الحسن السّبكي، الأنصاري، الشّافعي، برع في كثير من الفنون، وتولّى قضاء الشّام، وله تحقيقات واستنباطات قيّمة في الفقه، وردود بينه وبين شيخ الإسلام ابن تيمية في شدّ الرّحال لزيارة قبر النّبي ﷺ، وطلاق الثّلاث، وله مصنّفات عدّة منها: شفاء السّقام في زيارة خير الأنام. الاعتبار ببقاء الجنّة والنّار. مجموعة فتاوى، توفي سنة ٧٥٦هـ، بمصر.
وانظر: طبقات الشّافعيّة الكبرى: ١/ ١٣٩. ذيول العبر، للذّهبي والحسيني، تحقيق: أبي هاجر محمّد السّعيد بن بسيوني زغلول، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت: ٤/ ١٦٨. ذيل تذكرة الحفّاظ، لأبي المحاسن محمّد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني، تحقيق: حسام الدّين القدسي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت: ١/ ٣٩. طبقات الشّافعيّة، لأبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، طبعة: عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ: ٣/ ٣٧. النّجوم الزّاهرة: ١٠/ ٣١٨. طبقات الحفّاظ: ١/ ٥٢٥. شذرات الذّهب: ٨/ ٣٠٨. الأعلام: ٤/ ٣٠٢.

(٣) شذرات الذّهب: ٨/ ١٤٦.

(٤) محمّد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني النّفْزي، أثير الدّين أبو حيان النّحوي، من كبار العلماء بالعربية والتّفسير والحديث والتّراجم واللّغات. له تصانيف كثيرة، منها: كتابه في التّفسير: البحر المحيط، توفي سنة ٧٤٥هـ. =

لـمّا رأينا تقي الدّين لاح لنا | داعٍ إلى اللّه فرداً ما له وزر
على محيّاه من سيما الأولى صحبوا | خير البريّة نور دونه القمر
حبر تسربل[1] منه دهره حبراً | بحراً تقاذف من أمواجه الدّرر
قام ابن تيمية في نصر شرعتنا | مقام سيّد تيم إذا عصت مضر[2]
فأظهر الدّين إذا آثاره درست | وأخمد الشّرك إذا طارت له شرر
يا من تحدّث عن علم الكتاب أصخ | هذا الإمام الّذي قد كان ينتظر»[3]

وأمّا من أثنى عليه من محبّيه فذلك مقام يطول ذكره، ولا يتأتّى حصره، وقد اكتفيت بمن ذكرت من أقوال مبغضيه ليتحقّق للجميع فضله، ويعلم ثباته، ويُبان لكلّ أمره، ويقف الجاهلون على قدره، فيُحمد ذكرُه، ويُعرف حاله، ويُنشر خبره، ويُسلك سيرُه، ويُصبر صبرُه، وقديماً قيل: والفضل ما شهدت به الأعداء.

= وانظر: العبر: ٤/ ١٣٤. طبقات الشّافعيّة الكبرى: ٩/ ٢٧٦. الدّرر الكامنة: ٦/ ٥٨. النّجوم الزّاهرة: ١٠/ ١١١. نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب، لأحمد بن محمّد المقري التّلمساني، تحقيق: د. إحسان عبّاس، طبعة: دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م: ٢/ ١٠٠٩. شذرات الذّهب: ٨/ ٢٥١. الأعلام: ٧/ ١٥٢.

(١) السّرْبال: القَميص والدّرْع، وقيل: كُلُّ ما لُبِسَ فهو سِرْبالٌ، وقد تَسَرْبَل به، سَرْبَلَه إياه، سَرْبَلْتُه فَتَسرْبَل أي ألبسته السّرْبالَ. لسان العرب: ١١/ ٣٣٥. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٢٩٣. القاموس المحيط، ص:١٣١١.

(٢) سيّد تيم:
يعني أبا بكر الصدّيق ﷺ؛ لأنّه من بني تيم بن مرّة. وانظر: الإصابة: ٤/ ١٦٩.
مُضَر:
قبيلة عظيمة تنسب إلى مضر بن نزار بن معد بن عدنان، كانت ديارهم بالحجاز حول الحرم ولهم ملك مكّة، فلمّا كثروا نزحت بطون منهم إلى العراق والجزيرة وغيرها. وانظر: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة: ٣/ ١١٠٧. معجم قبائل الحجاز: ٣/ ٤٦٣.

(٣) شذرات الذّهب: ٨/ ١٤٥ ـ ١٤٦. وأصخ: أي استمع. انظر: مختار الصحاح، ص:٣٧٣. لسان العرب: ٣/ ٣٥.

الباب السادس

الثبات عند الموت

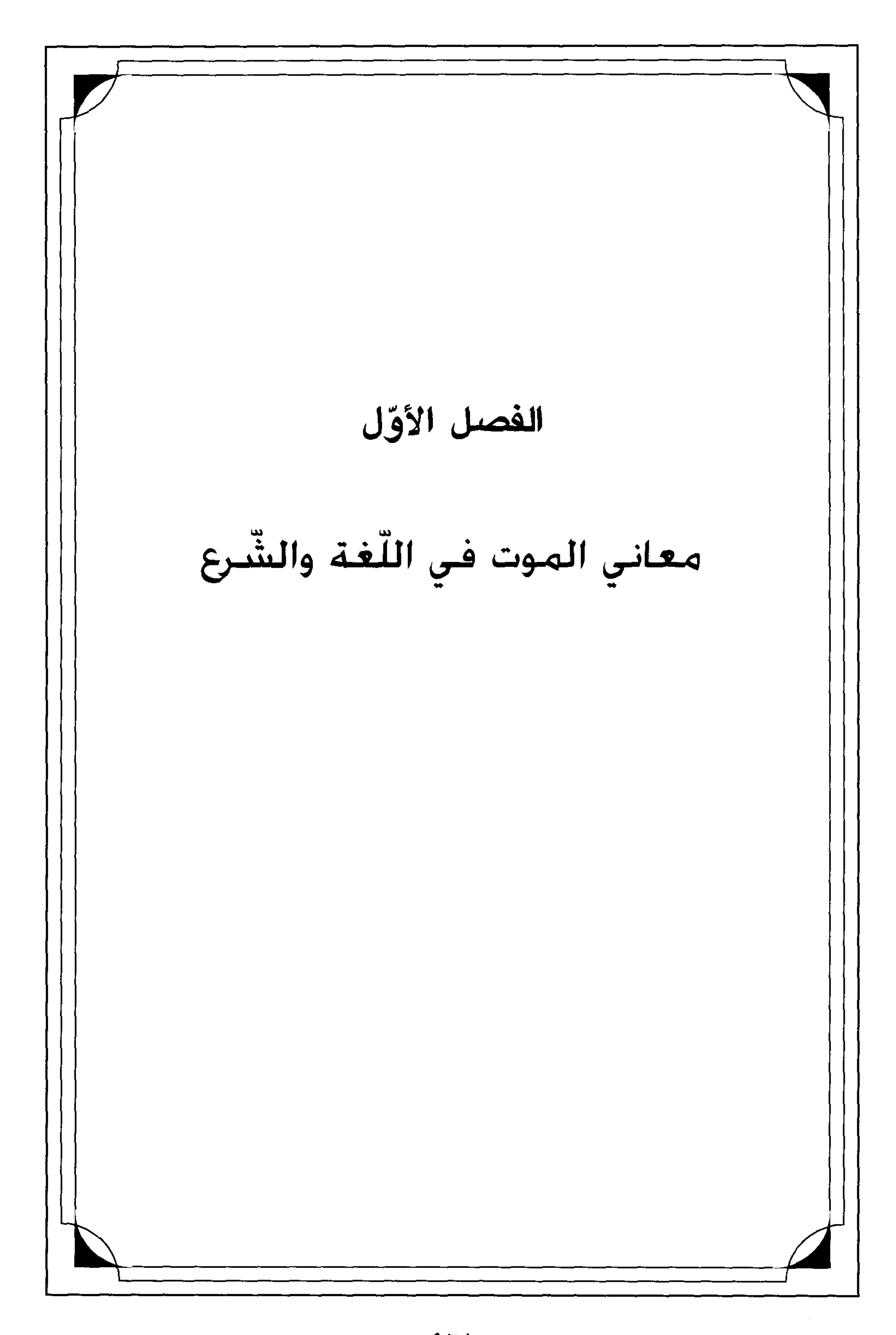
وفيه فصول:

الفصل الأوّل: معاني الموت في اللّغة والشرع.

الفصل الثّاني: حقيقة الموت والحكمة منه.

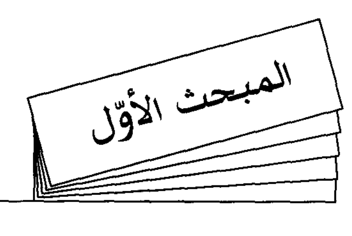
الفصل الثّالث: عوامل الثبات عند الموت.

الفصل الرّابع: نماذج للثبات عند الموت.



الفصل الأوّل

معاني الموت في اللّغة والشّرع



معاني الموت في اللّغة

موت: الميم والواو والتّاء أصل صحيح يدلّ على ذهاب القوّة من الشّيء، ومن ذلك الموت خلاف الحياة(١).

يُقال: مات فلان وهو يموت موتاً(٢).

ويُقال: مَيِّت ومَيْت، وقوم مَوْتَى وأموات، ومَيِّتون ومَيْتون، ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث(٣). وقيل: المَيْتُ الّذي مات، والمَيِّتُ الّذي لم يمت بعد(٤).

ويقال: أماته الله وموَّته. شدّد للمبالغة(٥). ويطلق لفظ الموت على عدّة معاني، من ذلك:

١ ـ السّكون: يقال: ماتت الرّيح إذا سكنت(٦)، وماتت الخمر: إذا سكنت فورتها(٧).

٢ ـ الخضوع: يقال: مات الرّجل، إذا خضع للحقّ(٨).

---

(١) انظر: معظم مقاييس اللّغة: ٥/ ٢٨٣. مجمل اللّغة: ٣/ ٨١٩. الصّحاح: ١/ ٢٦٦.

(٢) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٢. لسان العرب: ١٢/ ٩١.

(٣) انظر: الصّحاح: ١/ ٢٦٧. أساس البلاغة، ص:٤٣٩. مختار الصّحاح، ص:٦٣٩. لسان العرب: ٢/ ٩١. القاموس المحيط، ص:٢٠٦.

(٤) انظر: لسان العرب: ٢/ ٩١. القاموس المحيط، ص:٢٠٦.

(٥) الصّحاح: ١/ ٢٦٧. لسان العرب: ٢/ ٩٣.

(٦) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٣. انظر: أساس البلاغة، ص:٤٣٩. لسان العرب: ٢/ ٩٢. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٢.

(٧) المرجع السّابق: ٥/ ٣٦٢. وانظر: لسان العرب: ٢/ ٩٢.

(٨) انظر: تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤. لسان العرب: ٢/ ٩٣.

٣ ـ البلاء: يقال: مات الثّوب، إذا بَلِيَ[١].

٤ ـ الخمود: يقال: ماتت النّار، إذا خمدت[٢].

٥ ـ النّوم: يقال: مات الرّجل وهَمَد، إذا نام[٣].

قال ابن منظور رحمه الله:

«سمّي النّوم موتاً؛ لأنّه يزول معه العقل والحركة، تمثيلاً وتشبيهاً، لا تحقيقاً»[٤].

٦ ـ الانقطاع: يقال: مات الطّريق إذا انقطع سلوكه[٥].

٧ ـ النّشاف والجفاف: يقال: مات الماء في الأرض، إذا نشّفته[٦].

٨ ـ الفقر: يقال: مات الرّجل إذا افتقر.

٩ ـ المعصية: ويقال: مات، إذا عصي[٧].

قال الشّيخ أحمد رضا:

«الموت مصدر أصل معناه انعدام القوّة النّاميّة في الحيوان والنّبات، ويعم فيكون: زوال القوّة الحسيّة ـ زوال القوّة العاقلة ـ وهو الجهالة. والموت: الحزن والخوف المكدّر للحياة، والنّوم، والفقر والسّؤال، والهرم، والمعصية، وغير ذلك»[٨].

وإطلاقه على الفقر والسّؤال والهرم والمعصية وغيرها ممّا ذكر استعارة، لأنّها أحوال شاقّة فأشبهت الموت الّذي هو زوال الحياة[٩].

---

(١) انظر: تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٤. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٢.

(٢) انظر: أساس البلاغة، ص: ٤٣٩. وانظر: لسان العرب: ٢/ ٩٢. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٢.

(٣) انظر: تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٤.

(٤) لسان العرب: ٢/ ٩٢.

(٥) انظر: أساس البلاغة، ص:٤٣٩. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٢.

(٦) انظر: لسان العرب: ٢/ ٩٢. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٢.

(٧) انظر: المرجع السّابق: ٥/ ٣٦٣.

(٨) المرجع السّابق: ٥/ ٣٦٣.

(٩) انظر: لسان العرب: ٢/ ٩٢.

والـمُوات والـمُوْتان والـمَوْتان: كلّه الموت[1]. يقال: وقع في النّاس والمال مُوات ومُوْتان ومَوْتان، يعنون الموت[2].

وفرّق بعضهم فذكر: أن المُوْتان هو الموت الكثير الوقوع[3]. والمَوْتان يطلق على عدم الذّكاء والفهم. فيقال: رجل مَوْتان الفؤاد إذا كان غير ذكي ولا فَهِم[4].

وأمّا الـمَوَتَان هو كلّ شيء غير ذي روح، وما كان ذا روح فهو الحيوان[5]. فيقال: رجل يبيع المَوَتَان أي يبيع المتاع وما لا روح له[6]. كما يطلق المَوَتان على الأرض الّتي لم تُحْيَ بزرع ولا إصلاح[7].

والمُوَات بالضّم: الموت، والمَوَات بالفتح: ما لا روح فيه. كما يطلق أيضاً على الأرض الّتي لا مالك لها ولا ينتفع بها أحد[8].

والمِيْتَةُ: الحال من أحوال الموت، حسنة كانت أو قبيحة، وجمعها: مِيَتٌ[9].

والمَيْتَةُ: ما لم تلحقه الذّكاة[10]. أي ما مات حتف أنفه أو قتل على هيئة غير مشروعة[11].

---

(١) لسان العرب: ٢/ ٩٣. وانظر: معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٢٨٣. مجمل اللّغة: ٣/ ٨١٩. الصّحاح: ١/ ٢٦٧.

(٢) انظر: أساس البلاغة، ص:٤٣٩. القاموس المحيط، ص:٢٠٦.

(٣) انظر لسان العرب: ٢/ ٩٣. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٣.

(٤) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٣. وانظر: الصّحاح: ١/ ٢٦٧. لسان العرب: ٢/ ٩٣.

(٥) انظر: تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٣. الصّحاح: ١/ ٢٦٧. لسان العرب: ٢/ ٩٣.

(٦) انظر: تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٣. الصّحاح: ١/ ٢٦٧. لسان العرب: ٢/ ٩٣.

(٧) انظر: معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٢٨٣. مجمل اللّغة: ٣/ ٨١٩. وانظر: لسان العرب: ٢/ ٩٣.

(٨) انظر: مختار الصّحاح، ص:٦٣٩. القاموس المحيط، ص:٢٠٦.

(٩) انظر: تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٣. معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٢٨٣. لسان العرب: ٢/ ٩٢. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٣.

(١٠) الصّحاح: ١/ ٢٦٧. مختار الصّحاح، ص:٦٣٩. انظر: لسان العرب: ٢/ ٩٢. القاموس المحيط، ص:٢٠٦.

(١١) معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٣.

والمَوْتة: المرّة الواحدة من الموت[1]. وأمّا المُوْتة: فهي الجنون، وقيل: هي للّذي يصرع من الجنون أو غيره ثمّ يفيق؛ كالنّائم والسّكران. وقيل: هي شبه الغَشْي[2].

المستميت: الّذي يقاتل على الموت. واستمات الرّجل، إذا طاب نفساً بالموت[3]. واستمات أيضاً: ذهب في طلب الشّيء كلّ مذهب[4]. وقيل: هو الّذي يُري من نفسه السّكون والخير، وليس كذلك[5]. والمستميت للأمر: المسترسل له[6].

والتّماوت: الّذي يُرِي أنّه ميّت وهو حي[7].

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من صفة النّاسك[8] المرائي»[9]. سمّي بذلك لأنّه يسكّن أطرافه رياء[10].

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٢٨٣. مجمل اللّغة: ٣/ ٨١٩.

(٢) انظر: تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٣. معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٢٨٣. مجمل اللّغة: ٣/ ٨١٩. الصّحاح: ١/ ٢٦٨. وانظر: أساس البلاغة، ص: ٤٣٩. لسان العرب: ٢/ ٩٣. القاموس المحيط، ص: ٢٠٦. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٣.

(٣) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٤. وانظر: الصّحاح: ١/ ٢٦٧. لسان العرب: ٢/ ٩٣. القاموس المحيط، ص: ٢٠٦.

(٤) لسان العرب: ٢/ ٩٤. القاموس المحيط، ص: ٢٠٦. معجم متن اللّغة: ٥/ ٣٦٣.

(٥) تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٤.

(٦) معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٢٨٣. مجمل اللّغة: ٣/ ٨١٩. الصّحاح: ١/ ٢٦٧. انظر: أساس البلاغة، ص: ٤٣٩. لسان العرب: ٢/ ٩٤. القاموس المحيط، ص: ٢٠٦.

(٧) انظر: تهذيب اللّغة: ١٤/ ٣٤٤.

(٨) النّسُكُ: العِبادة، والناسِكُ: العابِد، وقد نَسَكَ يَنْسُك بالضّم نُسْكاً بوزن رُشدٍ، وتَنَسَّكَ: أي تعبّد، ونَسُكَ من باب ظَرُف صار نَاسكاً، والنّسِيكَةُ: الذّبيحة، والجمع نُسُكٌ بضمّتين ونَسَائِكُ. تقول: نَسَكَ لله يَنْسُكُ بالضّم نُسُكاً بوزن رُشد، والمَنْسَكُ: بفتح السّين وكسرها الموضع الّذي تُذبح فيه النّسائك. مختار الصّحاح، ص: ٦٥٧. وانظر: لسان العرب: ١٠/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩. القاموس المحيط، ص: ١٢٣٣.

(٩) الصّحاح: ١/ ٢٦٧.

(١٠) انظر: أساس البلاغة، ص: ٤٣٩.

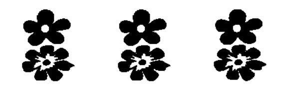
والمماوتة: المصابرة[1].

والموت هو الوفاة. يقال: تُوفِّي فلان وتوفّاه الله إذا قبض نفسه وروحه، وذلك إذا استوفى مدّته الّتي وُفِيتْ له وعدد أيّامه وشهوره وأعوامه في الدّنيا. أي أتمّها وأكملها[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ:

«ولفظ التّوفّي في لغة العرب معناه: الاستيفاء والقبض، وذلك ثلاثة أنواع: أحدها: توفّي النّوم، والثّاني: توفّي الموت، والثّالث: توفّي الرّوح والبدن جميعاً، فإنّه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الّذين يحتاجون إلى الأكل والشّرب واللّباس ويخرج منهم الغائط والبول»[3].

ونخلص ممّا سبق أنّ الموت يطلق على عدّة أمور، وهي: انعدام الحياة، والسّكون، والخضوع، والبلاء، والخمود، والنّوم، والانقطاع، والنّشاف، والفقر، والمعصية، والجهالة، والحزن، والخوف، والفقر، والسّؤال، والهرم. والمراد المعنى الأوّل، وهو المقصود بلفظ الموت إذا أطلق. وأمّا بقيّة المعاني فأطلق عليها لفظ الموت لقرينة المشابهة في بعض صفاته.



(١) القاموس المحيط، ص:٢٠٦.

(٢) انظر: لسان العرب: ١٥/ ٤٠٠. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٧٣١. القاموس المحيط، ص: ١٧٣١.

(٣) دقائق التّفسير: ٣/ ٩٦. وللموت أسماء كثر، منها: الحتف والمنون وشعوب والسّام والحُمام والرّدى والحَيْن والثّكل والوفاة والهلاك. الألفاظ المؤتلفة، لأبي عبد الله محمّد بن عبد الملك بن مالك الطّائي الجياني، تحقيق: د. محمّد حسن عوّاد، طبعة: دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ: ١/ ٢٣٢.



المبحث الثّاني

معاني الموت في الشّرع

الموت عرض عن الأعراض الّتي تعتري الإنسان والحيوان[1]. وهو صفة وجوديّة ـ خلافاً لمن أنكر ذلك من الفلاسفة ومن وافقهم ـ خلقت ضدّ الحياة[2]، وقد قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ٢].

وهو إن كان عرضاً فإنّ الله تعالى يقلبه عيناً كما ورد في الحديث أنّه يؤتى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنّار[3].

---

(١) وانظر: النّبوّات لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة: المطبعة السّلفيّة، القاهرة، ١٣٨٦هـ، ص: ٧.

(٢) انظر: التّعريفات، ص: ٣٠٤. شرح العقيدة الطّحاوية، ص: ١٢٦، طبعة: المكتب الإسلامي.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والنّاس تنازعوا في الموت هل هو عدمي أو وجودي؟ ومن قال: إنّه وجودي احتجّ بقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، فأخبر أنّه خلق الموت كما خلق الحياة، ومنازعه يقول: العدم الطّارئ يخلق كما يخلق الوجود، أو يقول: الموت المخلوق هو الأمور الوجوديّة اللّازمة لعدم الحياة، وحينئذ فالنّزاع لفظي». درء التّعارض: ٢/٣٨٣.

(٣) روى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي منادٍ يا أهل الجنّة فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت. وكلّهم قد رآه. ثمّ ينادي يا أهل النّار فيشرئبّون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم هذا الموت. وكلّهم قد رآه. فيذبح، ثمّ يقول: يا أهل الجنّة خلود فلا موت، ويا أهل النّار خلود فلا موت، ثمّ قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، وهؤلاء في غفلة أهل الدّنيا ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾». =

ويؤيّد ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وهذا محمول على قول من ذهب إلى أنّ الموت يشاهد ويرى ظاهراً، لا على قول من ذهب إلى أنّ المشاهد في الآية أسباب الموت ومقدّماته لا عينه[(١)].

قال أهل العلم: «الموت ليس بعدم محض ولا فناء صرف، وإنّما هو انقطاع تعلّق الرّوح بالبدن ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدّل حال، وانتقال من دار إلى دار»[(٢)].

فالموت هو مفارقة الأرواح لأجسادها وتحوّلها عنها إلى عالم البرزخ[(٣)] للإقامة فيه إلى يوم القيامة، وليس انعدامها واضمحلالها بحيث تصير عدماً محضاً[(٤)]؛ لأنّ الأدلّة بيّنت أنّ الرّوح بعد مفارقة الجسد تكون منعّمة أو معذّبة[(٥)].

= كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩]: (١)، برقم: (٤٧٣٠)، ص:١٠٠٩.

وانظر: صحيح مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب النّار يدخلها الجبّارون، والجنّة يدخلها الضّعفاء: (١٣)، برقم: (٢٨٤٩)، ٤/ ٢١٨٨. انظر: شرح العقيدة الطّحاوية، ص:١٢٦، طبعة: المكتب الإسلامي.

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٦/ ٤٦٥.

(٢) التّذكرة، ص:٤. الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٢٠٦.

ولأهل التّصوّف تعريفات وتقسيمات للموت ذكرها الجرجاني في كتاب التّعريفات، ص:٣٠٤ ـ ٣٠٥. والمناوي في التّعاريف: ١/ ٦٨٤ ـ ٦٨٥، وهي تلائم بدع التّصوّف وانحرافهم العقدي، وأمّا الشّرع فهو في غناء عن كلّ ذلك.

(٣) البَرْزَخُ: الحاجز بين الشّيئين، وهو أيضاً ما بين الدّنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخل البرزخ. مختار الصّحاح، ص:٤٨. وانظر: لسان العرب: ٣/ ٨. القاموس المحيط، ص:٣١٨.

(٤) وانظر: الفصل، لابن حزم: ٣/ ٧٥، طبعة: مكتبة الخانجي. شرح النّووي على مسلم: ٦/ ١٨٧. مجموع الفتاوى ١٠/ ١١٠.

(٥) سوف أتعرّض لتلك الأدلّة عند الحديث عن فتنة القبر بإذن الله تعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والأرواح مخلوقة بلا شك، وهي لا تعدم ولا تفنى، ولكن موتها بمفارقة الأبدان، وعند النّفخة الثّانية تعاد الأرواح إلى الأبدان»[1].

وقد أشار ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى خلاف في هذه المسألة فقال:

«الرّوح هل تموت أم الموت للبدن وحده؟ اختلف النّاس في هذا، فقالت طائفة: تموت الرّوح وتذوق الموت لأنّها نفس و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]. قالوا: وقد دلّت الأدلّة على أنّه لا يبقى إلّا الله وحده. قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٦ - ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنّفوس البشريّة أولى بالموت.

قالوا: وقد قال تعالى عن أهل النّار إنّهم: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١]، فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن، والأخرى للرّوح.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح فإنّها خلقت للبقاء، وإنّما تموت الأبدان. قالوا: وقد دلّت على هذه الأحاديث الدّالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النّعيم والعذاب. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠]، هذا مع القطع بأنّ أرواحهم قد فارقت أجسادهم وقد ذاقت الموت.

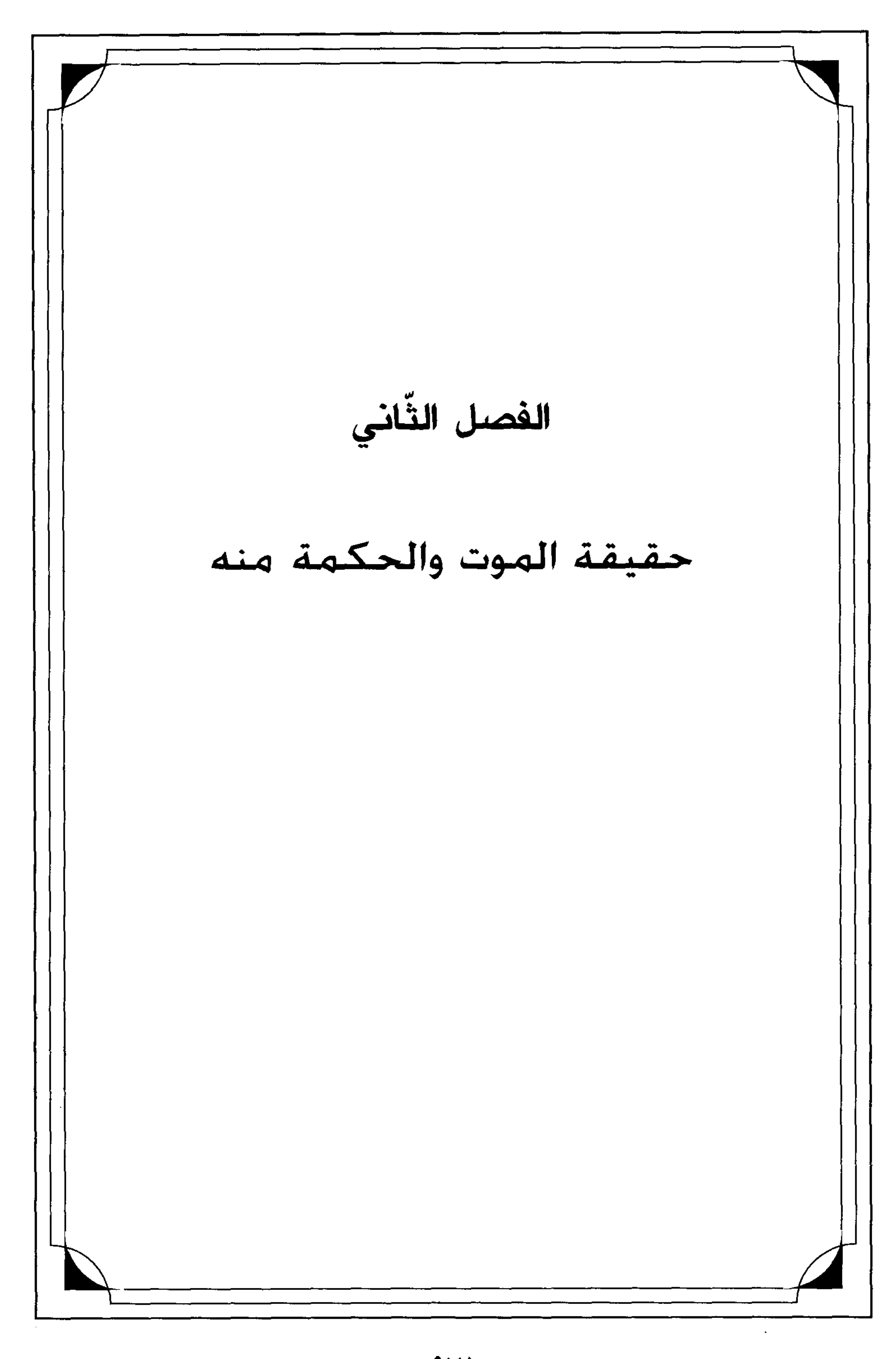
والصّواب أن يقال: موت النّفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنّها تعدم وتضمحل وتصير عدماً محضاً فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى: ٤/٢٧٩. وانظر: فتح الباري: ٣/٢٤٣، طبعة: دار المعرفة.

(٢) الرّوح، ص: ٣٤.





الفصل الثّاني

حقيقة الموت والحكمة منه

لقد بيّن الله ﷻ أنّه خلق هذا الإنسان في أطوار متعدّدة وأحوال متنوّعة، وأنّه يمرّ في هذا الوجود بمراحل متفاوتة ومنازل متباينة.

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥ - ٧].

فالله سبحانه خلق أبانا آدم عليه السلام من تراب قُبض من كلّ الأرض كما ورد ذلك في حديث أبي موسى رضي الله عنه عن النّبي ﷺ أنّه قال: «إنّ الله ﷻ خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جعل منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسّهل والحَزْن[1] وبين ذلك، والخبيث والطّيّب وبين ذلك»[2].

---

(١) الحَزْن: المكان الغليظ الخَشِن. والحُزُونة: الخُشُونة. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٨٠.

(٢) سنن أبي داود، بلفظ مقارب في: كتاب السّنّة: (٣٩)، باب في القدر: (١٦)، برقم: (٤٦٩٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٥١١.

سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة البقرة: (٢)، برقم: (٢٩٥٥)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٤٧٣. =

ثمّ ابتدأ خلق بنيه من نطفة، أي ماء قليل وهو المني الّذي يخرج من بين صلب الرّجل وترائب[1] المرأة، ثمّ يحيله إلى دم غليظ أحمر متجمّد يعلق بجدار رحم المرأة وهو العلقة، ثمّ يحيله إلى لحمة قليلة بقدر ما يمضغ وهي المضغة، ومنها ما يكون تامّ الخلق مصوّراً، ومنها ما يكون ناقص الخلق غير مكتمل وغير مصوّر، تقذفه الأرحام دماً إلى الخارج، وما كان تامّ الخلق وكتب له البقاء يُقَرّ في الأرحام فلا تمجّه ولا تسقطه إلى وقت خروجه منها وولادته طفلاً صغيراً، ثمّ يترعرع ويكبر شيئاً فشيئاً حتّى تكتمل قوّته، وينضج عقله، وقد يتوفّى قبل ذلك، وقد يبلغ به العمر أرذله فيصل إلى الهرم والخرف، فيتغيّر عقله فلا يعقل شيئاً، وتضعف قوّته فلا يقوى على شيء، ثمّ هو بعد ذلك ميّت لا محالة، ثمّ يبعث بعد قيام السّاعة، فإن كان خيراً فخير، وإن كان شرّاً فشرّ[2].

وهذه الآيات كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾ [غافر: ٦٧ ـ ٦٨].

= سنن البيهقي، نحوه في: كتاب السّير، باب مبتدأ الخلق: ٣/٩.
مسند أحمد، بلفظه في: ٤/٤٠٦، وبلفظ مقارب في: ٤/٤٠٠.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: ١٤/٢٩، برقم: (٦١٦٠). قال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح»، ونحوه في: ١٤/٦٠، برقم: (٦١٨١). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح». مستدرك الحاكم، نحوه في: ٢/٢٨٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطّارق: ٥ ـ ٧]. والمراد بالتّرائب: ضلوع الصّدر، الواحدة تَرِيبَة. المفردات، ص: ٧٤.

(٢) وانظر: جامع البيان: ١٧/١١٨ ـ ١١٩. معالم التّنزيل: ٣/٢٧٥ ـ ٢٧٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/٦ ـ ١٤. أنوار التّنزيل: ٤/١١٤ ـ ١١٥. تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٣٠ ـ ٣٣٣. فتح القدير: ٣/٤٣٦ ـ ٤٣٧. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٨٣.

وكقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٦].

فهذه حياة الإنسان وأطواره الّتي يمرّ بها في هذا الوجود.

وكثيراً ما يضرب الله لذلك مثلاً بحياة النّبات وازدهاره، ثمّ زواله. قال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١].

فالله سبحانه أنزل من السّماء ماء فأدخله في باطن الأرض وأسكنه فيها، ثمّ يخرج به زروعاً لها ألوان مختلفة، وأشكال متعدّدة، وطعوم متباينة، وأحجام متفاوتة، ثمّ تصفر وتيبس بعد حسنها ونضارتها ورونقها فتعود حطاماً، وتصبح فتاتاً، وفي ذلك ذكرى لأصحاب العقول النّيّرة الّتي أدركت حقيقة هذه الحياة الّتي تختم بالزّوال، وحال الإنسان كحال هذا الزّرع في سرعة تصرّمه، وقرب زواله، وحلول فنائه[1].

قال ابن رجب رحمه الله:

«خلق الله تعالى آدم من تراب الأرض، ونفخ فيه من روحه، فكانت روحه في جسده، وأرواح ذرّيّته في أجسادهم في هذه الدّار عارية، وقضى عليه وعلى ذرّيّته أنّه لا بد من أن يستردّ أرواحهم من هذه الأجساد، ويعيد أجسادهم إلى ما خلقت منه وهو التّراب، ووعد أن يعيد الأجساد من الأرض مرّة ثانية، ثمّ يردّ إليها الأرواح مرّة ثانية تمليكاً دائماً لا رجعة فيه في دار البقاء.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]،

---

(١) وانظر: جامع البيان: ٢٣/٢٠٨ ـ ٢٠٩. معالم التّنزيل: ٤/٧٥ ـ ٧٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٢٤٥ ـ ٢٤٦. أنوار التّنزيل: ٥/٦٣. تفسير القرآن العظيم: ٤/٧٦ ـ ٧٧. فتح القدير: ٤/٤٥٧ ـ ٤٥٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٨٨.

وقـال: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طـه: ٥٥]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: ١٧ ـ ١٨]. وأرانا دليلاً في هذه الدّار على إعادة الأجساد من التّراب بإنبات الزّرع من الأرض، وإحياء الأرض بعد موتها بالمطر، ودليلاً على إعادة الأرواح إلى أجسادها بعد المفارقة بقبض أرواح العباد في منامهم، وردّها إليهم في يقظتهم كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

وفي مسند البزّار عن أنس أنّ النّبي ﷺ قال لهم لمّا ناموا عن الصّلاة: «إنّ هذه الأرواح عارية في أجساد العباد، فيقبضها إذا شاء ويرسلها إذا شاء»(١).

ومن هنا يتبيّن لنا أنّ الموت مرحلة يمرّ بها الإنسان، ومنزلة يردها، وحقيقة لا يتخطّاها، وكأساً يتجرّعها، ومنهلاً يستقي منه. ولكن ما الحكمة في ذلك، وما الهدف من كلّ ذلك؟ لعلي أحاول جاهداً أن أبيّن بعض الحِكم الّتي تُلْتَمس من خلق الموت وفرضه على رقاب العباد، وإن كان الكثير منها قد يخفى عن الخلق، ويغيب عن العقل، من ذلك:

١ ـ في الموت تتجلّى كمال قدرة الخالق سبحانه، وعظيم حكمته في تصريف أطوار الخلق، فهو الّذي أنشأ هذا الإنسان من عدم ثمّ أوجده طوراً بعد طور، وخلقاً بعد خلق، حتّى صار بشراً سوياً يسمع ويبصر ويعقل، ويتكلّم

---

(١) لطائف المعارف، ص: ١١٦ ـ ١١٧.
والحديث في معجم شيوخ أبي بكر الإسماعيلي، لأبي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي، تحقيق: د. زياد محمّد منصور، طبعة: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ، بلفظه في: ١/ ٤٤٥.
وقال الهيثمي ؒ: «رواه البزّار وفيه عتبة أبو عمرو روى عن الشّعبي، وروى عنه محمّد بن الحسن الأسدي، ولم أجد من ذكره، وبقية رجاله الصّحيح». مجمع الزوّائد: ١/ ٣٢٢.

ويتحرّك، ويُسالم ويُخاصم، ويتزاوج ويتناسل، يعيش على أرض الله، وينال من رزق الله، ثمّ بعد ذلك كلّه يميته الله تعالى فلا يأكل ولا يشرب، ولا يسمع ولا يبصر، ولا يعقل ولا يتحرّك، فيزول بعد بقاء، وينفى بعد وجود، وكلّ ذلك بتصريف الله وقدرته، وبالغ حكمته في خلق الأمور المختلفة، والأحوال المتضادّة.

ولذا قال سبحانه في آية سورة الحجّ: ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥].

قال البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لنبيّن لكم كمال قدرتنا وحكمتنا في تصرف أطوار خلقكم، ولتستدلّوا بقدرته في ابتداء الخلق على قدرته على الإعادة»[١].

وقال في آية سورة المؤمنون: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي هذه لفتة لانتباه البشر كي يستشعروا عظمة الخالق، وكمال قدرته، وجليل حكمته أن خلقهم في تلك الأحوال المتغايرة، والأطوار المتباينة الّتي ختمت بالموت.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ يعني حين ذكر قدرته ولطفه في خلق هذه النّطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتّى تصوّرت إلى ما صارت إليه من الإنسان السّوي الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾»[٢].

وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الزمر: ٤٢].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: إنّ في قبض الله نفس النّائم والميّت وإرساله بعد، نفس هذا ترجع إلى جسمها،

---

(١) معالم التّنزيل: ٣/ ٢٧٥. وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٨٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٨٧.

وحبسه لغيرها عن جسمها لعبرة وعظة لمن تفكّر وتدبّر، وبياناً له أنّ الله يحيي من يشاء من خلقه إذا شاء، ويميت من شاء إذا شاء»[1].

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وفي الآية تنبيه على عظيم قدرته، وانفراده بالألوهيّة، وأنّه يفعل ما يشاء، ويحيي ويميت، لا يقدر على ذلك سواه»[2].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ **في معرض بيانه لقوله تعالى:** ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٦ ـ ٨٧]، **قال:**

«تضمّنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً واستدلالاً على أصول الإيمان، من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته وربوبيّته، وتصرّفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التّصرف فيها بشيء، وأنّ أرواحهم بيده يذهب بها إذا شاء، ويردّها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهم تارة. . .» إلخ ما ذكر[3].

٢ ـ إنّ الله تعالى خلق الموت والحياة ابتلاءً لعباده واختباراً لهم ليعلم من يطيعه ممّن يعصيه، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢].

قال الشّوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أي خلق الموت والحياة ليعاملكم معاملة من يختبركم أيّكم أحسن عملاً، فيجازيكم على ذلك. وقيل المعنى: ليبلوكم أيّكم أكثر للموت ذكراً وأشدّ منه خوفاً. وقيل: أيّكم أسرع إلى طاعة الله، وأورع عن محارم الله»[4].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إنّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنّما خلق السّماوات والأرض، وخلق الموت والحياة، وزيّن

---

(١) جامع البيان: ٢٤/٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٢٦٣.
(٣) التّبيان في أقسام القرآن، ص:١٤٩، طبعة: دار الفكر.
(٤) فتح القدير: ٥/٢٥٨ ـ ٢٥٩. وانظر: جامع البيان: ٢٩/١. معالم التّنزيل: ٤/٣٦٩. الجامع لأحكام القرآن: ١٨/٢٠٧.

الأرض بما عليها لابتلاء عباده وامتحانهم، ليعلم من يريده ويريد ما عنده ممّن يريد الدّنيا وزينتها»[1].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥].

فنقص الأنفس يكون بالموت والقتل[2].

٣ ـ لم يخلق الله البشر في الدّنيا على خلقة قابلة للدّوام، بل جعلهم خلائف في الأرض يخلف بعضهم بعضاً، فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف[3].

٤ ـ في الموت نعم عظيمة لا تتأتّى للنّاس إلّا به، فلولا الموت لما هنأ لهم العيش، ولا طاب في هذه الأرض، ولا وسعتهم الأرزاق، ولضاقت عليهم المساكن والمدن والأسواق والطّرقات[4].

قال ابن القيّم رحمه الله:

«فكم لله سبحانه على عباده الأحياء والأموات في الموت من نعمة لا تحصى، فكيف إذا كان فيه طهرة للمقتول، وحياة للنّوع الإنساني، وتشفّ المظلوم، وعدل بين القاتل والمقتول، فسبحان من تنزّهت شريعته عن خلاف ما شرعها عليه»[5].

٥ ـ الموت يخلّص المؤمن من نكد هذه الحياة الّتي حُشيت بالغصص، وحُفّت بالمكاره والآلام الباطنة والظّاهرة إلى نعيم لا ينفد، وقرّة عين لا تنقطع، وسعادة لا تنتهي، في ظلال وارفة، وبساتين مؤنقة، وجنّات دائمة مع خيرة الرّفقاء، وأطيب الأصفياء.

---

(١) إغاثة اللّهفان: ٢/ ١٩١.

(٢) انظر: معالم التّنزيل: ١/ ١٣٠. الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٧٤. فتح القدير: ١/ ١٥٩. وقد سبق الكلام في الابتلاء وحكمه في باب منفصل من هذا البحث. انظر: ص: ٣٠٢ فما بعدها.

(٣) شفاء العليل، ص: ٢٤١.

(٤) انظر: إعلام الموقّعين: ٢/ ١٢٢.

(٥) المرجع السّابق: ٢/ ١٢٣.

عن أبي قتادة ﵁ قال: كنّا جلوساً عند رسول الله ﷺ إذ طلعت جنازة، فقال رسول الله ﷺ: «مستريح ومستراح منه، المؤمن يموت فيستريح من أوصاب الدّنيا، ونصبها وأذاها، والفاجر يموت فيستريح منه العباد والبلاد والشّجر والدّواب»(١).

وهو يخلّص الكافر من مزيد العذاب ومضاعفة النّكال، إذ كلّما طال عمره وساء عمله زاد عذابه وكثر عقابه.

عن أبي الدّرداء ﵁ كان يقول: «ما من مؤمن إلّا والموت خير له، وما من كافر إلّا والموت خير له، ومن لم يصدّقني فإنّ الله يقول: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨]، ويقول: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: ١٧٨](٢).

قال ابن جرير ﵀ **عند تفسير قوله تعالى في مخاطبة اليهود: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾** [البقرة: ٩٤] **قال:**

«إن كنتم محقّين فتمنّوا الموت، فإنّ ذلك غير ضارّكم إن كنتم محقّين فيما تدّعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله، بل إن أعطيتم أمنيتكم من الموت إذا تمنّيتم فإنّما تصيرون إلى الرّاحة من تعب الدّنيا ونصبها وكدر

---

(١) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب سكرات الموت: (٤٢)، برقم: (٦٥١٢)، وجزء منه بنحوه برقم: (٦٥١٣)، ص: ١٣٨٤.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (١١)، باب ما جاء في مستريح ومستراح منه: (٢١)، برقم: (٩٥٠)، ٢/ ٦٥٦.
واللّفظ أعلاه للنّسائي في سننه: كتاب الجنائز: (٢١)، باب الاستراحة من الكفّار: (٤٩)، برقم: (١٩٣١)، برقم: (١٩٣١). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص: ٢١٩.
وانظر معنى الحديث في فتح الباري: باب سكرات الموت: ١١/ ٣٦٥، طبعة: دار المعرفة.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٦٥.
وانظر: التّذكرة، ص: ٦. والأثر أورده الطّبراني في الكبير عن ابن مسعود ﵁ بلفظ مقارب في: ٩/ ١٥١.

عيشها، والفوز بجوار الله في جنانه، إن كان الأمر كما تزعمون: من أنّ الدّار الآخرة لكم خالصة دوننا، وإن لم تعطوها علم النّاس أنّكم المبطلون ونحن المحقّون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم»[1].

وقال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«من مراتب الحياة حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السّجن وضيقه، فإنّ من ورائه فضاء وروحاً وريحاناً وراحة، نسبة هذه الدّار إليه كنسبة بطن الأمّ إلى هذه الدّار أو أدنى من ذلك... ويكفي في طيب هذه الحياة مرافقة الرّفيق الأعلى، ومفارقة الرّفيق المؤذي المنكّد الّذي تنقّص رؤيته ومشاهدته الحياة فضلاً عن مخالطته وعشرته إلى الرّفيق الأعلى ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩] في جوار الرب الرّحمٰن الرّحيم. قد قلت:

إذا مدحوا الحياة فأسرفوا ... في الموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمان لقائه بلقائه ... وفراق كلّ معاشر لا ينصف

ولو لم يكن في الموت من الخير إلّا إنّه باب الدّخول إلى هذه الحياة، وجسر يعبر منه إليها لكفى به تحفة للمؤمن:

جزى اللّه عنّا الموت خيراً فإنّه ... أبرّ بنا من كلّ برّ وألطف
يعجّل تخليص النّفوس من الأذى ... ويدني إلى الدّار الّتي هي أشرف»[2]

٦ ـ بالموت تصل النّفس إلى اليقين، وتتعرّف على حقيقتها من حيث أنّها مخلوقة لخالق سبحانه، وأنّها مخلوقة لغاية.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ولقد تأمّلت حالة عجيبة، يجوز أن يكون المقصود بالموت هي[3]: أنّ

---

(١) جامع البيان: ١/ ٤٢٤. وانظر: معالم التّنزيل: ١/ ٩٥. أنوار التّنزيل: ١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٤.
(٢) مدارج السّالكين: ٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٣) حصره حِكم الموت فيما ذكر لا وجه له، وإن لم يجزم بذلك، وقد سبق الحديث عن حِكم أخرى لم يشملها كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الخالق سبحانه في غيب لا يدركه الإحساس، فلو أنّه لم ينقض هذه البينة لتخايل للإنسان أنّه صنع لا بصانع، فإذا وقع الموت عرفت النّفس نفسها الّتي كانت لا تعرفها لكونها في الجسد، وتدرك عجائب الأمور بعد رحيلها، فإذا ردّت إلى البدن عرفت ضرورة أنّها مخلوقة لمن أعادها وتذكّرت حالها في الدّنيا ـ فإنّ الأفكار تعاد كما تعاد الأبدان ـ فيقول قائلهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطّور: ٢٦]، ومتى رأت ما قد وعدت به من أمور الآخرة أيقنت يقيناً لا شك معه، ولا يحصل هذا بإعادة ميّت سواها، وإنّما يحصل برؤية هذا الأمر فيها. فتبنى بينة تقبل البقاء، وتسكن جنّة لا ينقضي دوامها، فيصلح بذلك اليقين أن تجاور الحقّ، لأنّها آمنت بما وعد، وصبرت بما ابتلى، وسلّمت لأقداره فلم تعترض، ورأت في غيرها العبر، ثمّ في نفسها، فهذه هي الّتي يقال لها: ﴿ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٨ ـ ٣٠].

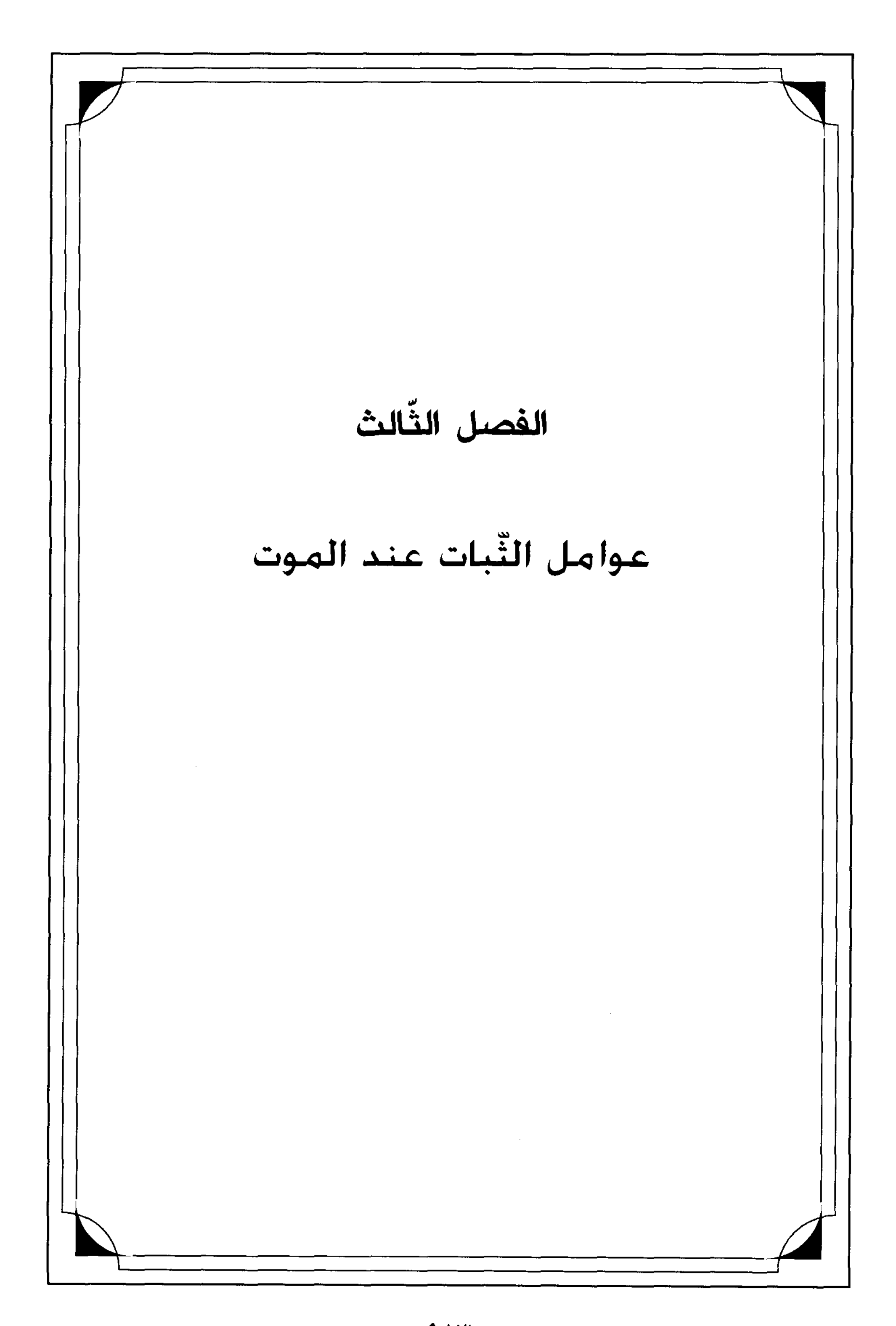
فأمّا الشّاك والكافر فيحقّ لهما الدّخول إلى النّار واللّبث فيها، لأنّهما رأيا الأدلّة ولم يستفيدا، ونازعا الحكيم واعترضا عليه ـ فعاد شؤم كفرهما يطمس قلوبهما، فبقيت على ما كانت عليه[1] ـ فلمّا لم تنتفع بالدّليل في الدّنيا لم تنتفع بالموت والإعادة، ودليل بقاء الخبث في القلوب قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]»[2].



(١) سقط من طبعة دار الفكر، فألحقته من طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ص:٢٧٦.

(٢) صيد الخاطر للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، راجعه: علي الطّنطاوي، وحقّقه: ناجي الطّنطاوي، طبعة: دار الفكر، دمشق، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م، ص:٢٤٥.





الفصل الثّالث

عوامل الثّبات عند الموت

التمهيد

شدّة الموت وكربته

لقد بيّن المولى ﷻ في آيات عدّة حال المُحْتَضَر عند فراق روحه لجسده، وما يلاقيه من شدّة وكرب، وهول وخطب، وأمر صعب، وضنك وتعب، فقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠)﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٣٠].

أي إذا بلغت روح المحتضر تراقيه، وهي العظام الّتي بين ثغرة النّحر والعاتق، فهنالك يشتدّ الكرب عليه، ويطلب له كلّ وسيلة ليرتاح من العناء، ويصل بها إلى الشّفاء، ولكن هيهات، لا راقٍ يرقي[1]، ولا طبيب يعالج، إذ

---

(١) الرّقيَة العُوذة الّتي يُرْقَى بها صاحِب الآفة كالحُمَّى والصّرع وغير ذلك من الآفات. وقد رجّح بعض الأحاديث جَوازها، وفي بعضها النّهْي عنها. فمِنَ الجَواز قوله: «اسْتَرْقُوا لَها فإنّ بها النّظْرة». البخاري: (٥٧٣٩). مسلم: (٢١٩٧)، أي اطْلُبوا لها مَن يَرْقيها. ومن النّهْي قوله: «لا يَسْتَرْقُون ولا يكْتَوُون». البخاري: (٥٧٠٥). مسلم: (٢١٨). والأحاديث في القِسْمين كثيرة.
ووَجْه الجَمْع بينهما: أنّ الرّقَى يُكْرَه منها ما كان بغير اللّسان العَرَبيّ، وبغير أسماء الله تعالى وصِفاته وكلامِه في كُتُبه المُنَزّلة، وأن يَعْتَقد أنّ الرّقى نافِعَة لا مَحالة فَيَتَّكِل عليها، وإيّاها أراد بقوله: «ما تَوَكّل من استرقى». الترمذي: (٢٠٥٥). ابن ماجه: (٣٤٨٩). ولا يُكْره منها ما كان في خلاف ذلك كالتّعوّذ بالقُرآن، وأسماء الله تعالى، والرّقى المَرْوِيّة. ولذلك قال للّذي رَقَى بالقرآن وأخَذَ عليه أجْراً: «من أخَذ بِرُقْيَة بَاطِلٍ فقد أخَذْتَ بِرُقْيَة حَقّ». أبو داود: (٣٩٠١). وكقوله في حديث جابر أنّه عليه الصّلاة والسّلام قال: «اعرضوها عليّ، فعرَضْنَاها، فقال: لا بأس بها إنّما هي مَوَاثِيقُ». ابن ماجه: (٣٥١٥). كأنّه خاف أن يَقَع فيها شيء ممّا كانوا يَتلفّظون به ويعتقدونه من الشّرْك في الجاهليّة، وما كان بغير اللّسان العَرَبيّ ممّا لا يُعْرف له=

لا غناء له من أمر الله، ومن الّذي يصدّ الموت بعد وروده؟ فحينئذ أيقن أنّه مفارق لدنياه وأهله وولده وماله، وانقطع رجاؤه عن البقاء.

قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أشدّ ما يكون الموت على العبد إذا بلغت الرّوح التّراقي»، قال: «فعند ذلك يضطّرب ويعلو نفسه». ثمّ بكى الحسن رحمه الله تعالى[1].

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾ وهو كناية عن اجتماع الشّدائد عليه وتتابعها.

قال ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

«﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾ آخر يوم من الدّنيا، وأوّل يوم من الآخرة، فتلتقي الشّدّة بالشّدّة إلّا من رحم الله»[2].

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«تتابعت عليه الشّدائد»[3].

وقال السّدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لا يخرج من كرب إلّا جاءه أشدّ منه»[4].

= تَرْجَمة، ولا يُمكن الوُقوف عليه فلا يجوز اسْتِعْمالُه.

وأمّا قوله: «لا رُقْيَة إلّا مِن عَيْنٍ أو حُمَة». فمعناه: لا رُقْيَة أوْلَى وأنْفَع، وهذا كما قِيل: لا فَتى إلّا عَلِيّ. وقد أمَر عليه الصّلاة والسّلام غير وَاحِد من أصحابه بالرّقْية، وسَمع جماعة يَرْقون فلم يُنْكِر عليهم.

وأمّا الحديث الآخر في صِفة أهل الجنّة الّذين يدخلونها بغير حِساب: «هم الّذين لا يَسْتَرْقُون ولا يكْتَوُون وعلى رَبّهم يَتوكّلون». فهذا من صِفَة الأولياء المُعْرِضين عن أسباب الدّنيا، الّذين لا يَلْتَفِتون إلى شيء من عَلائِقها، وتلك دَرَجة الخَواص لا يَبْلُغها غيرُهم، فأمّا العَامّة فَمُرخَّص لهم في التّداوِي والمعالجات. ومن صَبَر على البَلاء وانْتظَر الفرج من الله بالدّعاء كان من جُمْلة الخوَاص والأولياء، ومَن لم يصبر رُخِّص له في الرّقْية والعِلاج والدّواء. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥، بتصرّف يسير. وانظر: لسان العرب: ١٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(١) لطائف المعارف، ص: ٣٨٣.

(٢) جامع البيان: ٢٩/ ١٩٥ ـ ١٩٦. الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ١١٢. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٠٧.

(٣) معالم التّنزيل: ٤/ ٤٢٤.

(٤) المرجع السّابق: ٤/ ٤٢٤.

وقال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والتفّت ساق الدّنيا بساق الآخرة، وذلك شدّة كرب الموت بشدّة هول المطلع، والّذي يدلّ على أنّ ذلك تأويله، قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾ والعرب تقول لكلّ أمر اشتدّ: قد شمّر عن ساقه، وكشف عن ساقه... عنى بقوله: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩﴾: التصقت إحدى الشّدّتين بالأخرى، كما يقال للمرأة إذا التصقت إحدى فخذيها بالأخرى: لفّاء»[(١)].

وقال ﷻ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩].

قال الرّاغب الأصفهاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

«السّكْرُ حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشّراب، وقد يعتري من الغضب والعشق... ومنه سكرات الموت»[(٢)].

ومعنى الآية: أي جاءت شدّة الموت وغمرته وغلبته الّتي تغشى الإنسان فتغلب على عقله، وحينها ينكشف له اليقين وتبين له الحقيقة الّتي كان يمتري ويشكّ فيها، وذلك ما كان منه يفرّ ويهرب، ولكن لا محيد له عنه، ولا مناص ولا خلاص، ولا فكاك[(٣)].

وقد عانى النّبيّ ﷺ من هذه السّكرات، عند مفارقته لهذه الحياة، كما قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «إنّ رسول الله ﷺ كان بين يديه رَكْوَة[(٤)] أو علبة فيها ماء... فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «لا إله إلّا الله، إنّ للموت سكرات»، ثمّ نصب يده فجعل يقول: «في الرّفيق الأعلى» حتّى

---

(١) جامع البيان: ٢٩/١٩٨ ـ ١٩٩. وانظر معنى الآيات في معالم التّنزيل: ٤/٤٢٤ ـ ٤٢٥. الجامع لأحكام القرآن: ١٩/١١١ ـ ١١٣. تفسير القرآن العظيم: ٤/٧٠٦ ـ ٧٩٧. فتح القدير: ٥/٣٤١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٨٣٣.

(٢) المفردات، ص:٢٣٦. وانظر: فتح الباري: ١١/٣٦٢، طبعة: دار المعرفة.

(٣) وانظر: جامع البيان: ٢٦/١٦٠ ـ ١٦١. معالم التّنزيل: ٤/٢٢٣. الجامع لأحكام القرآن: ١٧/١٢ ـ ١٣. تفسير القرآن العظيم: ٤/٣٤٦ ـ ٣٤٧. فتح القدير: ٥/٧٥.

(٤) الرّكْوة: إناء صغير من جِلْدٍ يُشْرب فيه الماء، والجمع رِكاء. النّهاية في غريب الحديث: ٢/٢٦١.

قبض ومالت يده»[1]. ولذا قالت عائشة ﵂: «مات النّبي ﷺ وإنّه لبين حاقنتي[2] وذاقنتي[3]، فلا أكره شدّة الموت لأحد أبداً بعد النّبي ﷺ»[4].

وفي رواية قالت: «ما أغبط أحداً بِهَوْنِ موتٍ بعد الّذي رأيت من شّدة موت رسول الله ﷺ»[5].

وقولها: «بهون موت» أي بسهولة موت، وذلك لمّا رأت شدّة وفاته ﵇ علمت أنّ ذلك ليس من المنذرات الدّالّة على سوء عاقبة المتوفى، وأن هون الموت وسهولته ليس من المكرمات، وإلّا لكان أولى النّاس به رسول الله ﷺ، ولذلك ذكرت أنّها لا تكره شدّة الموت لأحد، ولا تغبط أحداً يموت من غير شدّة[6].

ولمّا دخلت ﵂ على أبيها أبي بكر الصّدّيق ﵁ وهو في سياق الموت، تمثّلت بقول الشّاعر[7]:

لعمرك ما يغني الثّراء عن الفتى   إذا حَشْرَجَت[8] يوماً وضاق بها الصّدر

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب سكرات الموت: (٤٢)، برقم: (٦٥١٠)، ص: ١٣٨٤، وبألفاظ مقاربة مع زيادة في أوّله في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٤٤٤٩)، ص: ٩٢٥.

(٢) الحاقِنة: الوَهْدة المنْخَفِضَة بين التّرْقُوَتين من الحلق، وقيل: هي النّقْرة الّتي بين التّرقوة وحبل العاتق. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ٣٢٢. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤١٦.

(٣) الذّاقِنة: الذّقَن، وقيل: طَرَف الحُلْقوم، وقيل: ما يَناله الذّقَن من الصّدْر. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٦٢. وانظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ٣٢٢.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٤٤٤٦)، ص: ٩٢٤.

(٥) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٧)، باب ما جاء في التّشديد عند الموت: (٨)، برقم: (٩٧٩). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص: ١٧٧.

(٦) تحفة الأحوذي: ٤/ ٤٨ ـ ٤٩، بتصرّف.

(٧) الشّاعر: هو حاتم الطّائي، وبيت الشّعر في ديوانه، طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م، ص: ٥٠، وأوّله فيه: أماويّ ـ زوجته ـ ما يغني الثّراء...

(٨) الحَشْرَجَة: الغَرْغَرة عند الموت وتَرَدّد النّفَس. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٨٩. لسان العرب: ٢/ ٢٣٧.

فكشف عن وجهه وقال: «ليس كذلك ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾»[1].

ولمّا حضرت عمرو بن العاص ﷺ الوفاةُ قال له ابنه: يا أبتاه إنّك لتقول لنا: ليتني كنت ألقى رجلاً عاقلاً لبيباً عند نزول الموت حتّى يصف لي ما يجد، وأنت ذلك الرّجل فصف لي الموت، فقال: «يا بني والله كأنّ جنبي في تخت[2]، وكأنّي أتنفّس من سمّ إبرة، وكأنّ غصن شوك يجذب من قدمي إلى هامتي، ثمّ أنشأ يقول:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ··· في تلال الجبال أرعى الوعولا»[3]

فهذه آيات وأحاديث وآثار تنبئ عن شدّة الموت وصعوبته. ولا شك أنّ

---

(١) سنن البيهقي، نحوه في: ٣/ ٣٩٩.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، نحوه في: ٧/ ٣٠٨، برقم: (٣٠٣٦).
مصنّف عبد الرّزاق، نحوه في: ٣/ ٥٦٣، برقم: (٦٦٩٩).
مسند أبي يعلى، نحوه في: ٧/ ٤٣٠، برقم: (٤٤٥١).
وأورده القرطبي ﷺ في الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ١٢ ـ ١٣ وابن كثير ﷺ في تفسير القرآن العظيم وذكر أنّ له طرقاً كثيرة: ٤/ ٣٤٦.
قال أبو العتاهية ﷺ:
عش ما بدا لك سالماً ··· في ظلّ شاهقة القصور
يسعى عليك بما اشتهيت ··· لدى الرّواح وفي البكور
فإذا النّفوس تقعقعت ··· في ظل حشرجة الصّدور
فهناك تعلم موقناً ··· ما كنت إلا في غرور
لطائف المعارف، ص: ٣٤٤، ٣٨٣ ـ ٣٨٤، وهو في ديوان أبي العتاهية، ص: ٩٢.
(٢) تخت: التّخْت: وعاء يُصان فيه الثّياب. القاموس المحيط، ص: ١٩٠.
(٣) التّذكرة، ص: ٢٢. وانظر: جامع العلوم والحكم، ص: ٣٧٠.
وبيت الشّعر لأميّة بن أبي الصّلت ذكره عند وفاته، ومعه بيت آخر:
كلّ عيش وإن تطاول دهراً ··· صائراً مرّة إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي ··· في رؤوس الجبال أرعى الوعولا
كتاب الزّهد الكبير للبيهقي: ٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
والوُعُول: هي تُيُوس الجَبَل، واحِدُها وَعِلٌ بكسر العين. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٠٦. وانظر: القاموس المحيط، ص: ١٣٨٠.

مفارقة الرّوح للجسد الّذي تعلّقت به وألفته، وامتزجت به حتّى صارا كالشّيء الواحد، لا يمكن لها أن تفارقه إلّا بجهد شديد، وألم عظيم، لم يذق ابن آدم في حياته ألماً مثله، ولعلّ ذلك يفهم من قوله ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قال الرّبيع بن خُثَيم[١] رحمه الله:

«أكثروا ذكر هذا الموت فإنّكم لم تذوقوا قبله مثله».

ويؤيّد ذلك أنّ الجسد بعد مفارقة الرّوح له يصبح جيفة مستقذرة، تأكله الهوام[٢] ويبليه التّراب[٣].

قال القرطبي رحمه الله يصف شدّة الموت:

«إنّ الموت هو الخطب الأفظع، والأمر الأشنع، والكأس الّتي طعمها أكره وأبشع، وأنّه الحارث الأهذم[٤] للذّات، والأقطع للرّاحات، والأجلب للكريهات، فإنّ أمراً يقطع أوصالك، ويفرّق أعضاءك، ويهدم أركانك، لهو الأمر العظيم، والخطب الجسيم، وإنّ يومه لهو اليوم العظيم»[٥].

وتلك الشّدّة وذلك الكرب الّذي يعتري المؤمن عند موته لا يدلّ على

---

(١) الرّبيع بن خثيم بن عائذ بن عبد الله الثّوري التّميمي أبو يزيد الكوفي. مخضرم من خيار أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه. إمام قدوة حجّة، قانت مخبت ربّاني، ورع زاهد. قال له ابن مسعود رضي الله عنه: «لو أنّ رسول الله ﷺ رآك لأحبّك، وما رأيتك إلّا ذكرت المخبتين»، توفي سنة ٦١، وقيل: ٦٣هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ١٨٢. طبقات خليفة، ص:١٤١. معرفة الثّقات: ١/ ٣٥١. الجرح والتّعديل: ٣/ ٤٥٩. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٢٢٤. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٩٩. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٥٧٠. تهذيب الكمال: ٩/ ٧٠. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٥٧. الكاشف: ١/ ٣٩١. تهذيب التّهذيب: ٣/ ٢١٠. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٠٦.

(٢) الهوامُّ: ما كان من خَشاش الأرض نحو العقارب وما أَشبهها، الواحدة هامّة لأنّها تَهِمّ أي تَدِبّ، وهَمِيمُها دَبِيبُها. لسان العرب: ١٢/ ٦٢١.

(٣) انظر: لطائف المعارف، ص:١١٧.

(٤) هَذَمَ الشّيءَ يَهْذِمه هَذْماً: غَيّبه أجمع، ويطلق على سُرْعة الأكل والقطع. انظر: لسان العرب: ١٢/ ٦٠٦.

(٥) التّذكرة، ص:٢٨.

نقص في مرتبته، ولا هوان له عند ربّه، بل قد يقع له ذلك ليزيد في حسناته أو يكفّر له عن سيّئاته.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«آخر شدّة يلقاها المؤمن»[1].

وقال إبراهيم النّخعي رحمه الله:

«كانوا يستحبّون للمريض أن يجهد عند الموت».

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

«ما أحبّ أن يهوّن عليّ سكرات الموت، إنّه لآخر ما يكفّر به عن المؤمن»[2].

ومع ذلك كلّه ما يحصل للمؤمن من تبشير الملائكة له[3]، ورفقهم به، وفرحه بلقاء ربّه[4] يهوّن عليه كلّ ما يحصل له من ألم الموت حتّى يصير كأنّه لا يحسّ بشيء ولا يشعر به[5].

وقد عدّ ابن القيّم رحمه الله التّشديد عند الموت من العوامل المكفّرة للذّنوب والماحية لآثارها[6].

ولمّا كان الأنبياء أشدّ النّاس بلاء، وأنّهم يضاعف لهم البلاء كما يضاعف لهم الأجر[7] كان الموت مؤلماً لهم، شديداً عليهم.

---

(١) مسند أحمد: ١/ ٢٢٣. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٣/ ٢٩٠، برقم: (١٩٤٦).

(٢) تسلية أهل المصائب، لأبي عبد الله محمّد بن محمّد المنبجي الحنبلي، تحقيق: بشير محمّد عيون، طبعة: مكتبة المؤيّد، الطّائف، مكتبة دار البيان، دمشق، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م، ص:٣٧. وأثر عمر رحمه الله أورده البيهقي بلفظ مقارب في: شعب الإيمان: ٧/ ٢٥٥.

(٣) يأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى.

(٤) يأتي بيان ذلك بإذن الله تعالى.

(٥) انظر: فتح الباري: ١١/ ٣٦٥، طبعة: دار المعرفة.

(٦) انظر: عدّة الصّابرين، ص:٣٠.

(٧) سبق إيراد الأدلّة في ذلك: انظر باب الابتلاء، ص:٣٦٢. فما بعدها من هذا البحث.

وما جرى على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين من شدائد الموت وسكراته، فله فائدتان:

إحداهما: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنّه باطن، وقد يطّلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقاً ويرى سهولة خروج روحه فيغلب على ظنّه سهولة أمر الموت، ولا يعرف ما الميّت فيه؟. فلمّا ذكر الأنبياء الصّادقون في خبرهم شدّة ألمه مع كرامتهم على الله تعالى قطع الخلق بشدّة الموت الّذي يعانيه ويقاسيه الميّت مطلقاً لإخبار الصّادقين عنه.

الثّانية: ربّما خطر لبعض النّاس أنّ هؤلاء أحباب الله، وأنبياؤه ورسله، فكيف يقاسون هذه الشّدائد العظيمة؟ وهو سبحانه قادر أن يخفّف عنهم أجمعين.

فالجواب: «إنّ أشدّ النّاس بلاء في الدّنيا الأنبياء ثمّ الأمثل فالأمثل» كما قال نبيّنا ﷺ[1]. فأحبّ الله أن يبتليهم تكميلاً لفضل لديه، ورفعة لدرجاتهم عنده، وليس ذلك في حقّهم نقصاً ولا عذاباً بل هو كمال رفعة، مع رضاهم بجميل ما يجري الله عليهم، فأراد الحقّ سبحانه أن يختم لهم بهذه الشّدائد، مع إمكان التّخفيف والتّهوين عليهم ليرفع منازلهم، ويعظّم أجورهم قبل موتهم[2].

وأمّا الكافر فهو أشدّ معاناة عند الموت، وأكثر كرباً، قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ[3] ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

أي لو ترى يا رسولنا حين يغمر الموت بسكراته وشدّته هؤلاء الظّالمين

---

(١) الحديث سبق تخريجه. انظر: ص٣٦٢.

(٢) التّذكرة، ص: ٢٥ ـ ٢٦، بتصرّف يسير. وانظر: طريق الهجرتين، ص: ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٣) الغَمْرُ: بوزن الجمر: الكثير، وقد غَمَرَهُ الماء أي علاه، وبابه نصر. والغَمْرةُ بوزن الجمرة الشّدّة، والجمع غُمَرٌ ـ بفتح الميم ـ كنوب ونُوب. وغَمَرات الموت: شدائده. مختار الصّحاح، ص: ٤٨٠. وانظر: لسان العرب: ٥/ ٢٩. القاموس المحيط، ص: ٥٨٠ ـ ٥٨١.

المعاندين للحقّ، فتراهم وقد غشيتهم الكُرب، واشتدّ بهم العطب، والملائكةُ باسطو إليهم أيديهم لقبض أرواحهم، وضرب وجوههم وأدبارهم، وهم يقولون لهم تعنياً وتبكيتاً وتغليظاً: أخرجوا أنفسكم من هذه الشّدائد، أو من أيدينا وخلّصوها من العذاب، أو من أجسادكم وسلّموها لنا، فإنّكم صائرون إلى عذاب مهين، وذلٌّ عظيم بعدما كنتم فيه من الكبر والتّعاظم، فلو رأيت ذلك لرأيت عجباً وهَوْلاً عظيماً، وخطباً جسيماً[(1)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي في سكراته، وغمراته، وكرباته... ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، أي بالضّرب لهم حتّى تخرج أنفسهم من أجسادهم، ولهذا يقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، وذلك أنّ الكافر إذا احتضر بشّرته الملائكة بالعذاب، والنّكال، والأغلال، والسّلاسل، والجحيم، والحميم، وغضب الرّحمٰن الرّحيم، فتفرّق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتّى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية، أي اليوم تهانون غاية الإهانة، كما كنتم تكذبون على الله، وتستكبرون عن اتّباع آياته والانقياد لرسله»[(2)].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٥٠ ـ ٥١][(3)].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ

---

(١) وانظر: جامع البيان: ٧/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦. معالم التّنزيل: ٢/ ١١٦. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٤١ ـ ٤٢. أنوار التّنزيل: ٢/ ٤٣١. فتح القدير: ٢/ ١٤٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٢٥٢.

(٣) وانظر معناهما في: جامع البيان: ١٠/ ٢٢ ـ ٢٣. معالم التّنزيل: ٢/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦. أنوار التّنزيل: ٣/ ١١٤ ـ ١١٥. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٠٠ ـ ٥٠١. فتح القدير: ٢/ ٣١٧ ـ ٣١٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٢٨٤.

ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾﴾ [محمد: ٢٥ ـ ٢٧][1].

والملائكة تفزع الكافرين عند الموت وتخوّفهم، وتهدّدهم، وتيئّسهم ممّا يزيد في معاناتهم وكربهم، قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ٣٧][2].

يخبر تعالى أنّ الملائكة إذا توفّت المشركين تفزعهم عند الموت، وقبض أرواحهم الّتي مصيرها إلى النّار، يقولون لهم: أين الّذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدّنيا، وتدعونهم وتعبدونهم من دون الله، ادعوهم يخلّصوكم ممّا أنتم فيه من الكرب والشّدّة؟ قالوا: ضلّوا عنّا وذهبوا فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم، وقد غابوا منّا في أحوج ما نكون إليهم[3].

بل تبشّرهم بعذاب الله وشدّة نقمته، وتنذرهم بأليم عقابه، وهم في أحرج الظّروف، وأحلك اللّحظات، ممّا يزيد ألمهم ألماً، وكربهم كرباً، وبأسهم بأساً، وشدّتهم شدّة، وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ﴿٢١﴾ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان: ٢١ ـ ٢٢].

يقول ابن كثير رحمه الله:

«أي هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشّرهم الملائكة بالنّار

---

(١) وانظر المعنى في: جامع البيان: ٢٦/ ٦٠. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٥٠ ـ ٢٥١. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٧٦. فتح القدير: ٥/ ٣٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٣٣.

(٢) وانظر الآيتين (٢٨، ٢٩) من النّحل.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٤٠ بتصرّف. وانظر: جامع البيان: ٨/ ١٧٢.

والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيّتها النّفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرج إلى سموم وحميم وظلّ من يحموم[١]، فتأبى الخروج وتتفرّق في البدن، فيضربونه»[٢].

ومعنى قوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، أي حرام محرّم عليكم اليوم البشرى أن تكون لكم من الله[٣].

وما أورده ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان معنى الآية جاء ذكره في حديث النّبي ﷺ في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطّويل. وفيه: «وإنّ العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدّنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السّماء ملائكة سود الوجوه معهم المُسُوح[٤]، فيجلسون منه مدّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت حتّى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النّفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرّق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السّفُّود[٥] من الصّوف المبلول» الحديث[٦]. وفي رواية: «فينتزعها تتقطع معها العروق والعصب»[٧].

---

(١) اليَحْمُومُ: الدّخان. مختار الصّحاح، ص:١٥٧. القاموس المحيط، ص:١٤١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٠١ ـ ٥٠٢. وقارن ذلك بما ذكره الشّوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ في فتح القدير: ٤/ ٦٩.

(٣) جامع البيان: ١٩/ ٢ بتصرّف يسير.

(٤) المِسْحُ: الكساء من الشّعَر والجمع القليل أَمْساح؛ والكثير مُسُوح. انظر: لسان العرب: ٢/ ٥٩٦، بتصّرف.

(٥) السّفُّود: بالتّشديد حديدة ذات شُعَب مُعَقَّفَة معروف يُشوى به اللّحم وجمعه سَفافيد. لسان العرب: ٣/ ٢١٨. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٣٠٠. القاموس المحيط، ص:٣٦٩.

(٦) هذا الحديث أصله في:

سنن أبي داود، كتاب الجنائز: (٢٠)، باب الجلوس عند القبر: (٦٢/ ٦٣)، برقم: (٣٢١٢). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٣٦٢، وفي كتاب السّنّة: (٣٩)، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر: (٢٣/ ٢٤)، برقم: (٤٧٥٣)، ص:٥١٧.

سنن النّسائي، كتاب الجنائز: (٢١)، باب الوقوف للجنائز: (٨١)، برقم: (٢٠٠١). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٢٢٥.

سنن ابن ماجه، كتاب الجنائز: (٦)، باب ما جاء في الجلوس في المقابر: (٣٧)، برقم: (١٥٤٩). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:١٦٩. =

ويؤيّد ذلك ما ورد في التّنزيل في قوله ﷻ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾ [النّازعات: ١ ـ ٢]. وجمهور المفسّرين على أنّ المراد بـ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١﴾ هي الملائكة الّتي تنزع أرواح الكافرين بشدّة وعنف، وهي تغرق في النّزع: أي تبلغ به غايته وأقصاه، والمراد بـ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝٢﴾ هي الملائكة الّتي تجذب أرواح المؤمنين برفق ولين يسر[(١)].

ولمّا كان الموت شديداً على النّفوس مؤلماً لها كان مكروهاً لدى الخلق، مبغضاً عندهم، وأهل الكفر من اليهود والنّصارى والمشركين والمنافقين أشدّ كراهية له من أهل الإيمان، واليهود ـ عليهم لعائن الله ـ أشدّهم له كرهاً، وأكثرهم له بغضاً، لأنّه إضافة إلى ما يعلمون من شدّته ما يتوقّعون يوم القيامة من مآلٍ سيّئ وعاقبة خاسرة. وفي ذلك يقول المولى سبحانه: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٦][(٢)].

والمؤمنون يكرهون الموت أيضاً لما فيه من تلك الشّدّة، وقد جاء ذلك

= مسند أحمد، بلفظه في: ٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨. وانظر: ٤/ ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٧.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ١/ ٩٣.
مسند أبي داود الطّيالسي، نحوه في: ص: ١٠٢، برقم: (٧٥٣).

(١) مسند أحمد، بلفظها في: ٤/ ٢٨٨.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٩٤.
مسند أبي داود الطّيالسي، بلفظ مقارب في: ١/ ١٠٢، برقم: (٧٥٣).
مصنّف ابن أبي شيبة، بلفظ مقارب في: ٣/ ٥٥.

(٢) انظر: معالم التّنزيل: ٤/ ٤٤١. الجامع لأحكام القرآن: ١٩/ ١٩٠ ـ ١٩٢. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٣٢. فتح القدير: ٥/ ٣٧٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٨٤٠. وانظر: التّبيان في أقسام القرآن، ص: ٨٣ ـ ٨٥، طبعة: دار الفكر، وقارن ذلك بما أورده الطّبري رحمه الله في جامع البيان: ٣٠/ ٢٧ ـ ٢٩.

(٣) وانظر الآيات: (٦ ـ ٨) من سورة الجمعة. وفي شأن النّصارى وكراهيتهم للموت. =

صراحة في الحديث القدسي عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله قال: من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به، وبصره الّذي يبصر به، ويده الّتي يبطش بها، ورجله الّتي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما تردّدت عن شيء أنا فاعله تردّدي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه»(1).

فالمؤمن يكره الموت، وذلك أمر فطري في العباد، لأنّ النّفوس بفطرتها تكره ما يعنتها ويشقّ عليها، والله يكره له ذلك، ولكنّه أمر لا بد منه، ولا مفر عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«فبيّن سبحانه أنّه يتردّد لأنّ التّردّد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحبّ ما يحبّ عبده، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه كما قال: «وأنا أكره مساءته»، وهو سبحانه قد قضى بالموت، فهو يريد أن يموت، فسمّى ذلك تردّداً، ثمّ بيّن أنّه لا بد من وقوع ذلك، وهذا اتّفاق واتّحاد في المحبوب المرضي المأمور به، والمبغض المكروه المنهي عنه»(2).

وهناك أمور تزيد شدّة الموت شدّة، وعنته عنتاً، ممّا يزيد الإنسان له كراهية ونفرة، من ذلك:

= انظر أسباب نزول الآية (61) من آل عمران في تفسير القرآن العظيم: 1/ 550 ـ 555. وفي شأن المنافقين. انظر: ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: 154]. انظر: جامع البيان: 4/141 ـ 143.

(1) سبق تخريجه انظر: ص:489.

(2) مجموع الفتاوى: 10/58 ـ 59. وانظر: 10/483 ـ 484، 18/131. الجواب الكافي، ص:132.

١ ـ إنّ ذكر الموت مهول مخوف، ترتاع له النّفوس، وترتجف له القلوب. وقد أخبرنا ربّنا سبحانه أنّ ألوفاً من الماضين أخافهم الموت ففرّوا من ديارهم حذراً وهلعاً منه، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣][1].

كما أخبرنا سبحانه عن المنافقين الّذين تنخلع قلوبهم بذكر الموت وأسبابه، ويعمّ نفوسهم الجزع، وتحيط بهم المخاوف، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البقرة: ١٩].

يقول ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«قوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ جعله جلّ ثناؤه مثلاً لخوفهم وإشفاقهم من حلول عاجل العقاب المهلك لهم الّذي توعّدوه بساحتهم، كما يجعل سامع أصوات الصّواعق أصابعه في أذنيه حذر العطب والموت على نفسه أن تزهق من شدّتها»[2].

وصوّر خوفهم من الموت وأسبابه في موطن آخر برجل غشيه الموت أو كاد، فطار لذلك قلبه، وملأ الرّعب جوانحه، واشتدّ خوفه، وزاد هلعه فهو مشفق وجل، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾ [الأحزاب: ١٩].

قال الشّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ﴾؛ أي كعين الّذي يغشى عليه من الموت، وهو الّذي نزل به الموت وغشيته أسبابه، فيذهل ويذهب عقله، ويشخص بصره فلا يطرف، كذلك هؤلاء تشخص أبصارهم لما يلحقهم من الخوف»[3].

وقال السّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي نظر المغشي عليه من الموت من شدّة الجبن الّذي خلع قلوبهم،

---

(١) سوف يأتي مزيد كلام عن الآية عند الحديث عن الفرار من الموت.

(٢) جامع البيان: ١/١٥٧.

(٣) فتح القدير: ٤/٢٧٠.

والقلق الّذي أذهلهم، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال»[1].

وكراهيتهم للقتال لأنّه سبب من أسباب الموت.

وكالآية السّابقة قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢٠ ـ ٢١][2].

وقد بيّن النّبي ﷺ أنّ الموت يجلب الخوف ويحدث الهلع، فقال في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «إنّ الموت فزع فإذا رأيتم الجنازة فقوموا»[3].

قال أبو العبّاس القرطبي رحمه الله:

«قوله: «إنّ الموت فزع»: أي يفزع إليه ومنه، وهو تنبيه على استذكاره، وإعظامه، وجعله من أهمّ ما يخطر بالإنسان»[4].

٢ ـ إنّ الشّيطان حريص كلّ الحرص على إفساد بني آدم، وخاصّة عند الموت، إذ هو آخر المواطن الّتي يمكنه أن يظفر بالإنسان فيه وإلّا فاته. وقد أمرنا ربّنا سبحانه أن نستعيذ به من وسوسة الشّيطان وإضلاله لنا، وحضوره في كلّ شأن من شؤوننا، ومن ذلك لحظات الموت، حتّى لا يجد بغيته، ويصل إلى غايته، فقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧ ـ ٩٨][5].

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٦٠٨.

(٢) وانظر معناها في: جامع البيان: ٢٦/ ٥٤. معالم التّنزيل: ٤/ ١٨٣. الجامع لأحكام القرآن: ١٦/ ٢٤٣. أنوار التّنزيل: ٥/ ١٩٣ ـ ١٩٤. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٧٣. فتح القدير: ٥/ ٣٧ ـ ٣٨. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٣٢.

(٣) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب من قام لجنازة يهودي: (٤٩)، برقم: (١٣١١)، ص: ٢٧٦.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب القيام للجنازة: (٢٤)، برقم: (٩٦٠)، ٢/ ٦٦١.

(٤) المفهم: ٢/ ٦٢٠. وانظر: فتح الباري: ٣/ ١٨٠، طبعة: دار المعرفة. ولأهل العلم خلاف في حكم القيام للجنازة وهل هو باقٍ أم منسوخ؟ يرجع في ذلك لكتب الفقه.

(٥) وانظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٠٨.

وقد قال النّبي ﷺ في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «إنّ الشّيطان يحضر أحدكم عند كلّ شيء من شأنه...» الحديث[1]؛ أي يحضره في جميع أموره ليفسد عليه شأنه، ويجرفه إلى الضّلال، ويحرفه عن الحقّ.

قال ابن العربي رحمه الله فيما نقله المناوي عنه:

«لا يخلو أحد من الخلق عن الشّيطان وهو موكّل بالإنسان، يداخله في أمره كلّه ظاهراً وباطناً، عبادة وعادة ليكون له منه نصيب»[2].

بل خصّ رسول الله ﷺ لحظات الموت بالاستعاذة بالله من إضلال الشّيطان له فيها.

فعن أبي اليسر رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو: «اللّهم إنّي أعوذ بك من الهدم[3]، وأعوذ بك من التّرَدِّي[4]، وأعوذ بك من الغرق والحرق والهَرَم[5]، وأعوذ بك أن يتخبّطني الشّيطان عند الموت، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك مدبراً، وأعوذ بك أن أموت لديغاً»[6].

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الأشربة: (٣٦)، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة: (١٨)، برقم: (٢٠٣٣)، ٣/ ١٦٠٧.

(٢) فيض القدير: ٢/ ٣٥٠. وانظر: قول النّووي رحمه الله في شرحه على مسلم: ١٣/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٣) الهَدْم: بالتّحريك البِنَاء المَهْدوم، فعل بمعنى مفعول، وبالسّكون الفعل نفسه. والمراد أنه يَتَعَوَّذ من أنْ يَنْهَار عليه بِنَاء أو يَقَعَ في بِئْر أو أهْوِية أو غير ذلك. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٥١.

(٤) التّرَدِّي: من تَردَّى أي سَقَط. يقال: رَدَى وتَردَّى لُغتان كأنّه تَفَعَّل من الرّدَى وهون الهلاك. انظر: المرجع السّابق: ٢/ ٢١٦.

(٥) الهَرَم: الكِبَر. وقد هَرِم يَهْرم فَهو هَرِم. المرجع نفسه: ٥/ ٢٦٠.

(٦) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الوتر: (٨)، باب في الاستعاذة: (٣٢)، برقم: (١٥٥٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:١٨٣.
سنن النّسائي، بلفظ مقارب في: كتاب الاستعاذة: (٥٠)، باب الاستعاذة من التّردّي والهدم: (٦١)، برقم: (٥٥٣١، ٥٥٣٢). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٥٦١. الموضع الثّاني عن أبي الأسود السّلمي رضي الله عنه.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٣/ ٤٢٧، ونحوه في: ٢/ ٣٥٦. عن أبي هريرة رضي الله عنه.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٧١٣، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

قال الخطّابي رَحِمَهُ اللهُ:

«استعاذته ﷺ من تخبّط الشّيطان عند الموت هو أن يستولي عليه الشّيطان عند مفارقته الدّنيا فيضلّه، ويحول بينه وبين التّوبة، أو يعوقه عن إصلاح شأنه والخروج من مظلمة تكون قبله، أو يؤيّسه من رحمة الله تعالى، أو يكره الموت ويتأسّف على حياة الدّنيا فلا يرضى بما قضاه الله من الفناء والنّقلة إلى دار الآخرة، فيختم له بسوء ويلقى الله وهو ساخط عليه»[١].

وقال المناوي رَحِمَهُ اللهُ:

««وأعوذ بك أن يتخبّطني الشّيطان»: أي يصرعني ويلعب بي ويفسد ديني أو عقلي عند الموت بنزغاته الّتي تزلّ بها الأقدام، وتصرع العقول والأحلام»[٢].

وقد عقد القرطبي رَحِمَهُ اللهُ باباً في كتابه التّذكرة قال فيه:

«باب ما جاء أنّ الميّت يحضر الشّيطان عند موته، وجلساؤه في الدّنيا، وما يخاف من سوء الخاتمة». ثمّ أورد في ذلك روايات وأخبار وحكايات عن السّلف تؤيّد ما ذكر. وممّا أورده روايات تبيّن أنّ الشّياطين يأتون للمحتضر على صفة أحبّ النّاس إليه فيعرضون عليه الأديان الباطلة ليترك دين الإسلام[٣]. وذلك أسوأ وأنكى ما يعرض عليه من أنواع تخبّط الشّيطان.

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ عن ذلك، وهل له أصل في الكتاب والسّنّة أم لا؟ فأجاب رَحِمَهُ اللهُ بقوله:

«أمّا عرض الأديان على العبد وقت الموت فليس هو أمراً عامّاً لكلّ أحد، ولا هو أيضاً منتفياً عن كلّ أحد، بل من النّاس من تعرض عليه الأديان قبل موته، ومنهم من لا تعرض عليه، وقد وقع لأقوام، وهذا كلّه من فتنة المحيا والممات الّتي أُمرنا أن نستعيذ منها في صلاتنا، منها ما في الحديث الصّحيح: أمرنا النّبيُّ أن نستعيذ في صلاتنا من أربع: من عذاب جهنّم، ومن

---

(١) معالم السّنن مع عون المعبود: ٤/ ٢٨٧.

(٢) فيض القدير: ٢/ ١٤٨. وانظر: تسلية أهل المصائب، ص: ٣٧.

(٣) انظر: التّذكرة، ص: ٣٨ فما بعدها.

عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدّجال[1].

ولكن وقت الموت أحرص ما يكون الشّيطان على إغواء بني آدم لأنّه وقت الحاجة... ولهذا روي أنّ الشّيطان أشدّ ما يكون على ابن آدم حين الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا فإنّه إن فاتكم لن تظفروا به أبداً»[2].

٣ ـ إنّ الموت موطن موحش للنّفوس، فالإنسان ينتقل به من دار ألفها وعرفها إلى دار لا معرفة له بها ولا عهد له بما فيها، وهو وحيد فريد لا يدري مصيره هنالك وما يحدث له وما يصيبه، ولذلك خصّ الله يحيى بن زكريا عليه السلام في مواطن ثلاثة تزداد وحشة الإنسان عندها، ومن ذلك موطن الموت. فقال سبحانه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم: ١٥].

قال سفيان بن عيينة[3] رحمه الله:

«أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً ممّا كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم، فأكرم الله فيها يحيى بن زكريا فخصّه بالسّلام عليه السلام»[4].

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص: ١٨٤.

(٢) مجموع الفتاوى: ٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦. والحديث الّذي أشار إليه رحمه الله وذكره بصيغة التّمريض لم أقف عليه في شيء من كتب السّنّة الّتي أمكنني الرّجوع إليها.

(٣) سفيان بن عيينة بن أبي عمران واسمه ميمون أبو محمّد الهلالي مولاهم، الكوفي المكّي. محدّث الحرم، العلامة الحافظ المتقن، والإمام الحجّة، والفقيه الورع، رأساً في العلم، كبيراً في القدر، من حكماء أصحاب الحديث. أثبت النّاس في الزّهري وعمرو بن دينار. تغيّر حفظه بأخرة، وربّما دلّس ولكن عن الثّقات، توفي سنة ١٩٨هـ، عن إحدى وتسعين سنة.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ٤٩٧. طبقات خليفة، ص: ٢٨٤. التّاريخ الكبير: ٤/ ٩٤. معرفة الثّقات: ١/ ٤١٧. الجرح والتّعديل: ٤/ ٢٢٥. ثقات ابن حبّان: ٦/ ٤٠٣. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٤٩. تاريخ بغداد: ٩/ ١٧٤. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١١٣٦. تهذيب الكمال: ١١/ ١٧٧. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٢٦٢. الكاشف: ١/ ٤٤٩. جامع التّحصيل، ص: ١٨٦. التّبيين لأسماء المدلّسين، ص: ٩٤. تهذيب التّهذيب: ٤/ ١٠٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٤٥. لسان الميزان: ٧/ ٢٣٣. طبقات المدلّسين، ص: ٣٢. الكواكب النّيّرات لأبي البركات محمّد بن أحمد بن يوسف الذّهبي، تحقيق: حمدي عبد المجيد السّلفي، طبعة: دار العلم الكويت، ص: ٤٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ١٨٤ وانظر: جامع البيان: ١٦/ ٥٩. معالم التّنزيل: ٣/ ١٩٠.

وعيسى ابن مريم ﷺ سلّم أيضاً على نفسه في هذه المواطن الموحشة كما ذكر ذلك عنه ربّه ﷻ في قوله: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٣].

وقد طرح ابن القيّم رحمه الله سؤالاً عن الحكمة في تقييد السّلام في قصتي يحيى والمسيح ﷺ بهذه الأوقات الثّلاثة.

ثمّ أجاب رحمه الله بقوله:

«إنّ طلب السّلام يتأكّد في المواضع الّتي هي مظانّ العطب ومواطن الوحشة، وكلّما كان الموضع مظنّة ذلك تأكّد طلب السّلامة، وتعلّقت به الهمّة، فذكرت هذه المواطن الثّلاثة لأنّ السّلامة فيها آكد، وطلبها أهمّ، والنّفس عليها أحرص، لأنّ العبد فيها قد انتقل من دار كان مستقرّاً فيها، موطّن النّفس على صحبتها وسكناها إلى دار هو فيها معرّض للآفات والمحن والبلاء. فإنّ الجنين من حين خرج إلى هذه الدّار انتصب لبلائها وشدائدها ولأوائها[1] ومحنها وأفكارها، كما أفصح الشّاعر[2] بهذا المعنى حيث يقول:

تأمّل بكاء الطّفل عند خروجه ... إلى هذه الدّنيا إذا هو يولد
تجد تحته سرّاً عجيباً كأنّه ... لكلّ الّذي يلقاه منه مهدّد
وإلّا فما يبكيه منها وإنّها ... لأوسع ممّا كان فيه وأرغد[3]

---

(١) اللأواء: المشقّة والشّدّة، وقيل: القَحْط. لسان العرب: ١٥/٢٣٨. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٥٨٨. القاموس المحيط، ص:١٧١٤.

(٢) هو ابن الرّومي.

(٣) وقد عزا هذه الأبيات إليه أبو الفتح ضياء الدّين نصر الله بن محمّد الموصلي في كتابه المثل السّائر، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، طبعة: المكتبة العصريّة، بيروت، ١٩٩٥م: ١/٣١٥، وهي في ديوان ابن الرّومي:

لِما تؤذن الدّنيا من صروفها ... يكون بكاءُ الطّفل ساعةَ يُولدُ
وإلّا فما يبكيه منها وإنّها ... لأفسحُ ممّا كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدّنيا استهل كأنّه ... بما سوف يلقى من أذاها يُهَدَّد
وللنّفس أحوال تظلّ كأنّها ... تشاهد فيها كلّ عيب سيُشهَد

ديوان ابن الرّومي، شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنا، طبعة: دار مكتبة الهلال. بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م: ٢/١١٣.

ولهذا من حين خرج ابتدرته طعنة الشّيطان في خاصرته[1]، فبكى لذلك، ولما حصل له من الوحشة بفراق وطنه الأوّل. . .

الموطن الثّاني: خروجه من هذه الدّار إلى دار البرزخ عند الموت، ونسبة الدّنيا إلى تلك الدّار كنسبة داره في بطن أمّه إلى الدّنيا تقريباً وتمثيلاً، وإلّا فالأمر أعظم من ذلك وأكبر، وطلب السّلام أيضاً عند انتقاله إلى تلك الدّار من أهمّ الأمور.

الموطن الثّالث: موطن يوم القيامة، يوم يبعث الله تعالى الأحياء، ولا نسبة لما قبله من الدّور إليه، وطلب السّلامة فيه آكد من جميع ما قبله، فإنّ عطبه لا يستدرك، وعثرته لا تقال، وسقمه لا يداوى، وفقره لا يسدّ. فتأمّل كيف خصّ هذه المواطن بالسّلامة لشدّة الحاجة إلى السّلامة فيها»[2].

هذه أمور وغيرها كثير تجعل موطن الموت مدحضة[3] مزلّة، تهوي فيه الأقدام، وتضعف عنده النّفوس، وتوجل له القلوب، فهو عقبة كؤود، ومرحلة شاقّة، ومنزلة صعبة، ودويّة مهلكة، يحتاج المرء فيه إلى الثّبات حتّى يجتازه بأمان، ويسلم من الهلاك، وينجو من التّردّي والعطب.

وهنالك عوامل تعين المؤمن على الثّبات عند الموت، فيظلّ متمسّكاً بدينه، عاضّاً عليه بالنّواجذ، لا يزيغ عنه ولا يسقط، أتناول أهمّها في المباحث الآتية:

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النّبي ﷺ: «كلّ بني آدم يطعن الشّيطان في جنبيه بإصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ذهب يطعن فطعن في الحجاب». صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق: (٥٩/ ٣٥)، باب صفة إبليس وجنوده: (١١)، برقم: (٣٢٨٦)، ص: ٦٩١ ـ ٦٩٢. وانظر: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب قوله الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾﴾ [مريم: ١٦]، برقم: (٣٤٣١)، ص: ٧٢٧، كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]: (٢)، برقم: (٤٥٤٨)، ص: ٩٤٨.
وانظر: صحيح مسلم، كتاب الفضائل: (٤٣)، باب فضائل عيسى ﷺ: (٤٠)، برقم: (٢٣٦٦)، ٤/ ١٨٣٨.

(٢) بدائع الفوائد: ٢/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥.

(٣) الدّحْضُ: الزّلَقُ، والإِدْحاضُ: الإِزْلاقُ. وكان دَحْضٌ: إذا كان مَزَلَّة لا تثبت عليها الأقدامُ، ومثله مَدْحَضة. وانظر: لسان العرب: ٧/ ١٤٨. القاموس المحيط، ص: ٨٢٨.



الأعمال الصّالحة

لقد أمر الله عباده المؤمنين أن يلازموا الطّاعات، ويجتنبوا المعاصي والمنهيّات، ما داموا في هذه الحياة، إلى أن يبلغوا الممات.

فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وحقّ تقاته كما قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر»[١].

وهي استفراغ الوسع في القيام بالواجب، واجتناب المحارم[٢]، بأن لا يترك العبد شيئاً ممّا يلزمه فعله، ولا يفعل شيئاً ممّا يلزمه تركه، ويبذل في ذلك جهده ومستطاعه[٣].

وقوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

قال الواحدي رحمه الله:

«أي كونوا على الإسلام حتّى إذا أتاكم الموت صادفكم عليه، وهو في

---

(١) مصنّف بن أبي شيبة: ٧/١٠٦. تفسير القرآن العظيم: ١/٥٧٩، وقال عن إسناده: «وهذا إسناد صحيح موقوف». وانظر: جامع البيان: ٤/٢٧. معالم التّنزيل: ١/٣٣٣. الجامع لأحكام القرآن: ٤/١٥٧.

(٢) أنوار التّنزيل: ٢/٧٢ بتصرّف يسير.

(٣) فتح القدير: ١/٣٦٧، بتصرّف يسير. وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التّغابن: ١٦]. والصّواب أنّها مبيّنة لها وليست ناسخة، والمعنى: اتّقوا الله حقّ تقاته ما استطعتم. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٤/١٥٧ ـ ١٥٨. فتح القدير: ١/٣٦٧.

الحقيقة نهي عن ترك الإسلام»[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أي حافظوا على الإسلام في حال صحّتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإنّ الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنّه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه»[2].

كما أمر اللهُ رسولَه ﷺ أن يظلّ قائماً بأوامر ربّه، مجتنباً لنواهيه حتّى انقضاء أجله، والأمر له أمر لأمّته، فقال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]. واليقين هنا هو الموت باتّفاق أهل العلم[3].

---

(١) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، طبعة: دار القلم، الدّار الشّاميّة، دمشق، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ: ١/ ٢٢٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٨٠.

(٣) وقد ذكر الإجماع على ذلك ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ نقلاً عن أهل التّفسير في: مدارج السّالكين: ١/ ١٠٣. وطريق الهجرتين، ص:٣٤٥ ـ ٣٤٦. وقد ذهب قوم على أنّ المراد باليقين المعرفة، ثمّ زعموا أنّ العبد يمارس العبادة حتّى يصل إلى تلك المعرفة فيسقط عنه التّكليف فيترك الطّاعات، فلا صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا حجّ إلى غير ذلك، وهذا ضلال وبعد عن الله وزندقة.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال تعالى لنبيّه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، وقال الحسن البصري: «لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلاً دون الموت». وقد اعتقد بعض الغالطين من هؤلاء أنّ المعنى: اعبد ربّك حتّى تحصل لك المعرفة ثمّ اترك العبادة، وهذا جهل وضلال بإجماع الأمّة، بل اليقين هنا كاليقين في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ۝٤٧﴾ [المدثر: ٤٧]. وفي الصّحيح لمّا مات عثمان بن مظعون قال النّبيُّ ﷺ: «أمّا عثمان فقد أتاه اليقين من ربّه». الاستقامة: ١/ ٤١٨.

وحديث عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أورده البخاري في مواضع من صحيحه بألفاظ مقاربة. انظر: كتاب الجنائز: (٦/٢٣). باب الدّخول على الميّت: (٣)، برقم: (١٢٤٣)، ص:٢٦٢، وكتاب الشّهادات: (٥٢/ ٢٨)، باب القرعة في المشكلات: (٣٠/ ٣١)، برقم: (٢٦٨٧)، ص:٥٦١، وكتاب مناقب الأنصار: (٦٣/ ٣٧)، باب مقدم النّبي ﷺ وأصحابه المدينة: (٤٦/ ١٠٦)، برقم: (٣٩٢٩)، ص:٨٢٣، وكتاب التّعبير: (٩١/ ٦٦)، باب رؤيا النّساء: (١٣)، برقم: (٧٠٠٣)، ص:١٤٧٩، وفي باب العين الجارية في المنام: (٢٧)، برقم: (٧٠١٨)، ص:١٤٨٢. =

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«المراد استمرار العبادة مدّة حياته، كما قال العبد الصّالح: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١][(١)]».

وقال البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ أي الموت، فإنّه متيقّن لحاقه كلّ

= وقال شيخ الإسلام في موطن آخر: «من جعل كمال التّحقيق الخروج من التّكليف فهذا مذهب الملاحدة من القرامطة والباطنيّة ومن شابههم من الملاحدة المنتسبين إلى علم أو زهد أو تصوّف أو تزهّد، يقول أحدهم: إنّ العبد يعمل حتّى تحصل له المعرفة فإذا حصلت زال عنه التّكليف، ومن قال هذا فإنّه كافر مرتدّ باتّفاق أئمّة الإسلام، فإنّهم متّفقون على أنّ الأمر والنّهي جارٍ على كلّ بالغ عاقل إلى أن يموت. . . وقد سئل الجنيد بن محمّد رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عمّن يقول: إنّه وصل من طريق البر أن تسقط عنه الأعمال.

فقال: «الزّنا والسّرقة وشرب الخمر خير من قول هؤلاء» ولقد صدق الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنّ هذه كبائر، وهذا كفر ونفاق، والكبائر خير من الكفر والنّفاق». مجموع الفتاوى: ١١/ ٥٣٩ ـ ٥٤٠. وانظر: ٧/ ٥٠٣، ١٠/ ١٦٦ ـ ١٦٧، ١١/ ٤١٨ ـ ٤٢٠. درء التّعارض: ٣/ ٢٧٣.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن بيّن أنّ المراد باليقين في الآية هو الموت، واستدلّ على ذلك بآيات سورة المدّثر، وحديث عثمان بن مظعون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأقوال أهل العلم. قال: «ويستدلّ بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التّكليف عندهم، وهذا كفر وضلال وجهل، فإنّ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا هم وأصحابهم أعلم النّاس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحقّ من التّعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر النّاس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنّما المراد باليقين ههنا الموت، كما قدمناه، ولله الحمد والمنّة». تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٦٨.

ومع الأسف لا زال هذا النّهج الإلحادي يشرئبّ بعنقه إلى الوجود، ويظهر بين الفينة والفينة، وما انطوت عليه القلوب أعظم، مع بيان أهل العلم لضلاله وزيغه، ومن آخر من نعلم في هذا العصر نادى بذلك ودعا إليه الضّال محمود محمّد طه السّوداني الّذي ادّعى النّبوّة، وزعم أنّ الصّلاة سقطت عنه، وبدأ يهدم باقي أركان الإسلام، ولكنّه عوجل بالهلاك على يد حاكم السّودان الأسبق جعفر النّميري حيث قُتِل رِدّةً أمام الملأ وتفرّق أتباعه، وخمدت فتنته، وقد سبقت ترجمته. انظر: ص: ٤٧.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٦٤.

حي مخلوق، والمعنى فاعبده ما دمت حيّاً ولا تخل بالعبادة لحظ»[1].

وقد حذّرَ الله عباده المؤمنين من التّفريط في الطّاعات والأعمال الصّالحة حتّى لا يفجأهم الموت فيندموا ولات حين مندم، فيسألوا التّأخير، ويتمنّوا العودة ليستكثروا من الأعمال الصّالحة ويداوموا عليها، ولكن أنّى لهم ذلك وقد هجم عليهم هاذم اللّذّات، ومُفَرِّق الجماعات؟.

قال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١].

قال ابن كثير رحمه الله:

«فكلّ مفرّط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدّة ولو شيئاً يسيراً ليستعتب ويستدرك ما فاته وهيهات، كان ما كان وأتى ما هو آتٍ وكلّ بحسب تفريطه»[2].

وقد طلب قوم الرّجعة فما نالوها، ونادوا بالعودة فما استحقّوها، وغايتهم أن يستقبلوا أعمالاً صالحة تركوها، وطاعات غفلوا عنها وتناسوها، وفي ذلك يقول المولى عزّ وجلّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠][3].

ومن فرّط في الأعمال الصّالحة مدّة بقائه في هذه الحياة كان ندمه عند الموت عظيماً، ويوم القيامة جسيماً كحال المجرمين عندما سألهم أصحاب اليمين: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٨].

---

(١) أنوار التّنزيل: ٣/ ٣٨٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٥٨٢.
(٣) وانظر معنى الآيتين في: جامع البيان: ١٨/ ٥٢ ـ ٥٣. معالم التّنزيل: ٣/ ٣١٧. الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ١٤٩ ـ ١٥٠. أنوار التّنزيل ٤/ ١٦٧ ـ ١٦٨. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٠٨ ـ ٤٠٩. فتح القدير: ٣/ ٤٩٨ ـ ٤٩٩. تيسير الكريم الرّحمٰن: ص: ٥٠٨. وانظر: عدّة الصّابرين: ص: ١٥٤.

لقد كانوا تاركين للمأمور، فاعلين للمحظور، حتّى حلّ بساحتهم مَنْ فارق لهم الدّور، وأسكنهم القبور، فندموا أبلغ النّدم في يوم النّشور[١].

وفي أحاديث رسول الله ﷺ ما يدعو إلى التّمسّك بالأعمال الصّالحات، وتجنّب المعاصي والمنكرات حتّى الممات، من ذلك:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَوْصَاني خليلي بثلاث لا أدعهنّ حتّى أموت: صوم ثلاثة أيام من كلّ شهر، وصلاة الضّحى، ونوم على وتر»[٢].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان النّاس يسألون رسول الله عن الخير وكنت أسأله عن الشّر مخافة أن يدركني ـ فذكر الحديث ـ وفي آخره: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلّها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة حتّى يدركك الموت وأنت على ذلك»[٣].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله، فقيل: كيف يستعمله يا رسول الله؟ قال: «يوفّقه لعمل صالح قبل الموت»[٤].

---

(١) وانظر: معنى الآيات في: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٦٩٩. تيسير الكريم الرّحمٰن: ص: ٨٣١.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب التّهجّد (الصّلاة): (١٩/ ٥)، باب صلاة الضّحى في الحضر: / ٣٣/ ٥١٠)، برقم: (١١٧٨)، ص: ٢٤٨، وبلفظ مقارب في: كتاب الصّوم: (٣٠/ ٩)، باب صيام أيّام البيض: (٦٠)، برقم: (٩٨١)، ص: ٤١٣.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب صلاة المسافرين وقصرها: (٦)، باب استحباب صلاة الضّحى: (١٣)، برقم: (٧٢١)، وبرقم: (٧٢٢) عن أبي الدّرداء رضي الله عنه: ١/ ٤٩٩.

(٣) سبق تخريجه، انظر: ص: ١٥٢.

(٤) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب القدر: (٥٩)، باب ما جاء أنّ الله كتب كتاباً لأهل الجنّة وأهل النّار: (٨)، برقم: (٢١٤٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٥٦. مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٣/ ١٠٦، ١٢٠، ٢٣٠، ونحوه في: ٤/ ١٣٥، عن عمر الجمعي رضي الله عنه. وفي: ٤/ ٢٠٠، عن أبي عتبة رضي الله عنه. وفي: ٥/ ٢٢٤، عن عمرو بن الحمق الخزاعي رضي الله عنه. =

وفي هذه النّصوص ما يدلّل على أنّ الأعمال الصّالحة تُؤَمِّنُ للعبد جانب السّلامة عند موته متى ما داوم عليها، ومَنْ تنكّب طريق الطّاعات وانحرف إلى المعاصي والسّيئات فسوف يجد مغبّة ذلك عند موته.

وعلى الإنسان أن يعرف لِمَ خُلِقَ في هذا العالم، وإلى أي مَقْصَد وُجِّه، ولأي مطلب رُشِّح، وليس يخفى على ذي بصيرة أنَّ هذه الدّار ليست دار مقرّ، وإنّما هي دار ممرّ، والنّاس فيها على صورة المسافرين، ومبدأ سفرهم بطون أمّهاتهم، ومقصد سفرهم الدّار الآخرة، وزمان الحياة مقدار المسافة، وسنوه منازله، وشهوره فراسخه، وأيّامه أمياله، وأنفاسه خطاه، ولكلّ شخص عند الله عمر مُقَدَّر لا يزيد ولا ينقص، وهذا السّفر لا يفضي إلى المقصد إلّا بزاد وهو التّقوى والعمل الصّالح، ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فمن لم يتزوّد في دنياه لآخرته بالمواظبة على العبادة فسوف يتحسّر عند موته حيث لا يغنيه التّحسّر.

والإنسان في دنياه حارث وعمله حرثه، ووقت الموت وقت حصاده، فمن انقضى عليه نفس من أنفاسه ولم يعبد الله فيه بطاعة فهو مغبون[1] لضياع

= الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه - إلّا أحرف يسيرة - في: باب ذكر الإخبار بأنّ من وفّق للعمل الصّالح قبل موته كان ممّن أريد به الخير، برقم: (٣٤١). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشّيخين»: ٢/ ٥٣، ونحوه في: باب ذكر الإخبار بأنّ فتح الله على المسلم العمل الصّالح في آخر عمره من علامة إرادته جلّ وعلا له الخير، برقم: (٣٤٢). عن عمرو رضي الله عنه، قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ٢/ ٥٤، وفي: باب ذكر البيان بأنّ العمل الصّالح الّذي يفتح للمرء قبل موته من السّبب الّذي يلقى الله جلّ وعلا محبّته في قلوب أهله وجيرانه به، برقم: (٣٤٣). عن عمرو رضي الله عنه أيضاً، قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ٢/ ٥٥.

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ١/ ٤٩٠، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشّيخين ولم يخرجاه وله شاهد بإسناد صحيح».

مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٦/ ٤٤٠، برقم: (٣٨٢١). قال المحقّق: «إسناده صحيح».

(١) غَبَنَهُ في البيع: خدعه وبابه ضرب، وقد غُبِنَ فهو مَغْبُونٌ. وغَبِنَ رأيه: من باب طرِب إذا نقصه فهو غَبِينٌ أي ضعيف الرّأي وفيه غَبَانَةٌ. والغَبِينَةُ: من الغَبْنِ كالشّتيمة من=

ذلك النّفس، فإنّه لا يعود قطّ[1].

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ:

«فأيّ عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضَيَّعَهَا، ونسي مصالحها وداءها ودواءها وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الأبديّة في النّعيم المقيم. ومن تأمّل هذا الموضع تبيّن له أنّ أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيّعوها، وأضاعوا حظّها من الله، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن، وإنّما يظهر لهم هذا عند الموت، ويظهر كلّ الظّهور يوم التّغابن»[2].

والأعمال بخواتيمها كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ في قوله: «وإنّما الأعمال بالخواتيم»[3]، فمن مات على عمل صالح تُرْجَى له السّعادة وإن عمل قبل ذلك سيّئاً، ومن مات على معصية فذلك نذير بشقائه وإن كان قبل ذلك مُحْسِناً، وقد جاء ذلك في حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أَحَدُكمْ لَيَعملُ بِعَمل أهل الجنّة حتّى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النّار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها»[4].

= الشّتم. والتّغَابُنُ: أن يغْبِن القوم بعضهم بعضاً، ومنه قيل يوم التّغابن ليوم القيامة لأنّ أهل الجنّة يغبنون أهل النّار. انظر: مختار الصّحاح، ص:٤٦٨. وانظر: لسان العرب: ١٣/ ٣٠٩. القاموس المحيط، ص:١٥٧٣.

(١) فضائح الباطنيّة، ص:١٩٥ ـ ١٩٦ بتصرّف.

(٢) الجواب الكافي، ص:٧٢.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب القدر: (٨٢/ ٥٦)، باب العمل بالخواتيم: (٥)، برقم: (٦٦٠٧)، ص:١٤٠٠، وبلفظ مقارب في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب الأعمال بالخواتيم، وما يخاف منها: (٣٣)، برقم: (٦٤٩٣)، ص:١٣٨١، عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) المصدر السّابق، بلفظ مقارب ـ جزء من حديث ـ في: كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصّافات: ١٧١]: (٢٨)، برقم: (٧٤٥٣)، ص:١٥٦٦، ونحوه في: كتاب بدء الخلق: (٥٩/ ٣٥)، باب ذكر الملائكة: (٦)، برقم: (٣٢٠٨)، ص:٦٧٩، وفي كتاب أحاديث الأنبياء: / ٦٠/ ٣٦)، =

وفي حديث أبي هريرة ﷺ عن النّبي ﷺ قال: «إنّ الرّجل ليعمل الزّمن الطّويل بعمل أهل الجنّة، ثمّ يختم له عمله بعمل أهل النّار، وإنّ الرّجل ليعمل الزّمن الطّويل بعمل أهل النّار، ثمّ يختم له عمله بعمل أهل الجنّة». وهذا «فيما يبدو للنّاس». كما ثبت ذلك عنه ﷺ في رواية سهل بن سعد ﷺ[1].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقوله فيما يبدو للنّاس إشارة إلى أن باطن الأمر يكون بخلاف ذلك، وأنّ خاتمة السّوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطّلع عليها النّاس، إمّا من جهة عمل سيّئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرّجل عمل أهل النّار وفي باطنه خصلة خفيّة من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره فتوجب له حسن الخاتمة»[2].

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا:

«إنّ الله إذا أراد بعبده خيراً قيّض له ملكاً قبل موته بعام فسدّده ويسّره حتّى يموت وهو خير ما كان، فإذا حُضر فرأى ثوابه من الجنّة فجعل يتهوّع[3] نفسه وَدَّ أنّها خرجت، فعند ذلك أحبّ لقاء الله فأحبّ الله لقاءه، وإذا أراد بعبد سوءاً قيّض له شيطاناً قبل موته بعام فصدّه وأضلّه وفتنه حتّى يموت شرّ ما كان، ويقول النّاس مات فلان وهو شرّ ما كان، فإذا حُضر فرأى ثوابه من النّار جعل يتبلّع نفسه وَدَّ أنّه لا يخرج، فعند ذلك كره لقاء الله وكره الله لقاءه»[4].

= باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]: (١)، برقم: (٣٣٣٢)، ص: ٧٠٠، وفي كتاب القدر: (٨٢/٥٦)، باب في القدر: (١)، برقم: (٥٦٩٤)، ص: ١٣٩٨.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب القدر: (٤٦)، باب كيفية الخلق الآدمي: (١)، برقم: (٢٦٤٣)، ٤/ ٢٠٣٦.

(١) المصدر السّابق، بلفظه في: كتاب القدر: (٤٦)، باب كيفية الخلق الآدمي: (١، برقم: (٢٦٥١) رواية أبي هريرة ﷺ، وبرقم: (١١٢) رواية سهل ﷺ: ٤/ ٢٠٤٢.

(٢) جامع العلوم والحكم، ص: ٥٧.

(٣) يَتهوّع: أي يَتَقَيّأ. والهَواع: القيء. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٨٢.

(٤) مصنّف عبد الرّزاق: ٣/ ٥٨٧، برقم: (٦٧٤٩).

وحسن خاتمة العبد أو سوءها لا تكون إلّا بسبب ما يجنيه العبد على نفسه. وإنّما يموت العبد على ما عاش عليه[1]. وسوء الخاتمة إنّما يقع لمن فسد باطنه، وتعلّقت نفسه بالرّذايا، ومال إلى طرق الغواية، فذلك الّذي يخشى له منها.

قال أبو محمّد عبد الحقّ الإشبيلي رَحِمَهُ الله:

«اعلم أنّ سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله منها ـ لا يكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وإنّما يكون ذلك لمن كان له فساد في العقل[2]، وإصرار على الكبائر، وإقدام على العظائم، فربّما غلب ذلك عليه حتّى ينزل به الموت قبل التّوبة، ويثب عليه قبل الإنابة، ويأخذه قبل إصلاح الطّويّة، فيصطلمه[3] الشّيطان عند تلك الصّدمة، ويختطفه عند تلك الدّهشة ـ والعياذ بالله ثمّ العياذ بالله ـ أو يكون ممّن كان مستقيماً ثمّ يتغيّر عن حاله، ويخرج عن سننه، ويأخذ في طريقه، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته وشؤم عاقبته»[4].

والمقصود أنّ الأعمال الصّالحة الّتي تنفع صاحبها عند الموت وتعينه على الثّبات هي الّتي ختم للعبد بها، وظلّ عليها حتّى الموت.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين، ص: ٢٧٩ ـ ٢٨٢.

(٢) لعلها فساد في العقيدة فهي بالسّياق أنسب.

(٣) الاصْطِلامُ: الاسْتِئْصالُ، وهو افتعال من الصّلْم وهو القطع. واصْطُلِمَ القوم: أُبيدوا من أصلهم. انظر: لسان العرب: ١٢/ ٣٤٠. وانظر: القاموس المحيط، ص: ١٤٥٨.

(٤) العاقبة في ذكر الموت، لأبي محمّد عبد الحقّ بن عبد الرّحمٰن بن عبد الله الإشبيلي، تحقيق: خضر محمّد خضر، طبعة: مكتبة دار الأقصى، الكويت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، ص: ١٨٠ ـ ١٨١، وبالنّص بعد الخلل أصلحته من التّذكرة، ص: ٤٢. وقد ذكر القرطبي وابن القيّم وابن رجب رحمهم الله حكايات وقصصاً لأناس حسنت خاتمتهم عند الموت وآخرين ساءت خاتمتهم فبدر منهم عند الموت ما يدلّ على ذلك.

انظر: التّذكرة، ص: ٤٠ فما بعدها. الجواب الكافي، ص: ١١٦ فما بعدها. لطائف المعارف، ص: ٣٨٤ فما بعدها. وانظر: أسباب سوء الخاتمة في: يقظة أولى الاعتبار ممّا ورد في ذكر النّار وأصحاب النّار، لصديق حسن بن علي القنوجي، تحقيق: أحمد حجازي السّقا، طبعة: مكتبة عاطف، دار الأنصار، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٨٧، ص: ٢١١ فما بعدها.

وهنالك أعمال بعينها لها أثر عظيم في الثّبات عند الموت أتناول بعضها في المطالب الآتية:

المطلب الأوّل

النّطق بالشّهادتين عند الموت

قال ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: كلمة التّوحيد: وهي قول: لا إله لّا الله، ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: يعني قبل الموت، ﴿وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ﴾: يعني في القبر. هذا قول أكثر أهل التّفسير[(١)].

وقد بيّن النّبي ﷺ أنّ من نطق بها ثمّ مات عليها دخل الجنّة. عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «أتيتُ النّبيَّ ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثمّ أتيته وقد استيقظ فقال: ما من عبد قال لا إله إلّا الله ثمّ مات على ذلك إلّا دخل الجنّة...» الحديث[(٢)].

قال البخاري رحمه الله عقب الحديث السّابق:

«هذا عند الموت أو قبله إذا تاب وندم وقال: لا إله إلّا الله غفر له»[(٣)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلّا الله دخل الجنّة»[(٤)].

---

(١) معالم التّنزيل: ٣/ ٣٣.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب اللّباس: (٧٧/ ٥١)، باب الثّياب البيض: (٢٤)، برقم: (٥٨٢٧)، ص: ١٢٦١.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الإيمان: (١)، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة: (٤٠)، برقم: (٩٤)، ١/ ٩٥.

(٣) صحيح البخاري، ص: ١٢٦١.

(٤) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٠)، باب في التّلقين: (١٥/ ١٦)، برقم: (٣١١٦). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٥٣.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٥/ ٢٣٣، ٢٤٧.
مستدرك الحاكم، بلفظه في: ١/ ٥٠٣، ٦٧٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». =

ولذلك طلب النّبيُّ ﷺ من عمّه أبي طالب وقد حضره الموت أن ينطق بها لتكون آخر كلام. فعن أُبي رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ لعمّه عند الموت: «قُلْ لا إله إلّا الله، أشهد لك بها يوم القيامة»، فأبى، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦][1].

كما أمر ﷺ أن يلقّن من حضره الموت الشّهادة لتكون آخر ما يتكلّم به. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقّنوا موتاكم لا إله إلّا الله»[2].

قال التّرمذي رحمه الله:

«وقد كان يستحبّ أن يلقّن المريض عند الموت قول: لا إله إلّا الله. وقال بعض أهل العلم: إذا قال ذلك مرّة فما لم يتكلّم بعد ذلك فلا ينبغي أن

= معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ٢٠/ ١١٢.

(١) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلّا الله: (٨٠)، برقم: (١٣٦٠)، ص: ٢٨٥، وفي كتاب مناقب الأنصار: (٦٣/ ٣٧)، باب قصّة أبي طالب: (٤٠/ ١٠٠)، برقم: (٣٨٨٤)، ص: ٨١١، وفي كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التّوبة: ١١٣]: (١٦)، برقم: (٤٦٧٥)، ص: ٩٨٥، وفي باب ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]: (١)، برقم: (٤٧٧٢)، ص: ١٠٢٦ ـ ١٠٢٧، وفي كتاب الأيمان والنّذور: (٨٣/ ٥٧)، باب إذا قال: والله لا أتكلّم اليوم: (١٩)، برقم: (٦٦٨١)، ص: ١٤١٤، عن سعيد بن المسيّب عن أبيه.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الإيمان: (١)، باب الدّليل على صحّة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النّزع: (٩)، برقم: (٢٥)، ونحوه برقم: (٢٤)، ١/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب تلقين الموتى لا إله إلّا الله: (١)، برقم: (٩١٦)، وبرقم: (٩١٧). عن أبي هريرة رضي الله عنه: ٢/ ٦٣١.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «المراد بقول لا إله إلّا الله في هذا الحديث وغيره كلمتا الشّهادة، فلا يرد إشكال ترك ذكر الرّسالة». فتح الباري: ٣/ ١١٠، طبعة دار المعرفة.

وقال الزّين بن المنير رحمه الله: «قول لا إله إلّا الله» لقب جرى على النّطق بالشّهادتين شرعاً انتهى». تحفة الأحوذي: ٤/ ٤٥.

يلقّن، ولا يكثر عليه في هذا. وروي عن ابن المبارك[1] أنّه لمّا حضرته الوفاة جعل رجل يلقّنه لا إله إلّا الله وأكثر عليه، فقال له عبد الله: إذا قلت مرّة فأنا على ذلك ما لم أتكلّم بكلام. وإنّما معنى قول عبد الله إنّما أراد ما روي عن النّبي ﷺ: «من كان آخر قوله لا إله إلّا الله دخل الجنّة»[2].

فلشهادة لا إله إلّا الله محمّد رسول الله أثر عظيم عند الموت، فهي كلمة التّوحيد القاطعة لحبائل الشّرك وإبطاله، والعبد يقولها وقد أيقنت نفسه بالقدوم إلى الله، فتوجّه إليه بكلّيته، وأقبل عليه بقلبه وروحه، وقد استسلم له ظاهراً وباطناً وسرّاً وعلانية، وقد تخلّص قلبه من التّعلّق بغيره والالتفات إلى سواه، وخمدت نيران شهوته، وصارت الآخرة نصب عينيه، وألقى الدّنيا بما فيها خلف ظهره، وتجرّد بها لربّه سبحانه، فكان في ذلك تطهيراً لذنوبه، وتنقية لنفسه ممّا اعتراها من كدر وشوائب، وتثبيتاً لقلبه وقد فارقته الشّبهات والشّهوات، وخضع لربّه وذلّ يروم عفوه ومغفرته ورحمته. فحري بمولاه أن يعينه على الثّبات في هذا المقام الموحش، فيجتازه بأمن وسلام، وطمأنينة وسعادة[3].

---

(١) هو عبد الله بن المبارك بن واضح أبو عبد الرّحمٰن الحنظلي التّميمي مولاهم المروزي التّركي، الإمام الحجّة الحافظ، شيخ الإسلام، وفخر المجاهدين، وقدوة الزّاهدين، صاحب التّصانيف والرّحلات. كثير الحديث، جمعت فيه خصال الخير، له شعر في الزّهد والحثّ على الجهاد، توفي سنة ١٨١هـ، وله ٦٣ سنة.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٣٧٢. طبقات خليفة، ص:٣٢٣. التّاريخ الكبير: ٥/ ٢١٢. معرفة الثّقات: ٢/ ٥٤. الجرح والتّعديل: ٥/ ١٧٩. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٧. مشاهر علماء الأمصار: ١/ ١٩٤. تاريخ بغداد: ١٠/ ١٥٢. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٨٣١. تهذيب الكمال: ١٦/ ٥. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٢٧٤. الكاشف: ١/ ٥٩١. تهذيب التّهذيب: ٥/ ٣٣٤. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٢٠.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٧)، باب ما جاء في تلقين المريض عند الموت، والدّعاء له عنده: (٧)، برقم: (٩٧٧)، ص:١٧٧، وقد سبق الحديث قريباً بلفظ: «من كان آخر كلامه...»، ص:١٠١٣. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ٦/ ١٨٣. التّذكرة، ص:٣٤ ـ ٣٧، وقد ذكر من الأحاديث والآثار ما يدلّل بها على أثر الشّهادة في تثبيت من حضره الموت. تحفة الأحوذي: ٤/ ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) وانظر الفوائد، ص:٥٦.

ولمّا فقد قلب المنافق الإخلاص سلب هذه الكلمة العظيمة في تلك اللّحظات، ففارقه الثّبات.

قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٧]:

«إنّ المنافق تكلّم بلا إله إلّا الله فأضاءت له في الدّنيا فناكح بها المسلمين، وغازاهم بها، ووارثهم بها، وحقن بها دمه وماله، فلمّا كان عند الموت سُلبها المنافق لأنّه لم يكن لها أصل في قلبه ولا حقيقة في عمله ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]»[1].

المطلب الثّاني

الإكثار من ذكر الموت

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللّذّات» يعني الموت[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٨٤

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب ما جاء في ذكر الموت: (٤)، برقم: (٢٣٠٧). وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «حسن صحيح»، ص:٣٨١.
سنن النّسائي، بلفظه ـ إلّا إنّه لم يذكر: «يعني الموت ـ في: كتاب الجنائز: (٢١)، باب كثرة ذكر الموت: (٣)، برقم: (١٨٢٤). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «حسن صحيح»، ص:٢٠٩.
سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب ذكر الموت والاستعداد له: (٣١)، برقم: (٤٢٥٨). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «حسن صحيح»، ص:٤٥٩.
مسند أحمد، بلفظه ـ ولم يذكر: «يعني الموت» ـ في: ٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣. قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده صحيح»، برقم: (٧٩١٢). مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٥/ ٤٩.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه ـ وقال: «الموت» ـ في: فضل في ذكر الموت، برقم: (٢٩٩٢)، ٧/ ٢٥٩، وفي باب ذكر العلّة الّتي من أجلها أمر بالإكثار من ذكر الموت، ولم يذكر: «يعني الموت»، برقم: (٢٩٩٤)، ٧/ ٢٦١، وبلفظ مقارب في: باب ذكر إكثار المصطفى ﷺ في القول لما وصفنا، برقم: (٢٩٩٥)، ٧/ ٢٦١.
قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»، في المواضع الثّلاثة. =

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللّذّات، يعني الموت، فإنّه ما كان في كثير إلّا قلّله، ولا قليل إلّا جزّأه»[1].

يتذكر الإنسانُ الموتَ فيستحضر تلك اللّحظات الحاسمة الّتي ينتقل فيها من هذه الدّنيا إلى الآخرة، فينتبه من غفلته، ويستيقظ من رقدته، ويهيئ نفسه لملاقاته، ويعدّ العدّة لمواجهته، حتّى إذا دهمه الموتُ وجده بكامل عتاده، على أهبة الاستعداد للقائه، موقناً بحضوره، مستسلماً لأمر ربّه، لا خوف ولا فزع، ولا رعب ولا هلع، ولا خَوَر[2] ولا جَزَعَ، بل ثبات تتزلزل عنده الجبال، وصبر تعجز عن مثله الأبطال.

وقد أطال العلماءُ في الحديث عن ذكر الموت وفوائده، ونقلوا آثاراً عدّة عن السّلف الصّالح رحمهم الله في الإكثار من ذكره، من أولئك القرطبي رحمه الله في تذكرته، حيث قال مُعَلِّقاً على قوله ﷺ: «أكثروا ذكر هاذم اللّذّات» قال:

«كلام مختصر وجيز قد جمع التّذكرة، وأبلغ في الموعظة، فإنّ من ذكر الموت حقيقة ذكره نغّص عليه لذّته الحاضرة، ومنعه من تمنّيها في المستقبل، وَزَهَّدهُ فيما كان منها يؤمّل... فاعلم أنّ ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج

= مستدرك الحاكم، بلفظ ـ وقال: «الموت» ـ في: ٤/ ٣٥٧، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: «على شرط مسلم».
هدام: يروى بالدّال المهملة، أي دافعها أو مخربها، وبالمعجمة أي قاطعها. تحفة الأحوذي: ٦/ ٤٨٩.

(١) معجم الطّبراني الأوسط، بلفظه في: ٦/ ٥٦، وحسّن إسناده صاحب تحفة الأحوذي. انظر: ٦/ ٤٨٩.
وعند ابن حبّان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «أكثروا ذكر هاذم اللّذات فما ذكره عبد قطّ وهو في ضيق إلّا وسّعه عليه، ولا ذكره وهو في سعة إلّا ضيّقه عليه»، في باب ذكر العلّة الّتي من أجلها أمر بالإكثار من ذكر الموت، برقم: (٢٩٩٣)، ٧/ ٢٦٠.

(٢) الخَوَرُ: بالتّحريك: الضّعف. والخَوَّار: الضّعيف الّذي لا بقاء له على الشّدّة. انظر: لسان العرب: ٤/ ٢٦٢. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ١٩٢. القاموس المحيط، ص: ٤٩٧.

عن هذه الدّار الفانية، والتّوجّه في كلّ لحظة إلى الدّار الآخرة الباقية، ثمّ إنّ الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهّل عليه بعض ما هو فيه، فإنّه لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسّكون إليها، لقطعه عنها، ولقد أحسن من قال:

اذكر الموت هاذم اللّذّات وتجهّز لمصرع سوف يأتي...

قال التّيمي[1]:

«شيئان قطعا عنّي لذّة الدّنيا: ذكر الموت، وذكر الموقف بين يدي الله تعالى».

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يجمع العلماء فيتذكّرون الموت والقيامة والآخرة، فيبكون حتّى كأنّ بين أيديهم جنازة.

وقال أبو نعيم[2]:

«كان الثّوري إذا ذكر الموت لا ينتفع به أياماً، فإن سئل عن شيء قال: لا أدري لا أدري»...

---

(١) التّيمي: أورد أبو نعيم في الحلية قوله بلفظ مقارب في: ٥/ ٨٩، وسمّاه: عبد الأعلى التّيمي، وذكره البخاري في التّاريخ الكبير: ٦/ ٧٢، وابن حبّان في الثّقات: ٧/ ١٣١، في ترجمة مقتضبة، ولم يذكرا فيه جرحاً ولا تعديلاً. كما أورده ابن أبي حاتم في الجرح والتّعديل: ٦/ ٢٨، وذكر أنّه روى عن إبراهيم التّيمي، وروى عنه أبو طالب ومسعر والعلاء بن سالم. وانظر: تعجيل المنفعة: ١/ ٢٤٣.

(٢) هو الفضل بن دُكَيْن ـ واسم دكين عمرو بن حمّاد ـ أبو نعيم الكوفي التّيمي مولاهم، الملائي، مشهور بكنيته، ثقة ثبت في الحديث، غاية في الإتقان والحفظ، من كبار شيوخ البخاري، توفي سنة ٢١٩هـ.

وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٤٠٠. طبقات خليفة، ص: ١٧٢. التّاريخ الكبير: ٧/ ١١٨. معرفة الثّقات: ٢/ ٢٠٥. الجرح والتّعديل: ٧/ ٦١. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٣١٩. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٧٤. تاريخ بغداد: ١٢/ ٣٤٦. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٠٤٧. تهذيب الكمال: ٢٣/ ١٩٧. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٣٧٢. الكاشف: ٢/ ١٢٢. تهذيب التّهذيب: ٨/ ٢٤٣. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٤٦. لسان الميزان: ٧/ ٣٣٥. طبقات المدلّسين، ص: ٢٣.

وقال الدّقاق[1]:

«من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التّوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التّوبة، وترك الرّضا بالكفاف، والتّكاسل في العبادة»[2].

وابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في جامع العلوم والحكم يقول:

«وفي الإكثار من ذكر الموت فوائد منها: إنّه يحثّ على الاستعداد له قبل نزوله، ويقصّر الأمل، ويرضي بالقليل من الرّزق، ويزهّد في الدّنيا، ويرغّب في الآخرة، ويهوّن مصائب الدّنيا، ويمنع من الأشر والبطر والتّوسّع في لذّات الدّنيا، وفي حديث أبي ذر المرفوع الّذي خرّجه ابن حبّان في صحيحه وغيره: «إنّ صحف موسى كانت عبراً كلّها: عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح؟ عجبت لمن أيقن بالنّار كيف يضحك؟ عجبت لمن أيقن بالقدر كيف ينصب؟ عجبت لمن رأى الدّنيا وسرعة تقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟»[3].

فَذِكْرُ الموت يدفع المرء إلى الإكثار من الأعمال الصّالحة، ويجنّبه ما ساء من العمل، ويُعدّه للقائه، فيثبت إذا الموتُ حضر، ويصبر إذا به نزل.

---

(١) الدّقّاق: لم يتبيّن لي من هو؟ ولعلّه ابن السّمّاك الآتية ترجمته، فهو معروف بالدّقّاق.

(٢) التّذكرة، ص:٩ ـ ١٠. وانظر: مواعظ ابن الجوزي: ١/٦٣ الفصل الرّابع: اذكر الموت.

(٣) لطائف المعارف، ص:١١٨، ولفظه عند ابن حبّان:
«قلت يا رسول الله: فما كانت صحف موسى؟ قال: «كانت عبراً كلّها: عجبت لمن أيقن بالموت ثمّ هو يفرح، وعجبت لمن أيقن بالنّار ثمّ هو يضحك، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثمّ هو ينصب، عجبت لمن رأى الدّنيا وتقلّبها بأهلها ثمّ اطمأن إليها، وعجبت لمن أيقن بالحساب غداً ثمّ لا يعمل». الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كلّ خير حظّ رجاء التّخلّص في العقبى بشيء منها، برقم: (٣٦١)، ٢/٧٨، وهو في الحلية لأبي نعيم، بلفظ مقارب: ١/١٦٧ ـ ١٦٨.

المطلب الثّالث

المبادرة بالتّوبة

لقد دعا الله سبحانه عباده المؤمنين جميعاً أن يتوبوا إليه، وعلّق على ذلك فلاحهم وسعادتهم. فقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وحثّهم على الصّدق فيها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التّحريم: ٨].

والمراد بها: التّوبة العامّة الشّاملة لجميع الذّنوب، الّتي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلّا وجه الله، والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله[١].

ووعده عليها بالمغفرة والرّحمة ولو بلغت ذنوبهم عنان السّماء فقال لهم: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

ورغّبهم رسوله ﷺ فيها، بفعله: كما جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «والله إنّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرّة»[٢].

وفي رواية الأغر بن يسار المُزَني رضي الله عنه: «فإنّي أتوب في اليوم إليه مائة مرّة»[٣].

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٨٠٩.
إن كانت المعصية بين العبد وبين الله فللتّوبة شروط ثلاثة: ١ ـ أن يقلع عن المعصية. ٢ ـ أن يندم على فعلها. ٣ ـ أن يعزم على عدم العود إليها. وإن كانت تتعلّق بحقّ آدمي فيضاف إلى ذلك شرط رابع وهو البراءة من حقّ صاحبها، فإن كان مالاً أو نحوه ردّه إليه، وإن كان قذفاً ونحوه مكّنه منه أو طلب عفوه، وإن غيبة استحلّه منها. انظر: رياض الصّالحين، ص:٣٧ ـ ٣٨. شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٢٢.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٨٠/ ٥٤)، باب استغفار النّبي ﷺ في اليوم واللّيلة: (٣)، برقم: (٦٣٠٧)، ص:١٣٤٦.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه: (١٢)، برقم: (٢٧٠٢)، ٤/ ٢٠٧٥.

كما رغّبهم بقوله في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ حيث قال: «إنّ الله ﷻ يبسط يده باللّيل ليتوب مسيء النّهار، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيء اللّيل حتّى تطلع الشّمس من مغربها»[1].

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة جداً، وكلّها حاثّة على التوبة، داعية لها ممّا دفع أهل الإسلام بالاتّفاق على فرضيتها[2]. فهي من مهمّات الإسلام وقواعده المتأكّدة، ووجوبها عند أهل السّنّة بالشّرع وعند المعتزلة بالعقل[3].

ولمّا كانت التّوبة قالعة للذّنوب، ماحية لأثرها، مزيلة لها، والذّنوب ذات أثر بالغ في عدم ثبات من حضره الموت، دعا الرّب سبحانه إلى معالجة الموت بالتّوبة الصّادقة، وحذّر من التّفريط فيها والتّهاون في شأنها فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: ١٧ ـ ١٨].

فالله يتوب على عباده بتوفيقهم للتّوبة وقبولها منهم، وقد بيّن في الآية أنّ التّوبة المستحقّة عليه كرماً منه وَجوداً لا وجوباً لمن عمل المعصية وهو جاهل بعاقبتها، وما تؤدّي إليه من سخط الله وأليم عقابه، لا جهلاً بتحريمها، ثمّ تاب من قريب في أي وقت من حياته قبل حضور الموت إليه، وبلوغ روحه إلى الحلقوم، فحينها لا تنفع توبة، ولا تصلح إنابة لقوله ﷺ في حديث عبد الله بن عمر ﵄: «إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[4]، أي قبل أن يبلغ حالة الاحتضار.

---

(١) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب التّوبة: (٤٩)، باب قبول التّوبة من الذّنوب: (٥)، برقم: (٢٧٥٩)، ٤/ ٢١١٣.

(٢) انظر: التّذكرة، ص:٥٣.

(٣) شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٥٣.

(٤) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (٩٨)، برقم: (٣٥٣٧)، وقال: «هذا حديث حسن غريب. وقال الألباني ﷺ: «حسن»، ص:٥٥٦.
سنن ابن ماجه، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب ذكر=

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ في بيان قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾:

«ثمّ يتوبون قبل مماتهم، في الحال الّتي يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى ونهيه، وقبل أن يغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحشرجة وغمّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التّوبة. . . .» إلخ[1].

فحينئذ لا تنفع توبة ولا تقبل، كحال من مات على الكفر، فإنّه لا ينفع منه رجوع.

فالتّوبة عند الموت حين ينكشف الغطاء، ويعاين المحتضَر أمور الآخرة، ويشاهد الملائكة، فيصير ما في الغيب عنده شهادة، لا تجدي التّوبة حينئذ، ولا تغني عنه شيئاً لأنّها تكون عندئذ توبة اضطّرار لا اختيار[2].

كما أنّ الآية بيّنت أنّ من لم يبادر إلى التّوبة، ويظلّ مصرّاً على الذّنب،

= التّوبة: (٣٠)، برقم: (٤٢٥٣). عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «حسن»، ص:٤٥٨.

مسند أحمد، بلفظه في: ٢/ ١٣٢، وبلفظ مقارب في: ٢/١٥٣، ٣/ ٤٢٥، ونحوه في: ٥/ ٣٦٢. قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٩/ ١٨، ١٦١، برقم: (٦١٦٠، ٦٤٠٨).

مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٤/ ٢٨٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رَحِمَهُ اللهُ: « صحيح».

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ في معنى قوله: «ما لم يغرغر»، يعني إذا لم تبلغ روحه عند خروجها منه إلى حلقه، فشبّه تردّدها في حلق المحتضر بما يتغرغر به الإنسان من الماء وغيره يردّده في حلقه». لطائف المعارف، ص:٣٨٣.

(١) جامع البيان: ٤/ ٣٠٢. وانظر في معنى الآيتين: معالم التّنزيل: ١/ ٤٠٧ ـ ٤٠٨. الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٩٠ ـ ٩٣. أنوار التّنزيل: ٢/ ١٦٠ ـ ١٦١. تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٩٨ ـ ٧٠٠. فتح القدير: ١/ ٤٣٨ ـ ٤٣٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٣٧.

(٢) وانظر: لطائف المعارف، ص:٣٨٢ ـ ٣٨٣. وانظر الصّارم المسلول على شاتم الرّسول، لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمّد عبد الله عمر الحلواني، محمّد كبير أحمد شوردي، طبعة: دار ابن حزم، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ: ٣/ ٦٨٨ ـ ٦٨٩، ففيه تفصيل حسن.

مستمرّاً عليه حتّى يصبح الذّنب صفة راسخة فيه، فالغالب على من هذا شأنه لا يوفّق للتّوبة، ولا ييسّر لأسبابها.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والله تعالى إنّما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذّنب منه على وجه غلبة الشّهوة وقوّة الطّبيعة، فيواقع الذّنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه لعلمه تعالى بضعفه وغلبة شهوته له، وأنّه يرى كلّ وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذّنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربّه خائف مختلج في صدره شهوة النّفس والذّنب وكراهة الإيمان له، فهو يجيب داعي النّفس تارة وداعي الإيمان تارات. فأمّا من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب، ولا يقدّم خوفاً، ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهراً لبطن إذا ظفر بالذّنب فهذا الّذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التّوبة ولا يوفّق لها. . .» إلخ(١).

ولذلك يجب على المرء أن يبادر بالتّوبة حتّى لا يباغته الموت، فيندم حين لا ينفع النّدم. وقد حذّرنا ربّنا سبحانه من التّمادي في الذّنوب حتّى إذا فاجأنا الأجلُ تحسّرنا على ما فرّطنا في التّوبة، وندمنا غاية النّدم.

قال سبحانه: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٩].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «جاء رجل إلى النّبي ﷺ فقال: يا رسول الله

---

(١) مفتاح دار السّعادة: ١/ ٢٨٣.

أيّ الصّدقة أعظم أجراً؟ قال: «أن تَصدَّق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان»[١].

قال لقمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ لابنه:

«يا بني لا تؤخّر التّوبة فإنّ الموت يأتي بغتة»[٢].

وقال الحسن[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اتّق الله يا ابن آدم لا يجتمع عليك خصلتان: سكرة الموت، وحسرة الفوت»[٤].

وقال ابن السّمّاك[٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«احذر السّكرة والحسرة أن يفجأك الموت وأنت على الغِرَّة، فلا يصف واصف قدر ما تلقى ولا قدر ما ترى»[٦].

وقد اتّفق أهل العلم على أنّ التّوبة واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها، سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة[٧]. وهذا ما يدفع للمبادرة بها.

وكثيراً ما يمنع من المبادرة إلى التّوبة التّسويف وطول الأمل، وذلك داء قاتل طالما فتك بكثير ممّن حدّثته نفسه بالتّوبة، فألهاه عنها حتّى فاجأه الموت، واحتوشته الحسرة، ولازمه النّدم.

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الزّكاة: ٢٤/٧)، باب أي الصّدقة أفضل: (١١/ ١٠)، برقم: (١٤١٩)، ص:٢٩٩، وبلفظ مقارب في: كتاب الوصايا: (٥٥/ ٣١)، باب الصّدقة عند الموت: (٧)، برقم: (٢٧٤٨)، ص:٥٧٨.
صحيح مسلم، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ وبلفظ مقارب في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب بيان أنّ أفضل الصّدقة صدقة الصّحيح الشّحيح: (٣١)، برقم: (١٠٣٢)، ٢/ ٧١٦.

(٢) لطائف المعارف، ص:٣٩١.

(٣) هو البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٤) المرجع السّابق، ص:٣٨٤.

(٥) هو عثمان بن أحمد بن عبد الله، المعروف بابن السّمّاك، أبو عمرو الدّقّاق، الزّاهد. صدوق في نفسه، رجل صالح، كثير الكتابة، توفي سنة ٣٤٤هـ.
وانظر: تاريخ بغداد: ١١/ ٣٠٢. ميزان الاعتدال: ٥/ ٤١. لسان الميزان: ٤/ ١٣١.

(٦) لطائف المعارف، ص:٣٨٤.

(٧) انظر: شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٥٣.

وقد حذّر ربّنا سبحانه في كتابه من مسلك قوم جرفتهم الأماني، وغرّتهم الآمال، وتعلّقوا بأذيال (سوف) حتّى صرعهم الأجل، فسوف يعلمون.

قال سبحانه: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾ [الحجر: ٣].

أي اترك يا رسولنا هؤلاء الّذين شغلهم متاع الدنيا الزّائل، فاغتروا بزهرتها أكلاً وتمتّعاً، وعصفت به الآمال فحجبتهم عن الطّاعات، وأوصدت أمامهم باب التّوبة والرّجوع إلى الله، حتّى بغتهم ما لم يكن في حسبانهم فأرداهم هلكى، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم، وسوء صنيعهم[١].

عقد البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ باباً في صحيحه عن الأمل وطوله، وذكر فيه هذه الآية وغيرها، ثمّ أورد في الباب الّذي يليه حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال قلب الكبير شابّاً في اثنتين: في حبّ الدّنيا وطول الأمل»[٢].

قال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما نقله الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه:

«هذا الحديث فيه من المطابقة وبديع الكلام الغاية، وذلك أنّ الشّيخ من شأنه أن تكون آماله وحرصه على الدّنيا قد بليت على بلاء جسمه إذا انقضى عمره، ولم يبق له إلّا انتظار الموت، فلمّا كان الأمر بضدّه ذُمّ. قال: والتّعبير بالشّاب إشارة إلى كثرة الحرص، وبعد الأمل الّذي هو في الشّباب أكثر وبهم أليق لكثرة الرّجاء عادة عندهم في طول أعمارهم، ودوام استمتاعهم، ولذّاتهم في الدّنيا»[٣].

---

(١) وانظر: جامع البيان: ١٤/ ٥. معالم التّنزيل: ٣/ ٤٣. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢ ـ ٣. أنوار التّنزيل: ٣/ ٣٦١. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٤٧. فتح القدير: ٣/ ١٢١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٨٣.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر: (٥)، برقم: (٦٤٢٠)، ونحوه برقم: (٦٤٢١) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ص: ١٣٦٨.

صحيح مسلم، نحوه في: كتاب الزّكاة: (١٢)، باب كراهة الحرص على الدّنيا: (٣٨)، برقم: (١٠٤٦)، وبرقم: (١٠٤٧) عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ٢/ ٧٢٤.

(٣) فتح الباري: ١١/ ٢٤١، طبعة: دار المعرفة.

وقد بيّن النّبي ﷺ أنّ أجل الإنسان أقرب وأسرع إليه من أمله.

فعن عبد الله ـ ابن مسعود ـ رضي الله عنه قال: خطّ النّبي ﷺ خطّاً مربّعاً، وخطّ خطّاً في الوسط خارجاً منه، وخطّ خُططاً صغاراً إلى هذا الّذي في الوسط من جانبه الّذي في الوسط، وقال: «هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به ـ أو قد أحاط به ـ وهذا الّذي هو خارج أمله، وهذه الخُطط الصّغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه[1] هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[2].

فالإنسان يعلّل نفسه بالآمال الكاذبة، والأماني الخادعة فيغفل عن المبادرة إلى التّوبة، والرّجوع إلى الله، والمداومة على الطّاعات، ويغفل عن عمره، ويتشبّث بطول الأمل، وينسى أنّ طول الأمل داء عضال، ومرض مزمن فتّاك، متى حلّ في القلب وتمكّن منه أفسد مزاجه، وصعب علاجه، ولم يفارقه الدّاء، ولا نجع فيه دواء، بل أعيا الأطباء، ويئس من برئه الحكماء والعلماء[3].

ولذا حذّر السلف رحمهم الله من الاغترار بطول الأمل، والتّسويف بترك العمل، وإهمال التّوبة إلى حلول الأجل.

قال الحسن البصري رحمه الله:

«ما أطال عبد الأمل إلّا أساء العمل».

قال القرطبي رحمه الله معلّقاً على ذلك:

«وصدق رضي الله عنه، فالأمل يكسّل عن العمل، ويورث التّراخي والتّواني، ويعقب التّشاغل والتّقاعس[4]، ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى، وهذا

---

(١) نَهَشَ يَنْهَش ويَنْهِشُ نَهْشاً: تناولَ الشّيء بفَمِه ليَعَضَّه فيؤثّر فيه ولا يَجْرحه، وكذلك نَهْشُ الحيّةِ. لسان العرب: ٦/ ٣٦٠. وانظر: القاموس المحيط، ص: ٧٨٥.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب في الأمل وطوله: (٤)، برقم: (٦٤١٧)، ونحوه برقم: (٦٤١٨) عن أنس رضي الله عنه، ص: ١٣٦٧.
وانظر شرحه في تحفة الأحوذي: ٧/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٣) وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ٢ ـ ٣.

(٤) التّقاعُس: التّأخّر. يقال: تقاعس الرّجل عن الأمر أي تأخّر ولم يَتقدّم فيه. وانظر: لسان العرب: ٦/ ١٧٧. القاموس المحيط، ص: ٧٣٠.

أمر قد شوهد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يطلب صاحبه ببرهان، ما أنّ قصر الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحثّ على المسابقة»[1].

وكتب عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ[2] **إلى عمر بن عبد العزيز** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«أمّا بعد فما أنزل الموت كنه منزلته من عدّ غداً من أجله وكم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وكم من مؤمّل لغد لا يدركه، إنّكم لو رأيتم الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره»[3].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ومن الاغترار طول الأمل، وما من آفة أعظم منه، فإنّه لولا طول الأمل ما وقع إهمال أصلاً، وإنّما يقدّم المعاصي ويؤخّر التّوبة لطول الأمل، وتبادر الشّهوات، وتنسى الإنابة لطول الأمل، وإن لم تستطع قصر الأمل فاعمل عمل قصير الأمل، ولا تمس حتّى تنظر فيما مضى من يومك، فإن رأيت زلّة فامحها بتوبة، أو خرقاً فارقعه باستغفار، وإذا أصبحت فتأمّل ما مضى في ليلك، وإيّاك والتسويف فإنّه أكبر جنود إبليس... ثمّ صوّر لنفسك قصر العمر، وكثرة الأشغال، وقوّة النّدم على التّفريط عند الموت، وطول الحسرة على البدار بعد الفوت...» إلخ[4].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣/١٠.

(٢) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أبو عبد الله الهزلي، المدني الكوفي، تابعي، فقيه زاهد عابد، ثقة كثير الإرسال، توفي قبل سنة ١٢٠هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/٣١٣. التّاريخ الكبير: ٧/١٣. معرفة الثّقات: ٢/١٩٧. الجرح والتّعديل: ٦/٣٨٤. ثقات ابن حبّان: ٥/٢٦٣. تهذيب الكمال: ٢٢/٤٥٣. الكاشف: ٢/١٠٢. جامع التّحصيل، ص:٢٤٩. تهذيب التّهذيب: ٨/١٥٣. تقريب التّهذيب: ١/٤٣٤.

(٣) تاريخ دمشق: ٤٧/٧١ ـ ٧٢. وانظر: لطائف المعارف، ص:١٦٦، وفيه قال: بعض السّلف.

(٤) صيد الخاطر، ص:١٧٨ ـ ١٧٩. وانظر قوله الآخر، ص:٢٨٢، من نفس المرجع، وقول له ثالث في كتابه تلبيس إبليس، تحقيق: السّيّد الجميلي، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، ص:٤٨٦ ـ ٤٨٧.

وقد أرشد رَحِمَهُ اللَّهُ فيما ذكر إلى العلاج النّاجع لطول الأمل، فمن أخذ بادر إلى التّوبة فنفعه ذلك عند الموت فثبت وصبر ونجا من الهلاك والزّلل:

أُؤمِّل أن أُخَلَّد والمنايا ... تدور عليَّ من كلّ النّواحي
وما أدري وإن أمسيت يوماً ... لعلي لا أعيش إلى الصّباح[1]

المطلب الرّابع

زيارة القبور للعظة والاعتبار

إنّ زيارة القبور لها أثر بالغ على نفوس الأحياء لما فيها من عبر، ولما يستشعره الزّائر من عظات تربطه باليوم الآخر، وتذكّره حال الموتى، وتزهّده في الدّنيا، وتدفعه إلى الطّاعات، وتجنّبه فعل المنكرات، والانغماس في الشّهوات، فيعدّ العدّة لمصير ملاقيه، وكأس شاربها، وغاية واصل إليها.

ولذلك أمر النّبي ﷺ بزيارتها. فقال في حديث بُرَيْدَةَ رضي الله عنه: «نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»[2].

وكشف عن العلّة من زيارتها في أحاديث عدّة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: زار النّبي ﷺ قبر أمّه فبكى وأبكى من حوله. فقال: «استأذنت ربّي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنّها تذكّر الموت»[3].

---

(١) ذكرهما ابن رجب في لطائف المعارف، ص:١٦٦، ولم ينسبهما لأحد، وهما لأبي العتاهية في ديوانه، وسياقهما عنده:

أُؤمّل أن أُخَلَّدَ والمنايا ... يَثِبْنَ عليَّ من كلِّ النّواحي
وما أدري إذا أمسيتُ حيًّا ... لعلِّي لا أعيشُ إلى الصّباح

شرح ديوان أبي العتاهية، طبعة: دار صعب، بيروت، ص:٦٧.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب الجنائز: (١١)، باب استئذان النّبي ﷺ ربّه ﷻ في زيارة قبر أمّه: (٣٦)، برقم: (٩٧٧)، ٢/٦٧٢، وفي: كتاب الأضاحي: (٣٥)، باب بيان ما كان من النّهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث: (٥)، برقم: (١٩٧٧)، ٣/١٥٦٣.

(٣) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب استئذان النّبي ﷺ ربّه ﷻ في زيارة قبر أمّه: (٣٦)، برقم: (٩٧٦)، ٢/٦٧١.

فزيارة القبور تذكّر بالموت فيزهد في الدّنيا، ويرغب في الآخرة[1]، ويتّعظ بها ويعتبر[2].

وقد بيّن القرطبي رَحِمَهُ اللهُ بعبارات مؤثّرة كيف تتحقّق للزّائر العبرة والعظة فقال:

«يعتبر بمن صار تحت التّراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذّخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه، فليتأمّل الزّائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه، الّذين بلغوا الآمال وجمعوا الأموال، كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التّراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمّل بعدهم نساؤهم، وشمل ذلّ اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريقهم وبلادهم... وعند هذا التّذكّر والاعتبار يزول عنه جميع الأغيار الدّنيويّة، ويقبل على الأعمال الأخرويّة، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه»[3].

= قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ فيما نقله النّووي عنه: «سبب زيارته ﷺ قبرها أنّه قصد قوّة الموعظة والذّكرى بمشاهدة قبرها، ويؤيده قوله ﷺ في آخر الحديث: «فزوروا القبور فإنّها تذكّر الموت»». شرح النّووي على مسلم: ٧/ ٤٥.

(١) ورد هذا المعنى في حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: قال ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنّها تزهّد في الدّنيا وتذكّر الآخرة». سنن ابن ماجه، كتاب الجنائز: (٦)، باب ما جاء في زيارة القبور: (٤٧)، برقم: (١٥٧١). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «ضعيف»، ص:١٧١. الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، إلّا إنّه قال: «ترغّب» بدل «تذكّر»، برقم: (٩٨١). ٣/ ٢٦١. إلّا إنّ شعيب الأرناؤوط ضعّف إسناده. وانظر: سنن البيهقي: ٤/ ٧٧. مستدرك الحاكم: ١/ ٥٣١.

(٢) عن عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه بريدة بن حُصَيِّب عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «كنت نهيتكم عن ثلاث: عن زيارة القبور فزوروها فإنّ في زيارتها عظة وعبرة، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي فوق ثلاث فكلوا وادّخروا، ونهيتكم عن النّبيذ في هذه الأسقية فاشربوا ولا تشربوا حراماً». مسند أحمد: ٥/ ٣٥٦. وانظر: ٣/ ٣٨. سنن البيهقي: ٤/ ٧٧. مستدرك الحاكم: ١/ ٥٣٠. معجم الطّبراني الكبير: ٢٣/ ٢٧٨.

(٣) التّذكرة، ص:١٥.

فرؤية القبور طالما أزعجت نفوس السّلف رحمهم الله، وحرّكت قلوبهم، وأسالت دموعهم، وأورثتهم الأحزان والأتراح، لما فيها من العبر، وما حوته من العظات.

فكان عثمان ﷺ إذا وقف على قبر بكى حتّى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنّة والنّار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ القبر أوّل منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ منه»، قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما رأيت منظراً قطّ إلّا القبر أفظع منه»[1].

وعطاء السّلمي[2] رحمه الله كان إذا جنّ عليه اللّيل خرج، فوقف على القبور ثمّ قال: «يا أهل القبور متّم فواموتاه»، ثمّ بكى، ثمّ قال: «يا أهل القبور عاينتم ما عملتم فوا عملاه». ثمّ يبكي، فلا يزال كذلك حتّى يصبح[3].

---

(١) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب: (٥)، برقم: (٢٣٠٨)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني رحمه الله: «حسن». عن هانئ مولى عثمان رضي الله عنه، ص: ٣٨١.
سنن ابن ماجه، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب ذكر القبر والبلى: (٣٢)، برقم: (٤٢٦٧). قال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ٤٦٠.
سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب ما يقال بعد الدّفن: ٤/ ٥٦.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في: ١/ ٦٣ ـ ٦٤. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١/ ٣٥٧، برقم: (٤٥٤).
مستدرك الحاكم، بلفظه سوى أحرف في: ١/ ٥٢٦، وبلفظ مقارب في: ٤/ ٣٦٦، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رحمه الله: « صحيح».

(٢) عطاء السّلمي وقيل: السّليمي البصري، العابد الزّاهد المشهور، أدرك زمان أنس بن مالك رضي الله عنه، فهو من صغار التّابعين، له كلام دقيق في الزّهد، وكان شديد الخوف من الله، وله في ذلك حكايات، لم يسند شيئاً من الحديث، توفي بعد الأربعين ومائة.
وانظر: الكامل في ضعفاء الرّجال: ٥/ ٣٦٧. ميزان الاعتدال: ٥/ ٩٩. سير أعلام النّبلاء: ٦/ ٨٦. لسان الميزان: ٤/ ١٧٣. وقد ذكر أبو نعيم حكايات كثيرة عنه. انظر: حلية الأولياء: ٦/ ٢١٥ ـ ٢٢٥.

(٣) أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النّشور، لأبي الفرج زين الدّين عبد الرّحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: محمّد السّعيد بن بسيوني زغلول، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥، ص: ١٣٨.

وكان الأسود بن كلثوم[1] رَحِمَهُ اللَّهُ يخرج إلى المقابر إذا هدأت العيون، فيقول: «يا أهل الغربة والتّربة، يا أهل الوحدة والبلى». ثمّ يبكي حتّى يكاد يطلع الفجر، ثمّ يرجع إلى أهله[2].

وثابت البُنَاني[3] رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «دخلت المقابر فقلت: يا أهل القبور، فلم يجبني أحد، ثمّ قلت: يا أهل القبور، فلم يجبني أحد، ثمّ أجاب عقلي: نحن مثلك كنّا وأنت، وكما نحن تكون»[4]:

تهيج منازل الأموات وجداً ... ويحدث عند رؤيتها اكتئاب
منازل لا تجيبك حين تدعو ... وعزَّ عليك أنّك لا تجاب
وكيف يجيب من تدعوه ميتاً ... تضمّنت الجنادل والتّراب[5]

والآثار عن السّلف في ذلك كثيرة جداً، وكلّها دالّ على عظيم الأثر من زيارة القبور ورؤيتها ممّا دفعهم إلى ملازمة الطّاعات ومجانبة المعاصي والمنهيّات، والبقاء على ذلك حتّى الوفاة، وذلك سبيل مأمون يدفع إلى الصّبر ويدعو إلى الثّبات.

---

(١) الأسود بن كلثوم العدوي البصري، كان فاضلاً، من عبّاد أهل البصرة، له ذكر في الفتوح، وهو الّذي فتح بيهق، قتل بخرسان.
وانظر: طبقات خليفة، ص:١٩٢. التّاريخ الكبير: ١/٤٤٨. الجرح والتّعديل: ٢/ ٢٩٣. ثقات ابن حبّان: ٤/٣٢. حلية الأولياء: ٢/ ٢٥٤. صفة الصّفوة، لأبي الفرج بن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمّد رواس قلعجي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م: ٣/ ٢٩١. الإصابة: ١/ ١٩٨.

(٢) أهوال القبور، ص:١٣٨.

(٣) ثابت بن أسلم أبو محمّد البُناني البصري، التّابعي الجليل، إمام، قدوة، حجّة، عابد ورع، رأس في العلم والعمل، كبير القدر، صحب أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أربعين سنة، توفي سنة ١٢٣، وقيل: ١٢٧هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٢٣٢. طبقات خليفة، ص:٢١٤. التّاريخ الكبير: ٢/ ١٥٩. معرفة الثّقات: ١/ ٢٥٩. الجرح والتّعديل: ٢/ ٤٤٩. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٨٩. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٩. التّعديل والتّجريح: ١/ ٤٤٥، تهذيب الكمال: ٤/ ٣٤٢. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٢٥. الكاشف: ١/ ٢٨١. جامع التّحصيل، ص:١٥١. تهذيب التّهذيب: ٢/ ٣. تقريب التّهذيب: ١/ ١٣٢. لسان الميزان: ٧/ ١٨٧.

(٤) أهوال القبور، ص:١٣٨.

(٥) أوردها صاحب المرجع السّابق ونسبها إلى الرّياشي، ص:١٤٠.

المطلب الخامس

حبّ لقاء الله تعالى

عن عُبَادَةَ بن الصّامِتِ رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ لقاء الله أحبّ اللهُ لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه». قالت عائشة ـ أو بعض أزواجه ـ: إنّا لنكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموتُ بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبّ إليه ممّا أمامه، فأحبّ لقاء الله، وأحبّ الله لقاءه. وإنّ الكافر إذا حُضر بُشِّرَ بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه ممّا أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه»(1).

لقد بيّن النّبي ﷺ أنّ العبد متى ما أحبّ لقاء ربّه كافأه الله على ذلك بحبّ لقائه. ويعضد ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه القدسي حيث قال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «قال الله: إذا أحبّ عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه»(2).

ولقاء الله يتضمّن رؤيته سبحانه، ولازم ذلك نيل ثوابه، والفوز بجنّته، والسّعادة برحمته، ولا يتأتّى ذلك للعبد إلّا إذا أحسن العمل وجانب الزّلل، وداوم على الطّاعة، وهجر المعصية، ويوضّح ذلك ما جاء على لسان عائشة رضي الله عنها حين ذكر لها الحديث: «من أحبّ لقاء الله... ومن كره لقاء الله...» فقالت: «إنّ الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً قَيَّضَ له قبل موته مَلَكاً

(1) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب الرّقاق: (51/ 55). باب من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه: (41)، برقم: (6507)، وجزء منه برقم: (6508). عن أبي موسى رضي الله عنه. ص: 1383 ـ 1384.
صحيح مسلم: نحوه في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (48). باب من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه: (5). برقم: (2684). عن عائشة رضي الله عنها. وبرقم: (2685). عن أبي هريرة رضي الله عنه. وجزء منه برقم (2683). عن عبادة رضي الله عنه. وبرقم: (2684). عن عائشة رضي الله عنها، وبرقم: (2686)، عن أبي موسى رضي الله عنه. 4/ 2065 ـ 2067.

(2) صحيح البخاري: بلفظه في: كتاب التّوحيد: (97/ 72). باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: 15]: (35): برقم: (7504). ص: 1574.

يسدّده ويبشّره، حتّى يموت وهو على خير ما كان، ويقول النّاس مات فلان على خير ما كان، فإذا حُضر ورأى ثوابه من الجنّة، فجعل تتهوّع نفسه، ودّ لو خرجت نفسه، فذاك حين أحبّ لقاء الله وأحبّ الله لقاءه، وإذا أراد بعبد شرّاً قيّض له شيطاناً قبل موته بعام، فجعل يفتنه ويضلّه حتّى يموت على شرّ ما كان، ويقول النّاس: مات فلان على شرّ ما كان، فإذا حُضر ورأى منزله من النّار، فجعل يتبلّع نفسه أن تخرج، هناك حين كره لقاء الله وكره الله لقاءه»[1].

فهو حديث كاشف عن الدّافع لحبّ لقاء الله، وهو الاستقامة على طاعة الله ومفارقة المعصية. ولكن ثمّة عقبة كؤود تعترض ذلك اللّقاء، وتحول دون الوصول إليه، إنّها الموت. ولكن حبّ اللّقاء يدفع صاحبه على الصّبر على شدّة الموت وقسوته.

ولذا قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقول عائشة: «والموت دون لقاء الله»[2]، يبيّن أنّ الموت غير اللّقاء، ولكنّه معترض دون الغرض المطلوب، فيجب أن يصبر عليه ويحتمل مشاقّه حتّى يصل إلى الفوز باللّقاء»[3].

فحبّ لقاء الله عامل مؤثّر معين على الثّبات عند الموت لأنّه يزّلل من صعابه، ويهوّن من مشاقّه لشوق ذلك المحبّ لمحبوبه، ورجاء مأموله، فيهون من أجله كلّ قاسي، وسهل في طلبه كلّ شاقّ، ولو كان الموت.

وذلك كلّه لا ينفي كراهية المؤمن للموت، فهو مكروه مبغض، وحبّ اللّقاء لا يعني حبّه، ولذلك لمّا قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لرسول الله ﷺ: «يا نبي الله أكراهية الموت؟ فكلّنا نكره الموت؟ فقال: ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشّر برحمة الله ورضوانه وجنّته أحب لقاء الله فأحبّ الله لقاءه، وإنّ الكافر إذا بشّر

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص:١٠١١.

(٢) هذه الجزئيّة وردت في صحيح مسلم بلفظ: «والموت قبل لقاء الله». كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨): باب من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه: (٥). برقم: (٢٦٨٤). (٤/٢٠٦٦). ولم أقف عليه باللّفظ الّذي أورده الحافظ.

(٣) فتح الباري: ١١/ ٣٦٠. طبعة دار المعرفة.

بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه»[1].

ولذلك بيّنت رضي الله عنها الموضع الّذي يقع فيه ذلك الحبّ، وتلك الكراهية، فقالت لمن أشكل عليه ما أشكل عليها أوّلاً: «ليس بالّذي تذهب إليه. ولكن إذا شَخَص البصر[2]، وحَشْرَج الصّدر، واقْشَعَرَّ الجلد[3]، وَتشَنَّجَت الأصابع[4]، فعند ذلك من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[5].

قال النّووي رحمه الله:

«إنّ الكراهة المعتبرة هي الّتي تكون عند النّزع في حالة لا تقبل توبته ولا غيرها، فحينئذ يبشّر كل إنسان بما هو صائر إليه وما أعدّ له، ويكشف له عن ذلك، فأهل السّعادة يحبّون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أعدّ لهم، ويحبّ الله لقاءهم أي فيجزل لهم العطاء والكرامة، وأهل الشّقاوة يكرهون لقاءه لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله لقاءهم أن يبعدهم عن رحمته وكرامته ولا يريد ذلك بهم»[6].

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص:١٠٣٢، وهذا اللّفظ في صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٦٥ ـ ٢٠٦٦.

(٢) شخَص بصرُه: شُخوص البَصر ارْتِفاعُ الأجْفان إلى فَوْق وتَحْديدُ النّظر وانْزِعاجه. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٥٠.

(٣) اقْشَعرّ الجلد: أي تَقَبَّضَ وتَجمَّعَ، انظر: المرجع السّابق: ٤/٦٦.
وقال النّووي رحمه الله:
«اقشعرار الجلد فهو قيام شعره». شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ١١.

(٤) تشنّجتِ الأصابعُ: أي انقَبَضت وتَقَلَّصت. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٥٠٣.

(٥) سبق تخريجه انظر: ص:١٠٣٢، وهذا اللّفظ في صحيح مسلم: ٤/٢٠٦٦.

(٦) شرح النّووي على مسلم: ١٧/ ٩ ـ ١٠. وانظر: فتح الباري: ١١/ ٣٦٠، طبعة: دار المعرفة. وتحفة الأحوذي: ٤/ ١٥٠ ـ ١٥١.
كلام النّووي رحمه الله فيه تأويل للقاء الله، لأنّه أقامه مقام ثواب المطيع، ومعاقبة العاصي، علماً بأنّ النّووي رحمه الله ممّن يثبت رؤية الله يوم القيامة ولا ينفي ذلك كما يفعل المعتزلة. والأولى أن يفسّر لقاء الله برؤيته ومشاهدته لأنّ هذا معنى اللّقاء، ولازم ذلك ثواب المطيع، ومعاقبة العاصي.
قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:
=

فكراهية الموت أمر طبعي في النّفوس لأنّها تنفر عن المكروه والضّرر، وما يصعب ويشقّ عليها، وذلك يجده كلّ أحد، ولكن من غلب عليه حبّ الله، واشتاقت نفسه إلى لقائه لم يعبأ بألم الموت وشدّته، بل لعله يستعذب ذلك ويستلذ به، وهذا مقام لا يتأتّى لكلّ أحد، وعليه يحمل قول معاذ ﷺ في الموت: «حبيب جاء على فاقة، لا أفلح اليوم من ندم». وكان يقول عند اشتداد السّكرات: «اخنقني خنقك، فوحقّك إنّ قلبي ليحبّك»[(١)].

المطلب السّادس

غلبة الرّجاء وحسن الظّن

كلّ عبادة يتعبّدها المرء لا بد لها من أمرين يكتنفانها. أحدها: الخوف، والثّاني: الرّجاء.

أمّا الخوف فقد أمر الله به عباده في أكثر من آية. فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]، وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

ومدح أهله وأثنى عليهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾

= «في كراهة الموت في حال الصّحة تفصيلاً: فمن كرهه إيثاراً للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذموماً، ومن كرهه خشية أن يفضي إلى المؤاخذة كأن يكون مقصّراً في العمل لم يستعد بالأهبة بأن يتخلّص من التّبعات، ويقوم بأمر الله كما يجب فهو معذور، لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة حتّى إذا حضره الموت لا يكرهه بل يحبّه لما يرجو بعده من لقاء الله تعالى». فتح الباري: ١١/ ٣٦١، طبعة: دار المعرفة.

(١) انظر: المفهم: ٢/ ٦٤٤.
أثر معاذ ﷺ الأوّل أورده ابن أبي شيبة في مصنّفه عن حذيفة ﷺ، ولفظه: «دخل أبو مسعود الأنصاري على حذيفة في مرضه الّذي مات فيه فاعتنقه فقال: الفراق؟ فقال: نعم حبيب جاء على فاقة، ألا أفلح من ندم، أليس بعد ما أعلم من اليقين؟»: ٧/ ٤٥٨.
وفي مستدرك الحاكم نحوه عن حذيفة ﷺ أيضاً، في: ٤/ ٥٤٧.
وأثره الثّاني أيضاً أورده ابن أبي شيبة في مصنّفه عن شهر بن حوشب قال: أخذت معاذ قرحة في حلقه فقال: «اخنقني خنقك فوعزّتك إنّي لأحبّك»: ٧/ ١٢٦.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٦١].

وقال ﷺ: «إنّي لأعلمكم بالله وأشدّكم له خشية»[١].

والخوف ليس مقصوداً لذاته، بل هو مقصود لغيره كقصد الوسائل، ولذا يزول بزوال المخوف، والصّادق منه ما حال بين صاحبه وبين محارم الله تعالى، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط، وكلّما كان العبد أعلم بالله وأقرب إليه، زاد خوفه منه، وعظمت هيبته وإجلاله في قلبه[٢].

قال إبراهيم بن سفيان رحمه الله[٣]:

«إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشّهوات منها، وطرد الدّنيا عنها».

وقال ذو النّون[٤]:

«النّاس على الطّريق ما لم يزل عنهم الخوف، فإذا زال عنهم الخوف ضلّوا الطّريق»[٥].

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص:٥٤٣. (٢) انظر: مدارج السّالكين: ١/ ٥١٤.

(٣) إبراهيم بن سفيان أبو بكر الطّهراني، شيخ ثقة، كتب الكثير بالعراق وأصبهان. وانظر: طبقات المحدّثين بأصبهان، لأبي محمّد عبد الله بن محمّد بن جعفر بن حيان الأنصاري. تحقيق: عبد الغفور عبد الحقّ حسين البلوشي. طبعة: مؤسّسة الرّسالة. بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢: ٤/ ٢٨٢.

(٤) هو ثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، أبو الفيض ذو النّون المصري الزّاهد، الواعظ الصّوفي. أصله من النّوبة، له أحوال وعبارات تضاهي أحوال المتصوّفة وعباراتهم، ولذا أنكر عليه أهل العلم في عصره وهجروه ورموه بالزّندقة، توفي سنة٢٤٥هـ. وانظر: طبقات الصّوفيّة، لأبي عبد الرّحمٰن محمّد بن الحسين بن محمّد بن موسى الأزدي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٩٩٨م، ص:٢٧. حلية الأولياء: ٩/ ٣٣١، ٣٩١، تاريخ بغداد: ٨/ ٣٩٣. وفيات الأعيان: ١/ ٣١٥. سير أعلام النّبلاء: ١١/ ٥٣٢. العبر: ١/ ٣٥٠. ميزان الاعتدال: ٣/ ٥٣. البداية والنّهاية: ١٠/ ٣٤٧. لسان الميزان: ٢/ ٤٣٧. النّجوم الزّاهرة: ٢/ ٣٢٠. شذرات الذّهب: ٣/ ٢٠٦. الأعلام: ٢/ ١٠٢.

(٥) ذكر القولين الإمام ابن القيّم رحمه الله في: مدارج السّالكين: ١/ ٥١٣.

وإمّا الرّجاء فقد ورد ذكره في القرآن أيضاً، فقال سبحانه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومدح أهله وأثنى عليهم كما أثنى على أهل الخوف فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: «يا ابن آدم إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي...» الحديث[١].

والرّجاء يكون مع بذل الجهد، وحسن التّوكّل، ولا يصحّ إلّا مع العمل، ومنه ما هو محمود: كرجل عمل بطاعة الله، على نور من الله، فهو راجٍ لثواب الله. ورجل أذنب ثمّ تاب، فهو راجٍ لمغفرة الله وعفوه. فهذان ممدوحان.

وأمّا المذموم فرجل متمادٍ في الخطايا مفرّط، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا مغرور، ورجاؤه كاذب.

والرّجاء ضروري للعبد، بل لا ينفك عن أحد ألبتّة، فهو دائر بين ذنب يرجى غفرانه، وعيب يرجى إصلاحه، وعمل صالح يرجى قبوله، واستقامة يرجى حصولها ودوامها، وقرب من الله ومنزلة عنده يرجى الوصول إليها، بل هو سبب عظيم ينال به العبد ما يرجوه من ربّه[٢].

والخوف والرّجاء كجناحي طائر إذا استويا استوى الطّائر وتمّ طيرانه، وإن نقص أحدهما وقع في الطّائر النّقص، وإن ذهب أحدهما أو كلاهما صار الطّائر عرضة للهلاك[٣].

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص٥٨١.
(٢) مدارج السّالكين: ٢/ ٣٧ ـ ٤٥، بتصرّف.
(٣) المرجع السّابق: ٢/ ٣٦.

ولذا جمع الله بينهما في غير موضع، فقال عزّ شأنه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: ٩].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، أي في حال عبادته خائف راجٍ، ولا بد في العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف في مدّة الحياة هو الغالب... فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرّجاء هو الغالب عليه»(١).

عن أنس رضي الله عنه أنّ النّبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال: «كيف تجدك»؟ قال: والله يا رسول الله إنّي أرجو الله، وإنّي أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلّا أعطاه الله ما يرجو وأمّنه ممّا يخاف»(٢).

أي لا يجتمع الخوف والرّجاء في قلب العبد عند سكرات الموت ومفارقة الحياة إلّا أعطاه الله ما يرجوه من الرّحمة، وأمّنه ممّا يخافه من العقوبة بالعفو والمغفرة(٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٧٢.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٧)، باب: (١١)، برقم: (٩٨٣)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حسن»، ص: ١٧٧.
سنن ابن ماجه، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب ذكر الموت والاستعداد له: (٣١)، برقم: (٤٢٦١). قال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حسن»، ص: ٤٥٩.
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٦/ ٥٧، برقم: (٣٣٠٣). قال محقّقه: «رجاله رجال الصّحيح».
انظر: تحفة الأحوذي: ٤/ ٥٠.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه وبلفظ مقارب في: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، =

ولكن ينبغي أن يغلّب عند الموت جانب الرّجاء على الخوف، وأنّ الله تعالى يرحمه ويعفو عنه، ويتجاوز عن سيئاته، وذلك حسن الظّن الّذي عناه النّبي ﷺ في حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما حين قال: سمعت رسول الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظّنّ بالله عز وجل»[1]. وذلك عند انقطاع العمل، وتبدّد الأمل في بقاء وحياة، ولم يتبقّ له إلّا التّعلّق بعفو الله ورحمته، وعظيم فضله، ورجاء كرمه.

ورحمة الله تسبق غضبه، والعفو أحبّ إليه من الانتقام، والمسامحة أحبّ إليه من الأخذ والاستقصاء، والتّرك أولى عنده من الاستيفاء، والمغفرة لا تنقص ذرة من ملكه، وهو لا يتشفّى بعقاب عبده، ولا يوصد بابه أمام ثوابه[2]. وهو القائل: «إنّ رحمتي غلبت غضبي»[3].

= باب الأمر بحسن الظّن بالله تعالى عند الموت: (١٩)، برقم: (٢٨٧٧)، ٤/ ٢٢٠٥ ـ ٢٢٠٦.

(١) انظر: مدارج السّالكين: ٢/ ٤٥ ـ ٤٦.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب بدء الخلق: (٥٩/ ٣٥)، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الرّوم: ٢٧]: (١)، برقم: (٣١٩٤)، ص:٦٧٥، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]: (١٥)، برقم: (٧٤٠٤)، إلّا إنّه قال: «تغلب»، ص:١٥٥٤، وبلفظه إلّا إنّه قال: «سبقت»، في: باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧]: (٢٢)، برقم: (٧٤٢٢)، ص:١٥٥٨، وفي باب ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصّافات: ١٧١]: (٢٨)، برقم: (٧٤٥٣)، ص:١٥٦٦، وفي باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢]: (٥٥)، برقم: (٧٥٥٤)، وبلفظ مقارب برقم: (٧٥٥٣)، ص:١٥٨٧، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
صحيح مسلم، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «تغلب» ـ، وبلفظ مقارب في: كتاب التّوبة: (٤٩)، باب في سعة رحمة الله، وأنّها سبقت غضبه: (٤)، برقم: (٢٧٥١)، ٤/ ٢١٠٧ ـ ٢١٠٨.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]: (١٥)، برقم: (٧٤٠٥)، ص:١٥٥٤. وانظر: باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]: (٣٥)، برقم: (٧٥٠٥)، ص:١٥٧٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والله عفو كريم يعطي عبده حسب ظنّه به. وقد قال سبحانه في الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني...» الحديث[1].

قال ابن مسعود ﷺ:

«الله الّذي لا إله غيره: لا يحسن أحد الظّنّ بالله إلّا أعطاه الله ظنّه، وذلك أنّ الخير بيده».

وقال ابن عبّاس ﷺ:

«إذا رأيتم بالرّجل الموت فبشّروه ليلقى ربّه وهو حسن الظّنّ به، وإذا كان حيّاً فخوّفوه».

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله:

«الخوف أفضل من الرّجاء ما كان العبد صحيحاً، فإذا نزل به الموت فالرّجاء أفضل من الخوف»[2].

وقال البربهاري رحمه الله:

«واعلم أنّه ينبغي للعبد أن تصحبه الشّفقة أبداً ما صحب الدّنيا لأنّه لا يدري على ما يموت، وبما يختم له، وعلى ما يلقى الله ﷻ وإن عمل كلّ عمل من الخير، وينبغي للرّجل المسرف على نفسه أن لا يقطع رجاءه عند الموت، ويحسن ظنّه بالله، ويخاف ذنوبه فإنّ رحمه الله فبفضل، وإن عذّبه فبذنب»[3].

ولذا كان السّلف رحمهم الله تعلّق قلوبهم عند الموت بعفو الله، وتتشبّث أفئدتهم برحمته، فيحسن ظنّهم بربّهم، ويغلب رجاؤهم به على خوفهم منه،

---

(١) صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب الحثّ على ذكر الله تعالى: (١)، برقم: (٢٦٧٥)، ٤/٢٠٦١، وفي باب فضل الذّكر والدّعاء والتّقرب إلى الله تعالى: (٦)، ٤/٢٠٦٧ ـ ٢٠٦٨، وفي كتاب التّوبة: (٤٩:، باب في الحضّ على التّوبة والفرح بها: (١)، ٤/٢١٠٢.

(٢) أورد هذه الآثار القرطبي رحمه الله في التّذكرة، ص:٣٣.

وأثر ابن عبّاس ﷺ أورد ابن المبارك رحمه الله في الزّهد قريباً منه، برقم: (٤٤١)، ص:١٤٩.

(٣) كتاب شرح السّنّة، ص:٣٩ ـ ٤٠.

لعلمهم بسعة فضله، وجزيل ثوابه، وإن كثرت ذنوب أحدهم في نظره، وعظمت خطاياه في حياته.

عن داود بن أبي هند[1] رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «تمثّل معاوية عند الموت:

هو الموت لا منجا من الموت والّذي نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع

ثمّ قال: «اللّهم فأقل العثرة، وعاف من الزّلّة، وجد بحلمك على جهل من لم يرج غيرك، ولم يثق إلّا بك، فإنّك واسع المغفرة، ليس لذي خطيئة مهرب إلّا أنت»، قال: فبلغني أنّ هذا القول بلغ سعيد بن المسيّب رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: «لقد رغب إلى من لا مرغوب إليه مثله، وإنّي لأرجو ألّا يعذّبه الله عَزَّ وَجَلَّ»[2].

وعن محمّد بن المنكدر رَحِمَهُ اللَّهُ قال: كان عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ يبغض الحجّاج، فنفّس عليه بكلمة قالها عند الموت: «اللّهم اغفر لي فإنّهم زعموا أنّك لا تفعل»... فبلغ ذلك الحسن البصري فقال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: «عسى»[3].

فإذا تبيّن هذا، فعلى المؤمن أنّ يعلم أنّ الخوف من الله، والخشية منه، ورجاءه سبحانه، وحسن الظّنّ به عوامل مؤثّرة، معينة للعبد على الثّبات خاصّة عند الموت، حين ينقطع أمله في الحياة، ويتيقّن عدم البقاء، فليس له هنالك إلّا أرحم الرّاحمين، الّذي يؤمّن من خافه، ولا يخيّب من أحسن الظّنّ به ورجاءه، فأعانه بالصبّر، وثبّته عند الموت.

---

(١) هو داود بن دينار، ويقال ابن طهمان أبو محمّد أو أبو بكر البصري القشيري مولاهم. رأى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إمام ثبت من حفّاظ أهل البصرة ومفتيهم، رأس في العلم والعمل، ومن أهل الورع والفضل، ثقة متقن، يهم بأخرة، توفي سنة ١٤٠هـ، وقيل: قبلها.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٢٥٥. طبقات خليفة، ص:٢١٨. التّاريخ الكبير: ٣/ ٢٣١. معرفة الثّقات: ١/ ٣٤٢. الجرح والتّعديل: ٣/ ٤١١. ثقات ابن حبّان: ٦/ ٢٧٨. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٥١. تهذيب الكمال: ٨/ ٤٦١. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٤٦. الكاشف: ١/ ٣٨٢. تهذيب التّهذيب: ٣/ ١٧٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٠٠.

(٢) حسن الظّن بالله، لابن الدّنيا، تحقيق: مخلص محمّد، طبعة: دار طيبة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص:١٠٦.

(٣) المرجع السّابق، ص:١٠٧.

المطلب السّابع

الدّعاء بالثّبات عند الموت

لقد كان من دعاء عباد الله الصّالحين أن يتوفّاهم الله حين انقضاء آجالهم وهم متمسّكون بالطّاعات ملازمون لها، مجانبون للمعاصي مفارقون لها، مصاحبون للأبرار معدودون في زمرتهم، مجافون للفجّار حائدون عن صحبتهم، وفي ذلك يقول عنهم المولى ﷻ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران: ١٩٣].

وقد كان ذلك مطلب يوسف عليه السلام حين دعا ربّه عند انقضاء أجله وذهاب عمره أن يميته على الإسلام، ويثبّته عليه. وذلك في قوله: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

قال ابن كثير رحمه الله:

«هذا دعاء من يوسف الصّدّيق، دعا به ربّه ﷻ لمّا تمّت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما منّ الله به عليه من النّبوّة والملك، سأل ربّه ﷻ كما أتمّ نعمته عليه في الدّنيا أن يستمرّ بها عليه في الآخرة، وأن يتوفّاه مسلماً حين يتوفّاه... وأن يلحقه بالصّالحين، وهم إخوانه من النّبيّين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وهذا الدّعاء يحتمل أنّ يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره، كما ثبت في الصّحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللّهمّ في الرّفيق الأعلى، ثلاثاً»[1]. ويحتمل أنّه سأل الوفاة على الإسلام واللّحاق بالصّالحين إذا جاء أجله، وانقضى عمره، لا أنّه سأل ذلك منجزاً كما يقول الدّاعي لغيره: أماتك الله على الإسلام... ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان ذلك سائغاً في ملّتهم»[2].

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص: ٩٨٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٦٠ ـ ٧٦١.

والاحتمال الثّاني هو الّذي رجّحه جمهور أهل العلم(١).

وكذلك فعل سحرة فرعون عندما أراد أن ينكّل بهم، فخشوا أن تزلّ أقدامهم، وتضعف قواهم، وتنحلّ عزائمهم عند حلول بطش فرعون بهم، ووقوع ما هدّدهم به عليهم، فيعودون إلى الكفر بعد الإيمان، فتقرّ عين فرعون وأتباعه بردّتهم، ولذا لجئوا إلى القوي العزيز الغالب على أمره، متضرّعين إليه أن يثبّتهم على الحقّ إذا دهمهم نكال فرعون، فيلقوه سبحانه وهم بالإسلام مستمسكون، وعلى الهدى ماكثون، غير حائدين ولا زائغين، حيث قالوا لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَاۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢٦].

قال الشّوكاني رحمه الله بعد إيراده لخطابهم لفرعون:

«ثمّ تركوا خطابه، وقطعوا الكلام معه، والتفتوا إلى خطاب الجناب العلي مفوّضين الأمر إليه، طالبين منه عز وجل أن يثبّتهم على هذه المحنة بالصبّر، قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ الإفراغ: الصّب، أي اصببه علينا حتّى يفيض ويغمرنا، طلبوا أبلغ أنواع الصّبر استعداداً منهم لما سينزل بهم من العذاب من عدوّ الله، وتوطيناً لأنفسهم على التّصلّب في الحقّ، وثبوت القدم على الإيمان، ثمّ قالوا: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي توفّنا إليك حال ثبوتنا على الإسلام غير محرّفين ولا مبدّلين ولا مفتونين»(٢).

فالدّعاء له عظيم الأثر في التّثبيت عند الموت، لأنّ العبد يلجأ فيه إلى مولاه وهو في أشدّ حالات الافتقار إليه، مع عظم الضّعف وشدّة الحاجة، فينبعث دعاؤه من قلب مخلص وجل فيستجيب له المولى ويؤيّده بالتّثبيت، ويعينه بالصّبر فيسلم من السّقوط، وينجو من الهلاك.

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ٩/ ٢٦٩. فتح القدير: ٣/ ٥٧. وقد سبق التّفصيل عن الدّعاء بالموت وتمنّيه في باب الثّبات عند الفتن. انظر: ص: ٢٢١ فما بعدها.

(٢) فتح القدير: ٢/ ٢٣٥. وانظر: أنوار التّنزيل: ٣/ ٤٩. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٨١.



الموت مكتوب على الخلائق، مقدّر على الجميع، لا ينجو منه هارب، ولا يفلت منه فار

إنّ الله تعالى خلق عباده وقدّر لهم آجالاً إليها ينتهون، فلا يتقدّمون عنها ولا يتأخّرون، كما قال سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠﴾ [الواقعة: ٦٠].

وكتب أجل كلّ منهم في كتاب عنده لا يزاد فيه ولا ينقص منه، كما قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وجعله حتماً لازماً لا بد لكلّ نفس من تجرّع غصصه، ولو كان الميّت رسولاً أو نبيّاً أو وليّاً، حيث قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ [العنكبوت: ٥٧].

يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يخبر تعالى إخباراً عامّاً يعمّ جميع الخليقة بأنّ كلّ نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمٰن: ٢٦ ـ ٢٧]، فهو تعالى وحده هو الحي الّذي لا يموت، «والجنُّ والإنسُ يموتون»[1]، وكذلك الملائكةُ وحملة العرش، وينفردُ الواحد الأحد

(١) هذا لفظ حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ جزء من حديث ـ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، في كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: (٧)، برقم: (٧٣٨٣)، ص: ١٥٥١. =

القهّار بالدّيمومة والبقاء، فيكون آخراً كما كان أوّلاً، وهذه الآية فيها تعزية لجميع النّاس، فإنّه لا يبقى أحدٌ على وجه الأرض حتّى يموت»[1].

إذ لا باقي إلّا الله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فهو الدّائم السّرمدي الأبدي الّذي لا يموت ولا يفنى، وحياته دائمة لا تنقطع ولا تبيد:

قَضَى على خلقه المَنايا ... فكُلّ حَيٍّ سِواهُ فانِ[2]

وهو الوارث لجميع خلقه بعد فنائهم وانقضاء آجالهم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾ [مريم: ٤٠].

وهو المحيي المميت الّذي بيده الإحياء والإماتة لا بيد العباد، وليس في مِلكهم ومقدرتهم، كما قال عزّ من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١٥٦﴾ [آل عمران: ١٥٦].

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾، والله المعجّل الموت لمن يشاء من حيث يشاء، والمميت من يشاء، دون غيره من سائر خلقه.

وهذا من الله ﷻ ترغيب لعباده المؤمنين على جهاد عدوّه، والصّبر على قتالهم، وإخراج هيبتهم من صدورهم، وإن قلّ عددهم وكثر عدد أعدائهم وأعداء الله، وإعلام منه لهم أنّ الإماتة والإحياء بيده، وأنّه لن يموت أحد ولا يقتل إلّا بعد فناء أجله الّذي كُتب له، ونهي منه لهم إذا كان كذلك أن يجزعوا لموت من مات منهم، أو قتل من قتل منهم في حرب المشركين»[3].

= صحيح مسلم، في كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار: (٤٨)، باب التّعوّذ من شرّ ما عمل، ومن شرّ ما لم يعمل: (١٨)، برقم: (٢٧١٧)، ٤/ ٢٠٨٦.

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٥٢.

(٢) شرح ديوان أبي العتاهية، ص: ٢٧٠.

(٣) جامع البيان: ٤/ ١٤٨ ـ ١٤٩.

والعبد لا يمكنه أن يدفع غائلة الموت عن نفسه مهما بلغ حرصه عليها، ولذا عاب الله على أهل النّفاق تثبيطهم عن الجهاد بزعمهم أنّ القعود عنه ينجي من الموت، فقال سبحانه في شأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أي إن كنتم صادقين إنّكم تقدرون على دفع القتل عمّن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه، فإنّه أحرى بكم، والمعنى أنّ القعود غير مغنٍ عن الموت، فإنّ أسباب الموت كثيرة، كما أنّ القتال يكون سبباً للهلاك، والقعود سبباً للنّجاة، قد يكون الأمر بالعكس»[1].

فالموت لا ينجي منه هَرَب، ولا يغني منه جَزَع، ولا يدفع عنه حذر، ولو تُحصّن منه بالقصور المنيعة، والمساكن الرّفيعة قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍۗ﴾ [النساء: ٧٨].

ولا يرجع عن أحد حلّ بنفسه، ولا يفارقه بعد أن أناخ ببابه، ولزم ركابه، مهما أبدى من الأعذار، وأكثر من الأقوال. يقول المولى عَزَّ وَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

ولا ينجو منه فار، ولا يسلم منه هارب، وقد أبان الله ذلك لليهود مع كراهيتهم له، وخوفهم منه، في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨﴾ [الجمعة: ٨].

وأنذر المنافقين بأنّ فرارهم منه لا يزيد في أعمارهم، ولا يؤخّر في آجالهم، بل بقاؤهم في الدّنيا إلى قدر مقدور، وأجل مكتوب، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٦﴾ [الأحزاب: ١٦].

وحكى قصّة عجيبة حدثت لمن قبلنا، حيث حلّ بديارهم وباء قاتل،

(١) أنوار التّنزيل: ٢/ ١١٣.

فخرجوا في كثرة كاثرة فراراً من الموت، وحذراً من الهلاك، فما أغنى عنهم ما كانوا يحذرون، وعوملوا بنقيض ما يقصدون، فأماتهم الله من آخرهم، فهلكوا جميعاً ثمّ أحياهم عبرة لكلّ معتبر، ودلالة على أن الحذر لا ينجي من القدر، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وقد أصاب من قال:

وكفى بالموت فاعلم واعظاً ... لمن الموت عليه قد قدر
فاذكر الموت واحذر ذكره ... إنّ في الموت لذي اللّبّ عبر
كلّ شيء سوف يلقى حتفه ... في مقام أو على ظهر سفر
والمنايا حوله ترصده ... ليس ينجيه من الموت الحذر(١)

ولم يطمع الله بشراً في الخلود في الأرض ولو فعل لكان أولى بذلك رسول الله ﷺ، ولكنّه سلك طريقاً سلكه قبله الأنبياء وغيرهم، وشرب من كأس لا بد لكلّ عبد أن يتجرّع منها ولو طال به المدى، وامتدّ به العمر. وقد قال تعالى لرسوله ﷺ: «﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وقال له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١].

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضي الله عنه كثيراً ما يتمثّل بهذه الأبيات:

لا شيء ممّا ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودي(٢) المال والولد

---

(١) ذكرها القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ١٨/ ٩٦ ـ ٩٧، ونسبها إلى طرفة بن العبد، ولم أقف عليها في ديوان طرفة.

(٢) يقال: أَوْدَى به المَنُون: أي أَهْلَكه، واسم الهَلاكِ من ذلك الوَدَى، وقلّما يُستعمل، والمصدر الحقيقي الإِيداء. ويقال: أَوْدَى بالشيء ذَهَب به. لسان العرب: ١٥/ ٣٨٥، بتصرّف يسير. وانظر: القاموس المحيط، ص:١٧٢٩.

لم تغن عن هرمز[1] يوماً خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذا تجري الرّياح له	والإنس والجنّ فيما بينها ترد
أين الملوك الّتي كانت لعزّتها	من كلّ أوب[2] إليها وافد يفد
حوض هنالك مورود بلا كذب	لا بد من ورده يوماً كما وردوا[3]

ونحو ذلك يقول الشّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

تمنّى رجال أن أموت وإن أمت	فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للّذي يبغي خلاف الّذي مضى	تهيّأ لأخرى مثلها فكأن قد[4]

فإذا علم العبد ما سبق وطّن نفسه على حلول الموت بها، وأنّه ذاهب لا محالة، وأنّه مفارق لهذه الحياة لا شك في ذلك، واستيقن أنّه ميّت لا مرية فيه، فرفعه ذلك إلى ملازمة الطّاعات، ومجانبة المنكرات، والثّبات على ذلك حتّى يحلّ بنفسه مفرّق الجماعات.

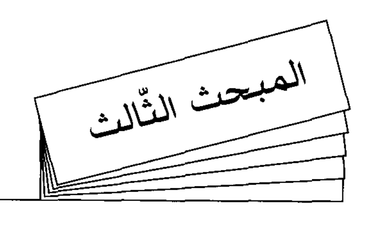


(١) هرمز بن سابور، تولّى ملك الفرس بعد أبيه، وكان يلقّب بالجريء لشجاعته، شديد البطش مع عدل فيه، وهو الّذي بنى مدينة رامهرمز، ملك سنة وعشرة أيّام ثمّ قام بالملك بعده ابنه بهرام.
وانظر: تاريخ الطّبري: ١/٣٩٦ ـ ٣٩٧، طبعة: دار الكتب العلميّة. تاريخ اليعقوبي: ١/١٦١. المنتظم: ٢/٨٢. الكامل في التّاريخ: ١/٢٩٩، طبعة: دار الكتب العلميّة.

(٢) مِنْ كُلّ أَوْبٍ: أي من كلّ طَرِيقٍ ووجْهٍ وناحِيةٍ. لسان العرب: ١/٢٢٠. وانظر: القاموس المحيط، ص:٧٦.

(٣) التّذكرة، ص:٩. وأبيات الشّعر نسبها ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ لورقة بن نوفل، وأشار إلى أنّ بعضها لأميّة بن أبي الصّلت. انظر: البداية والنّهاية: ٢/٢٩٨.

(٤) ديوان الإمام الشّافعي، جمع وشرح الأستاذ عبد العزيز سيّد الأهل، طبعة: المجلس الأعلى للشّؤون الإسلاميّة بالقاهرة، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، ص:٢٨.



الآجال محدودة والأعمار معدودة

إنّ الله تعالى جعل لكلّ أحد من الخلق أجلاً معيّناً، ووقتاً محدوداً، فإذا جاء أجله، وحلّ وقت زواله لا يتقدّم عنه برهة من الزّمن ولا يتأخّر، لا الأمم مجتمعه ولا أفرادها. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾﴾ [الحجر: ٤ ـ ٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا﴾ يا محمّد من أهل قرية من أهل القرى الّتي أهلكنا أهلها فيما مضى ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ يقول: إلّا ولها أجل موقّت ومدّة معروفة، لا نهلكهم حتّى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك، فيقول لنبيّه محمّد ﷺ: فكذلك أهل قريتك الّتي أنت منها وهي مكّة، لا نهلك مشركي أهلها إلّا بعد بلوغ كتابهم أجله، لأنّ من قضائي أن لا أهلك أهل قرية إلّا بعد بلوغ كتابهم أجله... ما يتقدّم هلاك أمّة قبل أجلها الّذي جعله الله أجلاً لهلاكها، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الّذي جعل لها أجلاً»[1].

فهذا عن الأمم، وقال عن الأفراد: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

أي بأجل محدود مقيّد، إلى وقت معلوم بقضاء من الله مبرم، وقدر محكم.

---

(١) جامع البيان: ١٤/٥ ـ ٦.

فالآجال محدودة بأزمنة وأمكنة لا يتخطّاها المرء ولا يتعدّاها، ولو سلك كلّ سبيل، واتخذ كلّ سبب يظنّ أنّه يفلت به من أجله، كما زعم المنافقون ذلك فأكذبهم الله وردّ عليهم زعمهم فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٤][1]، ففي الآية توقيت لزمن الموت وتحديد لموضعه.

ولو أنّ العباد استحقّوا الهلاك والفناء بسبب ظلمهم ما بادرهم الله بذلك حتّى يبلغوا منتهى أعمارهم وغاية آجالهم، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: ٦١][2].

ويقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾ [فاطر: ٤٥].

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ:

«ولو يعاقب الله النّاس ويكافئهم بما عملوا من الذّنوب والمعاصي، واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهرها من دابّة تدبّ عليها، ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى، يقول: ولكن يؤخّر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل معلوم عنده، محدود لا يقصرون دونه، ولا يجاوزونه إذا بلغوه»[3].

---

(١) وانظر: يسير الكريم الرّحمٰن، ص:١٢١.

(٢) وانظر معنى الآية في: جامع البيان: ١٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦. معالم التّنزيل: ٣/ ٧٤. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١١٩ ـ ١٢٠. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٨٩.

(٣) جامع البيان: ٢٢/ ١٤٧.

المقتول ميّت بأجله لا كما تزعم المعتزلة أنّه مقطوع عنه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله فكأنّه له أجلان، وهذا باطل لأنّه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنّه جعل له أجلاً يعلم أنّه لا يعيش إليه كفعل من جهل العواقب، فالله قدّر أن يموت هذا بسبب القتل، وذاك بسبب المرض، وهذا بالحرق، وغيره بالغرق إلى غير ذلك.

انظر: شرح العقيدة الطّحاوية، ص:١٤٩، طبعة: المكتب الإسلامي. وانظر: الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٣/ ٤٩، طبعة: مكتبة الخانجي. الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ٢٠٢. شرح النّووي على مسلم: ١٦/ ١٨٢.

ولا يمهل سبحانه نفساً حان وقت قطافها، وحضر أوان حصادها، ولو شيئاً يسيراً تلبية لطلبها، وإجابة لرغبتها، لأنّه حلّ أجلها، وانقضى عمرها، فلا بقاء لها ولا مكث. قال ﷻ: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١].

ولمّا بعثت إحدى بنات النّبي ﷺ إليه أنّ ابناً لها في الموت، وأنّها تحبّ أن يحضره، بعث إليها يقول: «إنّ لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكلّ عنده بأجل مسمّى، فلتصبر ولتحتسب»[١].

ولمّا قالت أمّ حبيبة رضي الله عنها: اللّهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية. فقال لها النّبي ﷺ: «قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيّام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجّل شيئاً قبل حلّه، أو يؤخّر شيئاً عن حِلّه، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النّار أو عذاب في القبر كان خيراً وأفضل»[٢].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦)، باب قول النّبي ﷺ: «يعذّب الميّت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النّوح من سنّته»: (٣٢)، برقم: (١٢٨٤)، ص:٢٧٠. عن أسامة رضي الله عنه، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]: (٢٥)، برقم: (٧٤٤٨)، ص:١٥٦٥، إلّا إنّه قال: «وكلّ إلى أجل»، وبلفظ مقارب في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩)، باب عيادة الصّبيان: (٩)، برقم: (٥٦٥٥)، ص:١٢٣٠، وفي كتاب القدر: (٨٢/ ٥٦)، باب ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]: (٤)، برقم: (٦٦٠٢)، ص:١٣٩٩، وفي كتاب الأيمان والنّذور: (٨٣/ ٥٧)، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٠٩]: (٩)، برقم: (٦٦٥٥)، ص:١٤٠٩، وفي كتاب التّوحيد: (٩٧/ ٧٢)، باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]: (٢)، برقم: (٧٣٧٧)، ص:١٥٤٩.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه وبلفظ مقارب في: كتاب القدر: (٤٦)، باب إنّ الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عمّا سبق به القدر: (٧)، برقم: (٢٦٦٣)، ٤/ ٢٠٥١، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال النّووي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وهذا الحديث صريح في أنّ الآجال والأرزاق مقدّرة لا تتغيّر عمّا قدّره الله تعالى وعلمه في الأزل، فيستحيل زيادتها ونقصها حقيقة عن ذلك»[1].

---

(١) شرح النّووي على مسلم: ١٦/٢١٣.
وقد ذكر النّبي ﷺ في أحاديث عدّة أنّ صلة الرّحم تزيد في العمر. منها حديث أنس رضي الله عنه: «من أحبّ أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره فليصل رحمه». صحيح البخاري، كتاب الأدب: (٧٨/٥٢)، باب من بسط له في الرّزق بصلة الرّحم: (١٢)، برقم: (٥٩٨٦). وانظر: رقم: (٥٩٨٥)، ص:١٢٨٦، كتاب البيوع: (٣٤/١٠)، باب من أحبّ البسط في الرّزق: (١٣)، برقم: (٢٠٦٧)، ص:٤٣٠. صحيح مسلم، كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب صلة الرّحم وتحريم قطيعتها: (٦)، برقم: (٢٥٥٧)، ٤/١٩٨٢. ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «فإنّ صلة الرّحم محبّة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر». مستدرك الحاكم: ٤/١٧٨، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح». وانظر: سنن التّرمذي، كتاب البر والصّلة: (٢٤)، باب ما جاء في تعلّم النّسب: (٤٩)، برقم: (١٩٧٩)، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه». وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص:٣٣٠. مسند أحمد: ٢/٣٧٤. قال أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٧/٤٢، برقم: (٨٨٥٥). معجم الطّبراني الكبير: ١٨/ ٩٨. ومنها حديث عائشة رضي الله عنها: «صلة الرّحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الدّيار ويزيدان في الأعمار». مسند أحمد: ٦/١٥٩. وانظر: مكارم الأخلاق، لأبي بكر عبد الله بن محمّد القرشي المعروف بابن أبي الدّنيا، تحقيق: محمّد السّيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، ص:١٠٣، وقوله: ينسأ: أي يؤخّر، والأثر هو الأجل.
وهذه الأحاديث لا تعارض ما سبق تقريره من أنّ الآجال محدودة مقدّرة لا يزاد فيها ولا ينقص.
ويجمع ما ظاهره التّعارض بوجهين:
أحدهما: الزّيادة في الأحاديث كناية عن البركة في العمر بسبب التّوفيق إلى الطّاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غير ذلك.
ثانيهما: إنّ الزّيادة على حقيقتها وهي بالنّسبة لعلم الملك الموكّل بالعمر، كأن يقال له مثلاً، إنّ عمر فلان مائة إن وصل رحمه، وستون إن قطعها، وقد سبق في علم الله أنّه يصل أو يقطع، فالّذي في علم الله لا يتقدّم ولا يتأخّر، والّذي في علم الملك يمكن فيه الزّيادة والنّقص، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرّعد: ٣٩]، فما في علم الله ثابت لا يتطرّق إليه المحو، وهو=

والمرء لا يدري متى يحلّ به ذلك الأجل؟ لأنّ ذلك من علم الغيب الّذي طواه الله عن خلقه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: ٣٤].

وقد بيّن النّبي ﷺ أنّ هذه الخمس هي مفاتيح الغيب الّتي أخفاها الله عن عباده[1]. فلا يعلم الإنسان متى ينقضي أجله، وفي أي بقعة يكون مضجعه، أفي بر أم بحر؟ وفي سهل أم حزن؟ وقريب ذلك أم بعيد؟ كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الأعراف: ١٨٥].

قال البيضاوي رحمه الله:

«أو لم ينظروا في اقتراب آجالهم وتوقّع حلولها، فيسارعوا إلى طلب الحقّ والتّوجّه إلى ما ينجيهم قبل مغافصة الموت[2] ونزول العذاب»[3].

= القضاء المبرم، بخلاف علم الملك فيتطرّق إليه المحو والإثبات، وهو القضاء المعلّق. انظر: فتح الباري: ١٠/٤١٦، طبعة: دار المعرفة، وقارن ذلك بما ذكر ابن حزم في الفصل: ٣/٤٩، طبعة: الخانجي. والنّووي في شرحه على مسلم: ١٦/١٨٢.

(١) عن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلّا الله: لا يعلم ما في غد إلّا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلّا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلّا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم السّاعة إلّا الله». صحيح البخاري، كتاب التّفسير: (٦٥/٣٩)، باب ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ [الرّعد: ٨]: (١)، برقم: (٤٦٩٧)، ص: ٩٩٤. وانظر: كتاب الكسوف (الصلاة): (١٦/٥)، باب لا يدري متى يجيء المطر إلّا الله: (٢٩/٤٢٦)، برقم: (١٠٣٩)، ص: ٢٢٢، كتاب التّفسير: (٦٥/٣٩)، باب ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]: (١)، برقم: (٤٦٢٧)، ص: ٩٧٠، باب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]: (٢)، برقم: (٤٧٧٨)، ص: ١٠٢٩، كتاب التّوحيد: (٩٧/٧٢)، باب: (٤)، برقم: (٧٣٧٩)، ص: ١٥٥٠.

(٢) يقال: غافصه الموت: إذا فاجأه وأخذه على غرّة. انظر: القاموس المحيط، ص: ٨٠٦. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٤٧٧.

(٣) أنوار التّنزيل: ٣/٧٨ ـ ٧٩.

وقد أجمعت الأمّة على أنّ الموت ليس له سنٌّ معلوم، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم[1].

ولذا أمر الله عباده بالاستعداد بالعمل الصّالح قبل حلول الموت، وملازمة الطّاعة قبل وقوع الفوت، حيث لا يجدي النّدم بعد الفوات، ولا ينفع العذر بعد الإفراط، فقال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: ٥٤ ـ ٥٩].

كما دعا الرّسول ﷺ إلى المبادرة بالطّاعة، وذلك باستنفاد العمر في ملازمة التّقوى، وبذل الصّحة قبل حلول العلل، ومجاهدة النّفس قبل وقوع الأجل.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسولُ الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل»، وفيه: «خذ من صحّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[2]. وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصّباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء»[2].

وفي رواية: «وعدّ نفسك في أهل القبور»[3]. والمعنى استمر سائراً ولا

---

(١) التّذكرة، ص: ١٠.

(٢)- أطرافه في: صحيح البخاري: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب قول النّبي ﷺ: «كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل»: (٣)، برقم: (٦٤١٦)، ص: ١٣٦٧.

(٣) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب ما جاء في قصر الأمل: (٢٥)، برقم: (٢٣٣٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٨٤. =

تفتر، فإنّك إن قصّرت انقطعت وهلكت[1].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيّع منه لحظة في غير قربة، ويقدّم الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيّته في الخير قائمة من غير فتور، بما لا يعجز عنه البدن من العمل... وقد كان جماعة من السّلف يبادرون اللّحظات. فنقل عن عامر بن عبد قيس[2] أنّ رجلاً قال له: كلّمني، فقال له: أمسك الشّمس. وقال ابن ثابت البُناني[3]: ذهبت ألقن أبي، فقال: «يا بني دعني، فإنّي في وردي السّادس»... فإذا علم الإنسان ـ وإن بالغ في الجد ـ بأنّ الموت يقطعه عن العمل، عمل في حياته ما يدوم له أجره بعد موته»[4].

= سنن ابن ماجه، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «من» بذل «في» ـ في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب مثل الدّنيا: (٣)، برقم: (٤١١٤، ص:٤٤٥.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا إنّه قال: «من» ـ في: ٢/ ٤١. وبمعناه في: ٢/ ٢٤. قال أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٦/٣٤٣، برقم: (٤٧٦٤)، ٧/ ٨٦، برقم: (٥٠٠٢).
معجم الطبراني الكبير: بلفظه في ١٢/ ٣١٩.
معجم الطّبراني الصّغير، بلفظ مقارب في: ١/ ٥٩.

(١) تحفة الأحوذي: ٦/ ٥١٥.

(٢) عامر بن عبد قيس بن قيس أبو عبد الله أو أبو عمر، التّميمي العنبري النّصري، البصري، الزّاهد المشهور، من كبار التّابعين وعبّادهم، أدرك الجاهليّة، ثقة ورع لا تأخذه في الله لومة لائم، قال عنه كعب الأحبار: «هذا راهب هذه الأمة»، مات بالشّام.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ١٠٣. معرفة الثّقات: ٢/ ١٤. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٨٧. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٨٩. الإصابة: ٥/ ٧٦.

(٣) هو محمّد بن ثابت بن أسلم البناني البصري، ضعيف في الحديث.
وانظر: التّاريخ الكبير: ١/ ٥٠. ضعفاء العقليلي: ٤/ ٣٩. الجرح والتّعديل: ٧/ ٢١٧. المجروحين: ٢/ ٢٥٢. الكامل في ضعفاء الرّجال: ٦/ ١٣٦. تهذيب الكمال: ٢٤/ ٥٤٧. الكاشف: ٢/ ١٦٠. تهذيب التّهذيب: ٩/ ٧٢. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٧٠. لسان الميزان: ٧/ ٣٥٣.

(٤) صيد الخاطر، ص:٥٠.

فمبادرة العمر بالطّاعات والمداومة عليها غاية عرف السّلف أهمّيتها فأكثروا من التّنبيه عليها والاهتمام بها.

قال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

«إنّ بضاعة الآخرة كاسدة فاستكثروا منها في أوان كسادها، فإنّه لو جاء يوم نفاقها لم تصل منها إلى قليل ولا إلى كثير»[2].

وقال أبو بكر بن عيّاش رَحِمَهُ اللَّهُ[3]:

«لو سقط من أحدكم درهم لظلّ يومه يقول: إنّا لله، ذهب درهمي، وهو يذهب عمره، ولا يقول: ذهب عمري، وقد كان لله أقوام يبادرون الأوقات، ويحفظون السّاعات، ويلازمونها بالطّاعات»[4].

وأبو بكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ هو الّذي لمّا حضرته الوفاة بكت أخته، فقال لها: «لا تبك» وأشار إلى زاوية في البيت، فقال: «إنّه قد ختم أخوك في هذه الزّاوية ثمانية عشر ألف ختمة».

---

(١) هو سلمة بن دينار أبو حازم القصّار القرشي المخزومي مولاهم المدني، الأعرج الأفزر التّمّار، القاص العابد، التّابعي الجليل، الحكيم الواعظ الزّاهد، عالم المدينة، ثقة فقيه ثبت، كثير العلم، كبير القدر، توفّي سنة ١٤٠هـ، وقيل: غير ذلك.
وانظر: طبقات خليفة، ص:٢٦٤. التّاريخ الكبير: ٤/٧٨. معرفة الثّقات: ١/ ٤٢٠. الجرح والتّعديل: ٤/١٥٩. ثقات ابن حبّان: ٤/٣١٦. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٧٩. التّعديل والتّجريح: ٣/١١٢٧. تهذيب الكمال: ١١/ ٢٧٢. تذكر الحفّاظ: ١/ ١٣٣. الكاشف: ١/ ٤٥٢. تهذيب التّهذيب: ٤/ ١٢٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٤٧.

(٢) صفة الصّفوة: ١/ ١٦٣.

(٣) أبو بكر بن عيَّاش بن سالم ـ اسمه كنيته على الرّاجح ـ مولى واصل الأحدب الأسدي الحنّاط أو الخيّاط، الكوفي، الإمام القدوة شيخ الإسلام، المقرئ، ثقة عابد معروف بالصّلاح والفقه والعلم، ساء حفظه لمّا كبر، توفّي سنة ١٩٣هـ، وقيل: بعدها، عن ٩٦ سنة.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٣٨٦. الجرح والتّعدل: ٩/٣٤٨. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٦٦٨. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٧٣. تاريخ بغداد: ١٤/ ٣٧١. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٢٥٨. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٢٦٥. الكاشف: ٢/ ٤١٢. تهذيب التّهذيب: ١٢/ ٣٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٦٢٤. الكواكب النّيرات، ص:٨٧.

(٤) مواعظ ابن الجوزي: ١/ ٥٧، . الفصل الثّالث: بادر بالأعمال الصّالحة.

وقال ثابت البناني رَحِمَهُ اللهُ:

«ما تركت في الجامع سادنة إلّا وختمت القرآن عندها»[1].

والآثار عنهم رحمهم الله في ذلك كثيرة.

ولا ينقص يوم من حياة المرء إلّا نقص من عمره كما قال أبو الدّرداء والحسن رحمهما الله: «إنّما أنت أيام كلّما مضى منك يوم مضى بعضك»:

إنّا لنفرح بالأيّام نقطعها ... وكلّ يوم مضى يدني من الأجل

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً ... فإنّما الرّبح والخسران في العمل[2]

وكلّ ساعة تمرّ على ابن آدم فإنّه يمكن أن تكون ساعة موته، بل كل نفس كما قيل:

لا تأْمَنِ الموتَ في طَرْفٍ ولا نَفَسِ ... وإنْ تَمَنَّعْتَ بالحُجَّابِ والحَرَسِ[3]

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أنّ أباها كان إذا أخذته الحمّى يقول:

كلّ امرئ مُصَبَّحٌ في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله[4]

والعمر رأس مال الإنسان وهو عرضة للرّبح والخسارة.

قال الطّيبي رَحِمَهُ اللهُ:

«إنّ الأوقات والسّاعات كرأس المال للتّاجر فينبغي أن يتجر فيما يربح فيه، وكلّما كان رأس ماله كثيراً كان الرّبح أكثر، فمن انتفع من عمره بأن حسن

---

(١) ذكر ذلك ابن الجوزي في المرجع السّابق: ١/ ٥٧، من نفس الفصل.

(٢) لطائف المعارف، ص: ٣٤٦، ولم ينسب بيتي الشّعر لأحد، وعزاهما ابن عساكر في تاريخ دمشق للفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ. انظر: ٤٨/ ٤٥١.

(٣) القائل هو أبو العتاهية. شرح ديوان أبي العتاهية، ص:١٣٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة (الحجّ): (٢٩/ ٨)، باب: (١٢/ ٢٢٢)، برقم: (١٨٨٩)، ص:٣٩٣، وكتاب مناقب الأنصار (المناقب): (٦٣/ ٣٧)، باب مقدم النّبي ﷺ وأصحابه المدينة: (٤٦/ ١٠٦)، برقم: (٣٩٢٦)، ص:٨٢٢، وكتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩)، باب عيادة النّساء الرّجال: (٨)، برقم: (٥٦٥٤)، ص:١٢٢٩، وكتاب الطّبّ: (٧٦/ ٥٠)، باب من دعا برفع الوباء والحمّى: (٢٢)، برقم: (٥٦٧٧)، ص:١٢٣٤.

عمله فقد فاز وأفلح، ومن أضاع رأس ماله لم يربح، وخسر خسراناً مبيناً»[1].

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الإنسان... في دنياه حارث، وعمله حرثه، ودنياه محترثه، ووقت الموت وقت حصاده، ولذلك قال: «الدّنيا مزرعة الآخرة»[2]. وإنّما البذر هو العمر، فمن انقضى عليه نفس من أنفاسه ولم يعبد الله فيه بطاعة فهو مغبون لضياع ذلك النفس فإنّه لا يعود قطّ. ومثال الإنسان في عمره مثال رجل كان يبيع الثّلج وقت الصّيف ولم تكن له بضاعة سواه، فكان ينادي ويقول: ارحموا من رأس ماله يذوب، فرأس مال الإنسان عمره الّذي هو وقت طاعته، وإنّه ليذوب على الدّوام، فكلّما زاد سنة نقص بقيّة عمره، فزيادته نقصانه على التّحقيق، ومن لم ينتهز في أنفاسه حتّى يقتنص بها الطّاعات كلّها كان مغبوناً»[3].

والعمر قصير، والموت قريب، فعلى المرء أن يسعى ويكدح ويقطع ساعاته في طاعة ربّه، ويلازم ذلك بقية بقائه، فما هي إلّا لحيظات وينقضي التّعب، وتذهب المشقّة، وتوضع الأثقال، ويصفو العكر، ويذوب الكدر، ويحطّ الرّحل في مقام الأنس وحضرة القدس، فيحصل المحبوب، ويقع المطلوب، وينال المرغوب.

تحدّث ابن القيّم رَحِمَهُ اللَّهُ عن أسر الشّيطان والهوى والنّفس الأمّارة بالسّوء للعبد، وكيف تؤدّي هذه الثّلاث إلى هلاكه ودماره، وأنّها أعداء له ماكرة في العداوة، ثمّ بيّن طريق الخلاص منها فقال:

«فلمّا أن بلي العبد بما بلي به أعين بالعساكر والعُدد والحصون، وقيل: قاتل عدوّك وجاهده، فهذه الجنود خذ منها ما شئت، وهذه الحصون تحصّن

---

(١) نقلاً عن تحفة الأحوذي: ٦/٥١٢.

(٢) لم أجده فيما وقفت عليه من مراجع، إلّا أن البيهقي روى في كتاب الزّهد الكبير عن سري قال: قال عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ: «الدّنيا مزرعة إبليس وأنتم عمّارها»: ٢/١٣٩.

(٣) فضائح الباطنيّة: ١٩٦.

بأي حصن شئت منها، ورابطه إلى الموت، فالأمر قريب، ومدّة المرابطة يسيرة جدّاً، فكأنّك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله فنقلوك إلى داره، واسترحت من هذا الجهاد، وفرّق بينك وبين عدوّك، وأطلقت في دار الكرامة تتقلّب فيها كيف شئت، وسجن عدوّك في أصعب العيوب وأنت تراه، فالسّجن الّذي كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله، وأغلقت عليه أبوابه، وأيس من الرّوح والفرج، وأنت فيما اشتهت نفسك، وقرّت عينك جزاء على صبرك في تلك المدّة اليسيرة، ولزومك الثّغر للرّباط، وما كنت إلّا ساعة ثمّ انقضت وكأنّ الشّدّة لم تكن»[١].

فإذا علم العبد أنّ عمره في هذه الحياة محدود، وأنّ أيّامه في الدّنيا معدودة، لا يزاد فيها على ما كتب وقدّر، وأنّها تمرّ كومضة برق خاطف، عاجلها بملازمة الطّاعات، وسابقها باجتناب المعاصي والمنكرات، فإذا دهمه مفرّق الجماعات، وجده على أهبة الاستعداد، معتصماً بالله تعالى، ملتزماً بالثّبات.



(١) الوابل الصّيّب، ص: ٢٩.



الحذر من الدّنيا

لقد حذّر الله العباد من أن تشغلهم الدّنيا بشهواتها، وتلهيهم بزينتها وزخارفها، فيغفلوا عن ساعة رحيلهم منها، وأوان سفرهم عنها، فلا يَعُدُّوا لذلك العدّة، حيث قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥][(١)].

فقد حكم على عباده بالموت وحتّمه عليهم، ثمّ أعلمهم أنّ نيل الأجور واستحقاق الثّواب يكون في الآخرة حين يزحزحون عن النّار ويسعدون في الجنّة، وأمّا هذه الدّنيا فهي متاع زائل، وغرور خادع، تُغْري المرءَ وتخدعه، فيظنّ فيها طول البقاء، وهي حُطَامٌ فانٍ ونعيم مضمحل.

وأنذرهم أن يلتهوا بها، ويلهثوا في طلبها، وينشغلوا بها عن السّعي والجدّ للآخرة فيفاجئهم الموت، وهم كذلك، فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التّكاثر: ١ ـ ٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أشغلكم حبّ الدّنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتّى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟»[(٢)].

وكشف لهم سبحانه عن حقيقتها، وأبان عن حقارتها حتّى لا يغترّ بها

---

(١) وانظر في معنى الآية: جامع البيان: ٤/ ١٩٩. الجامع لأحكام القرآن: ٤/ ٣٠٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٨٦٥.

مغترّ، ويركن إليها غافل، فينشغل بها عن بغيته، ويغيب بها عن منيّته، فقال ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]»[(١)].

وأمّا ما ورد عن النّبي ﷺ من الأحاديث المحذّرة عن الاغترار بالدّنيا، والموضّحة لهوانها وزوالها، والمنذرة من التّعلّق بزخرفها، والافتتان بمتاعها، والرّكون إليها، والكاشفة عن حقيقتها، وسرعة زوالها، والموبّخة من الانغماس في شهواتها، والوقوع في براثنها، والسّقوط في أوحالها، والتّلطّخ بأدناسها كثيرة جدّاً لا يسعها هذا المقام. منها:

حديث عمرو بن عوف للأنصار رضي الله عنه وفيه أنّ النّبي ﷺ قال لأنصار:

«فأبشروا وأمّلوا ما يسرّكم، فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبْسَط الدّنيا عليكم كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فَتَنَافَسُوها كما تَنافسُوها، وتهلككم كما أهلكتهم»[(٢)].

وحديث المستورد بن شدّاد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والله ما الدّنيا في الآخرة إلّا مثل ما يَجْعَلُ أحدكم إصبعه هذه ـ وأشار يحيى[(٣)]

---

(١) وانظر: آل عمران: (١٤). يونس: (٢٤). الكهف: (٤٥). وانظر: في معنى آية سورة الحديد تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٨٠ ـ ٧٨١. فقد أجاد وأحسن الشّيخ السّعدي رحمه الله في بيان الآية وإيضاحها بحيث لم أقف على مثله عند غيره، ولولا ملال الطّول لنقلته برمّته لجودته.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب ما يحذر من زهرة الدّنيا والتّنافس فيها: (٧)، برقم: (٦٤٢٥)، ص: ١٣٦٩، وبلفظ مقارب في: كتاب الجزية والموادعة: (٥٨/ ٣٤)، باب وما جاء في أخذ الجزية من اليهود والنّصارى والمجوس والعجم، برقم: (٣١٥٨)، ص: ٦٦٧، وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب: (١٢)، برقم: (٤٠١٥)، ص: ٨٣٩.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الزّهد والرّقاق: (٥٣)، برقم: (٢٩٦١)، ٤/ ٢٢٧٤.

(٣) هو يحيى بن يحيى بن بكير أبو زكريا التّميمي المنقري النّيسابوري، شيخ خرسان، ثقة=

بالسّبابة ـ في اليمّ فلينظر بما يرجع»[1].

وحديث سهل بن سعد السّاعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدّنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقي كافراً منها شربة ماء»[2].

وحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير[3] فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتّخذنا لك وِطَاء[4]، فقال: «ما لي وما للدّنيا؟ ما أنا في الدّنيا إلّا كراكب استظلّ تحت شجرة ثمّ راح وتركها»[5].

= ثبت إمام فقيه، قال عنه ابن راهويه: «ما رأيت مثله ولا رأى مثل نفسه»، توفّي سنة ٢٢٦هـ.

وانظر: التّاريخ الكبير: ٨/ ٣١٠. الجرح والتّعديل: ٩/١٩٧. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١٢٢٣. تهذيب الكمال: ٣٢/ ٣١. تذكرة الحفّاظ: ٢/ ٤١٥. الكاشف: ٢/ ٣٧٨. تهذيب التّهذيب: ١١/ ٢٥٩. تقريب التّهذيب: ١/ ٥٩٨.

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب فناء الدّنيا، وبيان الحشر يوم القيامة: (١٤)، برقم: (٢٧٥٨)، ٤/ ٢١٩٣.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب ما جاء في هوان الدّنيا على الله ﷻ: (١٣)، برقم: (٢٣٢٠)، وقال: «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٨٣.

سنن ابن ماجه، نحوه في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب مثل الدّنيا: (٣)، برقم: (٤١١٠)، ص:٤٤٥.

معجم الطّبراني الكبير، نحوه في: ٦/ ١٧٨.

مسند الشّهاب، بلفظه ـ دون قوله: «ماء» ـ في: ٢/ ٣١٧. عن أبي هريرة رضي الله عنه، وبألفاظ مقاربة عن ابن عمر رضي الله عنهما، في: ٢/ ٣١٦.

(٣) الحصير: شيء منسوج يعمل من سعف النّخل وغيره ويرمّل بالخيوط، فإن كان صغيراً على قدر ما يسجد عليه المصلي أو فويق ذلك سمّي خُمْرَة، فإن عظم حتّى يكفي الرّجل لجسده كلّه في صلاة أو مضجع فحينئذ حصير، قيل: سمّي حصيراً لأنّه يلي وجه الأرض، وقيل: لأنّه حُصِرَتْ طاقته بعضها مع بعض، والجمع: حُصْر، فتضمّ الصّاد وتسكّن تخفيفاً. وانظر: غريب الحديث للهروي: ١/ ٢٧٧. لسان العرب: ٤/ ١٩٦.

(٤) وطاء: الوِطاءُ: خلافُ الغِطاء. يقال: وَطِئ الشّيءَ يَطَؤُهُ وَطْأً: داسَه. والوطيءُ من كلِّ شيءٍ: ما سَهُلَ ولان. وحَقيقَتُه من التَّوْطِئةِ، وهي التّمهيدُ والتّذليلُ. وفِراشٌ وطِيءٌ: يُؤْذي جَنْبَ النّائِم. انظر: لسان العرب: ١/ ١٩٥ ـ ١٩٩. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ١٩٩.

(٥) أصل هذا الحديث: في صحيح البخاري، كتاب المظالم والقصب: ٤٦/ ٢٢)، =

وحديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمَنْكِبِي فقال: «كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصّباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحّتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(١).

قال النّووي رحمه الله في معناه:

«لا تركن إلى الدّنيا، ولا تتّخذها وطناً، ولا تحدّث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلّق منها إلّا بما يتعلّق به الغريب في غير وطنه،ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الّذي يريد الذّهاب إلى أهله»(٢).

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«من زهد في الدّنيا هانت عليه المصائب، ومن ارتقب الموت سارع في الخيرات»(٣).

= باب الغرفة والعُليّة المشرفة: (٢٥)، برقم: (٢٤٦٨)، ص:٥١٣. وانظر: كتاب النّكاح: (٦٧/ ٤١)، باب موعظة الرّجل ابنته لحال زوجها: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٥١٩١)، ص:١١٤١. وفي صحيح مسلم، كتاب الطّلاق: (١٨)، باب في الإيلاء واعتزال النّساء: (٥)، برقم: (١٤٧٩)، ٢/ ١١٠٦.

سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب: (٤٤)، برقم: (٢٣٧٧)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٣٨٩ ـ ٣٩٠. وجزء منه بنحوه عن عمر رضي الله عنه، في كتاب صفة القيامة: (٣٤)، باب: (٢٧)، برقم: (٢٤٦١)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح غريب». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٠٢.

سنن ابن ماجه، بلفظ مقارب في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب مثل الدّنيا: (٣)، برقم: (٤١٠٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٤٤٥.

مسند أحمد، نحوه في: ١/ ٣٠١. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، وفي: ١/ ٣٩١، عبد الله رضي الله عنه. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٤/ ٢٦٢، برقم: (٢٧٤٤)، ٥/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥، برقم: (٣٧٠٩).

مسند أبي يعلى، جزء منه بنحوه عن عمر رضي الله عنه، في: ١/ ١٩٣، برقم: (٢٢٢). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح». وعن عبد الله رضي الله عنه في: ٩/ ١٩٥، برقم: (٥٢٩٢).

(١) سبق تخريجه انظر: ص:١٠٥٤.

(٢) رياض الصّالحين، ص:٢١٥ ـ ٢١٦.

(٣) تسلية أهل المصائب، ص:٣٢٨. =

وقد أجاد الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصفها حين كتب إلى عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فإنّ الدّنيا دار ظَعْن[1] ليست بدار إقامة، إنّما أنزل إليها آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عقوبة، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإنّ الزّاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، لها في كل حين قتيل، تذلّ من أعزّها، وتفقر من جمعها، هي كالسمّ يأكله من لا يعرفه وهو حتفه، فكن فيها كالمداوي جراحه يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدّة الدّواء مخافة طول البلاء، فاحذر هذه الدّار الغرَّارة الخدَّاعة الخيَّالة[2]، الّتي قد تزيّنت بخدعها، وفتنت بغرورها، وختلت بآمالها، وتشوّفت لخطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلوّة[3]، فالعيون إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنّفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلّهم قاتلة، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغترّ وطغى ونسي المعاد، فشغل بها لبّه حتّى زلّت عنها قدمه، فعظمت عليها ندامته، وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه وحسرات الفوت، وعاشق لم ينل منها بغيته فعاش بغصته، وذهب بكمده، ولم يدرك منها ما طلب، ولم تسترح نفسه من التّعب، فخرج بغير

= روى القضاعي في مسند الشّهاب عن الحارث الأعور عن علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اشتاق إلى الجنّة سارع إلى الخيرات، ومن أشفق من النّار لها عن الشّهوات، ومن ترقّب الموت لها عن اللّذّات، ومن زهد في الدّنيا هانت عليه المصائب»: ١/٢٢٦، برقم: (٣٤٨). والحارث الأعور لا يحتجّ بحديثه. انظر: تقريب التّهذيب: ١/١٤٦.

(١) ظَعْن: يقال: ظَعَنَ يَظعَنُ ظَعْناً وظَعَناً بالتّحريك وظُعوناً: ذهب وسار. لسان العرب: ١٣/ ٢٧٠. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ٤٠٤. القاموس المحيط، ص: ١٥٦٦.

(٢) الخيَّالة: من التّخيّل وهو الظّنّ والوهم، أي تبدي خلاف الحقيقة، وتظهر خلاف الواقع. وانظر: لسان العرب: ١١/٢٢٦. القاموس المحيط، ص: ١٢٨٨.

(٣) جلا الأمرَ وجَلَّاه وجَلَّى عنه: كشَفه وأَظهره، وقد انْجلى وتَجَلَّى. وأَمرٌ جَلِيٌّ: واضح. والماشطة تَجْلُو العَرُوس، أي تزيّنها وتحسّنها وتبرز محاسنها. وجَلَوْتُ العروسَ جِلاءً وجَلْوَةً واجتَلَيْتُها بمعنى إذا نظرت إليها مَجْلُوّةً. وانظر: لسان العرب: ١٤/ ١٥٠ ـ ١٥٢. وانظر: مختار الصّحاح، ص: ١٠٨. القاموس المحيط، ص: ١٦٤٠.

زاد، وقدم على غير مهاد، فكن أسدّ ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإنّ صاحب الدّنيا كلّما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه، وصل الرّخاء منها بالبلاء، وجعل البقاء فيها إلى فناء سرورها مشوب بالحزن، أمانيها كاذبة، وأمالها باطلة، وصفوها كدر، وعيشها نكد. . . . إلخ»[1].

هذا وصف دقيق لرجل خبر الدّنيا فاحترز منها، وعرف ما بها فلم يسقط فريسة لها، وتبيّن لها أمرها فلم يذهل ببريقها، وافتضح له شأنها فلم تأسره بخداعها، وهو الّذي استوعب الدّرس من أناس سبقوه، وفهم عنهم ما علموه من هذه الحياة ودرسوه، وذلك حين يقول:

«والّذي نفسي بيده لقد أدركت أقواماً كانت الدّنيا عليهم أهون عليهم من التّراب الّذي تمشون عليه»[2].

وقد أحسن مقال:

هـي الـدّار دارُ الأذى والـقَـذَى ... ودارُ الـفـنـاءِ ودارُ الـغِـيَـر
ولـو نِـلْـتَـهـا بـحَـذافـيـرهـا ... لَـمُـتَّ ولـم تَـقْـضِ مـنـهـا الـوَطَـر
أيـا مَـن يُـؤَمِّـلُ طـول الـحـيـاة ... وطـولُ الـحـيـاة عـلـيـه ضـرَر
إذا مـا كَـبِـرْتَ وبـان الـشّـبـابُ ... فلا خيرَ في العيش بعد الكِبَر[3]

فإذا علم الإنسان قيمة الدّنيا، وأنّه مفارق لها، وزائل عنها كما قيل:

فـمـا أهـل الـحـيـاة لـنـا بـأهـل ... ولا دار الـحـيـاة لـنـا بـدار
ومـا أمـوالـنـا والأهـل فـيـهـا ... ولا أولادنـا إلّا عـواري
وأنـفـسـنـا إلـى أجـل قـريـب ... سيأخذها المعير من المعار[4]

---

(١) إغاثة اللّهفان: ١/ ٣٧ ـ ٣٨، وعزاه إلى ابن أبي الدّنيا، ولم أقف عليه في شيء من كتبه الّتي رجعت إليها.

(٢) تسلية أهل المصائب، ص:٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٣) القائل أبو العتاهية. شرح ديوان أبي العتاهية، ص: ١١٠ ـ ١١١.

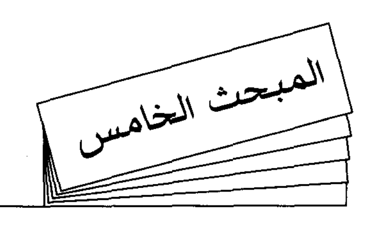
(٤) هذه الأبيات أوردها ابن رجب في لطائف المعارف، ص:١١٧، ولم يذكر قائلها، ولم أقف عليه فيما رجعت إليه من مراجع.

حذر من شرّها، ولازم التّقوى فلم ينفك عنها، وصبر على الطّاعة فلم يفارقها، فكان عند الموت ثابتاً، وعند فراق روحه لجسده صابراً.

ولا يعني كلّ هذا أن ينزع الإنسان يده من الدّنيا، ويستدبرها بظهره، ويعيش فيها كرهبانيّة النّصارى، أو كزهّاد المتصوّفة. بل يأخذ منها ما يعينه على طاعة ربّه، ولا يؤدّي به إلى معصيته. منهجه في ذلك التّوسط والاعتدال، كما قال له الباري سبحانه: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [القصص: ٧٧].

وذلك لا ينافي الثّبات، ولا يؤدّي إلى السّقوط والانحراف.





تثبيت الملائكة للميّت وتبشيره

لقد أخبر المولى سبحانه عن حال المشركين والكافرين والظّالمين لأنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة لقبض أرواحهم الخبيثة، فلا تسأل حينها عمّا يجدون في ذلك المقام من الخزي والإهانة والتّبكيت وأنواع العذاب، حيث قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [النّحل: ٢٨ ـ ٢٩][1].

ثمّ أردف بإخباره عن حال المستمرّين على تقواهم، الطّاهرين المطّهرين من كلّ نقص يتطرّق إليهم، أو يخلّ بإيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبّته، وألسنتهم بذكره، وجوارحهم بطاعته، فأقبلت عليهم ملائكة الله تهنّئهم، وتبشّرهم، وتحيّيهم قائلين: سلام عليكم: أي سلمتم من كلّ آفة، ومن كلّ ما تكرهون، وذلك بسبب طاعتكم وانقيادكم لأمر ربّكم، وملازمتكم لشرع نبيّكم، فادخلوا جنّته، حيث النّعيم المقيم، والثّواب العظيم. وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [النّحل: ٣٢]. ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

---

(١) وانظر في معنى الآيات: جامع البيان: ١٤/ ٩٩ ـ ١٠١. الجامع لأحكام القرآن: ١٠/ ١٠٠ ـ ١٠٢. أنوار التّنزيل: ٣/ ٣٩٤. تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٨٧٩ ـ ٨٨١. فتح القدير: ٣/ ١٥٩. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٩٢.

لقد أخبر الله سبحانه عن أوليائه المؤمنين الأتقياء، الّذين وحّدوه فلم يلتفتوا لغيره من الآلهة والأنداد الباطلة، وآمنوا به بصدق ويقين لم يتطرّق إليه شكّ أو يخالطه دخن، ثمّ استقاموا على طاعته قولاً وفعلاً، وداوموا على ذلك غير منحرفين ولا زائغين، فأولئك عند احتضارهم تتنزّل عليهم ملائكة الرّحمة تثبّتهم وتبشّرهم قائلة لهم: لا تخافوا ممّا تقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلّفتموه وراءكم من أمر الدّنيا، وأبشروا بالجنّة الّتي يحصل لكم بها ذهاب كلّ شرّ، وحصول كلّ خير. نحن المتولّون لأمركم حفظاً ورعاية في الدّنيا والآخرة[1].

قال ابن كثير رحمه الله:

«وقوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾، أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنّا أولياءكم في الحياة الدّنيا، نسدّدكم، ونوفّقكم ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النّفخة في الصّور، ونؤمّنكم يوم البعث والنّشور، ونجاوز بكم الصّراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنّات النّعيم. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾: أي في الجنّة من جميع ما تختارون ممّا تشتهيه النّفوس وتقرّ به العيون. ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾: أي مهما طلبتم وجدتم وحضر بين أيديكم كما اخترتم، ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾: أي ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم، رحيم بكم، رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف»[2].

وقال السّعدي رحمه الله:

«يقولون لهم أيضاً ـ أي الملائكة ـ مثبّتين لهم، ومبشّرين: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾: يحثّونهم في الدّنيا على الخير، ويزيّنونه لهم، ويرهبّونهم عن الشّرّ، ويقبّحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبّتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشدّته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها على الصّراط، وفي الجنّة يهنّئونهم بكرامة ربّهم، و﴿يَدْخُلُونَ

---

(١) وانظر في معنى الآيات: جامع البيان: ٢٤/ ١١٤ ـ ١١٧. معالم التّنزيل: ٣/ ١١٤. الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٣٥٧ ـ ٣٥٩. أنوار التّنزيل: ٥/ ١١٤ ـ ١١٥. فتح القدير: ٤/ ٥١٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرّعد: ٢٣ ـ ٢٤]»[١].

ومن تثبيت الملائكة لأهل الإيمان ما تقوله لهم عند السّياق كما ذكر الله سبحانه في قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

أي تقول الملائكة لنفس المؤمن عند خروجها، مطمئنة لها ومثبّتة: أيّتها النّفس السّاكنة الموقنة بربّها، المصدّقة بثوابه، المطمئنّة إلى وعده بنيل الكرامة، المخلصة الطّائعة، الرّاضية عن الله تعالى، وعن قضائه وقدره، المرضية عنده سبحانه، ادخلي في زمرة عباد الله الصّالحين، وكوني من جملتهم، وانتظمي في سلكهم لتنالي ما نالوا من السّعادة والكرامة بدخول الجنّة[٢].

ويؤيّد ذلك ما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطّويل وفيه: «إنّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدّنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السّماء بيض الوجوه كأنّ وجوههم الشّمس، معهم كفن من أكفان الجنّة، وحَنُوط[٣] من حنوط الجنّة، حتّى يجلسوا منه مدّ البصر، ثمّ يجيء ملك الموت عليه السلام حتّى يجلس عند رأسه فيقول: أيّتها النّفس الطّيّبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السّقاء[٤]. . .» الحديث[٥].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «الميّت تحضره الملائكة، فإذا كان الرّجل صالحاً قالوا: اخرجي أيّتها النّفس الطّيّبة كانت في الجسد الطّيّب، اخرجي حميدة، وأبشري برَوْح[٦] وريحان[٧]، وربّ غير غضبان، فلا يزال

---

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٩٤.

(٢) وانظر معنى الآيات في: جامع البيان: ٣٠/ ١٩٠ ـ ١٩٣. معالم التّنزيل: ٤/ ٤٨٦ ـ ٤٨٧. الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ٥٧ ـ ٥٨. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٨٠٦. فتح القدير: ٥/ ٤٤٠ ـ ٤٤١. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٨٥٥.

(٣) الحَنُوط والحِنَاط واحد: وهو ما يُخْلط من الطّيب لأكفان الموْتَى وأجْسَامِهم خاصّة. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٤٥٠. وانظر: الفائق: ١/ ٣٢٧.

(٤) السّقاء: ظرفُ الماءِ من الجلْدِ ويُجْمع على أسْقِية. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٣٨١.

(٥) سبق تخريجه انظر، ص: ٩٩٤.

(٦) الرّوح: هو نسيم الرّيح. المرجع السّابق: ٢/ ٢٧٢.

(٧) الرّيحانَ: هو كلّ نَبْت طَيِّب الرّيح من أنواع المشْمُوم.، ويُطلقُ على الرّحمة والرّزق=

يقال لها ذلك حتّى تخرج. .» الحديث[1].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها، قال ﷺ: «المؤمن إذا حضره الموت بشّر برضوان من الله وكرامته، فليس شيء أحبّ إليه ممّا أمامه، فأحبّ لقاء الله، وأحبّ الله لقاءه. . . .» الحديث[2].

يقول ابن القيّم رحمه الله:

«إذا تولّاه الملك ـ أي المؤمن ـ تولّاه أنصح الخلق له، وأنفعهم وأبرّهم له، فثبّته، وعلّمه، وقوّى جنانه، وأيّده، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

ويقول الملك عند الموت: لا تخف ولا تحزن، وأبشر بالّذي يسرّك، ويثبّته بالقول الثّابت أحوج ما يكون إليه في الحياة الدّنيا، وعند الموت، وفي القبر عند المسألة. فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له، وهو وليّه في يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفي قبره، ومؤنسه في وحشته، وصاحبه في خلوته، ومحدّثه في سرّه، ويحارب عنه عدوّه، ويدافع عنه ويعينه عليه، ويعده بالخير ويبشّره به، ويحثّه على التّصديق بالحقّ»[3].

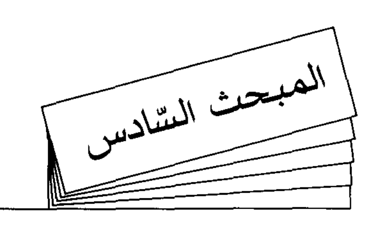
ولا شكّ أن العبد عند الموت يمرّ بأحرج لحظات حياته، فهو في أمسّ الحاجة إلى من يعينه على الثّبات ويؤيّده حتّى يجتاز تلك العقبة بأمن وسلام، والملائكة من أعظم ما يؤيّده ويثبّته عندئذ.

= والرّاحة. انظر: المرجع السّابق: ٢/ ٢٨٨. وانظر: المفردات، ص: ٢٠٦.

(١) سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب ذكر الموت والاستعداد له: (٣١)، برقم: (٤٢٦٢). قال الألباني رحمه الله «صحيح»، ص: ٤٥٩.
مسند أحمد، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في: ٢/ ٣٦٤، ٦/ ١٣٩ ـ ١٤٠. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٦/ ٣١٣، برقم: (٨٧٥٤).

(٢) سبق تخريجه انظر: ص: ١٠٣٢.

(٣) الجواب الكافي، ص: ٧٤.



دعاء الحاضرين للميّت

عن أمّ سلمة قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة[1] وقد شَقَّ بصره[2] فأغمضه ثمّ قال: «إنّ الرّوح إذا قبض تبعه البصر». فضجّ ناس من أهله.

فقال: «لا تدعوا على أنفسكم إلّا بخير، فإنّ الملائكة يؤمّنون على ما تقولون»، ثمّ قال: «اللّهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين[3]، واغفر لنا وله يا ربّ العالمين، وافسح له في قبره، ونوّر له فيه»[4].

قال النّووي رحمه الله:

قولها: ثمّ قال: «اللّهم اغفر لأبي سلمة» إلى آخره: فيه استحباب الدّعاء للميّت عند موته ولأهله وذريته بأمور الآخرة والدّنيا»[5].

وعنها رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميّت فقولوا خيراً فإنّ الملائكة يؤمّنون على ما تقولون». قالت: فلمّا مات أبو سلمة أتيت النّبي ﷺ فقلت: يا رسول الله إنّ أبا سلمة قد مات قال: «قولي اللّهم

---

(١) اسمه عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومي، أخو النّبي ﷺ من الرّضاعة، وابن عمّته، مشهور بكنيته. انظر: الإصابة: ٤/ ١٥٢.

(٢) شَقَّ بَصَرُه: أي انْفَتح. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٩١.

(٣) الغابرين: جمع غابر وهو الباقي. انظر: غريب الحديث للهروي: ٤/ ٨٠. الفائق: ١/ ١٩. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٣٣٧.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب إغماض الميّت والدّعاء إذا حضر: (٤)، برقم: (٩٢٠)، ٢/ ٦٣٤.

(٥) شرح النّووي على مسلم: ٦/ ٢٢٣.

اغفر لي وله، وأعقبني منه عُقْبَى حسنة». قالت: فقلت، فأعقبني الله من هو خير لي منه محمّداً ﷺ»[1].

قال النّووي رحمه الله:

«قوله ﷺ: «إذا حضرتم المريض أو الميّت فقولوا خيراً فإنّ الملائكة يؤمّنون على ما تقولون: «فيه النّدب إلى قول الخير حينئذ من الدّعاء والاستغفار له، وطلب اللّطف به، والتّخفيف عنه ونحوه، وفيه حضور الملائكة حينئذ وتأمينهم»[2].

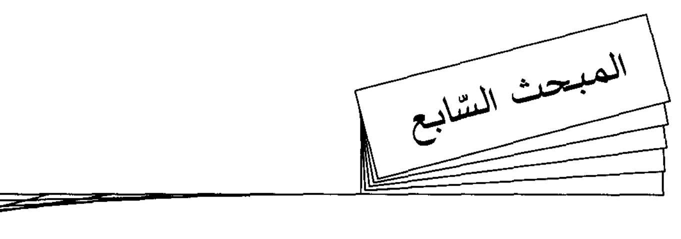
ففي حديثي أمّ سلمة رضي الله عنها إرشاد منه ﷺ واستحباب لمن حضر احتضار أحد من المسلمين أن يدعو ويستغفر له حينئذ.

وقوله: «فقولوا خيراً» فيه دلالة على إطلاق الدّعاء من غير تقييد، ولا شك إنّ المحتضر كما هو في حاجة إلى مغفرة الله ورحمته وعفوه فهو في أمسّ الحاجة إلى تثبيت الله له، فيدعو الحاضر له بذلك كما يدعو له بالمغفرة والرّحمة، ويؤيّده قول النّووي رحمه الله: «وطلب اللّطف به، والتّخفيف عنه، ونحوه».



(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب ما يقال عند المريض والميّت: (٣)، برقم: (٩١٩)، ٢/ ٦٣٣.

(٢) شرح النّووي على مسلم: ٦/ ٢٢٢.



نذر الموت ورسله

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٦ ـ ٣٧].

إنّ أهل النّار لمّا لاقوا أليم العذاب وشدّة النّكال سألوا الله وطلبوا منه الرّجعة إلى الدّنيا تارة أخرى ليعملوا غير ما كانوا يعملون، فلم يجب الله سؤالهم، ولم يحقّق طلبهم، وإنّما وبّخهم وقرّعهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾: أي أما عمّرناكم دهراً وعمراً يتمكّن فيه من أراد منكم التّذكّر من العمل الصّالح، وملازمة الطّاعات، وواصلنا إليكم النذر، نذيراً عقب نذير، فلم ينجع فيكم ذلك ولم يفد، حتّى إذا انقضت آجالكم، وتمّت أعماركم، ووفدتم إلى دار الجزاء طلبتم الرّجوع إلى الدّنيا مرّة أخرى، أنّى لكم ذلك وهيهات[1].

وقد اختلف أهل العلم في مبلغ العمر الّذي أخّروا له: فقيل: هو البلوغ، وقيل: سبع عشر سنة، وقيل: ثمان عشرة سنة، وقيل: عشرون سنة، وقيل: أربعون سنة. ونسب هذا الأخير إلى الحسن البصري، ومسروق بن الأجدع رحمهما الله، واختاره ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأيّده بقوله:

«لأنّ في الأربعين يتناهى عقل الإنسان وفهمه، وما قبل ذلك وما بعده

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٦٣٦ ـ ٦٣٧.

منتقص عن كماله في حال الأربعين»[1].

واحتج القرطبي رحمه الله لذلك بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥]. حيث يكتمل عقل الإنسان عند الأربعين، ونقل قول الإمام مالك رحمه الله: «أدركت أهل العلم ببلدنا وهم يطلبون الدّنيا والعلم ويخالطون النّاس، حتّى يأتي لأحدهم أربعون سنة، فإذا أتت عليهم اعتزلوا النّاس واشتغلوا بالقيامة حتّى يأتيهم الموت»[2].

وقد صحّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، ونقل عن علي رضي الله عنه أيضاً أنّ العمر الّذي أعذر الله فيه لابن آدم ستّون سنة[3].

ويؤيّد ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي ﷺ قال: «أعذر الله إلى امرئ أخّر أجله حتّى بلّغه ستّين سنة»[4].

وأورد البخاري باباً قال فيه: «باب من بلغ ستّين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر لقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾»[5].

وانتصر لذلك ابن كثير رحمه الله وقال:

«ولمّا كان هذا هو العمر الّذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمّة، كما ورد بذلك

---

(١) جامع البيان: ٢٢/ ١٤٢. رجّح رحمه الله هذا القول لأنّه لم يثبت عنده حديث أبي هريرة رضي الله عنه الآتي. وانظر: تفاصيل تلك الأقوال في: معالم التّنزيل: ٣/ ٥٧٣. الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٨٨ ـ ٣٩٠. فتح القدير: ٤/ ٣٥٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٣. التّذكرة، ص:٤٨ ـ ٤٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٨٨ ـ ٨٨٩.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب من بلغ ستّين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر: (٥)، برقم: (٦٤١٩)، ص:١٣٦٨.

(٥) المرجع السّابق، ص:١٣٦٧.

وقد أشار الحافظ ابن حجر رحمه الله إلى أنّ بعض طرق حديث أبي هريرة رضي الله عنه فيه التّصريح بالمراد، وذلك ما رواه أبو نعيم في مستخرجه عنه رضي الله عنه بلفظ: «العمر الّذي أعذر فيه لابن آدم ستّون سنة، ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧].

فتح الباري: ١١/ ٢٣٩، طبعة: دار المعرفة.

الحديث. . . عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أعمار أمّتي ما بين السّتين إلى السّبعين وأقلّهم من يجوز ذلك»[1].

فالسّتّون جعلت مبلغاً لانقضاء الأجل لأنّها قريبة من معترك المنايا، وهي سنّ الإنابة والخشوع، فمن أمهله الله إلى ذلك فقد أعذر إليه، فعليه مجاهدة النّفس ليمتثل ما أمر به من الطّاعة، وينزجر عمّا نهي عنه من المعصية، ليظلّ بقيّة عمره كذلك حتّى لا تخترمه المنيّة في حالة غفلة منه[2].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ في بيان قوله ﷺ: «أعذر الله»:

«الإعذار إزالة العذر، والمعنى أنّه لم يبق له اعتذار كأن يقول: لو مدّ لي في الأجل لفعلت ما أمرت به، يقال: أعذر إليه إذا بلّغه أقصى الغاية في العذر ومكّنه منه، وإذا لم يكن له عذر في ترك الطّاعة مع تمكّنه منها بالعمر الّذي حصل له فلا ينبغي له حينئذ إلّا الاستغفار والطّاعة والإقبال على الآخرة بالكّليّة»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٩٠. والحديث في:
سنن التّرمذي، بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في: كتاب الدّعوات: (٤٤)، باب: (١٠١)، برقم: (٣٥٥٠)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «حسن»، ص:٥٥٨، ونحوه في: كتاب الزّهد: (٣٣)، باب ما جاء في فناء أعمار هذه الأمّة ما بين السّتّين إلى السّبعين: (٢٣)، برقم: (٢٣٣١)، وقال: «هذا حديث حسن غريب». وقال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «حسن صحيح بلفظ: أعمار أمّتي ما بين»، ص:٣٨٤.
سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الزّهد: (٣٧)، باب الأمل والأجل: (٢٧)، برقم: (٤٢٣٦). قال الألباني رَحِمَهُ اللهُ: «حسن صحيح»، ص:٤٥٧.
سنن البيهقي، بلفظه في: باب من بلغ ستّين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر: ٣/ ٣٧٠.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ في: باب ذكر الإخبار عن وصف العدد الّذي به يكون عوام أعمار النّاس، برقم: (٢٩٨٠). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ٧/ ٢٤٦.
مستدرك الحاكم، بلفظه في: ٢/ ٤٦٣ ـ ٤٦٤، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». وقال الذّهبي رَحِمَهُ اللهُ: «على شرط مسلم».

(٢) وانظر: فتح الباري: ١١/ ٢٤٠، طبعة: دار المعرفة.

(٣) المرجع السّابق: ١١/ ٢٤٠، طبعة: دار المعرفة.

ومع ذلك لم يتركه الله هملاً بل بعث له الرّسل، وقدّم له النّذر ليزيل عنه العلل، ويقيم عليه الحجج، ويدفعه إلى الطّاعات والعمل، ويحذّره من التّواني والكسل، ليكون عند الموت على أهبة الاستعداد، وكامل العدد والعتاد.

ولذا قال سبحانه في الآية السّابقة: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾.

وقد اختلف أهل العلم في المراد بالنّذير هنا كما اختلفوا من قبل في مبلغ عمر الإنذار على أقوال:

١ ـ قول أكثر المفسّرين أنّه محمّد ﷺ[(١)].

ولا شكّ أنّ رسول الله بل رسل الله جميعاً أعظم منذرين إلى الأمم، فالله أرسلهم ليقيم حججه بهم على العباد كما قال سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النّساء: ١٦٥]، وقال: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك: ٨ ـ ٩]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقد اختار ابن جرير رحمه الله هذا القول، ونصره ابن كثير رحمه الله[(٢)].

٢ ـ إنّه القرآن[(٣)].

والقرآن جعله الله كذلك نذيراً لهذه الأمّة لما فيه من حجج وقوارع، وتوجيهات وإرشادات، وتبشير وإنذار، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠].

---

(١) معالم التّنزيل: ٣/ ٥٧٣.

(٢) جامع البيان: ٢٢/ ١٤٢. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٩١.

(٣) انظر: معالم التّنزيل: ٣/ ٥٧٣. الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٣. فتح القدير: ٤/ ٣٥٤.

٣ ـ إنّه الشّيب[١].

لأنّ الشّيب يأتي في سنّ الاكتهال، وهو علامة لمفارقة سنّ الصّبا الّذي هو سنّ اللّهو واللّعب[٢]. كما قيل:

رأيت الشّيب من نذر المنايا ... لصاحبه وحسبك من نذير[٣]

وقال آخر:

ثلاث وستون قد جزتها ... فماذا تؤمّل أو تنتظر
وحلّ عليك نذير المشيب ... فما ترعوي[٤] أو فما تزدجر
تمرّ لياليك مرّاً حثيثاً ... وأنت على ما أرى مستمر
فلو كنت تعقل ما ينقضي ... من العمر لاعتضت خيراً بشرّ
فما لك ويحك لا تستعد إذن ... لدار المقام ودار المقر
أترغب عن فجأة للمنون ... وتعلم أن ليس منها وزر
فإمّا إلى جنّة أزلفت ... وإمّا إلى سقر تستمر[٥]

٤ ـ إنّه كمال العقل[٦]:

لأنّ كمال العقل تعرف به حقائق الأمور، ويفصل به بين الحسنات والسّيّئات، فالعاقل يعمل لآخرته، ويرغب فيما عند ربّه، فهو نذير[٧].

---

(١) انظر: جامع البيان: ٢٢/ ١٤٢. معالم التّنزيل: ٣/ ٥٧٣. الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٣. أنوار التّنزيل: ٤/ ٤٢٢. تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٨٩١. فتح القدير: ٤/ ٣٥٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٤.

(٣) أورده القرطبي في الجامع: ١٤/ ٣٥٤. والتّذكرة، ص:٤٦، ولم يشر لقائله، ولم أقف عليه.

(٤) يقال: لا يَرْعَوي إِلى شَيْءٍ منه: أي لا ينكفُّ ولا ينزجر، من رعا يَرْعُو إذا كفَّ عن الأُمور. لسان العرب: ١٤/٣٢٨. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٢٤٨.

(٥) التّذكرة، ص:٤٧، ونسبه إلى القاضي منذر بن سعيد البلّوطي رحمه الله. والبيت الخامس منكسر عن الوزن فلعلّ كلمة «إذن» زائدة.

(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٣. أنوار التّنزيل: ٤/ ٤٢٢. فتح القدير: ٤/ ٣٥٥.

(٧) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٤. التّذكرة، ص:٤٨.

٥ ـ إنّه موت الأهل والأقارب[١].

وموت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان إنذار بالرّحيل في كلّ وقت وأوان وحين وزمان[٢]. كما قيل:

الموت في كلّ حين ينشر الكفنا ... ونحن في غفلة عمّا يداوينا
لا تطمئن إلى الدّنيا وبهجتها ... وإن توشّحت من أثوابها الحَسَنا
أين الأحبّة والجيران ما فعلوا ... أين الّذين هموا كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأساً غير صافية ... فصيّرتهم لأطباق الثّرى رَهَنا[٣]

٦ ـ إنّه الحمّى[٤].

وروي في خبر عنه ﷺ أنّه قال: «الحمّى رائد الموت»[٥].

قال الأزهري رَحِمَهُ اللهُ:

«وفي الحديث: «الحمّى رائد الموت» أي رسول الموت، كالرّائد الّذي يبعث ليرتاد منزلاً»[٦].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٣. أنوار التّنزيل: ٤/ ٤٢٢. فتح القدير: ٤/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٤. التّذكرة، ص:٤٨.

(٣) المرجع السّابق، ص:٤٧ ـ ٤٨، ونسبه للفقيه أبي عبد الله محمّد بن أبي زمنين رَحِمَهُ اللهُ.

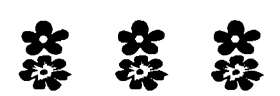
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٣٥٣. فتح القدير: ٤/ ٣٥٤.

(٥) مسند الشّهاب، بلفظه في: ١/ ٦٩، عن عبد الرّحمٰن بن المرقّع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وعن الحسن رَحِمَهُ اللهُ مرسلاً.
المرض والكفّارات، لأبي بكر عبد الله بن محمّد القرشي المعروف بابن أبي الدّنيا، تحقيق: عبد الوكيل النّدوي، طبعة: الدّار السّلفيّة، بومباي، الطّبعة الأولى: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: ص:٧٣، ٨٨، عن الحسن رَحِمَهُ اللهُ مرسلاً.
وفي: ص:٧٤ عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ مرسلاً.
قال الزّمخشري:
«رود هو رسولُ القوم الّذي يرتادُ لهم مساقط الغيث، وقد راد الكلأ يرُوده رياداً. وفي أمثالهم: لا يكذبُ الرّائدُ أهله. فشبّه به الحمّى كأنّها مقدّمة الموت وطليعتُه لشدّة أمرها». الفائق: ٢/ ٩٠. وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٢٧٥.

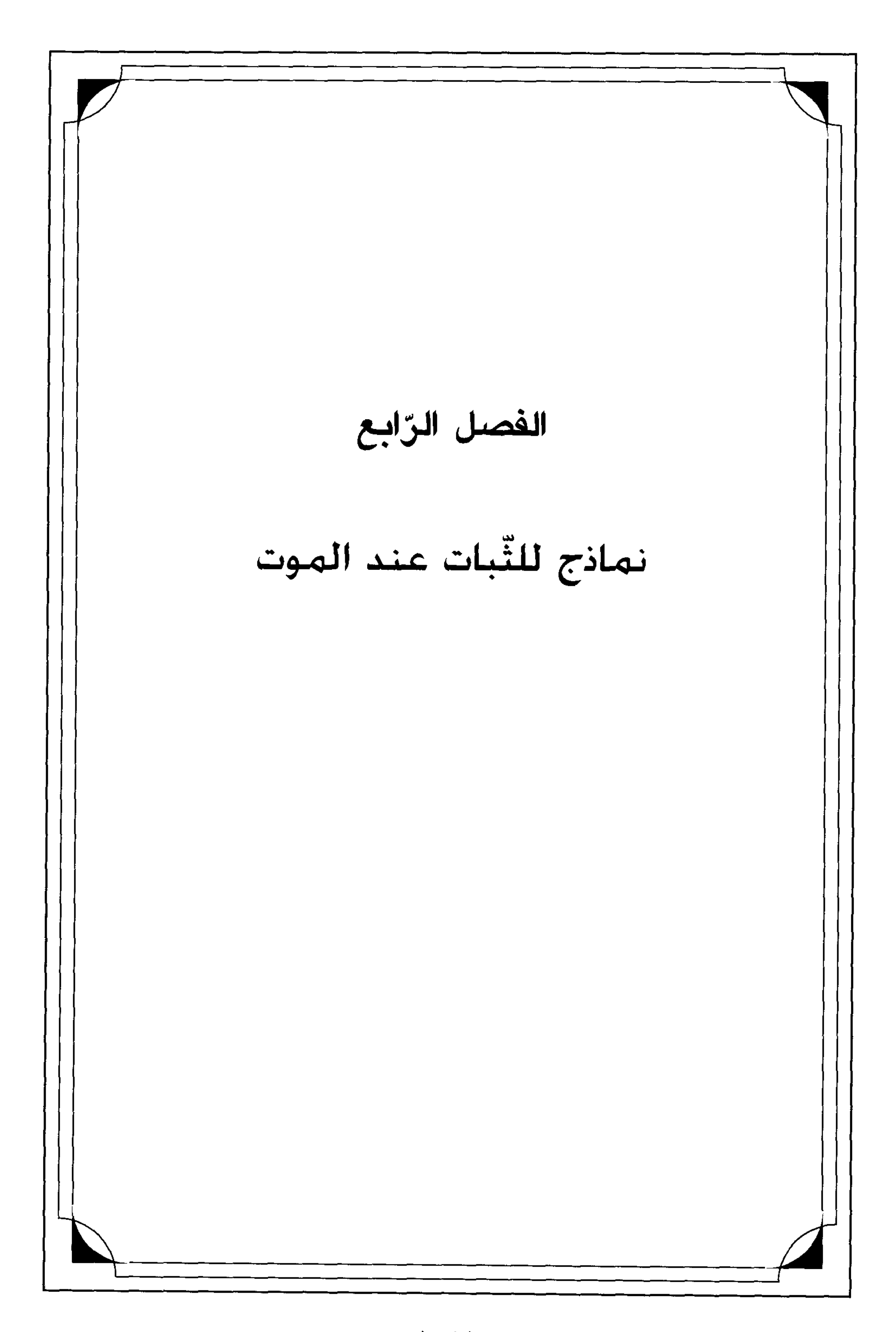
(٦) تهذيب اللّغة: ١٤/ ١٦٣.

إذا عُلم هذا يتبيّن لنا ممّا سبق أنّ الّذي رجّحه أكثر أهل التّفسير أنّ المراد بالنّذير في الآية هو الرّسول ﷺ.

ولكن لا يمنع ذلك أن يكون جميع ما ذُكر نُذُراً تنذر بحلول الأجل ودنو الرّحيل، إذ كلّها علامات تنبّه من حلّت به على قرب الزّوال من هذه الحياة، ووشيك الانتقال إلى عالم البرزخ، فيعدّ العدّة ويتأهب للسّفر، فيتزوّد بالتّقوى، ويكثر من الطّاعات، ويجانب الآثام والمنكرات، ويداوم على الأعمال الصّالحات من غير جفاء ولا كسل، ولا خمول ولا ملل، حتّى إذا فاجأه هاذم اللّذّات ومفرق الجماعات وجده رابط الجأش ملتزماً بالثّبات، غير مضيّع ولا مفرّط، فحاز السّعادة ونال الأمنيات، بنيل رضوان الله ودخول الجنّات.

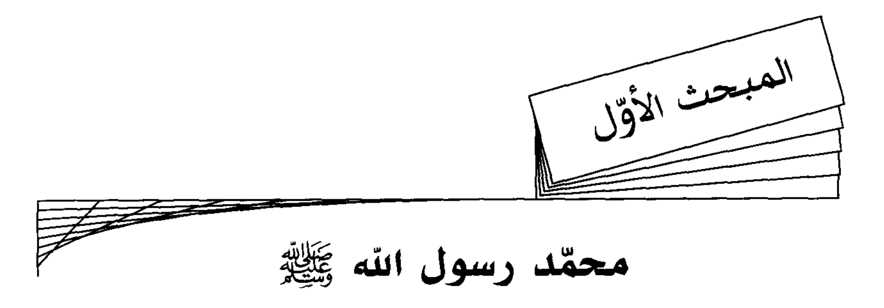






الفصل الرّابع

نماذج للثّبات عند الموت



محمّد رسول الله ﷺ

لم يجعل الله لبشر الخلد في الأرض، ولو فعل لكان أولى بالخلد أفضل البشر، وخيرهم عند ربّه محمّد ﷺ، ولكنّ الله وجّه له الخطاب في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤].

ونعى إليه نفسه وهو لا يزال على قيد الحياة فقال له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزّمر: ٣٠ ـ ٣١].

قال القرطبي رحمه الله بعد إيراده للآية:

«وهو خطاب للنّبي ﷺ أخبره بموته وموتهم، فاحتمل خمسة أوجه:

أحدها: أن يكون ذلك تحذيراً من الآخرة، الثّاني: أن يذكّره حثّاً على العمل، الثّالث: أن يذكّره توطئة للموت، الرّابع: لئلا يختلفوا في موته كما اختلفت الأمم في غيره... الخامس: ليعلمه أنّ الله تعالى قد سَوَّى فيه بين خلقه مع تفاضلهم في غيره، لتكثر فيه السّلوة وتقلّ فيه الحسرة»[1].

ومدحه ربّه وأثنى عليه أمره أن يقول: إنّ حياته ومماته وجميع أعماله لله وحده، خالصة له من كلّ شائبة، فليس لأحد سواه فيها نصيب وذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وفي هذا دلالة على أنّه يموت، وأنّه يموت على الإيمان كما كانت حياته عليه[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥/ ٢٥٤.

(٢) انظر: معالم التّنزيل: ٢/١٤٦. أنوار التّنزيل: ٢/ ٤٧٢.

ومع ذلك فقد نبّهه الله بعلامات تدلّ على دنو أجله وقرب رحيله ليكثر من التّزوّد بالطّاعات والأعمال الصّالحات.

* لقد أنزل عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النّصر: ١ ـ ٣].

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما:

«نعيت لرسول الله ﷺ نفسه حين أنزلت فأخذ في أشدّ ما كان اجتهاداً في أمر الآخرة»[١].

وقد سأل عمر رضي الله عنه ابن عبّاس رضي الله عنهما عما يعلمه من هذه السّورة فقال: «أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه»، فقال عمر: «ما أعلم منها إلّا ما تعلم»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك»، قالت: قلت: يا رسول الله ما هذه الكلمات الّتي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: «جعلت لي علامة في أمّتي إذا رأيتها قلتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾»[٣].

---

(١) معجم الطّبراني الكبير: ١١/٣٢٨. معجم الطّبراني الأوسط: ٢/ ٢٨٤. تفسير القرآن العظيم: ٤/٨٩٧. وانظر: صحيح البخاري، كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب قوله: ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النّصر: ٢]: (٣/ ٢)، برقم: (٤٩٦٩)، ص:١٠٩٦.

(٢) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦٢٧)، ص:٧٦٣، وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٤٤٣٠)، ص:٩٢٢، وبلفظ مقارب في: باب: (٥١/ ٥٢)، برقم: (٤٢٩٤)، ص:٨٩٣، وفي كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النّصر: ٣]: (٤/ ٣)، برقم: (٤٩٨٠)، ص:١٠٩٧.

(٣) صحيح البخاري، نحوه في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب: (١)، برقم: (٤٩٦٧)، ص:١٠٩٦.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٤)، باب ما يقال في الرّكوع والسّجود: (٤٢)، برقم: (٤٨٤): ١/ ٣٥١.

وقد نزلت هذه السّورة عليه في أوساط أيّام التّشريق في حجّة الوداع فعلم أنّه الوداع، فودّع النّاس فيها بخطبة أمرهم ونهاهم مبيّناً لهم أمور الإسلام العظام[١]. وقال للنّاس: «لتأخذوا مناسككم فإنّي لا أدري لعلّي لا أحجّ بعد حجّتي هذه»[٢]. وقال عندما قرب من المدينة: «أيّها النّاس فإنّما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربّي فأجيب»[٣].

* عن فاطمة رضي الله عنها أنّ النّبي ﷺ أسرّ إليها: «إنّ جبريل كان يعارضني القرآن كلّ سنة مرّة، وإنّه عارضني العام مرّتين، ولا أراه إلّا حضر أجلي»[٤].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النّبي ﷺ يعتكف في كلّ رمضان عشرة أيّام، فلمّا كان العام الّذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً»[٥].

والأدلّة على ذلك كثيرة، وكلّها منبّه لرسول الله ﷺ على قرب الأجل ليزداد من حسن العمل، وقد فعل ﷺ.

بل خيّره ربّه سبحانه بين البقاء في الدّنيا والانتقال منها، فاختار الانتقال ليهنأ بلقاء ربّه.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: «عبد خَيَّرَهُ الله بين أن يؤتيه زهرة الدّنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده». فبكى

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٨٩٦.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الحجّ: (١٥)، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النّحر راكباً: (٥١)، برقم: (١٢٩٧)، ٢/ ٩٤٣، عن جابر رضي الله عنه.

(٣) المرجع السّابق، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (٤)، برقم: (٢٤٠٨)، ٤/ ١٨٧٣، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المناقب: (٦١/ ٣٧)، باب علامات النّبوّة في الإسلام: (٢٥)، برقم: (٣٦٢٤)، ص: ٧٦٢.
صحيح مسلم، نحوه في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب فضائل فاطمة بنت النّبي عليها الصّلاة والسّلام: (١٥)، برقم: (٢٤٥٠)، ٤/ ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥.

(٥) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الاعتكاف: (٣٣/ ٩)، باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان: (١٧/ ٩٢)، برقم: (٢٠٤٤)، ص: ٤٢٤.

أبو بكر وبكى فقال: فديناك بآبائنا وأمّهاتنا. قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخيّرُ، وكان أبو بكر أعلمنا به[1].

وعن أبي مُوَيْهِبَة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنّي قد أوتيت بمفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثمّ الجنّة، فخيّرت بين ذلك وبين لقاء ربّي». قلت: بأبي أنت وأمّي خذ مفاتيح خزائن الدّنيا والخلد فيها ثمّ الجنّة. قال: «لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربّي»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ وهو صحيح يقول: إنّه لم يقبض نبي قطّ حتّى يرى مقعده من الجنّة ثمّ يُحَيَّى أو يُخَيَّر[3]»[4].

---

(١) المرجع السّابق، بلفظ مقارب في: كتاب مناقب الأنصار (المناقب): (٦٣/ ٣٧)، باب هجرة النّبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة: (٤٥/ ١٠٥)، برقم: (٣٩٠٤)، ص:٨١٦، ونحوه في: كتاب الصّلاة: (٨/ ٥)، باب الخوخة والممر في المسجد: (٨٠)، برقم: (٤٦٦)، ص:١١٤، وفي كتاب فضائل أصحاب النّبي ﷺ (المناقب): (٦٢/ ٣٧)، باب قول النّبي ﷺ: «سدّوا الأبواب إلّا باب أبي بكر»: (٣/ ٣١)، برقم: (٣٦٥٤)، ص:٧٦٨.
صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه: (١)، برقم: (٢٣٨٢)، ٤/ ١٨٥٤.

(٢) سنن الدّارمي، بلفظه في: باب وفاة النّبي ﷺ: ١/ ٥٠.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٣/ ٤٨٩، ونحوه في: ٣/ ٤٨٨.
مستدرك الحاكم، بلفظ مقارب في: ٣/ ٥٧، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم إلّا أنّه عجب بهذا الإسناد». ووافقه الذّهبي رحمه الله. والحديث إسناده ضعيف، ولكن يشهد له حديث أبي سعيد رضي الله عنه السّابق.
وانظر: بحثاً مطوّلاً عنه في: الموسوعة الحديثيّة مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٥/ ٣٧٥ ـ ٣٧٨، الهامش.

(٣) شكّ من الرّاوي. والرّوايات الأخرى تؤيّد رواية «يخيّر». وانظر: فتح الباري: ٨/ ١٣٧، طبعة: دار المعرفة.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٤٤٣٧)، ص:٩٢٣، وبلفظ مقارب في: باب آخر ما تكلّم به النّبي ﷺ: ٨٤/ ٨٥، برقم: (٤٤٦٣)، ص:٩٢٧، وفي كتاب الرّقاق: (٨١/ ٥٥)، باب من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه: (٤١)، برقم: (٦٥٠٩)، ص:١٣٨٤.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب في فضل عائشة رضي الله عنها: (١٣)، برقم: (٢٤٤٤)، ٤/ ١٨٩٤.

ولمّا دنا وقت رحيله ﷺ اشتدّ وجعه، فكان يجلس في مِخْضَب[1] ويصبّ عليه الماء من سبع قرب لم تحلّل أوكِيَتُهنّ[2]، يتبرّد بذلك[3].

فلمّا اشتدّ عليه الألم قيل له في ذلك فقال: «إنّا كذلك يشدّد علينا البلاء، ويضاعف لنا الأجر»[4]. وقال: «إنّي أوعك كما يوعك رجلان منكم»[5].

وكان يبلغ به الوجع مبلغاً عظيماً. وفي ذلك تقول عائشة ﷺ: «ما رأيت أحداً أشدّ عليه الوجع من رسول الله ﷺ»[6].

فلمّا حضرت لحظات الاحتضار اشتدّ به الأمر ﷺ وبلغ به الجهد مبلغه،

---

(١) المخضب: إناء تغسل فيه الثّياب. انظر: غريب الحديث للهروي: ٣/ ٩١. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٣٩.

(٢) الوِكاءُ: هو الخَيْط الّذي تُشَدُّ به الصّرّة والكِيسُ والقربة وغير ذلك. يقال: أَوْكَيتُ السِّقَاء أُوكِيه إيكاءً فهو مُوكى. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب الوضوء: (٤)، باب الغسل والوضوء في المخضب والقدح والخشب والحجارة: (٤٥/ ٤٧)، برقم: (١٩٨)، ص: ٦٠ ـ ٦١، كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٤٤٤٢)، ص: ٩٢٤، كتاب الطّبّ: (٧٦/ ٥٠)، باب: (٢٢)، برقم: (٥٧١٤)، ص: ١٢٤٠. صحيح مسلم، كتاب الصّلاة: (١٤)، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر: (٢١)، برقم: (٤١٨)، ١/ ٣١١.

(٤) سنن البيهقي، بلفظه في: باب ما ينبغي لكلّ مسلم أن يستشعره من الصّبر على جميع ما يصيبه: ٣/ ٣٧٢.
مستدرك الحاكم، بلفظه في: ١/ ٩٩، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم»، ونحوه في: ٤/ ٣٤٢، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه».
مسند أبي يعلى، بلفظه في: ٢/ ٣١٢ ـ ٣١٣، برقم: (١٠٤٥).

(٥) سبق تخريجه انظر: ص: ٣٦٧.

(٦) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب المرضى: (٧٥/ ٤٩)، باب شدّة المرض: (٢)، برقم: (٥٦٤٦)، ص: ١٢٢٨.
صحيح مسلم، بلفظه ـ إلّا أنّها قالت: «رجلاً» ـ: في: كتاب البر والصّلة والآداب: (٤٥)، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أن نحو ذلك: (١٤)، برقم: (٢٥٧٠)، ٤/ ١٩٩٠.

حتّى قالت عائشة رضي الله عنها: «ما أغبط أحداً بهون موت بعد الّذي رأيت من شدّة موت رسول الله ﷺ»[1].

أي لا أحسد أحداً ولا أتمنّى ولا أفرح لأحد بسهولة موت لمّا رأيت شدّة وفاته، وعلمت أنّ ذلك ليس من المنذرات الدّالّة على سوء عاقبة المتوفى، وأنّ هون الموت وسهولته ليس من المكرمات، وإلّا لكان ﷺ أوْلى النّاس به: فلا أكره شدّة الموت لأحد، ولا أغبط أحداً يموت من غير شدّة[2].

وعنها رضي الله عنها قالت: «رأيت رسول الله ﷺ وهو بالموت وعنده قدح فيه ماء، وهو يدخل يده في القدح ثمّ يمسح وجهه الماء ثمّ يقول: «اللّهم أعنّي على غمرات الموت أو سكرات الموت»[3].

وفي رواية أنّه جعل يقول: «لا إله إلّا الله إنّ للموت سكرات»[4].

ولمّا جعل يتغشّاه الكرب، قالت فاطمة رضي الله عنها: «واكرب أبتاه»، فقال رسول الله ﷺ: «لا كرب على أبيك بعد اليوم. إنّه قد حضر من أبيك ما ليس بتارك منه أحداً الموافاة يوم القيامة»[5].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

«إنّ المراد بالكرب ما كان يجده من شدّة الموت، وكان فيما يصيب جسده من الآلام كالبشر ليتضاعف له الأجر»[6].

---

(١) سبق تخريجه انظر: ص:٩٨٧.
(٢) تحفة الأحوذي: ٤/ ٤٨ ـ ٤٩، بتصرّف.
(٣) سبق تخريجه انظر: ص:٩٨٦. (٤) سبق تخريجه انظر: ص:٩٨٦.
(٥) صحيح البخاري، بلفظ مقارب ـ إلى قوله: «كرب بعد اليوم ـ في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب مرض النّبي ﷺ ووفاته: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٤٤٦٢)، ص:٩٢٧، عن أنس رضي الله عنه.
سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦)، باب ذكر وفاته ودفنه ﷺ: (٦٥)، برقم: (١٦٢٩). قال الألباني رحمه الله: «حسن صحيح»، ص:١٧٨.
(٦) فتح الباري: ٨/ ١٤٩، طبعة: دار المعرفة.

ومع هذه الشّدّة وذلك الضّنك إلّا إنّه ﷺ ظلّ ثابتاً ثباتاً يفوق ثبات كلّ من ثبت، وبقي صابراً صبراً يزيد على صبر كلّ من صبر، وكيف لا يثبت وهو الّذي علم رفيع منزلته عند الله، وعظيم مكانته عند مولاه، وبه يقتدى في الثّبات، وله ينسب وبه يعرف، وهو إمام الثّابتين، وسيّد الصّابرين؟.

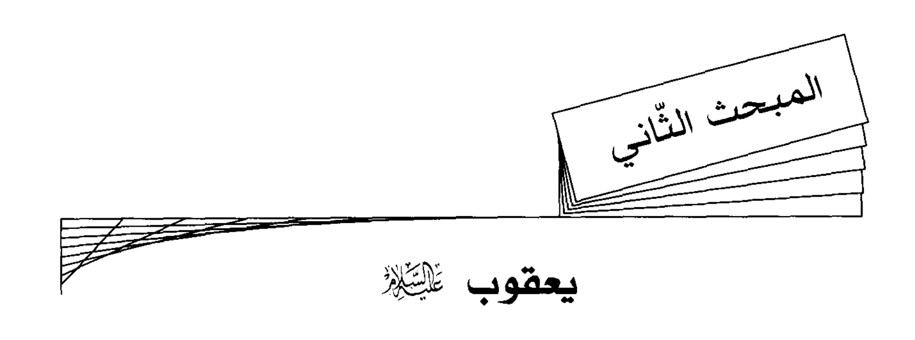
ودلّ على ذلك قوله ﷺ في آخر ما تكلّم به: «مع الرّفيق الأعلى مع الّذين أنعم الله عليهم من النّبيّين والصّدّيقين والشّهداء والصّالحين وحسن أولئك رفيقاً»[1]. وفي رواية: جعل يقول: «في الرّفيق الأعلى» حتّى قبض ومالت يده»[2].

فسروره ﷺ بلقاء ربّه، وفرحه بالحصول على عظيم ثوابه وجزيل أجره، وتنعّمه بمرافقة الخيّرين من عباد الله أنساه كلّ ذلك شدّة الموت وعظيم سكرته، فظلّ ثابتاً صابراً محتسباً إلى أن رفعت روحه إلى الرّفيق الأعلى ﷺ.



(١) سبق تخريجه بلفظ مقارب، انظر: ص:١٠٢٠. وانظر: صحيح البخاري: كتاب المغازي: (٦٤/٣٨)، باب آخر ما تكلّم به النّبي ﷺ: (٨٤/ ٨٥)، برقم: (٤٤٦٣)، ص:٩٢٧. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصّحابة: (٤٤)، باب في فضل عائشة رضي الله تعالى عنها: (١٣)، برقم: (٢٤٤٤)، ٤/ ١٨٩٣.

(٢) سبق تخريجه انظر: ص:٩٨٦.



يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[1].

قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٢ ـ ١٣٣].

لقد أخبر الله عن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أنّه وصّى بنيه كما وصّى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بنيه من قبل على توحيد الله تعالى، وطاعته والخضوع له، والإسلام الّذي اختاره الله لهم رحمة بهم وإحساناً إليهم. وحذّرهم إن فارقوا ذلك طرفة عين خشية أن تخترمه المنيّة وهم على غيره فيهلكوا.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾:

«إيجاز بليغ، والمعنى: الزموا الإسلام ودوموا عليه ولا تفارقوه حتّى تموتوا، فأتى بلفظ موجز يتضمّن المقصود، ويتضمّن وعظاً وتذكيراً بالموت، وذلك أنّ المرء يتحقّق أنّه يموت ولا يدري متى، فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلّا وهو عليه، فقد توجّه الخطاب من وقت الأمر دائباً لازماً»[2].

---

(١) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النّبي ﷺ إنّه قال: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِمُ السَّلَامُ». صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ [البقرة: ١٣٣]: (١٨/ ١٩)، برقم: (٣٣٨٢)، ص: ٧١٤. وانظر: حديث رقم: (٣٣٩٠، ٤٦٨٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧.

ويؤيّد ذلك ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله:

«أي أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإنّ المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنّه من قصد الخير وفّق له ويسّر عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه»[1].

وإذا كان عَلَيْهِ السَّلَامُ وصّى أبناءه وأرشدهم إلى الثّبات على الإسلام حتّى الموت دلّ ذلك على ثباته هو على ما أرشد إليه ووصّى به، ويتّضح ذلك جليّاً في إخبار الله عنه وهو في سياق الموت، حيث يقول لأبنائه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى﴾ ليختبر حالهم بعد وفاته، وتقرّ عينه بامتثالهم ما وصّاهم به بعد مماته، وليتثبّت من الأمر ويستوثق الحال، فأجابوه بما أقرّ عينه وأراح باله بأنّهم ثابتون على الإسلام، خاضعون منقادون لله، عابدون له، موحّدون، لا يشركون به شيئاً ولا يعدلون[2].

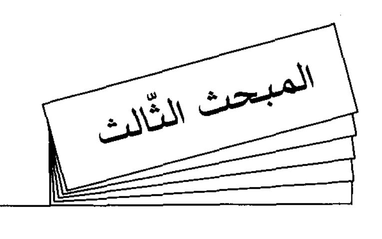
فثباته عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن قاصراً على نفسه، بل أراد أن يثبّت غيره وهو في حال الموت، وهذا من أعظم أنواع الثّبات.



---

(١) تفسير القرآن العظيم: ١/٢٧٧. وانظر: جامع البيان: ١/٥٦١. معالم التّنزيل: ١/ ١١٨. أنوار التّنزيل: ١/٤٠٥. فتح القدير: ١/١٤٥.

(٢) وانظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص:٤٩.



جماعة من السّلف الصّالح رحمهم الله

إنّ تاريخ الإسلام الأبيض النّاصع مليءٌ بجهابذة من الخيِّرين الّذين عُرِف ظاهرهم بالصّلاح، وسلِمَت عقيدتهم، وحَسُن تديّنهم لله تعالى، وقد تركوا بصمات مضيئة في العلم والعمل والثّبات عليه، دوّنها لهم تاريخ الإسلام الحافل بالعلماء الرّبانيين والأتقياء النّاسكين، لتكون نبراساً ينشأ على ضوء نوره أجيال متعاقبة من أبناء الإسلام المخلصين، فيأخذون منه جمال القدوة وحسن الأسوة.

وأنتخب هنا جماعة من أولئك الأفذاذ، والّذين دوّنت لهم عبارات عند الاحتضار تكشف عن ثباتهم، وتدلّل على صبرهم، وصدق توجّههم لله تعالى، ليكونوا نماذج صادقة في الثّبات عند الموت، وليبرهنوا على صدق هذا الدّين العظيم الّذي جعله الله تعالى ديناً للبشريّة جمعاء، لا يقبل ديناً سواه.

من أولئك:

* **بلال بن رباح** رضي الله عنه:

قال عنه سعيد بن عبد العزيز رحمه الله[1]:

(١) سعيد بن عبد العزيز بن أبي يحيى أبو محمّد التّنوخي الدّمشقي، الإمام الحافظ، فقيه أهل دمشق ومفتيهم، من العبّاد الزّاهدين، ثقة ثبت، اختلط قبل موته، توفّي سنة ١٦٧هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/٤٦٨. طبقات خليفة، ص:٣١٦. التّاريخ الكبير: ٣/ ٤٩٧. معرفة الثّقات: ١/ ٤٠٣. الجرح والتّعديل: ٤/ ٤٢. ثقات ابن حبّان: ٦/ ٣٦٩. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٨٤. تهذيب الكمال: ١٠/٥٣٩. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٢١٩. الكاشف: ١/ ٤٤٠. جامع التّحصيل، ص:١٨٢. تهذيب التّهذيب: ٤/ ٥٣. تقريب التّهذيب: ١/٢٣٨. لسان الميزان: ٧/ ٢٣٠. الكواكب النّيّرات، ص:٤١.

«لمّا احتُضِرَ بلال قال: غداً نلقى الأحبّة محمّداً وحزبه، قال: تقول امرأته: واويلاه! فقال: وافرحاه»[1].

*** معاذ بن جبل رضي الله عنه:**

عن الحارث بن عَمِيرة رحمه الله[2] قال:

«إنّي لجالس عند معاذ، وهو يموت، وهو يُغمى عليه ويفيق، فقال: «اخنق خنقك فوعزّتك إنّي لأحبّك»[3].

*** أبو هريرة رضي الله عنه:**

عن سَلْم بن بشير رحمه الله[4] قال:

«إنّ أبا هريرة رضي الله عنه بكى في مرضه فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أما إنّي لا أبكي على دنياكم هذه، ولكنّي أبكي على بعد سفري، وقلّة زادي، وإنّي أمسيت في صعود، مهبطه على جنّة ونار، ولا أدري إلى أيّتهما يؤخذ بي»[5].

ودخل عليه مروان وهو في شكواه فقال: شفاك الله يا أبا هريرة فقال: «اللّهم إنّي أحبّ لقاءك فأحِبَّ لقائي». فما بلغ مروان أصحاب القطا[6]

---

(١) سير أعلام النّبلاء: ١

(٢) الحارث بن عميرة الحارثي الزّبيدي الشّامي، أسلم في عهد النّبي ﷺ، وصحب معاذاً رضي الله عنه، صدوق في الحديث، توفّي في ولاية يزيد بن معاوية.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٢/ ٢٧٥. الجرح والتّعديل: ٣/ ٨٣. ثقات ابن حبّان: ٤/ ١٣٢. تاريخ بغداد: ٨/ ٢٠٥. الإصابة: ٢/ ١٥٨.

(٣) الطّبقات الكبرى: ٣/ ٥٨٩، ٧/ ٣٨٨. سير أعلام النّبلاء: ١/ ٤٦٠. وقد سبق قوله رضي الله عنه. انظر: ص:١٠٣٥.

(٤) سلم بن بشير بن حجل القيسي البصري، يروي عن أبي هريرة رضي الله عنه ولم يره. قال يحيى بن معين: «ليس به بأس».
وانظر: التّاريخ الكبير: ٤/ ١٥٧. الجرح والتّعديل: ٤/ ٢٦٦. ثقات ابن حبّان: ٤/ ٣٣٤، ٦/ ٤٢٠.

(٥) الزّهد لابن المبارك، بلفظه في: ص:٣٨، برقم: (١٥٤).
الزّهد لابن أبي عاصم بلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في: ص:١٥٣.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٤/ ٣٣٩. حلية الأولياء: ١/ ٣٨٣. سير أعلام النّبلاء: ٢/ ٦٢٥.

(٦) لم أقف على المراد بذلك، ولعله موضع يباع فيه القطا، وهو الطّائر المعروف.

حتّى مات[1].

* **معاوية بن أبي سفيان** رضي الله عنه:

لمّا حضرته الوفاةُ قال: أقعدوني، فأقعدوه فجعل يذكر الله ويسبّحه، ثمّ قال: «الآن تذكر ربّك يا معاوية، بعد الانحطام[2] والانهزام؟ ألا كان ذلك وغصن الشّباب ريّان؟ وبكى حتّى علا بكاؤه، ثمّ قال منشداً:

هُوَ الموت لا مَنْجا مِن الموت والّذي أحاذرُ بعد الموتِ أَدْهَى وأَفْظَع

ثمّ قال: اللّهم يا ربّ ارحم الشّيخ العاصي، والقلب القاسي، اللّهم أقل العثرة، واغفر الزّلّة، وجد بحلمك على من لا يرجو غيرك، ولا يثق بأحد سواك»[3].

* **عَمْرو بن العاص** رضي الله عنه:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما إنّ أباه قال حين احتُضِرَ:

«اللّهم إنّك أمرت بأمور، ونهيت عن أمور، تركنا كثيراً ممّا أمرت، ورتعنا[4] في كثير ممّا نَهَيْتَ، اللّهم لا إله إلّا أنت». ثمّ أخذ بإبهامه فلم يزل يهلّل حتّى فاض[5].

وفي رواية عنه أنّه قال: «اللّهم إنّك أمرتنا فأضعنا، ونهيتنا فركبنا، فلا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولكن لا إله إلّا أنت». وما زال يقولها حتّى مات[6].

---

(١) الطّبقات الكبرى: ٤/ ٣٣٩. تاريخ دمشق: ٦٧/ ٣٨٥. سير أعلام النّبلاء: ٢/ ٦٢٥.

(٢) يقال: حَطَّمَهُ فانْحَطَمَ وتَحَطَّم: إذا تكسّر في أي وجه كان، وقيل: هو كسر الشّيء اليابس خاصَّةً كالعَظْم ونحوه. انظر: لسان العرب: ١٢/ ١٣٧ ـ ١٣٨. وانظر: مختار الصّحاح، ص:١٤٣. القاموس المحيط: ١٤١٥.

(٣) تسلية أهل المصائب، ص:١٢١. وانظر: سير أعلام النّبلاء: ٣/ ١٦٠.

(٤) الرّتْعُ: الأكل والشّرب رغداً في الرّيف، ويطلق على الرّعيُ في الخصْبِ، ويقال: خرجنا نَرْتَعُ ونَلْعب: أَي نَنْعَم ونَلْهُو. انظر: لسان العرب: ٨/ ١١٢ ـ ١١٣. وانظر: مختار الصّحاح، ص:٢٣٢. القاموس المحيط، ص:٩٣٠.

(٥) تاريخ دمشق: ٤٦/١٩٦، وفي: «ووقعنا في كثير». سير أعلام النّبلاء: ٣/ ٧٥. وانظر: مسند أحمد: ٤/ ١٩٩.

(٦) الطّبقات الكبرى: ٤/ ٢٦٠. تاريخ دمشق: ٤٦/ ١٩٩. سير أعلام النّبلاء: ٣/ ٧٦ ـ ٧٧. قال المحقّق: «إسناده قوي». وانظر: مسند أحمد: ٤/ ١٩٩.

*** الحسن بن علي رضي الله عنهما:**

عن رَقَبة بن مَصْقَلَة رحمه الله[1] قال:

«لمّا حضر الحسن بن علي رضي الله عنه قال: «أخرجوني إلى الصّحراء لعلي أنظر في ملكوت السماوات». يعني الآيات. فلمّا أخرج به قال: «اللّهم إنّي أحتسب نفسي عندك، فإنّها أعزّ الأنفس عليّ». وكان ممّا صنع الله له أنّه احتسب نفسه[2].

*** عامر بن عبد قيس رحمه الله:**

قال قتادة رحمه الله:

«لمّا احتُضِر عامر بكى فقيل: ما يبكيك؟ قال: «ما أبكي جزعاً من الموت، ولا حرصاً على الدّنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام اللّيل»[3].

*** عمر بن عبد العزيز رحمه الله:**

عن ليث بن أبي رُقَيَّة رحمه الله[4] أنّ عمر بن عبد العزيز قال: «أجلسوني» فأجلسوه، فقال: «أنا الّذي أمرتني فقصّرت، ونهيتني فعصيت ـ ثلاثاً ـ ولكن لا إله إلّا الله» ثمّ أحدّ النّظر، وقال: «إنّي لأرى حضرة ما هم بإنس ولا جن». ثمّ قبض[5].

---

(١) رقبة بن مصقلة ـ ويقال: مسقلة ـ بن عبد الله أبو عبد الله، العبدي الكوفي، ثقة مأمون، متقن ورع به مزح، مفوّه من رجالات العرب، توفّي سنة ١٢٩هـ.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٣/ ٣٤٢. معرفة الثّقات: ١/ ٣٦٣. الجرح والتّعديل: ٣/ ٥٢٢. ثقات ابن حبّان: ٦/ ٣١١. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٦٧. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٥٧٨. تهذيب الكمال: ٩/ ٢١٩. الكاشف: ١/ ٣٩٨. جامع التّحصيل، ص: ١٧٥. تهذيب التّهذيب: ٣/ ٢٤٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٢١٠.

(٢) معجم الطّبراني الكبير: ٣/ ٧٠. وانظر: سير أعلام النّبلاء: ٣/ ٢٧٥.

(٣) المرجع السّابق: ٤/ ١٩.

(٤) ليث بن أبي رقيّة الثّقفي مولاهم الشّامي، كاتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله، مقبول الحديث.
وانظر: التّاريخ الكبير: ٧/ ٢٤٧. الجرح والتّعديل: ٧/ ١٨٠. تهذيب الكمال: ٢٤/ ٢٥٤. تهذيب التّهذيب: ٨/ ٤١٢. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٦٤.

(٥) سير أعلام النّبلاء: ٥/ ١٤١.

وفي رواية أنّه كان يتلو قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣] مراراً عند موته[١].

*** أبو حازم سلمة بن دينار** رَحِمَهُ اللَّهُ:

عن محمّد بن مُطَرِّف[٢] قال:

«دخلنا على أبي حازم الأعرج لمّا حضره الموت، فقلنا: كيف تجدك؟ قال: «أجدني بخير، راجياً لله، حسن الظّنّ به، إنّه والله ما يستوي من غدا أو راح يعمر عقد الآخرة لنفسه فيقدّمها أمامه قبل أن ينزل به الموت حتّى يقدم عليها، فيقوم لها وتقوم له، ومن غدا أو راح في عقد الدّنيا يعمرها لغيره، ويرجع إلى الآخرة لا حظّ له فيها ولا نصيب»[٣].

*** أبو جعفر المنصور** رَحِمَهُ اللَّهُ:

لمّا احتُضِر قال: «اللّهم إنّي قد ارتكبت عظائم جُرْأَةً منّي عليك، وقد أطعتك في أحبّ الأشياء إليك: شهادة أن لا إله إلّا الله مَنّاً منك لا مَنّاً عليك». ثمّ مات[٤].

*** علي بن صالح بن حي[٥]** رَحِمَهُ اللَّهُ:

---

(١) الزّهد لابن المبارك، ص:٣٠٩. وانظر: حلية الأولياء: ٥/ ٣٣٥. سير أعلام النّبلاء: ٥/ ١٤١. تسلية أهل المصائب، ص:١٢١ ـ ١٢٢.

(٢) محمّد بن مطرّف بن داود بن مطرّف أبو غسّان اللّيثي التّيمي المدني، إمام حافظ، أحد العلماء الثّقات الأثبات، توفّي بعسقلان قبل سنة ١٧٠هـ.
وانظر: التّاريخ الكبير: ١/ ٢٣٦. الجرح والتّعديل: ٨/ ١٠٠. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٤٢٦. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٨١. تاريخ بغداد: ٣/ ٢٩٥. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٦٤٢. تهذيب الكمال: ٢٦/ ٤٧٠. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٢٤٢. الكاشف: ٢/ ٢٢٢. تهذيب التّهذيب: ٩/ ٤٠٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٥٠٧. لسان الميزان: ٧/ ٣٧٦.

(٣) سير أعلام النّبلاء: ٦/ ١٩٩.

(٤) المرجع السّابق: ٧/ ٨٧.

(٥) علي بن صالح بن حي، أبو محمّد أبو الحسن، الهمداني الكوفي المقرئ، رأس في العلم والعمل، ثقة قليل الحديث، توفّي سنة ١٥١، وقيل: بعدها.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٣٧٤. طبقات خليفة، ص:١٦٨. التّاريخ الكبير: =

قال الحسن بن صالح رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

«لمّا احتُضر أخي، رفع بصره ثمّ قال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النّساء: ٦٩] ثمّ خرجت نفسه، فنظرنا فإذا ثقب في جنبه قد وصل إلى جوفه، وما علم به أحد»[2].

* عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال أحمد بن عبد الله العجلي: حدثني أبي[3] قال:

«لمّا احتضر ابن المبارك جعل رجل يلقّنه قل: لا إله إلّا الله. فأكثر عليه، فقال له: «لست تُحْسِنُ، وأخاف أن تُؤذي مسلماً بعدي، إذا لقّنتني، فقلت: لا إله إلّا الله، ثمّ لم أحدث كلاماً بعدها، فدعني، فإذا أحدثت كلاماً فلقّني حتّى تكون آخر كلامي»[4].

= ٦/ ٢٨٠. معرفة الثّقات: ٢/ ١٥٤. الجرح والتّعديل: ٦/ ١٩٠. ثقات ابن حبّان: ٧/ ٢٠٨. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٦٩. تهذيب الكمال: ٢٠/ ٤٦٤. الكاشف: ٢/ ٤١. تهذيب التّهذيب: ٧/ ٢٩٢. تقريب التّهذيب: ١/ ٤٠٢. لسان الميزان: ٧/ ٣١١.

(١) الحسن بن صالح بن صالح بن حي، أبو عبد الله الثّوري الهمداني الكوفي، الإمام القدوة، والفقيه العابد الزّاهد، ثبت، حسن الفقه، رمي بالتّشيّع، توفّي سنة ١٦٩هـ، وقيل: غير ذلك.
وانظر: طبقات خليفة، ص:١٦٨. التّاريخ الكبير: ٢/ ٢٩٥. معرفة الثّقات: ١/ ٢٩٦. الجرح والتّعديل: ٣/ ١٨. ثقات ابن حبّان: ٦/ ١٦٤. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ١٧٠. تهذيب الكمال: ٦/ ١٧٧. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٢١٦. الكاشف: ١/ ٣٢٦. تهذيب التّهذيب: ٢/ ٢٤٨. تقريب التّهذيب: ١/ ١٦١. لسان الميزان: ٧/ ١٩٦.

(٢) سير أعلام النّبلاء: ٧/ ٣٧٢.

(٣) هو عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي، الكوفي نزيل بغداد، المقرئ، محدّث ثقة، توفي سنة ٢١١هـ.
وانظر: معرفة الثّقات: ٢/ ٣٨. الجرح والتّعديل: ٥/ ٨٥. ثقات ابن حبّان: ٨/ ٣٥٢. تاريخ بغداد: ٩/ ٤٧٧. التّعديل والتّجريح: ٢/ ٨٣٤. تهذيب الكمال: ١٥/ ١٠٩. تذكرة الحفّاظ: ١/ ٣٩٠. الكاشف: ١/ ٥٦٢. تهذيب التّهذيب: ٥/ ٢٢٩. تقريب التّهذيب: ١/ ٣٠٨. لسان الميزان: ٧/ ٢٦٤.

(٤) سير أعلام النّبلاء: ٨/ ٤١٨.

* **الإمام الشّافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قال المُزَنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]:

«دخلت على الشّافعي في مرضه الّذي مات فيه، فقلت: يا أبا عبد الله كيف أصبحت؟ فرفع رأسه وقال: «أصبحت من الدّنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولسوء عملي ملاقياً، وعلى الله وارداً، ما أدري روحي تصير إلى جنّة فأهَنِّيها، أو إلى النّار فأُعَزِّيها»، ثمّ بكى، وأنشأ يقول:

ولمّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلتُ رجائي دُونَ عفوك سُلما
تَعاظَمَني ذنبي فلمّا قرنتهُ ... بعفوك ربّي كان عفوكَ أعظما
فما زلت ذا عفوٍ عن الذّنب لم تزل ... تجودُ وتعفو مِنّةً وتَكرُّما
فإن تنتقم منّي فلستُ بآيسٍ ... ولو دخلت نفسي بجرمي جهنّما
ولولاك لم يغْوى بإبليس عابدٌ ... فكيف وقد أَغوى صَفيَّكَ آدما
وإنّي لآتي الذّنْبَ أعرفُ قَدْرَهُ ... وأعْلَمُ أنّ اللهَ يعفُو تَرَحُّما[2]

هذه نماذج، وغيرها كثير لأهل الحقّ المتمسّكين بهذا الدّين قولاً وعملاً، أيقنوا بما عند الله، وصدّقوا بما جاءهم عن رسول الله ﷺ فعضّوا عليه بالنّواجذ، وتشبّثوا به، وطبّقوه في أفعالهم وأحوالهم وأقوالهم، ولم يلتفتوا إلى غيره من أقوال أو أفعال أو اعتقادات تخالف ذلك، ولذا كانوا عند الموت

---

(١) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل أبو إبراهيم المُزَني المصري، تلميذ الإمام الشّافعي، عابد زاهد معظّم للعلم وأهله، قليل الرّواية، رأس في الفقه، مجتهد قوي الحجّة، وهو ناشر مذهب الإمام الشّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال عنه الإمام الشّافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المزني ناصر مذهبي»، من آثاره: المختصر، والجامع الكبير والصّغير، توفّي سنة ٢٦٤هـ.
وانظر: الجرح والتّعديل: ٢/ ٢٠٤. وفيات الأعيان: ١/ ٢١٧. سير أعلام النّبلاء: ١٢/ ٤٩٢. العبر: ١/ ٣٧٩. طبقات الشّافعيّة الكبرى: ٢/ ٩٣. البداية والنّهاية: ١/ ٣٦. النّجوم الزّاهرة: ٣/ ٣٩. شذرات الذّهب: ٣/ ٢٧٨. الأعلام: ١/ ٣٢٩.

(٢) مناقب الشّافعي للبيهقي: ٢/ ١١١، ٢٩٣، ٢٩٤. تاريخ دمشق: ٥٠/ ٣٣١ ـ ٣٣٢، ٥١/ ٤٣٠ ـ ٤٣١. سير أعلام النّبلاء: ١٠/ ٧٥ ـ ٧٦. وقال: «إسناده ثابت عنه».
طبقات الشّافعيّة الكبرى: ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦.
وانظر: ديوان الشّافعي، ص:٥٩ ـ ٦٠.

ثابتين، وعلى ما هم عليه مطمئنّين، وفيما عند الله راغبين، وهذا شأن كلّ من تمسّك بهدي المصطفى ﷺ وظلّ عليه حتّى فارق هذه الحياة.

قال ابن القيّم رَحِمَهُ اللهُ:

«قلوب أصحاب الأدلّة السّمعيّة مطمئنّة بالإيمان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته واليوم الآخر، لا يضطّربون في ذلك، ولا يتنازعون فيه، ولا يعرض لهم الشّكّ عند الموت، ولا يشهدون على أنفسهم ويشهدون على غيرهم بالحيرة والوقوف والشّكّ»[1].

وهذا بخلاف من أعرض عن كتاب الله، وغفل عن هدي رسول الله ﷺ، وتمسّك بأمور من وساوس الشّيطان، ما أنزل الله بها من سلطان، ولا قام على صحّتها دليل ولا برهان، فإنّه يحدث له الاضطّراب والحيرة والشّكّ عند الموت، كأمثال أهل الكلام المذموم، فإنّهم أكثر النّاس شكّاً عند الموت وعدم ثبات[2].

فالتّلمساني[3] لمّا دهمه الموت تغيّر واضطّرب وجعل يتأوّه، فقيل له: ممّ تتأوّه؟ فقال: من خوف الفوت، فقيل له: ومثلك يخاف الفوت وأنت تدخل الفقير[4] إلى الخَلْوَة[5] فتوصله إلى الله في ثلاثة أيام؟. فبيّن أنّ ذلك كلّه زال

---

(١) الصّواعق المرسلة: ٢/ ٧٤١ ـ ٧٤٢. (٢) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ٢٩.

(٣) سليمان بن علي بن عبد الله عفيف الدّين التّلمِساني الكومي ـ قبيلة ـ الشّاعر الصّوفي المتكلّم على طريقة ابن عربي. اتّهم برقّة الدّين والميل إلى مذهب النّصيريّة والاتحاديّة، ولذا نسبت إليه عظائم في الأقوال والاعتقادات في الحلول والاتّحاد والزّندقة، وله مصنّفات مليئة بضلال التّصوّف، توفّي سنة ٦٩٠هـ.
وانظر: العبر: ٣/ ٣٧٢. البداية والنّهاية: ١٣/ ٣٢٦. النّجوم الزّاهرة: ٨/ ٢٩. شذرات الذّهب: ٧/ ٧١٩. الأعلام: ٣/ ١٣٠.

(٤) الفقير: ضد الغني، وهو المحتاج. انظر: لسان العرب: ٥/ ٦٠ ـ ٦١. القاموس المحيط، ص:٥٨٨. وللفقير عند الصّوفيّة إطلاق آخر. قال النّووي: «نعت الفقير: السّكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود». وقال بعض الكبراء: «الفقير: هو المحروم من الإرفاق والمحروم من السّؤال». التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف، ص:٩٦.

(٥) يقال: خلال المكانُ والشّيءُ يَخْلُو خُلُوّاً وخَلاءً وأَخْلَى: إذا لم يكن فيه أحد ولا شيء فيه، وهو خالٍ، والخلوة الاسم منه. وانظر: لسان العرب: ١٤/ ٢٣٧. =

عنه وما وجد له حقيقة[1].

وابن الفارض[2] يقول عند الموت:

إن كان منزلتي في الحبّ عندكم   ما قد لقيت فقد ضيّعت أيّامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمناً   واليوم أحسبها أضغاث أحلام[3]

وأبو المعالي الجويني يقول عند موت:

«لقد خضت البحر الخضم، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الّذي نهوني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربّي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا أموت على عقيدة أمّي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور»[4].

وأبو المعالي هو القائل:

«يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أنّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به»[5].

= وعند أهل التصوّف: الخلوة محادثة السّر مع الحقّ حيث لا أحد ولا ملك. التّعريفات، ص:١٣٦.

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٢/ ٢٦٨.

(٢) عمر بن علي بن مرشد، شرف الدّين، المعروف بابن الفارض، أبو حفص الحموي ثمّ المصري، الشّاعر الفيلسوف الصّوفي. ممّن يرى وحدة الوجود، ولذا ملأ بها قصيدته التّائيّة، وهو من الفصحاء الأدباء، لقّب بسلطان العاشقين، وله ديوان شعر مطبوع، توفّي سنة ٦٣٢هـ.
وانظر: وفيات الأعيان: ٣/ ٤٥٤. سير أعلام النّبلاء: ٢٢/ ٣٦٨. العبر: ٣/ ٢١٣. ميزان الاعتدال: ٥/ ٢٥٨. البداية والنّهاية: ١٣/ ١٤٣. لسان الميزان: ٤/ ٣١٧. النّجوم الزّاهرة: ٦/ ٢٨٨. شذرات الذّهب: ٧/ ٢٦١. الأعلام: ٥/ ٥٥.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢/ ٢٤٦. وقوله في ديوانه، ص:٢٠٧، طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م، وسياقهما فيه:
إن كان منزلتي في الحبّ عندكم   ما قد رأيت فقد ضيّعت أيّامي
أمنية ظفرت روحي بها زمناً   واليوم أحسبها أضغاث أحلام
وأمنيّته المزعومة هي الاتّحاد مع الله، تعالى الله عمّا يقول علوّاً كبيراً.

(٤) شرح العقيدة الطّحاوية، ص:٢٢٨، طبعة: المكتب الإسلامي.

(٥) المرجع السّابق، ص:٢٢٨، طبعة: المكتب الإسلامي.

والخُوْنَجي[1] يقول لمّا حضره الموت:

«أموت ولم أعرف شيئاً إلّا أنّ الممكن يفتقر إلى الممتنع. ثمّ قال: الافتقار وضع سلبي، أموت ولم أعرف شيئاً»[2].

وغير هؤلاء كثيرون ممّن أعرضوا عن الكتاب والسّنّة، واشتغلوا بغيرهما فكان حالهم عند الموت الحيرة والشّكّ وعدم الثّبات[3].

وفي هذا تحذير لمن سلك مسلكهم أو نهج نهجهم فيخشى عليه من عدم الثّبات عند الممات.



(١) هو محمّد بن ناماوَر بن عبد الملك، أفضل الدّين أبو عبد الله الخونجي، فارسي الأصل، نزيل مصر، شافعي المذهب، القاضي الفيلسوف المتكلّم، له تصانيف في الطّبّ والمنطق، منها: كشف الأسرار عن غوامض الأفكار، الموجز، توفّي سنة ٦٤٦هـ.

وانظر: سير أعلام النّبلاء: ٢٢٨/٢٣. العبر: ٣/ ٢٥٥. طبقات الشّافعيّة الكبرى: ٨/ ١٠٥. البداية والنّهاية: ١٣/ ١٧٥. شذرات الذّهب: ٧/ ٤٠٩. الأعلام: ٧/ ١٢٢.

(٢) درء تعارض العقل والنّقل: ١/ ١٦٢.

(٣) وانظر طرفاً من أخبار أولئك في: شرح العقيدة الطّحاوية، ص: ٢٢٧ ـ ٢٢٩، طبعة: المكتب الإسلامي.

الباب السّابع

الثبات في القبر

وفيه فصول:

الفصل الأوّل: معاني القبر في اللّغة والشرع وأحكامه.

الفصل الثّاني: الإيمان بنعيم القبر وعذابه وحقيقة ذلك.

الفصل الثّالث: فتنة القبر وعوامل الثبات عندها.



الفصل الأوّل

معاني القبر في اللّغة والشّرع وأحكامه

قَبَرَ: القاف والباء والرّاء أصل صحيح يدلّ على غموض في شيء وتطامُن[١].

ومن ذلك يقال: أرض قَبُور: أي غامضة. ونخلة قبور: وهي الّتي يكون حملها في سعفها، أو السّريعة الحمل[٢].

وقَبَرْتُ الميِّت أَقْبِرُهُ قَبْراً: أي دفنته. وأقْبَرْتُه: أمرتُ بأن يُقبر، أو جعلت له مكاناً يُقْبَرُ فيه، أو صيّرت له قَبراً يُدفن فيه[٣].

والقَبْرُ: واحد القُبُور، وهو مدفن الإنسان[٤].

والمَقْبرةُ: مثلثة الباء، مكان القبور وجمعها مقابر[٥]. وسُمِع في الشّعر: المَقْبَرُ[٦]. وقيل: هو موضع القَبْر[٧].

---

(١) معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٤٧.

(٢) انظر: تهذيب اللّغة: ٩/ ١٣٩. معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٤٨. لسان العرب: ٥/ ٦٩. القاموس المحيط، ص: ٥٩٠. معجم متن اللّغة: ٤/ ٤٨١.

(٣) وانظر: تهذيب اللّغة: ٩/ ١٣٨. معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٤٧. الصّحاح: ٢/ ٧٨٤. مختار الصّحاح، ص: ٥١٨. لسان العرب: ٥/ ٦٩. القاموس المحيط، ص: ٥٩٠. معجم متن اللّغة: ٤/ ٤٨٠.

(٤) تهذيب اللّغة: ٩/ ١٣٨. الصّحاح: ٢/ ٧٨٤. مختار الصّحاح، ص: ٥١٨. لسان العرب: ٥/ ٦٨. القاموس المحيط، ص: ٥٩٠.

(٥) وانظر: معجم مقاييس اللّغة: ٥/ ٤٨. الصّحاح: ٢/ ٧٨٤. مختار الصّحاح، ص: ٥١٨. لسان العرب: ٥/ ٦٨. القاموس المحيط، ص: ٥٩٠.

(٦) قال عبد الله بن ثعلبة الحنفي:

أزور وأعتاد القبور ولا أرى ... سوى رمس أحجار عليه ركود

لكلّ أناس مقبر بفنائهم ... فهم ينقصون والقبور تزيد

لسان العرب: ٥/ ٦٩.

(٧) وانظر: تهذيب اللّغة: ١/ ١٣٨. الصّحاح: ٢/ ٧٨٤. لسان العرب: ٥/ ٦٨.

والقابر: هو الدّافن بيده. والمُقْبِر: هو الله تعالى، لأنّه صيّره ذا قبر. وليس فعله كفعل الآدمي[1].

والإقبَار: أن يهيّئ له قبراً، أو يُنْزِله مَنْزِله[2].

* لقد تبيّن من اللّغة أنّ القبر هو مقرّ الميّت الّذي يقبر فيه، وهو في الأصل مصدر قبرته إذا دفنته، وهو بمعنى المقبور[3].

وقد أنعم الله على الإنسان أن جعل له قبراً يوارى فيه وأكرمه به، ولم يجعله كسائر الحيوانات الّتي تلقى جيفها على وجه الأرض، ولذا قال سبحانه في معرض تعداد نعمه على البشر: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾﴾ [عبس: ٢١].

أي خصّه وأكرمه بالقبر دون سائر المخلوقات[4].

وقد أنيط القبر في السّنّة النّبويّة بأحكام متعدّدة منها:

١ ـ إعماقه وتوسيعه وتحسينه.

عن هشام بن عامر ﵁ قال: «اشتدّ الجراح يوم أحد فشُكي ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال: «احفروا وأوسعوا وأحسنوا، وادفنوا في القبر الاثنين والثّلاثة، وقدّموا أكثرهم قرآناً»[5].

---

(١) تهذيب اللّغة: ٩/ ١٣٨. وانظر: لسان العرب: ٥/ ٦٩.

(٢) المرجع السّابق: ٥/ ٦٩.

(٣) انظر: التّعاريف: ١/ ٥٧١. وقد ذكر العلماء أنّ القبر له أسماء عدّة منها: اللّحد والرّمْس والضّريح والبرزخ والحافرة والشّق (الألفاظ المؤتلفة): ١/ ٢٤٣، والجدث: (غريب الحديث لابن قتيبة): ١/ ٣٨٠. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٢٤٣) الهَدَم. (المرجع السّابق: ٥/ ٢٥٠).

(٤) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٨٤٣.

(٥) سنن أبي داود، نحوه في: كتاب الجنائز: (٢٠)، باب في تعميق القبر: (٦٥/ ٦٧)، برقم: (٣٢١٥)، ص: ٣٦٢.
سنن التّرمذي، بلفظ مقارب في: كتاب الجهاد: (٢٠)، باب ما جاء في دفن الشّهداء: (٣٤)، برقم: (١٧١٣)، وقال: «وهذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني ﵀: «صحيح»، ص: ٢٩٥.
سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢١)، باب دفن الجماعة في القبر الواحد: (٩٠)، برقم: (٢٠١٦)، وبلفظ مقارب برقم: (٢٠١٥)، (٢٠١٧)، وفي: باب ما=

وفي رواية: «وأعمقوا»[1].

وعن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، وأنا غلام مع أبي، فجلس رسول الله ﷺ على حفيرة القبر، فجعل يوصي الحافر، ويقول: «أوسع من قبل الرّأس، وأوسع من قبل الرّجلين، لربّ عَذْق[2] له في الجنّة»[3].

وفي الحديثين دلالة على مشروعية تعميق القبر وتوسيعه وتحسينه[4].

= يستحب من توسيع القبر: (٨٧)، برقم: (٢٠١١)، وفي: باب من يقدّم: (٩١)، برقم: (٢٠١٨). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص:٢٢٦.
سنن ابن ماجه، نحوه في: كتاب الجنائز: (٦)، باب ما جاء في حفر القبر: (٤١)، برقم: (١٥٦٠). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص:١٧٠.
سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب الصّلاة على الجنازة: ٤/ ٣٤.
مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٤/ ٢٠، ونحوه في: ٤/ ١٩.
مسند أبي يعلى، بلفظ مقارب في: ٣/ ١٢٧، برقم: (١٥٥٨). قال محقّقه: «إسناده صحيح».

(١) هذه الزّيادة وردت في:
سنن أبي داود، كتاب الجنائز: (٢٠)، باب في تعميق القبر: (٦٥/ ٦٧)، برقم: (٣٢١٦). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص:٣٢٦.
سنن النّسائي: كتاب الجنائز: (٢١). باب ما يستحب من إعماق القبر: (٨٦). برقم: (٢٠١٠). قال الألباني ﷺ: «صحيح». ص:٢٢٦.
سنن البيهقي، الباب السّابق: ٤/ ٣٤.
معجم الطّبراني الكبير: ٢٢/ ١٧٢.

(٢) العَذق: هو النّخلة، ويطلق على التّمر لأنّه منها. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٤٤١. غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٢٧٨. الفائق: ٢/ ٤٠٣، ٤٠٦. النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ١٣٥، ١٦٦.

(٣) سنن أبي داود، نحوه في: كتاب البيوع: (٢٢)، باب في اجتناب الشّبهات: (٣)، برقم: (٣٣٣٢). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص:٣٧٤.
سنن البيهقي، نحوه في: باب كراهية مبايعة من أكثر ماله من الرّبا أو ثمن المحرّم: ٥/ ٣٣٥.
سنن الدّارقطني، نحوه في: ٤/ ٢٨٥.
مسند أحمد، بلفظه في: ٥/ ٤٠٨.

(٤) ظاهر الأمر في الحديثين يفيد وجوب المذكور فيهما من التّعميق والتّوسيع والتّحسين. =

٢ ـ جواز جعل اللّحد[1] أو الشّق[2] في القبر لوضع الميّت فيه.

عن أنس بن مالك ﷺ قال: «لمّا توفّي النّبيّ ﷺ كان بالمدينة رجل يلحد، وآخر يضرح[3]، فقالوا: نستخير ربّنا، ونبعث إليهما، فأيّهما سبق تركناه، فأرسل إليهما، فسبق صاحب اللّحد، فلحدوا للنّبيّ ﷺ»[4].

= وذهب جماعة من العلماء إلى أنّه يفيد الاستحباب. كما صرّح ابن حزم على أنّ الأمر في ذلك يقتضي الفرضيّة.

وليس في الأحاديث حدّ للإعماق أو التّوسيع وإن كان بعض أهل العلم قدّر ذلك بقامة إنسان معتدل الطّول، وقيل: إلى السّرّة، وقيل: إلى الثّدي، وقيل: قامة وبسطة، وتقدير ذلك أربعة أذرع ونصف، وأقلّه ما يواري الميّت ويمنع من ظهور رائحته أو نبشه.

وانظر: المحلّى: ٥/ ١١٦ ـ ١١٧. المجموع شرح المهذّب لمحيي الدّين بن شرف النّووي، تحقيق: محمود مطرجي، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م: ٥/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦. المغني: ٢/ ١٨٧، طبعة: دار الفكر. نيل الأوطار: ٤/ ١٢٤. أحكام الجنائز، ص: ١٤٤.

(١) قال النّووي ﷺ: «اللّحد: بفتح اللّام وضمّها معروف وهو الشّق تحت الجانب القبلي من القبر». شرح النّووي على مسلم: ٧/ ٣٤.

وقال الشّوكاني ﷺ: «وسمي اللّحد لحداً لأنّه شقّ يعمل في جانب القبر فيميل عن وسطه، والإلحاد في أصل اللّغة الميل والعدول، ومنه قيل للمائل عن الدّين ملحد». نيل الأوطار: ٤/ ١٢٦.

(٢) الشّقّ: بفتح الشّين أن يحفر إلى أسفل في أرض القبر كالنّهر، وهو الضّريح، انظر: المجموع شرح المهذّب: ٥/ ٢٤٥. المغني: ٢/ ١٨٧، طبعة: دار الفكر.

(٣) يضرح من الضّريح وهو: القَبرُ، فِعيلٌ بمعنى مفْعول، والضّرح الشّقّ في الأرض. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٨١، بتصرّف يسير.

(٤) سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦)، باب ما جاء في الشّق: (٤٠)، برقم: (١٥٥٧). قال الألباني ﷺ: «حسن صحيح»، وبمعناه برقم: (١٥٥٨). عن عائشة ﷺ. قال الألباني ﷺ: «حسن»، ص: ١٧٠.

موطّأ مالك، نحوه في: كتاب الجنائز: (١٦)، باب ما جاء في دفن الميّت: (١٠)، برقم: (٢٨). عن عروة ﷺ من قوله: ١/ ٢٣١.

مسند أحمد، بلفظ مقارب في: ٣/ ١٣٩، وبمعناه في: ١/ ٢٩٢. عن ابن عبّاس ﷺ. قال أحمد شاكر ﷺ: «إسناده ضعيف»، برقم: (٢٦٦١). مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ٢/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

وعن عامر بن سعد(١) بن أبي وقاص أنّ سعد بن أبي وقاص قال في مرضه الّذي هلك فيه: «الحدوا لي لحداً، وانصبوا عليّ اللّبن نصباً كما صنع برسول الله ﷺ»(٢).

وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله ﷺ: «اللّحد لنا والشّقّ لغيرنا»(٣).

والأحاديث تدلّ على مشروعيّة اللّحد والشّقّ في القبر، وإن كان اللّحد أفضل(٤).

---

(١) عامر بن سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب، القرشي الزّهري المدني، تابعي، ثقة كثير الحديث، توفّي سنة ١٠٤هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٥/ ١٦٧. طبقات خليفة، ص:٢٤٣. التّاريخ الكبير: ٦/ ٤٤٩. معرفة الثّقات: ٢/ ١١. الجرح والتّعديل: ٦/ ٣٢١. ثقات ابن حبّان: ٥/ ١٨٦. مشاهير علماء الأمصار: ١/ ٦٦. التّعديل والتّجريح: ٣/ ٩٩١. تهذيب الكمال: ١٤/ ٢١. الكاشف: ١/ ٥٢٢. تهذيب التّهذيب: ٥/ ٥٦. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٨٧.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب في اللّحد ونصب اللّبن على الميّت: (٢٩)، برقم: (٩٦٦)، ٢/ ٦٦٥.

(٣) سنن أبي داود، نحوه في: كتاب الجنائز: (٢٠)، باب في اللّحد: (٥٩/ ٦١)، برقم: (٣٢٠٨). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٣٦٢.
سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٧)، باب ما جاء في قول النّبيّ ﷺ: «اللّحد لنا والشّقّ لغيرنا»: (٥٣)، برقم: (١٠٤٥)، وقال: «حديث حسن غريب من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:١٨٦.
سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢١)، باب اللّحد والشّق: (٨٥)، برقم: (٢٠٠٩). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٢٢٥.
سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦)، باب ما جاء في استحباب اللّحد: (٣٩)، برقم: (١٥٥٤)، وبرقم: (١٥٥٥). عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه. قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ١٧٠.
سنن البيهقي، بلفظه في: باب السّنّة في اللّحد. وعن جرير رضي الله عنه، في: ٣/ ٤٠٨.
مسند أحمد، بلفظه مع زيادة فيه عن جرير رضي الله عنه، في: ٤/ ٣٥٧، وعنه ضمن حديث طويل في: ٤/ ٣٥٩، وعنه بلفظ: «اللّحد لنا والشّق لأهل الكتاب»، في: ٤/ ٣٦٢.

(٤) قال النّووي رحمه الله: «أجمع العلماء أنّ الدّفن في اللّحد وفي الشّقّ جائزان، لكن إن كانت الأرض صلبة لا ينهار ترابها فاللّحد أفضل، لما سبق من الأدلّة، وإن كانت رخوة تنهار فالشّقّ أفضلّ. المجموع شرح المهذّب: ٥/ ٢٤٦. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ٧/ ٣٤. نيل الأوطار: ٤/ ١٢٦. أحكام الجنائز، ص:١٤٤.

٣ ـ أن يرفع القبر بعد الدّفن عن الأرض نحو شبر، كي يُعرف ويتميّز ولا يُهان، وأن يجعل مسنّماً[١].

عن جابر رضي الله عنه: «أنّ النّبيّ ﷺ أُلحد، ونصب عليه اللّبن نصباً، ورفع قبره من الأرض نحواً من شبر»[٢].

وعن سفيان التّمّار رحمه الله[٣] أنّه رأى قبر النّبيّ ﷺ مسنّماً[٤].

---

(١) مسنّم: أي مرتفع، من السّنام الّذي هو أعلى كلّ شيء له سنام. انظر: النّهاية في غريب الحديث: ٢/ ٤٠٩.

(٢) سنن البيهقي، بلفظ مقارب في: باب لا يزاد في القبر على أكثر من ترابه لئلّا يرتفع جدّاً: ٣/ ٤١٠.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر وصف قبر النّبيّ ﷺ، وقدر ارتفاعه من الأرض، برقم: (٦٦٣٥). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ١٤/ ٦٠٢.

نقل النّووي رحمه الله عن أهل العلم استحباب رفع القبر عن الأرض قدر شبر، وألّا يزاد على التّراب الّذي خرج منه، لئلا يرتفع ارتفاعاً كثيراً. انظر: المجموع شرح المهذّب: ٥/ ٢٥٨. وانظر: المغني: ٢/ ١٩٠، طبعة: دار الفكر.

(٣) سفيان بن دينار أبو الورقاء أو أبو سعيد التّمّار العُصْفري الأحمري الكوفي، ولد في عهد معاوية رضي الله عنه فهو تابعي، ثقة في الحديث.

وانظر: الجرح والتّعديل: ٤/ ٢٢٠. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١١٣٦. تهذيب الكمال: ١١/ ١٤٣. الكاشف: ١/ ٤٤٨. تهذيب التّهذيب: ٤/ ٩٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٤٤.

(٤) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب ما جاء في قبر النّبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: (٩٦)، برقم: (١٣٩٠)، ص: ٢٩٢.

وقد اختلف أهل العلم في تسنيم القبر وتسطيحه من حيث الأفضليّة، فذهب قوم إلى أفضليّة التّسنيم واحتجّوا بحديث سفيان التّمّار، وذهب آخرون إلى أفضليّة التّسطيح واستدلّوا بأثر القاسم رحمه الله حيث قال: «دخلت على عائشة فقلت يا أماه اكشفي لي عن قبر النّبيّ ﷺ وصاحبيه رضي الله عنهما، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة ـ أي ملزوقة بالأرض ـ مبطوحة ببطحاء العرصة ـ الموضع الواسع بين الدّور ولا بناء فيه ـ الحمراء». سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٠)، باب في تسوية القبر: (٦٦/ ٦٨)، برقم: (٣٢٢٠). قال الألباني رحمه الله: «ضعيف»، ص: ٣٦٣. سنن البيهقي، بلفظه في: باب تسوية القبور وتسطيحها: ٤/ ٣. مستدرك الحاكم، بلفظه في: ١/ ٥٢٤، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». وانظر: مسند أبي يعلى: ٨/ ٥٣، برقم: (٤٥٧١). =

٤ ـ إعلامه بحجر ونحوه ليعرف ويدفن إليه من مات من أهله.

عن المطّلب بن أبي وداعة ﷺ قال «لمّا مات عثمان بن مظعون أُخرج بجنازته فدفن، فأمر النّبيّ ﷺ رجلاً أن يأتيه بحجر فلم يستطع حمله، فقام إليها[1] رسول الله ﷺ وحَسَرَ عن ذراعيه... قال المطّلب: قال الّذي يخبرني ذلك عن رسول الله ﷺ قال: كأنّي أنظر إلى بياض ذراعي رسول الله ﷺ حين حسر عنهما، ثمّ حملها فوضعها عند رأسه، وقال: «أتعلّم بها قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي»[2].

= وأجاب النّووي عن رواية سفيان التّمّار فقال: «القبر غيّر عمّا كان، فكان أوّل الأمر مسطّحاً كما قال القاسم، ثمّ لمّا سقط الجدار في زمن الوليد بن عبد الملك، وقيل في زمن عمر بن عبد العزيز أصلح فجعل مسنّماً». المجموع شرح المهذّب: ٥/ ٢٥٩.

وقال البيهقي ﷺ: «ما صحّت رواية القاسم بن محمّد: «قبورهم مبطوحة ببطحاء العرصة» فذلك يدلّ على التّسطيح. وصحّت رؤية سفيان التّمّار قبر النّبيّ ﷺ مسنّماً، فكأنّه غيّر عمّا كان عليه في القديم، فقد سقط جداره في زمن الوليد بن عبد الملك، وقيل: في زمن عمر بن عبد العزيز، ثمّ أصلح. وحديث القاسم بن محمّد في هذا الباب أصحّ وأولى أن يكون محفوظاً، إلّا أنّ بعض أهل العلم من أصحابنا استحبّ التّسنيم في هذا الزّمان لكونه جائزاً بالإجماع، وأنّ التّسطيح صار شعاراً لأهل البدع، فلا يكون سبباً لإطالة الألسنة فيه ورميه بما هو منزّه عنه من مذاهب أهل البدع وبالله التّوفيق». سنن البيهقي: ٤/ ٣.

والأولى ما قاله الشّيخ الألباني ﷺ حيث قال: «لو صحّ ـ أي أثر القاسم ـ فليس معارضاً لحديث التّمّار لأنّ قوله: «مبطوح» ليس معناه مسطّح بل ملقى فيه البطحاء ـ وهو الحصى الصّغيرة كما في النّهاية ـ وهو ظاهر في الخبر نفسه: «مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء» فهذا لا ينافي التّسنيم، ولهذا جمع ابن القيّم بين الحديثين فقال في الزّاد: ١/ ٥٢٤: «وقبره مسنّم مبطوح ببطحاء العرصة الحمراء، لا مبني ولا مطّين، وهكذا كان قبر صاحبيه». أحكام الجنائز، ص: ١٥٥.

وللوقوف على الخلاف بين أهل العلم في أفضليّة التّسنيم أو التّسطيح. انظر: المجموع شرح المهذّب: ٥/ ٢٥٩. المغني: ٢/ ١٩١، طبعة دار الفكر. نيل الأوطار: ٤/ ١٣٠.

(١) تأنيث الضّمير على تأويل الصّخرة، عون المعبود: ٩/ ١٧.

(٢) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٠)، باب في جمع الموتى في قبر، والقبر يعلم: (٥٧/ ٥٩)، برقم: (٣٢٠٦). قال الألباني ﷺ: «حسن»، ص: ٣٦١ ـ ٣٦٢. =

٥ ـ النّهي عن البناء عليه، أو تجصيصه[١] أو الكتابة أو القعود عليه. أو الصّلاة إليه، والمشي عليه.

عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه»[٢].

وفي رواية: «نهى النّبي ﷺ أن تجصّص القبور، وأن يكتب عليها، وأن يبنى عليها، وأن توطأ»[٣].

وفي أخرى: «نهى رسول الله ﷺ أن يبنى على القبر، أو يزاد عليه، أو يجصّص... أو يكتب عليه»[٤].

وعن أبي الهيّاج الأسدي رحمه الله[٥] قال: قال لي علي بن أبي طالب: ألا

= سنن البيهقي، بلفظه ـ عدا أحرف يسيرة ـ، في باب إعلام القبر بصخرة أو علامة ما كانت. ٣/ ٤١٢.

ذهب بعض أهل العلم إلى استحباب أن توضع علامتان إحداهما عند رأسه والأخرى عند رجليه، انظر: المجموع شرح المهذّب: ٥/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠. وهو ما يفعله النّاس اليوم، والنّبيّ ﷺ إنّما وضع علامة واحدة عند رأسه، والخير كلّ الخير في اتّباع هديه.

(١) تجصيصه: من الجِصّ، والجَصّ: معروف، وهو الّذي يُطْلَى به،وهو معرَّب ويسمّى الجير.
وانظر: النّهاية في غريب الحديث: ١/ ٣٢٤. لسان العرب: ٧/ ١٠.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب النّهي عن تجصيص القبر والبناء عليه: (٣٢)، برقم: (٩٧٠)، ٢/ ٦٦٧.

(٣) سنن التّرمذي: بلفظه في: كتاب الجنائز: (٧)، باب ما جاء في كراهية تجصيص القبور والكتابة عليها: (٥٨)، برقم: (١٠٥٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح». وقال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ١٨٨.

(٤) سنن النّسائي: بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢١)، باب البناء على القبر: (٩٧)، برقم: (٢٠٢٧). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٢٢٧.

(٥) هو حيّان بن الحصين أبو الهيّاج الأسدي الكوفي، تابعي ثقة.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٦/ ٢٢٣. التّاريخ الكبير: ٣/ ٥٣. معرفة الثّقات: ٢/ ٤٣٥. الجرح والتّعديل: ٣/ ٢٤٣. ثقات ابن حبّان: ٤/ ١٧٠. تهذيب الكمال: ٧/ ٤٧١. الكاشف: ١/ ٣٥٩. تهذيب التّهذيب: ٣/ ٥٩. تقريب التّهذيب: ١/ ١٨٤.

أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: أن لا تدع تمثالاً إلّا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته».

وفي رواية: «ولا صورة إلّا طمستها»[1].

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب الأمر بتسوية القبر: (٣١)، برقم: (٩٦٩)، ٢/٦٦٦ ـ ٦٦٧.
قال الشّوكاني رحمه الله في بيان هذا الحديث:
«قوله: «ولا قبراً مشرفاً إلّا سوّيته»: فيه أنّ السّنّة أنّ القبر لا يرفع رفعاً كثيراً من غير فرق بين من كان فاضلاً ومن كان غير فاضل. والظّاهر أنّ رفع القبور زيادة على القدر المأذون فيه محرّم. وقد صرّح بذلك أصحاب أحمد وجماعة من أصحاب الشّافعي ومالك. والقول بأنّه غير محظور لوقوعه من السّلف والخلق بلا نكير كما قال الإمام يحيى والمهدي في الغيث لا يصحّ، لأنّ غاية ما فيه أنّهم سكتوا عن ذلك، والسّكوت لا يكون دليلاً إذا كان في الأمور الظّنيّة، وتحريم رفع القبور ظنّي. ومن رفع القبور الدّاخل تحت الحديث دخولاً أوليّاً القبب والمشاهد المعمورة على القبور. وأيضاً هو من اتّخاذ القبور مساجد، وقد لعن النّبيّ ﷺ فاعل ذلك كما سيأتي، وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفّار للأصنام، وعظم ذلك، فظنّوا أنّها قادرة على جلب النّفع ودفع الضّرر فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج، وملجأ لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربّهم، وشدّوا إليها الرّحال، وتمسّحوا بها واستغاثوا. وبالجملة أنّهم لم يدعوا شيئاً ممّا كانت الجاهليّة تفعله بالأصنام إلّا فعلوه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون. ومع هذا المنكر الشّنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حمية للدّين الحنيف، لا عالماً ولا متعلّماً، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً. وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشكّ معه أنّ كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجّهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلعثم وتلكّأ وأبى واعترف بالحقّ، وهذا من أبين الأدلّة الدّالّة على أنّ شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنّه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة. فيا علماء الدّين ويا ملوك المسلمين، أيّ رزء للإسلام أشدّ من الكفر؟ وأيّ بلاء لهذا الدّين أضرّ عليه من عبادة غير الله؟ وأيّ مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة؟ وأيّ منكر يجب إنكاره إن لم يكن هذا الشّرك البيّن واجباً؟

لقد أسمعت لو ناديت حيّاً ... ولكن لا حياة لمن تنادي
ولو ناراً نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ في رماد

نيل الأوطار: ٤/١٣١ ـ ١٣٢.
وهو كلام قيّم محكم، ونصيحة عزيزة غالية الثمن. ليتها تفهم ويستجاب لها من كثيرين ذلك شأنهم.

وعن أبي مرثد الغنوي ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تصلّوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها»[1].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر»[2].

وفي رواية: «يطأ على قبر»[3].

وعن عقبة بن عامر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أمشي على جمرة أو سيف، أو أخصف نعلي برجلي أحبّ إليّ من أن أمشي على قبر مسلم، وما أبالي أَوَسط القبور قضيت حاجتي أو وسط السّوق»[4].

وظاهر هذه النّصوص يفيد تحريم البناء على القبور، وتجصيصها، والكتابة عليها، والقعود والمشي عليها، ووطئها، والصّلاة إليها[5].

٦ ـ اتّخاذه مسجداً:

عن عائشة وعبد الله بن عبّاس ﵁ قالا: «لمّا نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها عن وجهه، فقال: «وهو

---

(١) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب النّهي عن الجلوس على القبر والصّلاة عليه: (٣٣)، برقم: (٩٧٢)، ٢/ ٦٦٨.

(٢) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب النّهي عن الجلوس على القبر والصّلاة عليه: (٣٣)، برقم: (٩٧١)، ٢/ ٦٦٧.

(٣) مسند أحمد، بلفظه في: ٢/ ٣٨٩، ٥٢٨. قال أحمد شاكر ﵀: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٧/ ١٢٠، برقم: (٩٠٣٦).

(٤) سنن ابن ماجه، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦)، باب ما جاء في النّهي عن المشي على القبور والجلوس عليها: (٤٥)، برقم: (١٥٦٧). قال الألباني ﵀: «صحيح»، ص: ١٧١.

(٥) انظر: نيل الأوطار: ٤/ ١٣٣ ـ ١٣٦. أحكام الجنائز، ص: ٢٠٤ ـ ٢١٠.
قال ابن حزم ﵀: «ولا يحلّ أن يبنى القبر، ولا أن يجصّص، ولا أن يزاد على ترابه شيء، ويهدم كلّ ذلك». المحلّى: ٥/ ١٣٣. ولمن يريد المزيد في الوقوف على أقوال أهل العلم في ذلك فعليه الرّجوع إلى: المجموع شرح المهذّب: ٥/ ٢٦٠. المغني: ٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣.

كذلك. لعنة الله على اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذّر ما صنعوا[1].

وعن عائشةﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ في مرضه الّذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد». قالت: فلولا ذاك أبرز قبره غير أنّه خشي أن يتّخذ مسجداً»[2].

وعن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قاتل الله اليهود اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[3].

---

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٨/ ٥)، باب: (٥٥)، برقم: (٤٣٥، ٤٣٦)، ص:١٠٨، وبلفظه إلّا أحرف يسيرة في: كتاب أحاديث الأنبياء: (٦٠/ ٣٦)، باب ما ذكر عن بني إسرائيل: (٥٠/ ٥١)، برقم: (٣٤٥٣، ٣٤٥٤)، ص:٧٣٢، وفي: كتاب اللّباس: (٧٧/ ٥١)، باب الأكسية والخمائص: (١٩)، برقم: (٥٨١٥، ٥٨١٦)، ص:١٢٥٩، وبلفظ مقارب في: كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب مرض النّبيّ ﷺ ووفاته: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٤٤٤٣، ٤٤٤٤)، ص:٩٢٤.

صحيح مسلم، بلفظه إلّا أحرف يسيرة في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب النّهي عن بناء المساجد على القبور، واتّخاذ الصّور فيها، والنّهي عن اتّخاذ القبور مساجد: (٣)، برقم: (٥٣١)، ١/ ٣٧٧.

(٢) صحيح البخاري، بلفظ مقارب في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب ما يكره من اتّخاذ المساجد على القبور: (٦١)، برقم: (١٣٣٠)، ص:٢٧٩، وفي باب ما جاء في قبر النّبيّ ﷺ وأبي بكر وعمر ﷺ: (٩٦)، برقم: (١٣٩٠)، ص:٢٩٢، وفي كتاب المغازي: (٦٤/ ٣٨)، باب مرض النّبيّ ﷺ ووفاته: (٨٣/ ٨٤)، برقم: (٤٤٤١)، ص:٩٢٤، دون ذكر النّصارى.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب النّهي عن بناء المساجد على القبور، واتّخاذ الصّور فيها، والنّهي عن اتّخاذ القبور مساجد: (٣)، برقم: (٥٢٩)، ١/ ٣٧٦.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الصّلاة: (٨/ ٥)، باب: (٥٥)، برقم: (٤٣٧)، ص:١٠٨.

صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب النّهي عن بناء المساجد على القبور، واتّخاذ الصّور فيها، والنّهي عن اتّخاذ القبور مساجد: (٣)، برقم: (٥٣٠)، ١/ ٣٧٦.

وعنه رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «اللّهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»[1].

وعن جندب رضي الله عنه قال: «سمعت النّبيّ ﷺ قبل أن يموت بخمس[2] يقول: فذكر الحديث وفيه: «ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد، إنّي أنهاكم عن ذلك»[3].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ من شرار النّاس من تدركهم السّاعة وهم أحياء، ومن يتّخذ القبور مساجد»[4].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا اشتكى النّبيّ ﷺ، ذكرت بعض نسائه كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها: مارية. وكانت أمّ سلمة وأمّ حبيبة رضي الله عنهما أتتا أرض الحبشة. فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها. فرفع رأسه ﷺ فقال: «أولئك إذا مات منهم الرّجل الصّالح بنوا على قبره مسجداً، ثمّ صوّروا فيه تلك الصّورة، أولئك شرار الخلق عند الله»[5].

---

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٢/٢٤٦. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده صحيح». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٣/٨٧ ـ ٨٨، برقم: (٧٣٥٢).
مسند الحميدي، بلفظه مع زيادة يسيرة، في: ٢/٤٤٥، برقم: (١٠٢٥).
وعند مالك في الموطّأ عن عطاء بن يسار رحمه الله مرسلاً، ولفظه: أنّ رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتدّ غضب الله على قوم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، كتاب قصر الصّلاة في السّفر: (٩)، باب جامع الصّلاة: (٢٤)، برقم: (٨٥)، ١/١٧٢.

(٢) أي ليالي.

(٣) صحيح مسلم، بلفظه في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب النّهي عن بناء المساجد على القبور، واتّخاذ الصّور فيها، والنّهي عن اتّخاذ القبور مساجد: (٣)، برقم: (٥٣٢)، ١/٣٧٧.

(٤) صحيح ابن خزيمة، بلفظه في: باب الزّجر عن اتّخاذ القبور مساجد، والدّليل على أنّ فاعل ذلك من شرار النّاس، برقم: (٧٨٩). قال الأعظمي: «إسناده حسن»: ٢/٦ ـ ٧.
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ١٠/١٨٨.

(٥) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦)، باب بناء المسجد على القبر: (٧٠)، برقم: (١٣٤١)، ص: ٢٨١، وبلفظ مقارب في: كتاب الصّلاة: (٨/٥)، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهليّة ويتّخذ مكانها مساجد: (٤٨)، برقم: (٤٢٧)، =

لقد بيّنت الأحاديث السّابقة أنّ اتّخاذ القبور مساجد من خصال أهل الكتاب الّتي لعنهم رسول الله ﷺ عليها، ودعا عليهم بسببها تجنّباً لمشابهتهم وفعلهم، بل لعن من فعل ذلك، ووصفه بأنّه من شرار الخلق، وغلّظ عليه في النّهي ليحذّر أمّته من هذا الصّنيع.

والنّصوص في ذلك متواترة بالنّهي عنه والتّغليظ فيه، ولذلك كان عامّة أهل العلم على تحريمه[1]. بل صرّح بعضهم على أنّه من الكبائر[2]. وجرى عملهم على منعه والتّحذير منه[3]. بل نصّوا على أنّ المساجد الّتي تبنى على القبور لا تصحّ الصّلاة فيها لأنّ ذلك ذريعة إلى الشّرك بالله، وأمروا بهدمها[4]. ولذلك كان تغليظه ﷺ في النّهي والتّحذير منها حسماً لمادّة الشّرك وقلعاً لجذوره.

والصّحابة ﷺ تجنّبوا ذلك، بل لم يعرف في عهدهم وعهد التّابعين لهم بإحسان شيء من ذلك، بل لم يعرف قطّ في القرون الفاضلة بناء مسجد على قبر[5].

ومع كلّ ذلك التّحذير والنّهي إلّا أنّ هذه الأمّة مع الأسف ـ إلّا من رحم الله ـ قد ابتليت ببناء المساجد على القبور، واتّخذت القبور مساجد ولو

= ص:١٠٦، وفي باب الصّلاة في البيعة: (٥٤)، برقم: (٤٣٤)، ص:١٠٨، وفي كتاب مناقب الأنصار (المناقب): (٦٣/ ٣٧)، باب هجرة الحبشة: (٣٨/ ٩٧)، برقم: (٣٨٧٣)، ص:٨١٠.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب المساجد ومواضع الصّلاة: (٥)، باب النّهي عن بناء المساجد على القبور، واتّخاذ الصّور فيها، والنّهي عن اتّخاذ القبور مساجد: (٣)، برقم: (٥٢٨)، ١/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦.

(١) انظر: اقتضاء الصّراط المستقيم، ص:٣٢٩. إغاثة اللّهفان: ١/ ١٨٥.

(٢) انظر: الزّواجر عن اقتراف الكبائر، لأبي العبّاس أحمد بن محمّد بن علي بن حجر المكي الهيتمي، مطبعة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م: ١/ ١٤٨.

(٣) انظر: اقتضاء الصّراط المستقيم، ص:١٠٩. مسائل الجاهليّة، ص:١١٩.

(٤) انظر: اقتضاء الصّراط المستقيم، ص:٣٣٠.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى: ١/ ٣٢١، ١٧/ ٤٦٤.

بغير بناء، وعظّمت القبور ومشاهد الموتى الّتي بثّت في بقاع العالم الإسلامي باسم الصّلاح والولاية، ومعظم تلك المشاهد مكذوبة ومن فعل الشّياطين، وقصدها أهل الشّرك والبدع والضّلال من هذه الأمّة بالتّضرّع والخشوع، والدّعاء والسّجود، والذّبح والنّذور، والطّواف وأنواع العبادات والتّعظيم والتّقديس، والصّلاة عندها وطلب الحاجات من أصحابها، وكلّ ذلك من الشّرك الأكبر والمحادّة لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض حديثه عن زيارة القبور وما يصحّ منها وما لا يصحّ:

«وزيارة القبور على وجهين:

زيارة أهل التّوحيد المتّبعين للرّسل، وزيارة أهل البدع والشّرك:

فالأولى: مقصودها أن يسلّم على الميّت ويدعو له، وزيارة قبره بمنزلة الصّلاة عليه إذا مات، يقصد بها الدّعاء له، والله سبحانه يثيب هذا الدّاعي له عند قبره كما يثيب الدّاعي إذا صلّى عليه وهو على سريره.

والثّانية: مقصودها أن يطلب منه الحوائج، أو يقسم على الله، أو يظنّ أن دعاء الله عند قبره أقرب إلى الإجابة، فهذا كلّه من البدع المنكرة باتّفاق أئمّة المسلمين، ولم يكن شيء من هذا على عهد الرّسول ﷺ وأصحابه والتّابعين لهم بإحسان»[1].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ في موطن آخر:

«وأمّا الزّيارة البدعيّة فهي الّتي يقصد بها أن يطلب من الميّت الحوائج، أو يطلب منه الدّعاء والشّفاعة، أو يقصد الدّعاء عند قبره لظنّ القاصد أنّ ذلك أجوب للدّعاء. فالزّيارة على هذه الوجوه كلّها مبتدعة لم يشرعها النّبيّ ﷺ ولا فعلها الصّحابة لا عند قبر النّبيّ ﷺ ولا عند غيره، وهي من جنس الشّرك وأسباب الشّرك. ولو قصد الصّلاة عند قبور الأنبياء والصّالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدّعاء عندهم مثل أن يتّخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً

---

(١) منهاج السّنّة: ٢/٤٣٨.

منهيّا عنه، ولكان صاحبه متعرّضاً لغضب الله ولعنته ـ ثمّ أورد بعض الأحاديث الّتي سبق ذكرها ـ ثمّ قال: «فإذا كان هذا محرّماً وهو سبب لسخط الرّب ولعنته فكيف بمن يقصد دعاء الميّت والدّعاء عنده وبه، واعتقد أنّ ذلك من أسباب إجابة الدّعوات، ونيل الطّلبات، وقضاء الحاجات، وهذا كان أوّل أسباب الشّرك في قوم نوح وعبادة الأوثان في النّاس»[1].



(١) مجموع الفتاوى: ١/١٦٦ ـ ١٦٧.
وانظر في هذه الجزئية من البحث: المغني: ٢/١٩٣. اقتضاء الصّراط المستقيم، ص:١٠٩، ٣٢٩ ـ ٣٣٠. مجموع الفتاوى: ١/٣٢١، ١١/٢٩٠، ١٧/٤٦٤، ٥٠١، ٢٧/٣٤٤. منهاج السّنّة: ٢/٤٥٠ ـ ٤٥١. إعلام الموقّعين: ٤/٤٠٣. إغاثة اللّهفان: ١/١٨٤ ـ ١٨٦. مسائل الجاهلية، ص:١١٨ ـ ١١٩ وللشّيخ الألباني ﷺ كتاب قيّم بعنوان: تحذير السّاجد من اتّخاذ القبور مساجد، يرجع إليه من طلب المزيد.

الفصل الثّاني

الإيمان بنعيم القبر وعذابه وحقيقة ذلك

لقد جاءت الأدلّة من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ تترى دالّة على تنعم الطّائعين في القبر، وعذاب العاصين فيه.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

والبرزخ هو الحاجز بين الدّنيا والآخرة، حيث ينعّم الطّائعون، ويعذّب العاصون[١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٤].

ذكر ابن جرير رحمه الله اختلاف أهل التّفسير في المراد بالمعيشة الضنّك، ثمّ روى بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّه قال: «﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ يضيق عليه قبره حتّى تختلف أضلاعه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «يطبق على الكافر قبره حتّى تختلف فيه أضلاعه، وهي المعيشة الضنّك».

وعن أبي صالح والسّدّي رحمهما الله أنّ المراد بذلك عذاب القبر، ثمّ رجّح ذلك[٢]. كما رجّحه القرطبي[٣] وابن كثير رحمهما. وذكر ابن كثير أنّ أثر

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٠٩ ـ ٤١٠. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٥٠٨.

(٢) انظر: جامع البيان: ١٦/ ٢٢٥ ـ ٢٢٨، طبعة: دار الفكر. أثر أبي سعيد رضي الله عنه أورده عبد الرّزاق في المصنّف بلفظه، برقم: (٦٧٤١)، ٣/ ٥٨٤. وأثر أبي هريرة رضي الله عنه أورده هنّاد في الزّهد، ولفظه: «يدخل الكافر قبره فيضيق عليه حتّى تختلف فيه أضلاعه. فتلك المعيشة، قال: ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾»، برقم: (٣٣٥٤)، ١/ ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن: ١١/ ٢٥٩.

أبي هريرة مرفوع إلى النّبيّ ﷺ ثمّ قال: «إسناده جيّد»[1]. كما رجّحه الشّوكاني[2] والسّعدي رحمهما الله ونصّ الأخير على أنّ هذه الآية إحدى الآيات الدّالّة على عذاب القبر[3].

وقال ﷻ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

ذهب الجمهور على أنّ عرض آل فرعون على العذاب يكون في البرزخ قبل يوم القيامة، لأنّه قال عقب ذلك: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[4].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السّنّة على عذاب البرزخ في القبور»[5].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور: ٤٧].

العذاب في الآية شامل لكلّ عذاب يقع على الظّالمين قبل يوم القيامة، فلا يمنع أن يدخل في ذلك عذاب القبر، لأنّه قبل يوم القيامة، ولذا جاء عن علي وابن عبّاس والبراء بن عازب رضي الله عنهم أنّ المراد بذلك العذاب عذاب القبر[6].

وقال ﷻ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [التكاثر: ١ ـ ٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٢٧٠. (٢) انظر: فتح القدير: ٣/ ٣٩٢.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٤٦٥.
(٤) انظر: فتح القدير: ٤/ ٤٩٥. (٥) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ١٢٢.
(٦) وانظر: جامع البيان: ٢٧/ ٣٦ ـ ٣٧، طبعة: دار الفكر. معالم التّنزيل: ٤/ ٢٤٣. الجامع لأحكام القرآن: ١٧/ ٧٨. أنوار التّنزيل: ٥/ ٢٥٠. فتح القدير: ٥/ ١٠٢. تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٧٦٠.

قال ابن جرير رحمه الله:

«وقوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ يعني: حتّى صرتم إلى المقابر فدفنتم فيها، وفي هذا دليل على صحّة القول بعذاب القبر، لأنّ الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم الّذين ألهاهم التّكاثر، أنّهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيداً منه لهم وتهدّداً». ثمّ روى بسنده إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنّه قال: «كنّا نشكّ في عذاب القبر حتّى نزلت هذه الآية: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾»[1].

وقال تعالى في ذكر النّعيم:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩].

قال ابن القيّم رحمه الله في بيان مراتب حياة الإنسان:

«المرتبة التّاسعة من مراتب الحياة حياة الأرواح بعد مفارقتها الأبدان وخلاصها من هذا السّجن وضيقه، فإنّ من ورائه فضاء وروحاً وريحاناً وراحة، نسبة هذه الدّار إليه كنسبة بطن الأمّ إلى هذه الدّار أو أدنى من ذلك... قال الله تعالى في هذه الحياة: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ۝٨٩﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٨٩]»[2].

فهذا حال المؤمنين في البرزخ[3].

وأمّا ما ورد عن رسول الله ﷺ من أحاديث دالّة على عذاب القبر ونعيمه فهي كثيرة جداً. نصّ بعض أهل العلم على أنّها بلغت حدّ التّواتر[4]. أورد

---

(١) جامع البيان: ٣٠/ ٢٨٤، طبعة: دار الفكر. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٦٩. تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٨٦٦ ـ ٨٦٧.

وأثر علي أورده التّرمذي في سننه، ولفظه: «ما زلنا نشكّ في عذاب القبر حتّى نزل ألهاكم التّكاثر»، كتاب تفسير القرآن: (٤٣)، باب ومن سورة ألهاكم التكاثر: (١٠٢)، برقم: (٣٣٥٥)، وقال: «هذا حديث غريب». وقال الألباني رحمه الله: «ضعيف الإسناد»، ص: ٥٣٢.

(٢) مدارج السالكين: ٣/ ٢٧٤. وانظر: الروح، ص: ٧٦.

(٣) وانظر: طريق الهجرتين، ص: ٢٩٩.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ٢٨٥. الرّوح، ص: ٥٢. مفتاح دار السّعادة: ١/ ٤٣.=

صاحبا الصّحيحين وغيرهما كثيراً منها عن جماعة من الصّحابة ﷺ منها:

حديث عائشة ﵂: «أنّ يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «نعم، عذاب القبر حقّ». قالت عائشة ﵂: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلّى صلاة إلّا تعوّذ من عذاب القبر»(١).

وحديث ابن عبّاس ﵄ قال: «مرّ النّبيّ ﷺ على قبرين فقال: «إنّهما ليعذّبان وما يعذّبان في كبير». ثمّ قال: «بلى، أمّا أحدهما فكان يسعى بالنّميمة، وأمّا أحدهما فكان لا يستتر من بوله». قال: ثمّ أخذ عوداً رطباً فكسره باثنتين، ثمّ غرز كلّ واحد منهما على قبر، ثمّ قال: «لعله يخفّف عنهما ما لم ييبسا»(٢).

وحديث زيد بن ثابت ﵁ قال: بينما النّبيّ ﷺ في حائط لبني النّجّار على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة... فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟»، فقال رجل: أنا، قال: «فمتى مات هؤلاء»؟ قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «إنّ هذه الأمّة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الّذي

= شرح العقيدة الطّحاوية: ٢/١٣٦، طبعة: مكتبة المعارف. تسلية أهل المصائب، ص:٢٩٣. أهوال القبور، ص:٤٣.

(١) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣)، باب ما جاء في عذاب القبر: (٨٦)، برقم: (١٣٧٢)، ص:٢٨٨.

(٢) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٦/٢٣)، باب عذاب القبر من الغيبة والبول: (٨٨)، برقم: (١٣٧٨)، ص:٢٨٩، ونحوه في: كتاب الوضوء: (٤)، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله: (٥٧/٥٥)، برقم: (٢١٦)، ص:٦٣، وفي باب: (٥٩/٥٦)، برقم: (٢١٨)، ص:٦٤، وفي كتاب الجنائز: (٦/٢٣)، باب الجريد على القبر: (٨١)، برقم: (١٣٦١)، ص:٢٨٦، وفي كتاب الأدب: (٥٢/٧٨)، باب الغيبة: (٤٦)، برقم: (٦٠٥٢)، ص:١٢٩٨، وفي باب النّميمة من الكبائر: (٤٩)، برقم: (٦٠٥٥)، ص:١٢٩٨.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الطّهارة: (٢)، باب الدّليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه: (٣٤)، برقم: (٢٩٢)، ١/٢٤٠ ـ ٢٤١.

أسمع منه». ثمّ أقبل علينا بوجهه فقال: «تعوّذوا بالله من عذاب النّار»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النّار، فقال: «تعوّذوا بالله من عذاب القبر»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تعوّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»، قالوا: «نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»، قال: «تعوّذوا بالله من فتنة الدّجّال»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدّجّال»[1].

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميّت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المُنْكَرُ والآخر النَّكِيرُ، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرّجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنّا نعلم أنّك تقول هذا. ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثمّ ينوّر له فيه، ثمّ يقال له: نَم، فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم. فيقولان: نم كنومة العروس الّذي لا يوقظه إلّا أحبّ أهله إليه حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت النّاس يقولون فقلت مثله لا أدري. فيقولان: قد كنّا نعلم أنّك تقول ذلك. فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذّباً حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[2].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه - في حديثه الطّويل - وفيه قال ﷺ في شأن العبد المؤمن: «فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: ربّي الله، فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام،

---

(١) المرجع السّابق، بلفظه في: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب عرض مقعد الميّت من الجنّة أو النّار عليه، وإثبات عذاب القبر والتّعوّذ منه: (١٧)، برقم: (٢٨٦٧)، ٤/٢١٩٩ - ٢٢٠٠.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٧)، باب ما جاء في عذاب القبر: (٧٠)، برقم: (١٠٧١)، وقال: «حديث حسن غريب». وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ١٩٠.

الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر الإخبار عن اسم الملكين اللّذين يسألان النّاس في قبورهم، برقم: (٣١١٧). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده قوي»: ٧/٣٨٦.

فيقولان له: ما هذا الرّجل الّذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدّقت. فينادي منادٍ في السّماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنّة، وألبسوه من الجنّة، وافتحوا له باباً إلى الجنّة، قال: فيأتيه من رَوحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثّياب طيّب الرّيح فيقول: أبشر بالّذي يسرّك هذا يومك الّذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصّالح، فيقول: ربّ أقم السّاعة حتّى أرجع إلى أهلي ومالي».

وقال في شأن العبد الكافر: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: هاه هاه[1] لا أدري. فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرّجل الّذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السّماء أن كذب، فافرشوا له من النّار، وافتحوا له باباً إلى النّار. فيأتيه من حرّها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتّى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثّياب، منتن الرّيح، فيقول: أبشر بالّذي يسوءك هذا يومك الّذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشّرّ. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: ربّ لا تقم السّاعة»[2].

وأمّا أقوال أهل العلم فهي كثيرة مبثوثة بين طيّات الكتب، بل قد أشار بعض من ألّف في جمل الاعتقاد أنّ ذلك من عقيدة أهل السّنّة والجماعة الّتي يجب على المؤمن اعتقادها[3]. ونقل بعضهم الإجماع على ذلك، خلافاً لمن

---

(١) قال ابن الأثير رحمه الله: «هذه كلمة تقال في الإبْعاد، وفي حِكاية الضّحِك، وقد تقال للتّوجّع فتكون الهاء الأولى مبدلة من همزة آهٍ وهو الألْيق بمعنى هذا الحديث. يقال تَأوَّه وتَهَوَّه آهَة وهَاهَة». النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٢٨٤.

(٢) سبق تخريجه انظر: ص٩٩٤.

(٣) انظر: متن العقيدة الطّحاوية، ص:١٧. مقالات الإسلاميين، ص:٢٩٣. اعتقاد أئمّة الحديث، ص:٦٩ ـ ٧٠. شعار أصحاب الحديث، لأبي أحمد محمّد بن محمّد بن=

أنكر ذلك من أهل الابتداع والضّلال[1].

ولا بأس أن نستأنس ببعض ما نقل عن أهل العلم في ذلك:

قال الإمام أحمد رحمه الله:

«عذاب القبر حقّ لا ينكره إلّا ضالّ أو مضلّ».

قال حنبل رحمه الله:

«قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر، فقال: «هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقرّ بها، كلّما جاء عن النّبيّ ﷺ بإسناد جيّد أقررنا به، إذا لم نقرّ بما جاء به رسول الله ﷺ ودفعناه ورددناه رددنا على الله أمره. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]. قلت له: وعذاب القبر حقّ؟ قال: «حقّ يعذّبون في القبور». قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير، وأنّ العبد يسأل في قبره: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم: ٢٧] في القبر»[2].

وقال القرطبي رحمه الله:

«الإيمان بعذاب القبر وفتنته واجب، والتّصديق به لازم، حسب ما أخبر به الصّادق، وأنّ الله تعالى يحيي العبد المكلّف في قبره بردّ الحياة إليه ويجعله من أعقل في مثل الوصف الّذي عاش عليه ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيب به

= أحمد بن إسحاق الحاكم، تحقيق: صبحي السّامرّائي، طبعة: دار الخلفاء، الكويت، ص:٣٢. الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرّشاد على مذهب السّلف، لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، طبعة: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠١هـ، ص:٢١٩ ـ ٢٢٦. تبيين كذب المفتري، ص:١٦٢. لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرّشاد، لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، طبعة: الدّار السّلفيّة، الكويت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ص:٢٦. مجموع الفتاوى: ٣/ ١٤٥. لوامع الأنوار: ٢/ ٢٥. قطف الثّمر، ص:١٣١.

(١) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ٢٨٤. وانظر: شرح النّووي على مسلم: ٥/ ٧٠. الشّريعة: ١/ ٣٦٩.

(٢) الرّوح، ص:٥٧. لوامع الأنوار: ٢/ ٢٣.

ويفهم ما أتاه من ربّه، وما أعدّ له في قبره من كرامة أو هوان، وبهذا نطقت الأخبار عن النّبيّ ﷺ المختار ﷺ وعلى آله آناء اللّيل وأطراف النّهار، وهذا مذهب أهل السّنّة والّذي عليه الجماعة من أهل الملّة، ولم تفهم الصّحابة الّذين نزل القرآن بلسانهم ولغتهم من نبيّهم عليه السلام غير ما ذكرنا، وكذلك التّابعون بعدهم إلى هلم جراً»[1].

ونعيم القبر وعذابه من الأمور الغيبيّة الّتي لا يقدر البشر على رؤية ذلك أو سماعه، كحال النّائم الّذي ينعم أو يعذّب في نومه ولا يدرك ذلك من حوله، وكحال المريض الّذي يستشعر الألم ولا يحسّ به من جاوره. والعقل السّليم لا ينفي ذلك لأنّه أمر خارج عن إدراكه، عاجز عن الإحاطة به.

قال ابن القيّم رحمه الله:

«إنّ ما أخبر به الرّسول من عذاب القبر ونعيمه وضيقه وسعته وضمّه وكونه حفرة من حفر النّار أو روضة من رياض الجنّة[2] مطابق للعقل، وأنّه حقّ لا مرية فيه، وإنّ من أشكل عليه ذلك فمن سوء فهمه وقلّة علمه أوتي كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهم السّقيم»[3]

وسرّ ذلك أنّ الله سبحانه جعل الدّورَ ثلاثاً: دار الدّنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وجعل لكلّ دار أحكاماً تختصّ بها، وركّب الإنسان من بدن

---

(١) التّذكرة، ص: ١٣٧. وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٠/ ١٧٣.

(٢) عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنّما القبر روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّار». سنن الترمذي، بلفظه: في: كتاب صفة القيامة: (٣٤)، باب: (٢٤)، برقم: (٢٤٦٠)، وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه». وقال الألباني رحمه الله: «ضعيف جداً»، ص:٤٠٢. معجم الطبراني الأوسط: ٨/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٣) الرّوح، ص:٦٤، وسوف يأتي من الأحاديث ما يؤيّد ما قال: وانظر: الاعتصام: ١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥.
وبيت الشّعر للمتنبّي، وهو من أبيات شعره الّتي صارت مثلاً بين النّاس لجودتها. انظر: يتيمة الدّهر: ١/ ٢٥٨.

ونفس، وجعل أحكام الدّنيا على الأبدان والأرواح تبعاً لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعاً لها، حيث تجري هنالك الأحكام على الأرواح فتسري إلى أبدانها نعيماً أو عذاباً، كما تجري أحكام الدّنيا على الأبدان فتسري على أرواحها نعيماً أو عذاباً، فإذا كان يوم حشر الأجساد وقيام النّاس من قبورهم صار الحكم والنّعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعاً[1].

وأصل ذلك أنّ الرّوح لها بالبدن خمسة أنواع من التّعلّق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلّقها به في بطن الأمّ جنيناً.

الثّاني: تعلّقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

الثّالث: تعلّقها به في حال النّوم، فلها به تعلّق من وجه ومفارقة من وجه.

الرّابع: تعلّقها به في البرزخ، فإنّها وإن فارقته وتجرّدت عنه فإنّها لم تفارقه فراقاً كلّيّاً بحيث لا يبقى لها التفات إليه ألبتّة، فإنّه ورد ردّها إليه وقت سلام المسلم[2].

---

(١) انظر: الرّوح، ص:٦٣ ـ ٦٤. شرح العقيدة لطّحاوية: ٢/١٣٧ ـ ١٣٨، طبعة: مكتبة المعارف.

(٢) ذكر ابن القيّم رحمه الله أنّ ابن عبد البر رحمه الله أورد حديثاً عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النّبيّ ﷺ قال: «ما من رجل يمرّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلّم عليه إلّا عرفه وردّ عليه السّلام». ثمّ قال: «ويروى هذا الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً». قال: «فإن لم يعرفه وسلّم عليه ردّ عليه السّلام». الرّوح، ص:١٢.

وانظر: تهذيب ابن القيّم لسنن أبي داود، طبعة: دار الكتب العلميّة: ١١/٩٣.

وقد أورد الحديث السّيوطي في الجامع الصّغير، وأفاض المناوي في شرحه وخاض في أمور يعوزها الدّليل، وينقصها البرهان، وفيها ما يؤدّي إلى الابتداع وخدش المعتقد. انظر: فيض القدير: ٥/٤٨٧. والحديث واهٍ لا تقوم به حجّة. انظر: العلل المتناهية، لعبد الرّحمٰن بن علي بن الجوزي، تحقيق: خليل الميس، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ: ٢/٩١١ ـ ٩١٢. ضعيف الجامع الصّغير وزيادته: ٤/٥٢٠٨. وقد روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلّم عليّ إلّا ردّ الله عليّ روحي حتّى أردّ عليه=

وورد أنّه يسمع خفق نعالهم حين يولّون عنه[1]، وهذا الرّد إعادة خاصّة، لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

الخامس: تعلّقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلّقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التّعلّق إليه، إذ هو تعلّق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولا فساداً[2].

فنعيم القبر وعذابه يقع على الرّوح والبدن جميعاً باتّفاق أهل السّنّة والجماعة، والرّوح تنعم أو تعذّب منفردة عن البدن أو متّصلة به[3].

فكلّ من مات وهو مستحقّ للنّعيم أو العذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السّباع أو احترق حتّى صار رماداً ونسف في الهواء، أو صلب أو

= السّلام»، كتاب المناسك: (١١)، باب زيارة القبور: (٩٦/٩٧)، برقم: (٢٠٤١). قال الألباني ﷺ: «حسن»، ص:٢٣٢. وانظر: سنن البيهقي: ٥/ ٢٤٥. مسند أحمد: ٢/ ٥٢٧.

وقد أطال أهل العلم في الحديث عن المراد بردّ روحه ﷺ، وأورد بعضهم استشكالات عليه يطول ذكرها. انظر: فتح الباري: ٦/ ٤٨٨، طبعة: دار المعرفة. شرح الزّرقاني على الموطّأ: ٤/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨. عون المعبود: ٦/ ١٩ ـ ٢٢.

وظاهر الحديث يفيد الخصوصيّة، وإن كان الإمام ابن القيّم يرى خلاف ذلك لمّا صحّ عنده حديث ابن عبّاس، وفي ذلك يقول:

هذا وردّ نبيّنا لسلام من ... يأتي بتسليم مع الإحسان
ما ذاك مختصّاً به أيضاً كما ... قد قاله المبعوث بالقرآن
من زار قبر أخي له فأتى ... بتسليم عليه وهو ذو إيمان
ردّ الإله عليه حقّاً روحه ... حتّى يردّ عليه ردّ بيان

شرح النّونية: ٢/ ١٦٨ ـ ١٦٩. وانظر: كلام الشّارح على ذلك.

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجنائز: (٦/٢٣)، باب الميّت يسمع خفق النّعال: (٦٨)، برقم: (١٣٣٨)، ص:٢٨٠ ـ ٢٨١. صحيح مسلم، كتاب صفة الجنّة ونعيمها وأهلها: (٥١)، باب عرض مقعد الميّت من الجنّة أو النّار عليه: (١٧)، برقم: (٢٨٧٠)، ٤/ ٢٢٠٠ ـ ٢٢٠١.

(٢) الرّوح، ص: ٤٣ ـ ٤٤ بتصرّف. شرح العقيدة الطّحاوية: ٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧، طبعة: مكتبة المعارف.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٤/ ٢٨٢، ٢٨٤. الرّوح، ص: ٢٥. شرح العقيدة الطّحاوية: ٢/ ١٣٧، طبعة: مكتبة المعارف. تسلية أهل المصائب، ص:٢٩١ ـ ٢٩٢.

أغرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من النّعيم أو العذاب ما يصل إلى المقبور[1].

وإنّما أضيف النّعيم والعذاب إلى القبر لكون معظم ذلك يقع فيه، وأنّ الغالب من الموتى يقبرون[2].

ولا شكّ أنّ النّعيم أو العذاب الّذي يقع في القبر لا يقاس بنعيم الدّنيا ولا عذابها لأنّه ليس من جنسه، ولا نوعه، بل هو نعيم وعذاب من نوع آخر لا عهد للإنسان به في الدّنيا.

قال ابن القيّم رحمه الله:

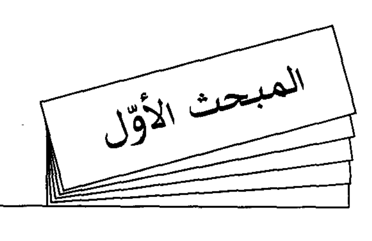
«إنّ النّار الّتي في القبر والخضرة ليست من نار الدّنيا ولا من زروع الدّنيا فيشاهده من شاهد نار الدّنيا وخضرها، وإنّما هي من نار الآخرة وخضرها وهي أشدّ من نار الدّنيا، فلا يحسّ به أهل الدّنيا، فإنّ الله سبحانه يحمي عليه ذلك التّراب والحجارة الّتي عليه وتحته حتّى يكون أعظم حرّاً من جمر الدّنيا، ولو مسّها أهل الدّنيا لم يحسّوا بذلك، بل أعجب من هذا أنّ الرّجلين يدفنان أحدهما إلى جنب الآخر وهذا في حفرة من حفر النّار لا يصل حرّها إلى جاره، وذلك في روضة من رياض الجنّة لا يصل روحها ونعيمها إلى جاره، وقدرة الرّب تعالى أوسع وأعجب من ذلك، وقد أرانا الله من آيات قدرته في هذه الدّار ما هو أعجب من ذلك بكثير، ولكنّ النّفوس مولعة بالتّكذيب بما لم تحط به علماً إلّا من وفّقه الله وعصمه»[3].



(١) الرّوح، ص:٥٨. شرح العقيدة الطّحاوية: ٢/١٣٧ بتصرّف، طبعة: مكتبة المعارف.
(٢) انظر: فتح الباري: ٣/٢٣٣، طبعة: دار المعرفة. فيض القدير: ٤/٣٠٩.
(٣) الرّوح، ص:٦٦.

الفصل الثّالث

فتنة القبر وعوامل الثّبات عندها



فتنة القبر والثّبات عندها

إنّ القبر أوّل منزلة يحطّ الإنسان رحله فيها بعد فراق هذه الحياة، وهي منزلة شاقّة يقدم إليها الإنسان وحيداً فريداً ليس معه إلّا ما قدّم في هذه الدّنيا.

عن هانئ مولى عثمان رضي الله عنه قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتّى يبلّ لحيته، فقيل له: تذكر الجنّة والنّار فلا تبكي وتبكي من هذا؟ فقال: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ القبر أوّل منزل من منازل الآخرة فإنّ نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ منه»[1].

وهو هائل مخيف بالغ الشّناعة والفظاظة كما قال ﷺ: «فما رأيت منظراً قطّ إلّا القبر أفظع منه»[2].

وما أنّ يوضع الميّت فيه إلّا ويعاجله القبر بضمّة قاسية لا يفلت منها أحد كبيراً كان أم صغيراً، مطيعاً كان أم عاصياً.

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «هذا الّذي تحرّك له العرش، وفتحت له أبواب السّماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضمّ ضمّة، ثمّ فرّج عنه»[3]. يعني بذلك سعد بن معاذ الصّحابي الجليل رضي الله عنه. كما جاء في

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ص١٠٣٠.

(٢) سبق تخريجه. انظر: ص:١٠٣٠.

(٣) سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢١)، باب ضمّة القبر وضغطته: (١١٣)، برقم: (٢٠٥٥). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص:٢٣٠.
مسند أحمد، نحوه في: ٣/ ٣٢٧، عن جابر رضي الله عنه.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ٣/ ٢٢٧، عن جابر رضي الله عنه. قال الذّهبي رحمه الله: «صحيح».
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه إلّا أحرف يسيرة، في: ٦/ ١٠. =

روايته الأخرى صراحة حيث قال ﷺ: «إنّ للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها نجا سعد بن معاذ»[1]. وكما جاء في حديث ابن عبّاس ﵄، أنّ النبيّ ﷺ يوم دفن سعد بن معاذ وهو قاعد على قبره قال: «لو نجا أحد من فتنة القبر لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضُمَّ ضمّة، ثمّ رخي عنه»[2].

بل الصّغار لا يسلمون من ذلك. عن أبي أيوب ﵁ أنّ صبيّاً دفن فقال رسول الله ﷺ: «لو أفلت أحد من ضمّة القبر لأفلت هذا الصّبي»[3].

وفوق ذلك فإنّ القبر مظلم حالك الظّلام مرعب، كما قال ﷺ: «إنّ هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإنّ الله ﷻ ينوّرها لهم بصلاتي عليهم»[4].

وفي هذا الموطن يخضع المرء إلى فتنة عظيمة وامتحان عسير، يوجل القلب من ذكره، ويرتاع الشّخص لسماعه دعك عن وقوعه.

فعن أسماء ﵂ قالت: «قام رسول الله ﷺ خطيباً فذكر فتنة القبر الّتي يفتتن فيها المرء، فلمّا ذكر ذلك ضجّ المسلمون ضجّة»[5].

تلك الفتنة العظيمة هي مسألة القبر الّتي يتولّى أمرها ملكان غليظان شديدان عنيفان، يوجّهان أسئلة محددة معيّنة إلى الميّت، فإمّا أن يثبت ويجيب

= معجم الطّبراني الأوسط، بلفظه إلّا أحرف يسيرة، في: ٢/ ٤٢٤. وانظر: مشكاة المصابيح: ١/ ٤٩.

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٦/ ٩٨، وبلفظ مقارب في: ٦/ ٥٥، عن عائشة ﵂.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر البيان بأنّ ضغطة القبر لا ينجو منها أحد من هذه الأمّة، برقم: (٣١١٢). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم»: ٧/ ٣٧٩. وانظر: صحيح الجامع: ٢/ ٢٣٦.

(٢) معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ١٠/ ٣٣٤، وبلفظ مقارب في: ١٢/ ٢٣٢. وانظر: صحيح الجامع: ٥/ ٧١.

(٣) معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ٤/ ١٢١. وانظر: صحيح الجامع: ٥/ ٥٦.

(٤) صحيح مسلم، بلفظه ـ جزء من حديث ـ في: كتاب الجنائز: (١١)، باب الصّلاة على القبر: (٢٣)، برقم: (٩٥٦)، عن أبي هريرة ﵁: ٢/ ٦٥٩.

(٥) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب ما جاء في عذاب القبر: (٨٦)، برقم: (١٣٧٣)، ص: ٢٨٨.

بالجواب السّديد الصّحيح فيجتاز الامتحان بنجاح وفلاح، وإمّا أن يضطّرب أمره ويفارقه الثّبات، ويعجز عن الجواب فيكبو ويسقط، فيداهمه العقاب ويفاجئه العذاب.

وقد أوضح ﷺ تلك الفتنة، وأجلى أمرها، وكَشف حقيقتها، وأبان خطورتها ليعدّ المرء العدّة لها، ويهيّئ نفسه للقائها، إذ هي أمر لا بد منه، وواقع لا مهرب عنه، وإنّما يثبت فيها من وفّق للثّبات وأعانه الله عليه فقام بما يجب عليه، ويزيغ من جانبه التوفّيق وتنكّب الطّريق.

وأحاديثه ﷺ في شأن تلك الفتنة كثيرة جدّاً تفوق العدّ والحصر، وإنّما أورد منها ما يسعه المقام ويبيّن المراد والمرام، من ذلك:

عن أسماء رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: «ولقد أوحي إليّ أنّكم تفتنون في القبور مثل أو قريب من فتنة الدّجّال... يؤتى أحدكم فيقال: ما علمك بهذا الرّجل؟ فأمّا المؤمن، أو الموقن ـ لا أدري أيّ ذلك قالت أسماء[1] ـ فيقول هو محمّد رسول الله، جاءنا بالبيّنات والهدى فأجبنا وآمنّا، واتّبعنا. فيقال: نم صالحاً، فقد علمنا إن كنت لمؤمناً، وأمّا المنافق، أو المرتاب ـ لا أدري أيّ ذلك قالت أسماء ـ فيقول: لا أدري، سمعت النّاس يقولون شيئاً فقلته»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قبر الميّت أو قال

---

(١) قائل ذلك هو هشام بن عروة رحمه الله.

(٢) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الوضوء: (٤)، باب من لم يتوضأ إلّا من الغشي المثقّل: (٣٧/٣٨)، برقم: (١٨٤)، ص:٥٧ ـ ٥٨، وبلفظه ـ إلّا أحرف يسيرة ـ في: كتاب الكسوف (الصّلاة): (١٦/ ٥)، باب صلاة النّساء مع الرّجال في الكسوف: (١٠/ ٤٣٦)، برقم: (١٠٥٣)، ص:٢٢٦، وبلفظ مقارب في: كتاب العلم: (٣)، باب من أجاب الفتيا بإشارة اليد والرّأس: (٢٤)، برقم: (٨٦)، ص:٣٦، وفي كتاب الجمعة (الصّلاة): (١١/ ٥)، باب من قال في الخطبة بعد الثّناء: أمّا بعد: (٢٩/ ٣٤٥)، برقم: (٩٢٢)، ص:١٩٩، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسّنّة: (٩٦/ ٧١)، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ: (٢/ ٣)، برقم: (٧٢٨٧)، ص:١٥٣٢.

صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الكسوف: (١٠)، باب ما عرض على النّبيّ ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنّة والنّار: (٣)، برقم: (٩٠٥)، ٢/ ٦٢٤.

أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان، يقال لأحدهما المُنْكَر والآخر النّكيرُ، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرّجل؟ فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنّا نعلم أنّك تقول هذا. ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثمّ ينوّر له فيه، ثمّ يقال له: نَم فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم. فيقولان: نم كنومة العروس الّذي لا يوقظه إلّا أحبّ أهله إليه حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت النّاس يقولون فقلت مثله لا أدري. فيقولان: قد كنّا نعلم أنّك تقول ذلك. فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه فتختلف فيها أضلاعه، فلا يزال فيها معذّباً حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[1].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه ـ في حديثه الطّويل ـ وفيه قال ﷺ في شأن العبد المؤمن: «فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: ربّي الله. فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرّجل الّذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله ﷺ. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدّقت. فينادي منادٍ في السّماء أن صدق عبدي فافرشوه من الجنّة، وألبسوه من الجنّة، وافتحو له باباً إلى الجنّة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثّياب طيّب الرّيح فيقول: أبشر بالّذي يسرّك هذا يومك الّذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصّالح، فيقول: ربّ أقم السّاعة حتّى أرجع إلى أهلي ومالي».

وقال في شأن العبد الكافر: «فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربّك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: وما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فيقولان له: ما هذا الرّجل الّذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري. فينادي منادٍ من السّماء أن كذب، فافرشوا له من النّار، وافتحوا له باباً إلى النّار. فيأتيه من حرّها وسمومها، ويضيق عليه قبره

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ١١٢٤.

حتّى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثّياب، منتن الرّيح، فيقول: أبشر بالّذي يسوءك هذا يومك الّذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالشّر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: «ربّ لا تقم السّاعة»[1].

وعن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ العبد إذا وضع في قبره، وتولّى عنه أصحابه، وإنّه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرّجل؟ لمحمّد ﷺ، فأمّا المؤمن فيقول: أشهد أنّه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلى مقعدك من النّار، قد أبدلك الله به مقعداً من الجنّة. فيراهما جميعاً». قال قتادة: وذكر لنا: أنّه يفسح في قبره. ثمّ رجع إلى حديث أنس قال: «وأمّا المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرّجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول النّاس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق[2] من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثّقلين»[3].

فقد بيّنت الأحاديث أنّ المرء يمتحن في قبره، فيسأل عن ربّه ودينه ونبيّه. فأمّا المؤمن فيثبت عند ذلك السّؤال فيقول: ربّي الله، وديني الإسلام، ونبيّ محمّد ﷺ، فيجازى بالنّعيم العظيم، والفضل العميم، وأمّا الكافر أو المنافق أو المرتاب فيحار عن الجواب فيقول: هاه هاه لا أدري، سمعت النّاس يقولون شيئاً فقلته، فيعاقب بالعذاب الأليم، والنّكال الوخيم.

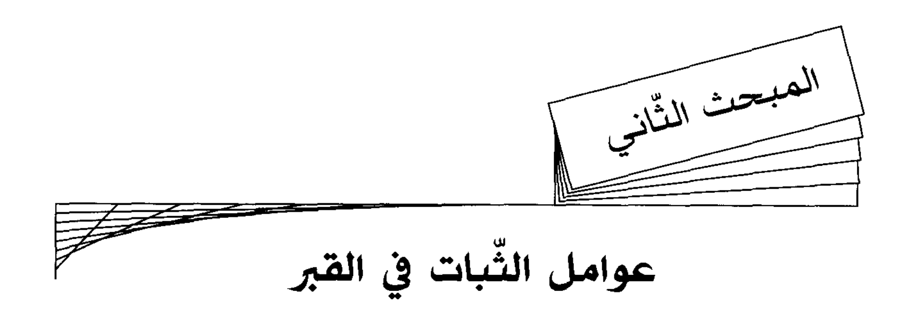
وهنالك عوامل تعين المرء على الثّبات في القبر وأخرى تعيقه عنه. أورد ما أمكنني إيراده منها في المبحث الآتي:

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ص: ٩٩٤.

(٢) مطارق: جمع مِطْرَقة، سمّيت بذلك لأنّه يطرق بها أي يضرب بها، فالطّرق هو الضّرب. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ١/ ٤٠٣. غريب الحديث للهروي: ٢/ ٤٦.

(٣) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/ ٦)، باب ما جاء في عذاب القبر: (٨٦)، برقم: (١٣٧٤)، ص: ٢٨٩، وبلفظ مقارب في: باب الميّت يسمع خفق النّعال: (٦٧)، برقم: (١٣٣٨)، ص: ٢٨٠ ـ ٢٨١.
صحيح مسلم، نحوه في: كتاب صفة الجنّة ونعيمها وأهلها: (٥١)، باب عرض مقعد الميّت من الجنّة أو النّار عليه: (١٧)، برقم: (٢٨٧٠)، ٤/ ٢٢٠٠ ـ ٢٢٠١.



عوامل الثّبات في القبر

إنّ ملازمة الطّاعات ومجانبة المعاصي في الجملة تعين العبد على الثّبات في القبر كما كانت معينة له على الثّبات في كلّ موطن. إلّا أنّ الشّارع الحكيم نصّ على عوامل بعينها لها أثر عظيم في تثبيت المؤمن في قبره. من تلك العوامل:

١ ـ توحيد الله تعالى:

لقد كان توحيد الله سبحانه دوماً في مقدّمة الأعمال الصّالحة، لأنّه أساسها وأصلها الّذي تنبني عليه، وإذا فقد أو خرم انهار صرحها، وتهاوى بنيانها، وهو أعظم عامل للثّبات في جميع المواطن، وإن انحصر الكلام عليه في بعضها دون بعض، سيراً مع الأدلّة ووقوفاً مع النّصوص، فحيث ما ذُكر ذكرناه، وإن لم يُذكر تركناه، ليس غفلة عن أهميّته، ولا تنقيصاً لمكانته. وإنّما تنبيه بما ذُكر على ما لم يُذكر.

وفي هذا الموطن جاء الدّليل من الكتاب والسّنّة على أهميّة التّوحيد في ثبات المؤمن في القبر.

قال الله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧﴾ [إبراهيم: ٢٧].

لقد كانت هذه الآية دليلاً على الثّبات عند الموت كما سبق ذكره[1]. كما هي دليل على الثّبات في القبر لأنّ الله نصّ فيها على الثّبات في الموطنين.

---

(١) انظر: ص: ١٠١٣.

والقول الثّابت هو كلمة التّوحيد وهي شهادة ألّا إله إلّا الله وأن محمّداً رسول الله.

وبيّن ذلك رسول الله ﷺ في حديث البراء رضي الله عنه حين قال: «إذا أقعد المؤمن في قبره أُتي ثمّ شهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾»(1).

وزاد شعبة رحمه الله(2) في روايته: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت في عذاب القبر»(3).

ولذا قال ابن جرير رحمه الله في معنى الآية بعد إيراده لأقوال أهل التّأويل:

«والصّواب من القول في ذلك ما ثبت به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك، وهو أن معناه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وذلك تثبيته إيّاهم في الحياة الدّنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمّد ﷺ، وفي ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بمثل الّذي ثبّتهم به في الحياة الدّنيا، وذلك في قبورهم حين يسألون

---

(1) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦)، باب ما جاء في عذاب القبر: (٨٦)، برقم: (١٣٦٩)، ص:٢٨٨، وبلفظ مقارب في: كتاب التّفسير: (٦٥/ ٣٩)، باب ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]: (٢)، برقم: (٤٦٩٩)، ص:٩٩٥.

(2) هو شعبة بن الحجّاج بن الورد أبو بسطام، الأزدي العتكي مولاهم، الواسطي البصري، شيخ الإسلام، حجّة حافظ متقن، ورع عابد، قال عنه الثّوري: «شعبة أمير المؤمنين في الحديث». وقال الشّافعي: «لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق»، فهو أوّل من فتّش بالعراق عن الرّجال وذبّ عن السّنّة، وكان يشدّد في التّدليس، توفّي سنة ١٦٠هـ.
وانظر: الطّبقات الكبرى: ٧/ ٨٠. طبقات خليفة، ص:٢٢٢. التّاريخ الكبير: ٤/ ٢٤٤. معرفة الثّقات: ١/٤٥٦. الجرح والتّعديل: ٤/٣٦٩. ثقات ابن حبّان: ٦/ ٤٤٦. مشاهير علماء الأمصار: ١/١٧٧. تاريخ بغداد: ٩/ ٢٥٥. التّعديل والتّجريح: ٣/ ١١٦٢. تهذيب الكمال: ١٢/٤٧٩. تذكرة الحفّاظ: ١/ ١٩٣. الكاشف: ١/ ٤٨٥. جامع التّحصيل، ص:١٩٦. تهذيب التّهذيب: ٤/٢٩٧. تقريب التّهذيب: ١/ ٢٦٦.

(3) صحيح البخاري، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٣/٦)، باب ما جاء في عذاب القبر: (٨٦)، برقم: (١٣٦٩)، ص:٢٨٨.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب في: كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها: (٥١)، باب عرض مقعد الميّت من الجنّة أو النّار عليه: (١٧)، برقم: (٢٨٧١)، ٤/ ٢٢٠١.

عن الّذي هم عليه من التّوحيد والإيمان برسوله ﷺ»[1].

وقال البغوي رحمه الله:

«قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ كلمة التّوحيد، وهي قول: «لا إله إلّا الله، في ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني قبل الموت، ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يعني في القبر. هذا قول أكثر المفسّرين»[2].

ويؤيّد ذلك ما سبق من أحاديث في سؤال الميّت عن ربّه ونبيّه ودينه.

فلا يثبت في القبر إلّا الموحّد الّذي عرف الله حقّ المعرفة، وآمن به إيماناً صادقاً، ولم يصرف عبادة لسواه، بل وحّده في ربوبيّته وألوهيّته وأسمائه وصفاته.

٢ ـ الصّلاة والصّيام والزّكاة وفعل الخيرات:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «إنّ الميّت إذا وضع في قبره إنّه يسمع خفق نعالهم حين يولّون عنه، فإن كان مؤمناً كانت الصّلاة عند رأسه، وكان الصّيام عن يمينه، وكانت الزّكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصّدقة والصّلة والمعروف والإحسان إلى النّاس عند رجليه، فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصّلاة ما قبلي مدخل، ثمّ يؤتى عن يمينه فيقول الصّيام ما قبلي مدخل، ثمّ يؤتى عن يساره فتقول الزّكاة ما قبلي مدخل، ثمّ يؤتى من قبل رجليه فيقول فعل الخيرات من الصّدقة والصّلة والمعروف والإحسان إلى النّاس ما قبلي مدخل. فيقال له: اجلس فيجلس وقد مثّلت له الشّمس، وقد أدنيت للغروب، فيقال له: أرأيتك هذا الرّجل الّذي كان فيكم ما تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: دعوني حتّى أصلّي، فيقولون: إنّك ستفعل، أخبرنا عمّا نسألك عنه، أرأيتك هذا الرّجل الّذي كان فيكم ما تقول فيه، وماذا تشهد عليه؟ قال: فيقول: محمّد أشهد أنّه رسول الله، وأنّه جاء بالحقّ من عند الله، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك متّ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله،

---

(١) جامع البيان: ١٣/٢١٨، طبعة: دار الفكر.

(٢) معالم التّنزيل: ٣/٣٣.

ثمّ يفتح له باب من أبواب الجنّة فيقال له: هذا مقعدك منها وما أعدّ الله لك فيها، فيزداد غبطة وسروراً، ثمّ يفتح له باب من أبواب النّار، فيقال له: هذا مقعدك منها، وما أعدّ الله لك فيها لو عصيته، فيزداد غبطة وسروراً، ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينوّر له فيه، ويعاد الجسد لما بدأ منه، فتجعل نسمته[1] في النّسم الطّيّب، وهو طير يعلق[2] في شجر الجنّة. قال: فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ إلى آخر الآية».

قال: «وإنّ الكافر إذا أتي من قبل رأسه لم يوجد شيء، ثمّ أتي عن يمينه فلا يوجد شيء، ثمّ أتي عن شماله فلا يوجد شيء، ثمّ أتي من قبل رجليه فلا يوجد شيء، فيقال له: اجلس، فيجلس خائفاً مرعوباً، فيقال له: أرأيتك هذا الرّجل الّذي كان فيكم ماذا تقول فيه، وماذا تشهد به عليه؟ فيقول: أيّ رجل؟ فيقال: الّذي كان فيكم، فلا يهتدي لاسمه حتّى يقال له: محمّد، فيقول: ما أدري سمعت النّاس قالوا قولاً فقلت كما قال النّاس، فيقال له: على ذلك حييت، وعلى ذلك متّ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله...؟ الحديث.. إلخ»[3].

وعن أسماء رضي الله عنها أنّ النّبيّ ﷺ قال: «إذا دخل الإنسان قبره، فإن كان مؤمناً أحفّ به عمله الصّلاة والصّيام، قال: فيأتيه الملك من نحو الصّلاة فتردّه، ومن نحو الصّيام فيردّه، قال: فيناديه : اجلس... وإن كان فاجراً أو

---

(١) نسمته: النّسمة هي النّفس والرّوح. سمّيت بذلك لأنّها تتنسّم الرّيح. وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٣/ ٧٤٤. غريب الحديث للخطّابي: ١/ ٧٠٦. النّهاية في غريب الحديث: ٥/ ٤٨.

(٢) تَعْلُق: أي تأكل، وهو في الأصل للإبل إذا أكلت العضاه. يقال: عَلَقَتْ تَعْلُق عُلُوقاً، فنقل إلى الطّير. النّهاية في غريب الحديث: ٣/ ٢٨٩.

(٣) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظه في: باب ذكر الخبر المدحض قول من زعم أنّ الميّت إذا وضع في قبره لا يحرّك منه شيء إلى أن يبلى، برقم: (٣١١٣). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده حسن»: ٧/ ٣٨٠.
مستدرك الحاكم، نحوه في: ١/ ٥٣٥.

كافراً قال: جاء الملك وليس بينه وبينه شيء يردّه، قال: فأجلسه...» الحديث[1].

لقد بيّنت الأحاديث أنّ لهذه الطّاعات أثراً عظيماً في القبر، فهي تحيط بالمؤمن من جميع جوانبه، وتحميه وتدافع عنه، بل تصدّ الملك وتمنعه من سؤاله، وفي ذلك تقوية لعزمه، وتأييد له وإعانة، وتثبيت له وطمأنينة، بل يبلغ به الثّبات والطّمأنينة أن يطلب في ذلك المقام أن يصلّي غير خائف ولا وجل.

ولمّا امتنع الكافر عن أداء تلك الطّاعات لم يجد ما يمنع من وصول الملك إليه من أي جهة شاء، وهو خائف مرعوب، فارقه الثّبات وغابت عنه الطّمأنينة، ولازمه الوجل، حتّى شقي بعقابه كما سعد الأوّل بثوابه.

٣ ـ الشّهادة في سبيل الله:

لقد بيّن النّبيّ ﷺ أنّ من قتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه آمن من فتنة القبر وسلم منها.

فعن رجل[2] من أصحاب النّبيّ ﷺ إنّ رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلّا الشّهيد؟ قال: «كفى ببارقة[3] السّيوف على رأسه فتنة»[4].

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لقي العدوّ فصبر

---

(١) مسند أحمد، بلفظه في: ٦/ ٣٥٢. وانظر: معجم الطّبراني الكبير: ٢٤/ ١٠٥، وقد ذكره الحافظ رحمه الله في فتح الباري: ٣/ ٢٣٧ وسكت عنه. وقال الهيثمي رحمه الله: «ورجال أحمد رجال الصّحيح». مجمع الزّوائد: ٣/ ٥١.

(٢) هو راشد بن سعد رضي الله عنه. انظر: التّرغيب والتّرهيب: ٢/ ٢١٣.

(٣) بارقة السّيوف: أي لمعانُها. يقال: برّق بسيفه وأبرق إذا لَمع به. النّهاية في غريب الحديث: ١/ ١٢٠.

وانظر: غريب الحديث لابن قتيبة: ٢/ ٢٠٤.

(٤) سنن النّسائي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢١)، باب الشّهيد: (١١٢)، برقم: (٢٠٥٣). قال الألباني رحمه الله: «صحيح»، ص: ٢٣٠. وانظر: أحكام الجنائز، ص: ٣٦. صحيح الجامع: ٤/ ١٦٤.

حتّى يقتل أو يغلب لم يفتن في قبره»[1].

وعن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للشّهيد عند الله ستّ خصال: يغفر له في أوّل دفعة، ويرى مقعده من الجنّة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدّنيا وما فيها، ويزوّج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»[2].

فأمنه من فتنة القبر، ونجاته من عذابه دلالة على ثباته وعدم زيغه وارتكاسه. ولذا أغدق الله عليه بالأجر الكريم والفضل العظيم الّذي خصّ به دون غيره من المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ

---

(١) مستدرك الحاكم، بلفظه ـ إلّا إنّه لم يذكر: «العدوّ» ـ في: ٢/ ١٣٠، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
معجم الطّبراني الكبير، بلفظه في: ٤/ ١٨٧.
معجم الطّبراني الأوسط، بلفظه في: ٤/ ٢٥٢، وبلفظ مقارب في: ٨/ ١٥٢.
قال الهيثمي رحمه الله: «رواه الطّبراني في الأوسط وفيه مصفى بن بهلول والد محمّد ولم أعرفه وبقيّة رجاله ثقات». مجمع الزّوائد: ٥/ ٣٢٨.
قال القرطبي رحمه الله: «وإذا كان الشّهيد لا يفتن فالصّدّيق أجلّ خطراً، وأعظم أجراً، فهو أحرى أن لا يفتن، لأنّه المقدّم ذكره في التّنزيل على الشّهداء في قوله تعالى: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ [النّساء: ٦٩]. وقد جاء في المرابط الّذي هو أقلّ مرتبة من الشّهيد أنّه لا يفتن، فكيف بمن هو أعلى مرتبة منه ومن الشّهيد؟ والله أعلم، فتأمّله». التّذكرة، ص:١٧٢.
وكلام القرطبي رحمه الله فيه نظر، فقد تكون تلك خاصيّة وميزة للشّهيد، والميزة لا تقتضي الأفضليّة. وهذا باب من الغيب تعوزه الأدلّة فلا يصلح فيه التّخمين.
وقال الشّيخ ناصر الألباني رحمه الله: «ترجي هذه الشّهادة لمن سألها مخلصاً من قلبه ولو لم يتيسّر له الاستشهاد في المعركة، بدليل قوله ﷺ: «من سأل الله الشّهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشّهداء، وإن مات على فراشه». أحكام الجنائز، ص:٣٦. وما استدلّ به رحمه الله رواه مسلم رحمه الله بلفظه في صحيحه: كتاب الإمارة: (٣٣)، باب استحباب طلب الشّهادة في سبيل الله تعالى: (٤٦)، برقم: (١٩٠٩)، ٣/ ١٥١٧، من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه. انظر: ص:٦٩٠، وقوله: «يرى مقعده» عطف تفسير لقوله: «يغفل له»، لئلا تزيد الخصال على ستّ. انظر: تحفة الأحوذي: ٥/ ٢٤٤.

﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

وقد جاء بيان ذلك في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عندما سأله مسروق رحمه الله عن معنى الآية الأولى فقال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثمّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع عليهم ربّهم اطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أيّ شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنّة حيث شئنا؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات، فلمّا رأوا أنّهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا ربّ نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتل في سبيلك مرّة أخرى، فلمّا رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»(١).

فالشّهداء أرواحهم حيّة عند الله حياة برزخيّة، مودوعة في أجواف طير خضر تتنعّم بنعم الله، وترتزق برزق الله، تسرح من الجنّة حيث شاءت، تأكل من ثمارها، وتلتذّ بنعيمها، وهي مغتبطة فرحة بما نالت من أجر وحظيت من كرامة، بل تتمنّى أن تعود إلى الدّنيا لتقتل في سبيل الله مرّة أخرى لما رأت من فضل الشّهادة وعظيم ثوابها(٢).

٤ ـ الرّباط في سبيل الله:

الرّباط هو الملازمة في سبيل الله لثغر من ثغور المسلمين مدّة من الزّمن(٣). فمن مات مرابطاً في سبيل الله فقد أمن فتنة القبر، ونجا من فتانيّ القبر، ونال بعد ذلك عظيم الثّواب وجزيل الأجر.

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ص:٦٨٦.

(٢) وقد وردت بعض النّصوص الّتي تفيد أنّ هنالك أسباباً بعينها إذا مات بها الإنسان نال منزلة الشّهيد. وهي: الموت بالطّاعون، وداء البطن، والغرق، والحرق، والهدم، وذات الجنب، وداء السّل، ويدخل في ذلك موت المرأة في نفاسها بسبب ولدها، والموت في سبيل الدّفاع عن الدّين والنّفس والمال والظّلم.
انظر: تفاصيل ذلك مع الأدلّة في أحكام الجنائز، ص:٣٧ ـ ٤٢.

(٣) وانظر: المفردات، ص:١٨٥ ـ ١٨٦. التّذكرة، ص:١٦٩.

فعن فضالة بن عبيد ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «كلّ الميّت يختم على عمله إلّا المرابط فإنّه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويُؤَمَّنُ من فَتَّانِ القبر»[1].

وفي رواية قال: «يُنْمَى له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر»[2].

وعن سلمان الفارسي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم في سبيل الله أفضل، وربّما قال: خير من صيام شهر وقيامه، ومن مات فيه وُقِيَ فتنة القبر ونُمِّيَ له عمله إلى يوم القيامة»[3].

فالمرابط في سبيل الله يأمن من فتنة القبر ومن فتانيّ القبر فيسلم منهما بثبات وصبر، فيضاعف له الأجر، ولا ينقطع مدّة الحياة وأبد الدّهر، إلى يوم القيامة والحشر.

---

(١) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الجهاد: (١٥)، باب في فضل الرّباط: (١٥)، برقم: (٢٥٠٠). قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٢٨٤.
سنن ابن ماجه، نحوه في: كتاب الجهاد: (٢٤)، باب فضل الرّباط في سبيل الله: (٧)، برقم: (٢٧٦٧)، عن أبي هريرة ﷺ. قال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٣٠٢.
سنن الدّارمي، نحوه في: باب فضل من مات مرابطاً، عن عقبة بن عامر ﷺ: ٢/ ٢٧٨.
مسند أحمد، نحوه في: ٤/ ١٥٠.
الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان، بلفظ مقارب في: باب ذكر انقطاع الأعمال عن الموتى وبقاء عمل المرابط إلى يوم القيامة مع أمنه من العذاب، برقم: (٤٦٢٤). قال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح»: ١٠/ ٤٨٤. معجم الطّبراني الكبير، بلفظ مقارب في: ١٨/ ٣١١.

(٢) انظر: تخريج الحديث السّابق.

(٣) صحيح مسلم، ولفظه: عن سلمان ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الّذي كان يعمله وأجري عليه رزقه وأمن الفتّان»، كتاب الإمارة: (٣٣)، باب فضل الرّباط في سبيل الله ﷺ: (٥٠)، برقم: (١٩١٣)، ٣/ ١٥٢٠.
سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب فضائل الجهاد: (١٩)، باب ما جاء في فضل المرابط: (٢٦)، برقم: (١٦٦٥)، وقال: «هذا حديث حسن». وقال الألباني ﷺ: «صحيح»، ص: ٢٨٩.

٥ ـ التّعود من فتنة القبر:

عن عائشة رضي الله عنها أنّ النّبيّ ﷺ كان يتعوّذ: «اللّهم إنّي أعوذ بك من فتنة النّار، ومن عذاب النّار، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال»[١].

فقد دعا ﷺ ربّه واستعاذ به كي يعصمه من فتن عدّة، منها فتنة القبر وعذابه حتّى ينجو منها ويسلم، والسّلامة منها أن يثبت عندها، ويجتاز محنتها دون سوء ولا ضرر، وفي ذلك توجيه لأهل الإيمان بملازمة الالتجاء إلى الله ودعوته أن يكفيهم شرّ تلك الفتنة، ويعصمهم من الزّيغ عندها، وهو على ذلك قدير سبحانه.

٦ ـ الموت يوم الجمعة أو ليلتها:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلّا وقاه الله فتنة القبر»[٢].

الحديث مصرّح بأنّ من مات في يوم الجمعة أو في ليلتها عصمه الله وحماه من مسألة القبر، وذلك لخاصيّة جعلها الله في هذا اليوم بذاته، الله أعلم بها[٣].

---

(١) سبق تخريجه. انظر: ص: ١٨٤.

(٢) سنن التّرمذي، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٧)، باب ما جاء في من يموت يوم الجمعة: (٧٢)، برقم: (١٠٧٤)، وقال: «هذا حديث غريب». وقال الألباني رحمه الله: «حسن»، ص: ١٩١.

مسند أحمد، بلفظه في: ٢/ ١٦٩، وبلفظ مقارب في: ٢/ ١٧٦. قال أحمد شاكر رحمه الله: «إسناده ضعيف». مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر: ١٠/ ٨٧، ١٣٣، برقم: (٦٥٨٢، ٦٦٤٦).

قال الشّيخ ناصر: «فالحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح». أحكام الجنائز، ص: ٣٥.

(٣) لقد علّل ذلك جماعة من أهل العلم، ولكن لم يطب لي النّقل عنهم، لأنّ تعليلاتهم تحتاج إلى مؤيّد لها من النّصوص الثّابتة، وفي بعضها بعد. انظر: نوادر الأصول=

٧ ـ دعاء المؤمنين له:

قال تعالى في شأن المنافقين ومن مات على الكفر: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التّوبة: ٨٤].

فقد نهى الله رسوله ﷺ ـ والأمّة تبع له ـ أن يصلّي على أحد مات من أهل النّفاق والكفر، وألّا يقوم على قبره بالدّعاء والاستغفار له، وفي هذا دلالة على أن أهل الإيمان يصلّى عليهم ويقام على قبورهم، ويدعى ويستغفر لهم كما ورد في الشّرع.

قال ابن كثير رحمه الله:

«ولمّا نهى الله عزّ وجلّ عن الصّلاة على المنافقين والقيام على قبورهم للاستغفار لهم، كان هذا الصّنيع من أكبر القربات في حقّ المؤمنين فشرع ذلك، وفي فعله الأجر الجزيل كما ثبت في الصّحاح وغيرها من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «من شهد الجنازة حتّى يصلّي عليها فله قيراط[1]، ومن شهدها حتّى تدفن فله قيراطان»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»[2].

= في أحاديث الرّسول لأبي عبد الله محمّد بن علي بن الحسن الحكيم التّرمذي، تحقيق: عبد الرّحمٰن عميرة، طبعة: دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٢م: ٤/ ١٦٢. شرح الصّدور بشرح حال الموتى والقبور، لجلال الدّين عبد الرّحمٰن السّيوطي، اعتنى به وعلّق عليه عبد المجيد طعمة حلبي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م، ص:١٥١. تحفة الأحوذي: ٤/ ١٣٥.

(١) القيراطُ: جُزء من أجزاء الدِينار وهو نصف عُشْره في أكثر البلاد، وأهلُ الشام يَجْعلونه جُزءاً من أربعة وعشرين، والياء فيه بَدَل من الرّاء فإنَّ أصلَه قِرّاط وقد تكرر في الحديث. النهاية في غريب الحديث: ٤/ ٤٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٥٩١.

والحديث في صحيح البخاري، ولفظه: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتّى يصلّي فله قيراط، ومن شهد حتّى تدفن كان له قيراطان»، قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين»، كتاب الجنائز: (٢٣/٦)، باب من انتظر حتّى تدفن: (٥٨)، برقم: (١٣٢٥)، ص:٢٧٨. وجزء منه بنحوه في باب فضل=

وقال السّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وفي هذه الآية دليل على مشروعيّة الصّلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدّعاء لهم، كما كان النّبيّ ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإنّ تقييد الله بالمنافقين يدلّ على أنّه قد كان متقرّراً في المؤمنين»[1].

وقد جاء النّصّ في ذلك صريحاً عن رسول الله ﷺ بالدّعاء للمؤمنين بالتّثبيت.

عن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النّبيّ ﷺ إذا فرغ من دفن الميّت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم وسلوا له التّثبيت فإنّه الآن يسأل»[2].

هذا ما أمكن الوقوف عليه من عوامل معينة على الثّبات في القبر، وهي الّتي تسندها الأدلّة الصّحيحة، وأغفلت ما لم يستند على دليل صحيح حسب ما تبين لي خشية التّقوّل على الله ورسوله بغير علم.

وأعظم عامل يفوق كلّ ما ذُكر هو توفّيق الله وإعانته للعبد ورحمته به، إذ بيده سبحانه أزمّة الأمور، وإليه المبدأ والمصير، وهو على كلّ شيء قدير.

وهذا عامل لا يختصّ بالثّبات في القبر، بل هو عام في كلّ موطن. فما التوفّيق إلّا منه، وما الهداية إلّا بيديه، وما التّثبيت إلّا منه، جل ثناؤه، وعزّ سلطانه، وتقدّست أسماؤه، ولا إله إلّا هو، ولا معبود بحقّ سواه، له الحمد كلّه، وله الشّكر كلّه، وإليه يرجع الأمر كلّه.

= اتّباع الجنائز: (٥٧)، برقم: (١٣٢٣)، ص: ٢٧٨.
صحيح مسلم، بلفظ مقارب وبنحوه في: كتاب الجنائز: (١١)، باب فضل الصّلاة على الجنازة واتباعها: (١٧)، برقم: (٩٤٥، ٩٤٦)، ٢/ ٦٥٢ ـ ٦٥٤، وله رواية عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) تيسير الكريم الرّحمٰن، ص: ٣٠٥.

(٢) سنن أبي داود، بلفظه في: كتاب الجنائز: (٢٠)، باب الاستغفار عند القبر للميّت في وقت الانصراف: (٦٧/ ٦٩)، برقم: (٣٢٢١). قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «صحيح»، ص: ٣٦٣.

الخاتمة

وهي تشتمل على أهم النّتائج وتوصية:

من خلال معالجتي لهذا الموضوع خرجت بالنّتائج الآتية:

الفتن

* بيّن ﷺ الفتن الّتي تحلّ بالأمّة مع كثرتها وعموم الشّرّ بها ليعلم خبرها، ويحذر شرّها.
* حث النّبي ﷺ على مواجهة الفتن الّتي دنا أمرها بالمسارعة بالأعمال الصّالحة، لشدّتها، وظلمتها، وعدم تبيّن أمرها، وتخبّط المرء فيها، وفي ذلك تحذير منها.
* ظهر كثير من الفتن من بعد النّبي ﷺ إلى يومنا هذا، تصديقاً لما ذكر ﷺ، وهي لا تزال في ازدياد حتّى عمَّت، وقلّ بلد إلّا وحلّ فيه أنواع منها، وإن كثرت في بعض البلاد دون بعض.
* موته ﷺ أوّل أمر دهم الإسلام، وأعظم مصيبة حلَّت بالمسلمين. فبه انقطع الوحي، وكان أوّل ظهور الشّرّ بارتداد العرب، وأوّل نقصان الخير في الأمّة.
* حذّر النّبي ﷺ من ظهور الكذّابين المدّعين للنّبوّة، فوقع كما حذّر، وليس المراد كلّ من ادّعى النّبوّة مطلقاً، فأولئك كثر، وإنَّما المراد من قويت شوكته، وكثر أتباعه، وأثار الفتن بباطله.
* استشهاد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فتح باب الفتن، وأدّى إلى انتشارها في أمّة الإسلام. إذ كان هو الباب الحائل بين الفتن والإسلام.
* مقتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه فتح باب شّر عظيم على الأمّة، وهاجت

الفتنة، وعصفت بجيل الإسلام الأوّل، وما حدث من قتال بين المسلمين بعد ذلك إنّما تولّد أصله من مقتله ﷺ. فهي الفتنة الكبرى، الّتي تموج كموج البحر.

* موقعة صفّين أجّج نارها قتلة عثمان ﷺ كما أجّجوا القتال في وقعه الجمل من قبل. وقد أحدثت شرخاً في وحدة المسلمين لم يرتق. وضعفت على إثرها شوكتهم. وكان أصلح للإسلام وأهله ألّا تقع، ولكن أمر قدّره الله. ووضع السّيف في الأمّة ولن يرفع. وتتابعت الفتن عقبها.

* مقتل الحسين ﷺ كان فتنة لأهل الإسلام. وهفوة لبني أميّة أوغرت صدور كثير من المسلمين عليهم. كما كان فتنة لقوم ادّعوا حبّ آل البيت، فجعلوا يوم مقتله مأتماً يأباه الإسلام، وارتكبوا فيه البدع، والأهواء، والشّرك ممّا يفوق حدّ الوصف، وأوردوا من الأخبار الباطلة في صفة مصرعه ما ينافي الحقائق الثّابتة والعقول السّليمة.

* الشّيطان يفتن العباد بما يلقيه من الشّبهات والشّكوك الّتي قد تؤول إلى الكفر والنّفاق، وتندرج تحتها البدع. وما يلقيه من الشّهوات والإيرادات الّتي تعمّ المعاصي بأسرها.

* والشبهات أخطرها ويستغل في ذلك ضعف البصيرة، وقلة العلم حين يقترن بفساد القصد وحصول الهوى.

* ظهور الفرق في عصر الإسلام الأوّل مع توافر الصّحابة والتّابعين كان فتنة لأهل الإسلام لما أحدثته من نزاعات وحروب كلاميّة تصل إحياناً إلى تجريد السّيوف، وسفك الدّماء، أو التّفسيق أو التّبديع أو التّكفير. إضافة إلى ما ولّدته من انحرافات منهجيّة وعقديّة وفكريّة وسياسيّة وغيرها. بل كانت عاملًا مؤثّراً في ضعف المسلمين، وتشويه الإسلام، والتّنفير عنه.

* حبّ الدّنيا سيطر على عقول كثيرين من أهل الإسلام فعميت البصائر، وهزُلت الأمّة أمام أعدائها، فتداعت عليها أمم الكفر فسلبوا الدّيار، وحازوا الأموال، وجثموا على صدرها يذيقونها النّكال.

* الفتنة بالنّساء أشدّ من الفتنة بغيرهنّ. ولذا جعلنّ أضرّ شيء على الرّجال. لأنّ الطّباع تميل إليهنّ، وتقع في الحرام لأجلهنّ، وتسعى للقتال والعداوة بسببهنّ، واختلاطهنّ بالرّجال أصل كلّ شرّ، وهو من أسباب نزول العقوبات، واستشراء الفساد.

* تنبّأ النّبي ﷺ بظهور المعاصي في الأمّة. فظهر كثير ممّا تنبّأ به، ولا زال بعضها في ازدياد. وقد يكون في المستقبل أكثر ممّا هو في الماضي. وفي ذلك تحذير منها.

* الفتنة بدعاة السّوء عظيمة، لما يحدث من إضلال للخلق، وإبعاد عن الحقّ، وانتشار الأقوال الباطلة، وما ينتج من تفرّق الأمّة كما هو مشاهد. وبسببهم يرفع علم الشّرع من الأرض.

* تنبّأ رسول الله ﷺ بوقوع الشّرك في الأمّة. فوقع ما تنبّأ به. فمظاهره في الأمّة كثيرة، فتنت بها الأمّة في أعزّ ما تملك، وهي العقيدة الصحّيحة الّتي نالت بها العزّة والنّصر والتّمكين من قبل. فلما اختلت ارتبك أمر الأمّة، وانهار كيانها، فهضمت حقوقها، وتضعضعت أوصالها.

* تنبّأ رسول الله ﷺ بأنّ أمر الأمّة سيوسّد إلى غير أهله. فوقع ما تنبّأ به، فتولّى أمر النّاس رُذَالتهم وسفهاؤهم ـ إلّا من رحم الله ـ فكانوا فتنة حين استأثروا بمواطن القيادة في الأمّة، وأقصي أهل الخير والإيمان. وتكلّم في شؤون العالم التّافهون الذّين يوشكون بقيادتهم له أن يدمّروا البشريّة.

* فتنة الدّجال أعظم فتنة عرفتها البشريّة قاطبة منذ خلق آدم عليه السّلام إلى قيام السّاعة، ولذلك حذّر منه رسل الله عليهم الصّلاة والسّلام كافّة.

* الفتن مزلق عظيم، ووقعها على النّفوس خطير، قلّ أن ينجو العبد من ضررها.

* الالتجاء إلى الله والاستعانة به في دفع شرّ الفتن، والتّحرّز منها، واجتنابها، وعدم التّعلّق بشيء منها، واعتزال أهلها، ولزوم البيت، وكفّ اللّسان، واهتمام المسلم بأمر نفسه، من أعظم العوامل للثّبات عند حلول الفتن.

* إذا عمّ المنكر ـ وذلك فتنة ـ هلك الكلّ إلّا إذا غيّر، فإذا لم يُغيّر وجب على المؤمنين هجران تلك البلدة والهرب منها. وفي ذلك سلامة من التّردّي في الفتنة.
* الفتن تخلّص العبد من الذّنوب لأنّها كير القلوب، ومحكّ الإيمان، وبها يتبيّن الصّادق من الكاذب.
* الفتن تمحّص العباد، وتختبر إيمانهم، فمن صبر ثبت، ومن وهن سقط. فالصبّر عامل مهمّ للثّبات عند الفتن.
* قوّة الإيمان، وسلامة القلب، ونقاء السّريرة، دواع عظيمة تعصم من الانزلاق عند وقوع الفتن.
* المبادرة إلى الطّاعات عند حلول الفتن عامل جالب للثّبات على دين الله. كما أنّ المعاصي مؤثّر مانع منه.
* دعاء المؤمن على نفسه بالموت خير له من الواقع في الفتنة الّتي تذهب دينه.

الابتلاء

* الله يبتلي عباده بالمحن والشّدائد ليظهر صبرهم، كما يبتليهم بالنّعم والصّنع الجميل ليظهر شكرهم.
* الابتلاء سنّة من سنن الله في الكون، خلق الإنسان من أجلها، فحياته وموته للابتلاء.
* خلق الخلق من أجل العبادة لا ينافي خلقهم من أجل الابتلاء، لأن العبادة تظهر نتيجة الابتلاء إن كانت ثواباً أو عقاباً، على حسب الطّائع أو العاصي.
* حكمة الابتلاء بالتّكليف تعود منفعتها للعباد خاصّة. وليس لله فيها منفعة.
* الابتلاء بالنّعم والنّقم لله فيه حكم تقصر عقول العباد عن إدراك كثير منها.
* إكرام الله للعباد يكون بالتّقوى والطّاعة لا بالنّعم وسعة الرّزق، كما أنّ إهانته لهم تكون بالمعصية والذّنب، لا بالنّقم والفقر. وكلّ ذلك ابتلاء.

* المؤمن يبتلى بحسب ما عنده من الإيمان ليظهر ثباته عليه، وينكشف الكاذب في دعواه.
* الابتلاء يمحّص قلوب المؤمنين، ويخلّصها من الشّوائب، ليرتبط أصحابها بربّهم في الشّدّة والرّخاء، وعند المصائب والنّعم، ليُعلَم ثباتهم، ويزاد في أجرهم.
* ثبات المؤمن عند الابتلاء بالتّكليف يكون بطاعة أمر الله ورسوله، واجتناب ما نهى الله عنه ورسوله، إذ الطّاعات تعين على الثّبات، والمعاصي تزيح عنه.
* الابتلاء بالنّعم يحتاج من العبد إلى ثبات كما يحتاج إلى ذلك الابتلاء بالنّقم، بل لعلّ الثّبات عند النّعم أشدّ على النّفس من الثّبات عند النّقم.
* ثبات المؤمن عند الابتلاء بالنّعم يكون بشكرها، إذ الشّكر قيد النّعم الموجودة، وصيد النّعم المفقودة، وإدامة تذكّرها، والصّبر على أداء حق الله فيها، وعدم الرّكون إليها والاغترار بها، والوصول إليها بالسّبل المحرّمة.
* ثبات المؤمن عند الابتلاء بالمصائب يكون بملاحظة حسن جزائها في الآخرة، وما تكفّره من خطايا، ومراعاة قدر الله السّابق لها، وملاحظة العواقب المحمودة، ومجانبة العوارض القادحة كالشّكوى للخلق، والجزع، والتّسخّط، والحزن المفضي إلى ما لا يرضي الرّب سبحانه.
* الأنبياء أشّد النّاس بلاء، لأنهم مخصوصون بكمال الصبّر، وصحّة الاحتساب، وليتّم لهم الخير، ويضاعف لهم الأجر، ويظهر صبرهم ورضاهم.

الدّعوة

* الدّعوة إلى الله مقام عظيم لأنّها أشرف الأعمال وأرفع العبادات. وأخصّ خصائص رسل الله عليهم السّلام، ووظيفتهم الّتي بعثوا لأجلها. وأبرز مهام عباد الله الصّالحين. وهي الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر الّذي أنزل الله به كتبه، وأرسل به رسله. والدّالة للنّاس على الخير، والمحذّرة لهم عن الشّرّ.

* أعظم دعوات الرّسل عليهم السّلام دعوّة محمّد ﷺ لأنّها خاتمة فجمعت دعوات الرّسل عليهم السّلام وفاضت عليها بالتّشريع الكامل الدائم، ولأنّها عامّة، وللنّاس كافّة، شاملة وافية، استغنت بها أمّة الإسلام عن سواها، وبها فضلت على الأمم.

* هذه الأمّة خير الأمم للنّاس، وأنفعهم لهم، لأمرهم بكلّ معروف ونهيهم عن كلّ منكر لكلّ أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد، وهذا كمال النّفع للخلق.

* صلاح العباد بالرّسالة الّتي تصلهم عن طريق الدّعوة. إذ الفطر عاجزة، والعقول قاصرة.

* بالدّعوة تتحقّق غايات عظمى، أهمّها:

١ ـ عبادةُ الله وحده، وعدمُ الإشراك به.

٢ ـ الإيمان بالله ورسله والملائكة والكتب المنزّلة وبالقدر خيره وشرّه وباليوم الآخر، وتحقيق العمل الصّالح.

٣ ـ إصلاح الأمّة في جميع شؤونها العقديّة والخلقيّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة.

٤ ـ دفع الهلاك والدّمار عن الأمّة، وإنقاذها من عذاب الله ونقمته.

٥ ـ إقامة الحجّة على العباد بأداء الأمانة وانتفاء المعذرة.

* الدّعوة لا تُقدّر بعدد، ولا تضبط بزمن إذا استنفده الدّاعي برئ من العهدة، بل يظلّ داعية إلى الممات.

* الباطل له دعوة، وله إصرار وعزيمة، فلا بد من أن يقابل بعزيمة أقوى وأشدّ.

* لا يسلم أحد حمل الدّعوة من أذى الخلق، حتّى رسل الله عليهم السّلام.

* طريق الدّعوة إلى الله شاقّ، ومسلكها وعر، مملوء بالمخاطر، ومحفوف بالمخاوف، لا يقوى على السّير فيه إلّا مَنْ وفّق للثّبات.

* استشعار الدّاعية بالثّواب المترتّب على قيامه بالدّعوة، والعقاب الحاصل من التّفريط فيها، وما ينتج من ثمرات دنيويّة وأخرويّة يدفعه للثّبات.

* العلم الشّرعي هو الرّوح الّذي تحيا به الدّعوة، والنّور الّذي تستضيء به، والغذاء الّذي يضمن لها بقاءها وقوتها. والدّاعية بغيره يعجز عن أداء ما كلّف به.
* العلم بالدّعوة يشمل العلم بالمعروف المأمور به، والمنكر المنهي عنه، وحال المأمورين والمنهيّين، والطّريق الذّي يسلك، والكيفيّة التّي تتمّ بها الدّعوة، والأسلوب الّذي توجّه به. والبيئة وأحوالها، والثّقافة الواعية والإدراك السّليم، والوعي المتجدّد المستوعب لمتطلبّات الدّعوة، ومعرفة دعوات الشّرّ وما فيها. وكلّ ذلك يضاف إلى حصيلة الدّاعية ليعينه على الثبات.
* كتمان العلم، والقول على الله بغير علم مقوّضان للدّعوة، مضعفان لثبات الدّاعية.
* تطبيق الدّاعية لما يأمر به عامل مؤثّر في استمراره.
* الإخلاص للدّاعية حاجة ماسة في جميع مراحل دعوته لتسلم له من العطب، وتصفو من الكدر، فينجو من السّقوط ويأمن من الزّلل.
* مراعاة المصالح والمفاسد أمر مهمّ للدّاعية، فإن كان في ما يأمر وينهى مصلحة خالصة، أو مصلحة أعظم، أمر ونهى. وإن ترتّب على ذلك مفسدة خالصة أو مفسدة أعظم كفّ عن الأمر أو النّهي، وإن استوتا أو اشتبه الأمر توقّف حتى يتبيّن له. وهو بذلك يضمن سلامة الطّريق، واستمرارية السّير.
* اعتبار مقادير المصالح والمفاسد بميزان الشّريعة. فمتى قدر الدّاعية على اتّباع النّصوص لم يعدل عنها، وقلّ أن تُعْوِز النّصوص من يكون خبيراً بها وبدلالتها على الأحكام.
* التّحلّي بمكارم الأخلاق كالرّفق والتّيسير والحلم والتّواضع وغيرها أحوج ما يكون لها الدّاعية ليؤثّر في المدعوين فيثبت على دعوته.
* التّأنّي والتّؤدة وتجنّب التّهوّر والاستعجال سمات يتّسم بها الدّاعية، حتّى لا يسقط في منتصف الطّريق بل في بدايته.

* ربط الدّعوة بالنتّائج العاجلة، واستجابة النّاس سوء فهم ينشأ عند المتعجّلين والقاصرين عن حقيقة الدعوة، ويؤدّي إلى الانقطاع والعجز عن السّير.
* البدء بتصحيح العقيدة هو المنطلق الأوّل للدّاعية، لأنه الأساس الّذي ترتكز عليه الدّعوة، والقوّة المحرّكة للدّاعية الّتي تدفعه للأداء وتثبته على الطّريق. وأي خلل في ذلك يعدّ خللًا في حياة الدّاعية، وانهياراً لدعوته.
* تهاوت كثير من الدّعوات وتفرّق دعاتها لأنّها أهملت التّوحيد، وتعلقّت بأمور لم تنل من الأهميّة ما ناله. وما ثبت من الدّعوات إلّا الّتي أسّست عليه.
* ثبات الدّاعية يحقق له كثيراً من النتائج أهمها:
- قوّة العزيمة وشدّة الاحتمال على مواجهة الصّعاب.
- اصطفاء الشّخصيّات الدّاعية، واستخلاص العناصر القويّة.
- الوقوف على صدق الصّادقين من الدّعاة وقوّة ارتباطهم وتماسكهم.
- برهنة جدارة الدّعوة، وأنّها حقّ يجب الاتباع.
- ضمان استمراريّة الدّعوة، ووقوفها أمام التّحديّات.
- عجز أهل الباطل من النّيل منها لصلابة سياجها ومنعة حصنها.
- تكثير أتباعها، ونيل ما يترتّب عليها من ثواب دنيوي وأخروي.

الجهاد

* الجهاد فريضة شاقّة. ولذا تدرّج الشّارع الحكيم في تشريعه على مراحل ككلّ الأحكام الشّاقّة.
* الجهاد في الإسلام ليس قتالًا أهوج همّه أن تسفك فيه الدّماء، وتغتصب فيه الحقوق، وإنّما شرع ليحقّق غايات عظمى، منها:

١ ـ عبادة الله وحده. وهي الغاية التّي خلق الخلق من أجلها.

٢ ـ قتل الكفّار وإذلالهم، وإعزاز المؤمنين ونصرهم.

٣ ـ دفع شرّ الأشرار وفساد الفجّار.

٤ ـ تحقيق الابتلاء، وهي حكمة تتأتّى من كلّ التّكاليف الشّرعيّة، وهي في الجهاد تبرز بجلاء.

٥ ـ إنقاذ المستضعفين والأسرى من المؤمنين.

* الثّبات محمود في كلّ موطن وهو في الجهاد أكثر حمداً لأنّه روحه، وأهمّ أسباب النّصر، وينتج من عدمه المثالب.

* الأمر بالجهاد يتضمّن الأمر بالثّبات فيه، فالمجاهد الثّابت هو المستجيب لأمر الله وأمر رسوله ﷺ في أداء هذه الطّاعة.

* استشعار المجاهد بما ورد في فضل الجهاد من أجر يدفعه إلى ثبات قلبه، وجلد نفسه، وقوّة عزمه ليفوز بالأجر.

* ترك الجهاد يترتّب عليه عواقب وخيمة، منها:

أ ـ جلب العقاب، ووقوع العذاب.

ب ـ حصول الهلاك في الدّنيا والآخرة.

ج ـ التّلبّس بالنّفاق.

د ـ حلول الذّلّ والهوان.

فاطّلاع المجاهد على هذه العواقب يدفعه إلى الثّبات والصّدق عند لقاء أعداء الله.

* إعداد القوّة عامل مهمّ، يقذف الطّمأنينة في نفوس المجاهدين، فتقوى عزائمهم، وتثبت قلوبهم، فيصبرون على مجالدة الأعداء، ومقارعة الألدّاء.

* التّوكلّ على الله والالتجاء إليه قوّة معنوية تفوق القوّة الحسيّة في تثبيت المجاهد، فإن تخلّفت عنه فلا مناص من الفشل، وقد تتخلّف الحسيّة لبعض الأسباب ويأتي النّصر.

* ذكر الله عامل مؤثر في ثبات المجاهد لما له من أثر عظيم على القلوب الّتي هي مقرّ الثّبات الأوّل. ويتمثّل ذلك في عدّة أمور:

أ ـ توجل القلوب من ربّها فيزداد يقينها، فتنقاد لأوامره، وتتجنّب معاصيه. ومن ذلك ما أمرت به من الثّبات في الجهاد وعدم الفرار.

ب ـ يقذف فيها الطّمأنينة ويبث فيها السّكينة، فتستأنس بربّها، فيزول قلقها، ويذهب اضطّرابها، فتشتاق إلى لقاء مولاها.

ج ـ تنشرح به وتتفسح، وتلين وتخشع وترقّ، وتزول قسوتها.

د ـ تحيا به كما تحيا الأرض الميتة بالقطر.

هـ ـ تستنير به، وتذهب ظلمة الذّنوب ووحشتها عنها، وينقشع الرّان الّذي عليها.

و ـ يزداد به أمنها، فتقوى وتشتدّ، ويزداد ثباتها.

ز ـ تشفى به من سقمها الّذي تجلبه الغفلة والذّنوب لها، فيستقيم أمرها، ويكثر خيرها.

فيسهل على صاحبها حينئذ الثّبات في مواطن الشّدة الّتي منها الجهاد في سبيل الله.

* دعاء الله حقيقته أن يظهر العبد لربّه غاية التّذلّل والافتقار والاستكانة له والتّضرّع راغباً فيما عند الله، طامعاً في نواله، وهو أشرف الطّاعات.
* العبد محتاج إلى دعاء الله في كلّ حين وموطن، لأنّه لا غنى له عنه، وأعظم ما يدعو به تثبيت قلبه على الحق. والجهاد أعظم موطن يدعى فيه بذلك.
* الجهاد لا يدني من الأجل، وتركه لا يزيد في العمر، فالآجال محدودة، والأعمار معدودة. فمن أيقن بذلك نال الثّبات.
* نصر الله لعباده المؤمنين حقّ أوجبه على نفسه تفضّلًا. فمن أيقن بنصر الله نزلت في قلبه السّكينة فثبت في القتال.

المنهج

* المنهج الحقّ هو الذّي سار عليه رسول الله ﷺ وصحابته من بعده، والتّابعون لهم بإحسان ومن تبعهم من أهل السّنّة والجماعة.

وهو يتميز بالآتي:

١ ـ مصدر تلقّيه كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

٢ ـ طريقه واحد، كامل، مستقيم، غير متناقض، سالم من الهفوات.

٣ ـ واضح، سهل ميسّر، باق إلى قيام السّاعة.

٤ ـ عامّ لكلّ زمان ومكان.

٥ ـ معتدل، بعيد عن الإفراط والتّفريط.

* العلم الشّرعي الموضّح للمنهج، المميّز لأعلامه، الكاشف للمزالق عنه هو أعظم عامل للثّبات عليه.
* الالتزام بنصوص الوحي، وعدم التّفريق بين متواترها وآحادها قبولًا وردّاً، في عقيدة أو غيرها، مع تجنّب الاعتراض عاصم من الزّيغ عن المنهج.
* أهّم ما يعارض الأمر بلزوم المنهج، ويؤدّي إلى العدول عنه:

أ ـ اتّباع الهوى.

ب ـ تحكيم العقل والرّأي.

ج ـ مقارفة البدع.

د ـ التّقليد بغير دليل.

هـ ـ التّأويل بغير حجّة.

و ـ اتّباع المتشابه.

ز ـ الجدال في مدافعة الحقّ، أو بغير علم.

ك ـ التّحزّب المنحرف، والتّعصّب المقرض. وهو حال كثير من الجماعات اليوم.

* الأخذ بالوسطيّة والاعتدال، والبعد عن الإفراط والتّفريط، مسلك مأمون للثّبات على المنهج.
* عدم الوحشة بقلّة السّالكين يعين على ملازمة المنهج. إذ الحقّ في أصله صحيح فلا يتضرّر بقلّة أهله.
* جهل الفرق الزّائغة عن المنهج بحقيقته أوقعها في التّناقض، والقول بالظّنّ، والحكم بالهوى، وعصفت بها البدع، وجرفها التّفرق.

الموت

* الموت حقيقته: عرض يعتري الإنسان والحيوان. وهو صفة وجوديّة خلقت ضدّ الحياة، ليس بعدم محض، بل هو انقطاع تعلّق الروّح بالبدن ومفارقته له.

* خلق الموت لحكم عدّة منها:

١ ـ فيه تتجلّى كمال قدرة الخالق في تصريف أطوار الخلق، وخلق الأمور المختلفة، والأحوال المتضادّة.

٢ ـ فيه تظهر حقيقة الابتلاء، ليعلم من يطيع ممّن يعصي.

٣ ـ إبقاء البشر على خلقة قابلة للدّوام يفوّت المصلحة والحكمة في جعلهم خلائف.

٤ ـ لولاه ما هنأ العيش، ولا وسعت الأرزاق، ولضاقت الأرض بمن فيها.

٥ ـ به يتخلّص المؤمن من نكد الحياة الّتي حُفّت بالمكاره إلى نعيم لا ينفد مع خيرة الرّفقاء.

٦ ـ به تصل النّفس إلى اليقين، وتتعرّف على حقيقتها من حيث أنّها مخلوقة لخالق ولغاية.

* الموت صعب على النّفوس، لأنّ الرُّوح لا يفارق الجسد إلّا بجهد شديد، وألم عظيم، لم يذق ابن آدم في حياته مثله.

* شدّته ليست من المنذرات الدّالّة على سوء عاقبة المتوفّى، وسهولته ليست من المكرمات، وإلّا لكان أولى النّاس بذلك رسول الله ﷺ، وقد لاقى من شدّته ما لاقى. وهي لا تدّل على نقص في المرتبة، أو هوان، بل قد تقع لزيادة الحسنات، أو تكفير السّيئات.

* أشدّ النّاس ألمًا عند الموت الأنبياء لأنّهم أشدّ النّاس بلاء، وأنّهم يضاعف لهم البلاء كما يضاعف لهم الأجر، وليعرف الخلق مقدار ألم الموت، وأنّه باطن.

* الموت مكروه للخلق، والكفّار أكثر كراهية له، واليهود أشدّهم له كرهاً لأنّه إضافة إلى ما يعلمون من شدّته ما يتوقّعون يوم القيامة من مآل سيّئ. والمؤمنون يكرهونه لما فيه من شدّة، والله يكرهه لهم، ولكن لا بد منه. وممّا يزيده كراهية:

١ ـ ذكره مخيف.
٢ ـ آخر موطن يحرص الشّيطان على الظّفر فيه بالإنسان لإفساده وإلّا فاته.
٣ ـ موطن موحش، ينتقل به الإنسان من دار ألفها إلى دار لا معرفة له بها، وهو وحيد لا يدري مصيره.

* الأعمال الصّالحة الّتي داوم عليها صاحبها حتّى الموت أعظم العوامل المؤديّة للثّبات، بينما المعاصي أعظم العوائق عنه.

* الأعمال بالخواتيم، وحسن خاتمة العبد أو سوءها لا تكون إلّا بسبب ما يجنيه على نفسه، وإنّما يموت على ما عاش عليه.

* لشهادة لا إله إلّا الله محمّد رسول الله أثر عظيم عند الموت، فمن ختم له بها كان أبعد النّاس عن الزّيغ.

* في الإكثار من ذكر الموت فوائد: فهو يحثّ على الاستعداد له قبل نزوله، ويقصّر الأمل، ويزهّد في الدّنيا، ويرغّب في الآخرة، ويهوّن مصائب الدّنيا، ويمنع من الأشر والتّوسّع في اللّذّات، ويهيئ المرء نفسه لملاقاته، حتّى إذا دهمه وجده بكامل عتاده فيثبت إذا الموتُ حضر، ويصبر إذا به نزل.

* المبادرة بالتّوبة ذات أثر بالغ في مداومة العبد على الطّاعات وتجنّب الذنوب ممّا يعينه على الثّبات.

* التسويف وطول الأمل داء عضال، إذا حلّ في القلب أفسد مزاجه، وصعب علاجه، فمنع من ملازمة الطّاعة.

* زيارة القبور فيها عظة، تذكّر حال الموتى، وتزهّد في الدّنيا، وتدفع إلى الاستمرار على صالح الأعمال.

* حبّ لقاء الله عامل معين على الثّبات عند الموت لأنّه يزلّل من صعابه، لشوق ذلك المحبّ لمحبوبه، ورجاء مأموله، فيهون من أجله كلّ قاسي ولو كان الموت.

* غلبة الرّجاء وحسن الظنّ بالله عند الموت له أثر عظيم في سلامة العبد من

العطب، لتعلّق صاحبه بالرّب الّذي لا يخيّب ظنّ من رجاه، ولا يغفل عن من لاذ بحماه، فيعينه على الثّبات، ويوفّقه للصبر.

* الدّعاء عند الموت له عظيم الأثر، لأنّ العبد يلجأ فيه إلى مولاه وهو مفتقر إليه، مع عظم الضعّف وشدّة الحاجة، فيخلص في الدّعاء فيستجيب له المولى ويؤيّده بالتّثبيت.
* الموت مكتوب على الخلائق مقدّر على الجميع، لا ينجي منه هَرَب، ولا يغني منه جَزَع، ولا يدفع عنه حذر، فمن أيقن ذلك وطّن نفسه على حلول الموت بها فدفعه إلى ملازمة الطّاعات، ومجانبة المعاصي حتّى الممات.
* الآجال محدودة والأعمار معدودة، وليس للموت سنٌّ ولا زمن ولا مرض معلوم. ولا تمهل نفس حان وقت قطافها، فمن علم ذلك أعدّ العدّة بالعمل الصّالح قبل حلول الموت، وجانب المعصية قبل وقوع الفوت، ممّا يعينه على الثّبات.
* الدّنيا متاع زائل، فمن علم قيمتها، وأنّه مفارق لها، حذر من شرّها، ولازم التّقوى فلم ينفك عنها، فكان عند الموت ثابتاً.
* الملائكة تثبّت عند الموت من صدق إيمانه، وصلح عمله.
* دعاء الحاضرين لمن أدركه الموت بالثّبات له فيه منفعة عظيمة، فإن استجيب حصل المأمول وتمّ المقصود.
* العبد لم يترك هملًا بل بعثت له الرّسل، وقدّمت له النّذر لتزول عنه العلل، وتقام عليه الحجج، ويدفع إلى العمل، ويحذر من الكسل، ليكون على أهبة الاستعداد، وكامل العتاد، حتّى إذا فاجأه هاذم اللّذّات وجده ملتزماً بالثّبات.

القبر

* نعيم القبر وعذابه من الأمور الغيبيّة الّتي لا يقدر البشر على رؤية ذلك أو سماعه. والعقل السّليم لا ينفي ذلك لأنّه خارج عن إدراكه، وعاجز عن الإحاطة به.
* كلّ من مات وهو مستحقّ للنّعيم أو العذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر.
* نعيم القبر وعذابه لا يقاس بنعيم الدّنيا ولا عذابها لأنّه ليس من جنسه، بل من جنس لا عهد للإنسان به في الدّنيا.

* القبر شاقّ بالغ الشّناعة، مظلم، يسأل فيه الإنسان عن ربّه ونبيّه ودينه، وهي فتنة القبر الّتي تحتاج من العبد للثّبات.
* ملازمة الطّاعات ومجانبة المعاصي في الجملة تعين العبد على الثّبات في القبر كما كانت معينة له في كلّ موطن، إلّا أنّ الشّارع نصّ على عوامل بعينها لها أثر عظيم في تثبيت المؤمن في قبره. منها:

١ ـ توحيد الله تعالى.

٢ ـ الصّلاة والصّيام والزّكاة وفعل الخيرات.

٣ ـ الشّهادة في سبيل الله.

٤ ـ الرّباط في سبيل الله.

٥ ـ التّعوّذ من فتنة القبر.

٦ ـ الموت يوم الجمعة أو ليلتها.

٧ ـ دعاء المؤمنين له.

* رسل الله وأنبياؤه عليهم السّلام أعظم النّاس ثباتاً في كلّ موطن، وثباتهم أعظم أنموذج للثّبات الصّادق والّذي يقتدي به من يريد الثّبات.
* أصحاب رسول الله أعظم النّاس ثباتاً بعد رسل الله عليهم السّلام، فهم خير من يضرب به المثل في الثّبات بعد الرّسل.
* في هذه الأمّة والأمم السّابقة نماذج مضيئة، وأمثلة رائعة وفّقوا للثّبات على الحقّ والبقاء على الدّين، يؤخذ من ثباتهم التّأسّي والعبر.

توصية

* أوصي إخواني طلبة العلم الباحثين أن يركزّوا في بحوثهم ورسائلهم على تناول الموضوعات التّربويّة، الّتي تغرس الإيمان في القلوب، وتزكّي النّفوس، وتربط العبد بمولاه، وتصله بهدي نبيّه ﷺ، وتزيد ثقته بهذا الدّين لتتحقّق عبادة الله في الأرض، وليعيدوا بذلك هذه الأمّة الشّاذة إلى ما كانت عليه إيّام عزّها ومجدها وتمكينها، لتؤدّي رسالتها الّتي كلّفت بها، فتنال موعود ربّها.

الفهـــارس



فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	الصّفحة
سورة المائدة		
﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾	(٢)	٩١٣
﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾	(٣)	٨٠٨ ـ ٨٠٩
﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾	(٦)	٥١٣
﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم﴾	(١٣)	٨٧٩
﴿فاعف عنهم واصفح﴾	(١٣)	٦٤٠ ـ ٨٧٩
﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم﴾	(١٤)	٩١٢
﴿فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون﴾	(٢٤)	٧٧٤ ـ ٧٧٥
﴿ومن أحياها﴾	(٣٢)	٨٤ ـ ٨٦ ـ ٨٧
﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له﴾	(٤١)	٣٦
﴿فلا تخشوا الناس واخشون﴾	(٤٤)	١٠٣٥
﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾	(٤٨)	٤١١
﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾	(٤٩)	٣٠ ـ ٢٣٣ ـ ٢٣٤
﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾	(٥٠)	٢٣٣ ـ ٢٣٤
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾	(٥١)	٢٦٣
﴿فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم﴾	(٥٢)	٢٦٣
﴿ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله﴾	(٥٣)	٦٣١
﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾	(٥٤)	٥٥١
﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾	(٥٥)	٩٠٢
﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾	(٥٦)	٩٠٢
﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾	(٦٧)	٦٠٤ ـ ٦٠٥ ٨١٤ ـ ٨١٥
﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة﴾	(٧٢)	١٥٧ ـ ٥٨٤
﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾	(٧٨)	٤٦٠
﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾	(٧٩)	٤٦٠
﴿وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترى﴾	(٨٣)	٧٠٥
﴿ولا تعتدوا إنّ الله لا يحب المعتدين﴾	(٨٧)	٧٣٦
﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب﴾	(٩٠)	١٥٤
﴿إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة﴾	(٩١)	١٠٧

الآية	رقمها	الصّفحة
﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك﴾	(١١٦)	٩١٨
﴿أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً﴾	(١٢٢)	٤٦٤ ـ ٨٣٣
﴿وكذلك جعلنا في كل قريةٍ أكابر مجرميها﴾	(١٢٣)	٤٣٨
﴿وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى﴾	(١٢٤)	٤٠٩
﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾	(١٢٤)	٢٢٨ـ٤٠٩ـ٥٩٢
﴿يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم﴾	(١٣٠)	٤٢٩
﴿قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل﴾	(١٣٥)	٩٣٤
﴿ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن﴾	(١٥١)	٤٢٩
﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه﴾	(١٥٣)	٨٠٣ـ٨٠٤ـ٨٤٠
﴿ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾	(١٥٣)	٨٠٣ ـ ٨٠٤ ٨٤٠ ـ ٨٤٢
﴿فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة﴾	(١٥٧)	٤١٥
﴿أويأتي بعض آيات ربك﴾	(١٥٨)	١٧١
﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم﴾	(١٥٩)	٨٠٧
﴿قل إنني هداني ربي إلى صراطٍ مستقيم﴾	(١٦١)	٩٣٢
﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي﴾	(١٦٢)	٥٠٣ ـ ١٠٨٢
﴿لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾	(١٦٣)	٥٠٣ ـ ١٠٨٢
﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾	(١٦٥)	٢٩٠
سورة الأعراف		
﴿أنظرني إلى يوم يبعثون﴾	(١٤)	٧٤٠
﴿قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾	(١٦)	٨٤٥
﴿ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم﴾	(١٧)	٨٤٥
﴿قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾	(١٨)	٨٤٥
﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾	(٢٥)	٩٧٤
﴿يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان﴾	(٢٧)	١٠٧
﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾	(٣١)	٨٢١
﴿قل إنما حرم ربي الفواحش﴾	(٣٣)	١٥١ ـ ١٥٢ ٤٢٩ ـ ٤٨٢
﴿ولكل أمة أجل﴾	(٣٤)	١٠٤٩

سورة يونس

الآية	رقمها	الصّفحة
سورة النّحل		
﴿وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر﴾	(٩)	٨٠٥ ـ ٨١٣
﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾	(٢٨)	١٠٦٧
﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾	(٢٩)	١٠٦٧
﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾	(٣٢)	١٠٦٧
﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾	(٣٥)	٥٩٢
﴿ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً﴾	(٣٦)	٢٩٨ـ٤١٠ـ٥٦٨
﴿إنّما قولنا لشيء﴾	(٤٠)	٧٩٤
﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾	(٤٤)	٨١٢
﴿وقال الله لا تتخذوا إلٰهين اثنين﴾	(٥١)	٥٦٧
﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها﴾	(٦١)	١٠٥٠
﴿من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً﴾	(٦٦)	٥٠٢
﴿والله أخرجكم منّ بطون أمهاتكم﴾	(٧٨)	٢٩٤
﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾	(٨١)	٧١٠
﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيءٍ﴾	(٨٩)	٨٠٩
﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلًا بينكم﴾	(٩٤)	٣٣١
﴿ولنجزين الذين صبروا أجرهم﴾	(٩٦)	٣٣٥
﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾	(٩٩)	٥٧٣
﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾	(١٠٠)	٥٧٣
﴿قل نزّله روح القدس من ربك بالحق﴾	(١٠٢)	٧١٤
﴿إنما يعلمه بشر﴾	(١٠٣)	٥٩٩
﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره﴾	(١٠٦)	٢٥٥
﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا﴾	(١١٠)	٣٢ ـ ٢١٤ ـ ٢٥٦
﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب﴾	(١١٦)	٤٨٣
﴿متاع قليل ولهم عذاب أليم﴾	(١١٧)	٤٨٣
﴿إنّ إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً﴾	(١٢٠)	٣٣٢ـ٣٦٩ـ٤٦٩
﴿شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه﴾	(١٢١)	٣٣٢ ـ ٣٦٩
﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾	(١٢٢)	٣٦٩
﴿ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾	(١٢٣)	٣٦٩ ـ ٨٦٦

سورة ص

الآية	رقمها	الصّفحة
سورة الزّمر		
﴿إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله﴾	(٢)	٥٠٣
﴿ألا لله الدين الخالص﴾	(٣)	٥٠٣
﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً﴾	(٩)	٤٧٠ ـ ١٠٣٨
﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾	(٩)	٤٧٠ ـ ١٠٣٨
﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾	(١٠)	٣٣٥ ـ ٤٤١
﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾	(١١)	٥٠٣
﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾	(١٤)	٥٠٣
﴿فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾	(١٥)	٥٠٣
﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع﴾	(٢١)	٩٧٤
﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام﴾	(٢٢)	٧١٩
﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني﴾	(٢٣)	٧١٩ ـ ٨٨٥
﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾	(٣٠)	٥٨ـ١٠٤٧ـ١٠٨٢
﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾	(٣١)	٥٨ـ١٠٤٧ـ١٠٨٢
﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾	(٤٢)	٩٧٥ ـ ٩٧٦
﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾	(٤٤)	٥٨٦
﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾	(٥٣)	١٠٢٣
﴿وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له﴾	(٥٤)	١٠٢٣ ـ ١٠٥٤
﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾	(٥٥)	١٠٢٣ ـ ١٠٥٤
﴿أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت﴾	(٥٦)	١٠٢٣ ـ ١٠٥٤
﴿أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين﴾	(٥٧)	١٠٢٣ ـ ١٠٥٤
﴿أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرةً﴾	(٥٨)	١٠٢٣ ـ ١٠٥٤
﴿بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها﴾	(٥٩)	١٠٢٣ ـ ١٠٥٤
﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك﴾	(٦٥)	١٥٦ ـ ٥٧٦
سورة غافر		
﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا﴾	(٤)	٨٩١
﴿وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق﴾	(٥)	٨٩١
﴿ويستغفرون للذين آمنوا﴾	(٧)	٢٣٨
﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين﴾	(١١)	٩٦٩

سورة نوح

فهرس الأحاديث النّبويّة

الحديث	الرّاوي	الصّفحة
«إنّما الصبر عند الصّدمة الأولى».	عن أنس	٣٣٥
«إنّ المكثرين هم المقلّون يوم القيامة»	عن أبي ذر	١٤٣
«إنّ من أشراط السّاعة أن يرفع العلم»	عن أنس	١٥٤ ـ ١٦٢
«إنّ من أصحابي من لا يراني بعد أن يفارقني»	عن أمّ سلمة	٢٨٦
«إنّ من أمّتي رجالاً، الإيمان أثبت في قلوبهم»	عن جماعة	٣٢٩
«إنّ مِنْ خياركم أحَاسِنكم أخلاقاً»	عن عبد الله بن عمرو	٥٢٨
«إنّ من شرار النّاس من تدركهم السّاعة»	عن ابن مسعود	١١١٥
«إنّ الموت فزع»	عن جابر	٩٩٨
««إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصّائم»	عن عائشة	٥٢٩
«إنّ الميّت إذا وضع في قبره»	عن أبي هريرة	١١٣٩
«إنّ النّاس إذا رأوا الظّالم»	عن أبي بكر	٤٦٢
«أنّ النّبيّ ﷺ أُلحد»	عن جابر	١١٠٩
«إنّها ستكون فتنة وفرقة واختلاف»	عن محمّد بن مسلمة	٢٠٦
«إنّ هذا المال خضرة حلوة»	عن حكيم بن حزام	١٤١
«إنّ هذه الأرواح عارية»	عن أنس	٩٧٥
«إنّ هذه الصّلاة لا يصلح فيها شيء من كلام النّاس»	عن معاوية بن الحكم	٥٣٦
«إنّ هذه القبور مملوءة ظلمة»	عن أبي هريرة	١١٣٣
«أنّه صحب النّبيّ ﷺ فرأى من تيسيره»	أبو برزة	٥٤١
«أنّه فسّر الظّلم هنا بالشّرك»	عن أبي مسعود	٥٧٦
«إنّه لم تكن فتنة. . . أعظم من فتنة الدّجال»	عن أبي أمامة	١٧٥
«إنّه لم يقبض نبي قطّ حتّى يرى مقعده»	عن عائشة	١٠٨٥
«إنّه لم يكن نبيّ قبلي إلّا كان حقّاً عليه أن يدل أمّته»	عن عبد الله بن عمرو	٤٣ ـ ٦٠٤
«إنّهما ليعذّبان وما يعذّبان في كبير»	عن عبد الله بن عبّاس	١١٢٣
«إنّه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً»	عن العرباض	٨٦٣

فهرس آثار الصّحابة

فهرس الأعلام المترجم لهم

اسم العلم	الصفحة

اسم العلم	الصفحة

(ع)

فهرس البلدان والقبائل والأجناس

فهرس الفرق

فهرس الأبيات الشّعريّة

(ر)

الشّعر		القائل	الصّفحة
هُوَ الموتُ لا مَنْجا مِن الموت والّذي	أحاذرُ بعد الموتِ أَدْهَى وأَفْظَع	معاوية	١٠٤١ ـ ١٠٩٣
	(ف)		
كأنّ جديدَ الأرض يُبْلِيك عنهمُ	تقيّ اليمين بعد عَهْدِك حالِفُ	أوس	٢٧٧
إذا مدحوا الحياة فأسرفوا	في الموت ألف فضيلة لا تعرف		
منها أمان لقائه بلقائه	وفراق كلّ معاشر لا ينصف		
جزى اللّه عنّا الموت خيراً فإنّه	أبرّ بنا من كلّ برّ وألطف		
يعجّل تخليص النّفوس من الأذى	ويدني إلى الدّار الّتي هي أشرف	ابن القيّم	٩٨٠
	(ق)		
وهو إلزام الّذي يشقّ	أو طلب فاه بكلّ خلق	عبد الله العلوي	٣٠٣
	(ك)		
أما في نبيّ اللّه يوسف أسوة	مثلك محبوساً على الجور والإفك		
أقام جميل الصّبر في الحبس برهة	فآل به الصّبر الجميل إلى الملك	البحتري	٣٧٩
	(ل)		
نهاية إقدام العقول عقال	وغاية سعي العالمين ضلال		
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال		
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا		
فكم قد رأينا من رجال ودولة	فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا		
وكم من جبال قد علت شرفاتها	رجال فزالوا والجبال جبال	الرّازي	٨٩٨
والمرء يُبليه بَلاء السِّربال	مرُّ اللّيالي واختلافُ الأحوال	العجاج	٢٧٩
إنّا لنفرح بالأيّام نقطعها وكلّ	يوم مضى يدني من الأجل		
فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً	فإنّما الرّبح والخسران في العمل	الفضيل	١٠٥٧
ليتني كنت قبل ما قد بدا لي	في تلال الجبال أرعى الوعولا	أمية	٩٨٨
كلّ امرئ مُصَبَّحٌ في أهله	والموت أدنى من شراك نعله	أبو بكر	١٠٥٧
إذا العلم لم تعمل به كان حجّة	عليك ولم تعذر بما أنت جاهله		
فإن كنت قد أوتيت علماً فإنّما	يصدّق قول المرء ما هو فاعله	سابق	٤٩١ ـ ٤٩٢
رأى اللّه بالإحسان ما فعلا بكم	فأبلاهما خير البلاء الّذي يَبْلُو	زهير	٢٧٧
	(م)		
لئن فتنتني لَهْيَ بالأمس أفتنت	سعيداً فأمسى قد قلا كلّ مسلم	أعشى همدان	١٩

الشّعر		القائل	الصّفحة
لا يسلم الشّرف الرّفيع من الأذى	حتّى يراق على جوانبه الدّم	المتنبّئ	٤٤٣
وإذا كانت النّفوس كباراً	تعبت في مرادها الأجسام	المتنبّئ	٤٤٤
وكم من عائب قولاً صحيحاً	وآفته من الفهم السّقيم	المتنبّئ	١١٢٧
لقد طفت في تلك المعاهد كلّها	وسيّرت طرفي بين تلك المعالم		
فلم أر إلّا واضعاً كفّ حائر	على ذقن أو قارعاً سنّ نادم	الشّهرستاني	٨٩٩
ولمّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي	جعلتُ رجائي دُونَ عفوك سُلما		
تَعاظَمَني ذنبي فلمّا قرنتهُ	بعفوك ربّي كان عفوك أعظما		
فما زلت ذا عفوٍ عن الذّنب لم تزل	تجودُ وتعفو مِنَّةً وتَكرُّماً		
فإن تنتقم منّي فلستُ بآيسٍ	ولو دخلت نفسي بجرمي جهنّما		
ولولاك لم يغْوى بإبليس عابدٌ	فكيف وقد أغوي صَفيَّكَ آدما		
وإنّي لآتي الذّنْبَ أعرفُ قَدْرَهُ	وأعْلَمُ أنّ اللّهَ يعفُو تَرَحُّما	الشّافعي	١٠٩٧
إن كان منزلتي في الحبّ عندكم	ما قد لقيت فقد ضيّعت أيّامي		
أمنية ظفرت نفسي بها زمناً	واليوم أحسبها أضغاث أحلام	ابن الفارض	١٠٩٩
	(ن)		
«فاحمد إلهك أيّها السّنّيُّ إذ	عافاك من تحريف ذي بُهتان		
واللّه ما يرضى بهذا خائف	من ربّه أمسى على الإيمان		
هذا هو الإلحاد حقّاً بل هو	التّحريفُ محضاً أبرد الهَذَيان		
واللّه ما بُليَ المجسِّمُ قطُّ ذي ال	بلوى ولا أمس بذي الخُذْلان		
أمثالُ ذا التّأويل أفسد هذه	الأديان حين سرى إلى الأديان		
واللّه لولا اللّه حافظ دينه	لتهدَّمت منه قُوَى البنيان	ابن القيّم	٨٨٣
قَضَى على خلقه المَنايا	فكُلُّ حَيٍّ سِواهُ فانِ	أبو العتاهية	١٠٤٥
رَخِيم الكلام قَطِيع القِيا	م أمسى فؤادي بها فاتناً	قائل	٢١
أضحت نبيّتنا أنثى نطيف بها	وأصبحت أنبياء النّاس ذكراناً	عطارد	٦٥
وإذا لم يكن من الموت بدّ	فمن العجز أن تكون جبانا	المتنبّئ	٧٥٦
الموت في كلّ حين ينشر الكفنا	ونحن في غفلة عمّا يداوينا		
لا تطمئن إلى الدّنيا وبهجتها	وإن توشّحت من أثوابها الحَسَنا		
أين الأحبّة والجيران ما فعلوا	أين الّذين همو كانوا لنا سكنا		
سقاهم الموت كأساً غير صافية	فصيّرتهم لأطباق الثّرى رَهَنا	ابن أبي زمنين	١٠٧٨

فهرس المراجع

القرآن الكريم:

(أ)

* آداب الشّافعي ومناقبه: لعبد الرّحمن بن أبي حاتم الرّازي، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت.
* الآداب الشّرعية: لأبي عبد الله محمّد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيَّام، طبعة: مؤسسّة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
* الإبانة عن أصول الدّيانة: لعليّ بن إسماعيل أبي الحسن الأشعري، طبعة: دار الأنصار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ، تحقيق: فوقيّة حسين محمود.
* الابتلاء في القرآن الكريم: رسالة دكتوراه، إعداد الطّالب: محمّد عبد العزيز الحمادي الرّحالي، إشراف: الدكتور سمير عبد العزيز شيلوي، جامعة أمّ القرى، كليّة الدّعوة وأصول الدّين، قسم الكتاب والسّنّة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* أبجد العلوم: لصديق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٧٨م.
* إتحاف أهل الإيمان بما يعصم من فتن هذا الزّمان، لعبد الله بن جار الله ـ مطابع ابن تيمية بالقاهرة ـ نشر دار الصّميعي.
* إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط السّاعة: لحمود بن عبد الله التّويجري مطابع الريّاض، الطَّبعة الأولى: ١٣٩٤م.
* إتمام الوفا في سيرة الخلفاء: للشيخ محمّد الخضري، تحقيق: عبد المجيد طعمة حلبي، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م دار المعرفة، بيروت.
* الإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان: للأمير علاء الدّين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق وتخريج: شعيب الأرناؤوط، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

* أحكام أهل الذّمة لابن قيّم الجوزية، تحقيق: يوسف أحمد البكري، شاكر توفيق العاروري، طبعة: رمادي للنّشر ـ دار ابن حزم، الدّمام، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
* الإحكام بين مراحل العمل في دعوة النّبي ﷺ، للدكتور يوسف محيي الدّين أبو هالة طبعة: دار العاصمة بالرّياض: ١٤١١م
* أحكام الجنائز وبدعها: لمحمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.
* الإحكام في أصول الأحكام: لسيف الدّين أبي الحسن عليّ بن أبي عليّ بن محمّد الآمدي، مطبعة المعارف بمصر، ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م.
* أحكام القرآن: لأبي بكر محمّد بن عبد الله المعروف بابن العربي، تحقيق: علي محمّد البجاوي، الطّبعة الثّانية: ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، طبعة: عيسى الحلبي.
* إحياء علوم الدّين، على هامشه: إتحاف السّادة المتقين للزّبيدي، الطّبعة الأولى: ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م دار الكتب العلمية، بيروت.
* إحياء علوم الدّين: لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، نشر مؤسسة الحلبي وشركاه، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م.
* الاختلاف في اللّفظ والرّد على الجهميّة والمشبّهة للإمام عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الرّسالة الثّالثة من عقائد السّلف، تحقيق: علي سامي النشار، عمار جمعي الطّالبي، طبع: شركة الإسكندريّة للطبّاعة والنّشر، نشر منشأة المعارف بالإسكندريّة، ١٩٧١م.
* أخلاقية الدّاعية: لعبد الله ناصح علوان، طبعة: دار السّلام.
* الأدب المفرد: لمحمّد بن إسماعيل البخاري، مراجعة: محمّد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
* الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي السَّاعة: لمحمّد صديق حسن القنوجي، مكتبة الثقَّافة بالمدينة، دار الكتب العلميّة، بيروت: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
* الأربعين في أصول الدّين: لفخر الدّين محمّد بن عمر الخطيب الرّازي، النّاشر، مكتبة الكلّيات الأزهريّة.
* إرشاد السّاري لشرح صحيح البخاري، لأبي العبّاس شهاب الدّين أحمد بن محمّد القسطلاني، مؤسسّة الحلبي وشركاه: الطّبعة السّادسة، ١٣٠٤هـ المطبعة الكبرى الأميريّة ببولاق. مصر.
* إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول: لمحمّد بن عليّ الشّوكاني، طبعة: دار الفكر بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، تحقيق: محمّد سعيد البدري.

* إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل: لمحمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
* أساس البلاغة: لجار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزّمحشري، طبعة: دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الرّحيم محمود.
* أساس التّقديس في علم الكلام لفخر الدّين أبي عبد الله محمّد بن عمر بن الحسين الرّازي طبعة: مصطفى الحلبي وأولاده، مصر، ١٤٥٤م.
* الاستقامة: لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة: جامعة الإمام محمّد بن سعود، بلد النّشر: المدينة المنورة، الطّبعة الأولى: ١٤٠٣هـ، تحقيق: محمّد رشاد سالم.
* الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البر، تحقيق: علي محمّد البجاوي، طبعة: دار الجيل بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٢هـ.
* أسد الغابة في معرفة الصَّحابة: لأبي الحسن عليّ بن محمّد عز الدّين بن الأثير، طبعة: دار المعرفة، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، تحقيق: خليل مأمون شيحا.
* أسس الدّعوة وآداب الدّعاة: للدكتور محمّد السّيد الوكيل، مطابع الأخبار، ١٩٧٩م، نشر: دار الطّباعة والنّشر الإسلاميّة، القاهرة.
* إسعاف المبطأ في رجال الموطأ: لعبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطي، طبعة: المكتبة التِّجارية الكبرى، مصر، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.
* أشراط السَّاعة: ليوسف بن عبد الله الوابل، دار طيبة، نشر مكتبة ابن الجوزي، الدمام، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
* الإصابة في تمييز الصَّحابة: لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عليّ محمّد البجاوي، طبعة دار الجيل، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
* أصول الدّعوة: لعبد الكريم زيدان، مؤسسة الرّسالة بيروت، الطّبعة السّابعة: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
* أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشّيخ محمّد الأمين بن محمّد المختار الجكني الشّنقيطي، الطَّبعة الثّانية ١٤٠٠هـ ـ ١٩٧٩م. طبعة بن لادن.
* الاعتصام: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمّد الشّاطبي، طبعة: المكتبة التِّجارية، مصر، تعريف محمّد رشيد رضا.
* اعتقاد أئمة الحديث: لأبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، تحقيق: محمد بن عبد الرّحمن الخميس، طبعة: دار العاصمة، الرّياض، الطّبعة الأولى: ١٤١٢هـ.

* اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: لمحمّد بن عمر بن الحسين الرّازي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٠٢هـ، تحقيق: عليّ سامي النّشّار.
* الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرّشاد على مذهب السّلف: لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، طبعة: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠١هـ.
* الإعلام بما في دين النّصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام: لأبي عبد الله محمّد بن أحمد القرطبي، طبعة: دار التّراث العربي، القاهرة، ١٣٩٨هـ، تحقيق: أحمد حجازي السّقا.
* الأعلام العليّة في مناقب ابن تيمية: لأبي حفص عمر بن علي بن موسى البزّار، تحقيق: زهير الشّاويش، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّالثة: ١٤٠٠هـ.
* الأعلام: لخير الدّين الزركلي، طبعة: دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة السّابعة ١٩٨٦م.
* إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين: لابن القيّم، طبعة: مكتبة الكلّيات الأزهريّة، تعليق: طه عبد الرؤوف سعد، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٧٨م، شركة الطّباعة الفنيّة المتّحدة بمصر.
* إغاثة اللّهفان من مصايد الشّيطان: لأبي عبد الله محمّد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة، تحقيق: محمّد حامد الفقي، نشر: دار المعرفة، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
* الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، تحقيق: سمير جابر، طبعة: دار الفكر، بيروت.
* اقتضاء الصّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمّد حامد الفقي، مطبعة: السّنّة المحمّدية، القاهرة، الطّبعة الثّانية: ١٣٦٩م.
* اقتضاء العلم العمل: لأبي بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: محمّد ناصر الدّين الألباني، الرّسالة الرّابعة من ضمن مجموعة كنوز السّنّة.
* الإكليل في استنباط التّنزيل: لجلال الدّين السّيوطي، مراجعة، أبي الفضل عبد الله محمّد الصّديق الغماري، مطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة.
* الإكمال لعليّ بن هبة الله بن أبي نصر بن ماكولا، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١١هـ.

* الألفاظ المؤتلفة: لأبي عبد الله محمّد بن عبد الملك بن مالك الطّائي الجياني، تحقيق: د. محمّد حسن عوّاد، طبعة: دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١١هـ.
* أمالي المرتضى، غرر الفوائد ودرر القلائد: للشّريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطّبعة الأولى: ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.
* الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تقديم د. محمّد جميل غازي، مطبعة المدني، المؤسّسة السّعودية بمصر.
* أهل السّنّة والجماعة معالم الانطلاقة الكبرى: جمع وإعداد محمّد عبد الهادي المصري، طبعة: دار طيبة، الرّياض.
* أهميّة الجهاد في نشر الدّعوة الإسلامية والرّد على الطّوائف الضّالة فيه: لعلّي بن نفيع العلياني، دار طيبة ـ الرّياض. الطّبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
* أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النّشور: لأبي الفرج زين الدّين عبد الرّحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: محمّد السّعيد بن بسيوني زغلول، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(ب)

* الباعث على إنكار البدع والحوادث: لأبي القاسم عبد الرّحمن بن إسماعيل المقدسي، المعروف بأبي شامة، تحقيق: بشير محمّد عيون، طبعة: مكتبة المؤيّد، الطّائف، مكتبة دار البيان، دمشق، الطّبعة الأولى: ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
* البحر المحيط في التّفسير: لأبي حيان الأندلسي، مراجعة: صدقي محمّد جميل، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
* بدائع الفوائد: لابن قيّم الجوزية، تحقيق جماعة من المحقّقين، النّاشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكّة، الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
* البدء والتّاريخ: لمطهّر بن طاهر المقدسي، طبعة مكتبة الثّقافة الدّينيّة، القاهرة.
* البداية والنهاية: لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، طبعة: مكتبة المعارف، بيروت.
* بذل المجهود في حل أبي داود: للشّيخ خليل أحمد السّهارنفوري مع تعليق العلامة محمّد زكريا بن يحيى الكاندهلوي، طبع: شركة الطّباعة العربيّة السّعوديّة المحدودة، نشر دار اللّواء، الرّياض.
* البرهان في أصول الفقه: لأبي المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف، تحقيق وتقديم: دكتور عبد العظيم الدّيب، طبعة: قطر، الطّبعة الأولى: ١٣٩٩هـ.

* بيان تلبيس الجهميّة في تأسيس بدعهم الكلاميّة: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مطبعة الحكومة: مكّة المكرّمة، الطّبعة الأولى: ١٣٩٢هـ، تحقيق: محمّد بن عبد الرّحمن بن قاسم.
* بين متّبع ومقلّد أعمى في فروع الفقه لعامر سعيد الزّيباري، الطّبعة الأولى: ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م. دار ابن حزم - بيروت.

(ت)

* تاج العروس من جواهر القاموس: لمحبّ الدّين أبي الفيض السيّد محمّد مرتضى الحسيني الواسطي الزّبيدي، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
* تاريخ بغداد: لأحمد بن عليّ أبي بكر الخطيب البغدادي، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت.
* تاريخ دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل واجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها: لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: أبي سعيد محبّ الدّين عمر بن غرامة العمروي، طبعة: دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
* تاريخ الطّبري، تاريخ الأمم والملوك: لأبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، طبعة: دار المعارف، بمصر، الطّبعة الثّانية.
* التّاريخ الكبير: لمحمّد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، طبعة دار الفكر، مراجعة: السيّد هاشم النّدوي، ١٩٨٦م.
* تاريخ اليعقوبي: لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العبّاسي، طبعة: دار صادر، بيروت.
* تأويل مختلف الحديث: لابن قتيبة، تصحيح محمّد زهدي النّجار، النّاشر مكتبة الكلّيات الأزهرية: ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ميدان الأزهر.
* تأويل مشكل القرآن: لأبي محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره: السيّد أحمد صقر، دار التّراث، القاهرة، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.
* التّبيان في أقسام القرآن: لابن قيم الجوزية، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت: ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
* التّبيان في أقسام القرآن: لابن قيّم الجوزية، تصحيح وتعليّق طه يوسف شاهين، مكتبة القاهرة دار الطّباعة المحمّدية بالأزهر.
* تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: لعلّي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الثّالثة ١٤٠٤هـ.

* التّبيين لأسماء المدلّسين: لإبراهيم بن محمّد بن سبط بن العجمي، طبعة: مؤسّسة الرّيان بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م، تحقيق: محمّد إبراهيم داود الموصلي.
* تحفة الأحوذي بشرح جامع التّرمذي: لأبي علي محمّد عبد الرّحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلميّة، بيروت.
* تذكرة الحفّاظ: لمحمّد بن أحمد الذّهبي، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، مراجعة: عبد الرّحمن بن يحيى المعلّمي، ١٣٧٤هـ.
* التّذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: لأبي عبد الله القرطبي، دار الرّيان للتّراث، القاهرة، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
* التّرغيب والتّرهيب: لأبي محمّد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تحقيق: إبراهيم شمس الدّين، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٧هـ.
* تسلية أهل المصائب: لأبي عبد الله محمّد بن محمّد المنبجي الحنبلي، تحقيق: بشير محمّد عيون: طبعة: مكتبة المؤيّد، الطّائف، مكتبة دار البيان، دمشق، الطّبعة الثّالثة: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
* التصريح بما تواتر في نزول المسيح: للشّيخ محمّد أنور شاه الكشميري، ترتيب محمّد شفيع، تحقيق عبد الفتّاح أبو غدة، النّاشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية بحلب، ودار القرآن الكريم، بيروت، الطّبعة الثّالثة: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
* التّعاريف المسمّى التّوقيف على مهمات التعاريف: لمحمّد عبد الرؤوف المناوي، طبعة: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ. تحقيق: محمّد رضوان الدّاية.
* تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة: لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، طبعة دار الكتاب العربية، بيروت، الطّبعة الأولى، تحقيق إكرام الله إمداد الحقّ.
* التّعديل والتّجريح لمن خرّج له البخاري في الجامع الصّحيح: لسليمان بن خلف بن سعد أبي الوليد الباجي، طبعة دار اللّواء الرّياض، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م. تحقيق: أبي لبابة حسين.
* التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف: لأبي بكر محمّد الكلاباذي، طبعة: دار الكتب العلميّة بيروت ١٤٠٠هـ.
* التّعريفات: لعليّ بن محمّد بن عليّ الجرجاني، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ. تحقيق: إبراهيم الأبياري.

* تغليق التّعليق: للحافظ ابن حجر، طبعة المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمّان، تحقيق: سعيد عبد الرّحمن القزقي، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ.
* تفسير أبي السّعود المسمّى «إرشاد العقل السّليم إلى مزايا القرآن الكريم»، لأبي السّعود محمّد بن محمّد العمادي، طبعة دار إحياء التّراث العربي، بيروت.
* تفسير أسماء الله الحسنى: إملاء أبي أسحاق أبراهيم بن السّري الزّجّاج، تحقيق: أحمد يوسف الدّقّاق، طبع: مطبعة محمّد هاشم الكتبي، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
* تفسير البيضاوي المسمى «أنوار التّنزيل وأسرار التأويل»، للقاضي عبد الله بن عمر البيضاوي، طبعة: دار الفكر، بيروت، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
* تفسير الطّبري، جامع البيان عن تأويل القرآن: لأبي جعفر محمّد بن جرير الطّبري، تحقيق: محمود محمّد شاكر تخريج: أحمد محمّد شاكر، طبعة دار المعارف بمصر.
* تفسير القاسمي المسمّى «محاسن التأويل»، لمحمّد جمال الدّين القاسمي، تصحيح وتعليق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربيّة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبّعة الأولى: ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.
* تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير الدّمشقي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
* التفسير الكبير «المسمى بمفاتيح الغيب»، لمحمّد بن عمر بن الحسين الفخر الرّازي، النّاشر دار الكتب العلميّة ـ طهران، الطّبعة الثّانية.
* تفسير المراغي: لأحمد بن مصطفى المراغي، طبعة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثّانية: ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م.
* تقريب التّهذيب: لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، طبعة: دار الرّشيد، سوريا، مراجعة: محمّد عوامة، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
* التّكملة والذّيل والصّلة لكتاب تاج اللُّغة وصحاح العربية: للحسن بن محمّد بن الحسن الصّاغاني تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب ١٩٧٩م.
* تلبيس إبليس: لابن الجوزي تحقيق: السيّد الجميلي، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت الطّبعة الرّابعة: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
* التّمهيد لما في الموطّأ من المعاني والأسانيد: لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النّمري، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ومحمّد عبد الكبير البكري، طبعة وزارة عموم الأوقاف والشّؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
* تهذيب الأسماء: للإمام النّووي، طبعة دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٩٩٦م.

* تهذيب التَّهذيب: لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل شهاب الدّين العسقلاني الشّافعي، طبعة دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
* تهذيب الكمال: ليوسف بن الزّكي عبد الرّحمن أبي الحجّاج جمال الدّين المزّي، طبعة، مؤسّسة الرّسالة، مراجعة: د. بشّار عوّاد معروف، بيروت، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .
* تهذيب اللُّغة: لأبي منصور محمّد بن أحمد الأزهري، تحقيق: يعقوب عبد النّبي، مطابع سجل العرب، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة.
* توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيّم: لأحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق زهير الشّاويش، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت الطّبعة الثّالثة: ١٤٠٦هـ.
* تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التّوحيد: لسليمان بن عبد الله بن محمّد بن عبد الوهاب، طبعة: مكتبة الرّياض الحديثة، الرّياض: ص: ١٧ ـ ٢٠.
* تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنان: لعبد الرّحمن بن ناصر السّعدي، طبعة مؤسّسة الرسالة، بيروت، الطَّبعة السّابعة. ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
* تيسير مصطلح الحديث: للدكتور محمود الطّحّان، طبعة: مكتبة المعارف، الرّياض، الطّبعة الثّامنة: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

(ث)

* ثقات ابن حبَّان: لمحمد بن حبَّان بن أحمد أبي حاتم التّميمي البستي، طبعة دار الفكر، مراجعة السيّد شرف الدّين أحمد، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

(ج)

* جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطّبري، ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطَّبعة الثّانية.
* جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله: لأبي عمر يوسف بن عبد البر النّمري القرطبي، تقديم: عبد الكريم الخطيب، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، طبع: المطبعة الفنيّة بالقاهرة، نشر دار الكتب الإسلاميّة.
* جامع التَّحصيل في أحكام المراسيل: لأبي سعيد بن خليل بن كيكلدي العلائي، طبعة عالم الكتب، بيروت، الطَّبعة الثّانية: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م. تحقيق: حمدي عبد المجيد السّلفي.
* جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: لزين الدّين بن رجب الحنبلي، طبعة دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ.

* الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبعة: دار الكتب المصريّة، الطّبعة الثّانية.
* الجامع: لمعمر بن راشد الأزدي، تحقيق: حبيب الرّحمن الأعظمي، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٣هـ.
* الجرح والتّعديل: لعبد الرّحمن بن أبي حاتم محمّد بن إدريس، طبعة: دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ١٢٧١هـ ـ ١٩٥٢م.
* جلاء الأفهام في فضل الصّلاة على محمّد خير الأنام: لابن القيّم، نشر: دار العروبة، الكويت الطّبعة الثّانية: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م. تحقيق: شعيب الأرناؤوط ـ عبد القادر الأرناؤوط.
* جمهرة أنساب العرب: لأبي محمّد عليّ بن أحمد بن حزم، طبعة دار الكتب العلميّة بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
* الجهاد: لعبد الله بن المبارك، تحقيق نزيه حمّاد، طبعة: الدّار التّونسيّة، تونس، ١٩٧٢م.
* الجهاد في الإسلام بين الطّلب والدّفاع: لصالح اللّحيدان، نشر: دار اللّواء، الرّياض: ١٣٩٧هـ.
* الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح لابن تيمية، مطابع المجد التّجاريّة.
* الجواهر الحسان في تفسير القرآن: للشّيخ عبد الرّحمن بن مخلوف الثّعالبي، تحقيق محمّد الفاضلي، طبعة المكتبة العصريّة، بيروت.
* حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: لابن قيّم الجوزيّة، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت.
* الحدود الأنيقة والتّعريفات الدّقيقة: لأبي يحيى زكريا بن محمّد الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، طبعة: دار الفكر المعاصر، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١١هـ.
* حسن الظّنّ بالله: لابن أبي الدّنيا، تحقيق: مخلص محمّد، طبعة: دار طيبة، الرّياض. الطّبعة الأولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* حكم الانتماء إلى الفرق والأحزاب والجماعات الإسلاميّة، لبكر بن عبد الله بن زيد، طبعة: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السّعودية، الطّبعة الثّانية: ١٤١٠هـ.
* حلية الأولياء: لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت الطّبعة الرّابعة: ١٤٠٥هـ.

(د)

* الدّاعي إلى الله: تكوينه ـ مسؤوليته: للدّكتور زيد بن عبد الكريم الزّيد، طبعة: دار العاصمة، الرياض الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
* درء تعارض العقل والنّقل: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمّد رشاد سالم، طبعة دار الكنوز الأدبيّة، الرّياض، ١٣٩١هـ.
* دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السّلف منها: لناصر بن عبد الكريم العقل، دار إشبيليا للنّشر، الطّبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
* الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثّامنة: لأبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: د. محمّد عبد المعيد خان. مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد ـ الهند، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٢م.
* الدّر المنثور في التفسير بالمأثور: لجلال الدّين السّيوطي، طبعة دار الفكر، بيروت: ١٩٩٣م.
* الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم الخليل: للدّكتور محمّد بن سيدي بن الحبيب، دار الوفاء، جدّة الطّبعة الأولى ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.
* دقائق التّفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، تحقيق: محمّد السيّد الجليند، طبع مطبعة التّقدم، القاهرة، نشر: دار الأنصار، القاهرة، الطّبعة الأولى: ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
* دور المنهاج الربّاني في الدّعوة الإسلاميّة: عدنان علي رضا النّحوي، مطابع الفرزدق التّجاريّة، الرّياض، الطّبعة الرّابعة: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
* ديوان ابن الرّومي: شرح وتحقيق: عبد الأمير علي مهنّا، طبعة: دار مكتبة الهلال، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
* ديوان أبي إسحاق إبراهيم بن مسعود الألبيري، تحقيق: محمّد رضوان الدّاية، طبعة: دار قتيبة، دمشق، الطّبعة الثّانية: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
* ديوان أبي العتاهية: طبعة: دار صعب، بيروت.
* ديوان أعشى همدان وأخباره: تحقيق: حسن عيسى أبو ياسين، طبعة: دار العلوم، الرّياض الطّبعة الأولى: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
* ديوان الإمام الشّافعي: جمع وشرح الأستاذ عبد العزيز سيّد الأهل، طبعة المجلس الأعلى للشّئون الإسلاميّة بالقاهرة، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.
* ديوان البحتري: طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت.
* ديوان حاتم الطّائي: طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

* ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري ﷺ، طبعة: دار صادر، دار بيروت، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م.
* ديوان الحماسة: لحبيب بن أوس الطائي أبي تّمام، (دون توثيق).
* ديوان الخنساء: طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.
* ديوان زهير بن أبي سلمى: طبعة: دار صادر، بيروت.
* ديوان الفرزدق: شرح وضبط وتقديم: الأستاذ عليّ فاعور، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٧م.
* ديوان المتنبّي وبهامشه العرف الطّيّب في شرح ديوان أبي الطّيّب: للشّيخ ناصف اليازجي، طبعة: دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

(ذ)

* ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل، جمع أبي عبد الله حنبل بن إسحاق بن حنبل، دراسة وتحقيق: د. محمّد نغس، الطَّبعة الأولى: ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، مطبعة دار نشر الثَّقافة ـ القاهرة.
* ذمّ التّأويل: لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، طبعة: الدّار السّلفيّة، الكويت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ.
* ذيل تذكرة الحفّاظ: لأبي المحاسن محمّد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني، تحقيق: حسام الدّين القدسي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت.
* ذيول العبر: للذهبي والحسيني، تحقيق: أبي هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت.

(ر)

* الرّحيق المختوم: لصفي الرّحمن المباركفوري، طبعة: المكتبة العصريّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
* الرّد على الزّنادقة والجهميّة: للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمّد بن حنبل، تحقيق: محمّد حسن راشد، المطبعة السّلفيّة، القاهرة، ١٣٩٣هـ.
* الرّد الوافر على من زعم أن من سمّى ابن تيمية شيخ الاسلام كافر: لمحمّد بن أبي بكر بن ناصر الدّين الدّمشقي، تحقيق: زهير الشّاويش، طبعة المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٣٩٣هـ.
* الرّوح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدّلائل: للإمام ابن القيّم، نشر: دار الكتب العلميّة، بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبّع المثاني: لشهاب الدّين محمود الآولوسي البغدادي، إدارة الطّباعة المنيريّة، دار إحياء التّراث العربي، بيروت
* الروّض الأنف في تفسير السِّيرة النّبوية لابن هشام: لعبد الرّحمن بن عبد الله الخثعمي السّهيلي، تحقيق: مجدي منصور الشّوري، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
* روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: للإمام أبي حاتم محمّد بن حبّان البستي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعليّ محمّد معوّض ـ الطّبعة الثّالثة: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م. مكتبة نزار مصطفى الباز. مكّة ـ الرّياض.
* روضة المحبّين ونزهة المشتاقين: لابن القيّم، فسر غريبه وراجعه صابر يوسف، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ١٩٧٣م.
* روضة النّاظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل: لعبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، طبعة جامعة الإمام محمّد بن سعود، الرّياض الطّبعة الثّانية: ١٣٩٩هـ، تحقيق: د. عبد العزيز عبد الرّحمن السّعيد.
* الرّوضة النّديّة شرح الدّرر البهيّة: لأبي الطّيّب صدّيق بن حسن بن علي الحسين القنوجي البخاري، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبعة: الشّؤون الدّينيّة بدولة قطر.
* رياض الصّالحين: للإمام النّووي، تحقيق: محمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثّالثة: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(ز)

* زاد المسير في علم التَّفسير: لأبي الفرج جمال الدّين عبد الرّحمن بن عليّ بن محمّد الجوزي، تحقيق: محمّد عبد الرّحمن عبد الله. تخريج أبي هاجر السّعيد بن بسيوني زغلول، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.
* زاد المعاد في هدي خير العباد: لشمس الدّين أبي عبد الله محمّد بن قيّم الجوزيّة، تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، الطَّبعة: السّابعة والعشرون ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م. مؤسّسة الرّسالة، بيروت، مكتبة: المنار الإسلاميّة.
* زبدة التّفسير من فتح القدير: للدّكتور محمّد سليمان الأشقر، وفتح القدير للشّوكاني، دار الفتح ودار النّفائس، عمّان، الطّبعة الخامسة: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

* الزّهد: لأبي عبد الرّحمن عبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق: حبيب الرّحمن الأعظمي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت.
* الزّواجر عن اقتراف الكبائر: لأبي العبّاس أحمد بن محمّد بن علي بن حجر المكي الهيتمي، مطبعة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(س)

* سبل السّلام شرح بلوغ المرام: للأمير محمّد بن إسماعيل الصنّعاني، تحقيق: محمّد عبد العزيز الخولي، طبعة: دار إحياء التّراث العربي، بيروت، الطّبعة الرّابعة: ١٣٧٩هـ.
* سلسلة الأحاديث الضّعيفة والموضوعة وأثرها السّيئ في الأمّة: لمحمّد ناصر الدين الألباني، طبعة: مكتبة المعارف، الرّياض، الطَّبعة الأولى: ١٤١٢م.
* السّلسلة الصَّحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطَّبعة الرّابعة: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
* السّلفيون والأئمة الأربعة: لعبد الرّحمن عبد الخالق، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، النّاشر: الدّار السّلفية، الكويت مطابع دار القبس الكويت.
* السّنّة: لأبي عبد الله محمّد بن نصر المروزي، تحقيق: سالم أحمد السّلفي، طبعة: مؤسسة الكتب الثقافيّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ.
* السّنّة: لعبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق: د. محمّد سعيد سالم القحطاني، طبعة: دار ابن القيّم، الدّمّام، الطّبعة الأولى: ١٤٠٧هـ.
* سنن ابن ماجه: لأبي عبد الله محمّد بن يزيد بن ماجه القزويني، طبعة بيت الأفكار الدّوليّة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
* سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث السّجستاني، طبعة: بيت الأفكار الدّوليّة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
* سنن البيهقي الكبرى: لأحمد بن الحسين بن عليّ أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمّد عبد القادر عطا، طبعة: مكتبة دار الباز، مكّة المكرّمة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
* سنن التِّرمذي المعروف بجامع التِّرمذي: لأبي عيسى محمّد بن عيسى بن سورة التِّرمذي، طبعة بيت الأفكار الدّوليّة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
* سنن الدّارقطني: لأبي الحسن عليّ بن عمر الدّارقطني، تحقيق: السّيد عبد الله هاشم يماني المدني، طبعة: دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

* سنن الدّارمي: لعبد الله بن عبد الرّحمن الدّارمي، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٧هـ. تحقيق فواز أحمد زمرلي وخالد السّبع العلمي.
* السنن الكبرى للنّسائي: طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
* سنن النَّسائي: لأبي عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي، طبعة: بيت الأفكار الدّوليّة، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
* السّياسة الشّرعية في إصلاح الرّاعي والرّعية: لابن تيمية، تحقيق: محمّد إبراهيم البنّا ومحمّد أحمد عاشور، مطبعة: الشّعب، القاهرة.
* سير أعلام النُّبلاء: لمحمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذَّهبي أبي عبد الله، دار النّشر: مؤسسة الرّسالة، بيروت، الطَّبعة التّاسعة: ١٤١٣هـ. تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمّد نعيم العرقسوسي.
* سيرة ابن إسحاق «المسمّاة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي»: لمحمّد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمّد حميد الله، طبعة: معهد الدّراسات والأبحاث للتّعريب.
* السّيرة الحلبيّة في سيرة الأمين والمأمون. : لعلي بن برهان الدّين الحلبي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ.
* السّيرة النّبويّة: لأبي محمّد عبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: د. أحمد حجازي السّقا، دار التّراث العربي للطّباعة والنّشر.

(ش)

* شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب: لابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمّد العكبري الحنبلي الدّمشقي، طبعة: دار ابن كثير، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط.
* شرح أصول اعتقاد أهل السّنّة والجماعة من الكتاب والسّنّة وإجماع الصّحابة: لأبي القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، طبعة: دار طيبة، الرّياض. ١٤٠٢هـ.
* شرح السّنّة: للحسين بن مسعود البغوي، طبعة: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى: ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م. تحقيق زهير الشاويش. شعيب الأرناؤوط.
* شرح صحيح مسلم: للإمام النّووي، طبعة: دار الفكر: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

* شرح الصّدور بشرح حال الموتى والقبور: لجلال الدّين عبد الرّحمن السّيوطي، اعتنى به وعلّق عليه عبد المجيد طعمة حلبي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
* شرح العقيدة الطّحاوية: للقاضي عليّ بن عليّ بن أبي العز الحنفي، تحقيق وتعليق وتخريج: د. عبد الله بن عبد المحسن التّركي - شعيب الأرناؤوط، مؤسّسة الرّسالة - بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
* شرح موطّأ الإمام مالك: لأبي عبد الله محمّد بن عبد الباقي الزّرقاني، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١١هـ.
* الشريعة: لأبي بكر محمّد بن الحسين الآجرّي، تحقيق: محمّد حامد الفقي، مطبعة: السّنّة المحمّديّة، الطّبعة الأولى: ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م.
* شعار أصحاب الحديث: لأبي أحمد محمّد بن محمّد بن أحمد بن إسحاق الحاكم، تحقيق: صبحي السّامرّائي، طبعة: دار الخلفاء، الكويت.
* الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض، طبعة: المكتبة التّجارية الكبرى، وتوزيع دار الفكر، بيروت.

(ص)

* الصّارم المسلول على شاتم الرّسول: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمّد عبد الله عمر الحلواني، محمّد كبير أحمد شودري، طبعة: دار ابن حزم: بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٧هـ.
* الصّحاح، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: لإسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
* صحيح ابن خزيمة: لأبي بكر محمّد بن اسحاق بن خزيمة، تحقيق: محمّد مصطفى الأعظمي، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
* صحيح البخاري «المسمّى الجامع المسند الصّحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيّامه». لمحمّد بن إسماعيل البخاري، طبعة: شركة دار الأرقم، بيروت، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
* صحيح الجامع الصّغير وزيادته: للشّيخ محمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي بيروت، الطّبعة الثّالثة: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
* صحيح مسلم: لمسلم بن الحجّاج القشيري، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، طبعة: دار الحديث، القاهرة، الطّبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
* صفات الدّاعية النّفسيّة: لعبد الله ناصح علوان، طبعة: دار السّلام.

* صفة الصفّوة: لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، د. محمّد رواس قلعجي، طبعة: دار المعرفة. بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
* الصّفدية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمّد رشاد سالم، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٦م.
* الصّواعق المرسلة على الجهميّة والمعطّلة: لابن القيّم، تحقيق: د. علي بن محمّد الدّخيل الله، الطّبعة الثّالثة: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، دار العاصمة، الرياّض.
* صيد الخاطر: للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، راجعه: علي الطّنطاوي، وحقّقه: ناجي الطّنطاوي، طبعة: دار الفكر، دمشق، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(ض)

* ضعفاء العقيلي: لأبي جعفر محمّد بن عمرو بن موسى العقيلي. طبعة: دار الكتب العلميّة. بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م. تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي.
* ضعيف الجامع الصّغير وزيادته: لمحمّد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطَّبعة الثّانية: ١٤٠٨هـ.
* الضّوء اللّامع لأهل القرن التّاسع: لشمس الدّين محمّد بن عبد الرّحمن السّخاوي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
* الضّوء المنير على التّفسير: جمعه عليّ الحمد المحمّد الصّالحي من كتب الإمام ابن القيّم، مؤسّسة النّور بعنيزة مع التّعاون مع مكتبة دار السّلام بالرّياض.

(ط)

* طبقات الحنابلة: للقاضي أبي الحسين محمّد بن أبي يعلى، طبعة: دار المعرفة، بيروت، توزيع دار المؤيّد، الرّياض.
* طبقات خليفة بن خيّاط: طبعة: دار طيبة، مراجعة: د. أكرم ضياء العمري، الرّياض ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
* طبقات الشّافعية الكبرى: لأبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السّبكي، تحقيق: د. عبد الفتاح محمّد الحلو، محمود محمّد الطّناحي، طبعة: هجر للطّباعة والنّشر: الجيزة، الطّبعة الثّانية: ١٩٩٢م.
* طبقات الشّافعية: لأبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبة، تحقيق: د. الحافظ عبد العليم خان، طبعة: عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٧هـ.
* طبقات الصّوفية: لأبي عبد الرّحمن محمّد بن الحسين بن محمّد بن موسى الأزدي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٩٩٨م.

* الطّبقات الكبرى: لمحمّد بن سعد بن منيع، طبعة: دار صادر، بيروت.
* طبقات المحدّثين بأصبهان: لأبي محمّد عبد الله بن محمّد بن جعفر بن حيان الأنصاري، تحقيق: عبد الغفور عبد الحقّ حسين البلوشي، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت الطّبعة الثّانية: ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
* طبقات المدلّسين: لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، طبعة: مكتبة المنار، عمّان، الطّبعة الأولى: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م، تحقيق: عاصم بن عبد الله القريوتي.
* الطّرق الحكميّة في السّياسة الشّرعية: لمحمّد بن أبي بكر بن قيّم الجوزيّة، مطبعة: المدني، القاهرة، تحقيق: محمّد جميل غازي.
* طرق الدّعوة الإسلاميّة: للدكتور أحمد بن محمّد العدناني.
* طريق الهجرتين وباب السّعادتين: لابن القيّم، طبعة: دار ابن القيّم، الدّمّام، الطّبعة الثّانية: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م. تحقيق: عمر بن محمود أبي عمر.

(ع)

* العاقبة في ذكر الموت: لأبي محمّد عبد الحقّ بن عبد الرّحمن بن عبد الله الإشبيلي، تحقيق خضر محمّد خضر، طبعة: مكتبة دار الأقصى، الكويت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
* العبر في خبر من غبر: للذّهبي، دار الكتب العلميّة، بيروت.
* العبوديّة: لشيخ الإسلام ابن تيمية: وهي الرّسالة الرّابعة عشرة من مجموعة التّوحيد، طبعة: دار الفكر.
* عدة الصّابرين وذخيرة الشّاكرين: لابن القيّم، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، تحقيق: زكريا عليّ يوسف.
* عقبات في طريق الدّعوة: لأبي زكريا إبراهيم محمّد أبو بكر عبّاس، منشورات نادي جازان الأدبي، طبعة: دار العلم بجدّة، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
* العقود الدّريّة من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: لأبي عبد الله محمّد بن أحمد بن عبد الهادي بن قدامة المقدسي، تحقيق: محمّد حامد الفقي، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت.
* العلل ومعرفة الرّجال: للإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشّيباني، تحقيق: د. وصي الله بن محمّد عبّاس، طبعة: المكتب الإسلامي، دار الخاني، بيروت، الرّياض، الطّبعة الأولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* العلل المتناهية في الأحاديث الواهية: لعبد الرّحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: خليل الميس، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٣هـ.

* علوم الحديث ومصطلحه عرض ودراسة: للدكتور صبحي الصّالح، طبعة: دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة: الخامسة عشرة ١٩٨٤م.
* عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لبدر الدّين محمود بن أحمد العيني، طبعة: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
* عمل اليوم والليلة: لأبي عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائي، تحقيق، د. فاروق حمادة، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٦هـ.
* العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصَّحابة بعد وفاة النّبي ﷺ: للقاضي أبي بكر بن العربي، تحقيق: محبّ الدّين الخطيب، طبع ونشر: الرّئاسة العامة لإدارة البحوث العلميّة، الرّياض، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
* عون المعبود شرح سنن أبي داود: لمحمّد شمس الحقّ العظيم آبادي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الثّانية. ١٤١٥هـ.

(غ)

* غريب الحديث: لأبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، تحقيق ودراسة د. سليمان بن إبراهيم بن محمّد العايد، طبعة: مركز البحث العلمي بجامعة أمّ القرى، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ.
* غريب الحديث: لأبي الفرج عبد الرّحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٩٨٥م.
* غريب الحديث: لمحمد بن محمّد بن إبراهيم الخطّابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، طبعة جامعة أمّ القرى، مكّة المكرَّمة، ١٤٠٢هـ.
* غريب الحديث: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٧هـ.
* غريب الحديث: للقاسم بن سلّام أبي عبيد الهروي، تحقيق: محمّد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
* غريب القرآن وتفسيره: لأبي عبد الرّحمن عبد الله بن يحيى بن المبارك اليزيدي، تحقيق: محمّد سليم الحاج، عالم الكتب، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(ف)

* الفائق في غريب الحديث: لمحمود بن عمر الزّمخشري، طبعة: دار المعرفة، لبنان، تحقيق: عليّ محمد البجاوي ومحمّد أبي الفضل إبراهيم، الطَّبعة الثّانية.

* فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لأحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني، تحقيق محمّد فؤاد عبد الباقي، محبّ الدّين الخطيب، طبعة: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ ـ طبعة: دار الفكر للطّباعة والنّشر والتوزيع: الطّبعة الأولى: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
* فتح البيان في مقاصد القرآن: لأبي الطّيّب صدّيق بن حسن القنوجي البخاري، طبعة: إدارة إحياء التّراث الإسلامي بدولة قطر.
* فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التّفسير: لمحمّد بن علي الشّوكاني طبعة: دار الفكر، بيروت.
* الفردوس بمأثور الخطاب: لأبي شجاع شيرويه بن شهردار الدّيلمي الهمذاني، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت. الطّبعة الأولى: ١٩٨٦م، تحقيق: السّعيد بن بسيوني زغلول.
* الفروسيّة: لابن قيّم الجوزيّة، تحقيق: مشهور بن حسن بن محمود بن سليمان، طبعة: دار الأندلس، حائل، الطّبعة الأولى: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
* الفصل في الملل والأهواء والنّحل: لأبي محمّد عليّ بن أحمد بن حزم الظّاهري، طبعة: دار الفكر مصوّرة عن طبعة المطبعة الأدبيّة بمصر، الطّبعة الأولى: ١٣١٧هـ.
* فصول في الدّعوة الإسلاميّة: د. حسن عيسى عبد الظّاهر، نشر وتوزيع دار الثّقافة بقطر، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.
* فضائح الباطنيّة: لأبي حامد محمّد بن محمّد الغزالي، طبعة: مؤسّسة دار الكتب الثّقافية، الكويت، تحقيق: عبد الرّحمن بدوي.
* فضائل الصّحابة: للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د. وصي الله محمّد عبّاس، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
* فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة: للقاضي عبد الجبار، طبعة: الدّار التّونسيّة للنّشر.
* فقه السّنّة: للسّيّد سابق، الطّبعة الثّامنة: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م، دار الكتاب العربي، بيروت.
* الفوائد: لابن قيّم الجوزيّة: طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م.
* فوات الوفيات والذّيل عليها: لمحمّد بن شاكر الكتبي، طبعة: دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، تحقيق: إحسان عبّاس.

* فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف المناوي، طبعة: المكتبة التِّجاريَّة الكبرى بمصر، الطَّبعة الأولى: ١٣٥٦هـ.
* في ظلال القرآن: لسيّد قطب، طبعة: دار الشّروق، الطَّبعة العاشرة: ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(ق)

* قاموس القرآن، أو إصلاح الوجوه والنّظائر في القرآن الكريم: للحسين بن محمّد الدّامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيّد الأهل، ١٩٨٣م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الرابعة.
* القاموس المحيط: لمجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت.
* قطف الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة: للسّيوطي، تحقيق: الشّيخ خليل محيي الدّين عيسى، المكتب الإسلامي، الطّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
* قطف الثّمر في بيان عقيدة أهل الأثر: لمحمّد صدّيق حسن خان القنوجي، تحقيق: عاصم عبد الله القريوتي، طبعة: شركة الشّرق الأوسط للطّباعة، الأردن، الطّبعة الأولى: ١٤٠٤هـ.
* قلائد الجمان في التّعريف بقبائل عرب الزّمان: لأبي العبّاس أحمد بن عليّ القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، طبع: مطبعة السّعادة، نشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة، الطّبعة الأولى: ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.
* القناعة فيما يحسن الإحاطة به من أشراط السَّاعة: لمحمّد بن عبد الرّحمن السّخاوي، تحقيق: مجدي السّيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة.
* قواعد الدّعوة إلى الله: للدكتور همّام عبد الرّحيم سعيد، دار العدوي، عمّان الأردن، الطّبعة الأولى: ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.
* القول المفيد في أدلّة الاجتهاد والتّقليد: لمحمّد بن علي الشّوكاني، تحقيق: عبد الرّحمن عبد الخالق، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م. دار القلم ـ الكويت.

(ك)

* الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السّتّة: لمحمّد بن أحمد أبي عبد الله شمس الدّين الذَّهبي الدّمشقي، طبعة: دار القبلة للثّقافة الإسلاميّة، مؤسّسة علوم القرآن، مراجعة: محمّد عوامة، جدّة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
* الكامل في التَّاريخ: لعز الدّين بن الأثير، دار صادر للطّباعة والنّشر ـ دار بيروت للطّباعة والنّشر، ١٣٨٥ ـ ١٩٦٥م.

* الكامل في ضعفاء الرّجال: لعبد الله بن عدي بن عبد الله أبي أحمد الجرجاني، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطَّبعة الثّالثة: ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م، تحقيق: يحيى مختار غزّاوي.
* كتاب أدب الدّنيا والدّين: لأبي الحسن علي بن محمّد بن حبيب البصري الماوردي، طبع: المطبعة الأميريّة، القاهرة، الطّبعة الرّابعة عشرة: ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م.
* كتاب الأذكار: لأبي زكريا يحيى بن شرف النّووي، تحقيق: بشير محمّد عيون، طبعة: مكتبة المؤيّد، الطّائف، مكتبة دار البيان، دمشق، الطّبعة الثّانية: ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م. دمشق، بيروت.
* كتاب الإيمان: للإمام محمّد بن إسحاق بن منده، تحقيق: عليّ بن محمّد بن ناصر الفقيهي، طبعة: مؤسّسة الرّسالة بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٦هـ.
* كتاب جمهرة الأمثال: لأبي هلال العسكري، تحقيق: محمّد أبي الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٩٨٨م.
* كتاب جمهرة اللّغة: لأبي بكر محمّد بن الحسن الأزدي البصري المشهور بابن دريد، طبعة: مؤسّسة الحلبي وشركاه، القاهرة، نشر: دار صادر.
* كتاب الجواب الكافي لمن سأل عن الدّواء الشّافي، لابن القيّم، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت.
* كتاب الزّهد الكبير: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، طبعة: مؤسّسة الكتب الثّقافية، بيروت، الطّبعة الثّالثة: ١٩٩٦م.
* كتاب الزّهد: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشّيباني، تحقيق: عبد العلي عبد المجيد حامد، طبعة: دار الرّيان للتّراث، القاهرة، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٨هـ.
* كتاب السّنّة: لابن أبي عاصم الضّحّاك بن مخلد الشّيباني ومعه ظلال الجنّة في تخريج السّنّة للشّيخ الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
* كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتّعليل: للإمام ابن القيّم، صححه محمّد بدر الدّين أبو فراس النّفساني الحلبي، مكتبة الرّياض الحديثة، الطَّبعة الأولى: ١٣٢٣هـ.
* كتاب الصّلاة وحكم تاركها: للإمام ابن القيّم، تحقيق: تيسير زعيتر، الطّبعة الأولى: ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، المكتب الإسلامي، دمشق ـ بيروت.

* كتاب العلم: لأبي خيثمة زهير بن حرب النّسائي، تحقيق: محمّد ناصر الدّين الألباني، الرّسالة الثّالثة ضمن مجموعة رسائل من كنوز السّنّة، نشر وتوزيع: دار الأرقم، الكويت.
* كتاب الغريبين: غريب القرآن والحديث: لأبي عبيد أحمد بن محمّد بن محمّد الهروي، رواية أبي سعد الماليني، تحقيق: محمود محمّد الطّناحي ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، مطابع الأهرام التّجاريّة، القاهرة.
* كتاب الفرق بين الفرق وبيان الفرقة النّاجية: لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمّد البغدادي، طبعة: دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٩٧٧م.
* كتاب الكبائر: للإمام الذّهبي، طبعة: دار النّدوة الجديدة، بيروت.
* كتاب الكفاية في علم الرّواية: لأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي، مراجعة: عبد الحليم محمّد عبد الحليم، عبد الرّحمن حسن محمود، طبعة: دار التّراث العربي، نشر: دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنّى، بغداد، الطّبعة الثّانية
* كتاب معرفة علوم الحديث: للإمام الحاكم أبي عبد الله النّيسابوري، طبعة: دائرة المعارف بحيدر آباد، نشر المكتبة العلميّة بالمدينة.
* كتاب المقدمات الممهّدات لبيان ما اقتضته رسوم المدوّنة من الأحكام الشّرعيّات والتّحصيلات المحكمات الشّرعيّات لأمّهات مسائلها المشكلات: لأبي الوليد محمّد بن أحمد بن رشد، طبع: مطبعة السّعادة بمصر، نشر: دار صادر، بيروت.
* كتاب المنتقى شرح موطّأ إمام دار الهجرة: للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد الباجي الأندلسي، الطّبعة الأولى: ١٣٣٢هـ، مطبعة السّعادة بمصر.
* الكشّاف عن حقّائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل: لمحمود بن عمر الزّمخشري، سنة ١٣٥٤هـ، المكتبة التّجاريَّة الكبرى لمصطفى محمّد بمصر، الطّبعة الأولى - طبعة: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر - مطبعة الاستقامة بالقاهرة، الطّبعة الثّانية: ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.
* كشف السّرائر في معنى الوجوه والأشباه والنّظائر: لابن العماد، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد - نشر مؤسّسة شباب الجامعة الإسكندريّة، طبع: بمطابع جريدة السّفير، الإسكندريّة.

* الكواشف الجليّة عن معاني الواسطيّة: لعبد العزيز المحمّد السّلمان، طبعة: شركة الراجحي للصّرافة، الطَّبعة العاشرة: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
* الكواكب النّيرّات في معرفة من اختلط من الرّواة الثّقات: لأبي البركات محمّد بن أحمد بن يوسف الذّهبي، تحقيق: حمدي عبد المجيد السّلفي، طبعة: دار العلم، الكويت.

(ل)

* لباب النّقول في أسباب النّزول: لجلال الدّين السّيوطي، اعتنى به عبد المجيد طعمة الحلبي، الطّبعة الأولى: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار المعرفة، بيروت.
* اللّزوميّات: لأبي العلاء المعرّي، تحقيق: أمين عبد العزيز الخانجي، طبعة: مكتبة الهلال.
* لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدّين محمّد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر للطّباعة والنّشر، دار بيروت للطّباعة والنّشر، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
* لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني، طبعة: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، مراجعة: دائرة المعارف النّظاميّة الهند، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
* لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: للحافظ أبي الفرج زين الدّين عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، ضبط ومراجعة: إبراهيم رمضان، وسعيد اللّحّام، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
* لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرّشاد: لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، طبعة: الدّار السّلفيّة، الكويت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ.
* لوامع الأنوار البهيّة وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدّرة المضيئة في عقيدة الفرق المرضيّة: لمحمّد بن أحمد السّفاريني، نشر: مكتبة أسامة، الرّياض، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت.

(م)

* متن العقيدة الطّحاوية: للإمام أبي جعفر الطّحاوي الحنفي، طبعة: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطّبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
* متن القصيدتين النّونيّة والميميّة لابن القيّم، النّاشر: مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
* المثل السائر: لأبي الفتح ضياء الدّين نصر الله بن محمّد الموصلي، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، طبعة: المكتبة العصريّة، بيروت، ١٩٩٥م.

* مجاز القرآن صنعة: لأبي عبيد معمر بن المثنى التّيمي، تعليق: د. محمّد فؤاد سزكين، نشر: مكتبة الخانجي بمصر.
* المجروحين: لأبي حاتم محمّد بن حبّان البستي، طبعة: دار الوعي، حلب، تحقيق: محمود إبراهيم زايد.
* مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمّد الميداني، تحقيق: محمّد محيي الدين عبد الحميد، طبعة: دار المعرفة، بيروت.
* مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد: لنور الدّين الهيتمي، طبعة: دار الرّيّان للتّراث، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٧هـ.
* مجمل اللُّغة: لابن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
* مجموعة الرّسائل الكبرى: لشيخ الإسلام ابن تيمية، الرّسالة الرّابعة عشر في الكلام على الفطرة، مطبعة محمّد عليّ صبيح وأولاده بالأزهر، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م.
* المجموع شرح المهذّب: لمحيي الدّين بن شرف النّووي، تحقيق: محمود مطرحي، طبعة: دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
* مجموع الفتاوى: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عبد الرّحمن بن محمّد بن قاسم، طبعة: مكتبة ابن تيمية، الطَّبعة الثّانية.
* المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: للحافظ أبي موسى محمّد بن أبي بكر بن أبي عيسى المديني الأصفهاني، تحقيق: عبد الكريم الغرباوي ـ الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م دار المدني.
* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمّد عبد الحق بن عطّية الأندلسي، تحقيق: جماعة من العلماء، الطّبعة الأولى: الدّوحة، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.
* المحصول في علم الأصول: لمحمّد بن عمر بن الحسين الرّازي، تحقيق: طه جابر فيّاض العلواني، طبعة: جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الرّياض، الطّبعة الأولى: ١٤٠٠هـ.
* المحكم والمحيط الأعظم في اللّغة: لعلي بن إسماعيل بن سيده، تحقيق: عبد السّتار أحمد فرّاج، الطّبعة الأوّلى: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م. مطبعة مصطفى الحلبي، بمصر.
* المحلّى: لأبي محمّد علي بن أحمد بن حزم، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، طبعة: دار الفكر.

* المحيط بالتّكليف: للقاضي عبد الجبار، جمع الحسن بن أحمد بن متويه، تحقيق: عمر السّيد عزمي، مراجعة الدكتور أحمد فؤاد الأهواني، طبعة: الدّار المصريّة للتأليف والتّرجمة.
* مختارالصّحاح: للشيّخ محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الرّازي، عني بترتيبه محمود خاطر، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت.
* مختار القاموس: للطّاهر أحمد الزّواوي الطّرابلسي، مطبعة: عيسى الحلبي، الطَّبعة الأولى: ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٤م.
* مختصر الصّواعق المرسلة في الرّد على الجهميّة والمعطّلة: اختصره محمّد بن موسى الموصلي، طبعة: دار النّدوة الجديدة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
* مدارج السّالكين بين منازل إيّاك نعبد وإيّاك نستعين: للإمام ابن قيّم الجوزيّة، مطبعة السّنّة المحمّديّة: ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م، نشر: دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: محمّد حامد الفقي.
* المرض والكفّارات: لأبي بكر عبد الله بن محمّد القرشي المعروف بابن أبي الدّنيا، تحقيق: عبد الوكيل النّدوي، طبعة: الدّار السّلفيّة، بومباي، الطّبعة الأولى: ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
* مسائل الجاهليّة الّتي خالف فيها رسول الله أهل الجاهليّة: لشيخ الإسلام محمّد بن عبد الوهّاب، طبعة: الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنورة، ١٣٩٦هـ، تحقيق: محمود شكري الألوسي.
* المستدرك على الصَّحيحين: لمحمّد بن عبد الله الحاكم النَّيسابوري، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
* المستصفى: لأبي حامد الغزالي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت الطّبعة الأولى: ١٤١٣هـ، تحقيق: محمّد عبد السّلام عبد الشّافي.
* المستقصى في أمثال العرب: لأبي القاسم محمود بن عمر الزّمخشري، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٩٨٧م.
* مسند ابن الجعد: لأبي الحسن علي بن الجعد الجوهري البغدادي، تحقيق: عامر أحمد حيدر، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت،الطّبعة الأولى: ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
* مسند أبي داود الطّيالسي: لسليمان بن داود أبي داود الطّيالسي، طبعة: دار المعرفة، بيروت.

* مسند أبي يعلى: لأحمد بن علي بن المثنَّى أبي يعلى الموصلي، طبعة: دار المأمون للتّراث، دمشق، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م، تحقيق: حسين سليم أسد.
* مسند أحمد، بتحقيق أحمد شاكر، طبعة: دار المعارف، مصر، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.
* مسند أحمد: للإمام أحمد بن محمّد بن حنبل، طبعة: مؤسّسة قرطبة، مصر، مصورة عن الطَّبعة الميمنيّة.
* مسند البزّار: لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزّار، طبعة: مؤسّسة علوم القرآن، بيروت، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٩هـ، تحقيق: محفوظ الرّحمن زين الله.
* مسند الحارث بن أبي أسامة: تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري، طبعة: مركز خدمة السّنّة والسّيرة النّبويّة، المدينة المنورة، الطّبعة الأولى: ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.
* المسند: للرّبيع بن حبيب الفراهيدي: تحقيق: محمّد إدريس، عاشور بن يوسف، طبعة: دار الحكمة بيروت، مكتبة الاستقامة، سلطنة عمان، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ.
* مسند الشّهاب: لأبي عبد الله محمّد بن سلامة بن جعفر القضاعي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السّلفي، طبعة: مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.
* مشاهير علماء الأمصار: لأبي حاتم محمّد بن حبَّان البستي، تحقيق: م. فلايشهمر، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٥٩م.
* مشكاة المصابيح: لمحمّد بن عبد الله الخطيب التّبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدّين الألباني، طبعة: المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
* المصباح المنير: لأحمد بن محمّد بن عليّ المقري الفيومي: تصحيح مصطفى السّقا ـ طبعة: مصطفى الحلبي بمصر.
* المصنّف: لأبي بكر عبد الله بن محمّد بن أبي شيبة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، طبعة: مكتبة الرّشد، الرّياض، الطّبعة الأولى: ١٤٠٩هـ.
* المصنف: لأبي بكر عبد الرّزاق بن همّام الصّنعاني، طبعة: المكتب الإسلامي، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرّحمن الأعظمي.
* معالم التّنزيل: للحسين بن مسعود الفرّاء البغوي، طبعة: دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م. تحقيق: خالدّ العك ـ مروان سوار.

* معالم السنن: لأبي سليمان الخطّابي مع مختصر سنن أبي داود وتهذيب ابن القيّم، تحقيق: محمّد حامد الفقي، مطبعة السّنّة المحمّدية: ١٣٦٩هـ ـ ١٩٤٩م.
* معاني القرآن الكريم: لأبي جعفر النّحّاس، تحقيق: محمّد عليّ الصّابوني، طبعة: جامعة أمّ القرى، الطّبعة الأولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق إبراهيم بن السّري الزّجّاج، شرح وتحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، الطّبعة الأولى: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
* معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللّغة العربية، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م، الهيئة المصريّة العامّة للتّأليف والنّشر.
* المعجم الأوسط: للطبراني: تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، طبعة: دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
* معجم البلدان: لياقوت بن عبد الله الحموي، طبعة: دار الفكر، بيروت.
* معجم شيوخ أبي بكر الإسماعيلي: لأبي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل الإسماعيلي، تحقيق: د. زياد محمّد منصور، طبعة: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطّبعة الأولى: ١٤١٠هـ.
* المعجم الصغير: للطّبراني، تحقيق: محمّد شكور محمود، طبعة: المكتب الإسلامي، دار عمّار، بيروت، عمّان، الطّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
* المعجم الفلسفي: للدّكتور جميل صليبا، طبعة: دار الكتاب اللّبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٢م.
* المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد بن أيوب أبي القاسم الطّبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، طبعة: مكتبة العلوم والحكم، الموصل، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م.
* معجم ما استعجم: لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، طبعة: عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الثّالثة: ١٤٠٢هـ. تحقيق مصطفى السّقا.
* معجم متن اللّغة: للشّيخ أحمد رضا، طبعة: دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.
* معجم مقاييس اللّغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السّلام محمّد هارون، مطبعة: مصطفى الحلبي بمصر، الطّبعة الثّانية: ١٣٩١هـ ـ ١٩٧١م.
* معرفة الثّقات: لأحمد بن عبد الله بن صالح العجلي، طبعة: مكتبة الدّار، المدينة المنورة، مراجعة: عبد العليم عبد العظيم البستوي، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م

* المغني: لأبي محمّد عبد الله بن أحمد بن محمّد بن قدامة، تصحيح: محمّد خليل هرّاس، مكتبة ابن تيمية.
* مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لابن قيم الجوزيّة، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت.
* المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الحسين بن محمّد الرّاغب الأصفهاني، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني، طبعة: دار المعرفة - بيروت.
* المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لأبي العبّاس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، تحقيق: جماعة من أهل العلم. طبعة: دار ابن كثير، دار الكلم الطّيّب، دمشق الطّبعة الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
* مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين: لأبي الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري، طبعة: دار إحياء التّراث العربي، بيروت، الطّبعة الثّالثة، تحقيق: هلموت ريتر.
* مكارم الأخلاق: لأبي بكر عبد الله بن محمّد القرشي المعروف بابن أبي الدّنيا، تحقيق: محمّد السّيد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.
* مكاشفة القلوب المقرّب إلى علّام الغيوب: لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
* الملل والنّحل: لمحمّد بن عبد الكريم الشّهرستاني، طبعة: دار المعرفة بيروت، ١٤٠٤هـ، تحقيق: محمّد سيّد كيلاني.
* مناقب الشّافعي: لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: السيّد أحمد صقر، طبعة: مكتبة دار التّراث، القاهرة، الطّبعة الأولى: ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.
* مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر: لفاروق عبد المجيد حمود السّامرائي، مطابع: دار المطبوعات الحديثة جدّة، نشر: مكتبة دار الوفاء، جدّة.
* المنتخب في ذكر أنساب قبائل العرب: لعبد الرّحمن بن حمد بن زيد المغيري اللّامي الطّائي، تحقيق: إبراهيم محمّد الزّايد، الطّبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
* المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لعبد الرّحمن بن عليّ أبي الفرج بن الجوزي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، تحقيق: محمّد ومصطفى عبد القادر عطا.
* المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال، وهو مختصر منهاج السّنّة، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، اختصره الحافظ أبو عبد الله الذّهبي، تحقيق: محبّ الدّين الخطيب، المكتبة السّلفيّة - القاهرة، الطّبعة الثّالثة.

* المنخول: لأبي حامد الغزالي، طبعة: دار الفكر، دمشق، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٠هـ، تحقيق: د. محمّد حسن هيتو.
* منهاج السّنّة النّبويّة في نقض كلام الشّيعة والقدرية: لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة: مؤسّسة قرطبة، الطَّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ. تحقيق محمّد رشاد سالم.
* منهج الأنبياء في الدّعوة إلى الله فيه الحكمة والعقل: للدكتور ربيع بن هادي، طبعة: الدّار السّلفيّة، الكويت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.
* الموافقات: لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشّاطبي، طبعة: دار الفكر، ١٣٤١هـ.
* الموسوعة الحديثيّة: مسند الإمام أحمد، تحقيق: جماعة من أهل العلم: إشراف: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التّركي، طبعة: وزارة الشّؤون الإسلاميّة والأوقاف والدّعوة والإرشاد بالمملكة العربيّة السّعوديّة، الطَّبعة الثّانية: ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
* الموسوعة الميسّرة في الأديان والمذاهب المعاصرة: النّدوة العالميّة للشباب الإسلامية، المملكة العربية السّعودية، الطَّبعة الثّانية، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
* موسوعة نضرة النّعيم في مكارم أخلاق الرّسول الكريم ﷺ، إعداد مجموعة من المختصيّن، دار الوسيلة، جدّة الطّبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
* الموطأ: للإمام مالك بن أنس، مطبعة: دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، تصحيح وترقيم محمّد فؤاد عبد الباقي.
* موقف المدرسة العقليّة من السّنّة النّبويّة: للباحث، طبعة مكتبة الرّشد، الرّياض، الطَّبعة الأولى: ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
* ميزان الاعتدال في نقد الرّجال: لشمس الدّين محمّد بن أحمد الذَّهبي، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الأولى: ١٩٩٥م، تحقيق: عليّ محمّد معوّض وعادل أحمد عبد الموجود.

(ن)

* النّبوّات: لشيخ الإسلام ابن تيمية، طبعة: المطبعة السّلفيّة، القاهرة، ١٣٨٦هـ.
* نثر الورود على مراقي السّعود: للشّيخ محمّد الأمين بن محمّد المختار الشّنقيطي، ومراقي السّعود، لعبد الله بن إبراهيم العلوي، تحقيق: الدّكتور: محمّد ولد سيدي ولد حبيب الشّنقيطي، دار المنارة للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.
* النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لجمال الدّين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، طبعة: المؤسّسة المصريّة العامّة.

* نزهة الخاطر العاطر: للشّيخ عبد القادر بن أحمد مصطفى بدران، شرح كتاب روضة النّاظر وجنّة المناظر: للّشيخ موفّق الدّين أبي محمّد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، دار الكتب العلميّة، بيروت.
* نزهة النّظر شرح نخبة الفكر: لابن حجر العسقلاني، تعليق وشرح: صلاح محمّد محمّد عويضة، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت.
* النّفاق والزّندقة وأثرهما في مواجهة الدّعوة الإسلاميّة قديماً وحديثاً، رسالة ماجستير، إعداد الطّالب: عطيّة عتيق عبد الله الزّهراني، وإشراف الشّيخ محمّد الغزالي، جامعة الملك عبد العزيز بمكّة المكرّمة، كلّية الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، فرع العقيدة.
* نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب: لأحمد بن محمّد المقري التّلمساني، تحقيق: د. إحسان عبّاس، طبعة: دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.
* نهاية الإقدام في علم الكلام: لعبد الكريم بن أبي بكر بن أحمد الشّهرستاني، حرّره وصحّحه ألفرد جيوم.
* النّهاية في غريب الحديث: للمبارك بن محمّد بن محمّد بن عبد الكريم أبو السّعادات الجزري. تحقيق: طاهر أحمد الزّاوي ومحمود محمّد الطناحي، طبعة: دار الفكر، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، بيروت.
* النّهاية في الفتن والملاحم: لأبي الفداء ابن كثير، تحقيق: محمّد أحمد عبد العزيز، نشر: دار التّراث الإسلامي، الأزهر.
* نوادر الأصول في أحاديث الرّسول: لأبي عبد الله محمّد بن علي بن الحسن الحكيم التّرمذي، تحقيق: عبد الرّحمن عميرة، طبعة: دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٩٩٢م.
* نيل الأوطار من أحاديث سيّد الأخيار شرح منتقى الأخبار: لمحمّد بن علي الشّوكاني، نشر: دار الجيل. بيروت ١٨٧٣م.

(هـ)

* هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنّصارى: لابن القيّم، طبعة: الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنورة.

(و)

* الوابل الصّيّب من الكلم الطّيّب: لابن قيّم الجوزيّة، تحقيق: محمّد عبد الرّحمن عوض، طبعة: دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

* الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، طبعة: دار القلم، الدّار الشّاميّة، دمشق، بيروت، الطّبعة الأولى: ١٤١٥هـ.
* وسطية أهل السّنّة بين الفرق: د. محمّد باكريم محمّد عبد الله، طبعة: دار الرّاية، الرّياض، الطّبعة الأولى: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
* الوصايا في الكتاب والسّنّة: للدكتور علي بن محمّد ناصر الفقيهي، المجموعة الرّابعة الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ، الجامعة الإسلاميّة بالمدينة، مركز شؤون الدّعوة.
* وفيات الأعيان وأنباء الزّمان: لأبي العبّاس شمس الدّين أحمد بن محمّد بن خلّكان، تحقيق: إحسان عبّاس، طبعة: دار الثّقافة، بيروت، ١٩٦٨م.

(ي)

* يا فتاة الإسلام اقرئي حتّى لا تخدعي: لصالح بن إبراهيم البليهي، دار المسلم ـ الرّياض الطّبعة الثّالثة: ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.
* يتيمة الدّهر: لأبي منصور عبد الملك الثّعالبي، تحقيق: د. مفيد محمّد قميحة، طبعة: دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية: ١٩٨٣م.
* يقظة أولى الاعتبار ممّا ورد في ذكر النّار وأصحاب النّار، لصدّيق حسن بن علي القنوجي، تحقيق: أحمد حجازي السّقا، طبعة: مكتبة عاطف ـ دار الأنصار، القاهرة الطّبعة الأولى: ١٣٩٨هـ ـ ١٩٨٧م.
* اليوم الآخر(١) القيامة الصغرى وعلامات القيامة الكبرى: لعمر سليمان الأشقر، طبعة: مكتبة الفلاح، الكويت، الطّبعة الثّانية: ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الباب الثّاني

الثّبات عند الابتلاء

وفيه فصول:

الباب الثّالث
الثّبات في الدّعوة إلى الله تعالى
وفيه فصول:

الباب الرّابع
الثّبات في الجهاد
وفيه فصول:

الباب الخامس
الثّبات على المنهج الحق
وفيه فصول:

الباب السّادس
الثّبات عند الموت
وفيه فصول:

الباب السّابع
الثّبات في القبر
وفيه فصول: